دراسات قرآنية

الإمام الخامنئي

الفكر الإسلامي على ضوء القرآن الكريم

ترجمة: عباس نور الدين





الفكر الإسلامي
على ضوء القرآن الكريم

الفكر الإسلامي على ضوء القرآن الكريم

سلسلة دروس قرآنية للإمام القائد

السيد علي الخامنئي (ده)

ألقاها في مسجد الإمام الحسن المجتبى (ع)
في مشهد في شهر رمضان المبارك
من العام ١٣٥٣ هـ.ش.
الموافق للعام ١٩٧٤ ميلادي

جمع وتنظيم النص
مركز صهبا

ترجمة
السيد عباس نور الدين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-045-6

[٢٠١٥م – ١٤٣٦هـ]



العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز – سنتر يحفوفي – بلوك c - ط ٣
email: almaaref@shurouk.org – تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١



تصميم:



إخراج فني

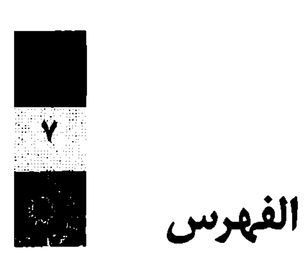
إبراهيم شحوري



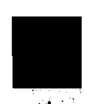



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الآراء والاتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن توجهات **دار المعارف الحكمية** وإن كانت تقع في سياق اهتماماته المعرفية



الفهرس





النبوّة

الولاية



كلمة الناشر

في سياق السعي الحثيث والمستمر لتقديم الثمارات اليانعة للفكر الإسلاميّ الأصيل للقراء، يقدم **دار المعارف الحكمية** هذا الكتاب. فهو بدون شكّ أحد أهمّ الركائز النظرية والمؤسسة لرؤى الفكر الإسلامي الأصيل. والدار إذ يقدم لقرّائه هذا الكتاب، واضعًا إياه في السياق السابق الذكر، فإنّه ينطلق من إدراكه لما لهذا الكتاب من خصائص هامة نجد من الضرورة الإشارة إليها.

فالكتاب - أولًا - يلقي الضوء على النتاج المبكر للإمام الخامنئي دام ظله قبل الثورة الإسلامية المباركة، فيمكننا بالتالي من خلاله التعرف على نصٍ شكل رافدًا من روافد النهوض الإسلاميّ، ويمكن اعتباره بحدِّ ذاته دعامةً من أجل بناء وعيٍ إسلاميّ أصيل، يندمج مع متطلبات الواقع ليؤكد على قدرة الإسلام في إنتاج رؤية متكاملة للحياة.

والإمام من خلال تفسيره للقرآن وطريقة عرضه للأفكار، كان يردّ على نزعة كانت مستشريةً في ذلك الحين، كانت تعتبر الدين مجرد دعوة روحانية بعيدة عن متطلبات الحياة؛ فهو أشبه ما يكون بتجربة روحية-دينية تتجه باتجاه الآخرة، وتقطع العلاقة مع سلوكية الناس وعملها، ليؤكّد أن الدين والرؤية المؤسسة على القرآن الكريم



شاملة وتفصيلية، لم تترك جانبًا من الجوانب الحياتية دون معالجة.

ثم للكتاب ثانيًا خاصية أنه يذهب باتجاه موضوعات عقائدية، ويعالجها بشكل مختلف عن المتعارف عليه والمألوف منه. فكما هو معلوم أنّ الكتب العقائدية أولت الجانب الذهني أهميةً كبرى، وطرحت مقولاتها على أرضية المفاهيم المجرّدة، واهتمت بالإثبات والإجابة عن الشبهات. بينما يعرض الإمام في هذا الكتاب الموضوعات هذه انطلاقًا من عملية بناء المسؤوليّة والالتزام العملي. هذه الخاصية وإن تكاملت مع الأولى، ولكنّها ألقت الضوء على قراءة جديدة للاعتقاد الديني من خلال فاعلية الإنسان المسلم، فالإمام الخامنئي دام ظله لم ينظر إلى الدين من زاوية ذهنية محضة، بل تحوّل معه إلى عملٍ ذي طبيعة إرادية، تسعى إلى تحقيق مقاصد وجوهر الدين بما هو متوجه إلى إنسان يعيش في العالم ويتفاعل معه.

وإن كانت هاتان الخاصيتان وحدهما كافيتان لنشر الكتاب، إلا أنّ ما يميزه قد يكون أكثر عمقًا. فالإمام من خلال معالجته التفسيرية لآيات القرآن الكريم يبني منهجيةً متكاملة، تقوم على أساس جدلية النص والواقع. فيؤكد على ضرورة الارتباط بالنص وعدم الانفكاك عنه، بما هو مصدر التعاليم الإسلامية السامية، ويطلب من الإنسان المؤمن بحقانية هذا النص ديمومة سؤاله ليصل إلى الإجابات الشافية، وهذه هي منهجية يؤكد عليها في أكثر من مناسبة، ويدعو من خلالها إلى إعادة قراءة العلوم الإنسانية على أساسها.

يُضاف إلى ذلك كلّه أنّ الإمام، من خلال هذا الكتاب، يشرح

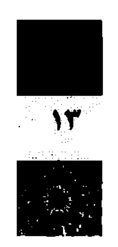


المشاكل التي تمرّ بها الإنسانية والنابعة من الخلفية المادية التي اعتمد عليها المجتمع في بناء حضارته المعاصرة، وهو في هذا الموضع يضع الإصبع على الجرح من خلال تأكيده على البعد الإيماني وأهميته في بناء علاقة الإنسان بالعالم، فهذا الكائن لن يستطيع أن يصل إلى حقيقة وجوده بمعزل عن اللّه عزّ وجلّ.

فقد يجوز منا القول إن هذا الكتاب استثنائي بكلّ ما للكلمة من معنى، فهو يعود بنا إلى زمن الثورة الإسلامية، ويضع أمامنا مثالًا لنصوص أشعلت الوعي بفاعلية الإسلام وقدرته على الاستجابة لمتطلبات العصر، كما أنّه يعيد ربط العقيدة بالواقع والحياة.

ودار المعارف الحكمية إذ يضعه بين أيدي القراء، فإنّه يستهدف منه من استهدفهم الإمام بشكل أساسي في دروسه، وهم الشباب. هؤلاء الذين رأوا الدولة الإسلامية، ولكنّهم لم يتعرفوا على النبض الذي بثّ فيها، وكان الحافز لقيامها.

ولا يفوتنا في ختام هذه الكلمة شكر الإخوة القيّمين على **مركز صهبا** في الجمهورية الإسلامية في إيران، الذين بذلوا في تجميع المادة وتحريرها جهدًا مباركًا يشكرون عليه؛ كما والإخوة في **معهد المعارف الحكمية** الذين تحملوا عناء الإشراف على ترجمة النص وتحريره باللغة العربية ليتيسّر تقديمه لقراء اللغة العربية، كما والمترجم الأخ السيد عباس نور الدين، وفقهم اللّه جميعًا لكل خير.



كلمة مركز صهبا

ها قد مرّت أربعون سنة، أربعون سنة ...

كان بيننا كنزٌ عظيمٌ ونادرٌ، لكنّنا كنّا غافلين عنه ومحرومين من بركاته؛ كنزٌ ساطعٌ من بحر القرآن الحكيم الصافي؛ كنزٌ نورانيٌ من سنخ كتاب النور، كان الكنز لمدّة أربعين سنةٍ مستورًا، وكان غيابه يُعذّب كلّ المشتاقين التائقين إلى معارف القرآن وأهل البيت؛ كنزٌ لا نظير له ولا مثيل يُسمّى «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»[1].

***

الأيّام هي أيّام أواخر صيف عام ١٣٥٣ش، وإمام الجماعة في مسجد الإمام الحسن المجتبى، الصغير والذي لم يكن قد انتهى بناؤه بعد، والواقع في آخر سوق سرشور المشهدي، يخطّط لبرنامجٍ جديد لهذا

(١) لا بد من الإشارة إلى أن الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب هي «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»، ولكننا استنسبنا عنونة الكتاب بـ«الفكر الإسلامي على ضوء القرآن الكريم» لاعتبارات علمية تراعي واقع لغتنا العربية.



المسجد مع شروع شهر رمضان؛ إنه السيّد علي الخامنئي ذو الـ٣٥ سنة بهامته الشامخة، وعينيه النافذتين قرّر أن يقف خلف المنبر، ويتحدّث لمدّة ساعةٍ واحدةٍ بعد صلاة الظهر والعصر، كلّ يومٍ من أيّام شهر رمضان، والقرآن بيده، وحرارة الخطاب تشتدّ، فالموضوع هو الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن.

ومع بداية هذه الجلسات تبدأ مدينة مشهد وكأنها تفور. ففي آخر أيّام الصيف وعند صلاة الظهر، حيث تخلو المدينة تقريبًا والناس ينصرفون إلى وقت الراحة، هناك في زاويةٍ من هذه المدينة كان يحدث نوعٌ من التلاطم العجيب، فالناس رجالًا ونساءً، شيوخًا وشبابًا، يتحرّكون نحو هذا المسجد الصغير من كل حدبٍ وصوب في أرجاء المدينة وفي ذلك الحرّ القائظ، بشفاهٍ ذابلة، وألسنٍ عطشى، يحملهم الشوق إلى هذه المائدة الغنية بالمعارف التي كان يقدّمها لهم هذا السيّد الشابّ في أفضل أيّام السنة في شهر رمضان علّها تروي عطشهم وتسدّ جوعهم إلى المعارف التي تحيي الإنسان.

ومع كلّ يوم يزداد عدد المستمعين إلى هذا العالِم حتّى وصل الأمر إلى أنّه لم يعد هناك مكانٌ في باحة المسجد الكبرى خلف البناء، وإذا تطلّعت إلى الحضور لوجدت كلّ أنواع الشرائح متحلّقين حول هذا المصباح المضيء: من الطلّاب والتلامذة، والتجّار، وأهل المحلّة، وأكثرهم من الشباب.

وفي مجلس السيّد عليّ الخامنئي، كلّ شيءٍ جديد. وقبل بدء الدرس تُوزّع الأوراق المصوّرة على الجميع، والتي فيها مختصر درس اليوم، ولا يجلس الخطيب بحسب العادة على المنبر، بل يقف وراءه؛





ويحدّث الناس كلّ يومٍ بلغةٍ معاصرةٍ لمدّةٍ تتجاوز الساعة، وحرارة الكلام تفوق حرارة الصيف. ثمّ بعد انتهاء الدرس، يجلس قارئ القرآن في مكانه المخصّص له على المنبر ويقرأ الآيات المفسّرة في ذلك الدرس بصوتٍ رخيم. فالخطابة في هذا المسجد تصبح يومًا بعد يوم أقرب إلى الدرس التعليمي منها إلى الخطابة المعتادة.

أمّا الأيّام، فهي أيّام القمع والاستبداد والدكتاتوريّة من قِبل النظام البهلوي، هي سنوات التعذيب والقتل تحت التعذيب. في تلك السنوات المظلمة - في الوقت الذي كان فيه الإمام الخميني مبعدًا - لم يكن هناك إمكانيّة في أيّ محفلٍ ديني للتطرّق ولو بأدنى إشارة إلى القضايا الحسّاسة المرتبطة بنظام الطاغوت، فالمخابرات الملكيّة في أوج قدرتها، وهي تبثّ العيون في كلّ مكان، وقراءة الآيات المرتبطة بالجهاد والنضال تُعدّ جرمًا، وإذا تعرّض الخطيب ولو بآيةٍ قرآنية إلى ذكر بني إسرائيل أو أشار إلى إسرائيل فإنّ مجلسه يُعطّل ويُلقى به في السجن؛ ورغم كلّ ذلك، كان ذاك الشاب الروحاني الذي يؤمّ مسجد الإمام الحسن، كأنّه شيخ النضال. لقد استطاع هذا التلميذ النجيب لمدرسة الإمام الرضا أن يعرف كيف يتحدّث ويدير الكلام بحيث لا يقع فريسة ذئاب السافاك (المخابرات الإيرانيّة في ذاك الوقت) المفترسة. فقد كان يجد لنفسه معبرًا بمنتهى الكياسة والدراية من أجل إيصال نور كلام اللّه، إلى تلك الأمّة التي أُبعدت عن القرآن. لقد كان السيّد الخامنئي يعرض تلك العقائد الإسلامية بدقّةٍ وحنكةٍ عالية، ويبيّنها من خلال القرآن الكريم بحيث بدأ الناس يفكّرون بإقامة ذلك المجتمع الإسلامي بالإضافة إلى تجديد عقائدهم على أساس المعارف القرآنية! لقد بدأ هذا السيّد الشابّ أبحاثه من





الإيمان ووصل إلى التّوحيد، ثمّ توقّف بعد ذلك عند النبوّة ووصل إلى الولاية، ومع نهاية ذلك الشهر المبارك، وصلت هذه الدورة العقائديّة الأصيلة والتي لا نظير لها إلى نهايتها. وقد استطاع هذا السيّد الشابّ أيضًا أن يزرع بذور الإيمان الواعي من تلك الدروس في قلوب شباب مشهد وأرواحهم، وأوجد بينهم وبين القرآن صلحًا جديدًا، وأخرج هذا الكتاب العزيز من غربة علب الزفاف ومجالس العزاء ليضعه أمام عقول الشباب النيّرة المتفتّحة.

وكانت السنون تمرّ والأفكار المنحرفة عن الدين تحرف الناس عن القرآن وتبعدهم عنه تحت حججٍ ومعاذير مختلفة، وتقول لهم أنّ فهم القرآن ليس عمل الناس العاديين، وأنّ على الإنسان أن يقرأ القرآن من أجل الثواب والأجر فقط، وكان هذا الكلام موضع ترحيب تلك الحكومات التي مرّت على البلاد، لكنّ السيّد علي الخامنئي كشف عن هذه الدسائس والمؤامرات وبيّن انحراف الأذهان؛ لقد كان هو بنفسه ممّن حقّق في نفسه ذلك الانجذاب إلى القرآن، فكان عاشقًا لكتاب اللّه، يفتدي القرآن بروحه، وقد عقد العزم على أن يُخرج القرآن من الهجران، لوحده وبهامته الرفيعة، بذلك الكلام الدافئ والبليغ كان يحمل القرآن ويقف خلف المنبر، ويجعل كلّ وجوده في سبيل هذه الكلمات الإلهيّة. لقد أراد أن يحيي الفكر الإسلامي الأصيل ويجدّد حياته من قلب المنبع الإلهي الأصيل، ويجعل هذا المنبع متوفّرًا لقلوب الناس وسلوكهم. وكان يصرخ بوجه الطواغيت الذين عزموا على إطفاء نور هذه المعجزة الأبديّة وحبسها في ذلك التجليد ويقول: «واأسفاه على حال أولئك الذين تبعدهم عن القرآن وتصدّهم عنه لأسبابٍ وأعذار مختلفة ولا تترك الناس يفتحون القرآن من أجل أن يفهموا! واأسفاه على حالهم!



وأنتم أيّها الإخوة والأخوات عليكم أن تعلموا أنّ شغلنا اليوم مع القرآن مثلما قال رسول اللّه: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»، فمتى هو ذاك اليوم؟ ألا ترون الفتن المظلمة كقطع الليل؟ ألا تشاهدون الطرق البديلة التي تُعرض أمام الأعين العمياء والأعين القاصرة؟ ألا ترون قطّاع الطرق من كلّ جانب وبأشكالٍ مختلفة بأعينكم الباصرة؟ إذن متى يحين الوقت ويأتي الزمان الذي نرجع فيه إلى القرآن؟ وإلى متى؟ إلى حين أن يأتي إمام الزمان صلوات اللّه عليه؟ وهو القرآن الناطق؟ إنّ اليوم هو يوم الرجوع إلى القرآن».

وفي النهاية، وبعد مرور عدّة أشهر على انتهاء هذه الدروس وبتبع دروس شرح نهج البلاغة يتمّ اعتقال السيّد عليّ ويُرسل إلى عاصمة الظلم، وهناك يُرسل إلى أشدّ أماكن التعذيب رعبًا في العالم: اللجنة المشتركة لمكافحة التخريب.

***

ها قد مرّت أربعون سنة على ذلك الشهر الذي لا يُنسى؛ وقد بقيت هذه الينابيع الرائعة للمعارف القرآنية طيلة هذه السنوات الأربعين محفوظةً في صدور بضعة آلاف مستمع مشهدي، وبقي كلّ العُطاشى محرومين منها. أربعون سنة لم يبقَ من تلك المعارف القرآنية الأصيلة سوى الخبر وتلك العلامة التي تجعلنا نثق بوجودها وهي الكتيّب المعنون بالأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن. أجل لقد مرّت أربعون سنة وذهبت الفرصة، لكن جاء وجوب سجدة الشكر في النهاية بعد مرور كلّ هذه السنوات وحان الوقت لنفض الغبار عن هذا الكنز والجوهرة النورانيّة وللّه الحمد. ولم





تضف هذه السنوات الأربعون على وقار وجمال هذا الكنز سوى النضارة والحيويّة التي تترشّح من كلّ كلمةٍ من كلماته. وها نحن نفتح الأحضان لهذا الضيف العزيز الذي انتظرناه أربعين سنة؛ إنّه كنز الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن الذي يخرج من قلب تلك السنوات المظلمة والسحيقة والمليئة بالقمع من أجل أن يكون في متناول أيدينا اليوم وغدًا وبعد غد، ويبقى حتّى يملأ القلوب بنوره.. واأسفاه على تلك السنوات التي مضت.

كتيّب الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن

إنّ «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»، هو الأثر الخامس المكتوب لحضرة آية اللّه الخامنئي قبل الثورة، والذي طُبع عام ١٣٥٤ بصورة كتيب صغير؛ وهذا الكُتيّب هو مجموع تلك الأوراق التي كانت تُصوّر وتُوزّع في جلسات شهر رمضان لعام ١٣٥٣، بالإضافة إلى تلك المقدّمة التي كتبها السيّد المعظّم قبل طباعته. وتلك المقدّمة كانت تشير إلى ضرورة وأهميّة عرض الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي المبنيّة على القرآن، وهي توضّح لكلّ قارئ، الثمار المرجوّة من طرح هذا الموضوع. لكن، بعد أن يقرأ الإنسان هذه المقدّمة ثمّ يرجع إلى المحتوى، يبقى محتارًا ويتساءل إذا كانت هذه المقدّمة للكتاب الموجود بين يديه، فهل أنّ هذا الأفق الواسع الممتدّ هو لهذا الكتيّب المختصر؟! والملفت أنّ هذا الكتيّب رغم اختصاره ووجازته فقد بيّن هذه الأبعاد الفرديّة والاجتماعية للدّين جنبًا إلى جنب، وقدّم استنباطًا جديدًا وبديعًا للقرآن، ولا يبدو أنّه كُتب قبل أربعين سنةٍ. فطريقة الرجوع إلى الآيات كانت تختلف كثيرًا مع العرف السائد في كتابات ذلك الزمان، وبدل الاعتماد



على آيةٍ واحدةٍ كان يختار مجموعة من الآيات؛ فقد كان الكتيّب عظيم المحتوى رغم ظاهره المختصر.

وكلّ قارئٍ تعرّف على ذاك المختصر وشرب منه جرعةً، ازداد عطشه إلى المنبع، فإذا كان هذا هو مختصر الدروس، فكيف كانت تلك الدروس؟ فما كان يصوّره هذا الكتيّب الصّغير عن ذاك الكنز المخفي يبعث على الحسرة والحرمان، وكان هذا العطش يزداد كلما كنا نسمع عن أهميّة تلك الدروس بالنسبة للسيّد نفسه:

«لقد قدّمت ذات يوم في مدينة مشهد بحثًا حول الولاية وقدّمت فيه تصوّرًا جديدًا حول قضيّة الولاية ومعناها، كان الوقت شهر رمضان وكان حديثنا مع الشباب حول التوحيد والنبوّة وغيرها ومن ضمنها الولاية، كان بحثًا قرآنيًا مميّزًا وكاملًا وبعدها طُبع، فقد طُبعت خلاصته في مكانٍ ما، ثمّ بعد الثورة جاؤوا بالدروس الأساسية فرّغوها وطبعوها؛ كانت أبحاثًا جيّدة وجميلة؛ وأنا الآن عندما أنظر فيها أرى أنّها كانت أبحاثًا عميقة». [١٣٦٧هـ].

وفي الواقع، إنّ ما طُبع بعد الثورة كان عبارة عن ستّ جلسات من الثمان وعشرين جلسة والتي تشكّل مجموع الدروس، وطُبعت هذه الجلسات الستّ في كرّاسٍ تحت عنوان الولاية من قبل حزب الجمهوريّة الإسلامية عام ١٣٦٠ ش. ولم تعد موجودةً في متناول الأيدي اليوم.

لقد أصبحنا في حيرةٍ وترقّب ونحن نقلّب صفحات ذلك الكتيّب، وكنّا نريد أن نجد الأصل بأيّ شكلٍ، هناك تعلّقنا بذيل حضرة عليّ بن موسى الرّضا، ذاك الإمام الذي كان شاهدًا على تلك الجلسات، والذي كان التوفيق في تلك الأيّام من مدده

للخطيب والمستمعين؛ لقد كنّا نعلم أنّه إذا كان من خبرٍ فينبغي أن تتلمّسه من مشهد.



كيف وصلت صهباء إلى أشرطة التسجيل؟

مرّت أيّامٌ طويلة والأمل يحدونا بالوصول إلى تلك الدروس وأصبحت أمنيةً تملأ قلوبنا بالدعاء، إلى أن شاهدنا مقابلةً مع السيّد سادات فاطمي، حول نشاطاته القرآنية قبل الثورة، وحول مركز توزيع الأشرطة الذي كان يديره في شارع سناباد، لقد كان هذا السيّد من قرّاء القرآن والأساتذة المميّزين في البلد، والذي كان قبل الثورة من أصحاب مقام القيادة المعظّم والمقرّبين والموثوقين عنده، مثلما بقي بعد الثورة أيضًا.

أشار السيّد سادات فاطمي في تلك المقابلة إلى الدور الإحيائي للقائد المعظّم فيما يتعلّق بالقرآن. وبالطّبع، كلّ من كان يريد أن يتحدّث عن القرآن وعن الأنشطة القرآنية لتلك المرحلة فقد كان ينتهي في حديثه إلى السيّد عليّ ودروسه، وفي مقابلته وصل إلى الحديث عن دروس الأطروحة العامّة وكيف أنّه كان المسؤول عن تسجيل الدروس. فلم نكذّب خبرًا واتّجهنا مباشرةً إلى مدينة مشهد، وما كان عندنا من عنوانٍ سوى مسجد الإمام الحسن المجتبى ومسجد الكرامة، فذهبنا إلى المسجد أثناء الصلاة، وبدأنا نسأل كبار السنّ والشيوخ هناك، وبحثنا عن السيّد سادات فاطمي، وبحثنا عن المساجد الأخرى، وكنّا ننتقل من مسجدٍ إلى مسجد، وهناك التفتنا إلى أنّه ينبغي أن نسعى نحو السيّد مرتضى لا السيّد جواد، فبحثنا وبحثنا حتّى وصلنا إلى محلّ عمل، أو لنقل مركز تعليم القرآن الذي يديره السيّد فاطمي.



فحدّثناه عن تلك المقابلة وذكرنا له ما أشار إليه حول دروس الأطروحة العامّة، فقال لنا أنّ كلّ الدروس قد سُجّلت وأنّ كتاب الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي قد طُبع، ويمكننا أن نصل إلى محتوى الدروس من ذاك الكتاب؛ وعندما قلنا له أنّ ذاك الكتاب لم يكن سوى تلك الأوراق المصوّرة وليس محتوى الدروس، دُهش وتأسّف! فلم يكن يتصوّر أبدًا أن تمرّ أكثر من أربعين سنة على تلك الأيّام والناس لا يعرفون عن محتوى تلك الدروس شيئًا. فسألناه إن كان قد احتفظ بتلك الأشرطة أم لا، فردّ بالإيجاب، لكنّ تلك الأشرطة قد ذهبت إلى المراكز الأساسية لحفظ الوثائق المتعلّقة بالقائد، ولم يعد هناك سوى نسخةٍ واحدةٍ من أشرطة تلك الجلسات.

ولم يتردّد السيّد فاطمي أبدًا من أن يضع تلك الأشرطة بين أيدينا، ونحن إلى حدّ الآن لم نتمكّن من شكره كما ينبغي؛ لقد كان يقوم الآن بذاك العمل وبكلّ تواضع، العمل الذي كان يقوم به قبل أربعين سنة، وهو عبارة عن نشر وتوزيع الأشرطة لكلّ من يرغب. وكأنّه بعد كل تلك السنوات، يأتيه شخصٌ ليطلب منه أشرطة السيّد الخامنئي، فيقدمها له ذلك كما كان يفعل في تلك السنوات قبل انتصار الثورة؛ حفظ اللّه وجوده النوراني والقرآني.

قيمة الكتاب وموقعيّته

كلّ من اطّلع على كتيّب الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن، يدرك بدرجةٍ ما أهميّة الكتاب وموقعيّته. ومع كلّ قراءةٍ وتجديد نظر يدرك القارئ أهميّة المحتوى الذي يقدّمه هذا الكتاب.

ولا بأس لأنّ نتعرّض ها هنا وباختصار لأهم خصائص هذا





الكتاب، عسى أن يلتفت القارئ العزيز إلى أهميّة نشره ومطالعته، حتّى يولي هذه المطالعة الوقت المناسب والكافي ويمعن النظر في معانيه أكثر.

إنّ هذا الكتاب يُعدّ كتابًا فريدًا على صعيد بيان الفكر الإسلامي بصورةٍ صحيحةٍ وشاملة. ولهذا الكتاب، امتيازٌ خاصّ يميّزه عن العديد من الكتب التي أُلّفت تحت عنوان «الفكر الإسلامي» أو «أصول العقائد»؛ فأكثر تلك الكتب تولي الأصول الاعتقاديّة للدّين البعد الذهني وتطرحها كمفاهيم مجرّدة وتهتم بالإثبات والإجابة عن الشبهات، بينما يعرض كتاب «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»، المباحث الأساسية للدّين انطلاقًا من عملية بناء المسؤوليّة والالتزام العملي. فلقد عُرضت، في هذا الكتاب، الأصول الأساسية للعقائد الدينية انطلاقًا من الآيات القرآنية، بطريقةٍ تخرجها عن مستوى المفاهيم الذهنيّة وتمنحها صبغةً عمليّةً. بناءً عليه، فإنّ الميزة الأولى لهذا الكتاب هو أنّه ليس من سنخ الكتابات الكلاميّة التي تدور حول الإثبات والنفي، بل إنّه ينطلق من القرآن الكريم لعرض الفكر الإسلامي ويركّز على بيان المسائل الأساسية للدّين، والتي يشكّل الوعي بها أساسًا لسعادة الإنسان.

والخاصّيّة الثانية لهذا الكتاب هو أنّه يصلح في بيانه ليكون عالميًّا. فلا ينحصر فهمه بالمسلم، بل يمكن لأيّ شخصٍ كان، حتّى لو لم يكن موحّدًا، أن يستوعب أفكاره؛ ومهما كانت عقيدة الإنسان وفكره فإنّه يستطيع أن يدرك محتويات هذا الكتاب؛ لأنّ الأسلوب الذي اعتمده هذا الكتاب في عرضه هو الأسلوب المنطقي البعيد عن أيّ نوعٍ من التعصّب، والذي يتقبّله أيّ صاحب عقلٍ سليم.

والخاصّيّة الثالثة لهذا الكتاب هو أنّه يقدّم تعريفًا جديدًا

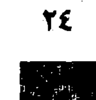


للدّين، وهو لذلك لا يقدّمه كمجموعةٍ منفصلة من الأصول الفكريّة والعمليّة، بل يجمع بينهما بصورةٍ متّحدةٍ ووفق نظامٍ خاصّ.

إنّ هذا الكتاب يمثّل وثيقةً لإنجازات حضرة آية اللّه الخامنئي في مجال إحياء الفكر الإسلامي، هذا الفكر الذي كانت قد مرّت عليه السنون فبهُت لونه بسبب بعده عن القرآن والعترة، وأضحت بسبب ذلك تلك المفاهيم الدينية خاليةً من معانيها الحقيقية، لم يبقَ منها سوى القشر والغلاف؛ ولم يعد الدين ذلك النظام والمنهج الجامع، وأضحت المعارف القرآنية منحصرةً في مجال العمل الفردي؛ ولم يعد الحديث عن الأصول الاعتقاديّة رغم كلّ التشّعبات والدقائق المختلفة الموجودة فيه، أبعد من حدود الذهن؛ هذا وإن كان هناك إنجازات وإسهامات مهمّة لبعض المفكّرين الإسلاميين والتي وجّهت الأنظار مجدّدًا إلى الإسلام ومفاهيمه العميقة؛ ولكنّ ما كان ناقصًا أو قليلًا هو الأطروحة الشاملة للدّين، هذه الأطروحة التي لا تختصر الدين في المجال الفردي، بل تمتدّ به إلى الأبعاد التطبيقيّة والعمليّة، مثلما أنّها تتناول الضروريات والأصول الدينية وارتباطها فيما بينها، وكذلك تبحث في تأثير الدين على مصير المجتمعات وقدرته على تعبئة الفراغ الفكري للمسلمين أمام هجمات المذاهب الفارغة والجُزافيّة، وتؤمّن المجال لنفوذ الإسلام في المجتمعات وبين الأحرار من المفكّرين.

لا شكّ أنّ الإمام الخميني (ره) هو من أحيى الإسلام في هذا العصر؛ فمع بداية نهضة الإمام، عاد اسم الإسلام مجدّدًا لينتشر على الألسن وينفذ في القلوب ويحييها. فبعد نفي الإمام شكّل هذا العطش والشوق الذي أوجده الإمام فرصةً مهمّةً لتلامذته المجاهدين كي يبدؤوا عملًا عميقًا على صعيد الفكر والإيمان،





ومن أجل إشادة البنية التحتيّة المحكمة للفكر الإسلامي المحمّدي الأصيل.

لم يكن عرض مثل هذه الأطروحة ميسّرًا إلّا للمفكّر الواعي والمسؤول والعارف بالمفاهيم القرآنية والمطّلع على مقاصد الدين وأهدافه. ولقد شعر حضرة آية اللّه الخامنئي بهذا الفراغ، وبحاجة هذا المجتمع، ومن خلال الإشراف على آثار العلماء المسلمين واللقاءات المستمرّة بعلماء زمانه العارفين بشؤون العصر كالشهيد المطهّري، وبالتسلّط على القرآن والتمسّك به بدأ بعرض أبحاث «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن» في شهر رمضان، وقد كانت هذه الأبحاث بابًا للدّخول في نطاق الفكر الإسلامي بما قدّمته من أطروحةٍ جامعةٍ للفكر التوحيدي، آخذةً بعين الاعتبار القضايا المختلفة للحياة البشريّة، ومثّلت هذه المسألة الخاصّيّة الرابعة لهذا الكتاب.

الخاصّيّة الخامسة للكتاب، هي التطرّق للنّظرة الجديدة والبديعة للمفاهيم الدينية؛ هذا وإن كانت الكلمات كلمات يعرفها المستمعون ويدركونها، لكنّ كلام هذا السيّد كان يبثّ فيها روحًا جديدة. فنظرته إلى المفاهيم الدينية كانت تمنحها أبعادًا جديدة، وكانت تتعرّض بسبب ذلك إلى الانتقاد في ذلك الزمان: «لقد أثار البعض في مدينة مشهد الضجيج ضدّي، لماذا؟ لأنّني تحدّثت حول قضيّة الولاية. في حين أنّ هذا لم يكن إنكارًا لتلك الولاية التي يقولون بها، فهم كانوا يقولون أنّ الولاية هي المحبّة. حسنٌ، نحن نقبل بمحبّة الأئمّة، والولاية تعني إمامة عليٍّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نحن نقبل بذلك، لكنّنا اكتشفنا أمورًا أخرى حول الولاية بالإضافة إلى هذه الأمور. لقد جمعت الآيات القرآنية المرتبطة بالولاية. تلك الآيات



التي استُعملت فيها كلمة الولاية، ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ [الكهف، ٤٤] مثلًا، وغيرها من الآيات، وقدّمت استنباطًا جديدًا من كلمة «الولاية» في هذه الآيات؛ حسنٌ، كان ينبغي أن يتمّ تقدير هذا الأمر. فلو أنّ شخصًا في عالم الطب، على سبيل المثال، قدّم أطروحةً جديدةً حول الحصبة تضيف شيئًا جديدًا على معلوماتنا السابقة، فكيف سيتعاملون معه؟ لا شكّ بأنّهم سيحترمونه ويقدّرونه ويشكرونه. لكنّنا إذا قدّمنا شيئًا جديدًا أو استنباطًا جديدًا في قضيّةٍ ما من القضايا الدينية، ولو لم تكن تخطّئ ما كان في السابق، فإنّ البعض سينبرون للمخالفة والاعتراض، وما زالت هذه الحالة موجودة إلى يومنا هذا عند البعض». ١٣٦٧ هـ.ش.

الخاصيّة السادسة لهذا الكتاب، هي انطباق مباحثه مع السيرة السياسية النضاليّة للأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإقامة الحكومة الإسلامية. فرؤيته حول حياة الأئمّة - والتي تمّ جمعها في كتابٍ طُبع تحت عنوان «إنسان بعمر ٢٥٠ سنة» - كانت سببًا لأن يتوجّه سماحته في مجال النضال إلى ثلاث نقاط على نحوٍ دائم: الأوّل، عرض الإسلام بشكلٍ صحيح؛ والثاني الحديث عن المجتمع الإسلامي والحكومة العلويّة، والثالث، الحديث عن حاكم المجتمع الإسلامي وتوجيه الناس إلى مصداقه الحالي. وقد كان هذا الكتاب أنموذجًا في أسلوبه في النضال المحنّك في تلك الأيّام السوداء. (في النظام السابق وعندما كانت تشتد علينا الأمور وتصعب، وكنت أخطب في مسجد الكرامة أو في مسجد الإمام الحسن في مدينة مشهد، فكّرت في الأمر الذي سيكون التعرّف عليه أمرًا مضرًّا جدًّا للنّظام، ولذلك وبدون أن أشير أدنى إشارة إلى هذا النظام، قمت بعرضه؛ ولم أتعرّض أبدًا في زاويةٍ أو كنايةٍ إلى النظام نفسه. فافرضوا مثلًا





أنّنا في ذلك الوقت قلنا الحكومة العلويّة، فلو كنّا قلنا الحكومة الإسلامية كانوا ليتحسّسوا ويستنفروا، لذا كنّا نقول النظام العلوي أو الحكومة العلويّة. وقد كان كلامي في ذلك الوقت مليئًا بهذا النوع من التعابير. وكأنّنا نضع المنشار تحت جذور ذلك النظام حتّى نقتلعه، لكنّ النظام بأجهزته لم يكن ليلتفت لذلك لأنّنا لم نكن نتعرّض إلى جذعه أبدًا. ١٣٧١.

الخاصّيّة السابعة لهذا الكتاب هو توجّهه الخاصّ إلى العلّة الأساسية للمجتمعات البشريّة والمسلمة: أي ضعف الإيمان. فمن خلال غوره في آيات القرآن العديدة، استطاع أن يعرّف حقيقة الإيمان للمستمعين وبيّن لهم أنّه لو تمّ التعرّف إلى هذا الاعتقاد الواعي والمسؤول فإنّه سيكون مثل الروح التي تنبثّ في الجسم وتسري فيه وتحرّكه وتجعل العقائد حاضرةً في ساحات الحياة والمجتمعات البشريّة، وهكذا يقوم هذا الإيمان بصناعة الإنسان وبناء المجتمع.

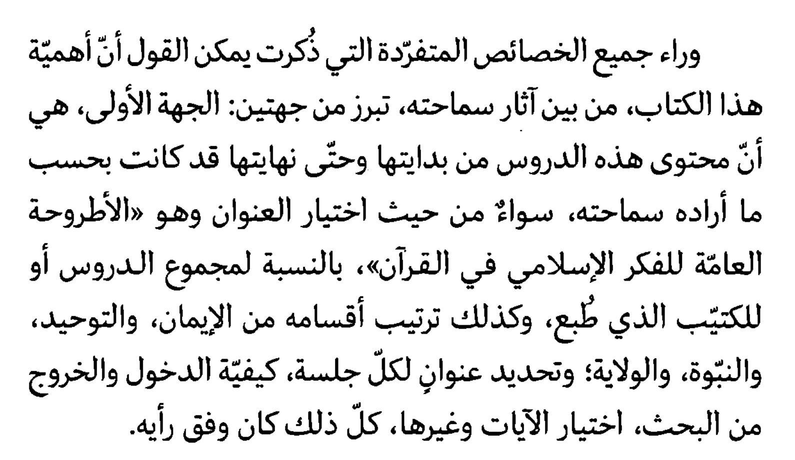
الخاصّيّة الثامنة للكتاب، هو دعوته التّوحيديّة على مستوى الأمّة الإسلامية، فقد كان السيّد المعظّم في ذلك الزمان وبالبصيرة الفائقة التي كان يتمتّع بها يدرك جيّدًا الأيادي الاستعماريّة الخفيّة التي تسعى لإيجاد الاختلاف بين الأمّة الإسلامية، لهذا كان يسعى لبيان الأصول الأساسية للعقائد الإسلامية، كالتوحيد وما فيه من دقائق وأبعاد، من أجل تحقيق الأرضيّة المناسبة لوحدة الأمّة الإسلامية مقابل طواغيت الزمان.

ولقد كان سعيه المتواصل من أجل تعليم كيفيّة التدبّر والتعمّق في القرآن الخاصّيّة التاسعة لهذا الكتاب، فقد كان



يختار مجموعةً من الآيات القرآنية من أجل بناء بحثه. وأثناء ترجمة الآيات للمستمعين كان يحثّهم على اكتشاف الروابط الموجودة بين الآيات القرآنية. فأثناء الترجمة والشرح، كان يسير خطوةً خطوةً مع المستمعين ويدعوهم للتأمّل وكشف تلك الروابط القرآنية. وبهذه الطريقة كان يوجد ذلك الاستنباط الجديد والاستنتاج الواعي حول الآيات القرآنية.

والخاصّيّة العاشرة للكتاب هي توجّه حضرة الإمام الخامنئي الخاصّ وعنايته بالشباب. فما يظهر من خطبه في هذه السلسلة من الدروس هو أنّه كان يرى أنّ المخاطب الأساسي فيها هو شريحة الشباب. «إنّني عندما أنظر إليكم أيّها الشباب الأعزّاء من الجامعات، أستحضر مباشرةً مسجد الكرامة، ومسجد الإمام الحسن المجتبى، فكان هناك أمثالكم - قبل ٣٥ سنة - يجلسون ويستمعون إلى دروس تفسير القرآن وتفسير نهج البلاغة ومباني النهضة الإسلامية، فتجري المباحثات والمناقشات وتُدوّن وتُنقل، وكنّا أيضًا ننال نصيبنا من الضرب، فلم يكن الجهاز الطاغوتي المتجبّر في ذلك الزمن يتحمّل أن يجلس طالبٌ حوزوي مع مجموعة من الشباب الجامعيّين ليحدّثهم عن الدين، خصوصًا أنّ محفلنا الجامعي في ذلك اليوم كان محفلًا حميميًّا؛ وكان يغصّ بالشباب وبالطبع إنّ هذه الاجتماعات التي تشاهدونها اليوم بعد الثورة ما كانت لتحدث قبل الثورة في أيّ مكانٍ أو في أيّة مناسبة، لكنّها بالنسبة للقاءات واجتماعات تلك الأيّام لم يكن هناك اجتماعٌ لعلّه على صعيد البلد كلّه، يجتمع فيه طلّاب الجامعات بهذا المستوى والعدد كما كان يحصل في مسجد الإمام الحسن ومسجد الكرامة الذي كنت أنا العبد أطرح فيه دروس التفسير على الجامعيّين.[١٣٨٦].



وراء جميع الخصائص المتفرّدة التي ذُكرت يمكن القول أنّ أهميّة هذا الكتاب، من بين آثار سماحته، تبرز من جهتين: الجهة الأولى، هي أنّ محتوى هذه الدروس من بدايتها وحتّى نهايتها قد كانت بحسب ما أراده سماحته، سواءٌ من حيث اختيار العنوان وهو «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»، بالنسبة لمجموع الدروس أو للكتيّب الذي طُبع، وكذلك ترتيب أقسامه من الإيمان، والتوحيد، والنبّوة، والولاية؛ وتحديد عنوانٍ لكلّ جلسة، كيفيّة الدخول والخروج من البحث، اختيار الآيات وغيرها، كلّ ذلك كان وفق رأيه.

الجهة الثانية، هي أنّه يمكن القول أنّه لم يكن هناك من بحثٍ ضروري ومهمّ إلّا وأشير إليه في هذه المجموعة من الدروس، والأهم من ذلك هي أنّ هذه الدروس هي في الحقيقة تعبير عن النظام الفكري لسماحته، فخلال هذه الجلسات تمّ تبيّين أسس نظامه الفكري المستنبط من الآيات القرآنية وسيرة الأئمّة. ويمكن أن يتبيّن هذا الأمر أكثر عندما ننظر بدقّة إلى كلماته وتوجّهاته التي برزت في هذه السنوات، فلا يوجد من خطٍّ عامٍّ وأساسي إلّا وقد تمّ رسم أبعاده في هذا النظام، حتّى الآيات التي طُرحت في هذه السلسلة من الدروس هي من الآيات التي غالبًا ما يكرّرها في خطبه وبياناته، لهذا يمكن للقارئ بمطالعة هذا الكتاب أن يخطو خطوةً مهمّة نحو التعرّف إلى النظام الفكري لسماحة القائد.

«ذهبت قبل عدّة سنوات إلى مشهد، وهناك قدّم لي أحد زملائي القديمين - الذي كان مشاركًا لنا في أبحاثنا الخاصّة والعامّة كثيرًا، والآن نراه كثيرًا أيضًا، وقال لي أرجو منك أن تستمع إلى هذا الشريط عندما تكون في السيّارة؛ فقلت له: حسنٌ جدًّا؛ وضعت الشريط وإذا بي أسمع مقتطفات من خطاباتي وكلماتي



طيلة السنوات الطويلة وفيها التصوّر المستقبلي والوعد بالمستقبل وتناول الحكومة العلويّة، وكأنّه كان يريد أن يسألني هل أنّني ما زلت على هذا الخطّ الذي رسمته سابقًا. بالتأكيد، كما نقول نحن، فإن إشكاله غير وارد، فقد رأيته بعدها وقلت له إنّ إشكالك هذا ليس واردًا، فإذا كنت أريد الآن أن أتحدث في ذاك المقام فإنّني سوف أذكر تلك الكلمات نفسها وكلامي لم يتغيّر. أنا العبد، كان لي ذات شهر رمضان وفي مسجد الإمام الحسن في مدينة مشهد دروسٌ متتالية لمدّة ثلاثين يومًا، وفي تلك الأيّام ما كان يُعتنى كثيرًا بتسجيل الخطابات، ولكن هذه الدروس الثلاثين، قد تمّ تسجيلها جميعًا؛ وهذه الخطابات تُعدّ مصدرًا جيّدًا من أجل معرفة خلفيتنا. وقد تمّ تناول قضايا الإيمان والتوحيد والإمامة والنبوّة والولاية وغيرها من المباحث الأساسية في هذه الدروس وهي الآن مورد تأيدي وقبولي. وقد كانت هذه الأفكار بمنزلة الأسس الفكريّة لإيجاد نظامٍ إسلامي؛ هذا وإن كنّا في ذلك الزمان لا نتوّقع أبدًا أن يتحقّق النظام الإسلامي في السنوات الستّ أو السبع الآتية؛ لقد كنّا نقول في أنفسنا لو لم يتحقّق هذا النظام ولو بعد خمسين سنة ففي النهاية تمّ إرساء أسسه الفكريّة؛ فلقد كان هذا العمل منحةً لتوجيه أفكار الجيل الشاب في ذلك الزمان». [١٣٨١].

***

وبتعداد هذه الخصائص المتفرّدة لـ «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي في القرآن»، يتّضح جيّدًا أنّ الكتاب الحالي وهو كتابٌ غنيٌ جدًّا بلحاظ المحتوى؛ وبسبب قلّة الوقت نحسب أنّ سماحته كان يمرّ على بعض المطالب بطريق الإشارة، في حين كان هذا المطلب أو ذاك بحاجة إلى المزيد من الشرح، فتكثّر هذه الموارد







وإرجـاع المستمعين - من قبل سماحته أثناء تلك الـدروس - إلى القرآن والمصادر الروائيّة جعلنا نعزم على إعداد ما نعبّر عنه بكتاب مساعد لهذا الكتاب. وسوف يكون شرحًا تبيينيًّا «للمفاهيم التي تعرّض لها سماحته في هـذا الكتاب بصورةٍ مفصّلة أو مختصرة»، ففي هـذا الشرح التبييني للمفاهيم بالإضافة إلى الاستمداد من آيـات الـقـرآن الـكـريم، والـروايـات المـعـتـبرة وخـصـوصًـا كـلام أمير المؤمنين فـي نهج الـبـلاغـة، والأدعـيـة وخـصـوصًـا فـي الصحيفة السجّاديّة، وفي بعض المقاطع المناسبة تمّ التعرّض لتلك النكات اللغوية والتاريخيّة المذكورة.

بناءً على تصريح سماحته في هذه الجلسات وقبل البدء بهذه الدروس، بأنّه كان ينوي بالإضافة إلى هذه المطالب المذكورة في الكتاب الحالي، التعرّض للحديث عن المعاد؛ فبسبب عدم وجود الوقت الكافي لهذا المبحث، كان لدينا توجّه لإعداد فصل خاصّ تحت عنوان المعاد في هذا الكتاب المساعد وأن نفتتح ونعدّ هذا الفصل بالاستفادة من كلماته الأخرى في هذا المجال.

وهذا الكتاب سيكون من نوع التعليم الذاتي بالنسبة للراغبين الـذيـن يـريـدون أن يـغـوصـوا فـي أبـحـاث هـذا الـكـتـاب ويـتـعـمّـقـوا ويتوسّعوا؛ بالإضافة إلى أنّه سيكون كتابًا مساعدًا للمعلّمين الذين يريدون تدريس فصوله.

أسلوب تنظيم الكتاب

لا ينبغي للقارئ أن ينسى أنّ هذا المضمون الجديد والبديع قد تمّ عرضه قبل أربعين سنة. وهـذا الأمر من شأنه أن يظهر عظمة هذا



العمل والمزيد من عظمة فكر صاحب هذا الكتاب. لقد سعينا أن يكون ظاهر هذا الكتاب بالمقدار المقدور مشابهًا لكتب تلك الأيّام دون أن يعرض لمحتواه أيّ ضررٍ. ولهذا، كان الخطّ والإخراج الفني، وبدايات الصّفحات، ولون الأوراق وحتّى خطوط الآيات القرآنية كلّها بما يتناسب مع تحقيق هذا الأمر؛ مثلما كان يجب أن يكون محتوى هذا الأثر مظهرا لمن يلقي هذه الجلسات بصورة متسلسلة بأسلوبه الخاص؛ حتّى أجواء الدّروس والإمكانات المحدودة ومكان إلقاء هذه الدّروس كان علينا أن نحافظ عليها قدر المستطاع. لهذا سعينا أن نحافظ على ترتيب هذه الدّروس في هذا الكتاب ومنهج عرض مطالبه وأسلوب خطابه، وحتّى تلك الأمور التي لا ترتبط بالمحتوى، بل وأدرجنا تلك الأوراق التي كانت تُصوّر في تلك الأيّام أيضًا.

***

لقد تمّ العمل من أجل تنظيم محتوى هذا الكتاب على عدّة أمور:

١. إنّ البنية الأساسية للكتاب تتشكّل من خلال تسلسل وترتيب محتويات هذه الدروس جنبًا إلى جنب. فللكتاب أربعة أقسامٍ أساسية تحت عنوان: الإيمان، والتوحيد، والنبوّة، والولاية. والتي جاءتِ في ذيل كلّ قسمٍ من هذه الجلسات. ومن أجل حفظ الهويّة المستقلّة للدّروس، فقد تمّ إدراج رقم الجلسة وعنوانها وتاريخ إلقاء الدرس أيضًا بداية كلّ درسٍ، ويمكن أن نعرف نهاية كلّ درسٍ من خلال الصّفحة التي كانت تُصوّر وتوزّع على الحاضرين.



٢. من أجل الحفاظ على مسار الكلام في الدرس، مثلما قام سماحته ببيانه؛ اجتنبنا أيّ نوعٍ من تقطيع كلامه ووضع العناوين؛ لهذا، سيستشعر القارئ بسهولةٍ كيفيّة سير الكلام في كلّ درس، وذلك من بدايته وكيفيّة تناول المطالب واحدًا تلو الآخر، وبالإشارة إلى موضوع الدرس، وشرح وتوضيح هذا الموضوع والاستفادة من الأمثلة المختلفة والوصول إلى النتيجة، والدخول إلى القسم المتعلّق بتفسير الآيات واستخراج المفاهيم التي تمّ توضيحها من الآيات نفسها.

٣. لم يتمّ تسجيل الكلام الذي تقدّم في كلّ درسٍ في أكثر الأشرطة المسجّلة. ونسمع في بعضها سماحته يبتدئ الدرس بتلاوة عدّة آياتٍ مختارة لذلك الدرس. ونحن ومن أجل أن يكون لكلّ الدروس بدايةً واحدةً، فلقد بدأنا كلّ درسٍ بالآيات القرآنية وذلك باعتماد أسلوب سماحته في تلاوة الآيات القرآنية في تلك الدروس التي تمّ تسجيلها. لكن بما أنّنا لم نرد أن يتصوّر القارئ أنّ سماحته قد قرأ هذه الآيات حين لم يقرأها فإنّنا أدرجنا الآيات بصورةٍ متفاوتة.

٤. ولأنّ نهاية كلّ درسٍ كانت تختلف كثيرًا عن الدرس السابق، فإنّنا لم نقدم على جعل النهايات متشابهة. وفي بعض الدروس نجده يدعو قارئ القرآن لتلاوة القرآن.

٥. إنّ أسلوب كلام سماحة القائد في هذ الكتاب، يختلف نوعًا ما عن أسلوبه وبيانه وطريقة كلامه في مرحلة القيادة. وحيث أنّ كلّ ما ورد في هذا الكتاب يرجع إلى عام ١٣٥٣ شمسي، فقد كنّا بصدد الإبقاء على أسلوبه في إيصال الأفكار إلى المخاطبين.



ومثل هذا الأمر المهمّ، غير ميسّر دون مصاحبة الصوت، لهذا كان الأمر بالنسبة لنا صعبًا. ففي تلك السنوات كان أسلوب حديث سماحته هو أسلوب الخطيب الثوري الذي يقف خلف المنبر ويتحدّث بمنتهى الحماس والحرارة، وأمامه مجموعة من الشباب. فقد كان حديثه حاميًا وبليغًا وكلماته جديدة وجذّابة، وفي الوقت الذي كان يتحدّث عن المفاهيم الدينية العميقة بكلّ حميميّةٍ وانسياب، فإنّه كان يشجّع المستمعين على التفكّر أيضًا. وفي الوقت نفسه الذي كان سماحته أديبًا مقتدرًا فإنّ كلامه كان مليئًا بضرب الأمثال والمصطلحات والأشعار، ولهذا كان نطاق استخدامه للألفاظ واسعًا جدًّا؛ لهذا فقد سعينا جهدنا إلى إدراج تلك العلامات الإخراجيّة الدّقيقة وأتينا على ذكر معاني الكلمات والمصطلحات من أجل أن نحافظ على أسلوب كلام سماحته بأفضل صورة وننقلها إلى القرّاء.

٦. ومن الموارد الأخرى التي تساعد كثيرًا على نقل أجواء الدروس وظروف تلك المرحلة هي تلك المطالب الهامشيّة التي كان سماحته يعرضها في الدروس أو أثناء حديثه. وإذا كنّا نريد أن نحافظ على هذه الأمور داخل البحث المرتبط بالدروس فقد كان هذا يؤدّي إلى إيجاد وقفات في هذا البحث، وفي بعض الموارد كان يؤدّي إلى فقدان سياق الكلام؛ من جانبٍ آخر، فقد أشار سماحته في بعض الموارد إلى نكات يؤدّي الاستماع إليها إلى إيجاد عذوبة خاصّة في ذهن المستمع ويطلعه إلى حدٍّ ما على ظروف تلك المرحلة، ولأجل ذلك نحن أدرجنا هذه المطالب في هذا الكتاب، أيضًا، وفي الوقت نفسه لم ننحرف عن البحث الأساسي للدّروس؛ ولهذا جعلناها داخل قوسين،





وبخطٍّ مختلف؛ لهذا فإنّ القارئ المحترم يمكنه أن يتجاوز هذه النكات عند الوصول إلى القوسين ويستمرّ بقراءة المطلب، أو أن يطالعها من أجل أن يأخذ نفسًا أثناء القراءة.

٧. من الضروري، وبالتوجّه إلى المحتوى العميق والغزير لهذا الكتاب، وحفظ أسلوب الدروس والحواشي في المتن، أن نحذّر ها هنا، القارئ من أن يطالع الكتاب بصورةٍ سريعة. فمن أجل الوصول إلى أسلوب الكلام من المناسب أن تتّم مطالعة هذا الكتاب بهدوءٍ وعلى وتيرةٍ مناسبة؛ لا سيّما أنّ سماحته كان يسعى لأن يجعل المستمع متماشيًا معه في حديثه من خلال تبديل أسلوب الكلام ولحنه، والإتيان بالجمل المعترضة والأسئلة والتنبيهات وغيرها؛ لهذا، ومن أجل الالتفات إلى لحن الكلام يبدو أنّ على القارئ أن يجتنب المطالعة السريعة لهذا الكتاب.

٨. من الأقسام الأخرى لهذا الكتاب تلك الصفحات المصوّرة التي كانت تُقدّم للحاضرين عند بداية كلّ درس، وقد أدرجنا هذه الصفحات المصوّرة في نهاية كلّ درس؛ وقد كان سماحته يعطي هذه الصفحات التي ينبغي تصويرها لأحد الأشخاص الذي كان عليه أن يكتبها بخطٍّ جميلٍ من أجل أن تُصوّر. ومن خلال فحص الخطوط التي كُتبت بها هذه الأوراق المصوّرة، تبيّن لنا أنّ هناك أكثر من شخص قد كتبوا هذه الأوراق. ومن خلال جعل عيّنة واحدة لهذه الأوراق المصوّرة - من ناحية الخطّ والظاهر - وبالاستفادة من المتن الذي اعتُمد لاختصار الدروس في كُتيّب «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي»، قمنا فقط



بترميم عشر أوراق مصوّرة جعلناها في نهاية هذه الدروس. وقد قمنا بتصحيح تلك الأخطاء الموجودة في الأوراق المصوّرة أيضًا وخصوصًا تلك الآيات القرآنية. ومن النقاط الملفتة في تلك الأوراق المصوّرة أنّه تمّ تحديد ثمن كلّ ورقة في آخرها، وبالتأمّل في هذه المسألة يمكن أن نتصوّر أنّ ثمن الورقة كان عبارة عن ريال واحد وأنّ كلفة تصوير كلّ صفحة هو ريال آخر.

٩. إنّ البنية الأساسية للكتاب ومسار عرض مطالبه قد تشكّل من خلال عرض الدروس بصورةٍ متتالية، لكنّ أسفنا على أنّنا لم ندرج المقدّمة التي كتبها سماحته على كُتيّب مجموع الأوراق المصوّرة، فكلّ من يطالع مقدّمة كُتيّب «الأطروحة العامّة للفكر الإسلامي» ثم يتأمل في الكتاب الحالي فسوف يؤمن أنّ تلك المقدّمة قد كانت لهذه الدروس وهي تتناسب مع محتواها، أكثر من أن تتناسب مع حال ذلك الكتيب. وعندها سوف يكون حال البنية الأساسية للكتاب وسياق محتواه قد تطابق مع ترتيب الدروس، لكن نتحسّر على أنّ لا نورد في هذا الكتاب تلك المقدّمة التي كتبها سماحته لنشر كتيّب مجموع الأوراق المصوّرة. فإنّ أيّ شخصٍ يطالع تلك المقدّمة سوف يتأكّد تمامًا بعد الاطّلاع على هذا الكتاب، أنّ تلك المقدّمة تتناسب مع هذه الدروس ومحتواها أكثر من ذلك الكتيّب، وسوف يستعذب المخاطب عند مطالعة الكتاب أن يرجع عدّة مرّاتٍ ويقرأ مقدّمة المؤلّف. وكان هذا الأمر - مع المرور على الأهداف المذكورة في المقدّمة - سببًا لأن نستفيد مرّةً أخرى ممّا طالعه ويتمكّن من الاستمرار في مطالعة الدروس بمزيدٍ من الدقّة.

١٠. حيث أنّ الآيات الواردة في متن الكتاب قد قُطّعت أو أنّه أثناء



ذكر الآية يأتي على مثال كشاهد، من الممكن للقارئ أن يعاني في تحديد الآية بصورةٍ صحيحة، لأجل ذلك جعلنا الآيات بخطٍّ خاصّ وداخل قوسين، وثانيًا، ذكرنا السند الذي يحدّد الآية والسورة في القرآن الكريم عند الانتهاء من الآية أو عند قراءتها من قبل سماحته وأثناء ترجمتها. وكذلك تمّ تشخيص الروايات ولم نذكر سندها داخل المتن لأنّنا ذكرنا مصادرها في الهوامش.

***

ها هو قائدنا الأعزّ من أرواحنا، تحت ظلّ عناية الوجود المقدّس والعطوف لحضرة الإمام الرضا عليه آلاف التحيّة والثناء، حيث أنّ كلّ ما لدى شعبنا من بركات إنّما هو من شمس طوس. وها هي دار صهبا للنّشر قد بدأت أوّل خطوةٍ بالتوسّل بحضرة عليّ بن موسى، وصارت ترتوي من كأس عتبته المقدّسة، حتّى تمكّنت من أن تتحرّك على طريق تحقيق هذا التكليف الثقيل بإيصال معارف وأنوار هذا القائد وهذه الهديّة الرضويّة إلى كلّ المشتاقين والعطاشى، ونسأل اللّه أن يكون هذا العمل مورد رضا صاحب العصر الزمان بتوجّه وعناية حضرة الإمام الرضا. اللهم لك الحمد ولك النعمة ولك المنّ.

الأيّام الفاطميّة، ١٤٣٤ هجري
فروردين ١٣٩٢ شمسية

مقدّمة المؤلف





إن عـرض الإسـلام بشكله المسلكي الاجتماعي مع امتلاكه للأصول المنسجمة والمتناغمة ذات الأبعاد الشاملة للحياة الإنسانية يعتبر اليـوم من أولى الضروريات للفكر الديني.

لقد كانت الأبحاث والتحقيقات الإسلامية قبل اليوم في الغالب فاقدةً لهاتين الخاصيّتين فائقتي الأهمية مما كان يجعل الباحثين والمحققين في عملية مقارنة الإسلام بالمدارس والمسالك الاجتماعية العصرية كما ينبغي، غير قادرين على الوصول إلى نتيجة مثمرة وحكم قاطع. وبتعبير آخر يبقى هؤلاء عاجزين عن عرض هذا الدين بصورة مترابطة ومتحدة الأجزاء ومقارنته بسائر المدارس والأديان.

إضافة إلى أن الأبحاث بشكل عام ذهنية (فكرية) وتنجز في محيط بعيد عن التأثير العملي والواقعي وخاصةً الاجتماعي، وهي لا تؤدي إلّا إلى المعرفة الذهنية، وهي لا تبين الالتزام والتكليف أو النظرية الواضحة بالنسبة للحياة الاجتماعية الإنسانية وخاصةً بالنسبة لتعيين شكل ومحتوى المجتمع.

وكلمة أخرى وهي أن القرآن - ذلك السند القاطع واليقيني






للإسلام - في أكثر الموارد لم يجد حظًا للبحث والبيان، وبدلًا منه استعيض بالأبحاث والتعمقات شبه العقلية أو الروايات والمنقولات الظنية، وأحيانًا باعتبار أكثر. وكانت النتيجة أن الأفكار العقائدية المنفصلة عن القرآن واللامبالية به نشأت ونمت وتشكلت. ولعل هذا الانفصال وعدم الاعتناء أو الشعور بعدم الحاجة واليأس من إمكانية الاستفادة الصحيحة، وكل واحدة منها ناشئة من عوامل خاصة، أدت إلى ترك التدبر في الآيات القرآنية والاستعاضة عنه بالقراءة والتلاوة الأخروية، وهكذا أصبح الكتاب الإلهي الكريم في معرض العامة والخدع.

وبالالتفات إلى هذه الواقعية يمكن أن نعتبر بشكل ملخص ثلاث خصوصيات مهمة في الأبحاث الفكرية الإسلامية كضرورة يعد التخلف عنها غير لائق بالمفكرين الواعين والمسؤولين في هذا العصر:

الأولى: إن المعارف والأنظمة الإسلامية خارجة عن التجرد والذهنية المحضة - مثلها مثل كافة المدارس الاجتماعية - وهي ناظرة إلى التكاليف العملية وخاصة في الحياة الاجتماعية، ولهذا ينبغي التأمل والتحقيق في الخطوط التي تعرضها لحياة الإنسان وهدفه في هذا الوجود وطريق وصوله إلى هذا الهدف.

الثانية: مطالعة المسائل الفكرية الإسلامية بصورة مترابطة وكأجزاء لوحدة واحدة، ودراسة كل واحدة بلحاظ أنها جزء من مجموع الدين وعنصر من هذا المركب وركن من هذا البناء، وهي مرتبطة بالأجزاء والعناصر الأخرى، حتى يتم من معرفة هذه الأصول استنتاج الخطوط العاملة والشاملة للدين بصورة إيديولوجية كاملة



غير مبهمة ذات أبعاد متناسبة مع حياة الإنسان ذات الأبعاد المختلفة أيضًا.

الثالثة: عند استنباط وفهم الأصول الإسلامية ينبغي الاعتماد على المتون والمصادر الأساسية للدين دون الآراء والتحليلات الشخصية أو الإلقاءات الفكرية من هنا وهناك، حتى تكون نتيجة البحث «إسلاميةً» بحق ولا غير. ولأجل تحقيق هذا الهدف، فإن القرآن هو أكمل وأوثق سند يمكن الاعتماد عليه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ و«فيه بيان لكل شيء» وبالطبع في ظل التدبر العميق الذي أمر القرآن به.

ما جمع في هذه الرسالة نموذج من هذا السعي لتأمين هذه الأهداف بشكل تقرير عن الإسلام في سلسلة محاضرات، وقد سعينا في هذه المحاضرات أن نبحث في أهم الأصول الفكرية للإسلام في أكثر أبعاده بناءً وحيويةً من خلال آيات القرآن المبينة. وضمن الشرح المبين الذي يعلم القرّاء كيفية التدبر والتعمق في القرآن حددنا الأصول المذكورة في الآيات واستفدنا في الأماكن اللازمة من الروايات الصحيحة الصادرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأجل التوضيح والتأكيد لتتبيّن من خلال التأمل والتدبر في الآيات القرآنية أصول الإسلام أيضًا من الناحية العملية والتكليفية كإحدى نقاط أسلوب التفكر والأيديولوجية في الإسلام.

١٣٩٦هـ.ق.

القسم الأول

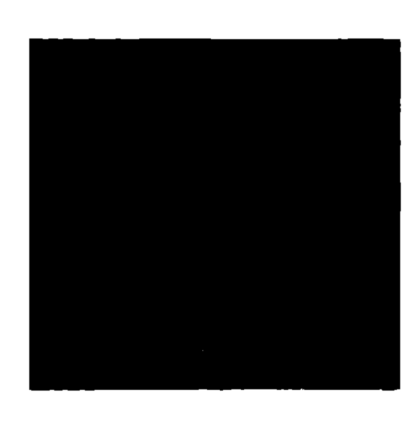


الإيمان

الجلسة الأولى

الإيمان (١)

الخميس، ٢ شهر رمضان، ١٣٥٣ هجري شمسي
أربع سنوات قبل انتصار الثورة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

[سورة **آل عمران**، الآيات ١٣٢ - ١٣٤]



لقد اختار بعض المسيحيين الرهبنة ظنًّا منهم أنّهم بذلك لن يتلوّثوا بالمعاصي، فلجؤوا إلى المغارات والجبال والأكواخ. يصف اللّه تعالى هذه الحالة في كتابه العزيز بالبدعة منهم فيقول: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[1] ، تحت عنوان رهبانيّة[2] ابتكروها من أنفسهم لم يفرضها عليهم اللّه. أمّا العالِم الإسلامي، فلا رهبنة لديه ولا عزلة ولا فرار؛ فهو يسعى لإنقاذ المذنب من الغرق. وكذلك المسلم الواعي - بل أيّ إنسانٍ مسلم - لأنّ كون الإنسان مسلمًا ومسؤولًا أمرين متلازمين؛ فهما كاللازم والملزوم، يسعى لإنقاذ الغريق وشفاء المريض وهداية الضالّ، وهذا كلّه لا يتحقّق مع الفرار ولا ينسجم معه. فهو يؤمّن التقوى لنفسه، لأنّه من أهل التقوى، أي أنّه يحضّر العدّة اللازمة ويتحصّن بالدرع الواقي مقابل المعاصي فيدخل إلى منطقة الذنوب من أجل إنقاذ العصاة؛ وباختصار، هذه هي التقوى.

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٧.

(٢) الخوف الدائم، الرهبانيّة: العزلة وترك الدنيا.





وعندما يتّضح هذا المعنى للتقوى، فهل ستكون عندئذٍ مقدّمةً ووسيلةً لتحقيق الانتصار أم لا؟ سوف ترون أنّ الأمر سيصبح في غاية السهولة، لأنّ التقوى هي وسيلة للانتصار. فذاك الذي يريد أن يتغلّب على المرض الفلاني في هذه المنطقة أو تلك، لو أنّه كان يخاف دائمًا من أن يُصاب بهذا الميكروب أو ينتقل إلى جسمه، فكيف يمكنه أن ينقذ مَن أُصيب به؟! عليه أن يكون حذرًا وملتفتًا لنفسه وينتبه إليها، ثمّ بعد ذلك يدخل إلى المنطقة الخطرة وينجي الآخرين. عندها سوف يحصل على التوفيق والنصر، وسوف يتمكّن من القيام بهذا العمل بسهولة؛ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

كذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ * وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]؛ إنّ طاعة اللّه لا تختلف عن طاعة النبي والرسول. والسؤال هو حول المناسبة التي ذكر اللّه تعالى فيها طاعته وطاعة النبي معًا؟ وهل في الأمر زيادة أو إضافة في ذكر أحدهما؟ كلّا. فلو أنّه تعالى قال ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فقط، ولم يذكر الرسول كمصداقٍ ونموذجٍ ولم يأمر بطاعته فمن الممكن لأولئك الذين يقفون مقابل النبي أن يدّعوا ويقولوا أنّنا نطيع اللّه. فمجال الادّعاء ونطاقه واسعٌ، حيث يمكن للجميع أن يدّعوا الدين والإيمان والتقوى بصورة علنيّة. إنّ كلّ إنسان يمكنه أن يدّعي أنّه عبدٌ للّه ومطيعٌ له.

في زمن النبي، كان الرسول يعلن العبوديّة والطاعة للّه، وكان أولئك الذين يقفون في الجبهة المقابلة له ويحاربونه ويقومون بكلّ

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٠.

(٢) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٣١ و١٣٢.



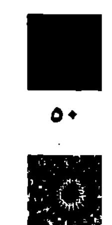
تلك المخالفات من قادةٍ وكبار ورهبان مسيحيون وأحبار يهود أيضًا يدّعون ذلك، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾[١]، بل إنّ ذلك كان يبدو وكأنّه أعلى درجة من ادّعاء النبي. فالنبي كان يقول إنّني عبد اللّه، وهم يقولون نحن أبناء اللّه. وكانوا يظنّون أنّ طاعة اللّه منحصرةٌ بهم، أو بعبارةٍ أخرى نقول: إنّ هذا ما كانوا يظنّونه حول أنفسهم. فإنّ بعض الذين يعصون اللّه يتظاهرون بالطاعة، فهل أنّ هذا صحيحٌ أم لا؟ بعض هؤلاء عندما يخلون إلى أنفسهم يمكن أن يكتشفوا مدى سواد كتاب أعمالهم ويعلمون أنّ ما يقولونه ليس سوى الكذب؛ لكنّهم يتظاهرون أمام الناس بشكلٍ آخر ويقولون إنّهم عبيدٌ مطيعون له تعالى وعبّادٌ للرب. فهؤلاء يجب أن يُشخَّصوا ويُميَّزوا عمّن يعبد اللّه حقًّا. لذا أضاف اللّه تعالى شرط طاعة الرسول في مقام بيان الإطاعة ووجوبها على المؤمنين، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

فلو لم يُذكر الرسول لكان أعداؤه يقولون نحن نطيع اللّه؛ لهذا، ينبغي التحديد والتدقيق بمعنى طاعة اللّه. أولئك الذين يعدّون أنفسهم عبيدًا للّه وهم ليسوا عبيدًا للأوامر الصادرة عن القانون الإلهي ولا يعملون بهذا القانون، فإنّهم لا يلتزمون بلوازم هذه العبوديّة، فكيف لهم أن يقولوا إنّنا عبيدٌ للّه؟! ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ماذا تعني رحمة اللّه؟ وماذا يعني أن يكون الإنسان مورد رحمته تعالى؟ هنا ينبغي أن تقارنوا بين بيان القرآن وتصوّرنا العامّي. نحن

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٨.



نقول لو أنّنا كنّا من أهل الذنوب وخالفنا اللّه ولم نعمل بالواجبات والالتزامات والتكاليف ولم نتراجع عن الموارد الممنوعة من قبل الربّ، فإنّ لدينا أملًا واحدًا، ما هو هذا الأمل؟ إنّه رحمة اللّه، وهو تعالى يعاملنا برحمته وينزلها علينا. هذا هو ادّعاؤنا وكلامنا، بل هو الكلام السائد في مجتمعنا وبين الناس. فنحن نعتبر رحمة اللّه لمثل هذه الموارد، أي لمَن عمل وعصى، ولمَن تجاوز المنطقة الممنوعة واعتدى ولم يراعِ المسؤوليّة والالتزام الإلهيّين. ندّعي أنّ الرحمة لمثل هذه الحالات اللّه يرحمنا، ونعتبر أنّ رحمة اللّه هي مقابل العمل أو البديل عنه. أمّا آية القرآن فإنّها تعلن العكس، تقول لنا اعملوا وأطيعوا لعلّ رحمة اللّه تشملكم. إنّ رحمة اللّه تنزل عندما يقوم الأفراد بتحمّل مسؤوليّتهم، فيرحم اللّه العباد الذين أطاعوا وأدّوا ما عليهم من مسؤوليّات وتكاليف. فقد تجد أكثر من ٧٠٠ مليون مسلم يجلسون وينتظرون غمائم رحمة الربّ كي تهطل عليهم، في حين أنّهم يفتحون الطرق ليأتي ناهبو الأعراض والغزاة المعتدون على الدين لينهبوا كلّ شيء، ينتظرون رحمة اللّه!؟ قولوا إذن فلنقعد هنا ولا نتحرّك!

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ماذا تعني طاعة اللّه؟ وبماذا ترتبط هذه الطاعة؟ إنّ ذلك يرتبط بتحمّل جميع التكاليف والحجج الإلهيّة والقيام بما أُلزمنا به وكُلّفناه. وبمنطق الآية الشريفة، فإنّ المؤمنين هم أولئك الذين إذا حصل بينهم أيّ نوع من الشجار، فإنّهم يرجعون إلى النبي حتّى إذا قضى وحكم بينهم لم يجدوا أيّ نوع من الحرج في أنفسهم ولم يعترِ قلوبهم ونفوسهم أيّ نوعٍ من غبار التكدّر بل سلّموا بشكلٍ تامّ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ



تَسْلِيمًا﴾[1]. هكذا يكون المؤمن الواقعي، فإذا حصل هذا الأمر في أمّةٍ ما أو جماعة التزمت بأمر اللّه، عندها سوف تكون مشمولةً برحمة اللّه ولطفه المطلق. عندها، تصل الأمّة إلى عزّتها وسموّها وتكاملها الإنساني، فتتحطّم الأغلال والقيود التي كبّلتها، وستكون مشمولةً بالرحمة الإلهيّة؛ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]، هذا هو مضمار السباق وميدان التقدّم والمسارعة. فسارعوا وسابقوا إلى المغفرة التي تنزل من الربّ وإلى الجنّة التي تحيط بالسماوات والأرض والتي أعدّها اللّه تعالى لأهل التقوى. وفي هذا المجال، ذُكر للتقوى علامة ونتيجة سوف يتمّ ذكر علائم التقوى بصورةٍ متتالية.

فيا أيّها الإنسان الذي أصبحتَ مستعدًّا للمسابقة من أجل شبرٍ من الأرض، ومن أجل مقدارٍ من الماء والطين في منطقةٍ معيّنة من هذه الأرض، وجاهزًا لاستخدام كلّ قواك وطاقاتك لتتمكّن من الحصول على تلك الثروة أو ذلك المال في المزاد المتعلّق بتلك الأرض، أو الحصول على تلك الدكّان، أو امتلاك تلك الزاوية من الأرض، أو إدارة تلك السكّة الموجودة في المنطقة الفلانية من العالم، ومن أجل الحصول على ما يمكنّك من الامتيازات المادّيّة، أصبحتَ مستعدًّا من أجل كلّ تلك الأمور للمسابقة والمسارعة والتفوّق على الآخرين، حتّى لو كان في ذلك الدوس على الشرف والفضيلة.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٦٥.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٣.



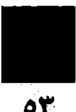


أيّها الإنسان! لا يُقال لك لا تسرع، ولا يُقال لك نم في بيتك ولا تستخدم طاقاتك. فذاك الذي يقول لك مثل هذا الكلام باسم الدين كاذب وهو لا يعلم. فالدين لا يقول لك عطّل طاقاتك، بل سارع مهما أمكن وسابق بأسرع ما يمكن، لكن بأيّ اتّجاه؟ إلى ذلك الشيء الذي يليق بك، لا إلى شبرٍ من الماء والطين، ولا إلى ذلك المبلغ الذي لا يساوي شيئًا، ولا إلى تلك الحياة المادّيّة في الدنيا والتي مهما كانت فإنّها قليلةٌ جدًّا ولا تساوي شيئًا بالنسبة لك.

أيّها الإنسان الكبير! سارع إلى ذلك الشيء الذي يليق بعظمتك - حيث أنّ الإنسان هو أرقى الموجودات في هذا العالم، وإنّ أعظم ما في الوجود بعد اللّه هو في هذا الكيان الصغير والمحدود -. فسارع وسابق؛ ولكن إلى أيّ شيء؟ ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، سارع إلى المغفرة الإلهيّة وإلى تلك الجنّة التي تكون السماوات في مقابلها صغيرة، وتكون الأرض أمامها قليلة. فماذا يعني ذلك؟ التفتوا جيّدًا إلى العبارات القرآنية لتفهموها جيّدًا. إنّ القرآن يقول إذا كنت تريد أن تصرف همّتك إلى شيءٍ ما، فإنّ السماء والأرض ليست بشيء بالنسبة لك، بل اجعل همّتك منصرفةً إلى ما هو أعلى منها.

أيّها الإنسان الكبير! إنّ المغفرة هي ما يهمّك، لأنّها أهمّ من أيّ شيء، وما يترتّب بعد المغفرة من آثار قيمتها وعظمتها أعلى من السماوات والأرض.

ماذا تعني المغفرة؟ لقد شاهدنا بأنفسنا وجرّبنا. وقلنا لذلك السيّد معذرةً. وهو يبادلنا بلطفٍ وإكبار، أو بخلقٍ حسن ووداعة قائلًا: حسنٌ، لقد تجاوزنا عن هذا الأمر. لقد قام فلانٌ بتلك الجناية





عن غير عمد، وها هو يتمسّك بصاحب الحقّ وبكلّ التماسٍ، يطلب منه العفو والصفح والتلطّف، وها هو صاحب الحقّ يقول: حسنٌ جدًّا، عفوت عنك. وفي تلك الإدارة الحكوميّة، قُدِّم لك المبلغ الفلاني ، لكن وفق أيّ حساب؟ عن صحّة أو عن خطأ؟ وأنت كنت قد ذهبت لتقدّم فائق الاحترام وتملّقت وتحدّثت ببعض العبارات وجلبت معك فلانًا أو رسالةً أو توصيةً أو اتّصالًا. وقيل لك: حسنٌ جدًّا، لقد صفحنا عنك؛ فلنتخيّل أنّ الغفران الإلهي يشبه مثل هذه الأنواع من الصفح والعفو. فذاك الذي ظلم وجنى وعصى وأفسد في الأرض وعاث فيها فسادًا، يستحقّ العذاب الإلهيّ، ثمّ بعد ذلك، وفي يوم القيامة، وبسبب تلك الدمعة التي ذرفها أو توجّهه وتوسّله، فإنّ اللّه يقول: قد تجاوزنا عن خطاياك وعفونا عنك!! فهل هذه هي المغفرة الإلهيّة؟ وهل هذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ﴾؟ كلا.

لقد تحدّثتُ حول معنى الغفران كثيرًا وأكرّر - علّكم أيّها الأخوة ترجعون إلى ذاكرتكم - فقد كنتم متواجدين في أغلب جلسات أبحاثنا، لتستخرجوا من خفاياها وزواياها ما قلناه. إنّ الغفران يعني التئام وتعبئة الفراغ. فعندما يكون جسمكم مجروحًا أو مصابًا في جزء منه بجرحٍ عميق، وعندما تتمزّق طبقة من اللحم ويعطوكم مرهمًا أو دواءً وتتناولون بعض المغذّيات أو الفيتامينات من أجل أن ينمو ما تمزّق ويُداوى الجرح ويلتئم ويعود اللحم إلى سابق عهده، عندها تعود أجهزة بدنكم للعمل ويُغلق الجرح ويلتئم. هذا الالتئام هو الذي يشبه الغفران، فهل التفتم إلى معناه؟

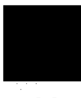
لو كانت أرواحكم تشبه جراح ذلك الجسم، فإنّ كلّ معصية ترتكبونها تخدش روحكم وتحدث فيها جرحًا. فلماذا نعبّر عن





المعصية بالضربة الموجّهة إلى الروح؟ ذلك بسبب أنّ الروح يجب أن تتعالى وترتقي. والمعصية هي الشيء الذي يمنع روح الإنسان من التعالي والتكامل الذي ينبغي أن تصل إليه بحسبها. وفي مقام التمثيل والتشبيه، يمكن التعبير عن المعصية بذلك الجرح والشقّ الذي يحدث في هيكل الروح، فإذا ارتُكبت المعصية وقعت تلك النقيصة. فإذا استحللتم مال الناس بالحرام - لا سمح اللّه - أو شربتم الخمر أو أكلتم الربا أو اقترفتم الزنا أو الكذب أو الافتراء، فإنّ كلّ واحدة من هذه الأمور ستوجد شقًّا وجرحًا في روحكم وباطنكم، ومثل هذا يؤدّي إلى النقصان ويبعد عن الكمال الذي هو غاية الآمال. فيجب السعي إلى غفران هذه الذنوب.

فالغفران إذًا عبارةٌ عن تعبئة هذا الفراغ أو الخلاء وجبران ذلك النقص الروحي والتئام ذلك الجرح النفسي وتكميل تلك النقيصة التي حصلت في الروح. فكيف يحصل ذلك؟ وكيف يتمّ إزالة تلك النقيصة التي أوجدتها المعصية؟ إنّ كلّ ذلك يحصل من خلال الجبران. فذاك الذي أهبط روحه من أوج الإنسانيّة والتكامل ومن نقطة العروج الإنساني درجةً ما وأبعدها عنها بمعصيته، فإنّ الغفران [بالنسبة له] يعني جبران ذلك التراجع من أجل أن يستكمل ارتقاءه مرّةً أخرى. أضرب مثالًا آخر: لو أنّكم ركبتم السيّارة وأردتم عبور خمسين كيلومترًا، فإنّ هذه السيّارة لو توقّفت أثناء الطريق، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى تأخّركم، وإنّ جبران هذا التأخّر يستلزم أن تتحرّكوا بصورة أسرع من السابق وتقلّلوا من مقدار الراحة أو تصرفوا النظر عنها لكي تصلوا إلى الهدف في الوقت المحدّد. أمّا أن نتوقّف ونقول إنّني يا ربّ قد أخطأت، أو أن نجلس في المقهى لمدّة ساعة ونتأخّر في التحرّك، فإنّ هذا لا يحلّ المشكلة. لقد حصل الخطأ،





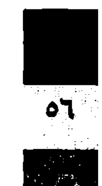
فعليك أن تتحرّك بسرعة وتسابق من أجل أن تجبر هذا التوقّف والتأخير الذي حصل لمدّة ساعة؛ هكذا هي المغفرة الفعليّة.

واللّه تعالى لا يحرم مرتكب الذنب من المغفرة مهما فعل من عملٍ صالحٍ، سبحانه لا يحقد، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾؛ وإنّي لست حقودًا بل أغفر كثيرًا. فنحن حاضرون لغضّ النظر عن أخطائك فيما لو كانت تُجبر. ولا نقول بما أنّك أيّها الإنسان قد أخطأت يومًا فإنّك لو جاهدت مقابله مئات المرّات فلن نعترف بها أبدًا، كلّا، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾، وأنا أجبر النقص وأسدّ الفراغ وألئم الجراح، ولكن لمَن؟ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، إنّي أغفر لمن تاب، فماذا تعني التوبة؟ إنّها تعني الرجوع، فعندما ينحرف الإنسان عن طريق التكامل، فإنّ اللّه تعالى يمكن أن يغفر له في حال أنّه رجع إلى ذلك الطريق مجدّدًا. ومعنى الرجوع يستتبع تقوية الإيمان والعمل الصالح، فلا ينبغي الغفلة عن العمل والاشتغال بالقيل والقال وإرضاء النفس وتطييب خاطرها.

بناءً عليه، فإنّ المغفرة تعني التئام تلك الجراح التي شقّت روح الإنسان، وبهذه الطريقة يمكن لهذا الإنسان أن يصل إلى الكمال. ومثل هذا يستحّق أن يسعى الإنسان في طريقه ويسابق ويسارع. فالمغفرة مهمّةٌ جدًّا. وهي ليست بمعنى أنّ يتلطّف اللّه تعالى بشخصٍ بطريقةٍ عبثيّة وبدون أن يكون قد سعى على طريق هذا اللطف الإلهي، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. والجملة المتداولة: يا فلان

---

(١) سورة **آل عمران**، الصفحة ١٣٣.



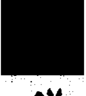
إنّك من أهل الجنّة وسوف تذهب إليها لو سُمح لك إن شاء اللّه، فإنّ هذا الكلام في محلّه تمامًا. فنحن جميعًا نتمنّى الجنّة ونطلبها في كلّ أدعيتنا. وفي بعض الأحيان، لا نقنع بطلبها لوحدها، بل نذكر جميع مختصّاتها: من حور العين، ومن أطعمتها الطيّبة، ولحم طيرها، وإلى غير ذلك، لكنّ اللّه تعالى يقول إنّ هذه الجنّة قد أُعدّت لأهل التقوى، وهذه المائدة قد بُسطت لجماعةٍ خاصّة؛ هؤلاء ينبغي أن يردوها ويجلسوا حولها. فمن هم هؤلاء؟ إنّهم أهل التّقوى.

فمن هم أهل التقوى الذين أُعدّت لهم؟

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أحد شروط التقوى هو الإنفاق، وهو يختلف عن الصرف. وقد تحدّثنا عن الإنفاق عدّة مرّات لحدّ الآن، ولا عيب في التكرار. فهي مهما تكرّرت عندكم، فإنّها تبقى أكثر في القلب وما أحسن ذلك! هناك مَن يصرف المال وآخر ينفقه إلّا أنّ الإنفاق صرفٌ ولكن ليس أيّ نوعٍ من الصرف. فالإنفاق هو ذلك الصرف الذي يحصل به تعبئة فراغٍ وتأمين احتياجٍ حقيقي. فأين هم أولئك الذين يصرفون الملايين وبحسب الظاهر يكون الأمر في الأعمال الحسنة، والذين يأتي القرآن على ذكرهم بأنّهم أخسر الناس لأنّ عملهم لم يكن إنفاقًا؟ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، فما صرفوه من أموالٍ وكلّ تلك الزخارف التي علّقوها على أجساد بعض الجائعين وتلك المخارج الكثيرة

---

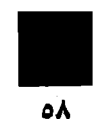
(١) سورة **الكهف**، الآيتان ١٠٣ و١٠٤.



والكاذبة لم تكن إنفاقًا، لماذا؟ لأنّها لم تملأ فراغًا.

أيّها السيّد! لو أنّ هذه القروش القليلة التي قدّمتها لمَن يوجد في جيبه المئات مثلها ويمكنه أن يؤمّن المئات الأخرى، فإنّ هذا ليس إنفاقًا، ولو أنّك أعطيتها لمن يبحث عنها من أجل أن يشتري خبزًا ويملأ معدته الفارغة، فهذا هو الإنفاق. بالطبع، لم أُرد بهذه الجملة أن أقول للسادة أن يذهبوا الآن مباشرةً ويعطوا هذه القروش القليلة للجوعى والمتسوّلين من أجل أن يملؤوا معدتهم. كلّا، ففي بعض الأحيان يكون ملء معدة الجائع بعيدًا عن الإنفاق، وفي بعض الشروط يكون كذلك. في تلك الظروف التي يكون فيها الفقر والجوع مثل تلك النبتة التي تنمو على الأرض من غير هوادة، فإنّ ملء بطون الجوعى يشبه قصّ جذع تلك النبتة التي تنمو فوق العلف. فكم هي قيمة علف هذه الأعشاب في الصحراء؟! ففي النهاية، يبدو للناظر أنّ هناك عشبةٌ معشعشة قد نقُصت ولكن كم يكون هذا العمل أساسيًا؟ كم هو مهمٌّ مثل هذا العمل؟ إنّه تافهٌ جدًّا ولا شيء.

بناءً عليه، إنّ الإنفاق هو ذلك الأمر الذي يملأ الفراغ ويلبّي احتياجًا معيّنًا. ذلك الشعب الذي يحتاج اليوم إلى شيءٍ مثل الماء والهواء، لو أنّه أُعطي غير ذلك الشيء الناقص فإنّك لا تكون قد أنفقت، بل إنّك تكون قد قمت بإعطاء المال حرامًا. لذلك إنّ الإنفاق ليس عمل أيّ أحد، بل هو عمل الأذكياء، الذين يدركون الفراغات والاحتياجات ومستعدّون لتعبئتها وملئها، فالإنفاق مهمٌّ جدًّا، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، هذا هو أحد علائم أهل التّقوى.





﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾، فماذا يعني كظم الغيظ؟ إنّه يعني عدم التصرّف وفق المشاعر، بل على أساس العقل. وأحيانًا يكون العقل منسجمًا مع الغضب، أفلا ترون أنّ اللّه تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[1]، فعندما نتحدّث عن كظم الغيظ لا ينبغي أن تتصوّروا أنّنا نريد أن نقول أنّنا لا نغضب على أولئك الذين ينبغي أن نغضب عليهم كشعبٍ أو فرد أو مجتمع. كلّا، فالقرآن لا يقول أخمِدوا هذا الغيظ، بل يقول أن لا تتصرّفوا على أساسه. فالكاظمين الغيظ ليسوا ممّن ينسى، فعندما يكظم الإنسان غيظه يمكنه أن يقوم بما ينبغي على أساس العقل والإدراك.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، وعن أخطائهم وذنوبهم وزلّاتهم، ولا ينبغي أن نعفو عن ذلك الذنب الذي لم يكن زلّةً، أو أن نغضّ النظر عن ذاك العصيان الذي حصل بالتعمّد والعناد، لكنّ الزلّات والتقصيرات التي تكثر من عامّة الناس تقبل العفو والتجاوز، ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ومن العلائم الأخرى لأهل التقوى، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾[2]، أولئك الذين يرتكبون الذنوب الكبيرة أو يظلمون أنفسهم، فإنّهم يتذكّرون اللّه مباشرةً ولا يستغرقون في الغفلة. هناك آيةٌ عجيبةٌ في القرآن في مجال التذكّر، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾[3]. ويكون

---

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٥.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠١.



الشيطان بمعناه الواسع إذا أحاط بهم من أجل إضلالهم وإخراجهم عن الصراط المستقيم وإيقاعهم في النسيان ذكروا اللّه مباشرةً. فهكذا هو ذكر اللّه، هو حربةٌ في أيدينا ضدّ الشياطين، وهو حبلٌ من اللّه في أيدينا من أجل النجاة من الورطة التي يريد أعداؤنا المتيقّظون أن يوقعونا فيها. إنّ ذكر اللّه أمرٌ مهمٌّ جدًّا وأساسي. ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾، إنّهم يبحثون عمّا يُلئم ما اجترحوه، لكنّ هذا لا يمكن أن يتحقّق بدون إعانةٍ من اللّه، ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

السعي منّا والقبول من اللّه. فلا ينبغي أن نحذف السعي من سجلّنا، فلا يحقّ لنا ذلك، ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، فهؤلاء الذين لا يتوقّفون عن السعي يستغفرون لذنوبهم ولا يصرّون عليها ولا يصرّون على البقاء على طريق الخطأ والمعصية، فمثل هؤلاء يكون أجرهم المغفرة من اللّه ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، وهنا أيضًا يقول اللّه تعالى أنّه أجر العاملين، وقضيّة العمل هي من القضايا المهمّة جدًّا[2].

---

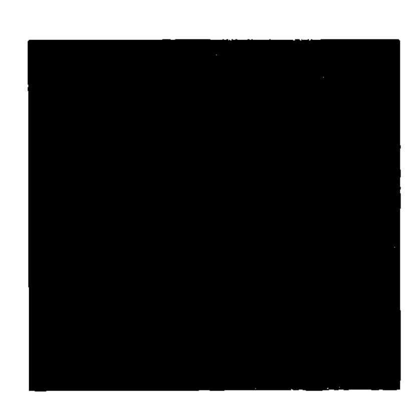
(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٥.

(٢) هذه القضيّة عُرضت في الأبحاث القرآنية والتلاوات في شهر رمضان المبارك ضمن جلسات المعارف الإسلامية.

الجلسة الثانية

الإيمان (٢)

الجمعة ٣ شهر رمضان المبارك ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

[سورة **الأنفال**، الآيات ١-٤]



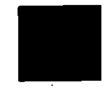
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾[1]، هناك مَن يسأل النبي عن الأنفال لمن هي ومن يستحقّها؟

قبل كلّ شيء لا بدّ من تعريف الأنفال. باختصار، هي عبارة عن الثروات التي تكون لعامّة المسلمين؛ من مثل: عوائد وغنائم الحرب، حتّى بعض المغانم الخاصّة. ومن نماذج الأنفال أيضًا المناجم التي هي تلك الثروات الباطنيّة، ومنها أيضًا الغابات والمراتع الكبيرة التي تكون في سفوح الجبال والوديان. وهي ليست ملك شخصٍ خاصّ أو جماعة خاصّة بل هي في متناول الجميع وتكون لشعبٍ بأسره، ومن مصاديقها كما ذكرنا تلك الغنائم الخاصّة التي تكون من نصيب المقاتلين في جيش الإسلام.

والمرّة الأولى التي طُرحت فيها هذه القضيّة على المسلمين كانت في معركة بدر، وكأنّ المسلمين كانوا قد تحدّثوا فيما بينهم حول مصرف الغنائم التي حصلوا عليها، وجرى بينهم نوعٌ من الخلاف، فرجعوا إلى النبي الأكرم وسألوه فنزلت هذه الآية القرآنية

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ١.






وحيًا على النبي: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ومعنى أنّها للّه أنّها ليست لجماعةٍ محدّدة من عباده، فما يكون مال اللّه وما يُطلق عليه هذا العنوان يجب في الحقيقة أن يُنفق على طريق الأهداف الإلهيّة. ومن الواضح أنّ مال اللّه ليس لأجل مصلحته سبحانه فإنّه تعالى غنيٌ عن المصالح ولا يحتاج إلى المال لرفع وسدّ أيّ احتياج، فما هو مال اللّه هو في الحقيقة مال عباده، ويجب أن يُنفق في المصالح التي حدّدها اللّه تعالى، فما يكون من الأنفال يجري عليه هذا المعنى.

فما هو إذن الذي يكون للرسول؟ وهل أنّ رسول اللّه يُعدّ قطبًا مقابل اللّه؟ كلّا. يمكن لأيّ أحد أن يدّعي الحقّ بمال اللّه والتصرّف فيه. فمن الممكن أن يقول الجميع إنّ هذا المال هو مال اللّه ونحن عباد اللّه، وبهذا التعبير الجميل والحسن بظاهره، والذي يجذب العوام، يمكن أن يُنفَق هذا المال العامّ للحساب الشخصي.

وبناءً عليه، فإنّ مال اللّه، وإن كان ينبغي أن يصل إلى مصالح عموم المسلمين ويصل إلى عباد اللّه الواقعيين، لكنّ وصوله إلى المصالح العامّة لا يعني أن يكون بصورةٍ فوضويّة بحيث يُصرف كما يحلو لأيّ إنسان! كلّا، ينبغي أن يكون هناك نوع من المركزيّة، وأن يكون هناك يد مقتدرة تمثّل اللّه وتكون قيّمة على أمور الناس، فمَن هو هذا المركز؟ إنّه رسول اللّه. والرسول هنا لم يُطرح بعنوان الرسالة والنبوّة بل بعنوان الحكومة الإلهيّة. فعندما انتقل رسول اللّه من هذه الدنيا صار الإمام مسؤولًا عن جميع الأنفال، لأنّ الإمام هو الحاكم الإلهيّ. وفي العصر الذي لا يكون الإمام المعصوم فيه حاكمًا على الناس، فإنّ الذي يكون من جانب اللّه يمكنه، بل يجب عليه أن يحكم الناس، ويكون شأن الأنفال والثروات العامّة من مسؤوليّته.



وعلى كلّ حال، وإن كانت هذه الثروات عامّة، أي أنّ هذه المناجم للجميع، وتلك الغابات والمراتع للجميع، وتلك الغنائم التي تمّ الحصول عليها من العدوّ للجميع، وكذلك صوافي الملوك(١) وغيرها من الموارد والمصاديق التي ذُكرت للأنفال، وإن كانت جميعها للجميع لكنّها في نهاية الأمر يجب أن تكون بيد شخصٍ إلهيٍّ مقتدرٍ يكون ممثّلًا لعنوان الحاكم الإسلامي. فمن هو هذا؟ إنّه النبي في زمان وجوده أي رسول اللّه، وبعده الإمام المعصوم، وإن لم يكن الإمام المعصوم فهو الإمام الإلهي العادل، ذاك الذي ينبغي أن يكون زمام الحكومة الإسلامية بيده ويكون مسلّطًا على أمر الأنفال؛ هذا هو القسم الأوّل من الآية الذي لم يكن في الواقع مورد بحثنا.

وبعد أن تمّ تعيين مصرف الأنفال، يقول اللّه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. يوجد هنا ثلاثة أمور أساسية. أوّلًا: تقوى اللّه، وثانيًا: أصلحوا ذات بينكم وارفعوا الخلافات فيما بينكم، وأنّ على الذين يتحدّثون بخلاف الحقيقة أن يتركوا هذا الحديث، ولا ينبغي أن تتشاجروا حول أمورٍ جزئيّة، ولا تفتّشوا عن مبرّر للتنازع، كما يفعل بعض الناس حين يفتّشون دومًا عن أيّ مبرّر مهما كان صغيرًا من أجل منازعة الصديق أو العدوّ وإيجاد الخلافات. فنصيحة اللّه ورسوله لمثل هؤلاء هي أنّه بدلًا من البحث عن المبرّر للنزاع مع الأصدقاء، لا تفتّشوا ولا تخفوا مبرّرات الحرب مع الأعداء. فلو كنتم أهل الحرب فحاربوا العدّو ولكن لماذا تحاربون الأخ والصديق؟! ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ

---

(١) صفحة ٦٠ غير مترجم: نوع من الغنائم





بَيْنِكُمْۖ﴾، هاتان هما الوصيّتان الكبيرتان. أمّا الوصيّة الثالثة فهي مطلبٌ عامٌّ وشامل لجميع الأعمال الصالحة لاجتناب كلّ الأعمال السيّئة، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إنّ قضيّة الإيمان التي هي توجّهٌ قلبي وارتباطٌ فكريٌّ واعتقاديٌّ ونفسيٌّ بمبدإٍ ما أو شخصٍ أو قطبٍ أو مركزٍ، لا يمكن اختصارها بأنّها عبارة عن توجّهٍ واندفاعٍ نحو شيءٍ يحدث في قلب الإنسان. فالإيمان يكون صادقًا عندما يكون العمل مطابقًا له، هناك يمكن للإنسان أن يدّعي أنّه مؤمنٌ واقعي، وذلك عندما يلتزم بلوازم الإيمان وعهوده. هناك يمكن للإنسان أن يقول إنّني مؤمنٌ باللّه ومعتقدٌ به تعالى، ذلك عندما تكون حياته وواقعه مختلفًا تمامًا مع ذاك الذي ينكر اللّه. فما الفرق بين عمل ذاك الذي ينكر اللّه في هذه الأيّام وعمل الذي يدّعي أنّه مؤمنٌ به تعالى؟ فكلٌّ منهما ظالمٌ، وكلٌّ منهما مستغرقٌ حتّى آخر نفس في المادّيّات، وكلٌّ منهما مستعدٌّ أن يدوس على جميع الفضائل من أجل عدّة أيّام يعيشها، وبعض طعامٍ يأكله، وبضعة أيّام يرتاح فيها، وأجواء متّسخة. غاية الأمر أنّ الأوّل يقول إنّني غير معتقد باللّه والآخر يدّعي العكس. فأيّ نوعٍ من الإيمان هو هذا؟! إنّ الآية القرآنية في هذا المجال صريحةٌ. ولا مجال هنا للاستدلالات العقليّة التي تزيل الشبهات، بل يجب القيام بالأمور المذكورة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وإحدى هذه الأعمال ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فما هو أمر اللّه؟ لقد حدّد اللّه تعالى لكلّ موجودٍ مسؤوليّات وتكاليف ووظائف محدّدة، سواء ما يتعلّق بأموال الناس وأرواحهم وحياتهم وعلاقاتهم مع الإنسان نفسه، وعلاقتهم مع اللّه، وعلاقتهم



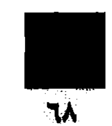
مع الكائنات الحيّة وحتّى النباتات. في هذه الحال، إذا أطعتم اللّه يمكنكم أن تقولوا إنّنا مؤمنون. وفي غير هذه الصورة، فإنّ الإيمان، الذي يكون مجرّد توجّهٍ قلبيٍ نحو قطبٍ ما دون أن يكون شعاع هذا الارتباط ممتدًّا إلى العمل باليد واللسان والأعضاء والجوارح، لا يكون نافعًا. بل إنّه بحسب الإسلام ممّا لا يصدق عليه اسم الإيمان. هذا هو منطق القرآن، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وبمناسبة ذكر «المؤمنين» في نهاية هذه الآية يأتي ذكر صفات المؤمنين وشروط الإيمان في الآية اللاحقة، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[1]. وقد ذُكر فيها للمؤمن الحقّ خمس خصال. ومن الممكن أن لا تكون هذه الخصال الخمس موجودةً في القائل والسامع، ولكنّها ضرورية في الذي يسعى على طريق الإيمان وأهدافه ليستحقّ اسم المؤمن.

١- أوّلًا، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيد الحصر ويكون ذكر اللّه ووجل القلوب مختصًّا بهم. فما الذي يسبّب الوجل؟ وما هو معنى الخوف من اللّه؟ وهل هو كخوف العاصي مقابل القاضي، أم أنّه نوعٌ آخر أشدّ لطافة ودقّة؟ من الممكن أن يقول قائلٌ إنّني لا أعصي، ولذلك لا أخاف من اللّه. أجل، إنّ خوف العاصي أمام القاضي وأمام مَن يريد أن يجازي هذا الإنسان، ينتفي مع عدم

---

(١) سورة **الأنفال**، الآيات ٢-٤.

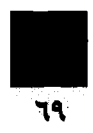




وجود المعصيّة. ولكن مَن هو هذا الشخص الذي يمكنه أن يطمئّن بأنّه لم يعصِ؟! أمّا النوع الآخر من الخوف، فهو الذي ينشأ من المعرفة. فالإنسان يشعر بالدهشة والحيرة مقابل الأشياء الكبرى والذوات والحقائق العظيمة والكبيرة والهائلة. هذه هي خاصّيّة وجود الإنسان، والتركيب الروحي والجسمي لهذا المخلوق، أن يشعر بمثل هذه المشاعر عندما يقابل عظيمًا.

وهذه الحالة من الذهول والوجل ليست من باب الخوف. فمن الممكن أن لا يكون خائفًا أبدًا بمعنى الخوف من التعرّض له بشيء، وليس أيضًا خوف ناشئ من المعصية، بل إنّه نوع من الإحساس بعظمة أمرٍ ما إلى جانب الشعور بحقارة نفسه مقابله. وهذا النوع من خوف اللّه مطلوبٌ ولازمٌ ومفيد. فالذي يرى نفسه مقابل اللّه قليلًا وناقصًا وحقيرًا، ويشاهد ربّه مهيمنًا ومسلّطًا ومسيطرًا على جميع شؤون أموره، سيسعى أن لا يتخلّف عن الصراط المستقيم الذي حدّده اللّه له، وهذا أعظم ضامنٍ إجرائيٍّ للعمل والحركة والسعي للإنسان المسلم، وفي المجتمع المسلم كذلك.

إنّ ما ترونه من أمير المؤمنين في منتصف الليالي وفي ليالي شهر رمضان، حيث يبكي ويذرف الدموع، وما ترونه من الإمام السجّاد الذي كان يصرخ أحيانًا، وما كنتم ترونه من رسول اللّه مع كلّ جلاله وعظمته عندما كانت تحين العشر الأواخر من شهر رمضان، حيث يأمر بأن يُجمع فراشه ولا يُبسط إلى آخر الشهر، ويترك المنام ويتفرّغ للعبادة والتضرّع والخضوع مقابل اللّه؛ فلا تظنّوا أنّ هذه الأمور هي أعمالٌ مصطنعة أو تمثيليّة. فكم هو ناقصٌ وغير مطّلعٍ من يقول إنّ الإمام أراد في دعاء أبي حمزة الثمالي أن يعلّم الناس



شيئًا ولم يقصد نفسه، وكم هو بعيدٌ عن الحقيقة وعن روح الدعاء وعن كيفيّة مناجاة عباد اللّه الصالحين لربّهم.

ذاك الذي يتصوّر أنّ الأنين والبكاء ودموع الإمام، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إنّما كانت لأجل التعليم فقط، أي إنّهم كانوا يمثّلون ويتظاهرون من أجل تعليمي أنا وأنت، هذا هو الاشتباه والخطأ. لقد كانوا يذرفون الدموع وعلينا أن نتساءل لماذا؟ إنّ ذلك قد كان بسبب أنّ معرفتهم بربّهم أعمق وأجلى. فأمير المؤمنين يرى في وجود الربّ المقدّس عظمةً لا يمكن لعيوننا القاصرة أن تدركها: «فأنت عظيمٌ لا تُرى في المرائي الصغيرة»[1]؛ فمرائي أرواحنا الصغيرة لا يمكنها أن تعكس تلك العظمة العجيبة، ولكن ماذا عن مرآة روح أمير المؤمنين؟! إنّه يستطيع أن يدرك هذه العظمة ويفهمها ولهذا فإنّه يئنّ ويبكي.

عندما يأتي ذكر اللّه، فإنّ حالة الهيبة والخشية والخوف، بل حالة الرعب الناشئة من الإحساس بالحقارة مقابل عظمة اللّه، تسيطر على قلوب المؤمنين ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. فاللّه يخرج عن صورة الألعوبة بالنسبة لهذا الإنسان، ولا يكون ذكر اللّه وذكر اسمه ذكرًا اعتياديًّا كما يحصل عندما يجلس في محضر شخصٍ ما ويذكر كلمة «يا اللّه» من باب التقدير والاحترام، أو يقول «لا إله إلّا اللّه» من جرّاء التعب، فإنّ مثل هذه الحالات التي تدلّ على اللامبالاة وعدم الإدراك وعدم إدراك نفس الإنسان مقابل ذكر اللّه واسمه وعظمته، كلّ هذه الصور تخرج من قلب الإنسان العارف باللّه والمدرك لعظمته، ذاك الذي يدرك ويستشعر عظمة

---

(١) تو بزرگی ودر آيينه كوچك ننمايى نازم آن سر كه چو گيسوى تو در پاى تو ريزد (شهريار).

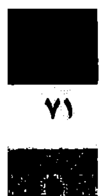


الربّ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٢- ثانيًا، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. علامةٌ أخرى للمؤمنين هي أنّهم عندما يستمعون إلى آيات اللّه تُتلى عليهم أو يتلونها بأنفسهم، فإنّ إيمانهم يزداد. وهذا الإيمان يكون في قلوبهم مثل بذرةٍ تنمو في أرواحهم وتكبر وتكون كالنبتة التي تتسامى، أو كالشجرة التي تستحكم أكثر فأكثر بجذورها ولا يمكن بعد ذلك اجتثاثها. فالإيمان في وجود المؤمن لا يكون كحالة المياه الراكدة. أولئك الذين تعلّموا كلمةً ما (وهي كلمة الإيمان) أثناء طفولتهم ثمّ، وعلى أثر الشكّ الذي يحصل أيّام البلوغ، تسقط تلك الكلمة من صلابتها ومن عظمتها التي كانت في أرواحهم وتنقص وتصبح لا شيء وتكون شبيهةً بالإيمان وتبقى شبيهة بالحقيقة في أرواحهم على أثر الأحداث المختلفة، فمثل هذا الإيمان سوف يُسلب من الإنسان بسهولةٍ ذات يوم؛ هذا هو الإيمان المستودع، أو الإيمان المستعار.

إنّ المؤمن لا يكون كذلك. المؤمن الحقّ هو ذاك الذي لو كانت هناك كلمة واحدة عن الحقائق والمعارف الدينية في قلبه، فإنّه يتدبّرها ويدقّق فيها ويفكّر ويستعين عليها بكلّ ما يمكن من أجل زيادة إيمانه وعدم زواله، هذا هو المؤمن الواقعي.

ونستفيد من هذه الآية، ومن هذه الجملة أنّ إيمان الإنسان المؤمن ينبغي أن يزداد بتلاوة القرآن. ونستند إلى هذه الجملة ونتأمّل في كلام اللّه هذا ونقول لأولئك الذين ينهون عن ترجمة القرآن وتفسيره وأنّه لا يصل إلى عقولنا، نقول لهم إنّه إذا كنّا لا نستطيع أن نفهم القرآن فكيف يزداد إيماننا بقراءته؟! فمن الواضح



أنّ القرآن ليس كتابًا مرمّزًا. إنّه كتابٌ يجب أن يُقرأ من أجل الفهم. والفهم ينبغي أن يكون من أجل تقوية الإيمان وزيادته، هذا هو الشرط الثّاني والخصلة الثانية.

٣- وتتمّة للآية ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ علامة أخرى للمؤمنين وهي أنّهم يتوكّلون ويعتمدون على ربّهم. فماذا يعني التوكّل هنا؟ وهل هو بمعنى أن يقعد الإنسان ويقول إنّ اللّه يحقّق كلّ شيء؟! كلّا، هذا ليس معنى التوكّل. فذاك الذي يختار القعود مقابل التكاليف والعهود والمسؤوليّات، بدل أن يعتبر نفسه مسؤولًا عن استخدام طاقته، ويلقي بالأمر والمسؤوليّة على المعجزة الإلهيّة، على هذا الإنسان أن يعلم أنّ القرآن يرفض مثل هذا الأمر. وهذا الكلام ضربةٌ محكمة توجّه لأفواه بني إسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1]؛ وكأنّهم يريدون أن يبقوا مختبئين أو يجلسوا في الظلّ، وبالنسبة لهم إذا حصل الفتح يقولون لموسى عليك أن تخبرنا حتّى نأتي.

يرفض القرآن مثل هذا المنطق وهذا النهج الذي كان لبني إسرائيل المطرودين والملعونين والمبعدين عن جادّة الإنسانيّة والمحرومين من لذائذ الدين والإيمان، ولذلك لم يكونوا لائقين أن يكونوا مسلمين؛ لهذا لا ينبغي تفسير التوكّل بهذا المعنى. والكلام الرائج بين الناس - وأنا أذكره هنا حتّى يسمع الجميع ويفهموا - حيث يقولون: يا فلان يجب أن يقوم اللّه بإصلاح الأمور، فنحن العبيد لا نستطيع أن نفعل شيئًا، هذا خطأ. فلو لم يكن عبد اللّه

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٢٤.



قادرٌ على فعل شيء، ولو لم يكن من دورٍ للطاقة البشريّة والإرادة الإنسانيّة في قلع الفساد، لما أرسل اللّه تعالى الأنبياء وبعثهم؛ ولما دعا الناس إلى اتّباعهم، ولما أرسل الأنبياء الإلهيّين بتلك الرسالات الثقيلة إلى ساحات المواجهة في هذا العالم. وما ترونه من أنّ اللّه تعالى أرسل أشخاصًا من أجل اقتلاع الفساد، وهم من الجنس البشريّ، فذلك لتعلموا أنّ على البشر أن يقتلعوا الفساد البشريّ.

فماذا يعني التوكّل إذن؟ إنّه عبارة عن الاعتماد على اللّه والأمل به في كلّ الأحوال. ولو أنّكم دقّقتم جيّدًا لرأيتم أنّ التوكّل هنا في العبارة التي استخدمتها، يخرج من كونه شيئًا مخدّرًا ليصبح عاملًا باعثًا ومحرّكًا ومبيّنًا.

هل رأيتم بعض الناس ماذا يفعلون عندما يواجهون مصاعب الحياة وأزماتها وعندما لا يكون في أيديهم أيّ شيء من الوسائل الظاهرية، هل سمعتم عنهم؟ هؤلاء سوف يقومون بأحد الأمور التالية، إمّا أن يستسلموا للعدوّ ويقولوا: ماذا نفعل ولا نستطيع أن نحدث تأثيرًا؟! أو أنّهم يستسلمون لمسير الحياة العادية ولا يذهبون لمواجهة العدوّ ولكنّهم من الناحية العمليّة يسلكون طريقًا ومنهاجًا ويتّبعون حركةً وسعيًا بحيث ينسون في النهاية أنّهم استسلموا لتيّار الحياة اليوميّة، فمثل هذا الشخص، وإن لم يسلّم بالظاهر للعدوّ، فإنّه قد استسلم له في الباطن، وهذا أيضًا نهجٌ، وهذه حالة يسلكها عامّة الناس في مثل هذه الأزمات.

والطريق الآخر هو أن ينهوا حياتهم. فذاك الذي يصل مثلًا إلى سدّة الحكم، وعندما يبدأ عملاء القوى العظمى بالسعي لإخضاعه من كلّ جانب، وتنهال عليه الانتقادات من كلّ أطراف دولته،



وعندما يصبح عاجزًا بائسًا ذليلًا تعبًا، فإنّه يختم حياته بالانتحار. هذه طرقٌ تُطرح على الإنسان الذي لا يؤمن بالله عندما يواجه المصاعب، ويُقال له أنّك إذا وصلت إلى طريقٍ مسدود ورأيت أنّه لا يوجد مخرج، فيكون بالنسبة للناس العاديين عدّة أبواب مفتوحة، أحدها باب الاستسلام للعدوّ، والاستسلام للحوادث والاستسلام للأحداث الطبيعية للحياة وباب الانتحار والقضاء على النفس والراحة وأحيانًا الندامات.

أمّا بالنسبة للإنسان المؤمن بالله، فإنّ باب التوكّل على الله يفتح عليه بابًا آخر عند المضائق يغلق بمقابله تلك الأبواب التي تهدر كرامته وشرفه. يقولون هنا: لقد سُدّت المنافذ؛ فيقول: إنّ الله الذي أعرفه سيفتح هذا الباب المغلق أو الطريق المسدود، فمن جهة الله لا يوجد طريقٌ مسدودٌ. إنّ جميع الطرق المغلقة والمسدودة تُفتح بيد القدرة الإلهيّة. وهل كان من طريقٍ مسدودٍ مغلق أكثر ممّا حدث في معركة أُحد، فنجد أنّ جيش الإسلام المحدود عددًا وأثناء انشغاله بجمع الغنائم يتعرّض لهجوم من جهتين وبصورة مفاجئة بسبب غفلة بعض الجنود، فتهاجمهم فرقة من الأمام وفرقة من الخلف، وكانوا قد وضعوا السيوف أرضًا وترجّلوا عن خيولهم وتركوا أسلحتهم ليجدوا أنّهم يهاجمون من قبل مجموعتين مسلّحتين بصورة وحشيّة وغاضبة للغاية.

حسنٌ، من الواضح أنّ أيّ جيش لا يكون مستعدًّا ومسلّحًا، فإنّه يفرّ في مثل هذه الحالات. وأثناء فرارهم، فإنّ الشيطان، بمخطّطاته وأحابيله، يستغلّ مثل هذه الأوضاع ويصرخ على لسان بعض أتباعه أنّ النبي قد مات، ليُعلن انكسار الجبهة الإلهيّة والرحمانيّة قبل النهاية، فيقول إنّكم قد هُزمتم وإنّ النبي قد انتهى.





ففي مثل هذه الأزمة وفي مثل هذه المضائق، ماذا يفعل المؤمن المتوكّل؟ هل يوجد مضيقةٌ أشدّ من هذه؟! وكأنّ طرق النجاة قد سُدّت بالكامل، وها هي الأسلحة على الأرض، والعدوّ مستعدّ ومسيطر، فمن الذي سيأتي لنجدة الإنسان؟ وأين هي نافذة الأمل التي لا توجد إلّا عند عباد اللّه؟ إنّه التوكّل على اللّه. فإذا مات النبي، فإنّ ربّ محمّدٍ لم يمت والتكليف لم يرتفع. فماذا يفعل الإنسان المتوكّل في مثل هذه الحالات؟ كأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأبو دجّانة[١] وغيرهما قليل ممّن كانوا من أهل التوكّل. فمن هم الذين لم يكونوا متوكّلين على اللّه؟ أولئك الذين بدأوا بالفرار ولم ينظروا خلفهم من أُحد وحتّى المدينة، فاستمرّوا بالركض والعَدو حتّى وصلوا إلى أبواب المدينة.

فذاك الذي يفسّر التوكّل على أنّه الترك والقعود على أمل المستقبل المجهول الفاقد للسعي، يكون قد سلب من الإيمان قدرته. ذاك الذي يظهر التوكّل بمعنى إبطال إرادة الإنسان وقدرته، ذاك الإنسان إمّا أنّه لم يفهم التوكّل، أو أنّه يفهم لكنّه لا يريد أن يكون شريفًا ويريد أن يبدّل المعنى في أذهان الناس من أجل أن يجعلهم مثله. معنى التوكّل هو ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

---

(١) السّمّاك بن خرشة المعروف بأبو دجّانة من كبار الصّحابة الذي استُشهد في معركة اليمامة في السنة الحادية عشرة للهجرة بعد ارتحال النبي، وقد كانت بطولاته وتضحياته في معركة أحد إلى حدٍّ أن الآية الرّابعة من سورة الصفّ المباركة قد نزلت بشأن مقامه ومقام عظماء أمثال أمير المؤمنين والحمزة. وفي روايةٍ يذكره الإمام الصّادق كأحد قادة جيش الإمام المهديّ، والذي يرجع مع من يرجع، بعد ظهور الإمام.



برأيي يوجد جناحان مقتدران لعروج الإنسان وتحليقه في مساعي الحياة: أحدهما الصبر والآخر التوكّل. إنّ كلّ أمّة تمتلك هذين الجناحين، ستكون بمأمن من العداوات الأرضيّة بالكامل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. إذًا، العلامة الثالثة للمؤمن هي: التوكّل. وما سأتعرّض له في مورد الإيمان هو هذه العلامات واللوازم.

٤- الرابع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. التفتوا أيّها السّادة هناك فرقٌ في التعبير بين قوله «الذين يصلّون» وبين «الذين يقيمون الصلاة». لو كانت الصلاة هي المطروحة فقط لما كان ينبغي أن يُقال ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. فمن الواضح من العبارة أنّها غير «أن يصلّوا»، هي حقيقةٌ أرقى وأعلى؛ فما هي هذه الحقيقة بنظركم؟ وماذا يعني قد قامت الصلاة؟ يمكن طرح عدّة احتمالات، ويمكن أن تكون هذه الاحتمالات صحيحة كلّها. أحدها، أن نقول إنّ إقامة الصلاة هي بمعنى الصلاة بصورتها الكاملة والمستوعبة لكلّ الأبعاد، والإقامة في اللغة العربية ومصطلحاتها تشير إلى هذه المعاني أيضًا، أي القيام بالعمل بصورة كاملة. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[1] أي اجعل وجهك ووجودك كلّه نحو الدين بصورةٍ كاملة، هذا هو الاحتمال الأوّل. فإنّ الإنسان الذي يقيم الصلاة بهذا المعنى ويؤدّيها بصورةٍ كاملة بأركانها الصحيحة وبالالتفات إلى الأحكام والتعاليم وإلهامات الصلاة[2]، سيكون الفلاح من نصيبه.

الذي يصلّي بصورةٍ جيّدة، كلّ مشاكله سوف تُحلّ. وقد

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

(٢) لقد تمّ الحديث بصورة مفصّلة نسبيًّا في مسجد كرامات في مشهد المقدّسة قبل عدّة أسابيع حول الصلاة.





سمعتم أنّ بعض عظماء الدين عند نزول البلاءات والشدائد، كانوا يصلّون ركعتين. وسمعتم كيف كان رسول اللّه عند الأزمات والشدائد يتوجّه إلى بلال، ويقول: أرحنا يا بلال[1]، أي اذهب وأعلن الآذان. أبرد يا بلال أي قم إلى الآذان. في الواقع، لو أنّ شخصًا أقام الصلاة بتوجّهٍ وخضوعٍ وخشوعٍ وحضور قلب وبالالتفات التامّ إلى ما يقوم به وما يقوله، وبقصد الوصول إلى نتيجة الصلاة، فمن المحتّم أن ينال ما وُعد المؤمنون به في هذا المجال؛ هذا احتمالٌ.

أمّا الاحتمال الآخر من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هو أن تُقام الصلاة في المجتمع، ويصبح المجتمع بأسره مقيمًا للصلاة. البعض مرتاحون أنّهم يصلّون، ولعلّه بدل ١٧ ركعة في الليل والنهار يصلّون ٥١ ركعة، هذا بالإضافة إلى صلوات مستحبّة أخرى. ولو قيل لهم إنّ الناس يخرجون من دين اللّه أفواجًا، لما غمّهم ذلك. في التعبير الشعري لسعدي: لقد طووا سجّادتهم حتّى لا تبتلّ بالماء. يقول لك إنّنا نفعل ذلك، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ولا يصل سوؤنا إلى الآخرين. وهذا ليس عملًا يدلّ على الإيمان. فالذي يصلّي بنفسه ولكنّه لا يهتمّ للآخرين لا يقوم بعملٍ صالح. هذا ليس صحيحًا أي ليس كاملًا.

فما هي علامة الإيمان؟ إقامة الصلاة في المجتمع وجعل الجميع يصلّون ولا يعني ذلك أن يقوم الناس جميعًا بهذه العبادة. فأنا أودّ أن تحرّروا أذهانكم من قالب الألفاظ وتفكّروا بصورةٍ أوسع

---

(١) العلاّمة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣ه، ١٩٨٣م)، الجزء ٨٠، الصفحة ١٧.



وأنا أفكّر هكذا أيضًا. فالألفاظ صغيرةٌ وقاصرةٌ. ولا يعني ذلك أن نجعل الذي لا يصلّي، يصلّي. فالمجتمع الذي يصلّي هو المجتمع الذي يلهج دائمًا بذكر اللّه وفي طريق اللّه، الذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وهو ذاك الذي يتبرّأ كلّ يوم من أئمّة الفساد أي المغضوب عليهم، وأتباع الفساد أي الضالّين؛ هذه هي الصلاة. لو أنّ شخصًا سعى لجعل الآخرين يصلّون بهذا المعنى، فهذا في الحقيقة سعيٌ على طريق العبوديّة المطلقة للحقّ، وعلى طريق اقتلاع الفساد، وعلى طريق اقتلاع الأنا، وعلى طريق إيجاد الوحدة الاجتماعية والإنسانيّة بين آحاد الأمّة الإسلامية وآحاد البشريّة، هذا هو معنى إقامة الصلاة. فقوموا بما يجعل الناس يقولون كلّ يوم خمس مرّات، وفي كلّ مرّة عدّة مرّات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويقولون في هذه المرّات أيضًا إنّنا نتبرّأ من المغضوب عليهم ومن الضالّين وننفر منهم. فمن الممكن أن يكون معنى إقامة الصلاة هو هذا.

٥- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فما هي العلامة الأخرى للمؤمنين؟ وماذا يعني الإنفاق؟ لقد ذكر في الجسلة السابقة معنى الإنفاق وهو يعني ملء الفراغات والاحتياجات. ولو أنّكم جئتم إلى جدار هذا المسجد وطليتموه بالألوان وأنفقتم عليه المال من أجل طلائه، فهذا ليس إنفاقًا لأنّه لم يكن هناك احتياج إلى هذا العمل فقد كان هناك لون، أو صباغ، أو أنّه لم يكن هناك دهان، لكن لم يكن هناك حاجة إليه؛ وجئتم إلى تراب مسجد الإمام الحسن مثلًا وأنفقتم مبالغ ماليّة من أجل الطلاء، فماذا تكونون قد فعلتم؟ إنّكم أهدرتم كلّ هذا الطلاء على الأرض والتراب. أجل، إنّه صرفٌ للمال ولكنّه ليس إنفاقًا، فالإنفاق عبارة عن تعبئة الفراغ والخلأ والاحتياج



الموجود في متن المجتمع.

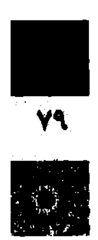
فماذا يعني قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إذًا؟ أي إنّ المؤمنين هم الذين ينفقون ممّا رزقناهم - ولا يوجد ذكرٌ للمال هنا - ولا يختلف الأمر إذا كان مالًا أو عمرًا أو ولدًا أو سمعةً أو قدرةً جسمانية أو لسانًا أو فكرًا أو إمكانات، فإنّهم ينفقون ممّا نرزقهم.

أيّها الأخ المؤمن الذي تحمل اسم المؤمن! إذا قيل لك مؤمن فرحت! ولو أنّ أحدًا شكّك في إيمانك لانزعجت. من الممكن أيضًا أن تقول ما هي الفائدة من أنّكم تعتبروننا بلا دينٍ وبلا إيمان في كلماتكم؟ أيّها الأخ الذي يحمل اسم الإيمان! هل تنفق؟ لا أقول أنّك تصرف أم لا، أجل، إنّك تصرف كثيرًا، فهل إنّك تصرف الأموال في أيّام شهر رمضان، وتهيّئ الطعام اللذيذ، وتدعو الجائعين إلى مائدتك ذات الأطعمة المتنوّعة، فكم تصرف، لكن هل أنّك تنفق؟!

أيّها القائل العزيز كم تتحدّث! وكم تتنفّس! وكم تصرف من رئتيك ووجودك وجسمك وأعصابك! وكم تصرف من طاقة بيانك! ولكن هل أنّك تنفق من هذه الطاقة؟ إنّ كثرة الكلام ليست فنًّا، بل الحديث في مورده هو الفنّ. الأوّل ليس بالإنفاق، هذا هو الإنفاق.

يا مَن تصرفون من سمعتكم وشأنيّتكم، تكتبون رسالةً لفلان، وتتوسّطون إلى فلانٍ من أجل أن يجد عملًا لفلان، وتتودّدون وتتقرّبون بالاحترام إلى فلان، فتصرفون من سمعتكم، لكن هل تنفقون؟!

يا مَن تصرفون المال في الأماكن المختلفة باسم الدين وغير الدين - أجل، فإنّ الإنسان أحيانًا يصرف المال باسم الدين في



حين أنّه لم يكن قد أنفق - لا تستوحشوا من هذا الكلام الذي هو حقيقة، وأيّة حقيقةٍ مرّة! فكم تصرفون من الأموال باسم الدين لكنّها ليست بالإنفاق لأنّها لا تملأ فراغًا، لأنّها لا تشفي مرضًا، ولأنّها لا تقضي حاجة مسكينٍ في هذا المجتمع؛ وإنّما أساس الإيمان وشرطه وعلامته هو الإنفاق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. بعد ذلك، لو أردتم أن تصرفوا الوقت والسمعة والمال فكّروا جيّدًا، فهل أنّكم بمثل هذا الذي تقدّموه تنفقون؟ أم أنّكم تصرفون بلا طائل.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ تلك المغفرة التي فسّرناها سابقًا، أملنا أن تكون قد استقرّت في أذهانكم، وأن تبقى كذلك. فلو كان اللّه ليغفر لأحد فإنّه يلئم ذاك الجرح الذي حصل في الروح من جرّاء المعصية. ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، ذاك الرزق الذي يمتزج بالشرف، لا الذلّة والعسر والوضاعة؛ هذا ما يعطيه اللّه لهؤلاء.

أينما وجدتم مجتمعًا مؤمنًا، ولا أقول فردًا، لا تقولوا إنّنا الحمد للّه حصلنا على لقمة الخبز ونحن مرتاحون ولسنا بقلقين ولا يمنّ علينا أحد. فإنّكم لو نظرتم في طيّات عملكم لوجدتم أنّه كلّه شقاءٌ ومنّة. أولئك الذين يقومون بالأعمال المليئة بالعار لا يشعرون أنّ ما يقومون به هو عارٌ وأنّ هذه اللقمة من الخبز هي لقمة العار - إنّني أتحدّث عن مجتمعٍ تكون لقمة خبزه طاهرةً كريمةً متلازمة مع العزّة والكرامة، وعندما ينال رزقه بعزّةٍ وشرف، يكون مؤمنًا، وله هذه الصفات. فلو كان الأمر كذلك، فإنّ جميع الشعارات التي تطلقها الأحزاب السياسية في العالم في هذا الزمان، في كلّ زاويةٍ ومكان، وخلف مكبّرات الصوت، سواء صادقة أم كاذبة، من بين شعوب

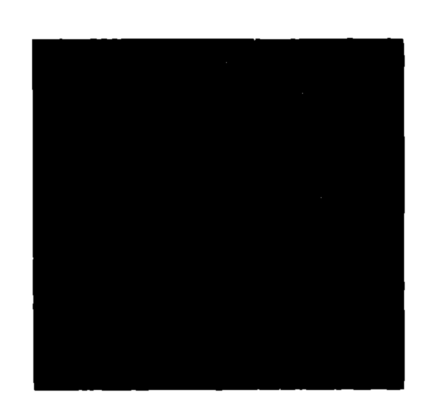


العالم، فإنّ كلّ تلك الشعارات سوف تتحقّق في المجتمع الإيمانيّ، من مثل: السلام، والحريّة، والرفاهيّة، والهناء، وعدم الحروب، وعدم سفك الدماء، والأخوّة والمودّة، والمستوى الثقافي والعلمي والمعيشي العالي، وكلّ هذه الكلمات والألفاظ التي يحمل بعضها المعاني وبعضها قد يكون فاقدًا لأيّ معنى، فإنّها جميعًا سوف تتحقّق في المجتمع الإيمانيّ، لَهُمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

الجلسة الثالثة

الإيمان الواعي

السبت، ٤ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

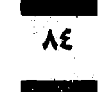
[سورة **آل عمران**، الآيتان ١٩٠ و١٩١]



بالالتفات إلى الآيات التي ذكرت أعلاه، نذكر عدّة حقائق أساسية في مجال الإيمان:

أوّلًا: الإيمان والاعتقاد باللّه ورسالاته خصلةٌ بارزةٌ لرسل اللّه والمؤمنين بهم ولأتباعهم. ويكمن الفرق الجوهري بين القادة الإلهيّين والزعماء السياسيين في العالم في هذه القضيّة؛ أنّ القادة الإلهيّين الذين سلكوا طريق الإيمان يؤمنون من أعماق وجودهم بما يقولون وبكلّ خطوةٍ يخطونها وبالطريق الذي يسلكونه. في حين أنّ زعماء العالم يمكن أحيانًا أن يصدر منهم كلامٌ جميل وخُطب رنّانة وعذبة ولكنّهم لا يؤمنون بما يقولون أو أنّ إيمانهم لا يكون بالمستوى المطلوب.

ولقد نُقل عن أحد زعماء دولةٍ كبرى من دول المعسكر الشرقي - بما يحمله هذا البلد من شعاراتٍ إلحاديّة وثقافةٍ ومذهبٍ يدين بشدّة كلّ فكرٍ غير مادّي - أنّه عند سفره إلى الهند بعد استقلالها، ولأجل جذب قلوب الملايين من الشعب الهندي الذي كان استقلاله جديد العهد، أدهش الهنود والهندوس بشكلٍ عامٍّ عندما نظروا إليه ورأوا أنّه قد وضع صورةً أو رسمًا لتايلاك على جبهة زعماء هذه الدولة الشيوعيّة.





وتايلاك هو أحد قادة نهضة الحريّة الهنديّة، وقد كان من رجال الدين والروحانيّين الكبار للهندوس، كما كان يُعدّ من روّاد الثورة الهنديّة في إحدى الفترات الزمانيّة. ولا بأس بأن أذكر لكم على هامش هذه الكلمة - والتي لا ترتبط بصورة مباشرةً ببحثنا لكنّ معرفتها مفيدة ولا بأس بها - أنّ نهضة الهند امتدّت لـ ٩٠ سنة، منذ بداية تشكّلها وتبرعمها وحتّى يوم إثمارها ونهايتها، ومنذ بدايتها حتّى آخرها كان قادتها الأساسيون من الروحانيّين. فإمّا أنّهم كانوا من الروحانيّين المسلمين كمولانا شاه محمود دهلوي، ومولانا محمود الحسن[١]، ومولانا أبو الكلام آزاد[٢]، ومولانا محمّد علي، ومولانا شوكت علي[٣] - حيث إنّ التعبير بمولانا عند الهنود يوازي

---

(١) مولانا محمود الحسن (١٨٥١-١٩٢٠م)، والمعروف بشيخ الهند هو أول جامعي للمدرسة المعروفة بالدّيوبندي الهند، وهو تلميذ مولانا أحمد رشيد گنگاوى والذي تولّى إدارة المدرسة بعده. لقد كان مولانا محمود الحسن من قادة المسلمين في الهند في نضالهم ضدّ الاستعمال الإنكليزي حيث تمّ الحكم عليه بالسّجن والنّفي عدّة مرّات. لقد كان مبدع نظريّة نهضة عدم التّعامل مع الإنكليز.

(٢) أبو الكلام محي الدين أحمد (١٨٨٠- ١٩٥٩ م). المشهور وبآزاد ومن علماء الهند وقادة النّهضة المسلمة. بدأ نشاطه الجهادي بنشر أسبوعيّة الهلال وبعدها أسّس مدرسة دار الإرشاد، وبعد مدّة قامت الحكومة بإقفال مدرسته ونفيه إلى المناطق الجبليّة. وبعد نفيه وقف إلى جانب غاندي في مواجهة الاستعمار. وبعد استقلال الهند والمشهور بآزاد، ومن علماء الهند وقادة النّهضة المسلمة. بدأ نشاطه الجهادي بنشر أسبوعيّة الهلال، وبعدها أسّس مدرسة دار الإرشاد. وبعد مدّة قامت الحكومة بإقفال مدرسته ونفيه إلى المناطق الجبليّة. وبعد نفيه وقف إلى جانب غاندي في مواجهة الاستعمار. وبعد استقلال الهند تولّى مسؤوليّة وزارة التّعليم والتّحقيق العلمي في الهند.

(٣) مولانا شوكت علي (١٨٧٣ - ١٩٣٨ م.) ومولانا محمد عليّ (١٨٧٨ - ١٩٣١ =



ما نستخدمه نحن من كلمة آية اللّه - فآية اللّه محمّد علي، وآية اللّه شوكت علي، وآية اللّه أبو الكلام، وآية اللّه محمود الحسن، وهؤلاء كانوا قادةً كبار لنهضة الهند من قبل المسلمين. إمّا أنّهم من الهندوس مثل: مهاتما غاندي، الذي هو روحانيٌّ هندوسيّ، وروحاني تابع لمذهب الجين، ومرتبط بمذهب الجينيّة[1]، أو لا.

المهمّ أنّ تايلاك كان راهبًا هندوسيًّا - ولعلّ التعبير بلفظ الراهب ليس دقيقًا - وعلى كلّ حال، فقد كان روحانيًّا هندوسيًّا يتمتّع بعظمةٍ كبيرةٍ وأخّاذة ورجلًا مدهشًا جدًّا، مات أثناء النهضة وقبل وصولها إلى ثمرتها، وارتحل من هذه الدنيا ولم يرَ تحرير الهند. لكنّنا نجد، بعد مرور ثلاثين أو أربعين سنة على موته، أنّ أولئك الذين تربّوا على يديه قد شربوا وارتوَوا من كأس الحريّة. وكان هناك صورةٌ مرسومةٌ له كتذكار؛ أي لهذا الرجل المنادي بالحريّة والذي كان روحانيًّا هذه الصورة أو الرسم الذي يبرز فيه البعد الروحاني والمعنوي الذي نطلق عليه ما وراء الطبيعة؛ فتايلاك نفسه كان رجلًا صاحب مقاماتٍ روحانيّة بحسب رأي الهندوس. وفي النهاية،

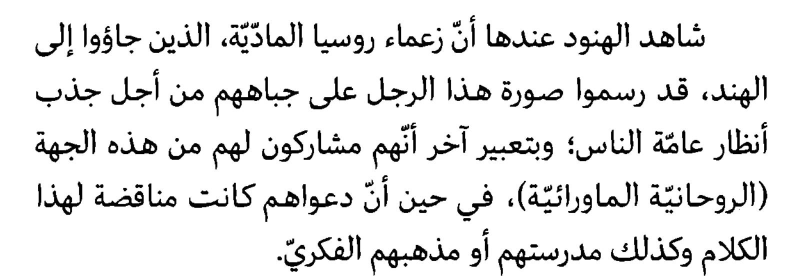
= م.) أخوان من علماء شيعة الهند، أسّسا تيّارًا باسم نهضة الخلافة أثناء الحرب العالميّة الأولى من أجل دعم الامبراطور العثمانيّ. وقد وقفا في نضالهما مع غاندي ضدّ الاستعمار الإنكليزي، وسعيا كثيرًا من أجل الوحدة بين المسلمين والهندوس.

(١) هو مذهبٌ عرفاني وأقدم من البوذيّة حيث أنّ أتباعه يتعهّدون عدّة أمور من ضمنها عدم قتل أو أذيّة أيّ كائنٍ حيّ، اجتناب أي قولٍ أو فعلٍ يؤدّي إلى الغضب أو الكذب، عدم مدّ اليد إلى أموال الآخرين، تحريم الشّهوات الجنسيّة على أنفسهم، ترك أيّ نوع من التعلّق ولو كان قليلًا بالأشياء سواء كانت حيّة أو غير حيّة.





هو رجلٌ يمثّل الروحانيّة.



شاهد الهنود عندها أنّ زعماء روسيا المادّيّة، الذين جاؤوا إلى الهند، قد رسموا صورة هذا الرجل على جباههم من أجل جذب أنظار عامّة الناس؛ وبتعبير آخر أنّهم مشاركون لهم من هذه الجهة (الروحانيّة الماورائيّة)، في حين أنّ دعواهم كانت مناقضة لهذا الكلام وكذلك مدرستهم أو مذهبهم الفكريّ.

هذا هو شأن العديد من الزعماء السياسيين البعيدين عن المسؤوليّات المعنويّة والإيمانيّة والإلهيّة. أمّا رسل اللّه، فإنّهم على النقيض من ذلك، يؤمنون بكلّ وجودهم بما يقولون وبما يدعون الناس إليه، بل يسبقونهم جميعًا إلى ما قد نادوا به. فليس مقبولًا أن أكون أنا عند سفح الجبل أنام وأستلقي ويقتلني العطش، ثمّ أقول لكم أيّها السادة إنّ في أعلى هذا الجبل نبعًا من المياه العذبة فانهضوا واركضوا واسرعوا وسارعوا وسابقوا، وأنا هنا لن أتزحزح. فللآخرين الحقّ أن يقولوا إنّك لو كنت صادقًا ولو كنت عالمًا بوجود مثل تلك المياه العذبة، فلماذا تحترق من العطش؟ فيا أيّها المسكين انهض بنفسك وتحرّك، وإلّا فأنت تكذب ولا تعتقد بما تقول.

إنّ القادة الإلهيّين، يتحرّكون قبل الآخرين جميعًا، يسيرون ويتقدّمون الجموع على الطريق، ويحملون الراية ويخطون بخطواتٍ ثابتة وواثقة. يقول إبراهيم، خليل الرحمن: إنّني أوّل من أسلم لك يا ربّ وخضع، ومن بعدي بقيّة الناس وسائر خلق اللّه. هذه هي خاصّيّة القادة الإلهيّين. القائد الإلهي ينبغي أن يكون هكذا وهو كذلك. إنّ النبي الأكرم كان يتواجد في أهمّ حوادث صدر الإسلام



وأشدّها خطرًا. وصحيحٌ أنّ عبد اللّه بن مسعود[١] كان ينال حظّه من الضرب وكذلك الخبّاب[٢] وعمّار بن ياسر[٣]، وكانوا يتعرّضون لشتّى أنواع التعذيب، لكنّ الآلام والعذابات التي كان يعاني منها رسول اللّه أو يتلقّاها لم تكن أقلّ منهم بل كانت أكثر. فلو قارنتم بين حالة النبي وأحوال غيره من المسلمين الأتقياء الذين التفّوا حوله لوجدتم أنّ رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يتلقّى أشدّ أنواع ردود

---

(١) كان عبد اللّه بن مسعود من أوّل من آمن بالنبي، وهو أوّل المؤمنين الذين كانوا يتلون آيات القرآن في دعوة قريش إلى الإسلام، وبعد تحمّل كلّ أنواع التّعذيب هاجر بأمرٍ من النبي إلى الحبشة، وقد أرسله الخليفة الثّاني مع عمّار بن ياسر كمدرّسٍ للقرآن إلى الكوفة، وبعد نفي أبي ذرّ إلى الرّبذة صلّى على جسمانه. وبسبب اعتراضاته على حاكم الكوفة بزمن عثمان أعيد إلى المدينة. وقد تُوفّي عبد اللّه بن مسعود عام ٣٢ للهجرة على أثر المرض الذي عرض عليه بعدما تمّ ضربه وتعذيبه من قبل عمّال الخليفة.

(٢) خبّاب بن أرت كان من أهل النّبطيّة ومن العبيد الذين لبّوا نداء النبي وتعرّض إلى الكثير من التّعذيب وبقي إلى جانب النبي. كان حاضرًا إلى جانب أمير المؤمنين في حروب صفّين والنّهروان، وقد قال أمير المؤمنين بشأنه بعد وفاته، كما جاء في نهج البلاغة: يَرْحَمُ اللّهُ خَبَّابًا، فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا، وَهَاجَرَ طَائِعًا، [قَنِعَ بالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ اللّهِ،] وَعَاشَ مُجَاهِدًا.

(٣) عمّار بن ياسر، أسم عمّار مع أبيه وأمّه سميّة. وقد تبرّأ عمّار من النبي حتّى يحفظ نفسه أثناء تعذيب أمّه وأبيه، وهناك نزلت فيه هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة **النحل**، الآية ١٠٦]، وبقي عمّار بعد رحيل النبي إلى جانب أمير المؤمنين وقد تولّى عمّار في زمن الخليفة الثاني ولاية الكوفة لمدّةٍ، حيث قام الخليفة بعدها بخلعه على أثر السعايات. لقد كان له دورٌ مؤثّر في تجهيز جيش أمير المؤمنين في حرب الجمل، وجوابه على شبهات جنود أمير المؤمنين في معركة صفّين. توفّي عمّار بن ياسر عن عمرٍ ناهز الواحد وتسعون سنة في معركة صفّين.

الفعل وأكثرها عنفًا، فقد كان على الدوام في المقدّمة ويتحرّك في الجبهة الأماميّة.

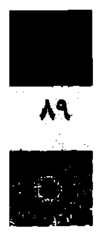
إنّ الإيمان هو من جملة الخصائص التي تمتّع بها رسل اللّه، وهو يعني التصديق والقبول بكلّ الوجود أو من أعماق القلب ومطابقة الفعل للقول. وإنّ من علائم هذا الإيمان هو أن يكون الإنسان نفسه متقدّمًا على الآخرين على أيّ طريق يسلكها، والآية القرآنية تشير إلى هذا المطلب، حيث قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]؛ هؤلاء الذين اتّبعوا هذا الرسول وأضحوا من كبار الداعين لرسالته، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، سواءٌ كانوا جماعةً أو فرادى، فإنّ إيمانهم باللّه وتسليمهم له أضحى من خصائص شخصيّتهم بالإضافة إلى إيمانهم بملائكته وكتبه التي نزلت منذ بداية البشريّة وحتّى يومهم. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾، وذلك لأنّ إيمانهم بالجميع يدلّ على إيمانهم بالطريق الواحد.

والأنبياء في هذا الطريق مثل سادة القافلة، فالكلّ دليلٌ ومرشدٌ، والجميع أدلّاء وقادة لقافلةٍ واحدة، ويتقدّمون المسيرة على نفس الطريق، ويتّجهون نحو هدفٍ واحد، وهم متواجدون مع الناس في كلّ مكان، ويحثّونهم على المضي نحو ذلك المقصد الواحد، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ - وهذا هو لسان حال المؤمنين، إذ لا يعتقدون بوجود أيّ اختلافٍ بين الأنبياء. وبالنسبة لنا إنّ عيسى محترمٌ، وكذلك موسى وإبراهيم وإدريس[2]، وأيضًا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٥.

(٢) بُعث إدريس نبيًا بعد آدم وشيث. وطبق روايةٍ منقولةٍ عن الإمام الصادق، سُمّي إدريس بسبب كثرة تدريس، وقد علّم اللّه تعالى البشر الكتاب بواسطة هذا النبي.



يعقوب وجورجيس[1] وكذلك نوح، لأنّ الأنبياء كانوا منذ البدء وحتّى النهاية مطيعين وعاملين للّه، ويتحرّكون نحو هدفٍ واحد، يبشّرون بسعادةٍ وجنّةٍ واحدةٍ، ويتحرّكون على خطٍّ واحد، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾، فنحن لا نقول بأيّ اختلافٍ بين أيّ نبيٍ وآخر[2].

﴿وَقَالُواْ﴾، دقّقوا هنا وأمعنوا النظر في هاتين الجملتين التي ستكون محلّ الشاهد في المسألة التي سنتحدّث عنها لاحقًا. الإيمان سمةٌ بارزةٌ في الأنبياء وفي نبينا وفي المؤمنين والأتباع والأولياء، ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ فإنّهم يسمعون ويفهمون ويدركون. إنّ الأمرِ هنا بقولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ لا ينحصر بوصول الصوت بوساطة جارحة السمع التي يُعبّر عنها باللغة العربية بالأذن، بل في الإدراك. وأنتم تلاحظون كيف أنّ التعبير باللغة الفارسيّة عندما يقول أحدهم للآخر: استمع، ويسأله: هل سمعت ما قلت؟ أو تقولون لمخاطبيكم: هل سمعتم ما قلنا؟ فمن الواضح أنّ الأمر لا يرتبط بسماع الصوت لأنّ المسافة الفاصلة بينكم وبين المستمعين لا تتعدّى نصف المتر وصوتكم قد يصل إلى ١٠ أمتار. فليكن من الواضح عندكم أنّه قد سمع ولكن أردتم أن تقولوا له: هل فهمت ما سمعت؟ وهل دخل إلى ذهنك ما قلت؟ هؤلاء سيقولون ﴿سَمِعْنَا﴾، حيث يقصدون بأنّهم فهموا بتمام وجودهم ما حدّده اللّه لهم وأرسله إليهم.

---

(١) جورجيس، هو نبيٌ من بني إسرائيل بُعث بعد عيسى وقد تحمّل الكثير من التّعذيب والأذى أثناء دعوة قومه وإنذاره لحاكم زمانه.

(٢) هذه المسألة سوف نتعرّض لها في مجال البحث عن النبوّة ضمن هذه السلسلة من الدروس.





﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾، بالتأكيد إنّ الطاعة هنا ليست طاعةً عمياء بل طاعةٌ مبنيّةٌ على الوضوح والوعي والسمع. ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، إنّ الثواب الذي نطلبه منك يا اللّه هو مغفرتك وليس شيءٌ آخر. ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، ونريد الرجوع إليك[١].

فماذا فهمنا لحدّ الآن من هذه الآيات؟ المسألة مرتبطة بالإيمان والتصديق الذي يُعدّ من خصائص أتباع دعوة الإسلام. وأولئك الذين لا يمتلكون الإيمان ولا التصديق يتحرّكون من باب الاحتياط لأنّهم شاهدوا غيرهم يتحرّك، فمثل هؤلاء ليسوا ضمن دائرة الفكر الإسلامي، لأنّ هذا الفكر ليس فيه أيّة مجاملة بل يتطلّب الإيمان. الإيمان يعني التصديق وتقبّل المطلب بوضوح والإذعان له والتحرّك نحو أمرٍ يتمتّع بجاذبيّة خاصّة. فلو لم تكن هذه الجاذبيّة موجودةً في الدين والقرآن ولم تهيمن على قلوبكم، فإنّ ذلك القلب سيكون ميتًا، ولم يحيَ بنور الإسلام، ولا يصحّ أن يُقال بأنّه مسلم. فالإيمان لازمٌ وضروري؛ وهذا هو المطلب الأوّل.

أمّا المطلب الثاني هو أنّ الإيمان على نحوين:

النحو الأوّل هو الإيمان التقليدي والمتعصّب، فهؤلاء بمجرّد أن وجدوا آباءهم وكبارهم قد صدّقوا بشيءٍ فإنّهم يصدّقون به. ولسان حالهم يقول: لأجل أنّ هذا الأمر قد ذُكر في كتابنا أو ضمن دائرة ديننا فنحن نقبل بذلك وننطق به. ولو أنّك أتيت بدليل، فإنّك لا تكون قد فعلت شيئًا بالنسبة لهؤلاء لأنّهم لن يقبلوا كلامك. هذا

---

(١) سنقوم بتوضيح قضيّة الرجوع إلى اللّه في فصل المعاد إن شاء اللّه ضمن هذه السلسلة.



نوعٌ من الإيمان، لكنّه الإيمان الذي يقوم على أساس التقليد أو العصبية مثل عامّة الناس، فلو سألت أحدهم: مَن الذي يقول أنّ نبي الإسلام على حقّ؟ فإنّهم لا يستطيعون أن يعرفوا شيئًا، هؤلاء فقط لأجل أنّ آباءهم قد ذكروا ذلك أو لأنّ معلّم المدرسة قد نطق به أو لأنّ النّاس في الأزقّة وفي الأسواق يقولون أنّ النبي على حقّ، هم يقولون به. إنّهم أصحاب إيمان، أي إنّهم في الواقع مؤمنون بأنّ النبي حقّ لكنّ هذا الإيمان نابعٌ من لسان هذا أو ذاك أو عن طريق التقليد وإغماض العين. ومثل هذا الإيمان المقلِّد يوجد الإيمان المتعصّب، حيث نجد بعض الناس مستعدّين، والعياذ باللّه، أن يطعنوا أو يهينوا الأنبياء الآخرين من أجل أن يفرحوا نبينا. يتصوّرون أنّه يوجد في الملكوت الأعلى تناقضٌ بين الأنبياء؛ فيقول بعضهم: ومَن هو موسى هذا يا عزيزي؟ فقط نبينا. وللأسف، إنّ هذا لا يختصّ بالشريحة الجاهلة فحسب، ففي بعض الأحيان يشاهد المرء مثل هذه الأخطاء بين الشرائح التي يتوقّع منها أمورًا أكثر من غيرها وأن تفوق غيرها في الفهم وكذلك في الوعي. ويوجد العديد من هذه النماذج التي نشاهدها هنا وهناك ولا حاجة لأن نذكرها أو نفصح عنها هنا. هذا هو ما يُسمّى بالتعصّب. فلأنّ دين الإسلام يقول كذا فهو صحيحٌ، ولأنّ الأديان الأخرى تقول كذا فهو خطأٌ؛ ولأنّنا نحن المسلمون نقوم بمثل هذه الأعمال فهي صحيحة، ولأنّ الآخرين يقومون بأعمالٍ معيّنة فهي خطأ. إنّه نوعٌ من الإيمان ولكنّه لا يستند إلى دليل وإنّما ينبع من التعصّب. والتعصّب كما تعلمون عبارة عن الدعم والتأييد الذي يفتقد إلى الدليل والمنطق ويستند إلى المشاعر.

ولأجل أن ألفت أنظاركم أيّها الأعزّاء، يجب أن أقول إنّ الإيمان





الذي يتمتّع بالقيمة في الإسلام ليس الإيمان التقليدي والمتعصِّب لأنّه فاقدٌ للقيمة، وهل تريدون دليلًا على ذلك؟ أنا أختار لكم من بين عشرات الأدلّة دليلًا واحدًا، وهو أنّ الإيمان عندما يقوم على التقليد والتعصّب، فإنّ سهولة زواله كسهولة اكتسابه، كالطفل الذي يحصل على إيمانٍ من دون أيّ تعب، أو كذاك التلميذ الذي يحصل عليه من آبائه أو أولياء مدرسته من دون أيّ سعي. فإنّ سرّاق الإيمان يستطيعون أن يسلبوه إيّاه بسهولةٍ أيضًا. وفجأةً عندما تنظرون، ستجدون [أمامكم] جيلًا فاقدًا للإيمان، قد خسر كلّ إيمانه وأضحى كلّ ما يرتبط بالإيمان سرابًا [بالنسبة له]، كالثلج الذي يذوب في حرّ القيظ مقابل الشعلة المادّيّة. ومَن أقصد بهذا الكلام؟ من الطبيعي والعادي أن أقول إنّه جيل الشباب. ولكنّني بالطبع لا أقول أنّ ذاك الجيل الفاقد للإيمان هو جيل الشباب، كلّا- لأنّنا إذا نظرنا إلى براعم الإيمان في مختلف الزوايا لشاهدنا بصورةٍ جليّة أنّها موجودة في الشباب أيضًا. فأهلًا وسهلًا بجيل الشباب الذي يسعى نحو الإيمان غير التقليدي وغير المتعصّب ويطلب الإيمان الواعي - فأنا أقصد ذاك الجيل الذي كان قبل جيل الشباب اليوم؛ الجيل الذي تخطّى مرحلة الشباب في مجتمعنا، هؤلاء الذين يحملون العقائد بصورة إيمانٍ أعمى. بالطبع، هو يذهب إلى مجالس العزاء وإلى صلاة الجماعة، فلو أتيح له الأمر فإنّه يذهب، لكن بما أنّه لا [يقوم بذلك] على أساس المنطق والوعي والشعور والإدراك؛ فإنّه يصبح مستعدًّا بسهولة لأن يحرق المسجد ولأن يسحق الإمام الحسين، ومستعدًّا للتضحية بكلّ ما يراه ذا قيمة بالنسبة له، كما يحصل الآن، وكما نشاهد كيف يفعلون ذلك.



ونحن اليوم، نجد أنّ من أكثر الأمور التي نعاني منها هو التعامل مع الجيل الذي عبر مرحلة الشباب؛ فهؤلاء محرومون من كلّ مراتب الوعي ووضوح الرؤية التي لجيلنا المسلم الشاب اليوم. فمثل هذا الجيل، وللأسف، محرومٌ من ذاك الإيمان العميق الراسخ المصون من آفات زمن الجيلين السابقين. فهو لا يمتلك ذلك الإدراك والشعور والوعي الذي يمكّنه من الوصول إلى ذلك الإيمان الثابت في نفسه، والذي يستطيع في ظلّه من مواجهة أو تحطيم أغلال المال والمقام والشهرة والرفاهيّة والراحة. فالأمور والأوضاع لم تعد كما كانت عليه قبل قرن أو قرنين من الزمن، وهي تشبه حال صندوقٍ محكمٍ أو قلعةٍ قوية منيعةٍ يتمكّن المرء من حفظ إيمانه فيهما بالحدّ الأدنى، حتّى وإن كان ذلك الإيمان عبارة عن الإيمان المقلِّد.

في النهاية، فما حدث منذ حوالي مئة سنة، ممّا يمكن أن نعبّر عنه بنشوء قطّاع طرق الفكر والإيمان والعقيدة، لم يكن موجودًا قبل ذلك. ففي تلك الأيّام، لم تكن أيادي الأعداء وتلك الأصابع الخائنة قد نفذت إلى جسم مجتمعنا كما هو حاصل اليوم. ولم تكن تلك المخطّطات قد وصلت إلى هذه المرحلة التي نراها اليوم وهي تسعى للقضاء على الإيمان الديني الأصيل للناس من أجل فعل كلّ ما يحلو لها بهم. فكلّ ذلك حدث فيما بعد. إنّ هذا الجيل السابق على الشباب لا يُعدّ اليوم شابًّا بل كان بالأمس كذلك، هو اليوم عرضةٌ لسيولٍ تريد أن تجتثّ إيمانه وعقيدته من الجذور. وهو في المقابل لا يتمتّع بأيّ إيمانٍ محكم بالحدّ الأدنى. فهنيئًا لأولئك الذين اختاروا إيمانهم على أساس الوعي والإدراك والشعور والفهم. فالسيول تأتي وتقتلع تلك الأشجار الباسقة ولكن تلك





النباتات التي، وإن بدت نحيلةً وهزيلةً، لكنّ جذورها تمتدّ تحت الأرض بما يعادل ضعفي طولها، فهي تبقى مصونةً ومحكمة. فكلّ ما يكون متجذّرًا لا يزول مع كلّ هذه الأقاويل.

على كلّ حال، هذه حقيقةٌ وقضيّةٌ مسلّمة في الإسلام. إخواني! إنّ الإيمان الذي يتمتّع بالقيمة المطلوبة هو الإيمان الواعي المتلازم مع الإدراك والشعور؛ إيمانٌ يتحقّق على أساس البصيرة والعين الباصرة، دون الخشية من الإشكالات. ذاك الإيمان الذي يوجد في المسلم الفلاني والذي يجعلنا نقول له: لا تقرأ الجريدة!، ولا تقرأ ذلك الكتاب!، ولا تمشِ في أزقّة الأسواق!، ولا تتحدّث مع الشخص الفلاني! كلّ ذلك من أجل أن يحافظ على ذلك الإيمان؛ وكذلك كما يقال لا ينبغي أن يصل إليه الحرّ والبرد ولا ضياء الشمس ولا نور القمر! لكي يبقى؛ إنّ هذا الإيمان وللأسف لن يبقى. فالإيمان المطلوب هو ذاك الذي يحصل بوعيٍ تامّ ولا يزول في أشدّ الظروف صعوبةً.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ وقد نزلت هذه الآية بشأن ما جرى مع عمّار بن ياسر، وهي تقول إنّ الإنسان لو كان تحت التعذيب فإنّه يستطيع أن يتنكّر لإيمانه بالكلام من أجل أن يخفّف عن نفسه لحظةً من تعذيب العدوّ، إلّا أنّه ذاك الإيمان الذي لا ينمحي من القلب بسبب التعذيب. وهكذا كان حال ذاك الإيمان الذي كان في قلب الخبّاب بن أرت، والذي لم يفقده تحت كلّ أنواع التعذيب الشديد - حيث كانوا يكوون جسده بالحديد المحمّى - لأنّه كان إيمانًا عميقًا، فهذا هو الإيمان الحقيقي.

فإذا تحقّق الإيمان القائم على الوضوح والإدراك والفكر



والحسابات الصحيحة، لا يلزم حينها أن نضعه في مغلّفٍ أو في صندوقٍ ونعزله لئلّا يتأثر بالحرّ والبرد والغبار؛ وإنّه سيكون ذلك الإيمان الفاقد للإدراك الذي يتطلّب كلّ تلك العناية والرعاية والتحذير والقلق. ولو أردنا أن يكون الإيمان واعيًا ثابتًا لا يزول، فيجب علينا أن نزوّده بالوعي والمعرفة دومًا، ولا ينبغي أن نقلق من مثل هذه المعرفة، أو أن نفرح بأنّنا قد قمنا بسدّ نوافذ العين والأذن. وطريقه هو أن نوجد أرضيّة الوعي والرشد في العقول والقلوب والأفكار، فنتمكّن بهذه المعرفة من بناء ذلك الإيمان الصحيح والمحكم والذي يشبه الباطون المسلّح في القلب. عندها، فإنّ هذا الإيمان لا يمكن أن يزول حتّى لو أطلقنا عليه قذيفة مدفعيّة شديدة كما كان يقول الشباب عندنا في الزمن القديم. فالإسلام يتطلّب إيمانًا واعيًا وهذه الآيات التي ذُكرت في آخر سورة آل عمران تدلّنا على هذا النوع من الإيمان وتعرّفنا عليه.

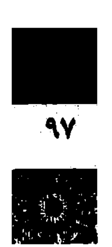
﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، هذه مقدّمات وهي ترتبط بعمليّة الخلق، وفي اختلاف الليل والنهار دلالاتٌ وعلائم، فهل هي للمنحرفين والفاقدين للإدراك والذين لا يتفكّرون؟ كلّا، أبدًا، بل هي لأولي الألباب. أولئك الذين يتفكّرون ويدركون ويفهمون، وهو يرتبط بجميع الناس في حال قاموا بإعمال فكرهم وذكائهم. فالمسألة ليست أنّه منذ البداية وعند الولادة يُفصل الناس ويصنّفون بعلامة تكتب على لوحٍ خاصّ بأنّ هؤلاء ليسوا بأذكياء ولا يمكن أن يكونوا من أولي الألباب، وعلى لوحٍ آخر أنّ الآخرين من أولي الألباب! كلّا، أولي الألباب تعني كلّ الناس. فالمليارات الثلاثة الموجودة في أيّامنا كلّهم من أولي الألباب بشرط أن يحرّكوا هذه القوّة العاقلة الموجودة في أنفسهم ولو خطوة واحدة. فهذه





السيّارة لو قمتم بشرائها ووضعتموها في المنزل ولم تستخدموها ولم تشغّلوا محرّكها، وجئتم إليها بعد مدّة وأردتم أن تشغلوها فإنّها لن تعمل وستصدأ، وإذا لم تصدأ فإنّها ستفقد القدرة على السير. السيّارة لم تكن مقصّرة وإنّما التقصير كان من قبل صاحبها. وأولو الألباب هم أولئك الذين يستعملون فكرهم وعقولهم من أجل أن يصبحوا كذلك.

فمن هم أولو الألباب؟ انظروا إنّنا هنا أمام إحدى اللطائف القرآنية. فعندما يتمّ الحديث عن أولي الألباب وذكرهم والتعريف بهم للناس العاديين، يُقال إنّ أولي الألباب هم أولئك الذين يتقدّمون في جميع أمور معاشهم وشؤون حياتهم ولا يمكن أن يُخدعوا في أيّ أمرٍ من أمورهم، سواءٌ في المعاملات والسياسات، أو في مواجهة خصومهم، فهم يتفوّقون عليهم دومًا. وحيث إنّ القرآن لا يقبل بأيٍّ من هذه الألاعيب، ولأنّ القيمة الواقعية للإنسان تكمن في ارتباطه واتّصاله بربّه، فإنّه يعرّف أولي الألباب بهذه الصورة. وبحسب الرؤية القرآنية هم الذين قد حازوا على أرفع الأمور وأكثرها قيمةً مقارنةً بكلّ الأشياء وكلّ الأشخاص ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ هم يفعلون ذلك في قيامهم وفي قعودهم وعند استلقائهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي أنّهم يذكرون اللّه في جميع أحوالهم. لكنّ ذكر اللّه هذا، ليس بمعنى تلك الحالة العرفانيّة التي تمتزج بتظاهر الدرويشي الصوفي الذي يعجب البعض، فيقولون إنّنا نذكر اللّه دائمًا ونصدح بأسمائه، كلّا؛ بل إنّه حالةٌ فعليّة. وهذا الذكر ينبغي أن يكون عمليًّا، فكيف يحصل ذلك؟ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، انظروا إلى أولي الألباب إنّهم أولئك الذين يتوجّهون بفكرهم إلى خلق السماوات



والأرض، وبعد أن يقوموا بهذه العمليّة الفكريّة، فإنّ ألسنة قلوبهم وحواسّهم تقول ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، فينزّهون الربّ المتعال عن العبث في الخلق، ومثل هذا الأمر يُعدّ النقطة الأكثر أهميّة في أيّة أيديولوجيّة أو رؤية كونيّة.

إنّ أيّة رؤية كونيّة لها علاقة ببناء الحياة تدور حول نقطةٍ أساسية وهي الفاعليّة. فلو كان الأمر يرتبط بالاعتقاد باللّه مثلًا، فإنّها تقول إنّ هذا الاعتقاد يرتبط بعملٍ ما. وكذلك أيّ شيء آخر، حتّى لو لم يكن مرتبطًا بالاعتقاد باللّه. فانظروا إلى هذه النقطة التي هي في صلب أيّة فلسفةٍ فكريّة تلهم الحياة الفرديّة والاجتماعية، إنّها هنا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾. «ربّنا» يدلّ على الاعتقاد باللّه. وهنا يحصل التسبيح ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وهو التنزيه عن كلّ عبثٍ ولغو. إذًا، هنا تكمن المسؤوليّة ويجب أن أطوي هذا الطريق وهذا يدلّ على أنّني في موقعٍ أساسي وقد وُجدت في مقابل هذا النظام العظيم والمدهش لأجل عملٍ ما. ولو أنّني أدركت موقعيّتي بصورةٍ صحيحة في هذا النظام العجيب، لكنّني لم أقم بالعمل بالصورة المطلوبة وكما يريد اللّه فإنّني سوف أقوم بتخريب هذا النظام لذلك يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. فإنّ نار القيامة هي نارٌ واقعية تمثّل نيران النقمة والغضب الإلهيّين، وكذلك نقمة وانتقام عالم التكوين.

يجب أن تدقّقوا، لأنّ هذه كلّها مقدّمات من أجل أن نتلمّس حقيقة الإيمان الواعي في طيّات هذه الآيات. ويجب عليكم أيّها الأعزّاء أن تنتبهوا أكثر إلى كيفيّة انبعاث هذا الوعي من خلالها. فدقّقوا الآن، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، الخزي نصيب أهل النار، ولن يكون للظّالم أيّ عونٍ





أو مدد، لا من عالم التكوين ولا من أيّة يدٍ غيبيّة. فأولئك الذين يتحرّكون على طريق الظلم والكفر والنفاق ويسيرون على درب الباطل، محكومون بالزوال والفناء. ولن يكون هناك أيّ شيء في هذا العالم لدعمهم وحمايتهم.

﴿رَّبَّنَآ﴾، إنّ أولي الألباب الذين يتفكّرون في السماوات والأرض والذين فهموا وأدركوا أنّ هذا العالم لم يأتِ عبثًا ولم يُخلق لغوًا، يقولون أيضًا في سياق ما يقولونه - وهذا مورد بحثنا - ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾. فإلى أيّ نحوٍ من الإيمان قد وصلوا؟ لقد دعاهم شخصٌ هنا إلى الإيمان فآمنوا، فهل حصل ذلك بهذه البساطة؟ كلّا، إنّ هؤلاء هم أولو الألباب أنفسهم أي الذين يتفكّرون. وهذا المنادي من الممكن أنّه بالظاهر نبي لكنّه في الباطن رسول العقل والتفكّر والإدراك الذي دعاهم إلى الإيمان بالله. فالمنادي لهم إلى الإيمان يناديهم على أساس الوعي والإدراك والشعور والمعرفة الكاملة من أجل الإيمان. هذا هو النحو من الإيمان الذي يدعو إليه الإسلام، إنّه الإيمان الواعي. حسنٌ، هذا هو المطلب الثاني.

المطلب الثالث يشير إلى أنّ المطلوب منّا بنظر الإسلام هو الإيمان الواعي، ولأنّ الله تعالى لا يتقبّل غيره ولا يعطيه أيّة قيمة أو أهميّة، فقد ذمّ القرآن وفي عدّة مواضع الإيمان الأعمى المقلّد المتعصّب والذي يفضي بالإنسان إلى السقوط. وقد ذكرنا نموذجًا من هذه الآيات ها هنا. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ والحديث هنا عن الكفّار والرجعيّين. فتعالوا واقتربوا لتفهموا ولتسمعوا ولتعرفوا ماذا يقول الرسول، فبماذا سيجيبون؟



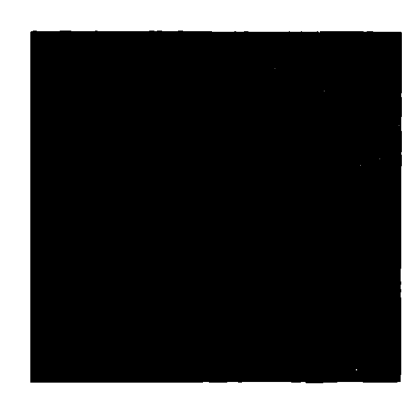
إنّ هؤلاء بدلًا من أن يأتوا ويتفكّروا ويسعوا للفهم ويختاروا طريقهم بأنفسهم قالوا ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ لا نريد غير ما وجدنا عليه الآباء ونحن لن نتحرّك باتّجاه هذه المقولات الجديدة. فتسمية الكافر - بحسب قول بعض المحقّقين وفي القرآن - هي تعبير آخر للرجعيّين عبر القرون والأعصار. والنبي يمثّل في جميع الأماكن ذلك المتنوّر على صعيد الفكر في زمانه والذي يحمل كلامًا جديدًا وطريقًا جديدًا ويدعو إلى التجديد، لكنّ الكفّار والمخالفين والمتعصّبين والمقلّدين والمتحجّرين والرجعيّين هم الذين لا يتقبّلون هذا الطريق الجديد ولا يعجبهم. فقولهم إنّ الطريق ما سار عليه مَن قبلنا، فنحن لم نجد آباءنا وأمّهاتنا هكذا، وإنّما وجدناهم على طريقٍ مختلفٍ، ونريد أن ندرك ما كانوا عليه ونعمل على أساسه.

فماذا يقول القرآن في جوابهم؟ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وقد وصل بهم الأمر في تقليد آبائهم ولو لم يكونوا يفهمون شيئًا أو يعلمون، وإذا لم يكونوا يعرفون التمييز بين الطريق الصحيح والخاطئ وبين الخير والشرّ، فهل ينبغي أن تقلّدوهم؟ انظروا كيف يذمّ اللّه التقليد ويلوم عليه.

الجلسة الرابعة

الإيمان وليد الالتزامات العمليّة ومصاحبها

الأحد، ٥ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

[سورة **الحجّ**، الآية ٧٨]





إنّ القضيّة هنا هي أنّ الإيمان وفق الثقافة القرآنية اليقينيّة ليس مجرّد أمرٍ قلبيٍ صرف. صحيحٌ أنّ الإيمان والتصديق يرتبطان بالقلب، لكنّ القرآن لا يعترف بأيّ تصديقٍ أو إيمانٍ أو قبولٍ أو أيّ تسليم كان. الإيمان المجرّد والإيمان القلبي الجافّ والفارغ هو الإيمان الذي لا يُشاهَد شعاعه في جوارح المؤمن وأعضائه؛ ومثل هذا الإيمان لا يتمتّع بأيّة قيمة بنظر الإسلام.

إنّ أوّل مؤمنٍ باللّه هو الشيطان، وإبليس كان يعبد اللّه لسنواتٍ مديدةٍ قبل أن يهبط عبادُ اللّه المليئون بالادّعاء وأبناء آدم المدلّلون إلى هذه الأرض. وكان قلبه مركزًا لمعرفة اللّه، ولكنّه في ذلك الامتحان، وحين جاء وقت الاصطفاء والاختيار، حين ينبغي أن يتبلور الإيمان بكلّ أبعاده، وأثناء تعيين الطريق النهائي، لم ينفعه إيمانه؛ بل بقي في نطاق القلب. وأنا أقول إنّ الإيمان الذي يبقى محصورًا في القلب سوف يذوي ويجفّ. وقد تقول أنت: كلّا، بل يبقى. ونحن قد يشتبه علينا ذلك بقوّة ونقول إنّ الإيمان يبقى في أعماق القلب، إلّا أنّه ينحصر في نطاق القلب ولا يصل إلى اليد والرجل والعين والأذن والدماغ والأعضاء والجوارح



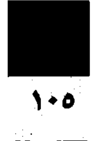



والحياة والطاقات والإمكانات التي نتمتّع بها، مثل هذا الإيمان لا قيمة له بحسب الثقافة القرآنية. ونستطيع أن نختصر هذا المطلب بعنوانٍ عريض وهو ذاك العنوان الذي وضعناه على هذه الورقة التي وزّعناها عليكم وكتبنا عليها: الإيمان المنتج؛ الإيمان الذي يولّد العمل يكون مثل النبع الفيّاض. وهذا هو الإيمان الذي يتلازم مع الالتزام والعمل ويضع على عاتق المؤمن حمل المسؤوليّة.

وددت أن أحصي عدد الآيات التي ورد فيها مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ووجدت أنّها قد تكرّرت في عشرات الموارد بنفس هذا التعبير حيث تلازم الإيمان مع العمل الصالح. لأنّ الإيمان لوحده، أي الإيمان بلا التزام، لا يتلازم مع ذلك الإحساس بالمسؤوليّة، وهو أمر لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة؛ هذا هو منطق القرآن.

أولئك الذين افترضوا أنّ الإيمان أمرٌ يختصّ بنطاق القلب الإنساني، وإن لم يكن في الإنسان أيّ تعهّد أو التزام بلوازمه، من الممكن أن يكونوا متواجدين بين المؤمنين؛ أولئك الذين كانوا يتصوّرون أنّ كون الإنسان مؤمنًا أي معتقدًا فقط من دون العمل أو السعي والمجاهدة حينها سينالون البشارات الإلهيّة التي ستكون من نصيب المؤمنين. أولئك كانوا يظنّون أنّ الذي يحقّق الفوز بالجنّة هو أمرٌ قلبيٌّ بحت خالٍ من أيّ عمل ويوكلون أمر الحكومة على الأرض للقضيّة القلبيّة الصرفة.

أولئك يتصوّرون أنّهم باختصار لو حذفوا العمل فسوف يبقى من الإيمان شيء؛ ما عليهم إلّا أن يتفكّروا بدقّة في هذه الآيات والآيات الأخرى التي سيأتي تفسيرها فيما بعد وعشرات الموارد



الأخرى في القرآن وفي كلّ مواضعه، ليروا أنّ الإيمان - وفق نظرة الإسلام - إنّما يكون ذا قيمةٍ إذا تلازم مع العمل وتحمّل المسؤوليّة والتكليف والتعهّد.

فلو لم تشعر بأيّ نوع من الالتزام، فعليك أن تشكّ في كونك مؤمنًا. والمجتمع الذي لا يعمل على أساس المسؤوليّات الإيمانيّة لا ينبغي أن يُسمّى بالمجتمع المؤمن. أولئك الذين سمعوا من القرآن ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، أولئك الذين استمعوا إلى هذا الوحي العجيب الصادر من القرآن ثمّ نظروا إلى الوقائع الخارجيّة فيما بعد، يرون أنّ المؤمنين بالقرآن ليسوا أعلى من الآخرين بل إنّهم أصبحوا أسرى ورهائن غيرهم، ويتعجّبون متسائلين عن وعد القرآن أين هو؟! وإذا لم يجدوا أيّ زمانٍ لإنجاز هذا الوعد الإلهي يبقون منتظرين لوليّ العصر صلوات اللّه عليه. فيجب تذكير هؤلاء بأنّ وعد اللّه حقٌّ؛ أجل، وهو سيتحقّق في زمن ظهور المهدي الموعود صلوات اللّه عليه، وفي كلّ مكانٍ يتحقّق فيه الإيمان؛ لكن ذلك الإيمان الذي عدّه القرآن متلازمًا مع العمل، ولا ينفصل عنه. فالإيمان ليس مجرّد أمر قلبي.

فلو كان التصديق والقبول بصدق كلمة الإيمان كافيًا، فإنّني أقول إنّ أوّل مؤمنٍ بالنبي هو أبو لهب[2] أو الوليد بن المغيرة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٩.

(٢) عبد العزّة بن عبد المطّلب، عُرف بأبي لهب بسبب شدّة احمرار وجهه، وقد خالف النبي بعد دعوته بشدّة، وكان أثناء دعوة النبي يمشي خلفه ويدعوه بالكذّاب. ولأنّه لم يتمكّن من المشاركة في معركة بدر فإنّه مات غيظًا بعد سبعة أيّام من سماعه هزيمة المشركين. وقيل إنّه بسبب المرض الذي كان فيه بقيت =





المخزوميّ[١]. فلقد كان هؤلاء العرب الحاذقين يعلمون جيّدًا أنّ رسول اللّه لا يمكن أن يكذب، وأنّه على حقّ!، أتريدون دليلًا؟ دليله أنّهم كانوا يتآمرون فيما بينهم ويقرّرون أن يفضحوا الرسول، ثمّ يذهبون ليستمعوا إليه ، ويقولون لنرَ ماذا يقول ونفضح عيوبه. وعندما يذهبون ويجلسون كانوا يأتون في اليوم التالي فيقولون كلّا، إنّ هذا ليس كلام بشر، إنّ هذا كلام خالق البشر، ولقد كانوا يقبلون ويصدّقون أنّه وحيٌ من اللّه! ولكنّك أيّها السيّد، الآن وبعد مرور ١٤ قرن من ذلك التاريخ، لا تعتبرهما مؤمنَين. وأنا أقول لو لم يكن ذاك الرجل مؤمنًا فذلك لأنّ إيمانه وقبوله وتصديقه لم يكن متناسبًا مع الالتزام والتعهّد المتناسب مع الإيمان. فهل نحن مؤمنون، في حين أنّ تصديقنا لا يتلازم مع الالتزامات المتناسبة؟! فماذا تقولون أنتم؟

لو كان التشخيص والإيمان القلبي أو التصديق كافيًا لكان ينبغي أن نعتبر عمرو بن العاص[٢] أوّل شيعيٍّ في العالم. فهو قد

= جثّته على الأرض لمدّة يومين. وقد حمل أبناؤه جثّته إلى نقطةٍ بعيدةٍ عن مكّة، ورموه بالحجارة عن بعد حتّى دُفن، وقد نزلت فيه سورة المسد وهي تشير إلى عذابه الأبدي مع زوجته.

(١) كان من زعماء قريش النافذين - من قبيلة بني مخزوم - وعُرف بالمكر والبلاغة عند كلّ عامٍّ وخاصّ. وقد احتار زعماء قريش ماذا يطلقون على آيات **القرآن** بعد أن بُعث النبي ودعاهم، فذهبوا إلى الوليد، وعندما ذهب الوليد إلى النبي، وتلا عليه النبي الآيات الأولى من سورة السجدة، تأثّر الوليد بهذه الآيات ورجع إلى قريش حتّى ذهب إليه أبو جهل وحرّضه من جديد، فقال لقريش إنّ هذا الكلام يمكن أن يُقال عنه إنّه سحر. وقد أشارت الآيات ١١ إلى الآيات ٣٠ من سورة **المدثّر** المباركة إلى هذه الحادثة. ومات في السنة الأولى للهجرة.

(٢) عمرو بن العاص: اشتُهر بين العرب بالدهاء وكان في البداية من مخالفي =



شهد واقعة غدير خم، أو أنّه سمع عنها ممّن شهدها، بينما نحن نقرأ أحداثها في الكتب بعد أكثر من ١٣ قرنًا ونيّف. ولِعمرو بن العاص أشعار في مدح الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ[1]، وفي لحظة الاحتضار ونزع الروح، وفي تلك اللحظات الحسّاسة والمصيريّة، يُظهر الندم ويقول إنّني قد بعت ديني لدنيا معاوية، وقد حاربت عليّ الذي كنت أعلم أنّه على حقّ. وبنظري، فإنّ عمرو بن العاص كان أعمق وأكثر علمًا من شيعة القرن الرابع عشر الهجري فيما يتعلّق بولاية أمير المؤمنين وقد صدّق بها ولكن هل يمكن عدّه من الشيعة؟! أنتم ستقولون كلّا. لماذا؟ ذلك لأنّ الاعتقاد بإمامة أمير المؤمنين يستلزم سلسلة من المسؤوليّات وأوّل هذه المسؤوليّات بأن لا يبايع معاوية بن أبي سفيان. فنجد عمرو بن العاص يعين معاوية ويقف إلى جانبه في محاربة عليّ، فلم يتمسّك بتلك المسؤوليّات التي تنشأ من التشيّع ولم يتحمّل التكاليف التي يستلزمها مثل هذا الإيمان؛ وهذا ليس من التشيّع.

= الإسلام ومن أعداء رسول الله الأشدّاء في مكّة وكان قد بُعث من قبل زعماء قُريش على رأس جماعة من أجل إرجاع المسلمين من الحبشة وقُبيل فتح مكّة أسلم وبايع الرسول بشرط أن يعفي عن جرائمه السابقة. وقد تمّ فتح مصر في زمن عمر بقيادة ابن العاص وصار حاكمًا عليها، لكنّ عثمان عندما جاء عزله عن هذا المنصب، وفي زمن أمير المؤمنين تولّى معاوية وكان له دورٌ كبيرٌ في تثبيت حكمه؛ وقد عاد عمرو بن العاص مجدّدًا إلى مصر وبمقتل محمّد بن أبي بكر استلم مقاليد الحكومة وبقي هناك إلى آخر عمره، أي إلى عام ٤٣ للهجرة.

(١) والقصيدة تحت عنوان الجلجلية التي أنشدها عمرو بن العاص في جواب معاوية وذكرها الأميني في كتاب الغدير، «وأين الحصى من نجوم السما وأين معاوية من عليّ».





هذا الكلام صحيحٌ، ولأنّه صحيح أرجع إلى ظاهره وأقول لأجل نفس هذا الدليل، هل يمكن لي ولكم أن نعتقد أو أن نطمئّن بأنّنا شيعة؟ وهل نحن نعمل بالتزامات التشيّع؟ إنّ كلام القرآن في هذا المجال واضحٌ لا شكّ فيه ولا إبهام. وهو بالصراحة ينفي الإيمان عن أولئك الذين لا يلتزمون بصورةٍ مطلقة بالالتزامات الإيمانيّة.

بناءً عليه، فإنّ الإيمان المعتبر في الإسلام - وهو من الأصول الاعتقاديّة للإسلام والتشيّع - هو الإيمان الذي يولّد وينتج المسؤوليّة، إنّه الإيمان الذي يتلاءم مع هذه الالتزامات العمليّة، وإذا لم يكن كذلك فلا ينبغي أن نتوقّع منه أيّة نتيجة ولا ينبغي أن نتوقّع النصر في الدنيا والأمن فيها، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]. هذه الآية وعشرات الآيات الأخر هي شاهدٌ وتفي بالمقصود ولا يتّسع المجال هنا لذكرها. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي أنّهم لم يمزجوا إيمانهم بالظلم فسوف يكون لهم الأمن.

إذًا، لا أمن لأولئك الذين يمزجون إيمانهم بالظلم، فذاك الإيمان الذي لا يتلازم مع المسؤوليّة لا يؤدّي إلى نصر المؤمن ولا يضمن انتصاره، ولا يقدّم له النصر الإلهي ونصر ذرّات الطبيعة والتكوين، ولا يمنحه السعادة والفلاح في الدنيا، وفي خلاصة الكلام لا يمنحه جنّة الدنيا والآخرة.

كما ونجد أنّ التصوّرات الجزافيّة الناشئة من حبّ الراحة وطلبها تلقّننا عكس هذه القضيّة. هناك خصلةٌ معروفةٌ في الإنسان

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٢.



وهي أنّه يسعى دائمًا نحو الأعمال الأكثر راحةً وسهولةً. ففيه نزعةٌ نحو التساهل، فلو خيّرتموه بين أمرين أو عملين فإنّه سيختار الأكثر سهولةً والأقلّ سعيًا وجهدًا ومؤونةً، هذه هي خاصّيّة الإنسان، وهكذا هم البشر في العادة. هذه الصفة وهذه الخصلة البشريّة وهذه الخاصّيّة تقول لنا اقبل بالأسهل واسلك الطريق الأقلّ مؤونةً وسعيًا وجِدًّا. فمن جانبٍ، نجعل الإيمان الديني مقولة محدّدة لأجل الحفاظ على التساهل وإبقائه، ولكي لا تضيع الجنّة، فنعمل على شيء ما ونبتكر معادلة، أو معادلات تنتج ذهاب الإنسان الكسول العاطل إلى الجنّة، ونصرّ على هذه المعادلات ونتمسّك بها ولا نفهم شيئًا في النهاية، وعندما نُحرم من الجنّة، ندرك عندها أنّ تلك المعادلات كانت خاطئة!. وأنا أقول يجب علينا أن نعيد النظر ونرى هل أنّ هذه المعادلات صحيحةٌ في الواقع أم لا؟

إنّ القرآن هو المتن القطعي الذي لا يعرض عليه أيّ خلل، وكذلك مئات الروايات صحيحة السند والمحكمة. ويقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في روايةٍ بما مضمونه أنّه لن يتمّ الوصول إلى شفاعتنا إلّا بواسطة السعي والجدّ والجهد، بينما نحن نريد بهذا الكسل وهذا التقاعص والتحسّر على الماضي والمستقبل وقلّة النخوة - لا شكّ بأنّ التحسّر جيّدٌ، ولكن ليس ذلك الذي يكون فاقدًا للنّخوة - فهل نريد بهذه الحالة السلبيّة المنحطّة الفاقدة لأية خاصّيّة القعود، على أمل نيل الشفاعة؟ في حين أنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، وطبق هذه الرواية، يقول إنّ شفاعتنا تنال أهل الجدّ والجهد والسعي. وهذا مقابل تمامًا لما هو موجودٌ في أذهاننا، ويوجد من قبيل هذه الرواية ما شاء اللّه.





كان الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ مشغولًا في منتصف الليل بالعبادة في المسجد، ومشغولًا بالمناجاة والدعاء. فهذا الإنسان الذي كان كلّ وجوده عبارة عن السعي على طريق الوصول إلى حكومة الحقّ والحقيقة - وفق التحليل الصحيح لحياته - كان في منتصف الليل عالمًا واحدًا من السعي على طريق العبوديّة والخضوع في مقابل اللّه، وكان يذرف الدموع ويبكي ويناجي، وله مناجاةٌ مدهشة لا مجال الآن لذكرها، وفي تلك الحالة العجيبة يأتي شخصٌ ساذجٌ ويقول: «يا ابن بنت رسول اللّه، لماذا تتعب نفسك هكذا؟ وأبوك هو مَن هو، وأمّك وجدّك، كلّهم عباد اللّه المصطفون، فاترك البكاء لنا، فأنت حفيد النبي وابن عليّ وابن الحسين وابن فاطمة الزّهراء، فلماذا تبكي؟» عندها يقول الإمام لهذا الرجل: ماذا تقول؟ دع عنّي حديث أبي وأمّي وجدّي[1]؛ وهو يريد أن يدافع عن تلك الأطروحة والنظريّة، نظريّة البكاء والعبادة والدعاء والخشوع والخضوع في مقابل الربّ المتعال من أجل تصفية الروح ومن أجل تقوية العزم ومن أجل المزيد من التوكّل على اللّه لا من أجل التخدير، ومن أجل أن يزيل هذا الاشتباه من ذهن هذا الشيعي الساذج، ثمّ يكمل قائلًا: إنّ الجنّة للمطيعين. فهذه هي الأطروحة الإسلامية والشيعيّة في مجال الإيمان والعمل.

فلماذا أصرّ وأؤكّد على هذه القضيّة؟ ذلك لأنّه جرى العمل ولسنوات مديدة وطيلة هذه القرون على ذهنيّة المسلمين من أجل إقناعهم بأنّ العمل ليس ضروريًا أو مطلوبًا ليكون المرء مسلمًا،

---

(١) الإمام زين العابدين ع، **الصحيفة السجّاديّة** (قم: مؤسّسة الإمام المهدي (عج)، الطبعة ١، ١٤١١ه)، الصفحة ١٧٨.



ولأجل إفهامهم بأنّ ما يلزم ليكون الإنسان مؤمنًا هو القلب الطاهر لا العمل الصالح. لقد أعانت نزعة الراحة والتساهل هذه والموجودة فينا، الأيادي الخائنة والعميلة، وبكلّ هذه الادّعاءات الرنّانة عندنا، لأنّنا نميل إلى الحصول على جنّة اللّه، من خلال عملٍ بسيط. كما أعان الجاهلون غير المغرضين، الذين لم يكونوا سوى جاهلين، على هذا الفهم والاستنتاج الخاطئ. ومن بعد النبي وبعد مدّةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ، وُجد هذا الفكر وتمّ الترويج له.

إنّ معاوية بن أبي سفيان شخصيّةٌ عجيبةٌ، فهل وجدتم مَن هو عديم دينٍ وأسوأ أكثر منه؟! فمن هو أسوأ منه على مدى ذلك التاريخ وفي تاريخ صدر الإسلام؟! نجد معاوية ذات يوم يوصي أقاربه قائلًا: احضروا علبتين صغيرتين وضعوهما داخل كفني. فسألوه ما هي هذه الأمور؟ قال: إنّ في أحدها قطعةً من لباس النبي. وكان رسول اللّه يقصّ شعره أو أظافره وسقط منها بعض الذرّات والأظافر وقد قمت بجمعها فضعوها في كفني حتّى يغفر اللّه لي. فأيّها الذكيّ، إنّ معاوية كان يأمل بشفاعة النبي ويسعى نحوها ويرجوها، ولكن عن أيّ طريق؟ عن طريق الحصول على بعض قطع الأظافر والشعر من رأس النبي ولحيته. بارك اللّه! أحسنت! فما دام الأمر سهلًا، وما دام الأمر لا يكلّف شيئًا، وما دام الأمر في مصلحته فهو يستمع إلى القرآن.

على كلّ حال، مرّت سنواتٌ وسنواتٌ مديدة من العمل على أذهان الناس حتّى باتوا يقولون إنّ الإسلام بدون العمل والإيمان بدون العمل، وإنّ المحبّة في القلب والإيمان والتصديق، لا في العمل والحركة والسعي والأثر. لقد أرادوا أن نصدّق كلّ هذا عبر





السنين. وقد كان القرآن يصدح بندائه طيلة الوقت، وكان نداؤه حيًّا وطريًّا حيث يقول: ﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالذين لا يقومون بهذه الأعمال هم ليسوا بمؤمنين ولا إيمان لهم. فالمؤمنون وأولئك الذين يقفون معكم والذين يشملهم لطف اللّه والأخوّة الإسلامية هم الذين يتحرّكون في سبيل اللّه طبق الإيمان والالتزام والسعي والعمل، هذا هو منطق القرآن، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١). فلو قمتم بهذه الأمور سيشملكم الفلاح والتوفيق والنجاح، أمّا إذا لم يكن مع ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ فهل سيتحقّق الفلاح والنجاح؟ أنا أترك الجواب لكم.

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(٢)، فماذا تفعلون من أجل الحصول على مدخول يومٍ كامل؟ وما هي المساعي التي تبذلونها والجهد الذي تقومون به؟ انظروا بنفس هذه النظرة إلى السعي في سبيل اللّه. فكلّ هذا العمل يكون في المتن، أمّا العمل في سبيل اللّه فنجعله على الهامش! إنّ وضع حياتنا بشكلٍ عامّ وخريطة حياتنا العامّة هي هكذا، نجعل جميع الأعمال في المتن، التعلّم والتعليم والحصول على المال والتعب، ولا أعلم، لعلّه الرياضة أيضًا. كلّها في صلب الحياة، ويكون العمل للّه في الحواشي والهوامش، وربّما يكون موجودًا وقد لا يكون. ولكن لو أنّكم أمعنتم النظر، فإنّ حجم ذلك السعي الذي نقوم به للّه وكيفيّته وعمقه وعظمته وثباته ينبغي أن يكون متناسبًا مع عظمة اللّه تعالى وينبغي أن يكون أعظم وأثبت

---

(١) سورة **الحجّ**، الآية ٧٧.

(٢) سورة **الحجّ**، الآية ٧٨.

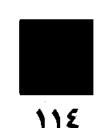




وأكبر من كلّ المساعي وأكثرها جهدًا وجدًّا.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، فيا أهل الإسلام، إنّ اللّه تعالى قد اصطفاكم واختاركم، فماذا يعني ذلك؟ أي أنّه أخرجكم من بين كلّ هذه الشوائب واصطفاكم واختاركم واجتباكم وفضّلكم، فهل تكون الجنّة لأولئك الذين يخطئون ويذنبون ويعملون خلاف الأوامر الإلهيّة؟ هذا هو الكلام الذي كان اليهود يدّعونه لأنفسهم. لقد أخطأ هؤلاء، وكلّ مسلمٍ يفكّر بهذه الطريقة يخطئ أيضًا. فالقرآن يعلن، وبلهجةٍ فيها الكثير من التوبيخ والطعن، أمام اليهود وأولئك الذين يتصوّرون أنّهم أحبّاء اللّه وأولياؤه، بل أبناء اللّه، أنّ كلّ هذه المحبّة والولاية إنّما تكمن في العمل بأوامر اللّه. أجل، لقد اخترناكم، فبني إسرائيل قد تمّ اختيارهم في السابق، ويا أمّة الإسلام قد اختاركم اللّه، لكنّ بني إسرائيل تمّ اختيارهم قبل الإسلام، وكلا الاختيارين من نفس النوع، أي بمعنى اختيار الأكثر استعدادًا لأجل أعظم الأعمال.

فلو نظرتم إلى عشرة أشخاصٍ منكم ورأيتم أنّ ذاك الذي يظهر على وجهه العزم وعلى بدنه الجهوزيّة وعلى وجنتيه الحيويّة وفي قبضته القوّة، وفي عضده وعاتقه الثبات والمنعة، تقولون: أيّها السيّد إنّ عليك أن تحمل هذا الحمل الثقيل ونحن قد اخترناك للقيام بهذا العمل، فيصبح هذا الشخص في موقع الصدارة والريادة. فلو حمله وتمكّن من القيام به، أي أنّه كان صاحب هذه الإرادة - بالتأكيد لأنّه كان قادرًا على ذلك حتمًا - فعزم ورفع هذا الحمل، فإنّه عندئذٍ يتفوّق على أقرانه، ويمكن عندئذٍ أن يُعدّ مصطفًى ومختارًا. أمّا إذا لم يرفعه فإنّه سيكون أكثر خزيًا وندامةً





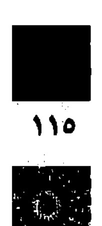
وسوءًا من غيره، فيُقال له: أيّها المسكين! لم يتمكّن الآخرون، ونحن لم نأمرهم، لكنّنا قلنا لك وأنت لم تفعل. لقد كان اختيار واجتباء الأمّة الإسلامية مثل اختيار بني إسرائيل، والأمر كان من هذا القبيل. بنو إسرائيل في زمانهم، والمسلمون في زمانهم، الكلّ كانوا أكثر الأمم استعدادًا من أجل تحمّل أمانة الإسلام وقيادة البشر وهدايتهم، لهذا حُمّلوا هذه الأمانة، فهل حملوها أم لا؟ لو حملوها لكانوا أوصلوا الأمانة إلى مقصدها، وبالتأكيد لكانوا أفضل وأليق المسلمين وأكثرهم اصطفاءً واجتباءً، أمّا لو لم يفعلوا ولم يحملوا هذه الأمانة فإنّهم سوف يكونون على الحال التي كان عليها اليهود عندما لم يؤدّوا تلك الأمانة، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] هذا كان لدنياهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، هذا كان لآخرتهم.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ يدلّ على الاختيار من أجل حمل هذه الأمانة. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وما كان ليحمّلكم فوق طاقتكم ويضغط عليكم ويوقعكم في المضائق والصعاب، فهذا الحمل ليس ثقيلًا جدًّا ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ فيه الكثير من المشقّات والعذاب، بل يمكن حمله. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهذا هو الدين والنهج الذي كان لأبيكم إبراهيم. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[2]، فقد كان هذا في دعاء النبي إبراهيم وأشير إليه في سورة البقرة. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٦١.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٢٨.



هَٰذَا﴾ أعطيناكم هذا الحمل وقمنا باصطفائكم واجتبائكم، فلأجل أيّ شيء؟ ولأيّة غاية؟ ولأجل أيّ عملٍ ولأيّ هدف؟ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾، فالمسؤول المباشر عنكم هو الرسول وأنتم مسؤولون عن كلّ البشريّة، ليكون الرسول شاهدًا عليكم ومراقبًا وناظرًا، ولتشهدوا أنتم على البشريّة وتراقبوها، فأنتم تمسكون بزمام البشريّة وتديرونها، وأنتم قادة هذه القافلة، فلا تغرقوا يا سادة القافلة بالنوم.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾، وحيث كان الأمر على هذا النحو وبما أنّ مسؤوليّتكم ثقيلة ولأنّكم تُبعثون من جانب الربّ المتعال في مهمّةٍ صعبةٍ، ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ها هو التكليف وهذه هي المسؤوليّة، فهل يوجد إيمانٌ جاف وفارغ؟ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (وقد ذكرنا معنى أقيموا الصلاة فيما سبق) ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وتوسّلوا إلى اللّه ودينه والجأووا إلى اللّه توكّلوا عليه ولا تخشوا أحدًا ولا تخافوا من أيّة قدرة، وعندما تنسدّ الطرق أمامكم، فلا تيأسوا من لطف اللّه ونصره ومدده، ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ لأنّه فوقكم وحافظكم ومعكم.

فماذا يعني ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ وما معنى ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾؟ وماذا يعني عليّ مولى المؤمنين؟ وماذا يعني أنّ على المؤمنين أن يتولّوا عليًّا؟ فهذه الولاية وهذه الكلمة مليئةٌ بالمعنى والمحتوى المدهش. ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾؛ ما أحسن هذا المولى وما أحسن نصرته.

وهنا يوجد قسمٌ آخر يتعلّق بالالتزامات الاجتماعية، فالالتزامات الإيمانيّة من نوع الصلاة والزكاة والاعتصام باللّه قد





تكرّرت من حيث النوع في الآيات الموجودة في آخر سورة الحجّ. ويوجد نوع آخر من الالتزامات الإيمانيّة تأتي من زاويةٍ أخرى وتُطرح في مثل هذه الآيات أيضًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، فماذا تعني الهجرة؟ هل هي الانتقال من طهران إلى مشهد مثلًا؟ هل هي الانتقال من مدينةٍ إلى أخرى فقط؟ كلّا. أوّلًا، الهجرة هي في معنًى من المعاني عبارة عن غسل اليد كليًّا من كلّ شيء من أجل هدفٍ، ومن أجل الانتماء إلى المجتمع الإسلامي، وقبول الالتزام والانتماء إلى تشكيلات المجتمع الإسلامي. فإذا شخِصتم من مكّة وخرجتم منها ولم يعد لكم فيها أيّ متاع أو ملك يعطيكم الحيثيّة والجاه والثروة، ولم يعد لكم فيها أي وجود، وتمّت مصادرة أموالكم والسيطرة عليها من قبل الطغاة من زعماء مكّة، وإذا لم تسلم زوجتك فعليك أن تنساها، وإذا بقي آباؤك وأبناؤك هناك فإنّهم سيتحوّلون إلى أشدّ الناس عداوةً لك، هذه هي الهجرة. أولئك الذين كانوا يهاجرون كانوا يتقبّلون بكلّ رحابة صدرٍ كلّ هذه المحروميّة والخسائر.

ومن جانبٍ آخر، فإنّ الهجرة تعني التحمّل من أجل بناء ذلك القصر العظيم في المجتمع الإسلامي. لاحظوا الآن، يوجد عمارة يتمّ بناؤها، وافرضوا أنّه كان من المقرّر أن توضع آلاف القطع الأخرى من الآجر فوق بعضها البعض، وأن يقوم كلّ واحدٍ بحمل قطعةٍ والمجيء بها إلى هنا من أجل أن تُبنى؛ فلو وضع كلّ إنسان قطعةً واحدةً لتمّ بناء هذا القصر المهيب. فقد كان المجتمع الإسلامي، الذي وُجد في المدينة، محتاجًا إلى العناصر المؤمنة الفعّالة المليئة بالسعي والقدرة، وإلى أصحاب السابقة والفهم للإسلام، وإلى المحبّ والمعتقد بهذا الطريق، وإلى القلب المليء بالإيمان. فذاك الذي



كان يهاجر من مكّة كان يضحّي بالأنس والمحبّة والذكريات والراحة والعيش والرفاهية ويأتي إلى المدينة؛ فقد كان الانتقال من مكّة إلى المدينة، بالنسبة لهذا الإنسان، خطوةً كبرى على طريق ذلك المجتمع بحسب قدرته ومساهمته، لهذا كان الأمر ذا قيمةٍ ودورٍ مصيريّ.

انظروا ماذا تقول هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾، أي قدّموا الملجأ لهؤلاء الذين فقدوا أوطانهم وشُرّدوا من بيوتهم، ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾، فإنّ كلّ هؤلاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، يشكّلون جبهةً واحدة ومعسكرًا وحدًا، فإنّهم جميعًا عنصرٌ واحدٌ، وكلّهم يمثّلون أعمدة وأركان وأسقف وجدران هذه العمارة، «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ بِمَنْزِلَةِ الْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[1]. فهل رأيتم كيف تجتمع قطع الآجر هذه فوق بعضها؟ وتتّحد لتشكّل السقف، فإنّ كلّ قطعةٍ هي هذا المؤمن، وكلّ مؤمنٍ هو هذه القطعة التي تتّصل بغيرها لتشكّل كلّ هذا البناء، ولو سقطت قطعةٌ واحدةٌ منها لتساقطت البقيّة وهي قطعةٌ واحدة لكنّها تشدّ ما بقي من القطع حتّى تشكّل جميعًا بنيانًا مرصوصًا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دقّقوا هنا جيّدًا. هؤلاء مؤمنون بقلوبهم ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾، أي لم يقطعوا العلقة القلبيّة ببيوتهم المملوكة المشجّرة المريحة، وحتّى بيوتهم العادية أيضًا - ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾، فلم يعملوا

(١) العلاّمة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٥٨، الصفحة ١٥٠.



بمثل هذا الالتزام الإيمانيّ، فكيف يكون حالهم؟ إنّ اللّه تعالى يخبر عنهم قائلًا: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، فلا يوجد علقة ولا رابطة حتّى يهاجروا ويعملوا وفق الالتزام الإيمانيّ. فالإيمان الجافّ والفارغ لا يؤثّر في الدنيا يا أخي، ولا يكون منشأ أثرٍ في المجتمع الإسلامي؛ ولهؤلاء أيضًا حساب في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، فمن يكون غير هؤلاء؟ إنهم المؤمنون المدّعون!، هذا هو مفاد الآية.

الجلسة الخامسة

الإيمان والالتزام بالمسؤوليّات

الإثنين ٦ شهر رمضان المبارك ١٣٥٣ هجري شمسي



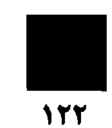
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

[سورة النور، الآيتان ٥١ و٥٢]

في مجال البحث حول الإيمان، المسألةٌ المهمّةٌ التي يجب على الفرد المؤمن الالتفات إليها هي أنّ التزاماته ومسؤوليّاته ليست كما يحلو له وكما يحبّ. فالأمر لا يكون على النحو الذي يُعدّ المرء نفسه مؤمنًا كما يريد، ويفعل ما ينسجم مع مصلحته الشخصيّة وما يراه مناسبًا من تجاوزٍ وخروجٍ عن الحدّ، فيستعمل اسم الإيمان والعمل أينما وجد أنّ الإيمان والتظاهر بالعمل يوصله إلى مراده، بينما يجد العكس من ذلك بحيث لا يكون الإيمان والعمل لمصلحته ونفعه الشخصي، ولا يحقّق له مصالحه العدوانيّة الظالمة، فإنّه يجتنب اسم الإسلام والإيمان والعمل بالالتزامات الإيمانيّة. فهذه الصفة منتسبة للمستغلّين - الذين ذُكروا في القرآن الكريم بأشكالٍ مختلفة - قلنا أنّ هذا هو حال الانتهازيّين. وإنّ جميع أهل الدنيا هم هكذا.

فمن هو الذي يسعى للإضرار بنفسه؟ إنّ ما نقصده هنا بالمستغلّين المعتدون هم أولئك الذين يكونون مستعدّين للتضحية بالمصالح الإيمانيّة من أجل منافعهم الشخصيّة. هذه سيرتهم، يتحرّكون باسم الإيمان ويتظاهرون بالعمل إلى أيّ حدّ يريدونه





ويشتهونه، وعلى أساس تحقيق مصلحتهم الشخصيّة؛ مثل هؤلاء الأفراد بنظر الإسلام ليسوا بمؤمنين، والآية القرآنية تصرّح بأن لا إيمان لهم.

بناءً عليه، فنحن في البحث في مجال الإيمان - وهو أحد أوّل الأبحاث التي تُطرح وقد طُرحت في سلسلة المعرفة الفكريّة للإسلام - قد وصلنا إلى هذه النتيجة وهي: إنّ الإيمان هو الذي يكون متلازمًا مع المسؤوليّة. والإيمان الذي لا يكون كذلك، ويخلو من تحمّل المسؤوليّات، وبتعبير القرآن «العمل الصالح»، هو ليس بإيمان. ولا يمكن أن تترتّب نتائج على الإيمان المجرّد والجافّ والذهنيّ؛ هذا بالإضافة إلى أنّ هذه الحقيقة يجب أن تكون دائمًا أمام الأعين وهي أنّ الالتزام دائمٌ وعامٌ.

ذاك المؤمن، الذي يريد أن يبقى مؤمنًا وينال ثمار الإيمان، يجب أن يشعر بالالتزام والمسؤوليّة تجاه أحكام اللّه كلّها، وأن يكون شعوره هذا دومًا على هذا النحو. ذاك الذي يعتقد بأنّ الإيمان باللّه وبالرسالة يستلزم المسؤوليّات، فإنّ هذه المسؤوليّات تقتضي أن يكون الجميع عبيدًا للّه؛ ولهذا، ينبغي أن يكون سعيه ورغبته أن يصبح الجميع كذلك مهما أمكن. فالإيمان بالنبي والشهادة والإقرار بالرسالة يستلزم هذه المسؤوليّة، وهي تتبّع النبي والسير على خطاه. فلو أقررت أنا بهذا المعنى وأذعنت وتقبّلت هذه المسؤوليّة فلا يكون هناك معنًى لأن تنتفخ أوداج رقبتي وأضمّ قبضتي وأتظاهر في الواقع أنّني مسلم عندما أواجه ظاهرةً صغيرةً خلاف طريق رسول اللّه فأغضب وأغتاظ. أمّا عندما أواجه ظاهرةً أكبر تكون أكثر إيلامًا، فإنّني أتحرّك خلاف مسير النبوّة وجهة الرسالة



وأنسى مسؤوليّتي. قيل: أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة[١]؛ مقابل الضعفاء أسدٌ، يزأر مقابل الأشخاص السيّئين، الذين هم قليلي السوء، لكنّه عندما يقابل الأشرار الكبار الذين يرتكبون العظائم فإنّه لا يواجههم، بل يحني أمامهم. وهذا الشعر العربي يُستعمل كمثلٍ شائع، فيُقال إنّه عندما يصل إلينا يصبح أسدًا لكنّه عندما تقع الحروب مع الأعداء الأشدّاء المسلّحين، فإنّه يصبح كالنعامة. فهل أنّ للنعامة مخالب وأنياب حتّى تكون في حربٍ مع أحد؟! إنّ الالتزام ليس موسميًّا أو مقطعيًّا، فالالتزام عامّ وشامل ودائم.

يذكر القرآن الكريم اليهود؛ أولئك الذين كانوا يقولون دفعةً واحدة إنّ علينا أن نحافظ على إخواننا - ويقصدون بذلك اليهود الآخرين -كأعزّاء لنا، ولكن عندما تتطلّب مصالحهم الشخصيّة أن يقتلوا إخوانهم ويأخذوهم أسرى ويبيعوهم ويقبضوا عليهم الأموال فإنّهم لا يتورّعون عن ذلك، كما قال اللّه تعالى في كتابه الكريم في مقام توبيخ بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾، تجدهم يؤمنون عندما لا يكون هناك ما يجلب وجع الرأس، ولكن نجدهم يكفرون ويتركون الدين عندما تكون الأمور على منوالٍ آخر. فهل يمكن التفكيك بين كلامين وأمرين يصدران من مبدإٍ واحدٍ وينبعان من نقطةٍ واحدة؟!

وفي حديثٍ معروفٍ لإمامنا العظيم، الإمام الباقر، صلوات اللّه وسلامه عليه، الذي هو أوّل حديثٍ في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتاب الوافي الشريف الجامع للكتب الأربعة

---

(١) ابن طيفور، **بلاغات النساء** (قم المقدّسة: مكتبة بصيرتي، لا تاريخ)، الصفحة ١٢٩.



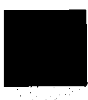


الأساسية للشيعة وجمعه المرحوم الفيض الكاشاني[١]. وبالطبع هذا الحديث قد ورد في كتب الشيعة المعتبرة أخرى. وقد رأيته قبل عدّة سنوات ولم أراجعه مرّةً أخرى. هو يشير إلى هذا النوع من الناس، أولئك الذين يلتزمون بالصلاة والصيام التي ليس فيها أيّة مشاكل أو متاعب، ولكنّهم إذا واجهوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يحمل معه وجع الرأس ويكون بالظاهر مضرًّا بمصالحهم فإنّهم لا يعتنون به. فهنا نجد الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ لا يقول إنّ هؤلاء مؤمنين أو غير مؤمنين، ولا يقول إنّهم فاسقين أو منافقين، لكنّ الآية القرآنية تصرّح أنّ أولئك عندما تكون مصالحهم ومنافعهم الشخصيّة في البين فإنّهم لا يريدون الدين وليسوا بمؤمنين.

أولئك الذين إذا كان الحقّ إلى جانبهم في قضيّةٍ ما، يذعنون لحكم النبي وقضائه، أمّا عندما لا يكون الحقّ إلى جانبهم ويعلمون أنّه سيحكم عليهم، فإنّهم لا يخضعون ولا يقرّون بقضاء النبي وحكومته. يتساءل اللّه في القرآن عنهم: هل هم يخافون أم أنّهم يشكّون؟ هل هم يظنّون ويشكّون بحقّانيّة الدين وصحّته؟ والشقّ الآخر للآية هو: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾. وهذا الأمر يكون في حدّ الكفر: أم أنّهم يخافون من أن يظلمهم اللّه ورسوله.

---

(١) محمّد الكاشاني، (١٠٠٧-١٠٩١ ق.) الملقّب بالملاّ محسن الفيض، الفقيه المحدّث المتكلّم والفيلسوف الشهير. استفاد من محضر أساتذة، كالملّا محمّد تقي المجلسي والشيخ البهائي والميرداماد والمير فاندرسكي، والملّا صدرا، الفيلسوف المعروف. وبعد رجوعه من سفر الحجّ، صاحب الملّا صدرا في قرية الكهك ولازمه. وبعد وفاة الملّا صدرا، رجع الملّا محسن إلى كاشان واشتغل بالتدريس والتعليم. من آثاره تدريس الصافي، وكتاب **الوافي**، وعلم اليقين في أصول الدين، و**المحجّة البيضاء**.





ففي جميع القضايا والمسائل وفي كلّ زوايا وتفاصيل الحياة يكون الإنسان المؤمن ملتزمًا، لا حين يكون الأمر لمنفعته ومصلحته.

وهذا معاوية بن أبي سفيان، عندما يجد الأمر ضروريًا له يرفع المصاحف على الرماح. وكلّكم سمعتم وعلمتم قصّته. فعندما يكون الأمر لمنفعته يتحدّث عن القرآن والصلاة والتديّن، وعندما يريد أن يستقطب أو يستجلب قلب شخصٍ محبٍّ لعليّ إلى نفسه، فإنّه يتحدّث عن فضائل أمير المؤمنين. وإذا ذُكرت فضائل عليّ عنده حينها نجده يذرف دموع التماسيح! فكم قد سمعتم أنّ معاوية كان في مجلسٍ وفيه عبد اللّه بن عبّاس وغيره، ثمّ يقول مثلًا لفلان ابن فلان: ماذا تعرف عن فضائل عليّ، فيقول له: وهل تعطيني الأمان إن أنا تكلّمت؟ فيقول: نعم لك الأمان، ثمّ بعد ذلك يجري الحديث ويدخل هو أيضًا في موجة البكاء![1] فعندما يناسبه الأمر نجده يتحدّث عن حبّ عليّ، وعندما يريد أمرًا ما، فإنّه يعرّف نفسه على أنّه عبدٌ من عبيد اللّه الخواصّ، وعندما يضطرّه الحكم وتحتاج سلطته إلى استقطاب مجموعةٍ من المسلمين، فإنّه يحافظ على عواطفهم ولا يجرح مشاعرهم، فيتحدّث عمّا يحبّه الناس أي القرآن والإسلام.

هذه مواقف يكون الدين فيها لمصلحته ومنسجمًا مع منافعه الشخصيّة وأهوائه المفرطة. أمّا عندما يكون الدين والتمسّك بأحكامه مضرًّا له، فإنّه لا يتعرّف على الدين أبدًا، كأن يكون حساب العدل ورعاية العدالة الاجتماعية، ومراعاة الشرائح المظلومة والمحرومة، ومساواة أقاربه وحواشيه لأجل الدين ولأجل الإسلام، والارتقاء بالمستوى

---

(١) العلاّمة المجلسي، **بحار الأنوار**، كتاب الفتن والمحن - أبواب ما جرى بعد قتل عثمان - باب نوادر الاحتجاج على معاوية.





الفكري للناس الذي هو هدف النبوّات والرسالات والبعثات - فعندما يأتي دور كلّ هذه الأمور، لا يكون لمعاوية أدنى اطّلاع على الدين ولا يشعر بأيّ التزام تجاهه. وإنّني أضرب معاوية مثلًا لكي نتمكّن أنا وأنتم من تطبيق ذلك على أنفسنا في هذ المجال، ونجعل أنفسنا على محكّ هذه التجربة. فذلك مثلٌ ضربته عن شخصٍ معروفٍ، سوؤه وشرّه واضحٌ ومسلَّمٌ به لدى الجميع.

أريد أن أقول لو كان المقرّر أن نتقبّل مقدارًا معيّنًا من المسؤوليّة تجاه الدين، ونرفض البعض الآخر، ومن ثمّ نعدّ أنفسنا مؤمنين، فلنجعل معاوية أوّلًا هو المؤمن، لأنّ معاوية كان كذلك، كان يظهر التمسّك الشديد بالدين في بعض الموارد. ألم أقل مرارًا في الأبحاث إنّ معاوية كان يصلّي أوّل الوقت ويؤمّ الجماعة ويدعو إليها؟! والكلّ يعلم أنّ فضيلة صلاة الجماعة بالنسبة لإمام الجماعة هي أكبر من فضيلة المأمومين؛ فحجم الثواب الذي أعدّه اللّه لإمام الجماعة هو أكبر ممّا أعدّه للمأمومين، بحسب الروايات الموجودة في هذا المجال، وقد كان معاوية إمامًا للجماعة.

حسنٌ، في هذه الصورة يكون الدين جميلًا جدًّا ولذيذًا وجيّدًا وغير مضرّ. يجذب القلوب بالمحبّة والمشاعر والتوجّه، كلّ هذه أمور جميلة. أمّا هذا الدين الذي يقول إنّ النبي قد بُعث من أجل تعليم الناس وتربيتهم ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[١] - فقد بعث اللّه نبيه لكي يعلّم البشريّة ويرتقي بها ويزيد من قوّة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.





تفكيرها وعقولها - وإنّ هذا الدين يحارب أيّ شيء يمكن أن يواجه العقل في الناس، ويقف أمام أيّ اعتداء على وعي الناس وإدراكهم وعقلهم وفهمهم، فهو لا يسمح لبقاء أيّ عاملٍ يمنع الناس من أن يفكّروا ويفهموا ويدركوا. هذا هو الدين.

ذاك الدين الذي قيل إنّه أفيون الشعوب ومخدّرها هو شيءٌ آخر. فلا توجد في قرآننا علائم ذلك الدين، كما أنّها لا توجد في عمل نبينا وأعمال قادتنا. إنّ الإسلام الذي يحارب الكفر يحارب ذلك النوع من الدين. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا القائد الإسلامي الكبير: إنّ اللّه قد بعث الأنبياء من أجل استخراج كنوز العقل والفهم من باطن الناس وإثارتها وبعثها، «ويثيروا لهم دفائن العقول». فكلّ ما يجعل هذه الدفائن مدفونةً أكثر ويدسّ هذه القوى العقليّة والفكريّة للبشر تحت التراب أو تحت أكوام العصبية أو التصوّرات الباطلة أو القمع أو الإرهاب أو أيّ شيء آخر، فإنّ أيّ عمل يكون حاله هكذا، هو في المقابل تمامًا لفلسفة بعثة الأنبياء، ولا يوجد فرق بين شيء وآخر طالما أنّ مؤدّاهما هو هذا الأمر، وسواء كان في هذا الزمن أو في زمن آخر.

إنّ النبوّات تستهدف فكر الناس وعقولهم وتسعى لأجل ارتقاء هذه العقول، وأيّ شيءٍ يجعل هذه القوى الفكريّة والعقليّة أكثر حدّةً وقوّةً فإنّ النبوّات تقبل به أكثر. فأيّ عاملٍ أو أيّ شخصٍ أو أيّة قدرةٍ أو أيّ توجّهٍ أو دافعٍ، سواء كان في وجود الإنسان نفسه أو من خارج هذا الوجود، يؤدّي إلى تعطيل فكر الناس وعقولهم وحرمانها من إمكانيّة الفعليّة والتشغيل، وعجز الناس عن أن يفهموا الأشياء على ضوء مشعل الفكر والتفكّر واكتشاف السبيل الصحيح وطيّه بحريّة فكلّ ما يؤدّي إلى ذلك، فهو ضدّ الدين ومخالف له. هكذا





كان معاوية، فعندما كان الأمر يتعلّق بتنوير أفكار الناس، كان بعيدًا كلّ البعد ولا يفهم من الإسلام شيئًا. وعندما يحكم الإسلام عليه ويلزمه بأن يزيل جوع الناس، ويقضي على الاختلاف الطبقي في المجتمع، وأن لا يستخدم سياسة التمييز، ولا يحكّم الظالمين الفاقدين للوجدان على الناس، ولا يختار مستشاريه وأصدقاءه والمقرّبين منهم من بين الظلمة، ولا يجرّ الناس إلى جهنّم، ولا يؤدّي إلى نزول عذاب اللّه وعذاب الدنيا عليهم، وعندما يُقال له ارفع الضغوط عن الناس ودعهم يفهمون، عندها يصبح معاوية بعيدًا بفراسخ عن الدين.

تراه يقول لابن عبّاس: يا ابن عبّاس لا تقرأ القرآن، فيقول له ابن عبّاس: وكيف لا أقرأ القرآن؟ فقال له: حسنٌ، اقرأه ولكن لا تفسّره، فقال له ابن عبّاس: وكيف أقرأ القرآن ولا أفسّره يا معاوية؟ أيّ كلامٍ تتفوّه به هنا؟ فرأى معاوية كأنّه قد قال شيئًا خطأً - وفي تلك الأيّام كان الأمر يبدو للناس سيّئًا أن يُقال اقرأ القرآن ولا تفسّره - فقال له: حسنٌ، فسّره لكن لا تفسّره وفق طريق عائلتك ووفق طريقة أمير المؤمنين، فلا تقل للناس من ذلك التفسير شيئًا. فمعاوية لا يريد للناس أن يفهموا القرآن، ولا يريد لهم من الأساس أن يفهموا أيّ شيء. فكلّما قلّ مستوى فهم الناس كان الأمر لمصلحته.

لهذا، عندما نراجع كتاب أعمال معاوية، فإنّنا نجد بالإضافة إلى القتل - دقّقوا جيّدًا - دفن الأحياء، هذا غير رمي الناس في السجون حتّى يتعفّنوا، وغير إعدام حجر بن عُديّ[1] ورشيد

(١) وفد حجر في أيّام شبابه مع أبيه هانئ إلى المدينة وأسلم فيها. وبعدها أصبح من أتباع أمير المؤمنين وقادة جيشه. لم يكن مستعدًّا لمبايعة حاكم الكوفة، =



الهجري[١] وأمثالهم، وغير تلك الجرائم الفظيعة بحقّ أمثال ميثم التمّار[٢]، التي كان الناس يعرفونها جميعًا، ويدركها أيّ إنسانٍ عاميّ. كان لمعاوية جرائم أخرى لا يدركها إلّا أصحاب البصر الدقيق. ومن تلك الجرائم أنّ معاوية لم يرِد للمجتمع الإسلامي، المولود الحديث الذي لم يكن قد طوى العشرين سنة من عمره، هذه الأمانة التي أصبحت بيده، أن يتقدّم؛ بل [أراده] أن يبقى على حاله، وأن يرجع مائتي سنة إلى الوراء. فبأيّ لحاظٍ كان التراجع، هل قلّت أموالهم؟ كلّا، فيا ليت الأمر كان متعلّقًا بالمال فقط؛ وهل قلّ نفوذهم؟ وهل تفكّكت دولتهم؟ وهل قلّ عددهم؟ فيا ليت الأمر كان منحصرًا بهذه الأمور؛ بل إنّ القضيّة كانت أنّ الناس كانوا يتراجعون بلحاظ الفكر والرؤية والأخلاق، هذه هي الجريمة التي لا يمكن الصفح عنها أبدًا ماضيًا وحاضرًا.

هذه هي المعصية العظمى التي لم يكن بالإمكان معالجتها بعشر سنوات أو عشرين سنة من قِبل حكومةٍ سليمة. فبعد حكم معاوية بعشرين أو ثلاثين سنة، جاء عمر بن عبد العزيز[٣] الذي

= ولهذا، قُتل مع عددٍ من أتباعه بتهمة الخروج عن بيعة معاوية.

(١) رُشيد من أتباع أمير المؤمنين وأصحاب سرّه، وكذلك الإمام الحسن والإمام الحسين. تعلّم من أمير المؤمنين علم المنايا والبلايا. وقد استشهد كما أخبره أمير المؤمنين بقطع قدمه ورجله ولسانه وصلبه.

(٢) ميثم بن يحيى كان غلامًا حرّره أمير المؤمنين وأصبح من أتباعه الخواصّ، ولأنّه كان يبيع التمر عُرف بالتّمار، وقد تعلّم من أمير المؤمنين تفسير القرآن وعلم المنايا والبلايا، صلبه عُبيد اللّه بن زياد على تلك النخلة التي أشار إليها أمير المؤمنين.

(٣) عمر بن عبد العزيز، كان حاكمًا على المدينة في زمان الإمام السجّاد، وقد =





يسمّونه عادل بني أميّة ولم يتمكّن أن ينجز شيئًا. فلم يستطع أن يجبر فجائع معاوية أو أن يطمّ مستنقعاته، كما لم يسمحوا له بأن يعيش أكثر من سنتين في الحكم، حيث دسّوا له السمّ وقتلوه. لقد أوجد معاوية حالةً لا يمكن أن تنتج سوى الفساد ولا تقبل إلّا بالفساد. فالجاهلون الفاقدون للبصيرة لا يتأمّلون ولا يدقّقون في القضايا، تراهم ينتظرون أبواق معاوية ماذا تقول وعلى أساس ذلك يصدّقون ويعتقدون!!. وبين يدي، مجموعة من الوقائع والقصص حول تجهيل أهل الشام في زمن بني أميّة أغلبها قصصٌ طريفةٌ، وقد ذكرت الكثير منها مرارًا في الأبحاث والخطب وفي دروس التفسير. وأذكر بعضها الآن، فلا بأس بذلك، وعلى سبيل الدعابة والنكتة كما يُقال اليوم.

انظروا إلى أين وصل أمر شعبٍ ما. ففي زمن عبد الملك بن مروان[1] فُتحت مكّة من قبل الحجّاج بن يوسف. وكان الحجّاج واليًا مقتدرًا ووجيهًا عند بني أميّة وكان يحارب أيّ شخصٍ أو أيّ شيءٍ فيه أدنى ميل إلى التشيّع ويقمعه بشدّة. وبالطبع، إنّ مكّة

= وصل عام ٩٩ للهجرة إلى الحكم، ولم يحكم سوى سنتين، وقد خفّف في زمان حكومته من قمع من سبقه، ومن جملة إقداماته منع الخطباء من لعن أمير المؤمنين على المنابر، والذي كان معمولًا به من زمن معاوية، وأرجع فدك إلى أهل البيت، وألغى حكم منع كتابة الحديث، وتساهل مع العلويّين.

(١) عبد الملك بن مروان، وصل إلى الحكومة عام ٦٥ للهجرة عندما كانت الحجاز والعراق بيد آل الزبير، هذا وإن كان معروفًا قبل خلافته بالعبادة، ولكنّه بمجرّد أن وصل إلى الحكم، لم يُرَ منه سوى المكر والدهاء وسفك الدماء. وقد تسلّط على كلّ العالم الإسلامي بالسيف وبمعونة ولاته الدمويين كالحجّاج بن يوسف الثقفي وبقي في الحكم عشرين سنة.



لم تكن بيد الشيعة بل بيد عبد اللّه بن الزبير[١]. وكان عبد اللّه بن الزّبير مثل الحجّاج بن يوسف، غاية الأمر أنّ اللّه لم يمهله، فهجم الحجّاج على عبد اللّه بن الزبير وتولّى شأنه وفي النهاية سيطر على مكّة وفتحها؛ ومن جملة ما فعله أنّه سيطر على جبل أبي قبيس، وأنتم تعلمون أنّ هذا الجبل هو من الجبال المحيطة بمكّة، معروف وقريبٌ وملاصقٌ لها؛ فقام بكتابة رسالةٍ أرسلها إلى الشام إلى الخليفة عبد الملك ليقول فيها: الحمد للّه لقد سيطرنا على أبي قبيس، ويقصد هذا الجبل. فأمر الخليفة بأن تُقرأ هذه الرسالة على منابر دمشق، وكان الناس قد اجتمعوا في ذلك الوقت من يوم الجمعة، فقام الخطيب بفتح الرسالة وقال: الحمد للّه إنّ قائد جيش الخليفة الحجّاج قد سيطر على أبي قبيس، فعلا صوت الناس دفعةً واحدة وقالوا: نحن لا نقبل ولا بأيّ شكلٍ، يجب أن تجرّوا أبا قبيس الرافضي هذا بالسلاسل وتأتوا به إلى الشام لكي نصدّق؛ فقد تصوّروا أنّ أبا قبيس هو رجلٌ رافضي في مكّة. هذا هو مستوى إدراك وفهم الشعب.

ويوجد من قبيل هذه القصص الكثير، فمن الذي أوصل الناس إلى هذا المستوى؟ وعلى مَن يقع إثم عدم فهم هؤلاء؟ من الممكن أن تقولوا إنّه يقع على عاتق شُريح القاضي[٢]، أو على عاتق

(١) هو ابن الزبير - صاحب رسول اللّه - الأكبر. وكان من أكثر الأشخاص تأثيرًا في حوادث زمان الخليفة الثالث، كان له دور كبير وأساسي في وقوع حرب الجمل. قال عنه أمير المؤمنين: ما زال الزُّبير منّا أهل البيت حتّى وُلد ولده عبد اللّه، وقد أعلن عن نفسه خليفةً على منطقة الحجاز بعد شهادة الإمام الحسين وتسلّط على مناطق أخرى من العراق فيما بعد. قُتل سنة ٧٢ للهجرة عند هجوم الحجّاج على مكّة وإحراقه للكعبة.

(٢) شريح بن الحارث، نُصّب في زمان الخليفة الثاني بمنصب قضاء الكوفة، أبقاه =





محمّد بن شهاب الزهريّ[١]، أو على عاتق القاضي الفلاني أو فلان المفتي العميل الأجير، فهذا الرجل أو ذاك كان من المفترض أن يرشد النّاس؛ وأنا العبد أقبل بهذا الكلام . فبالطبع، إنّ أبا يوسف القاضي[٢]، أو شُريح، أو محمّد بن شهاب الزهريّ، أو غيرهم، قد ارتكبوا أفجع الجرائم مثلما قرأنا في رسالة الإمام السجّاد إلى ابن شهاب ورأينا؛ ولكن مَن هو محمّد بن شهاب وصنيعة مَن؟ فمن هو ذاك القطب الذي يصنع مثل هذه القوى العلمائيّة التي تقف مقابل الدين والقرآن؟ فهل هو قطبٌ غير معاوية؟! فالمعاصي والآثام إذن تنتهي إلى معاوية وتقع على عاتقه وعلى عاتق عبد الملك بن مروان، وعلى جميع الحكّام والطواغيت من بني أميّة وبني العبّاس وغيرهم. وهؤلاء مع كلّ معاصيهم وجرائمهم كانوا يتبجّحون أحيانًا بادّعاءهم اتّباع القرآن والدين. فما هو تكليفنا هنا؟

= أمير المؤمنين في هذا المنصب بشرط أن يشرف عليه في الأحكام وكان شُريح محبًّا للدنيا وقد كتب له أمير المؤمنين كتابًا بسبب بيتٍ اشتراه بثمانين دينارًا يعظه فيه ويوبّخه وذُكرت هذه الرسالة الثالثة في **نهج البلاغة**. انضمّ شُريح بعد مجيء عُبيد اللّه بن زياد إلى الكوفة إليه، وهو الذي أوصل الخبر الكاذب بسلامة هانئ بن عروة إلى قبيلته حتّى يفرّقهم عن قصر عُبيد اللّه، واعتبر سفك دماء الإمام الحسين حلالًا. وبعد تسلّط الحجّاج على الكوفة أصبح من الأشخاص المقرّبين إليه.

(١) محمّد بن شهاب من تلامذة الإمام السجّاد الذي انضمّ إلى السلطة وصار خادمًا للسلاطين، وهو أوّل مَن بدأ بجمع الأحاديث بعد قرار عمر بن عبد العزيز بكتابة وتدوين الأحاديث النبوّية.

(٢) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، قاضي القضاة في بغداد (١١٣ -١٨٢ ق.) كانت تلميذًا في شبابه عند أبي حنيفة، وقد استلم منصب القضاء لمدّة ١٨ سنة في زمان المهدي وهارون الرشيد والهادي العبّاسي.



هل دقّقتم؟ فكيف ينبغي أن نحكم بشأن أشخاص أمثال معاوية أو شُريح أو المغيرة أو زيد بن عمر، في زمان معاوية أو غيره. فلا فرق، في أيّة طبقةٍ وفي أيّ مقام؛ فكيف يكون القضاء بالنسبة لأمثال هؤلاء؟ هؤلاء الذين كانوا في بعض المواقف يتقبّلون الدين والإيمان والمسؤوليّة، وفي بعض المواقف الأخرى لا يوجد أيّ أثرٍ للدين والإيمان في حياتهم. فماذا نقول نحن عن أمثال هؤلاء؟ وهل نعدّهم مؤمنين؟ إنّ القرآن يصرّح بأنّ أمثال هؤلاء ليسوا بمؤمنين.

فالإيمان المُعتبر في الفكر الإسلامي ليس الإيمان الذي ظهر على أمثال هؤلاء، والذين نجد لهم نظراء في زماننا إلى ما شاء اللّه، بل ذلك الإيمان الثابت لأولئك الذين كانوا يلتزمون بما يُلزمهم، في كلّ مكان ومع كلّ شخص وفي كلّ حالةٍ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. إنّ المواعيد التي أُعطيت للإيمان والمؤمنين هي على الإيمان الواعي لا على ذاك الإيمان. فلو قيل إنّ المؤمنين منتصرون، فإنّ النصر يكون لأمثال هـؤلاء المؤمنين، وهـو قطعًا كذلك؛ وإذا قيل إنّ يد اللّه مع المؤمنين فيكون ذلك كما النصر؛ ولو قيل إنّ الطبيعة تنصر المؤمن وتؤيّده فهذا يكون بالنسبة لهذا النوع من المؤمنين، لا لأمثالنا أنا وأنتم. فنحن الذين ننال أقلّ استفادةٍ من هذا البحث، علينا إذا رأينا أنّ إيماننا لا يتمتّع بتلك الآثار والخصائص والبشارات الإيمانيّة والبشارات التي جعلها القرآن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٧.

واللّه للمؤمنين، علينا أن لا نتعجّب، لأنّنا نفهم إنّ ذاك الإيمان هو الذي يتصاحب مع كلّ تلك البشارات وهو ليس موجودًا هنا.

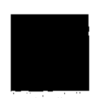
والآن، نترجم هذه الآيات فاستمعوا لها وانصتوا، ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾[١]، فهذه الآيات القرآنية في مجال البيان والتوضيح، وأولئك الذين لا يسمحون لأنفسهم بفهم القرآن، هؤلاء المساكين الذين حُرموا من هذا البيان، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

فماذا تعني مشيئة اللّه؟ هل هي بمعنى أنّ اللّه يختار بشكلٍ عشوائي هذا الشخص ويترك ذاك؟ وهل أنّ له نظرةٌ خاصّة إلى البعض فيجذبهم ويدع البعض الآخر؟ لا، الأمر ليس كذلك، إنّ إرادة اللّه ومشيئته - في الموارد العادية بالطبع - لا تكون إلّا في قالب العلل الطبيعية والعادية من حيث الظهور. فأنتم إذا أردتم وشئتم وجلستم في مجلس الهداية والبيان وهُديتم، فإنّ اللّه يكون قد شاء هدايتكم. أمّا إذا تكاسلتم ووهنتم وأغلقتم طريق الفهم على أنفسكم، فإنّ اللّه يكون قد أراد لكم أن لا تفهموا، إنّ إرادة اللّه هي بمعنى أن تتحقّق بالوسائل والأسباب العادية أو لا تحدث. فلو حدثت هذه العلل العادية والوسائل من أجل إنجاز هذا المعلول بإرادتكم ومشيئتكم، هنا يكون اللّه قد أراد؛ وإذا لم تشاؤوا فمن الواضح أنّ اللّه لا يكون قد شاء، لا بمعنى أنّ عدم مشيئة اللّه توجب أن لا تريدوا، كلّا. فأنتم في الإرادة أحرار. عندما نقول إنّ

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٦.





اللّه لم يشأ فيعني ذلك أنّ العلّة المطلوبة لم تترتّب.

حسنٌ، لماذا لا نقول إنّ العلّة المطلوبة اللازمة لم تترتّب ونقول إنّ اللّه لم يشأ؟ من أجل أنّ موجد العلل والذي يمنح خاصيّة العلّة للعلل هو اللّه. فلو أنّ نارًا أُضرمت هنا، وقمتُ أنا بوضع يدي في النار، يكون اللّه قد أراد لها أن تحترق؛ ولو أنّني لم أضع يدي في النار ولم تحترق، يكون اللّه قد أراد لها أن لا تحترق، فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّ اللّه أرادها أن تحترق بمعنى أنّه قد أمّن العلّة الطبيعية للإحراق، فما هي هذه العلّة الطبيعية؟ إنّها عبارة عن وجود النار وعدم وجود المانع وإرادتي بمدّ يدي. ما نودّ أنّ نقوله من أنّ اللّه لم يشأ [ليدي] أن تحترق في الصورة الثانية في حال أنّ العلّة الطبيعية للإحراق لم تتوفّر، أو أنّ [يدي] لم تقترب من النار، أو أنّ اليد كانت رطبة، أو أنّ النار كانت قليلة، وأمثال ذلك. حسنٌ، فلماذا ننسب ذلك الشيء المرتبط بالعلل إلى اللّه؟ ذلك لأنّ اللّه هو خالق العلل، فلهذا السبب إنّ قوله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ في كلّ موارد القرآن هو من هذا القبيل. وقد أوضحت ذلك مفصّلًا في موارد عديدة وفي مناسباتٍ مختلفة، وها هنا أشرت إلى الأمر أيضًا.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾[1]، إنّهم يدّعون مثل هذه الأمور، وادّعاء ذلك سهلٌ، ولكن ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[2]. فبعد هذا الادّعاء، نجد أنّ جماعةً منهم تتراجع، وبعد أن تراجعوا - إنّ الحديث هنا ليس عن الكفّار ولا عن المرتدّين الذين

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤٧.

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٧.



إذا سخطوا، فإنّهم يخرجون من عالم الإسلام دفعةً واحدة ويذهبون، كلّا، إنّ الحديث هو عن المؤمنين العاديين داخل المجتمعات، أي المجتمعات الإسلامية - يقول اللّه عنهم ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

يوجد ها هنا ما هو أوضح من ذلك: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢]، فنشاهد أنّهم فجأةً يتراجعون وهم غير مستعدّين ليذهبوا إلى الرسول ويستمعوا إلى حكمه. إنّ الآية بحسب الظاهر ترتبط بالقضاء، ولفظ الحكومة في القرآن يأتي غالبًا، ولا أقول دائمًا، بمعنى القضاء، وهو المعنى الذي نستعمله نحن في المحاكم. ولكنّ مضمون ومفاد الآية عامّ وليس منحصرًا بشأن أولئك الذين لا يخضعون لقضاء النبي، بل إنّ الآية تشمل الذين لا يطيعون أوامر النبي في غير موارد القضاء أيضًا، وهو أمرٌ واضح ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فهذا هو الإعراض. ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾. أمّا إذا كان الأمر لمصلحتهم، فيأتون إلى النبي بكامل الطاعة والإذعان، أمّا إذا كان الاحتمال بأن يكون الحكم ضدّهم فإنّهم لا يقبلون الدين، هنا نجد القرآن يجرّهم إلى استيضاح الحقيقة.

فلماذا لا تقبلون بالدين عندما لا يكون لنفعكم الشخصي؟ يوجد أحد أمور ثلاثة:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٣] هل هو مرض النفاق أم هو مرض الأهواء والهوس؟ هل هو مرض الجهل والغرور؟ هل هذه هي

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤٧.

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٨.

(٣) سورة **النور**، الآية ٥٠.





الأمراض التي وُجدت في قلوبهم فمنعتهم من تقبّل الحكم؟ أم ما هو غير ذلك؟

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ هل هذا الأمر هو نوع من الشكّ في الدين؟ فلو لم يكن في قلبك شكٌّ ولم تكن متردّدًا ولا مرتابًا بشأن الدين فلماذا عندما لا يكون في مصلحتك، بل يزاحمك، تكون غير مستعدٍّ للخضوع، بل تنكره من الأساس، أي أنّك تنكر ذلك الحكم.

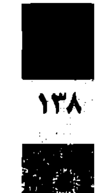
أم هو أكثر من ذلك، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فلعلّهم يخافون أن يظلمهم اللّه ويظلمهم الرسول، وهذا أكبر من ذلك الشكّ لأنّه عين الكفر.

فهل يمكن للإنسان أن لا يعلم ولا يعتقد بأنّ اللّه والرسول لا يمكن أن يظلما في أحكامهما. فالذي في قلبه مثل هذا الخوف من ظلم اللّه أو ظلم الرسولِ، من الواضح أنّ مثله لا يعرف اللّه ولا يعرف الرسول من الأساس، ولا يقبل بهما ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإنّ اللّه لا يظلم أحدًا، هؤلاء هم الذين يظلمون، ويظلمون أنفسهم في الحقيقة، فلو كان لهم منصبٌ أعلى لظلموا أنفسهم وظلموا الناس واعتدوا على الحقيقة وعلى البشريّة بصورةٍ مطلقة وظلموها.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] إنّ المؤمنين ليسوا كذلك، والقرآن يعطي الألفاظ معنًى وله ثقافةٌ خاصّة بالمصطلحات. والمؤمن بالاصطلاح القرآني له معنًى يوضّحه القرآن في هذا المورد ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فهؤلاء يقولون إنّنا فهمنا وأدركنا لا مجرّد أنّنا سمعنا.

---

(١) سورة النور، الآية ٥١.



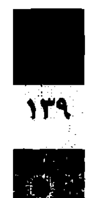
فمصطلح السمع كما في قوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ - الذي جاء في القرآن في العديد من الموارد - وقد صادف أمس أنّني أثناء مطالعة القرآن التفتّ إلى موردٍ آخر، هو بمعنى الفهم لا بمعنى مجرّد الاستماع بالأذن، أي بهذه الجارحة وهذا العضو الخاصّ. يقولون لقد فهمنا وأصبحنا مؤمنين عن وعي، هذا ما كنّا قد تحدّثنا عنه سابقًا وذكرنا أنّ الإيمان ينبغي أن يكون عن وعيٍ.

﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ فبعد أن آمنّا عن وعي، بدأنا بالطاعة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، أي إنّهم يصلون إلى المطلوب والفلاح وهو التوفيق والنصر والوصول إلى الهدف والمقصد. وفي أغلب الأحيان، عندما يُستخدم الفلاح بالنسبة للمؤمنين، فإنّه يكون أنسب مع ذاك المعنى الذي ذكرناه وهو المعنى المتعارف في اللغة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، فالفوز يحمل معه هذا المعنى وهو الوصول إلى الهدف والمقصد.

والآيتان اللاحقتان لا ترتبطان كثيرًا ببحثنا، لذلك أريد أن أقفز إلى الآية اللاحقة. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾[1] إنّ هذا وعد اللّه أيضًا للمؤمن الملتزم، فدقّقوا. إنّ الوعد الإلهي في هذه الآية يقول بصراحة: لقد وعدنا المؤمنين أن تكون الحكومة لهم على الأرض، وأن يكون فكرهم ونهجهم ودينهم حاكمًا على العالم، وأنّ خوفهم واضطرابهم سيتبدّل إلى الأمن والأمان، وإن كانوا يعانون طيلة التاريخ من التعذيب والأذى والظلم، فإنّهم بعد ذلك سوف

---

(١) سورة **النور**، الآية ٥٥.



يعيشون بكلّ راحةٍ، وبعيدًا عن الغموم والاضطراب، ويعبدون اللّه، ويزيلون أنداد اللّه من الأرض؛ هذا هو الوعد الإلهي الموجود في هذه الآية، وإن منح اللّه هذا الوعد للمسلمين فهذا الوعد مرتبطٌ بالمؤمنين، أي بالمؤمنين الملتزمين.

إنّ بعض الأشخاص تسيطر عليهم الوساوس الكثيرة، ويجمدون عند رأي واحد ويقولون هذا الأمر مخصوصٌ بزمان وليّ العصر صلوات اللّه وسلامه عليه. نحن لا نشكّ بأنّ زمان ظهور إمام الزمان، صلوات اللّه وسلامه عليه، هو المصداق الكامل لهذه الآية، ولكن أين ذُكر في هذه الآية أنّ الأمر مختصٌّ بذلك الزمان؟ أخبرونا لنرى. أين توجد هذه الرواية التي تخصّص تلك الآية لذاك الزمان؟! فلماذا تحدّون الآية وتخصّصونها؟! ألم ينفّذ اللّه وعده للمؤمنين الذين كانوا في صدر الإسلام؟ إنّ هذه الآية تحقّقت في ذلك الوقت، لقد جاؤوا إلى المدينة وأقاموا تلك الحكومة، فأمثال بلال، الذين كانوا يخافون من كفّار قريش ويخشون أن يقولوا «لا إله إلّا اللّه» على لسانهم، قد صدحوا بهذه الجملة على المآذن وكبّروا بصوتٍ عالٍ. أولئك الذين كانوا مجبرين على السجود لثلاثمئة صنم غير بشريّ، وللعديد من الأصنام البشريّة، وصنم أنفسهم وشهواتهم وميولهم النفسانيّة وعبادتها والتوجّه إليها كلّ يوم وكلّ ليلة وتقديم الطاعة المطلقة لها، وقد جعلوا كلّ هؤلاء الشركاء للّه؛ جاؤوا في النهاية وبدأوا حياةً جديدة في تلك الأرض الآمنة والمجتمع الإسلامي المترقّي دون أن يعيشوا أيّ نوعٍ من الهواجس والقلق، ولم يجعلوا للّه أندادًا صغيرةً أو كبيرة، عاقلةً أو غير عاقلة، من أنفسهم أو من غيرهم. وهذه الآية قد تحقّقت هناك مرّةً، ويمكن أن تتحقّق آلاف المرّات، ولكن ما هو شرطها الأساسي؟ يقول تعالى ﴿وَعَدَ





ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهؤلاء الذين يعملون وفق المسؤوليّات الإيمانيّة قد وُعدوا بأن يصبحوا خلفاء في الأرض؛ ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. والمقصود من عبارة «في الأرض» ليس جزيرة العرب وقد وقع مَن ترجم العبارة في الخطأ بهذا الاعتبار، فهل إنّ سيطرتهم على الجزيرة العربية فيه الكثير من العظمة؟ بل حتّى لو سيطروا على ٤٠ أو ٥٠ أرض مثل الجزيرة العربية. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني على الأرض. وقد ذكّرت بأنّه قد تقع بعض الأخطاء الترجمات، وبالتأكيد نحن لا نسيء الظنّ بأحد ولا نقول إنّ قولكم «في هذه الأرض» هو من أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أراضٍ أخرى، أو أن تقصدوا أنّ المؤمنين والعاملين بالعمل الصالح يمكنهم أن يتسلّطوا على أرض الحجاز ولكن لا يمكنهم أن يسيطروا على أراضٍ أخرى، كأرض الريّ والروم وبغداد والأندلس وغيرها؛ كلّا، نقول إنّ مقصودهم إن شاء اللّه لم يكنْ مثل هذه الأمور.

على كلّ حال، إنّ قوله تعالى ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، نحن نتصوّر أنّ المؤمنين أينما كانوا منذ بداية العالم كانوا يعيشون في المذلّة. وفي الأساس، أرى أنّ عامّة المسلمين في قراءتهم للتاريخ ومعرفتهم للعالم يرون الإيمان متلازمًا دومًا مع التعرّض للقهر، وأن يكون الإنسان مسلمًا أو مؤمنًا بطريق اللّه يعني ضرورة تلازم ذلك مع المعاناة والعذاب والهزيمة. وهذا تمامًا معاكسٌ لما يريد القرآن الكريم لنا أن نفهمه. لقد شرحت قبل مدّة هذا الأمر[1]، كيف أنّ الدين منذ أن وُجد وإلى اليوم كان

---

(١) في مدرسة الميرزا جعفر قبل سنتين أو ثلاث، وهناك في إحدى المناسبات تحدّثت ليومٍ أو عدّة أيّام عن ذلك الموضوع.



في حالة تقدّمٍ مستمرّ ولم يتراجع خطوةً واحدة. وهذا ما نعتقده.

وبالتالي، إنّ ما على الأرض هو لكم، فالحكومة في أيديكم مثلما حصل للسابقين، أي لمؤمني العصور السابقة. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾، فهذا يعني أن يستقرّ دينهم ومسلكهم ومنهجهم ومرامهم، ذاك ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي ما يليق بهم، أي هو دين الإسلام، الذي يشمل حال الدنيا والآخرة والحاضر والمستقبل والجسم والروح وباختصار جميع الأبعاد، فهو كافٍ لجميع الاحتياجات. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾، فلأجل أيّ شيء؟ وهل لأجل أن يجلسوا في أمنٍ وأمان ويشربوا الشاي وقت العصر في حدائقهم بإبريقٍ صينيٍّ وسماوار بولنديّ[1]؟ هل أنّ قضيّة الأمن بالنسبة لهم هي هذه؟ هل أنّ الأمن من أجل أن يتمكّنوا من الاستقرار والاستلقاء والاستجمام؟ كلّا. إنّما كان ذلك الأمن من أجل أن يتمكّنوا من السير خطوةً، وعشر خطوات، في ظلّه نحو مقصد الإنسانيّة النهائي أي التكامل، وليتمكّنوا من أن يصبحوا عبادًا للّه، وليقتلعوا من أنفسهم العبوديّة للأنداد، وليطيعوا اللّه ويخضعوا له، وليتمكّنوا من التعالي والتكامل على هذا الطريق. فكلّ كلمةٍ من هذه الكلمات يمكن أن يكون لها بحثٌ مستقلٌّ؛ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ﴾. بالطبع تذكر هذه الآية في آخرها، أنّ من يشرك بعد إيمانه فهو من الفاسقين، والفسق هنا يعني الخروج عن الدين.

اللهمّ! اخلص قلوبنا في كلّ ما نقول وما نفعل، واجعل كلّ ذلك لك.

---

(١) يُصنع هذا السماور من النحاس والنيكل ويظهر كأنّه ذهبي وهو مقاومٌ للصدأ، ولأنّه استُورد إلى إيران أوّل مرّة من بولندا عُرف باسم عاصمة بولندا وارسو.







اللهم! بمحمّد وآل محمّد أذقنا طعم الحياة التوحيدية.

اللهمّ! بمحمّد وآل محمّد نقِّ قلوبنا من الشرك.

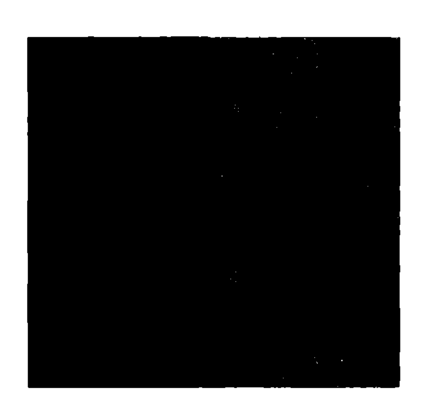
اللهمّ ! بمحمّد وآل محمّد لا تمنعنا خيرك، وأزِلْ كلّ غرورٍ وآفة وشرخٍ بين المسلمين.

اللهمّ! أشغل أعداء المسلمين ببعضهم البعض.

الجلسة السادسة

البشائر

٧ شهر رمضان المبارك ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ❊ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

[سورة النساء، الآيتان ١٧٤ و١٧٥]



إنّ البحث حول الإيمان هو في الحقيقة بحثٌ مقدّماتيّ. فنحن، ولأجل فهم الدين ومعرفة الأصول الأساسية في العقائد الدينية، ينبعث في أنفسنا شوقٌ يحملنا على السعي والتحرّك الجادّ من أجل فهم الدين ومعرفته. ولأجل القيام بهذا الأمر المهمّ، نحتاج إلى أن نعرف قيمة الإيمان وكيفيّته. فلهذا، كان بحثنا حول الإيمان.

وما ذُكر من قضايا حتّى الآن حول الإيمان كان عبارة عن مسألتين أو ثلاث مسائل أساسية ومهمّة. من جملتها أنّ الإيمان ينبغي أن يكون واعيًا لا إيمانًا أعمًى. والمسألة الأخرى هي أنّ الإيمان ينبغي أن يكون متلازمًا مع تحمّل المسؤوليّة والعمل، بل إنّ الإيمان بحدّ ذاته ينشئ المسؤوليّة ويولّد العمل، لا أنّه مجرّد اعتقاد جافّ وفارغ ينحصر في نطاق القلب والذهن. والمسألة الثالثة كانت أنّ المؤمن الملتزم إنّما يكون مؤمنًا إذا لم يكن إيمانه متقلّبًا، ولم يكن انتهازيًّا وتابعًا للمصلحة الشخصيّة، بل يكون إيمانًا عندما يكون دائمًا وشاملًا وعامًّا ومستمرًّا. هذه مسائل تمّت الإشارة إليها في مجال الإيمان وكان من اللازم أن نتعرّف عليها.

وقبل أن ندخل في أصل الموضوعات التي نتطلّع إليها، وهي





عبارة عن المعارف الاعتقاديّة للإسلام، يوجد أيضًا بحثٌ مختصرٌ آخر من الضروري أن نبدأ به اليوم، وسوف نستمرّ عليه في الغد أيضًا. ففي البداية، كنت أتصوّر أنّ هذا البحث يمكن أن ينتهي في يومٍ واحد، ولكن بمجرّد أن تعمّقت وبدأ الغور في القضيّة، وجدت أنّه يحتاج إلى أربعة أو خمسة أيّام كي ينتهي لا محالة. فاليوم والغدّ سوف نبحث بنحو مسلّم - إذا أبقانا اللّه أحياء - ولا أظنّ أنّنا سنضطرّ إلى يومٍ ثالث.

والبحث هنا هو أنّنا إذا أردنا أن نعرف قيمة الإيمان ونتيجته، فينبغي أن نطّلع على البشائر والأمور التي أعدّها اللّه للمؤمنين لنرى كيف أنّ اللّه تعالى قد تعهّد بأشياء في مقابل ما يقدّمه المؤمن بإيمانه وعمله الصالح والتزامه ووفائه. ولأنّ الإنسان تعرّف على أحكام المعاملات وعمل بها في حياته بصورة دائمة، فهو يحبّ أن يرى كيف تكون معاملته مع اللّه وبأيّة صورة. فهو يؤمن ويلتزم بأمور على أثر ذلك الإيمان، ويحبّ في المقابل أن يعلم ما هو العهد الإلهي الذي يكون مقابل تعهّده والتزامه وما هي البشائر والوعود التي تُقدّم له. فهذه قضيّةٌ تمثّل بنظر المؤمن وبنظر أيّ إنسان، يرد ساحة الإيمان ويكون ثابت القدم وراسخًا مستقيمًا، قضيّةً جذّابة ومستطابة ومطلوبة ومحبوبة وتبعث الأمل في نفس المؤمن.

لقد جمعنا كلّ الآيات الواردة في مجال الإيمان والمؤمن في القرآن الكريم، وقد حصلنا على حوالي ٧٠٠ آية بهذا الشأن وبعض الخصائص الأخرى المتعلّقة به. وكان المبنى أن ننظر في هذه الآيات لنرى ما هي الأمور التي تترتّب على الإيمان. لقد بحثنا في هذه الآيات حول ما أعدّه اللّه تعالى للمؤمنين من بشائر وثواب وعاقبة حسنة ومطلوبة. وجدنا أنّها كثيرةٌ جدًّا. وبرأيي يمكن أن تبلغ



حوالي ثلاثين أو أربعين مطلبًا ترتبط بما يترتّب على الإيمان من جانب اللّه تعالى في القرآن الكريم. يتمتّع المؤمن بهذه الامتيازات الكبرى التي تبلغ حوالي ٤٠ ميزةً وكلّها على مستوى عالٍ، وتقع جميعًا في نطاق الأهميّة التي ترتبط بسعادة الإنسان وتكون ضروريةً ولازمةً في هذا المجال.

وأحد هذه الموضوعات هي الجنّة الأخرويّة. فمنها ما قاله اللّه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وقد تكرّر هذا الوعد في حوالي الثلاثين أو الأربعين آية. وإذا أردنا أن ندرسها جميعًا كما ذكرتُ فإنّنا سوف نحتاج إلى وقت طويل حتّى نستوفي البحث بشأن هذه البشائر والوعود التي أُعطيت للمؤمنين، لذا سوف نكتفي بذكر بعضها على أن نترك الباقي بعهدة الحضور الكريم لبحثه ومناقشته.

إنّ الإنسان ولأجل الوصول إلى السعادة الشاملة والكاملة يحتاج إلى أمورٍ، ما هي؟ ماذا يحتاج الإنسان ليكون سعيدًا؟ إنّ الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان ليكون سعيدًا بصورةٍ كاملة وشاملة قد أُعطيت للمؤمن وتترتّب على الإيمان. وهذه الأمور هي عبارة عن ١٠ أو ١١ موضوعًا - هل سيشعر الإنسان بالسعادة والرضا فيما لو حُذف أحدها؟ سترون أنّ الأمر لن يكون كذلك. بالتأكيد هناك موضوعاتٌ أخرى أيضًا ترتبط بشعور الإنسان بالسعادة، وكلّ هذه الموضوعات هي بصورة البشارة والوعد الذي يترتّب على الإيمان والمؤمن في القرآن، فما هي النتيجة التي نخرج بها؟ نستنتج أنّ الإيمان، الذي هو الاعتقاد المتلازم مع العمل كما حدّدت ثقافة القرآن، يتلازم مع جميع الظروف التي ترتبط بالسعادة، أي مع تلك الاحتياجات التي يتصوّرها الإنسان لنفسه.





إنّ القضيّة ليست قضيّة التعصّب للمذهب والدين والتديّن. ما كُتب هنا تحت عنوان شروط السعادة هو في الواقع ما يبغيه الإنسان المادّي أيضًا. وعندما نرجع إلى القرآن ونستمع إلى حديثه المؤنس، فسوف نرى أنّها جميعًا قد قُدّمت كوعدٍ للمؤمن وبشارةٍ له، وهي في الواقع نوع من العطاء والهديّة المعدّة لغيره، وصدق اللّه، فإنّ اللّه لا يمكن أن يقدّم وعدًا كذبًا. وبالطبع، إنّ هذا الجانب يرتبط بنوع التفكّر الديني الخاصّ الموجود عندنا لأنّنا نعتقد باللّه.

فما هي الأشياء التي يحتاجها الإنسان؟ أوّلًا، يحتاج إلى معرفة الهدف ومقام السعادة؛ أن يعلم إلى أين سوف يصل وما هو الهدف الذي ينبغي أن يسعى نحوه، وأن يعلم منذ البداية ويرى ما هي نقطة النهاية وما هو طريق الوصول إليها. بالإضافة إلى معرفة الهدف، وفهمه وإدراكه ينبغي أن يعرف ما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه للوصول إلى الهدف بصورةٍ أسرع ومؤكّدة. أليست معرفة الهدف ونقطة الهداية والمقصد ومعرفة الطريق الذي ينتهي إلى هذا المقصد من العناصر الأوّلية والأساسية لسعادة الإنسان؟! ففي هذا المجال لا يوجد فرقٌ بين الإلهي والمادّي؛ فالمادّي أيضًا يقبل بذلك ويذعن له ويشعر بأهميّته. وقد ذكرنا بين القوسين أنّ الهداية هي أوّل شرط. وقد ذُكر في الورقة بين أيديكم تحت عنوان الثاني وهو لا يعني الترتيب المنطقيّ. على كلّ حال، إنّنا سنأتي على ذكرها تباعًا ومن الممكن أن يبرز من بين ثناياها بعض الأمور الأخرى أيضًا.

ثانيًا، إزالة جميع حجب الجهل والغرور والظنون وكلّ ما يجعل جوهر فكر الإنسان وعقله في الحجب الظلمانيّة ويسلبه قدرة البصيرة والفهم. فهناك الكثير من الأشياء التي تمنع الإنسان من



أن يفهم، كغرور الإنسان، وكذلك جهالاته وظنونه والخرافات، فإنّ هذه جميعًا تمنع أيّ إنسان وأيّ شعب من إدراك الحقائق وفهمها؛ وكذلك الأنظمة الجائرة الظالمة فإنّها تحول دون تفتّح أذهان الناس ومعارفهم. إنّ الحجب والموانع المختلفة سواءٌ من الداخل أو من الخارج تصبح مانعًا من أن يستعمل الإنسان جوهر عقله وفكره لكي يصل إلى المعرفة والفهم، فتجعله في عتمة الظلام وتحبسه في سجن الظلمات وتبعده عن النور وعن ضياء الإدراك والفهم الصحيح. فمن أركان سعادة الإنسان وعناصرها أن ينجو الإنسان من هذه الظلمات، ومن كلّ ما يؤدّي إلى حصولها، لكي يصل إلى نور الحقيقة وطريق ضيائها ولكي تشعّ على قلبه أنوارها. لقد دوّنّا بين القوسين كلمة النور. ففي البداية، يحتاج إلى الهداية بذلك المعنى الذي تمّ توضيحه. ومن جهة أخرى، يحتاج إلى النور بالمعنى الذي أوضحناه أيضًا، فهذان شيئان.

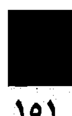
ثالثًا، أن يكون بعيدًا ومصونًا في طريقه الطويل نحو السعادة - هذا الطريق الذي يقطعه باتّجاه ذلك المقصد والمنتهى - من الهواجس والوساوس الداخليّة، (دقّقوا هنا) والتي هي أشدّ وطأةً من العوامل الخارجيّة المانعة. فأحيانًا، هناك شيءٌ ما يقف أمام طريقكم ليُقال أيّها السيّد، يا فلان نحن لن نسمح لك بالعبور؛ وقد أثبتت التجارب، وعلّمنا التاريخ، بصراحة أنّه عندما يُحال بين الإنسان وبين ما يريد، ويُسدّ الطريق عليه، فإنّه يصبح أكثر حرصًا على سلوكه ويزداد شوقه ويشتدّ ميله اشتعالًا. فلو قيل له أنّنا لن ندعك تمرّ، فإنّه سوف يضغط أكثر لكي يعبر؛ هذا هو العامل الخارجي المانع. وفي بعض الأحيان، هناك ما ينبع من داخل الإنسان ويخمد فيه هذه الشعلة ويوجد فيه الشكّ والتردّد؛ وهذا






الأمر لا يقف أمام السالك بل يُبقي له الطريق مفتوحًا، لكنّه يسلبه القدرة على السير، وإرادة التحرّك، والعزم على المضيّ، وإمكانيّة السعي؛ وهذا أسوأ. فيُقال له لماذا تسير؟ وما هي الفائدة؟ لعلّك لن تصل، لعلّك ستواجه قاطع طريقٍ أثناء مسيرك وقد تهجم عليك الذئاب، فعلى أيّ أساسٍ أنت تخاطر؟ فهذا المانع لا يريدك أن تتحرّك، وكلّ ذلك يحدث ببرودة أعصاب وتحرّق واهتمام ورعاية، رغم أنّ الطريق مفتوح. إنّ هذا المانع وهذه الوساوس وهذه الهواجس هي أشدّ وطأةً بدرجات من تلك الأشواك أو العصي التي تقف على قارعة الطريق.

لقد كانت مثل هذه الهواجس على مرّ التاريخ أمام أغلب السالكين الذين أرادوا طيّ طرق السعادة. فكم قد ترجّوا موسى وخافوا من أن يتمّ إخلاف الوعد الذي قُطع له. ويذكر القرآن الكريم أنّ الضغط والفقر كان شديدًا إلى الدرجة أنّ الخواص أنفسهم تزلزلوا وقالوا: متى نصر اللّه؟ وتساءلوا متى، وأين، وماذا حدث؟ انظروا حتّى الخواص يتزلزلون ويعيشون مثل هذا التردّد والتزلزل والهواجس الداخليّة والباطنيّة. لو أراد الإنسان أن يكون سعيدًا ويصل إلى مقصد السعادة ومنتهاها فشرطه أن ينجو من هذه العوائق الداخليّة وكلّ هذا الاضطراب والتزلزل الروحي وعدم الشعور بالأمن وفقدان الاطمئنان الداخليّ. وهذا أيضًا يُعدّ من الأمور التي توصل الإنسان إلى السعادة فيطوي ذلك الطريق الطويل الشاقّ المليء بالهواجس والوساوس الداخليّة. وقد ذكرنا بين القوسين لفظي «الاطمئنان» و«الأمن». ويمكنكم أن تضعوا مكان لفظ «الأمن» كلمة «الأمان» فلا فرق. إنّما اخترنا كلمة «الأمن» لأنّها عين التعبير القرآني. ولا بأس بأن نذكّر بهذه الجملة هنا، ولعلّنا





ذكرناها عدّة مرّات، حيث نقول في دعاء كميل «يا ربّ يا ربّ يا ربّ قوِّ على خدمتك جوارحي واشدد على العزيمة جوانحي»، كلّ ذلك من أجل أن أتمكّن من اتّخاذ القرار والتغلّب على كلّ أشكال الضعف والتردّد والشكّ والوساوس والهواجس؛ فهذه الأشياء هي التي تُقعد الإنسان على الطريق وتمنعه من طيّها وعبورها.

رابعًا، أن يرى سعيه مثمرًا في النهاية فيكون مؤمّلًا بأنّ هذا السعي سينتهي إلى مكانٍ ما. فالذين يفقدون الأمل من أنّ سعيهم وحركتهم سينتهيان إلى نتيجةٍ ما، من المسلّم أنّهم لن يصلوا إلى مقصد السعادة والفلاح. يحتاج الإنسان إلى أن يكون مطمئنًّا بأنّ سعيه سيكون مثمرًا، وأن يعلم بأنّ كلّ ما يقوم به سيكون له أثرٌ إيجابيٌّ في مكانه، وأن يدرك أنّ كلّ خطوةٍ يخطوها تقرّبه نحو المقصد النهائي. فلو كان الإنسان في بيداء، وكان يعلم أنّ المنزل المقصود هو من هذه الجهة، فإنّه يدرك كيف يجب عليه أن يسير، وإن تأخّر أو بقي وحيدًا أو سبقته القافلة، فإنّه سيتحرّك بثباتٍ وإحكامٍ وسعيٍ وشوقٍ ويخطو نحو الأمام. أمّا إذا أضعتم الطريق، ولم تعلموا من أيّة جهة ينبغي أن تتحرّكوا وضاعت الجهات الصحيحة عندكم، فإنّكم مع كلّ خطوةٍ تخطونها ستلاحظون أنّ الوهن سيتسلّل إلى نفوسكم، لماذا؟ لأنّكم لا تعلمون أنّ هذا السعي سيكون مثمرًا، فتحتملون أنّ هذه الخطوة التي تقدّمتم بها قد أبعدتكم بنفس المقدار عن المنزل المقصود؛ لهذا، فإنّكم ترجعون إلى الجهة الأخرى ثمّ تتحرّكون، وهكذا يتكرّر الأمر عدّة مرّات. إنّ من الشروط التي يمكن أن توصل الإنسان إلى السعادة إذن هو أن يكون لسعي هذا الإنسان الذي يسير ويسعى ويجاهد، أن يكون لسعيه وجهاده ثمرةً واضحةً.





خامسًا، أن تكون أخطاؤه وزلّاته قابلةً للجبران والعفو. وهذا الشرط مهمٌّ جدًّا. فكلّ إنسانٍ يرتكب الأخطاء على مرّ حياته ويقع في الزلّات أثناء تحرّكه؛ فلو كان كلّ خطإٍ يرتكبه عبارة عن جرحٍ لا يمكن أن يلتئم ويصبح أمرًا غير قابل للجبران، فإنّ الإنسان سيبقى في قلقٍ دائمٍ من أن يرتكب الخطأ الآخر، ومن أن يبتعد عن الهدف ويتنكّب عن الطريق الصحيح، فيقع في حالة من اليأس الدائم، ويعيش الظنون السيّئة من الماضي ومن كلّ شيءٍ يأتي في المستقبل. أمّا إذا علم أنّ أخطاءه تقبل الجبران، بشرط أن يسعى لذلك بنفسه، وأدرك أنّ كلّ خطإٍ يرتكبه يمكن أن يُحَلّ إذا ندم عليه، فلو علم كلّ ذلك، فإنّ شوقه وأمله وحماسه سيتضاعف. وقد كتبنا داخل القوسين كلمتي «المغفرة» و«الرحمة».

سادسًا، أن يتمتّع في جميع أحواله بالإمكانات التي تساعده وتبثّ في نفسه الطمأنينة. أن يعلم أنّ في كلّ مكان، وفي جميع الظروف، عاملًا مساعدًا يمكن أن يستفيد منه. وهذا يشبه تمامًا ذلك الذي يضع الخريطة، التي تبيّن كلّ طريق، في جيبه ثمّ يبدأ بالمسير، فهو مطمئنٌّ بكلّ خطوةٍ يخطوها. يمكن أن يقع في الأخطاء، لكنّه غير قلقٍ. فهو يعلم أنّه لو ضلّ الطريق اشتباهًا في بعض الأوقات والأماكن وسلك طريقًا آخر، فإنّ هذه الخارطة في جيبه، يمكنه أن يفتحها وينظر فيها ويتعرّف على الطريق الصحيح ويدرك خطأه، فيوجد هنا وفي كلّ الأماكن مستمسَكٌ ومستعصَمٌ يمكن أن يتمسّك به ويعتصم ويستفيد منه.

سابعًا، أن ينال النصر والمدد الإلهي في مواجهة الأعداء والعداوات، وهذا الأمر يُعدّ من الشروط الأساسية للسعادة والفلاح. بالتأكيد إنّ الإنسان المادّي الذي لا يعتقد بالله، ونحن





في هذا المجال لا نذكر للإنسان المادّي اسم اللّه، بل نقول يا فلان إنّ في سعيك المادّي هذا، وفي هذا التحرّك الاجتماعي أو الجهاد الذي تقوم به، لو أنّك علمت أنّ هناك قوّةً ما وراء المادّة والطبيعة وأنّ هذه القوّة تلازمك، فكيف سيكون الأمر بالنسبة لك؟! لو أنّ هذا الشيء كنت تملكه، وكان لديك مثل هذا العون والمدد، فكيف سيكون الأمر بالنسبة لك؟ سترون مباشرةً أنّ عينيه ستلمعان ويقول جيّدٌ جدًّا. فما أجمل أن يكون للإنسان قوّةٌ ما وراء القوّة المادّيّة والمادّيّات تدعمه وتمدّه عندما يواجه الأعداء وعداواتهم ومؤامراتهم ودسائسهم وجلاوزتهم، فيعتقد ويعلم أنّ تلك القوّة الماورائيّة تقف معه وتحميه وتمدّه. غاية الأمر أنّ الإنسان المادّي لا يتعرّف على اسم اللّه ولا يعتقد به، وإن لم يكن متيقّنًا بأنّ اللّه غير موجود. أمّا الإلهي الذي يمتلك اليقين بوجود تلك القدرة المسلّطة والمسيطرة والتي تقف وراء جميع هذه الظواهر، وهي تستند إليها، فانظروا كيف سيكون سريعًا ومنجذبًا في حركته على طريق السعادة.

ثامنًا، أن يؤمن بأنّ التفوّق والرجحان على الجبهات والمعسكرات المخالفة سيكون له في النهاية، وسيكون الأعلى والأرجح والأكثر تفوّقًا؛ ولهذا الأمر بحدّ ذاته تأثيرٌ عجيبٌ يؤدّي لأن يطوي الإنسان هذا الطريق بكلّ سهولةٍ ويسر.

تاسعًا، أن يؤمن بأنّه سينتصر على أعداء الطريق والموانع التي تقف بينه وبين الوصول إلى هدفه وتسعى إلى إحباطه. فتصوّروا أنّ الإنسان يبذل كلّ هذه المساعي ثمّ يفشل أو يُهزم في النهاية، وأنّه لن يصل إلى السعادة! فمن العناصر الأساسية لسعادة أيّ إنسان أن تكون عاقبته تحقيق الانتصار، وهل هناك شيءٌ آخر؟ ألا نشاهد المسالك الدنيوية تقوم بكلّ ما تقوم به من أجل الانتصار؟ فإنّ





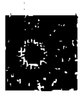
من عوامل السعادة البشريّة والفرديّة والاجتماعية والجماعيّة، ومن عناصرها الأساسية هو الانتصار في النهاية عند مواجهة الأعداء.

عاشرًا، أن يصل في النهاية، بعد كلّ هذه الصعاب والضغوط والقيود والمحاصرات، إلى مقصوده وهدفه النهائي، إلى ذلك المقصد. وقد ذكرنا بين القوسين كلمتي «الفوز» و«الفلاح» بحسب التعبيرات أو العبارات القرآنية.

أحد عشر، أن يتمتّع ويستفيد في جميع أموره وأحواله وأثناء الطريق وعند الوصول إلى المقصد أو على طريق الهدف، من تلك الذخائر والنعم التي أُعدّت له في هذا العالم، فتهطل عليه بركات السماء والأرض، وتتفتّح أمامه كلّ ثمارها وأمطارها وذخائرها في الأرض والسماء والبحار والغابات والمناجم وكلّ الموارد الحيويّة وغير الحيويّة اللازمة لأيّ إنسان. والأهمّ من كلّ ذلك منابع الوعي والفهم والعقل والاستعداد والابتكار، فيتمكّن من الاستفادة منها جميعًا؛ فإنّ هذا الأمر يُعدّ من الأشياء التي لها دخالةٌ كبيرة في سعادة الإنسان. وأن يعلم كلّ ما هو من هذا القبيل ممّا يمكن أن يكون له دخالة في سعادته.

وفي النهاية، وبعد تحصيل كلّ هذه الشروط، والتي تتحقّق أثناء حياته وسعيه ويقظته وعندما يموت وينطفئ هذا المصباح ويظهر أنّ الأمر سوف يتوقّف ويجمد؛ يبدأ نوعٌ جديد من الاستفادة يكون بداية استراحته وأوّل ثوابه وأجره؛ ويُعدّ ذلك بداية الطريق والتحرّك نحو الراحة والعيش. إنّ الإنسان المادّي لا يعتقد بأنّه بعد أن يموت سيكون هناك أيّ نوع من النتيجة غير الدنيوية، ولهذا فإنّه لن يأمل بكلّ المساعي التي يقوم بها ما بعد الدنيا. ولأمثال هذا نقول: يا فلان، إنّك بعد أن تموت وترتحل عن هذا العالم، فافرض





محالًا وهو ليس بالمحال، كيف سيكون أوّل موتك وأوّل راحتك؟ انظروا، إنّ هذه القضيّة تُعدّ أكبر ركنٍ في السعادة. ففي النهاية وبعد انقضاء مرحلة الحياة الدنيا وانتهاء جميع المساعي سوف يقابل أجره اللائق ويرتحل إلى جنّة النعيم والرضوان.

هذه هي شروط السعادة، وكلّها ضروريةٌ ولازمةٌ لأجل سعادة الإنسان أو المجتمع. والآن فلنستمع إلى كلمات القرآن، التي تبشّر كلّ من يحمل الإيمان، الإيمان الذي يتلازم مع المسؤوليّة والعمل، كيف يكون؟ يبشّر القرآن بجميع الأشياء التي تُعدّ عناصر السعادة وعوامل بنائها، هذه الأشياء وعشراتٌ غيرها تُقدّم لكلّ الذين التزموا بالإيمان. فيقول كتاب الله إنّ هذه الأشياء قد أُعدّت لكم، فلكم الهداية ولكم النور ولكم الطمأنينة والسّكون والرّوح والرّاحة، وسوف تثمر مساعيكم، ولن يضيع سعيكم. إنّنا سنشاهد جميع هذه الأشياء فيما لو نظرنا نظرةً مبصرةً إلى التّاريخ وإلى الماضي وإلى الوقائع التّاريخيّة والإنسانيّة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ﴾.

فانصتوا وتوجّهوا إلى آيات القرآن، فالآية الأولى من سورة يونس، والآيات المتفرّقة الأخرى في عدّة مواطن تشير إلى تلك الشروط. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾[1]، يتلازم العمل الصالح مع ذلك الإيمان. فالإيمان يلقي على عاتق الإنسان مسؤوليّات، فيما إذا قام بها وحملها، يكون قد عمل صالحًا. فالذين آمنوا وعملوا وفق إيمانهم والتزموا به، يهديهم الله وفق إيمانهم. الإيمان بذاته يوجب أن يتعرّفوا على الطريق، وهذا الطريق هو الذي يوصل إلى الهدف، وأيضًا يدلّ الإنسان على

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٩.



الوسائل والسبل التي يحتاج إليها.

يقول بعض الناس: أيّها السيّد كيف يمكننا أن نصل إلى المنزل المقصود؟ وعندما تتأمّلون في هذا السؤال ستجدون أنّ الإيمان بالخطوة الأولى ليس موجودًا في قلب السائل!، فلو كان الإيمان موجودًا لكان العمل متلازمًا معه، فإذا عمل ستكون الهداية والبصيرة من نصيبه، وسوف يتعرّف على الخطوة الثانية ويكتشفها، فسوف يُقال لك كيف ينبغي أن تسير[1]. فعندما يتحرّك الإنسان المؤمن بالهدف على الطّريق ويتّبع هذا الإيمان فإنّ الطّريق سوف يتراءى له شيئًا فشيئًا ويستدلّ عليه، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ فبواسطة هذا الإيمان ينالون الهداية من اللّه وتُفتح الطرق والسبل أمامهم.

لم يكن أيّ واحدٍ من القادة والعظماء والسالكين يعلمون من الخطوة الأولى كيف ستكون الخطوة العاشرة. وأنا، أضرب مثالًا في بعض الأحيان وأقول: إنّك لو كنت في باديةٍ ما، تمتدّ لعشرات الكيلومترات أو أكثر طولًا وعرضًا، وكنت في حالك الظلام فلا يوجد قمرٌ ولا نجمٌ، وأنت لوحدك تسير فيها، وكان بيدك مصباحٌ صغير من المصابيح اليدويّة التي لا يعادل ضوؤها أكثر من شمعةٍ واحدة، فسوف يُقال لك: يا فلان، إنّ عليك أن تتحرّك بمثل هذا المصباح الخافت وتعبر هذه البادية. فأنت تنظر نظرةً ما وتقول: إنّ هذا المصباح لا يمتدّ شعاعه لأكثر من مترٍ واحد ولا يضيء أمامي أكثر من هذه المسافة، فكيف ينبغي أن أقطع كلّ هذه المسافة الطويلة بشمعةٍ واحدة؟ إنّ هذا هو منطق الجاهل عديم التجربة

---

(١) من بيت شعر للعطّار النيشبوري.





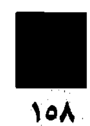
وقليل الخبرة. وكيف يكون الردّ على هذا المنطق الأعمى بنظركم؟ ألن تقولوا لهذا الفلاني المحترم وتسألونه أليس هذا المصباح يمتدّ لمترٍ واحدٍ؟ فتقدّم أنت خطوةً وسوف يضيء لك مترًا آخر، وإذا لم يحصل فلا تتحرّك. فإذا أضاء لك هذا المتر، يمكنك أن تخطو باتّجاهه وتعلم كيف تسير، وعندها سيضيء لك مترًا آخر، وهكذا. فسوف تجد أنّ هذا الضوء قد صاحبك حتّى آخر البادية وقد تمكّنت من قطعها بمثل هذا الشعاع الصغير وتصل في النهاية إلى مقصدك، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾، إنّ الإيمان بذاته يؤدّي إلى اكتشاف الطرق والسبل.

وقد أشير في العديد من الآيات القرآنية الأخرى إلى هذا الأمر، ففي أحد الموارد يقول اللّه سبحانه وتعالى فيها أنّه عندما كانت تنزل سورةٌ أو آيةٌ كان الكفّار والمخالفون والمنافقون ومرضى القلوب يقولون: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، ويتساءلون إن كانت هذه الآيات قد زادت أيّ واحدٍ منهم على صعيد الإيمان؛ وبعدها يجيب القرآن الكريم قائلًا: قولوا إنّ الذين آمنوا والذين اتّبعوا بإحسان ازدادوا إيمانًا بهذه الآية والعلامة. فإيمانهم القلبي هذا، أدّى إلى أن يستفيدوا من معدن هذه الهداية.

والآية الأخرى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1]. فهو الدليل القاطع والواضح والحجّة الثابتة والمثبتة. فالمقصود من هذا البرهان والنور في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، هو القرآن وحقائقه، والشاهد على ما

---

(١) سورة النساء، الآية ١٧٤.





نقول ما ورد في الآية اللاحقة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

إذن، أولئك الذين آمنوا باللّه وتوكّلوا عليه وتمسّكوا به ولم يكتفوا بالإيمان القلبي، سينالون تلك العاقبة حيث يقول اللّه تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾، ويتبعه ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي أنّ اللّه سبحانه وتعالى يدلّهم على نفسه ويهديهم إلى جواره، ويكون ذلك عبر الصراط القريب وهذه هي الهداية المختصّة بالمؤمنين. فلو لم تكونوا مؤمنين، أو لو كنتم مؤمنين ولكن لم تعتصموا ولم تلتزموا بمسؤوليّاتكم تجاه اللّه تعالى، ولم تتحرّكوا ولم تتعرّفوا على الطريق الموصل إليه، فإنّ ذلك النور الذي يهدي لن يضيء في قلوبكم لأنّه مختصٌّ بالمؤمنين.

يقول اللّه في موضع آخر تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾، وهي آيةٌ معروفة يكثر ذكرها على الألسن، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. أولئك الذين هم في طريقنا، فما هو طريق اللّه؟ يجاهدون لأجل الأهداف الإلهيّة التي هي كلّ هدفٍ للّه تعالى في هذا العالم. فما هي هذه الأهداف الإلهيّة؟ هي العدالة، والأمن، وعبوديّة اللّه، وإيصال عباد اللّه إلى الرشد والتكامل، وإعمار قلوب البشر، على المستويين الدنيوي والأخرويّ، وحركة جميع الموجودات على سكّة التكامل. هذه هي الأمور التي يريدها اللّه: انعدام الظنّ، والشرك، والكفر، والاضطرابات

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٧٥.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.



الأمنيّة، وزوال الصراعات والعداوات والوحشيّة، وانعدام الطغيان والعصيان، كلّ هذه مطالب إلهيّة. ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ هم أولئك الذين جاهدوا على طريق الأهداف والمطالب الإلهيّة، فلا شكّ ولا ريب أنّ اللّه تعالى سيطلعهم على طرقه ولن يضلّهم أو يغويهم. فذاك الشعر الذي قرأته يناسب موردنا هنا:

تو پاى به راه درِ نه وهيچ مپرس
خوذْ راه بگويدت كه چون بايد رفت
ضع قدمك على الطريق ولا تخف
فسوف يُقال لك كيف ينبغي أن تسير

وهذه الهداية لسبل اللّه تشير إلى جميع فروع الحياة وشؤونها. ففي مجال فهم الدين وإدراكه، وفي مجال التحقيق في المسائل الدينية والقضايا الاجتماعية والمسائل العالميّة، وفي جميع الفروع، فإنّ كلّ من ينزل إلى ميدان تحقّق الأهداف الإلهيّة ويتحرّك على هذا الأساس، فإنّ كلّ خطوةٍ يخطوها ستؤدّي إلى وضوح الطريق أكثر. أولئك الذين يجاهدون على هذا الطريق الإلهي ومن أجل الأهداف الإلهيّة فسوف يهديهم اللّه تعالى إلى طرقه التي هي طرق السعادة والتكامل الإنساني ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[١]. كانت هذه الآيات في مجال الهداية وذاك هو الموضوع الأوّل الموجود في القرآن. ويوجد الكثير من الآيات الأخرى التي لو أردت أن أجمعها وأقرأها وأدوّنها لكم فإنّنا سنحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أيّام كحدٍّ أدنى. هذا فيما إذا أردنا أن نتحدّث عن الهداية فقط.

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٩.





لقد قلنا إنّ النور هو من الأمور الضرورية لسعادة الإنسان، مع ذلك التوضيح الذي قدّمناه في الصفحة السابقة بشأن النور. لقد وُعد المؤمنون بالنور، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾(١)، فأنا أفسّر الوليّ بمعنى الذي يكون حليفًا وملازمًا ومرشدًا وحبيبًا وناصرًا، هذه هي الأمور التي أرجّحها، لأنّ الولاية بمعنى الارتباط، فإذا ارتبط شيئان معًا تتحقّق الولاية بينهما، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي أنّه يرتبط بالمؤمنين. فماذا يعني هذا الارتباط؟ أي أنّ اللّه والمؤمنين في صفٍّ واحد، وأمّا أعداء اللّه فهم في الصفّ المقابل للمؤمنين وللّه. فأينما وردت كلمة «الوليّ» كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أو أولياء اللّه، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم فإنّها ستكون بهذا المعنى. فأرجو أن تلتفتوا إلى هذه القضيّة هنا.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، وهنا أقدّم توضيحًا لا بأس بإدراجه من أجل فهم معنى الظلمات. اللّه يخرج ويخلّص أولئك من ظلمات الجهل والخُرافة والغرور والأنظمة الاستبداديّة والمعادية للإنسانيّة، وكلّ تلك الأشياء التي تُعَدّ سجنًا وتضييقًا وحبسًا لجوهر الفكر البشريّ، إنّ اللّه سيخرجهم من الظلمات ويوصلهم إلى النور، فأيّ نورٍ هو؟ هو نور المعرفة والقيم الإنسانيّة. هذا ما يفعله اللّه مع المؤمن. ولا يمكن لغير المؤمن وللشكّاك والكافر والكفور أن يصل إلى هذا النور. لهذا، فإنّ المشرك مضطربٌ دومًا ويعيش القلق وحياته متلازمة دائمًا مع الاضطراب وليس له النور ولا المعرفة الواقعية ولا العلم الصحيح،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.





مهما بلغ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أمّا الكفّار فماذا يحدث معهم؟ الكفّار هم أولئك الذين لم يقدّروا قيمة العقيدة الدينية والدين، فكفروا بهذه الهديّة الإلهيّة وكفروا بالنعمة. وأرجو الدقّة هنا بالعبارات الفارسية التي أذكرها فإنّها تشير إلى منشأ الجذر اللغوي وكيف استُعملت هذه الكلمة من حيث المعنى، فالكافر ليس مَن لا يقبل الدين، بل الكافر هو من يخفي النعمة وينكرها، فلماذا يقال له كافر؟ حسنٌ، إنّ هذا لم يقبل الدين، فلماذا يُعدّ كافرًا؟ ذلك لأجل أنّه قد رفض الدين الذي يُعدّ هديّة إلهيّة لأجل سعادته وسعادة البشريّة، فأصبح بذلك كافرًا للنعمة ولهذا يُقال له كافر، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾، قادتهم وحلفاؤهم الطواغيت والمعتدون. ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، فيعني ذلك أنّهم أخرجوهم من نور المعرفة إلى سجن الظلمات الحالكة، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[1]. فذكر اللّه ينبغي أن يكون في الصباح والمساء وذلك على أساس تنزيهه عزّ وجل. فما الذي قد حدث؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، لماذا؟ ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾[2]، هذا هو القرآن وهذه هي بشارته. ويوجد من هذه البشائر عددٌ آخر لا مجال لذكرها، ولو أردنا أن نبين جميع هذه البشائر القرآنية وما وُعدنا به على لسان القرآن فمن المسلّم أنّنا سنحتاج إلى مجلّدات، لهذا، سوف نكتفي بهذا القدر.

---

(١) **سورة الأحزاب**، الآية ٤١ و٤٢.

(٢) **سورة الأحزاب**، الآية ٤٣.





وفي النهاية، وبعد تحصيل الإنسان لكلّ هذه الشروط من السعادة، والتي تتحقّق أثناء حياته وسعيه ويقظته وعندما يموت وينطفئ مصباحه ويظهر أنّ الأمر سوف يتوقّف ويجمد؛ يبدأ نوعٌ جديد من الاستفادة يكون بداية استراحته وأوّل ثوابه وأجره؛ ويُعدّ ذلك بداية الطريق والتحرّك نحو الراحة والعيش.

إنّ الإيمان بذاته يوجب التعرّف على الطريق، وهذا الطريق هو الذي يوصل إلى الهدف. فعندما يتحرّك الإنسان المؤمن بالهدف على الطريق ويتّبع هذا الإيمان، فإنّ الطريق سوف يتراءى له شيئًا فشيئًا ويستدلّ عليه وتُفتح السبل أمامه.

وأولئك الذين آمنوا باللّه وتوكّلوا عليه وتمسّكوا به ولم يكتفوا بالإيمان القلبي، فإنّهم سينالون تلك العاقبة أي أنّ اللّه سبحانه وتعالى يدلّهم على نفسه ويهديهم إلى جواره، ويكون ذلك عبر الصراط القريب وهذه هي الهداية المختصّة بالمؤمنين.

والذين يجاهدون على طريق الأهداف والمطالب الإلهيّة، فلا شكّ ولا ريب أنّ اللّه تعالى سيطلعهم على طرقه ولن يضلّهم أو يغويهم؛ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، الوليّ هو الذي يكون حليفًا وملازمًا ومرشدًا وحبيبًا وناصرًا، أي أنّ اللّه والمؤمنين في صفٍّ واحد، وأمّا أعداء اللّه فهم في الصفّ المقابل للمؤمنين وللّه.

أمّا الكفّار هم أولئك الذين لم يقدّروا قيمة العقيدة الدينية والدين، فكفروا بهذه الهديّة الإلهيّة وكفروا بالنعمة. فالكافر ليس من لا يقبل الدين، بل هو من يخفي النعمة وينكرها.

الجلسة السابعة

البشارات

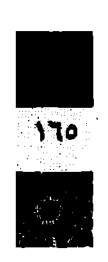
الأربعاء، ٨ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾.

[سورة الرعد، الآيتان ٢٨ و٢٩]



ذكرنا أنّ اللّه تعالى يعطي للمؤمنين في القرآن البشارة والوعد بجميع عناصر السعادة. تلك الأشياء التي نتالها كعناصر للسعادة في مقام الفكر والتصوّر حيث بيّنّا حوالي ١١ عنصرًا منها في الجلسة السابقة. وقد قُدّمت جميعها في القرآن كبشائر قطعيّة للمؤمنين. وقد تكلّمنا حول بشارتين من تلك البشائر، وهما: الهداية والنور، واستفدنا منها ضمن تلاوة الآيات القرآنية. وفي هذا البحث نتحدّث عن اثنتين منها ونسعى لاستخراجها من متن الآيات القرآنية.

مثلًا، من تلك الموضوعات هو الثواب الأخروي الذي يُعدّ من تلك البشائر. كذلك العلوّ والتغلّب على العدوّ. فانظروا في القرآن الكريم هل يوجد شواهد يذكر فيها اللّه تعالى للمؤمنين أنّهم سينتصرون على أعدائهم ومعارضيهم فيما لو تمسّكوا بإيمانهم والتزموا بمسؤوليّات الإيمان وفيما لو سعوا على طريق فكرهم؟ هل يوجد مثل هذه الآية في القرآن أم لا؟

يقول اللّه تعالى في محكم آياته: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم



مُّؤۡمِنِينَ﴾[١]. في هذه الآية يربط الله تعالى الإيمان بالعلوّ والاقتدار والتفوّق على العدوّ. ويوجد آياتٌ عديدة أخرى تبشّر وتعد المؤمنين بالنصر القاطع على أعدائهم ومعارضيهم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[٢]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٣]. ويوجد من قبيل هذه الآيات الكثير، فضعوها في الحساب، وتأمّلوا في القرآن وطالعوه، وبدل أن يكون سعيكم من أجل إنهاء جزءٍ بأكمله أو سورةٍ كاملة اسعوا أن تفهموا القرآن؛ كما جاء في حديثٍ عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في معناه: ولا يكوننّ همّ أحدكم عند تلاوة القرآن آخر السّورة[٤]. فسواءٌ أتمّ السورة أم الجزء أو لا، فليقرأ آية في تدبّرٍ ودقّة. فانظروا عندها إذا كان في الآية تلك مثلُ هذه البشائر التي تحدّثنا عنها وذكرناها - وهي التي تتعلّق بالأركان والعناصر الضرورية للوصول إلى السعادة - فهل تجدون مثل هذه العناصر في القرآن ممّا يبشّر به؟ هل أنّها على شكل البشارة والوعد أم لا؟ أرجو منكم أن تراجعوا القرآن بهذه الطريقة.

وأنا أودّ، إن حالفني التوفيق، أن أترجم حتّى آخر شهر رمضان الكثير من الآيات القرآنية وأفسّرها لكم. وعليكم أن تحقّقوا حالة الأنس مع القرآن، والذين يعرفون العربية فليسعوا ليرسّخوا حالة الأنس والصحبة بينهم وبين القرآن. والذين لا يعرفون اللغة العربية وضمن سعيهم لتعلّمها والتعرّف على لغة القرآن أن لا يتركوا

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٩.

(٢) سورة **المجادلة**، الآية ٢١

(٣) سورة **الصافات**، الآية ١٧٣.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٩، الصفحة ٢١٦.



قراءة القرآن وفهمه إلى ما بعد تعلّم تلك اللغة. الآن، عليهم أن يقرؤوا القرآن؛ غاية الأمر أن يجدوا ترجمات جيّدة - حيث أنّ بعض الترجمات بنظري جيّدة ومناسبة - فإذا قرأتم القرآن التفتوا إلى تلك الترجمات، ودقّقوا وتدبّروا في معاني الآيات، وانظروا ماذا تستطيعون أن تجدوا في القرآن من هذه البشائر التي ذكرناها هنا.

ولهذا، إنّني سأذكر موضوعين آخرين مورد البحث بشأن هذه البشائر التي وردت في القرآن، وسوف أترك ما بقي منها على عاتقكم، وأملي أن لا تتركوا الأمر إلى ما بعد شهر رمضان أو إلى وقت العطلة والفراغ. فافتحوا القرآن عند أوّل فرصة وعند أوّل فراغ واقرؤوه بهذه النيّة، وعلّموا أنفسكم معرفة القرآن والأنس والاستفادة منه، فإنّ القرآن في نهاية الأمر هو منبعٌ لا نهاية له من المعارف، وكلّ ما لدينا فإنّنا نستفيده من هذا الكتاب، وكلّ ما يوصل إلى السعادة والفلاح يجب أن ندركه فيه؛ إنّ هذا هو النصّ الواضح القطعي الذي جُعل بين أيدينا وعلينا أن نستفيد منه.

بالطبع عندما أقول القرآن لا أريد أن أحصر الأمر به وأنفي نهج البلاغة والأحاديث الصحيحة والموثقة المنقولة عن أئمّة الهدى عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ. كلّا، فإنّ علينا أن نستفيد منها أيضًا. بالطبع، إنّ القرآن نصٌّ موضوعٌ في متناول الجميع، ويمكن للجميع أن يحملوا النسخة الصحيحة والكاملة حتّى في جيوبهم، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالنسبة للأحاديث وكذلك بالنسبة لنهج البلاغة.

بالإضافة إلى ما ذُكر من البشارات، نشير إلى كلمات: الاطمئنان والسكينة والأمن وقد اعتبرناها متقاربة المعنى ضمن إطارٍ واحد، وذكرنا ما نقصده من هذه الكلمات الثلاث سابقًا، والآن نعود إلى





الآيات القرآنية لنرى في نفس هذا المجال ما يمكن أن نتعلّمه. فالطمأنينة هي حالةٌ من الاستقرار القلبي وهي تمنح الهدوء للروح والقلب؛ فما هو هذا الهدوء؟ وما هو المعنى المقصود من قبلنا بشأن هذا الهدوء في هذا المورد؟ هل المقصود أن تكون أرواحنا فاقدةً لأيّ نوعٍ من التحرّك والسعي؟ هل أنّ الهدوء والطمأنينة أن تكون قلوبنا في حالةٍ شبيهةٍ بالنوم أو فقدان الوعي؟ كلّا، بل إنّها عبارة عن السكون والهدوء مقابل الهواجس والاضطرابات؛ فكان الاطمئنان في مقابل التشويش.

لو أخذتم شخصين بعين الاعتبار، وكان المطلوب من كلّ واحدٍ منهما أن يشارك في الامتحان، وكان أحدهما قد درس ما هو مطلوبٌ منه بشكلٍ جيّد، ولعلّه راجعه أكثر من عشر مرّات، وتباحث بشأنه مع أصدقائه، وأحاط بكلّ مسائل الكتاب الذي ينبغي أن يُمتحن به، وأصبحت مسائله واضحةً وبيّنةً بالنسبة له؛ أمّا الآخر فإنّه لم يقرأ الكتاب، أو أنّه قرأ مقدارًا بسيطًا منه، أو أنّه لا يقدر على الاعتماد على ذاكرته بشكلٍ جيّد؛ وجاء وقت الامتحان الإلزاميّ، فهل يكون لكلّ واحدٍ منهما الحالة الروحيّة نفسها؟ سوف ترون أنّ الشخص الأوّل عندما يدخل إلى قاعة الامتحان تكون نفسه هادئةً ولا تتلاطم فيها أمواج الاضطراب والهواجس والتشويش، وها هو يقول في نفسه إنّني سأجيب عن أيّ سؤالٍ يُطرح عليّ؛ أمّا الآخر فهو في بحرٍ متلاطم يشبه الزورق الذي يعبر المحيط الهائج أو البحر العاصف، تتقاذفه الأمواج من كلّ جانب وتراه يسلك ذلك الطريق، ثمّ بعدها يصبح على طريقٍ آخر، تعصف به الرياح من كلّ جانب، هكذا تكون الحالة الروحيّة لهذا الإنسان غير المستعدّ. ويمكنكم أن تحسبوا هاتين الروحيّتين مقابل أيّ قاضٍ. ويمكنكم أن



تتفحّصوا هاتين الحالتين الروحيّتين بالنسبة لأيّ فردٍ أو مجتمع فيما يتعلّق بالأنشطة الاجتماعية والمواجهات الاجتماعية عبر التاريخ.

ولنتأمّل في حال جنديّين يقتحمان ميدان المعركة ولكلٍّ منهما نوعٌ خاص من الروحيّة؛ أحدهما يعتقد باستحكام تجهيزاته العسكريّة، وبحسن قيادته، وبتدبير رؤسائه وقادته وإدارتهم، وبجهوزيّة زملائه وإخوانه، وبضعف قوّات العدوّ وجهوزيّته؛ بالإضافة إلى ذلك، يعلم بأنّ قوّات الإسناد تنتظر أيّة إشارة في تلك الجهة خلف الجبهة لتأتي مسرعةً إلى الميدان وتقدّم الدعم، وهو على هذه الحالة يتقدّم نحو الحرب أو المعركة. أمّا الجندي الآخر، فإنّه لا يثق بتجهيزاته العسكريّة، ولا بجهوزيّة مَن معه، ولا بفاعليّة أسلحته، بل يرى نفسه قليلًا ويرى العدوّ كثيرًا، وينظر إلى نفسه كأنّه خِلو من الأسلحة، بينما يرى عدوّه غارقًا من رأسه إلى أخمص قدميه بالدروع والأسلحة، فكيف سيرد ميدان الحرب؟!

إنّ هذه بعض النماذج المرتبطة بالطمأنينة. وإنّني أريد أن أبيّن لكم المعنى الدقيق لاطمئنان النفس حتّى تتّضح الصورة، ونسأل أنفسنا عن النفس المطمئنّة والقلب المفعم بالهدوء. فالجندي الأوّل مطمئنٌّ وقلبه هادئٌ. القلب المطمئنّ لا يعني أنّ الجندي إذا نزل ميدان الحرب سوف يخلع نعليه ويضعهما تحت رأسه ويتمدّد وينام ويتأمّل في السماء. كلّا، فالاطمئنان لا يعني أن يقول الإنسان إنّني إذا كنت في وسط الميدان فلأدخّن سيجارة، ولنتمشّى قليلًا ونحن نتأمّل المشاهد، ولا يهمّنا ما يحدث، كلّا، ليس الأمر كذلك. إنّه لا يعني أن تبقى أقلّ تحرّكات العدوّ مخفيّةٌ عن نظره. إنّه يعني أن لا يكون مضطربًا ومشوّشًا بل أن يكون المستقبل بالنسبة له واضحًا وهو يعلم أنّه سيتقدّم، ولهذا فهو لا يخاف. القلب والروح






الهادئان كسفينةٍ تمخر عُباب البحر الهادئ، بالرغم من حمولتها الزائدة وما فيها من تجهيزاتٍ كثيرة.

أمّا غير المطمئنّ فهو كالقارب الصغير أو كقطعة الخشب التي تتحرّك في بحرٍ متلاطمٍ أو نهرٍ جارف، فهي في حالة اضطرابٍ دائم، تنتقل من خطٍّ إلى خطّ في حركتها. هكذا نقف على نحوين من الروحيّة. وأضرب مثالًا آخر حول الاطمئنان، ونقترب بالتدريج إلى تلك الروحيّة التي يتحدّث عنها القرآن. نبدأ من مثال الامتحان الدراسي ونمرّ عبر المتّهم في محكمةٍ جنائيّة لنصل إلى ذلك الجندي في ميدان المعركة. يوجد نموذجٌ آخر هو ذلك الإنسان الذي وضع نفسه على الطريق وهو يتحرّك قاصدًا الوصول إلى هدفٍ ما، ومن الممكن أن يعرض عليه عشرات الدوافع التي تصدّه عن طيّ هذا الطريق والاستمرار في السير نحو الهدف، والخوف يُعدّ من هذه الدوافع: الرعب والوجل والفزع. فمن الممكن أن يكون سبب الخوف أن لا يستمرّ في سيره. الخوف من أيّ شيء؟ الخوف من الجوع، من قطّاع الطريق، والخوف من الذئاب المفترسة التي يمكن أن تكمن له، والخوف من المتاعب والأرق، وفي النهاية الخوف من عدم الوصول. فهذه إحدى نماذج الأمور التي يمكن أن تمنع الإنسان من أن يتحرّك أو يستمرّ في السير والتقدّم.

والطمع دافعٌ آخر. الطمع بأيّ شيء؟ الطمع بالحياة المريحة. فيقول في نفسه إنّني بدل أن أسير على هذا الطريق وأتحرّك نحو المقصد فلأستلقي وأنام وأستمتع بدفء السرير ونعومته وأبقى بين أبنائي وزوجتي الحبيبة، ومثل هذا الشيء يُعدّ بالنسبة للإنسان العادي أو الإنسان الصغير أو صاحب الروح الضعيفة هدفًا وأمرًا محبوبًا ومطلوبًا، فيكون بالنسبة له أمرًا مرغوبًا؛ ومن الواضح أنّه لن



يكون مستعدًّا للتخلّي عنه بسهولة. فيكون الطمع بالحياة المريحة، أو بالمال الذي سوف يتقاضاه إذا لم يتحرّك على هذا الطريق، وكذلك الطمع بالوصول إلى تلك المقامات إذا لم تَقبل بمثل هذا التشريد، فكلّ هذه المناصب ستكون من نصيبك.

فالدوافع التي تمنع الإنسان من سلوك هذا الطريق هي: الأطماع والمخاوف. ولو قمنا بالغور في الخوف، لوجدنا عشرات النماذج؛ وهكذا بالنسبة للطمع وطلب الراحة والعافية والفرص والانتهازيّة وأمثالها.

حسنٌ، خذوا على سبيل المثال شخصًا سالكًا طريق المغامرة كما يقول الناس اليوم، فوضع قدمه على هذا الطريق وبدأ بالتحرّك، وهو يسير، ولكن هل تنتهي تلك الدوافع؟ وهل زالت تلك المعارضات التي لا تسمح للإنسان أن يسلك هذا الطريق ويتحرّك عليه؟ كلّا، إنّها لا تنعدم. فتأمّلوا جيّدًا! هذه المعارضات تسعى جهدها أن لا يتحرّك منذ البداية وأن لا ينزل إلى الميدان ويسلك هذا الطريق البعيد؛ وفي حال قرّر النزول والتحرّك، فإنّها لن تسمح له أن يطوي الطريق بسهولةٍ وهدوءٍ. فكلّما تقدّم خطوةً، فإنّها ستكون مثل شوكةٍ أو كمّاشة أو مجموعة من الأغلال التي توضع في قدمه أو تمسك بثيابه ويده وتجرّه وتريد أن تمنعه من الاستمرار على هذا الطريق. وكلّ واحدةٍ من هذه العوائق تشدّه باتّجاهٍ، فهذه الشوكة من جهة، وتلك الأغلال من جهة، وهذا العشق للولد من جهةٍ أخرى، وهذا التوجّه إلى الحياة المريحة وهكذا، فتنهال عليه هذه الدوافع المختلفة من كلّ جهةٍ وتجرّه نحوها، فيقع هذا الإنسان بالتزلزل مثل ذلك الزورق الذي تعبث به الأمواج المتلاطمة. وهناك إنسانٌ، إذا نزل إلى الميدان وسار





على هذا الطريق، ينبعث فيه عاملٌ موجّهٌ ينسيه كل تلك الدوافع الصغيرة. فنجد أنّ تلك الجاذبة التي تأخذ بمجامع قلبه قد جعلت تلك الجاذبيّات الصغيرة، كجاذبيّة الولد والمرأة والحياة والمال والمنصب، صغيرةً حقيرةً في مقابلها، بحيث تعدمها وتفقدها التأثير، كمَثَل عشرات المغانط التي تجذب هذا الجسم الصغير إليها من كلّ جهة، ثمّ يأتي مغناطيسٌ قويٌ جدًّا فيبطل تأثير كلّ تلك المغانط بينما هي تسعى لجذب برادة الحديد المتناثرة.

فمثل هذا الإنسان، عندما يسلك هذا الطريق مع هذه الجاذبة القوية والروحيّة المتينة وينشغل بسلوكه، فإنّ كلّ تلك الجاذبيّات؛ المرأة والولد والأشياء الأخرى والجماليّات والراحة والملذّات والمرغّبات، لن يبقى لها أثرٌ عليه. فمن هو هذا الإنسان؟ إنّه الإنسان المطمئنّ. ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1]. الذي يمكنه أن يطوي طريق اللّه إلى النهاية ويصل إلى الهدف المقصود، هذا هو معنى الاطمئنان؛ فهو يشبه ذلك الشيء الذي يجذبه، إنّه جاذبة الإيمان، وجاذبة حبّ اللّه والارتباط بالهدف، فلا يبقي فيه أيّ شيءٍ من تأثير تلك الجاذبيّات الأخرى ويجعلها كأيّ شيء. فلا معنى أن يكون هناك مثل هذه الأرض بكلّ ضخامتها، والتي تجذب كلّ جسمٍ إليها، ثمّ يأتي على سبيل الفرض جسمٌ أو جبلٌ - ولو كان جبل هملايا، ولو كان أكبر جبال العالم - فيتظاهر ويتفاخر. فأنتم مثلًا ترمون حجرًا فيجذبه جبل هملايا إلى نفسه، كلّا، إنّ لجبل هملايا جاذبيّة لكنّها تساوي صفرًا مقابل جاذبيّة الأرض ولن يكون لها أيّ تأثير. إنّ جبل هملايا،

(١) سورة **الفجر**، الآيتان ٢٧ و٢٨.



وكلّ جسمٍ بمقداره، يمكن أن يكون له أثرٌ ويجذب الأجسام الصغيرة إليه، فيما لو لم يكن ذلك الجسم الكبير، كـالأرض، إلى جانبه. فعندما تكون جاذبيّة الأرض، لن تكون جاذبيّة جبل هملايا شيئًا مذكورًا.

عندما يكون الإيمان بالله موجودًا في روح الإنسان، فإنّه سيعمل مثل الجاذبيّة القوية التي تجذبه نحو المقاصد الإيمانيّة، بحيث لا يبقى أيّ تأثيرٍ لكلّ أنواع الجاذبيّات الصغيرة التي تبدو بالنسبة لعديمي الإيمان كبيرةً، ولكنّها ليست بشيء أمام الإيمان. وما أكثر الشواهد التاريخيّة التي نطّلع عليها من صدر الإسلام بشأن تلك الوساوس التي تعترض قلب الإنسان، لكنّنا لا نجد وقتًا كافيًا لذكرها هنا، فأتمنّى عليكم أن تبحثوا عنها وتجدوها بأنفسكم، تلك الجاذبيّات العجيبة التي جرّت إليها أفرادًا كثيرين.

وبعدها تأتي الجملة الثانية حول السكينة، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[1]، وقد استخدم هذا اللفظ في خمسة أو ستّة موارد في القرآن ترتبط بمجالات حسّاسة ومصيريّة، كما ورد في معركة حُنين.

ففي هذه المعركة، وبعد ما أُصيب جيش النبي الغرور، وظنّوا أنّهم لن يُهزموا، طُبّقت سنّة الله، التي تقضي بأن يُذَلّ المغرور، وكلّ جماعةٍ مغرورة ينبغي أن تُبتلى بالغفلة وتتلقّى الضّربة. فالانتباه والإحساس الشديد هو أمرٌ ضروري لكلّ إنسان ولكلّ شعبٍ ومجتمع، حيث يقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه في نهج البلاغة: «والله

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٢٦.






لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم»[١]، ويعني بذلك أنّه لا يمكن أن يكون كمن ينام عند الربت على جنبه حتى يأخذه النعاس، فينام ويتمّ صيده. فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: لا أؤخذ على حين غرّة بل إنّني في حالة يقظةٍ دائمة، وسنّة اللّه تقضي أنّ كلّ مَن لا يكون كذلك يجب أن يتلقّى الضربات. فهؤلاء قد غفلوا في ميدان الحرب وكان لهم ذلك ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٢]، ما جعلهم يصابون بالغرور والعجب وقالوا فيما بينهم: إنّنا أكثر من أن نُهزم. فيقول اللّه تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، فأدّى ذلك إلى أن يُحاط بهم ويُهزموا. وبعد أن تلقّوا هذه الضربة القاصمة، والتي لم تصل إلى حدّ الهزيمة النهائية، رجعوا إلى أنفسهم بسرعة، وقام بعض المجاهدين الشجعان والقادة المتنبّهين المؤمنين وأمير المؤمنين وآخرون ببذل جهدٍ كبير لأجل استرجاع الجيش الذي أشرف على التمزّق؛ عندها يقول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وهناك جدّد المسلمون بيعتهم للنبي.

وقد حدث ذلك مرّة أخرى تحت تلك الشجرة في البيعة المعروفة؛ وأخرى مع النبي حينما هاجر إلى المدينة من أجل تشكيل المجتمع الإسلامي. وبالرغم من كلّ المؤامرات الخبيثة التي أعدّها الكفّار والأعداء، ومع كلّ ذلك العزم والقدرة، وكلّ ذلك التفكير، استطاع النبي أن يخرج ويوصل نفسه إلى المدينة. فكان شرط تحقّق جميع كلّ تلك الأهداف والأفكار وكلّ ما أراد النبي هو بأن يصل

(١) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٤٢.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٢٥.





إلى المدينة سالمًا؛ لأنّه لو قُتل النبي أثناء الطريق وتمكّن الكفّار منه فإنّه لن تتحقّق أيّة واحدةٍ من تلك الرؤى. فلجأ النبي إلى ذلك الغار وهناك يقول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، فقد كانت السكينة من نصيب قلب النبي في تلك الواقعة الحسّاسة؛ وهناك موارد أخرى أيضًا. وإنّ للمؤمن سكينة أيضًا، فالسكينة والهدوء وسكون النفس لا يعني عدم التحرّك والنوم والغفلة.

كما يوجد جملةٌ أو كلمةٌ أخرى في نفس المجال هي «الأمن». ومن الواضح هنا أنّ المراد هو الأمن الروحي لا الأمن الاجتماعي. فالأمن الاجتماعي بالطبع هو أن يتمتّع جميع الأفراد بهدوءٍ في المجتمع لكي يتمكّن كلّ واحد منهم من تحصيل حقّه. والسكوت الإجباري هو غير الأمن، فالأمن عبارة عن أن يتمكّن جميع الناس من تأمين حقوقهم ومطالبهم المشروعة بمنتهى الأمن، هذا هو الأمن الذي نتحدّث عنه؛ وهو غير الأمن الذي يُطرح في مجال القضايا الاجتماعية والأمن الاجتماعي، إنّ هذا الأمن هو الأمن الروحي وانعدام التزلزل وعدم الاضطراب وعدم وجود الخوف والرعب؛ هذه جملات ثلاث.

والآن، انظروا إلى آيات القرآن ماذا تقول لنا بشأن المؤمنين في مجال هذه الصفات الثلاث. في سورة الرعد آيتان صغيرتان ٢٨ والآية ٢٩ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ إنّ ذكر اللّه هو تلك الجاذبيّة القوية التي ذكرت أنّها تمحو كلّ الجاذبيّات الصغيرة وآثارها. فلماذا أوليت الصلاة كلّ هذا الاهتمام؟ لماذا قيل إنّه إذا لم تُقبل الصلاة فلا تُقبل الأعمال الأخرى؟ لماذا قيل إنّ لمكّة في العمر مرّة واحدة؟ وللصوم في السنة مرّة واحدة؟ وللزكاة موردٌ خاصّ؟ وهكذا الخمس، وغيرها من العبادات؛ لكنّ الصلاة



كانت واجبةً كلّ يوم، وفي كلّ يوم خمس مرّات، ولو زاد الإنسان لكان أفضل، فلماذا قيل ذلك؟ من أجل أنّ الصلاة - لقد تحدّثت بشأنها في عدّة لقاءات، ولعلّ بعض الحاضرين المحترمين يتذكّر - هي جرعة ذكر اللّه، فهي من أوّلها إلى آخرها ذكر اللّه. لهذا، فإنّ القرآن، وبعد أن يقول إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، يتبعها قائلًا: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. فهذا البعد في الصلاة هو الأهمّ، فهذا أعلى ما فيها، وهذه الخاصّيّة الأكبر للصلاة وهي ذكر اللّه. فذكر اللّه، والتوجّه إليه، والنظر الدائم إليه، ومعرفته، واستحضار وجوده الدائم، كلّ ذلك فيه خاصيّة مهمّة وهي عبارة عن صيانة القلب من كلّ أنواع الاضطراب والوساوس والهواجس والإغراءات المختلفة في جميع الأمور؛ وفي كلّ الطريق، هذا الذي يمنح القلب الطمأنينة. فذكر اللّه هو كالثقل الذي يوضع في القارب، فيثبّته ويقلّل من اضطرابه واهتزازه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالذين آمنوا وثبّتوا قلوبهم بذكر اللّه وحصلوا على الطمأنينة - وقد جئت بلفظ الثبات هنا عن عمد، أي تلك الحالة من الهدوء - فإنّهم سيحصلون على الهداية التي توصلهم إلى اللّه. وقد ذكرت بين قوسين تعبير «الهدية إلى اللّه» لأنّ الآية - كما قلت - ترتبط بما قبلها وقد ذُكر في الآية السابقة موضوع الهداية إلى اللّه ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ فلذكر اللّه خاصّيّة عجيبة وأنتم ترون كم للطمأنينة والسكون والثبات من تأثيرٍ على نجاح الإنسان وموفّقيّته. فللمؤمن هذه الميزة وهو يتمتّع بهذه القدرة الروحيّة العجيبة. ثمّ يتبعه قائلًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾، فالذين آمنوا وعملوا بمقتضيات الإيمان



وتحمّلوا المسؤوليّات المتناسبة مع الإيمان لهم بشارةٌ في الحاضر والمستقبل. وهذا هو الاستنتاج الذي استخرجته من قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، فترجمته تتفاوت قليلًا مع هذه الجملة التي ذكرتها، ولكنّها، بصورةٍ مختصرةٍ وكاستنتاجٍ، عبارة عن أنّهم اليوم في وضعٍ جيّد وفي المستقبل كذلك، فدنياهم حسنة وآخرتهم كذلك؛ وهذا هو الأمر في الواقع، فإنّ المجتمع المؤمن، أي ذلك المجتمع الذي يعمل على أساس تحمّل المسؤوليّات الإيمانيّة، سوف تكون دنياه عامرة وآخرته كذلك، فتكون دنياه جنّة وآخرته كذلك.

وفي هذا الصدد أذكر بحثًا متعلّقًا باحتجاج إبراهيم على قومه. فإبراهيم، خليل الرحمن وداعي التوحيد، حاجّ قومه في زمانه في القرون الماضية فجادلوه وهو جادلهم وأجاب على كلامهم، وقد نقل القرآن هذه الاحتجاجات وذكرها لنا، فيقول تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾[1]، أي إنّ قوم إبراهيم قد جادلوه وكان المقرّر أن يتباحثوا معه، ولا يذكر القرآن ماذا قالوا وما هي الكيفيّة التي تباحثوا فيها معه وماذا كان كلامهم، لكنّ الإنسان يتفطّن من خلال جواب إبراهيم الذي قدّمه لهم ونقله القرآن، ما الذي يمكن أن يكون كلامهم.

﴿قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، فعندما كان من المقرّر أن يجادلوه ويحاجّوه قال لهم: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ فأنا على بيّنةٍ ولا أشكّ في طريقي لكي تستغلّوا هذا التردّد والشكّ وتحرّفوني عنه ببحثكم وجدالكم. فقوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾، يشير إلى اكتشاف الطريق

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٠.





والبصيرة والمعرفة بما ينبغي أن يفعل. ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾، فهو بذلك يعلن عن عدم خوفه ممّا جعلوه من شركاءٍ للّه، وهو يعلن في الحقيقة عن انحصار خوفه باللّه. فإنّني أتوجّس من الأحداث التي يمكن أن يضعها اللّه تعالى أمامي على الطريق ومن المستقبل الذي أعدّه اللّه لي وفقط، ولكنّني لا أخشى من أولئك الذين جعلتموهم شركاء للّه، وهنا يمكن أن يُعلم شيءٌ مختصر وبعدها يُعلم المزيد. نستنتج من هذا الجواب أنّهم كانوا يقولون لإبراهيم: يا إبراهيم عليك أن تخاف من الشركاء الذين جعلناهم للّه؛ فهؤلاء يمكن أن يؤذوك ويمكن أن يقتلعوك من جذورك ويسوّدوا دنياك ويجعلوا دهرك مرًّا، لا بدّ أنّ ذلك كان! ونجد إبراهيم يقول في الجواب: إنّني لا أخاف منهم وليس لدي أيّ توجّس منهم، فيتّضح الأمر أكثر من إتمام الآيات ومن حديث إبراهيم.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ فإنّ اللّه تعالى ربّ إبراهيم يعلم ويحيط بكلّ شيء. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وقوله ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى التوجّه والالتفات وضرورة الرجوع إلى النفس وكلّها تحت معنًى واحد. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تعني مع كلّ هذا أفلا ترجعون إلى أنفسكم؟ حسنٌ، لحديث إبراهيم مع قومه تتمّةٌ. يقول إبراهيم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾[1]. وهنا يتّضح بشكلٍ جيّد ما هو نوع البحث والجدال الذي كان مع إبراهيم، فإبراهيم يستنكف ويرفض أن يخاف ويقول لهم إنّ عليهم أن يخافوا. فكيف أخاف بدون أيّ دليلٍ من الشركاء والأنداد التي جعلتموها للّه في الملك والحكومة والقيادة

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨١.



والخلق والأمر، في حين أنّ اللّه تعالى قد هداني وجعل الأمر بيّنًا واضحًا بالنسبة لي، وأنتم لا تخافون من أنّكم جعلتم شركاء وأندادًا وأربابًا لهذا العالم من دون دليل أو منطق أو جهة، وبدون أن يكون هناك أيّ موجبٌ عقلائيّ، فأنتم الذين ينبغي أن تخافوا لا أنا.

يتّضح من هذا الكلام أنّهم كانوا يقولون لإبراهيم أثناء مباحثته بضرورة أن يخاف، فلماذا أخاف؟ وممَّ أخاف؟ فهل ينبغي أن أخاف من الشركاء الذين لا عقل لهم ولا روح؟ أم أخاف من الشركاء العقلاء للّه؟ أو منهما معًا؟ فلا يُعلم ماذا كانوا يقصدون في كلامهم حول الشركاء.

وفي الإجمال، لقد جعلوا للّه تعالى أنواعًا وأقسامًا من الشركاء. فعبدة العجل جعلوا العجل، وعبدة الحجر والخشب جعلوا الحجر والخشب، وعبدة فرعون والنماريد جعلوا فرعون ونمرود. وبشأن التوحيد الذي تحدّثنا عنه يُعلم أنّ كلّ تلك الأشياء: العجل، والحجر، وفرعون، ونمرود، هي وقود النار وحطبها، وكلّهم من ذلك المستوى المنحطّ لا يختلفون فيما بينهم. وعلى كلّ حال، كانوا يقولون لإبراهيم إنّ عليه أن يخاف من شركاء اللّه، وإذا تساءلنا عن شركاء اللّه هنا، الشركاء الذين جعلوهم للّه، هل هم شركاء الإنس أو الجنّ أو الأحياء أو ذوي العقول وأمثال ذلك؟ فهذا ليس معلومًا.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾، فذلك كان بلا حجّةٍ ودليل، والمقصود هو: أنّني كيف أخاف من تلك الأشياء التي جعلتموها في موقع الشراكة للّه وأنتم لا تخافون من هذا الشرك الذي افتريتموه بالرغم أنّكم تفتقدون لأيّة حجّةٍ أو برهان.





وفي تتمّة الآية يقول تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فإبراهيم يتساءل، وهو يعلم من الذي يستحقّ الأمن والطمأنينة والفراغ من التشويش والاضطراب؛ هل هو مَن اهتدى؟ أم هو أنتم، أيّها المساكين الذين تفتقدون للحجج والأدلّة في سعيكم وطريقكم الذي اتّخذتموه؟! فأنا قد اتّضح لدي الأمر. إبراهيم أم أنتم عبدة الأصنام أحقّ بالأمن؟ هذا ما كان يقوله إبراهيم، وفي مجال التوضيح: أنا الذي عرفت اللّه وعرفت الطريق ببصيرةٍ ووعي؟ أم أنتم أصحاب الظنّ الباطل الفاقدين للحجّة؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فيُعلم ما هي النتيجة، وما هو الجواب، ومَن هو المحكوم عليه بالبقاء في مستنقع الهواجس والخوف والاضطراب، ومَن هو الذي يقع تحت حكم الطمأنينة والنجاة من كلّ هذه المساوئ.

وفي النهاية يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، فهذا ما يرتبط بالأمن.

بعد هذا العرض، يأتي دور حصول الثمرة، فماذا يعني ذلك؟ هي البشارة الرابعة التي يشير إليها الباري تعالى. فإنّ من الأمور، التي لو حصل عليها من يسلك الطريق نحو المقصود، لتمكّن بفعلها من التحرّك بصورةٍ أفضل، ولأصبح احتمال وصوله أكبر، بينما لو لم يحصل عليها، فإنّه يصبح أكثر بطئًا، ويزداد احتمال عدم وصوله، هو أن يعلم إذا كان عمله مثمرًا أم لا. فلو كان يعلم أنّ سعيه يؤدّي إلى نتيجةٍ مثمرة، وعلم أنّ تحرّكه وسعيه وخطواته لن تذهب جفاءً، عندها فإنّ كلّ حركةٍ ستؤدّي إلى إيجاد موجةٍ تدفعه

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٢.



أكثر نحو المقصود. فلو كان يعتقد بذلك، فإنّه سيصبح أسرع في السير والتقدّم ويعمل بصورةٍ أفضل ويقلّ تعبه ويتحرّك براحةٍ أكبر. أمّا إذا لم يعتقد بذلك فواويلاه.

هكذا يكون المؤمن يرى عمله ذا ثمرةٍ، وهذا ما يعلّمه إيّاه القرآن. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، لا يضيع ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ ومنها الكثير من أوّل القرآن إلى آخره ما شاء اللّه. ولقد أتيت بالموارد من سورة البقرة وهي الآية ١٤٤ المرتبطة بالقبلة.

في البداية، نتعرّض لتاريخ القبلة في بضع كلمات. عندما كان المسلمون في مكّة، كانوا يتوجّهون إلى الكعبة حين الصلاة وللعبادة؛ وقبل الهجرة كذلك، وعندما جاؤوا إلى المدينة، كانوا يتوجّهون إلى بيت المقدس - بالطبع كان هذا بأمرٍ من اللّه - مثلما كان يفعل اليهود. ففي تلك الأيّام، كان يهود المدينة يتوجّهون إلى بيت المقدس في عبادتهم وكذلك المسلمون، ثمّ مرّت مدّة ونزلت الآية التالية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[2]. وعاد المسلمون ليتوجّهوا إلى الكعبة في صلاتهم، وقد ذُكرت أبعاد حادثة القبلة هذه في بدايات سورة البقرة بالتفصيل لا ضرورة الآن لبيانها، وتصل الآيات إلى سبع أو ثماني أو عشر.

وإحدى هذه الآيات تقول للمؤمنين وللرسول أنّ سبب جعلنا قبلتكم، عند مجيئكم من مكّة ومن بداية نزولكم في المدينة، إلى

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٩٠.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٤٤.





طرف المقدس هو أنّنا أردنا أن نمتحنكم. فأنتم قبل أن تصبحوا مسلمين، وعندما كنتم في مكّة، كنتم تحترمون الكعبة وتقدّسونها، وبعد أن أصبحتم مسلمين كانت صلاتكم نحو بيت الكعبة في مكّة؛ والآن عندما جئتم إلى المدينة، أردنا أن ننتزع منكم تلك السنّة التي كان عليها آباؤكم وأجدادكم بصورة مؤقّتة لنرى مدى استعدادكم للتخلّي عن تلك العادات من أجل اللّه. ففيه نكتةٌ أو قضيّةٌ هي بحدّ ذاتها لا ترتبط ببحثنا، لكنّها قضيّةٌ مهمّة جدًّا. فأنتم إذا كنتم مؤمنين هل أنتم جاهزون للدوس على عادةٍ كان عليها آباؤكم وأجدادكم، وذلك في سبيل اللّه مع أنّكم قد اعتدتم عليها وتعلّقت قلوبكم بها وكنتم تحترمونها؟ أم لستم كذلك؟

لا ينبغي أن تتصوّروا أنّ الصلوات التي صلّيتموها عندما كنتم في المدينة وفي البدايات وتوجّهتم فيها إلى بيت المقدس أنّها لا شيء وليست مقبولة وأنّ قبلة بيت المقدس هي قبلةٌ باطلة؛ كلّا، ليس صحيحًا، فإنّ ما قمتم به من عمل كلّه مورد قبولٍ في جميع مراتبه. وإنّ مساعيكم وأعمالكم أيّها المؤمنين فيما يتعلّق بالقبلة، وبشكلٍ عامّ، هي مورد التصديق والتأييد والثواب والشكر من قبل اللّه، ولكنّ هذا التحويل الذي أُمرتم به هو من أجل امتحانكم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾[1]، الخطاب للنبي بشأن بيت المقدس، فمتى نزلت هذه الآية؟ إنّها ترتبط بالوقت الذي تحوّل فيه من بيت المقدس إلى الكعبة في استقبال الصلاة. فاللّه تعالى يبيّن سرّ جعل هذا التحويل، ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٤٣.



عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾، فيتبيّن مَن الذي يتّبع الرسول ومَن الذي يرجع إلى آبائه وأجداده وإلى ماضيه. فذلك كان عبارة عن امتحان ابتلى اللّه به المسلمين، لم نكن قد عيّنّاها أو جعلناها إلّا لأجل تمييز وتحديد الأتباع الحقيقيين للنبي عن أتباع العادات الجاهلية. ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ فكانت تبدو كبيرةً جدًّا وهامّةً إلّا بالنسبة للذين اهتدوا بهداية اللّه. فالذين تحقّقت لهم الهداية كان مثل هذا الامتحان لهم عاديًا، وكانوا يستطيعون أن يتجاوزوه، أمّا الذين لم يستحقّوا الهداية فكانوا على العكس من ذلك.

وبعدها تأتي الجملة اللاحقة، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾، وهذه الجملة هي محلّ استدلالنا واستنادنا. فليس الأمر لأجل أن يضيع إيمانكم وعملكم ويصبح باطلًا وبدون أثر؛ فيظنّ من يظنّ أنّ العمل لم يكن له معنًى في مدّةٍ من الزمان وأنّكم لن تتقدّموا. كلّا، فإنّ كلّ خطوةٍ خطوتموها وكلّ حركةٍ قمتم بها قد تقدّمت بكم أيضًا نحو المقصود وقرّبتكم منه وذلك بنفس المقدار الذي يكون على طريق التكامل ويقرّب نحو الهدف، فإيمانكم لا يضيع، إنّ اللّه بالناس لرؤوفٌ رحيم.

التفتوا! إنّ هذه الآية وعدّة آيات أخرى في القرآن تبشّر المؤمنين بهذا الأمر، وتبيّن لهم أنّ أعمالهم وإيمانهم وعقائدهم لا تضيع ولا تفقد أثرها ولا تبطل. فماذا يعني ذلك؟ إنّ كلّ ذلك يدور حول هذه القضيّة وهي أنّ الأمر ينتهي إلى ثمرةٍ ونتيجةٍ. ولو وُجدت هذه الحالة في المؤمنين، فإنّ سلوك طريق الكمال سيكون بالنسبة لهم أسهل، كما هو واضحٌ جدًّا وحتميّ.



القسم الثاني

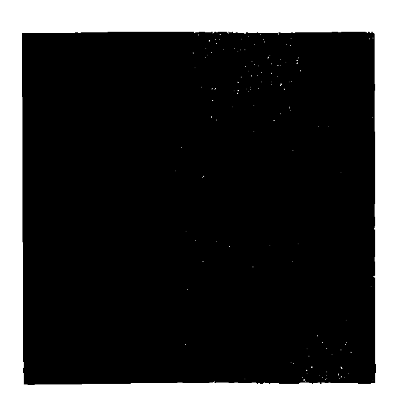
التوحيد

الجلسة الثامنة

التوحيد

الرؤية الكونيّة الإسلامية

الخميس ٩ شهر رمضان المبارك ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

[سورة **البقرة**، الآية ٢٥٥]



إنّ العمل في هذا القسم سيدور حول مسألتين:

أوّلًا: استخراج الآيات القرآنية حول التوحيد من أجل القيام باستنباط المعنى الدقيق له في القرآن.

ثانيًا: معرفة ما يستوجبه التوحيد على مستوى الالتزام والعمل في الحياة.

إنّ الإيمان يجب أن يكون واعيًا مدركًا لكلّ ما يرتبط به من فكرٍ وأصلٍ من الأفكار والأصول الدينية. فلا ينبغي أن يكون أعمى، بل منطلقًا من الفهم والشعور والوعي، بالإضافة إلى ضرورة أن يتلاءم هذا الإيمان مع الالتزام.

والشيء الذي ينبغي أن نكتشفه حول الإيمان هو ذلك الشيء الذي يتعلّق بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقنا في حياتنا وفي عملنا، سواء كان عملًا فرديًّا أو اجتماعيًا، وسواءٌ ارتبط بشخصنا أو بمجتمعنا أو بالبشريّة أو بمستقبل التاريخ.

ووفق هذه المقدّمة، فإنّ البحث عن التوحيد سيتعلّق بالالتزام. والتوحيد الذي نقوم بدراسته هو التوحيد الذي يكون منطلقًا من الوعي ويوصلنا إلى الالتزام والمسؤوليّة الملقاة على





عاتقنا. فهل أنّ التوحيد مجرّد فهمٍ عديم المسؤوليّة والالتزام؟ وهل هو عبارة عن معرفة حقيقة خالية من التكليف الذي يُلقى على عاتق الإنسان؟ أم لا؟ بمعنى أنّ التوحيد عبارة عن معرفةٍ واطّلاعٍ يلزمان الإنسان - تبعًا لهما - بمجموعة من التكاليف والوظائف والمسؤوليّات. وعندما نراجع القرآن الكريم سوف نجد الإجابة الواضحة على هذا السؤال.

بناءً عليه، إنّ الآيات التي نتطلّع إليها اليوم بشأن التوحيد هي ذات رؤية خاصّة. والآيات اللاحقة التوحيدية بشأن التوحيد سننظر إليها من زاويةٍ أخرى بها. وأنا لا أدّعي أنّني في غضون عدّة أيّام سأتمكّن من بيان جميع أبعاد التوحيد القرآنية والإسلامية من خلال البحث حول التوحيد والاستمداد من الآيات القرآنية. ومن المسلّم أنّ أيّ إنسانٍ يراجع القرآن الكريم برؤية أكثر دقّةً، وبتفحّصٍ أكبر، وبمطالعةٍ أشمل، سيجد نفسه أمام محيطٍ لامتناهٍ في مجال التوحيد.

إنّ الأمر الذي كان ينبغي أن نذكّر به هو أنّه من المحتمل أن يبدو بحث التوحيد في الآيات القرآنية، وبالأسلوب الذي سنطرحه، ثقيلًا نوعًا ما، ويمكن أن يبدو كبحثٍ دراسي أكثر منه بحثًا يُطرح في الخطابة. ولكنّني كنت أفكّر دائمًا في نفسي، وما زلت، حول فائدة المحافل العموميّة ما لم تكن ذات طابعٍ درسيّ؛ وهل أنّ خطبنا هي شيءٌ غير الدرس؟ فما هو المانع من أن تكون المحافل العموميّة، مع هذا العدد الكبير من الحضور، شبيهةً تمامًا بالصفّ الدراسي الذي تُطرح فيه الأفكار المعدّة لتناول تلك المسائل ذات الطابع المعضل الذي يحتاج إلى التأمّل والتفكّر؟! لماذا يجب على المتكلّم أن يلزم نفسه ويضطرّ أن يعرض المسائل بصورةٍ مفرحة ومسلّية ومتلازمة مع المزيد من الترفيه، لأنّ الشهر شهر رمضان





والحضور صائمين؛ فأيّ فائدةٍ ستحصل عندها من هذه الأيّام؟ فإلى متى ينبغي أن تبقى محافلنا ومجالسنا العامّة غير متوجّهة إلى المزيد من التعمّق الفكري والارتقاء للمستوى المطلوب؟ لماذا لا يكون لدينا مثل هذه المجالس؟

بناءً عليه، أيّها الإخوة والأخوات المشاركين في هذا المجلس، لا أعلم إن كان ما سأطرحه وأعرضه سيظهر لكم ثقيلًا أم لا في الأيّام المقبلة! فمن الممكن أن يكون كذلك أو أن يكون عاديًا جدًّا. ولكن لو كان المطلب ثقيلًا عليكم ويحتاج إلى تفهّم، فاعملوا عليه فكرًا ومطالعةً. عبّئوا جميع قواكم الذهنيّة من أجل أن تفهموا المطلب. احفظوا الكلمات واحتفظوا بها في أذهانكم. وإذا كانت صعبةً، فتباحثوا بشأنها مع زملائكم وأصدقائكم. وإذا لم يكن البحث مألوفًا لأذهانكم، فلا تسعوا إلى طرده من ذهنكم مباشرةً لمجرّد أنّه بحثٌ ثقيل. كلّا، اسعوا لأن تجعلوا أذهانكم مستأنسةً بمثل هذه المباحث.

وبالطبع، وكما أشرنا في الكثير من الأبحاث والخطب والدروس السابقة، نحن لا نتوقّع أبدًا من أيّ شخصٍ أن يتقبّل كلّ ما نقوله مئة بالمئة. كلّا، بل على العكس، نحن نتوقّع من الأصدقاء والإخوة والأخوات، وفي أيّ مستوًى كنتم، أن تضعوا ما يُعرض عليكم كغذاءٍ فكري تحت مجهر الإدراك والفهم والتشخيص والاجتهاد، وما لم تكونوا في الأماكن الأخرى هكذا، فكونوا هنا هكذا واجعلوا أنفسكم مصداقًا للآية القرآنية الشريفة: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1].

---

(١) سورة **الزمر**، الآيتان ١٧ و١٨.



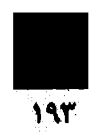


على كلّ حال، سنجعل التوحيد محلّ بحثنا من زاويتين. ومن الممكن وأثناء تنظيم المطالب أن تظهر بعض الشعب الأخرى التي ينبغي أن نتعرض لها بالحديث والذكر. أوّلًا من زاوية الرؤية الكونيّة الإسلامية. إذ إنّ وجود التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية هو من المسلّمات؛ فما هو معنى التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية؟ وما هي دلالته؟ وكيف تشرح آيات القرآن - بما لها من أسلوبٍ لغويٍ بليغ - هذا التوحيد المطروح في هذه الرؤية؟

أمّا البحث من الزاوية الثانية، فنعبّر عنه بقولنا: التوحيد في أيديولوجيّة الإسلام. وبالطبع، سوف نقدّم توضيحًا مختصرًا لمصطلح الرؤية الكونيّة لمن لا يعرفه، وكذلك لمصطلح الأيديولوجيّة. فالتوحيد هو من أركان الرؤية الكونيّة الإسلامية، كما أنّه من أركان الأيديولوجيّة البنّاءة للحياة في الإسلام. وكذلك، فإنّ التوحيد يظهر في كلّ من الأنظمة الفرعيّة للإسلام، وأينما شاهدتم حكمًا أو قانونًا أو نظامًا باسم الدين لا يستقيم فيه التوحيد، بل على العكس يضاده أو يفتقد إليه، فاعلموا أنّه ليس من الإسلام؛ لأنّ التوحيد يشبه الروح التي تسري في قالب جميع المقرّرات الإسلامية.

إنّه مثل الهواء الرقيق واللطيف الذي يتحرّك في جميع أجزاء هذا البناء والهيكل الذي نسمّيه الإسلام. إنّه مثل الدماء أو الدمّ الطاهر والنقي والمتجدّد الذي يسري في جميع عروق وشرايين هذا الجسد الذي نسمّيه الإسلام والدين. وإنّكم لن تجدوا حكمًا جزئيًّا بسيطًا في الإسلام لا يظهر فيه لون التوحيد وعلائمه. بناءً عليه، إنّ البحث سيكون حول التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية. فما هو معنى الرؤية الكونيّة الإسلامية؟

أنتم عندما تتأمّلون في العالم بعنوان أنّكم بشرٌ وتفكّرون



وتدركون العالم والإنسان، تنتزعون مجموعة من التصوّرات والمفاهيم عنها. من الممكن أنّكم لم تكونوا بصدد هذه القضيّة سابقًا، أمّا من يفكّر بهذه الطريقة، فإنّه عندما يتأمّل في العالم وفي الإنسان وفي ارتباط الإنسان بالعالم ويفكّر بتلك الأشياء التي تكون ما وراء الطبيعة، وما وراء الإنسان والعالم، سوف ينتزع سلسلة من التصوّرات والمفاهيم، وهذا ما يُعبّر عنه بالرؤية الكونيّة.

إنّ لكلّ مذهبٍ رؤية خاصّة ونظرة معيّنة وانتزاعٌ خاصّ واستنباطٌ محدّد حول العالم. وهذا التصوّر الخاصّ حول العالم والرؤية المحدّدة بشأن كيفيّة النظر إليه تُسمّى الرؤية الكونيّة. فالرؤية الكونيّة هي من جملة المصطلحات التي راجت في السنوات الأخيرة باللغة الفارسيّة وغدت تُستعمل بصورةٍ ملحوظة. الرؤية الكونيّة لا تعني سعة النظر، التي قد تُستعمل في تعابير العوامّ حيث يُقال إنّ لهذا الإنسان رؤية كونيّة بمعنى أنّه واسع النظر، كلّا، الرؤية الكونيّة لا تعني ذلك.

وباختصار، يمكن تعريف الرؤية الكونيّة على هذا النحو: هي عبارة عن تصوّر الإنسان عن العالم وما يدركه منه، وفهمه للإنسان وللعالم. ويمكنكم أن تضعوا مكان تصوّر الإنسان تصوّر المذهب الفلاني أو المسلك أو النهج أو الرؤية الاجتماعية الفكريّة حول العالم. فمثل هذا التصوّر يُسمّى بالرؤية الكونيّة. وللإسلام رؤيته الكونيّة وتصوّره عن العالم، وسوف أبيّن بشكلٍ مختصر هذا التصوّر الإسلامي بالمقدار الذي يرتبط ببحثنا حول التوحيد.

يعتقد الإسلام أنّ كلّ هذه المجموعة المسمّاة بالعالم، من أعلاها إلى أسفلها؛ من الموجودات الصغيرة جدًّا إلى الكبيرة، من





أدنى مستويات الكائنات الحيّة أو غير الحيّة إلى أشرفها وأقدرها وأكثرها عقلًا، أي الإنسان، هي جميعها وكلّ ما في هذا العالم عبارة عن مخلوقات أوجدتها قدرة عظيمة جدًّا، فهي كلّها تابعة لها، وهي بأسرها يطلق عليها: عبادٌ لها. فما وراء هذا الظاهر الذي أراه أنا وأنتم، وما وراء ما يمكن أن تصل إليه العدسة الحادّة للعلم التجريبيّ، وما وراء كلّ هذه الظواهر المحسوسة والملموسة، يوجد حقيقةٌ هي أعلى وأشرف وأسمى وأعزّ من جميع الحقائق ومن جميع ظواهر هذا العالم؛ وكلّ ما في هذا العالم هو مصنوعٌ ومُعدٌّ بقدرتها، فيطلق على هذه القدرة الأسمى والأعلى، اسم اللّه.

فالعالم إذن هو عبارة عن حقيقة غير مستقلّة بذاتها ولم توجد نفسها بنفسها، ولم تنبع من ذاتها وداخلها، بل إنّ يدًا مقتدرةً خلقت هذه الظواهر المختلفة. وكلّما تقدّم العلم، اكتشف المزيد من هذه الظواهر. هناك يدٌ مقتدرةٌ هي التي أوجدت هذا الاهتزاز الكبير في أعماق الذرّة؛ كما أنّ أعلى وأبعد العوالم المجهولة من المجرّات وما يحيط بها ممّا يزيد بمليارات المرّات عمّا اكتشفناه لحدّ الآن، فكلّ هذه قد أوجدتها اليد المقتدرة. فهذا المصنع له صانعٌ وبانٍ، وهذا الجهاز له موجدٌ، فلم يحدث صدفةً أو يوجد من ذاته. فالإسلام يرى العالم على هذا المنوال.

هذه هي مواد الرؤية الكونيّة الإسلامية في مجال التوحيد، والتي نفصّل القول فيها وباختصار. فذاك الإله الذي هو أعلى من العالم ومن العالمين، وتلك اليد المقتدرة التي ترجع إليها جميع موجودات العالم، قد صنعت وأوجدت كلّ هذه الأشياء، هذه هي اليد المقتدرة التي اسمها اللّه، والتي تتّصف بجميع الصفات الحسنة على نحو الأصالة والذاتيّة؛ فلها العلم والقدرة والحياة





والإرادة وكلّ ما ينبع من هذه الصفات، وحياتها لم تنبع من أحد، وعلمها لم يُكتسب من أيّ موجود، وهكذا سائر الصفات.

بيده كلّ هذا العالم. ومَن هم العالمون؟ وما هي ذرّات العالم في مقابله؟ وإذا كانت ذرّات العالم من صنعه وإعداده، فهل هي كمولودٍ انفصل عن أمّه وأضحى مستقلّا!؟ كلّا، القضيّة ليست كذلك. إنّ كلّ هذه الموجودات تحتاج إليه في كلّ لحظةٍ من أجل الوجود والبقاء، وتحتاج إلى قدرته وإرادته، فالكلّ عبيدٌ له. وهي من صنعه ومن خلقه، وهو قادرٌ على التصّرف فيها جميعًا، وقد خلقها كلّها ضمن نظامٍ خاصّ وأوجدها وفق سننٍ وقوانين منظّمة ودقيقة. وهذه القوانين هي التي يسعى العلم اليوم لاكتشافها.

وبالطبع، إنّ البحث ليس مرتبطًا بهذه الجهة، فهو لا يتعرّض لقضيّة الاستدلال على وجود اللّه وإثبات الصانع. يوجد في هذا المجال كتبٌ كثيرةٌ اذهبوا واطّلعوا عليها. ولكن لا بأس بذكر هذه الجملة نقلًا عن بعض علماء العلوم التجريبيّة في عصرنا - لا أنقلها عن الفلاسفة - أي العلماء الذين يعملون طيلة الوقت في المختبرات في مجال التقنيّات وفي الصناعة وأمثالها؛ والتي [وردت] في كتابٍ ترجمه مجموعة من الفضلاء الإيرانيّين، وكتبه مجموعة من العلماء غير الإيرانيّين تحت عنوان إثبات وجود اللّه[1] - وهو كتابٌ جيّدٌ ولا بأس بأن تراجعوه - حيث يقول هؤلاء العلماء إنّه مع تقدّم العلم وعند التوغّل في كنه المخلوقات والموجودات

---

(١) **إثبات وجود اللّه**، تأليف جون كلور، هو كتابٌ يضمّ أربع مقالات من العلماء المعاصرين في إثبات وجود اللّه، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الفارسيّة من قبل أحمد آرام وعلي أكبر مجتهدي وسيّد مهدي أمين.





وكشف القوانين المنظّمة، نفهم أنّ للعالم موجد. فمن خلال ما نراه من نظامٍ وانتظامٍ وانضباطٍ في عمل كلّ أجزاء هذا العالم نفهم أنّ للعالم خالقًا وموجدًا. حسنٌ، فإنّ كلّ موجودات العالم عبيدٌ له وقد أوجدها وهي تحت تصرّفه وفي قبضة قدرته، والإنسان مثل بقيّة الموجودات.

إنّ التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية هو عبارة عن هذا الأمر؛ فالتوحيد يعني أنّ للعالم خالقًا وصانعًا؛ وبعبارةٍ أخرى، إنّ للعالم روحًا لطيفة ومنزّهة. للعالم موجدٌ، وكلّ أجزاء هذا العالم هي عبادٌ وموجودات هم تحت تصرّف هذا الإله وهذا الموجد؛ هذا هو التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية. أي عندما ينظر أيّ مسلمٍ من زاوية الإسلام إلى هذا العالم، فإنّه لا يراه كموجودٍ مستقلّ، بل [يراه] عبارة عن موجودٍ يرتبط بقدرةٍ أعلى. فما هو تأثير مثل هذا الاعتقاد؟ وما هي فائدته؟ إنّ له آثارًا عجيبةً ومدهشةً؛ وسوف تتّضح هذه الآثار على مستوى بناء الحياة في الأبحاث اللاحقة التي ستدور حول التوحيد؛ وعندها سيُعلم ويتّضح ما نريده من هذا التصوّر وهذه الرؤية الكونيّة الخاصّة وهذا الاستنباط والفهم لهذا العالم وهذا التفسير للعالم والعالمين.

فلنرجع إلى آيات القرآن الكريم، ولنرَ كيف أنّ هذا المطلب بذاته قد ذُكر في آياته بوحيٍ من ربّ العالم.

إنّ الآيات التي سوف نتحدّث عنها قد تناولناها من موضعين من القرآن: الأوّل من سورة البقرة والآية المعروفة بآية الكرسي، والثاني من سورة مريم.

بسم اللّه الرحمن الرحيم، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اللّه هو الاسم





الذي لا يمكن أن نجد له معادلًا بصورة التبيين والشرح، فما هو اللّه؟ ومَن هو؟ إنّه الموجود الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فلا معبود سواه، اجعلوا لفظ الإله بمعنى المعبود. الإله هو ذلك الموجود الذي يخضع له الإنسان مقدِّسًا ومعظِّمًا ومكرِّمًا، ويجعل زمام أمره بيده وأصل حياته عنده، وله اليد الطولى ومطلق العنان في حياته. هذا ما يُعبّر عنه بالاصطلاح القرآني بالإله.

فأولئك الذين يجعلون أهواء النفس أساس تحرّكاتهم في الحياة، إلههم هو هوى أنفسهم؛ وأولئك الذين يفسحون المجال للإنسان المتمرّد المتجاوز للتدخّل في شؤون حياتهم يكون إلههم هو ذاك الشيطان. أولئك الذين يسلّمون للتقاليد والاعتقادات الفارغة دون قيدٍ أو شرطٍ، فإنّ إلههم يكون تلك العادات والتقاليد والعقائد الجُزاف. فكلّ ما كان مبسوط اليد في وجود الإنسان وفي حياته ولا قيد له ولا شرط، ويحكم ويتحكّم به يُعدّ إلهًا لهذا الإنسان. هنا يقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا معبود سواه، فماذا يعني ذلك؟ هل يعني أنّه غير موجود في الدنيا؟ لقد كان هناك آلاف الآلهة التي عُبدت في هذه الدنيا، ففي الكعبة نفسها كان هناك أكثر من ٣٦٠ صنمًا معلّقًا أو بمعنى حوالي ٣٦٠ دمية؛ وكم من الدُّمى الحيّة في هذه الدنيا تُصدر الأوامر والأحكام! فكيف لا يوجد آلهة هنا؟! إنّ قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، أي الإله الواقعي والإله القانوني والإله الحقيقي. فكلّ شيءٍ آخر اعتبرتموه إلهًا غير اللّه - بذاك المعنى الذي ذكرته - واعتبرتموه معبودًا، تكونون قد أخطأتم وخالفتم الحقّ به، لأنّه لا يوجد إلّا اللّه يليق بالعبادة والألوهيّة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فما هي خصوصيّة «اللّه»، وهذا الإله الواحد المتفرّد؟ تُذكر هنا مجموعة من الخصائص، منها الحيّ.





فالكلّ أموات، وكلّ ما سواه موجودات ميّتة وهو الحيّ؛ وهذا أمرٌ واضحٌ فيما يتعلّق بالكائنات غير العاقلة، وكذلك الأمر بالنسبة لما يُعبّر عنه بذوات الأرواح؛ فذوات الأرواح لم تكن يومًا وسيأتي يومٌ لن تكون. فمن له روحٌ تكون روحه دائمًا في معرض التهديد والفناء. هذا الموجود الحيّ الذي تكون حياته في معرض التهديد عند أدنى حركة، ولو قيد أنملة، يتعرّض للفناء والزوال؛ فأيّ نوعٍ من الحياة هذا؟! ذاك الذي تكون له الحياة الأبديّة والأصيلة والحقيقية هو اللّه، وحياة كلّ الكائنات الحيّة هي عطيّة وهديّة وموهبة منه.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ هو الثابت والمستقلّ، هو الذي تكون حياته دائميّة وخالدةٌ وأبديّة، هو الذي تكون حياة الأحياء بحياته؛ ولو لم يكن ولم يشأ ولم يرِد فإنّه لا يبقى أيّ حياةٍ أو مظهرٍ للحياة في هذا العالم؛ ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ﴾، فلا نُعاسٌ ولا سُباتٌ يستولي عليه. السِّنة هي النوم الخفيف، فما بالك بالنوم الثقيل؟! وماذا يعني أن يُسلب أحدٌ عن نفسه؟ وهكذا، فإنّه لا يمكن أن يوجد في حياته وفي وجوده أيّة لحظة من الغفلة أو انعدام التوجّه. فكلّ الوجودات الأخرى والمعبودات المختلَقة تغفل عن نفسها وعمّن دونها وعن العالم الذي يكون في قبضتها؛ إنّها تصبح غافلةً تمامًا، فهي دائمًا في غفلة. وهناك حيث يستولي عليها الغفلة أو الجهل، فإنّ علمها واطلاعها يكون كاذبًا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[1]، لقد قرأ موسى بن جعفر

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآيتان ٢٨ و٢٩.





صلوات اللّه عليه هذه الآية القرآنية على هارون الرشيد. فأين هو هذا الوادي المليء بالشؤم والعدم؟ إنّه جهنّم. لقد دخلوا جهنّم وجرّوا أتباعهم المساكين وأخذوهم معهم إليها، وما أسوأ هذا المستقرّ! يقول موسى بن جعفر صلوات اللّه عليه لهارون إنّك من هؤلاء[1]. حسنٌ، فهل يمكن لهارون أن يجرّ نفسه وقومه إلى جهنّم لو لم يكن غافلًا؟! فالغفلة تستولي على كلّ هذه المعبودات الأخرى.

أمّا الذي لا تأخذه الغفلة، فهو الحاكم الواقعي لهذا العالم، أي اللّه، ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾. فأنتم لا يمكن أن يأتي ببالكم أنّ «السِّنة» أي النوم الخفيف، أو النوم العادي، أو حتّى النوم الثقيل، يمكن أن تعرض على اللّه، فما هي ضرورة ذكرها هنا؟ ولماذا سنراها في الأبحاث اللاحقة؟ لأنّ كلّ إشارةً في التوحيد وكلّ نقطةٍ ومسألةٍ فيه تشير إلى نفي ألوهيّة غير اللّه، وتشير إلى نقائص غير اللّه. فكلّ ما يثبت للّه يتمّ نفيه عن مدّعي الألوهيّة. وكلّ ما يُقال في التوحيد، وتلك الأشياء التي ينبغي أن تنعكس في الحياة العمليّة للموحّدين ولعبيد اللّه، وجميع الخصائص والدقائق الموجودة في التوحيد، ينبغي أن يكون لها نماذج في حياة الموحّدين؛ وهو الأمر الذي سيظهر في الأبحاث والتلاوات اللاحقة. بناءً عليه، إنّ ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ إشارة إلى كلّ أشكال الغفلة والنوم والذهول عن الذات، للآلهة والأرباب المختلَقة.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، فكلّ ما في السماوات وما في الأرض له وهي ملكه وعبيد له. ﴿مَن ذَا

---

(١) **تفسير نور الثقلين**، ذيل الآية ٢٨ من سورة **إبراهيم**.

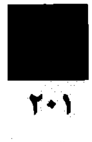




﴿ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، فالشفاعة، بمعنى الوساطة، لا تتحقّق إلّا بإذنه ولا يوجد أيّة قدرةٍ أخرى، حتّى بمستوى قدرة شفيعٍ واحد، يمكنها أن تستعرض نفسها مقابل اللّه. فلو شفع أحدٌ للغير فذلك بإذنٍ من اللّه. وإذا شفع الأنبياء لغيرهم، وكذلك الأولياء والأئمّة والصلحاء والمؤمنون والشهداء، إذا شفعوا عند اللّه فذلك لا يكون إلّا بإذن اللّه. بناءً عليه، فإنّها جميعًا ليست قوى مقابلة للقدرة الإلهيّة، وليست دكاكين مقابل اللّه، إنّها ليست ما يشبه جهازًا مستقلًّا يقف مقابل الجهاز الإلهيّ. كلّا، بل الكلّ عبيدٌ للّه؛ غاية الأمر أنّهم عبيدٌ أحاط بهم لطف اللّه ومحبّته.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، فالشفاعة إذن لا تكون إلّا بإذنه وإجازته. ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ فله الإحاطة بما هو أمام هؤلاء وما خلفهم، أي يحيط بكلّ مجريات حياتهم، كبشر أو كموجودات. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾، فلا يصلون إلى علم اللّه إلّا بما يشاء اللّه.

فانظروا كيف يقسّم كلّ العالم إلى صفّين: الصفّ الأوّل هو صفّ اللّه، والصفّ الآخر هو صفّ الموجودات. وهذا الصفّ الآخر يشمل جميع ذرّات العالم على حدٍّ سواء كعبيدٍ للّه. وما أريد قوله هو أنّه لا يوجد أيّ امتياز بين أيّ موجودين في هذا العالم بلحاظ العبوديّة للّه؛ فالجميع متساوون بلحاظ العبوديّة من جهة شموليّة القدرة والإحاطة الإلهيّة – فالكلّ في قبضته - بما في ذلك أعظم موجودات العالم وأعزّها وأكثرها أهميّةً في التاريخ، أي الوجود المقدّس للنبي الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ؛ فهو بلحاظ العبوديّة والخضوع، يشبه كلّ ذرّات العالم الأخرى، وله الخضوع نفسه الذي يكون لكلّ موجودات العالم للّه. فأن يكون النبي أو أيّ صاحب مقام، أو أيّ



إنسان عظيم، عظيمًا ومصطفًى ومحبوبًا عند اللّه وعزيزًا عنده، لا يعني أن يكون له شيءٌ من القدرة مقابل اللّه؛ كلّا. إنّ جميع العباد هم للّه وبيده وفي قبضته ومسلّمون له، وإن كان لهم عظمة فهي بسبب هذا التّسليم والخضوع. أنتم تقولون في الصلاة: «أشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله»، فتقدّمون العبوديّة للّه وتشهدون أنّ محمّدًا عبد اللّه ثمّ تشهدون بأنّه رسول اللّه. فتذكرونه كعبدٍ أوّلًا.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، إنّ محلّ القدرة يشمل السماوات والأرض. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، فليس صعبًا عليه أن يحفظ السماوات والأرض وهو العليّ العظيم. فماذا تفهمون من هذه الآيات؟ ومن مجموعها؟ فبالإضافة إلى هذه الدقائق الموجودة في هذه الآية، واللطائف الدقيقة في هذه الجملة - حيث إنّ جزءًا منها يمكن أن تفهموه أو أفهمه أنا، ويبقى عشرات أو مئات الملاحظات والنكات الأخرى التي لا يفهمها إلّا عباد اللّه المصطفَون - فمن ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفهم الإمام السجّاد لطائف ودقائق لا يمكنني أنا وأنت أن نفهمها. فماذا تفهمون غير هذه الدقائق وهذه النكات وغير هذه المسائل الاجتماعية والاعتقاديّة المذكورة هنا؟ أي ماذا تفهمون من مجموع القضيّة؟ إنّكم تفهمون من هذا المجموع الرؤية الإسلامية التي تتعلّق باللّه بصورةٍ جيّدة، والتي تقول إنّه يوجد مركزٌ للقدرة والعلم والحياة في كلّ منطقة الوجود باسم اللّه؛ وفي الطرف المقابل، فإنّ جميع الظواهر تخضع لهذه القدرة العظيمة والجليلة في حالةٍ من المسكنة والعبوديّة؛ ولا يوجد فرقٌ بين ظواهر العالم من جهة العبوديّة في مقابل مركز القدرة ذلك، سواءٌ من الذرّة الصغيرة إلى المجرّة العظيمة، سواء كان الإنسان مؤمنًا أو كافرًا، أو كان موجودًا عديم القيمة أو إنسانًا عظيم





الشأن؛ فإنّ الكلّ يسلّمون لذلك الموجود وهم عبيدٌ له، وأيّ تعبير آخر تريدون أن تستعملوه.

بالتأكيد، إنّ لفهم هذا الموضوع آثارًا في معرفة الأيديولوجيّة الإسلامية، وفي معرفة الأطروحات العمليّة للإسلام فيما يتعلّق بالمجتمع. على سبيل النموذج مثلًا، يمكن أن أشير الآن إلى شيء يمكن أن يوقد شرارةً في ذهنكم، فأنا لا أريد أن أقوم بتصنّع الفلسفة ونسجها. فبعدما علمنا أنّ كلّ البشر في الجملة هم على حدّ سواء في مقابل هذه القدرة وهذا المركز، فلا معنى بعدها أن يُنحت تمثالٌ لإمبراطور الروم أو الرين[1] مثلاً يصوّره في منتهى الغرور والتكبّر وتحت قدميه يوجد عبدٌ أو غلامٌ؛ فإنّنا نقول لماذا؟ ولأيّة مناسبة؟ وهل أنّ هذا الامبراطور العظيم هو من غير صفّ عباد اللّه؟! وهل وجد صفٌّ آخر؟! وهل أنّ هذا الإنسان، الذي سقط عند قدمي الامبراطور وهو يسجد له ويخضع في مقابله ويخشع، هو من غير صفّ العباد؟! وهل وجد صنف أقلّ من ذلك وأدنى؟ فهل أنّ أحدهما خارجٌ عن هذا الصفّ؟ فلماذا هذا الوضع؟

انظروا، لو لم تكن هذه الرؤية الكونيّة، وهذا التصوّر وهذا الفهم للعالم، لكان بإمكان أباطرة العالم وزعماء التاريخ والملوك الكبار، وأصحاب المال وما يُعبّر عنهم بالإقطاعيّين الكبار، الذين كانوا عبر التاريخ وكان تحتهم وتحت إمرتهم آلاف بل ملايين العبيد والأسرى لقدرتهم والمطيعين لأوامرهم، لكان باستطاعتهم أن يقولوا:

---

(١) من كبار أباطرة الرّوم الذين عذّبوا المسيحيين كثيرًا، وقد أُسر هذا الامبراطور في آخر عمره في حربه ضدّ الساسانيّين، وقد اعتبر المسيحيون هذا الاسر عقوبةً إلهيّة في حقّه لأنّه كان يعذّب المسيحيين.





يا فلان إنّني مختلفٌ ومتمايزٌ وإنّني غير أولئك، ويجب أن يخضعوا لي ويكونوا تحت قدميّ، وينبغي لي أن أدوس عليهم، فأنا خُلقت لكي آمر وهو خُلق لأجل أن يطيع، وأنا خُلقت لأجل أن أعيش وهو قد خُلق لأجل أن يكون سيّء الحظّ، وإنّني عبدٌ لإلهٍ قدرته أعظم من قدرة إله ذاك العبد الآخر، مثلما كان يقول بنو إسرائيل. لقد كان بنو إسرائيل يقولون إنّ إلهنا «يهوا»[1] وهو يتلطّف ببني إسرائيل أكثر من غيرهم. وكان عبّاد الأصنام المشركون في الهند يقولون: إنّ مجتمعنا ينقسم إلى أربع طبقات ولكلّ طبقةٍ إلهٌ خاصٌّ وإنّ كلّ طبقة تُخلق من جهةٍ خاصّة.

أمّا الرؤية الإسلامية التوحيدية الخالصة، فتقول: إنّ كلّ الممكنات والموجودات تنبع من مكانٍ واحدٍ ومن مبدإٍ واحدٍ ومن قدرةٍ واحدة، خلقتها وأوجدتها وصنعتها؛ فالكلّ عبيدٌ أمامها، والكلّ أسرى قدرتها، والكلّ ينبغي أن يطيعوها، فلا يحقّ لأحدٍ أن يضع رأسه محلّ قدم شخصٍ آخر، كما أنّه لا يحقّ لأحد أن يضع قدمه محلّ رأس شخصٍ آخر. فمثلما أنّه لا يحقّ لك أن تضع قدمك على رأس الآخرين، لا يحقّ لك أن تضع رأسك تحت قدم غيرك، فلماذا ذلك؟ لأنّ هذا مخالفٌ للحقّ والحقيقة من الناحية العمليّة في كلا الحالين. فذاك الذي يمتطي الحصان ويحيط به مجموعة من العبيد الذين يسوقون فرسه، في الواقع لا يختلف عنهم من ناحية العبوديّة.

---

(١) اسمٌ من أسماء اللّه عند اليهود وقد ذُكر هذا الاسم في التوراة حيث كان يدلّ على سرمديّة إله اليهود.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، فمَن هو الأقرب إليه؟ ومَن هو الذي لديه قدرة في مقابله؟ ومَن هو الذي يمكنه أن يمنّ في مقابله؟ أجل، ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، فهناك مَن يمكنه أن يشفع ولكن بإذنه هو، وهو لا يمكن أن يأذن للمتجبّرين في الشفاعة بل يأذن للأئمّة، ولا يمكن أن يأذن للمفسدين بالقرب ويمنحهم إجازة الشفاعة. إنّهم الأنبياء والأولياء والصالحون الشهداء، والمتواضعون من أهل المقامات العليا، والعبّاد الذين مرّت عليهم الدنيا بكلّ مرارةٍ وألم ولكن بقيت أرواحهم قوية وساروا على طريق تحمّل المسؤوليّة والتّكليف، وحمّلوا أنفسهم على الطّاعة وتحمّل المصاعب من أجل أن يقتربوا خطوةً أخرى نحو أداء التكليف؛ هؤلاء يمكنهم أن يشفعوا عند اللّه. وإنّ السبب الذي جعلهم قادرين على الشفاعة هو أنّهم أكثر عبوديّةً للّه لأنّهم جعلوا أنفسهم تحت قدرة اللّه أكثر من غيرهم. فلا يوجد من يعبد اللّه أكثر من النبي في زمانه، ولا يوجد مثل أمير المؤمنين في زمان أمير المؤمنين من ناحية العبوديّة للّه، وكذلك الأمر في زمن الإمام السجّاد. فكون النبي أفضل الناس، وكون عليٍّ أفضل الناس، وكون الإمام السجّاد أفضل الناس، لا لأجل أنّه كذلك من ناحية البلد أو الانتماء - مثلما يُقال إنّ هذا من شوشتر وذاك من دزفول[1]- بل لأنهم كانوا أكثر عبوديّةً للّه فأضحت مقاماتهم أعلى وأعزّ. ويُستفاد هذا المعنى العامّ من هذه الآية - أي آية الكرسي - وهو أنّ ربّ العالم هو تلك القدرة المطلقة التي تكون في مقابلها جميع الكائنات وكلّ العوالم في حالة العبوديّة والطّاعة التّسليم، وكلّ من أراد أن يقترب منه أكثر

---

(١) شوشتري ديزفولي: هو مثالٌ في موضوع التفاخر والتعصّب القوميّ.





يجب أن يكون أكثر عبوديّةً له؛ هذه آية.

الآية الأخرى في سورة مريم، وهي الآية ٨٨ إلى ما بعدها: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾. لقد نطق الكفّار بهذا الكلام بألفاظٍ وصورٍ مختلفة. فالمسيحيون عبّروا عن ذلك بنحوٍ، واليهود بنحوٍ آخر، والمشركون في قريش وفي الجزيرة العربية بنحوٍ ثالث، وهكذا كان حال المشركين في الأماكن المختلفة من العالم. فبعض الأشخاص يقول إنّ للّه ابنة، وآخر يقول إنّ له ابن، وبعض الناس يقول إنّ للّه البنين والبنات، وبعضهم يقولون إنّ له ابنًا واحدًا، وبعضٌ قال إنّ عدد أبنائه غير متناهٍ بل هم عائلته. وعلى كلّ حال، قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾، فمن أيّة جهةٍ نسبوا الابن للّه؟ دقّقوا في هذه الملاحظة جيّدًا، أن يكون للّه أبنًا، الذي هو مورد ادّعاء بعض المشركين أو المسيحيين أو اليهود، إنّما هو بهذا المعنى: أنّه من بين مخلوقات العالم، هناك شخصٌ لا تكون نسبته إلى اللّه نسبة العبوديّة، بل هي نسبة البنوّة. فهو عندهم سيّدٌ وليس عبدًا، حتّى لو لم يكن سيّدًا بذاته.

لقد كان اليهود يقولون إنّ عزير ابن اللّه؛ ونسبوه إلى البنوّة وأرادوا بذلك أن يقولوا لو كانت جميع موجودات العالم عبادٌ وعبيدٌ للّه، فعُزيرٌ خارجٌ عن هذه المقولة، فهو ليس عبدًا للّه، بل هو ابن اللّه وقرّة عينه. لقد قال المسيحيون مثل هذا [الكلام] بشأن المسيح؛ وذكر الكفّار مثله بشأن اللات ومناة وعزّى[1] فجعلوها بنات اللّه؛ وكان وثنيّو اليونان والروم ينسبون الكثير من

---

(١) ذُكرت أسماء هذه الأصنام في الآيات ١٩ و٢٠ من سورة **النجم** المباركة.





الأبناء والمواليد إلى اللّه، فالكلّ كان يحمل هذه النظرة. ففي الحقيقة، لقد قام هؤلاء بجعل هذين الصفّين اللذين نظرنا إليهما: الصفّ الأوّل الذي هو اللّه، والصفّ الآخر الذي هو جميع العبيد والكائنات التي تخضع كلّها للّه، لقد قاموا بجعلهما ثلاثة صفوف بدلًا من اثنين. فقد كانوا يقولون: اللّه، العبيد، والمصطفَون؛ الابن، والمولود، وشيء من هذا القبيل. الآيات في سورة مريم تنفي هذا الأمر، تأمّلوا جيّدًا وتفكّروا فيها إلى آخرها.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ فإنّ كلّ ما ذكرتموه بشأن اتّخاذ الرحمن للابن هو في الواقع شديدٌ جدًّا وثقيل. انظروا كيف هو التعبير الوارد في كلام اللّه. هو كلامٌ شديدٌ وثقيلٌ وعقيدةٌ خطرةٌ جدًّا، ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾. حقًّا، إنّ كلامكم كبير ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾، فالأمر قريبٌ من أن تتفكّك السماوات وتنشقّ الأرض وتتصدّع وتنهدّ الجبال وتزول بسبب هذا الكلام ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾.

فمن الواضح أنّ القضيّة مهمّة جدًّا، لأنّ اللّه تعالى ليس ممّن يمكن أن يُنسب إليه مثل هذا الكلام الفاحش والسيّء. فربّ العالمين لا يتعامل وفق الانفعالات الشعوريّة؛ فما يقدّمه للناس كعقيدة سيكون له دخالة في إنجاز الأهداف الإلهيّة وتحقيقها؛ وما ينفيه كعقيدةٍ فاسدةٍ فذلك لأنّه يؤثّر في إفساد المجتمع فيما لو اعتقد المجتمع به. فنفي العقيدة الفاسدة يعني إزالة شريان الفساد من المجتمع البشريّ. الاعتقاد بأنّ للّه ولدًا وأمثال ذلك، هو اعتقادٌ بوجود الواسطة والفاصل بين اللّه والبشر، ولمثل هذا الاعتقاد مفاسدٌ في المجتمع تتّضح بالتدريج ضمن أبحاث التوحيد.





إنّ هذا في الحقيقة حجّة على أولئك الذين يريدون أن يصبحوا عبيدًا لغير اللّه.

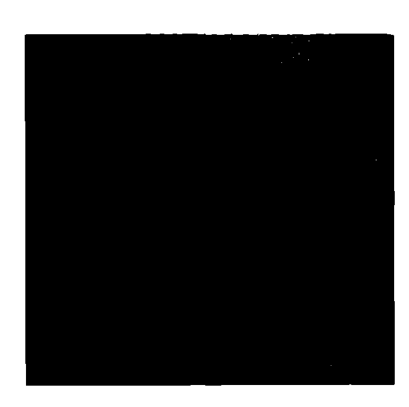
﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا﴾ فالكلّ إذن في قبضته وتحت حيطته ولا يصحّ أن يُنسب للّه المولود، لأنّ كلّ من في السّماوات والأرض عبادٌ له. وهذه آية أخرى من سورة مريم.

حسنٌ. باختصار، إنّ البحث الذي قدّمناه هو في النتيجة مرتبط بموضوع التوحيد في الرؤية الكونيّة الإسلامية. لقد قمنا بدراسة التوحيد من حيث المعنى والتعريف وتحت عنوان أنّه أحد العناصر الأساسية للرؤية الكونيّة. وسنصل إن شاء اللّه إلى دراسة التوحيد كأحد العناصر الأساسية للأيديولوجيّة الإسلامية. انظروا، إنّ الرؤية والأيديولوجيّة تختلفان فيما بينهما؛ فهذه مقدّمةٌ لتلك، وهذه أرضيّةٌ لتلك. هذا هو التصوّر الإسلامي، وهو يرى العالم والدنيا بهذا النحو. حسنٌ، فأيّ إلهامٍ تقدّمه لنا هذه الرؤية؟ وما هو خطّ السير وما هي الأطروحة والخارطة التي تقدّمها للحياة؟ وما هو دور التوحيد وفعاليّته في هذا المجال؟ سيكون البحث حول التوحيد في الأيديولوجيّة الإسلامية.

الجلسة التاسعة

التوحيد في الأيديولوجيّة الإسلامية

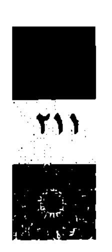
الجمعة، ١٠ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

[سورة البقرة، الآية ١٦٥]



يقول الإنسان الإلهيّ: إنّ هناك وراء ما نراه حقيقة هي أعظم من كلّ ما نشاهده؛ ولولا هذه الحقيقة لما تحقّقت كلّ هذه الظواهر ووُجدت. أمّا الإنسان المادّي فيقول: كلّا، إنّنا لا يمكن أن نعتقد أو أن نتمسّك بأيّ شيءٍ لا نراه بأعيننا؛ كأيّ أثرٍ أو خبر عن الموجود الذي تتحدّثون عنه. فلتبقَ دعوات المادّيّين والإلهيّين، ولنتركها للكتب والأبحاث المختصّة بهذا الجانب.

عقيدتنا هي أنّ المادّيّين في عصرنا هذا - ولا علاقة لنا بديمقراطيّي التاريخ، كديمقريطس[1]، أو فلان العالم المادّي الملحد الآخر الذي عاش قبل عدّة قرون؛ عشرين أو ثلاثين قرنًا، فقد مات وأضحت عظامه رميمًا - منزعجون فكريًّا وساخطون روحيًّا من المذهب الإلهي لذا يدّعون بأنّه لا يوجد إله، ولا حقيقةٌ وراء

(١) ديمقراط أو ذيمقراطيس (٣٧٠-٢٦٠ قبل الميلاد). فيلسوف يوناني شهير - كان يعتقد بأنّ الأشياء تتشكّل من الذرّات التي هي غير قابلة للتجزئة. لم يكن يعتقد بوجود الروح وكان يعدّها مرتبطة بدماغ الإنسان، كان يعتقد أنّ الشّيء الوحيد الموجود في هذا الوجود هو الذرّة والمادّة لهذا يعدّونه من المادّيّين.





هذا العالم. يتفوّهون بمثل هذا الكلام لأنّهم يعتقدون بأنّه لا يمكن تحقيق بناء عالم اليوم، وإدارة البشريّة، واستقرار العدل، والقضاء على التمييز، إلّا في ظلّ نهجٍ فكريٍّ مادّي أو المادّيّة (ماترياليسم)[١]؛ فيديرون ظهورهم لمذهب الإلهيّين من هذا الباب.

ولو أنّنا دقّقنا النظر بالوضع الفكري لأولئك الذين توجّهوا إلى تلك المذاهب في زماننا - قبل ٥٠ سنة أو أكثر إلى يومنا هذا - وطالعنا بشأنهم، لوجدنا أنّ الأمر هو ما ذكرناه. فليس الأمر أنّهم في عنادٍ مع اللّه أو أنّهم لم يمتلكوا استدلالًا فكريًّا مقنعًا على وجود اللّه، وبالتالي رفضوا اللّه أو لم يقبلوا به؛ فالاستدلال على نفي وجود اللّه لم يكن يومًا موجودًا، لا في السابق ولا في الحاضر. إنّكم لن تجدوا شخصًا واحدًا يقول: إنّ اللّه غير موجود بدليل كذا حتّى بين جميع المادّيّين في العالم أنفسهم من اليوم الأوّل وإلى يومنا هذا. بل من يتحدّث في هذا المجال يقول: إنّه لم يثبت لي أنّه موجود ولم أفهم، فلذلك لم أقبل الاستدلال على وجوده. ويشير القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وإلّا فإنّهم لا يستطيعون أن ينفوا وجود اللّه بالدليل؛ كما أنّهم لم يمتلكوا فلسفةً عقليّةً مقبولة بشأن الاتّجاه المادّي أيضًا. ففي الواقع، هذا هو حال كلّ ما يرتبط بالنزعة المادّيّة في زماننا.

إنّ السبب الذي يقف وراء التوجّه لما يُعبّر عنه بالمذهب المادي هو التصوّر بأنّ هذا المذهب هو الذي يمكنه أن يدير

---

(١) ماترياليسم **Materialism** أو المادّيّة هي نحو من الرؤية الكونيّة تنكر كلّ ما هو ما وراء المادّة والمحسوسات، وتعتبر أنّ الوجود مساوقٌ للمادّة.





عالمنا بصورةٍ أفضل في هذا الزمان؛ ويتوقّعون أنّه الأقدر للقضاء على الظلم والتمييز وعدم المساواة، وعلى اقتلاع كلّ أسباب الفشل من جذورها. وهم يقولون إنّ الدين لا يمكنه أن يحقّق هذه الأمور. فلماذا يقولون ذلك؟ لأنّهم في الواقع لا يمتلكون معرفةً واضحةً عن الدين، بمفهومه الشائع والرائج، سوى ما يشاهدونه من الناس في الأزقّة والأسواق وبصورةٍ تقليديّة. وباختصار، هم لا علم ولا إدراك لهم بالدين. ولو سُئلوا: ما هو الدين؟ لجاؤوا بأسماء ترتبط بمجموعة من المظاهر ولأطلقوا عليها اسم الدين؛ ولأنّ تلك الأمور مخدّرة، وهي متوائمة ومتآخية مع الظلم والظالم، ولا تستطيع أن تحلّ العقد[1] - عقد مشاكل الناس - [فإنّهم يقولون] فلنتركها.

ومن الواضح أنّ الإنسان عندما يواجه مثل هذا المنطق، فإنّ أفضل جوابٍ وأكثره صحّة هو أن يقول: أجل، إذا وجدتم دينًا يهادن الظالم ويعين المستبدّ ولا ينصر المظلوم ولو للحظة، ولا يحلّ عقد المشاكل التي يعاني منها الناس، فإنّه في الواقع لن ينفع الناس لا اليوم ولا في الغدّ، ولو مثقال حبّة خردل. فأنت تستطيع أن تتكلّم نيابةً عنّا وبالوكالة، فلو وجدت مثل هذا الدين وأينما وجدته فارفضه ولا تقبله؛ لأنّ هذا الدين لو كان من عند اللّه لما كان كذلك. فالدين الذي أنزله اللّه ليس مزحةً أو جُزافًا بل له خصائص ومشخّصات، وله علامات ثابتة لو طبّقناها كمعيار على أيّ دين فإنّنا نستطيع أن نقبل به أو نرفضه[2].

---

(١) بود آيا كه در ميكده ها بگشايند گره از كار فروبستد ما بگشايند (حافظ).

(٢) سوف يتمّ الحديث عن الموضوع بالتفصيل في بحث النبوّة من هذه السلسلة القرآنية.





يقول اللّه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي البراهين الواضحة، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ التي تمثّل العدّة الفكريّة والوسائل العمليّة؛ تلك الوسائل التي يمكن أن تحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وتقضي بينهم. فلماذا فعلنا ذلك؟ ﴿رُسُلَنَا﴾ تعني أكثر من نبي. فالأمر ليس منحصرًا بموسى أو بخاتم النبيين أو بعيسى، بل جميع الأنبياء قد أُرسلوا لهذا الهدف وبهذا النهج والمقصد. فما هو ذاك الهدف؟ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، عندها يعيش الناس على أساس القسط والعدل؛ هذا هو الدين. فلو رأيتم دينًا يتحرّك في الجهة المقابلة لفلسفة الأديان، فاعلموا أنّه ليس دينًا إلهيًّا أو قد تمّ تحريفه وتخريبه. فلو وجدتموه يسير على خلاف الفلسفة والمنهاج الذي مشى عليه الأنبياء الإلهيّون والرسل، فاعلموا أنّه حتمًا ليس وليد الوحي الإلهي والأنبياء، هذا أمرٌ واضحٌ جدًّا.

فيا أيّها المادّي، يا من تقول: إنّني رأيت الدين عاجزًا عن إدارة المجتمعات البشريّة؛ نسألك: أيّ دينٍ هذا؟ هل هو دين الإسلام؟ الإسلام الأصيل؟ الوحي المحمّديّ؟ منهج الحياة الحكوميّة العلويّة؟ هل وجدت هذه الأمور مخالفةً لإدارة أمور البشر؟ فتعالَ اثبت لنا أين تتنافى معها؟ لقد جاء الإسلام للقضاء على التمييز، وللقضاء على الاختلافات الطبقية التي تُعشعش في ظلّ الاختلافات الطبقية العالميّة، ولإعادة توزيع الثروات التي قُسمّت بغير حقٍّ، وللقضاء على تلك القسمة الضيزى، ولتأمين الفرص المتكافئة والإمكانات المتساوية بين الناس، ولانتزاع الحكومة من أيدي طواغيت البشر وإيداعها بيد القانون الإلهي العادل، وليعزّ الإنسان الذليل الخاضع المستعبَد؛ هذا الإنسان الذي يرتكب الجنايات من أجل كلمةٍ أو جاهٍ أو قطعةٍ معدنيّة. إنّه يريد أن يرتقي بهذا الإنسان المنحطّ





والذليل ويعزّه ويحلّيه بالفضائل الأخلاقيّة والإنسانيّة. لقد جاء الإسلام لتأمين كلّ ذلك في ظلّ نظامٍ عادلٍ ومتقنٍ.

إنّ تربية النبي ليست تربية فرديّة، كأن يأخذ بيد كلّ واحدٍ على حِدة ويجرّه إلى زاويةٍ يجلس فيها ويتلو عليه بعض الأوراد حتّى يستقيم ويصبح إنسانًا. كلّا، الأمر ليس كذلك، والقضيّة ليست في الوعظ، فيجلس النبي ويعظ الناس؛ فمثل هذا الأسلوب لا يستسيغه الناس كالنظام الاجتماعي. لقد قام النبي بإرساء وبناء المجتمع الإسلامي كالفولاذ المحكم ضمن قالبٍ محدّدٍ في تلك البيئة الجاهلية لذلك الزمان، ثمّ استقطب الناس إليه ووضعهم في هذا القالب ليتحرّكوا على هذا الخطّ وفي حدود هذا الصراط، فصار بالإمكان أن يُصنع الإنسان وتتحقّق إنسانيّته في هذه المسيرة. فلو قلت إنّ الدين الإسلامي، بما هو دينٌ واقعي وبهذه الخصوصيّات، ليس منسجمًا مع رقي الإنسان وتحقّق العدالة والأمن وتأمين الاحتياجات الإنسانيّة، فإنّنا عندئذٍ لن نقبل بكلامك، لأنّه إجحافٌ وظلمٌ وبعدٌ عن الإنصاف.

فلو أنّ عالمًا نشأ وترعرع في بيئةٍ مسيحيةٍ مغلَقة، ولم يرَ من المظاهر الدينية سوى تلك المظاهر الكاذبة لشفاعة المسيح، والصفح عن الذنوب، وبيع الصكوك المتعلّقة بأراضي الجنّة، ولو أنّه أعطى لنفسه الحقّ بالحديث عن ذلك الدين؛ فلا يحقّ لك أنت، الذي تعيش بعده بمئة أو ثمانين أو خمسين سنة، وعشت في زمنٍ ظهرت فيه علائم الإسلام وأظهر أجمل وأعزّ المظاهر الإنسانيّة في أفق العالم، أن تتكلّم بمثل هذا الكلام.

أمّا لو كنت تتحدّث عن الأديان الجُزافيّة، والأديان الكاذبة،



والأديان التي ظاهرها جميل وباطنها سيّء، وعن تلك الأديان التي تجرّ الناس في كلّ مكان إلى الخنوع وقبول الظلم والفرقة وقتل الإنسان، والأديان التي تقول للفقير إنّك إذا لم تكن غنيًا ولم تكن تملك المال فلا ينبغي لك أن تعمل من أجل المال، والتي تقول للغني في المقابل أن اعطِ مقدارًا من مالك إلى تلك الكنيسة أو المؤسّسة الدينية الفلانية وسوف تكفّر عن جميع ما ارتكبته من ظلمٍ على طريق تحصيل هذا المال؛ فلو كان قصدك مثل هذا الدين، فنحن أيضًا نشاطرك القول، ونكون بذلك معًا أتباع القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾[1]، فقوله «يأكلون» يشير إلى أنّهم لم يكتفوا بجمع الأموال بل قاموا بالاستيلاء عليها.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ إشارة إلى أنّهم يمنعون الناس من سلوك طريق التكامل والرقيّ. فيا ليتهم اكتفوا بأكل أموال الناس، لا بل صدّوهم عن سبيل الله وعن الصراط. ومثل هذا الدين ليس بالدين الحقّ، وكلّ ما يقابله يكون أفضل منه، وذلك لأنّ بعض اللادينيين أحيانًا لا يكونون معينين للظلمة والظّلم، في حين أنّ مثل ذلك الدين أضحى وسيلةً وعصا وسلاحًا بيد الظالمين.

حسنٌ، كان هذا عرضًا مختصرًا لسلسلة من الكلّيّات في مجال الاعتقاد بالتوحيد على شكل رؤية، بمعنى الإجابة على سؤال: هل أنّ الله موجودٌ أم لا؟ وهل يوجد خبرٌ عن عالم ما وراء هذا العالم المادّي؟ وهل يوجد يد قدرةٍ أم لا؟ وفي مجال الإجابة عن

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.



هذا السؤال قلت: إنّ الإنسان الإلهي يقول كذا، والإنسان المادّي يقول كذا، فلنترك المعركة بين الإلهيّين والمادّيّين للكتب، وأمّا المقدار الذي يرتبط بنا فقد تحدّثنا عنه بكلمتين.

يوجد نكتةٌ مهمّة جدًّا وهي أنّه يجب على الجميع أن يتعرّفوا على مجموعة من المسائل على نحو المقدّمات، وبصورة الكلّيّات، التي تُعدّ ضروريةً للجميع في مجال الفكر الإسلامي، ويفهموها؛ وإحداها هو هذه القضيّة. وأنا أقول: أيّها السادة، عندما تعرضون التوحيد لا تعرضوه بصورة جوابٍ جافّ وساذج على سؤالٍ علميٍ وفكريّ، بل اطرحوه بصورة قضيّةٍ تُعدّ معرفتها مسألةً مصيريّة وحياتيّة. والآن سوف أوضّح الأمر.

قد تكونون سائرين أحيانًا على طريقٍ، وبجانبكم رفيقٌ أو صاحبٌ تتباحثون معه أثناء الطريق؛ فأنت تقول: يا فلان، إنّ الأراضي المحيطة بهذه الجادّة تبدو لي قاحلة وغير قابلة للزراعة؛ أمّا هو فيقول: كلّا، يا عزيزي، إنّ هذه الأراضي على العكس من ذلك تمامًا فهي خصبةٌ ومهيّئةٌ لزراعة المحصول الفلاني. فأنت تقول وهو يقول، وأنت تأتي بدليل وهو يأتي بدليلٍ مقابل. حسنٌ، فما هي أهميّة هذا البحث؟ أنتما على الطريق وسوف تعبران هذه المنطقة، وسيّارتكما تسير بسرعة ١٢٠، فليس المقرّر أن تجلسا الآن لتفحصا تلك التربة، أو أن تشتريا قطعةً من هذه الأراضي وتأتيا لتزرعا فيها الشمندر، وليس المطلوب منكما أن تقدّما تقريرًا بشأن هذه الأراضي، إذن ليس لبحثكما أيّ أثرٍ عليكما. فكلّ ما هنالك أنّ هناك جوابًا على سؤال، وفي مقابله يوجد جوابٌ فقط، ولا شيءٍ آخر. فلو أنّك قلت أو أثبتّ أنّ هذه الأراضي غير قابلة للزراعة، وأثبت هو الأمر المعاكس أي أنّها قابلةٌ لزراعة الشمندر





بصورةٍ رائعة، فإنّ كلّ ما تقولانه وتثبتانه لن يؤدّي إلى أيّ تغييرٍ في مسيركما وعملكما وحركتكما الحاليّة؛ فليست القضيّة بحيث إنّه إذا أثبت أحدكما صحّة رأيه فينبغي أن تبنيا عليه وترجعا. كلّا، فليس ما يهمّكما مثل هذا الأمر، فسواءٌ أثبتت خصوبة هذه الأراضي أم لم تثبت، وسواء قمتما بأداء ركعتين من الصلاة على هذه الأرض الخصبة أم لا، فلا يوجد لكلامكما أيّ أثر. ولو أنّك تفوّقت أنت وأثبتّ كلامك أو غلبك هو وأثبت كلامه، فإنّه لن يكون لذلك أيّ تأثيرٍ على حركتكما في هذا السفر الذي تقومان به، ولا على مستقبلكا وزمالتكما، فهذا نوعٌ من الأبحاث يكون عبارة عن مجرّد أسئلة وأجوبة.

ولكن، قد يحدث أحيانًا أن يكون كلٌّ منكما في السيّارة، وتكون السيّارة سائرة بتلك السرعة على ذلك الطريق، وفجأة يقول زميلك: يبدو لي أنّ هذه الطريق التي نسلكها سوف تأخذ بنا إلى الشمال، في حين أنّ هدفكما هو الوصول إلى الجنوب؛ فتقول أنت: كلّا يا فلان، إنّ هذه الطريق توصلنا إلى الجنوب. فتختلفان وتتعارضان ويبدأ البحث بينكما. فلو أثبت زميلك كلامه، يجب عليكما أن تعودا أدراجكما بهذه السيّارة وأن لا تواصلا السير، ولو أثبتّ أنت كلامك يجب عليكما أن تستمرّا، لا بل ينبغي أن تسرعا أكثر وتتقدّما. فأوّل أثر لمثل هذا الاختلاف والتعارض بينكما سيكون بأن يضغط السائق مباشرةً على المكابح ليعرف إذا ما كان عليه أن يكمل السير أم لا، وهل أنّه سيصل إلى المقصد أم لا. إنّ الإجابة على هذا النوع من الأسئلة والأجوبة والأبحاث والنتيجة الحاصلة منه تكون مصيريّة. إنّ البحث في التوحيد هو على هذه الشاكلة.

إنّ النحو الذي يعرض به الناس العاديون أو العاطلون في هذا



المجتمع والأفراد غير المسؤولين وغير الملتزمين التوحيد يختلف عن ذاك النحو الذي يعرضه الإنسان الملتزم. فالإنسان غير الملتزم وغير المسؤول يعرض التوحيد على نحو هل أنّ اللّه موجودٌ أم لا؛ حسنٌ، إذا كان موجودًا فماذا نفعل؟ وإذا لم يكن [موجودًا] فما العمل؟ وما هو تأثيره على وضع الحياة؟ وما هو التغيير والتبديل الذي يوجده في النظام الاجتماعي؟ وإذا كان اللّه موجودًا فكيف سيكون حال النظام الرأسمالي الفلاني لتلك القوّة العظمى؟ أو تلك القوّة الكبرى؟ ولو كان رئيس الجمهوريّة الذي يدير تلك الدولة معتقدًا باللّه، فكيف يتصرّف؟ وكيف يعمل؟ وإذا لم يكن معتقدًا باللّه، على أيّ نحوٍ يكون عمله؟ فهل ينتفي الفارق؟

إنّ معرفة اللّه وعبادته التي لا يكون لها أيّ تأثيرٍ في قبول أو تمييز أيّ طرفٍ أو في تغيير مصير الكارتيلات[1] والشركات الائتمانيّة[2] والرأسماليّة، إنّ مثل هذه العبادة وهذا الاعتقاد بالتوحيد، يشبه ذاك الاعتقاد بكون تلك الأرض التي نمرّ بها خصبةٌ، فلا فائدة لهما ولا أثر. فما فائدة أن يكون الزعيم السياسي الفلاني لتلك الدولة معتقدًا باللّه، في حين تكون عبادة اللّه بالنسبة له مجرّد جوابٍ على سؤالٍ فكريٍّ جافّ لا أكثر؟! إنّ عبادة اللّه وتوحيده تكون مؤثّرةً ومفيدةً وضروريةً ومصيريّةً بالنسبة لزعيمٍ سياسي أو

---

(١) الكارتيلات هي تلك الشركات التي تنشط في مجالٍ محدّد وتقوم بتقسيم السوق فيما بينها وتحتكر حجم الإنتاج وقيمة الأسعار وحركة السوق.

(٢) الشركات الائتمانيّة عبارة عن اتّحاد لمجموعة من الشركات التي تنتج بضائع مشابهة وفي هذه الشّكة الائتمانيّة تكون حصص كلّ الأعضاء المشاركة منفصلة ومشخّصة لكنّ إمكانات الجميع تكون في خدمة الشّركة الائتمانيّة.






شخصٍ عادي أو مجتمعٍ أو شعبٍ أو جماعةٍ أو حتّى مجموعة، بما يخصّ آثار هذا التوحيد، وبالنسبة لما يترتّب عليه، وبالنسبة إلى النظام الذي يقترحه التوحيد، وبالنسبة لشكل ونمط الحياة وفق التوحيد، وبالنسبة للأشياء التي تترتّب على طرحه وفهمه وإدراكه. إنّ هذه قضيّةٌ مهمّةٌ جدًّا بنظرنا.

نحن نتصوّر التوحيد كأمرٍ ينبغي أن يكون واضحًا ومسلّمًا في أذهاننا، وعندما نصل إلى الحياة لا يبقى لهذا التوحيد من أثرٍ فيها! ولو كان له من أثرٍ، فإنّه يكون في إطار الحياة الشخصيّة، لا على نطاق الحياة الاجتماعية. فسيكون لي نمط العلاقات نفسها مع ذلك الرأسمالي، وتلك السيّارة، وهذه الشركة، وذاك المصنع، وذلك العالم، وتلك الأرض، سواء كنت موحّدًا أو لو لم أكن موحّدًا؛ لأنّ الأمر في مثل هذا التوحيد هو هكذا! فانظروا إلى تلك الدول الرأسماليّة في العالم، وإلى تلك القوى العظمى التي ملأت أسماؤها ودعواتها شرق العالم ومغربه، وانظروا إلى ذينك الرأسماليّين، أو ذينك التاجرين الكبيرين، أو إلى هذين المصنعين الكبيرين، أو إلى شخصين من أباطرة الصناعات بحسب قولهم، وافرضوا أنّ أحدهما يعتقد بالله، والآخر ماديّ؛ فما هو التفاوت والاختلاف بين سلوكيهما؟ فلو أنّ ذاك المعتقد بالله ذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ودفع مبلغًا ضئيلًا من «شاهي»[1] لذاك الراهب السيّء الحظّ التعيس من أجل أن يغفر له بعض ذنوبه وآثامه، وعبّد له في المقابل طريق الجنّة لبضع كيلومترات؛ فماذا سيكون تأثيره

---

(١) وحدة نقديّة تساوي واحد من عشرين من الريال وكانت رائجة في العهد القاجاري وأوائل العهد البهلويّ.



في حياته؟ وفي أوضاع مصنعه؟ وفي علاقاته مع العمّال؟ وفي روابطه مع الناس؟ وما هو التأثير لكيفيّة ادّخاره للثروة وتكديسها وإنفاقها وجمعها؟ إنّ هذا التوحيد لا يختلف عن الشرك كثيرًا.

إنّ التوحيد الذي يدعو إليه الإسلام هو التوحيد الذي يسمو عن كونه مجرّد جوابٍ على سؤالٍ أو استفهام. فما هو إذن؟ إنّ التوحيد الإسلامي هو إلهامٌ في مجال الحكومة وفي مجال العلاقات الاجتماعية، وفي مجال مسير المجتمع، وفي مجال الأهداف الاجتماعية، وفي مجال تكاليف الناس، وفي مجال المسؤوليّات التي يحملها الناس فيما بينهم تجاه اللّه وتجاه المجتمع وفي مقابل الظواهر الأخرى للعالم. التوحيد الإسلامي هو تلك الألف التي يأتي بعدها باء، ومن ثمّ جيم، ومن ثمّ دال، إلى آخر الحروف الأبجديّة. فالتوحيد لا ينحصر بأن تقول بأنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين وتنتهي القضيّة. «إنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين» يعني أنّه لا حقّ لأحدٍ بأن يأمرك سوى اللّه في كلّ نطاق وجودك الشخصي والاجتماعي بالعموم.

«إنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين» يعني أنّ كلّ ما لديك من ثروةٍ وكلّ البشر الآخرين هم للّه، فأنتم لستم سوى مستودع وحملة الأمانة لا أكثر. فمن هو الذي يكون مستعدًّا الآن ليكون موحّدًا؟ أنتم حملة الودائع الماليّة لا غير، أنتم مستأمنون. فلو كنت يا صاحب الجناب العالي تحمل مالًا كأمانةٍ من رفيقك، فماذا تفعل؟ لا شكّ أنّك ستنتظره لكي يأخذه. يا فلان، اعطِ عشر تومانات من هذا المال لذاك الصبي، ولهذا العجوز، ولذاك الغريب، ولذلك القريب، وأودع عشر تومانات من هذا المال في الصندوق الفلاني، وأحرق عشر تومانات منه من الأساس؛ فأنت تنتظر إمضاء صاحب المال



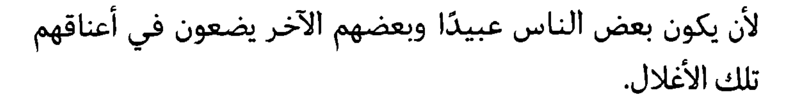


فقط، وهل يوجد شيءٌ آخر غيره؟ فهل ترى لنفسك حقًّا أو مالكيّةً لهذا المال الذي وُضع بيدك كأمانةٍ ووديعة؟ المال مال اللّه جعله ودائع عند الناس. هذه هي مستلزمات التوحيد.

لو كنت تؤمن بالتوحيد، فلا معنى عندها لأيّ نوعٍ من الاختلاف الطبقي والتمييز، كلّ ذلك ينبغي أن ينتفي. ذلك المجتمع الذي يوجد فيه الشبعان والجائع والعالي والداني، هو ليس مجتمعًا توحيديًا. إنّ مستلزمات التوحيد أنّكم جميعًا من آدم وآدم من تراب، وأنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم فقط. وكلّ من كان أكثر رعايةً لأوامر اللّه هو الأعلى. أمّا ذاك المجتمع الذي يوجد فيه آلاف الأسباب التي تؤدّي إلى التمييز - أنت تقول: يا فلان إنّ ذلك الشخص هو هكذا، يقول: حسنٌ، إنّ فلان من النبلاء ويطيح بكلّ شيء. فذاك المجتمع الذي ينقسم إلى نبلاء وغيرهم، وفي ذاك المجتمع الذي تختلف فيه معاملات الناس فيما بينها بشدّة، ويعدّ بعض الأشخاص ذلك حقًّا لهم، وفي ذاك المجتمع الذي لا يوزن عباد اللّه جميعًا بميزانٍ واحد ويكون بعضهم عبيدًا للبعض الآخر؛ فمثل هذا المجتمع لا يكون مجتمعًا توحيديًا. فعندما يحلّ التوحيد في مجتمع ما، فإنّه يعامل جميع عباد اللّه وفق ميزانٍ واحد، فماذا يعني هذا؟ إنّه يعني أنّ الجميع يصبحون عبيدًا للّه كما أسلفنا ذكره.

إنّ موجودات العالم من الإنسان وغيره، كلّهم عبادٌ خاضعون للّه؛ الكلّ شريكٌ وبنفس المستوى من ناحية العبوديّة للّه. وقد فصّلنا سابقًا في هذا الأمر، وقلنا إنّه لا يوجد أيّ شيءٍ أو أيّ شخصٍ يخرج عن دائرة العبوديّة للّه تحت عنوان البنوّة أو الزوجيّة أو النديّة. عندها، وعلى أساس دائرة العبوديّة لا يعود هناك أيّ معنًى





لأن يكون بعض الناس عبيدًا وبعضهم الآخر يضعون في أعناقهم تلك الأغلال.

إنّ العبوديّة للّه هي التحرّر من العبوديّة لغير اللّه؛ فهذان الأمران لا ينسجمان فيما بينهما من الأساس. ولا معنى أن يكون شخصٌ عبدًا للّه وفي نفس الوقت عبدًا لغيره تعالى.

يأتي مبعوث جيش الإسلام(١) ويدخل ذلك القصر المهيب للساسانيّين. تصوّروا كيف سيكون عربيٌّ بلباس عسكري من رأسه إلى أخمص قدميه؟! لعلّه من هذه الجهة لن يساوي تومانًا واحدًا، ثمّ يدخل قصر ذاك الذي بدأ بالفرار من جيش المسلمين الصالحين الذي كان يتعقّبه، وفي صحبته أكثر من ألف جارية مغنّية إلى جانب أشياء كثيرة أخرى، فعدد المطربات اللاتي كنّ بصحبته بلغن ألفًا! وكيف سيكون وضعه في الحضر إذا كان الأمر كذلك في السفر؟! سفر الفرار والهروب، سفرٌ لأجل النجاة بالنفس. فيا سيّء الحظّ إلى أين تأخذ المطربات معك؟! خذ سيفك، وأظن أنّ هؤلاء الساسانيّين كانوا تحت استعمار اليهود أو كانوا كاليهود أيضًا! هذه من خصائص سياسات الصهيونيّة المشؤومة المنحطّة التي تشغل الناس بالملاهي وبتلك الأغاني والأجواء الصاخبة وتحت أسماءٍ مختلفة.

يدخل ذلك الرجل بردائه البالي بلاط؛ تلك القدرة السياسية العظيمة. فهل أنّه شعر بالخوف؟ وهل تظنّون أنّه ارتعب؟ أو تردّد في أفكاره؟ أبدًا. أيّ إنسان حقيرٍ وصغيرٍ عندما يكون في مقابل

---

(١) مبعوث جيش الإسلام هو ربعي بن عامر.



أيّة قدرةٍ عظيمةٍ فإنّه يكون مستعدًّا لأن تكون همّته عالية عسى أن يتمكّن من أن يوصل نفسه أو يتّصل بتلك القدرة العظيمة ولو بمقدار ذرّة، وأن يتقرّب منها ولو خطوة، وإن اقتضى الأمر التملّق وإظهار الخوف والعبوديّة؛ فهل تظّنون أنّ مثل هذا الأمر حدث لهذا الرجل؟! أبدًا. يُقال إنّه عندما تقدّم من العرش، وضع قدمه على عرش يزدجرد أيضًا لأنّ يزدجرد لم يأتِ لأخذ تلك الورقة منه. ولمّا لم يقم السلطان من مكانه ليأخذ الورقة من هذا العربي، اضطرّ هذا العربي لأن يتقدّم؛ فتقدّم حتّى وصل إلى عرشه وأعطاه الورقة، مثلًا. فقال له: لأيّ شيءٍ جئت إلى هنا؟ فذكر له ثلاث جمل - ينبغي لهذه الجمل الثلاث أن تُكتب بخطٍّ ساطع على لوحٍ ويثبّت هذا اللوح على قصر الإنسانيّة العظيم لكي يعرف الجميع ما هو شعار الإسلام ونهجه - قال: إنّنا جئنا لنخرج الناس - بالتأكيد كان هذا في سياق كلام، لكن هذه الجمل الثلاث هي مورد نظرنا - من عبادة العباد إلى عبادة اللّه.

فما هي عبادة العباد؟ إنّ العبوديّة للعباد هي هذه: عندما يأتي ذلك الرجل العجوز وأثناء تعبئة إيران والروم للجيوش، وبعد أن يصدر أحد سلاطين إيران الماضين - قبل الساسانيّين - من الهخامنشيّين أمرًا بأنّ على الجميع أن يأتوا، يأتي ذلك العجوز ويقول: يا فلان، إنّ لديّ ثلاثة أولاد مستعدّون لأن يأتوا إليكم ويشاركوكم القتال، ولكن اتركوا لي هذا الولد لأنّني عجوز ولم أعد قادرًا على العمل، فابقوه لي لكي يخدمني. فلا يجيبونه بشيء ويخرجونه من المجلس. وفي اليوم التالي، وبعد أن أصبح الكلّ في حالٍ من الجهوزيّة والاصطفاف ويريد الجيش أن يتحرّك، يتفاجأ الإخوة الثلاثة عندما يصلون إلى باب القلعة برؤية أخيهم



الرابع وقد قُطّع قطعتين، وُضعت قطعة منه في هذا الجانب من القلعة، والقطعة الأخرى في ذاك الجانب لكي لا يقول العجائز لبعض أبنائهم أن لا يأتوا ويحاربوا لمصلحة سلطة داريوش أو يقتلوا أنفسهم من أجله. هذه هي العبوديّة للإنسان.

عندما لا يكون للناس في مجتمعٍ ما الحقّ في المطالبة بما يريدون، بل ليس لديهم الحقّ بأن يطالبوا بالعدالة وبأن يعادوا التمييز في مجتمعٍ ما؛ ولا أن يطلبوا لأنفسهم الحرّيّة ويحبّونها؛ وعندما يقبلون بالقمع والكبت كوضعٍ طبيعي ويعتبرونه سليمًا، عندها يعيش الناس في مثل هذا المجتمع، فهذا يُعدّ من أسوأ وأبشع وأمرّ أنواع العبوديّة. لماذا نعدّ هذا الأمر من أسوأ أنواع العبوديّة؟ لأنّها خادعة. أولئك الذين كانوا يذهبون ويأسرون مجموعة من الأبرياء في المنطقة الفلانية ويحلقون رؤوسهم ويبيعونهم في بلادٍ أخرى، فهؤلاء كانوا يقومون بعملٍ علنيٍّ سافرٍ؛ أمّا أن يتلاعبوا مع الناس بهذه الطّريقة ويهملوا هذا النوع من الفكر والمطالب والإرادة والعزم في الناس ويدوسوا عليها جميعا؛ فهذا أمرٌ آخر.

قال: لقد جئنا لنخرجكم من عبادة العبيد، وهو يقصد الناس؛ أي يا يزدجرد نخرج الناس من عبادتك، ونخلّص الآخرين من عبادة ولاتك وقادتك والإقطاعيّين، ومن عبادة العباد في كلّ زاوية. فإلى أين تأخذهم؟ وعندما لا تعود العبوديّة لك، فكيف سيكون الوضع؟ هل سيكون الأمر على وجه التحرّر والانعتاق من كلّ قيد؟ كلّا؛ هناك العبوديّة للّه، وهي تعني الحريّة والسيادة والارتقاء في مدارج الكمال، والاستفادة مهما أمكن من إمكانات التكامل، كلٌّ بحسب ما يريد؛ هذا هو النحو الذي ينبغي أن يكون عليه المجتمع الإسلامي. ففيه، يكون الناس عبيدًا للّه لا للقوى المختلفة. حتّى





في ذاك الزمن الذي انحرفت فيه مسيرة المجتمع الإسلامي ولم يبقَ الإسلام الصافي، كان الأمر كذلك، وفي تلك السنوات التي تمّ فيها فتح إيران كانت آثار التربية النبوية والقرآنية موجودةً بين الناس. لقد كان هناك حاكمٌ سياسي يقف على المنبر ويقول: لو أنّني انحرفت فقوّموني؛ ويرتقي عربيٌ من البادية المنبر ويقول: لو أنّك أيّها الحاكم انحرفت ولم تستقم، فإنّني سوف أقوّمك بسيفي هذا. فهل انهال الجنود والشرطة عليه؟ وهل وضعوه في السجن بحجّة الإخلال بالنظام، أو قضوا عليه، أو أعدموه؟ أبدًا. لقد قال كلامًا صحيحًا ومنطقيًّا. فالحريّة لا تعني إطلاق العنان. إنّها تعني اتّباع القانون الإنساني الصحيح الذي لا يحمل على أرواح الناس في ذلك النظام وفي ذلك المجتمع أيّ حملٍ حتّى حمل الحاكم. فإذا نطق الحاكم بكلامٍ من جانب اللّه وبإلهامٍ منه فهو حاكمٌ إسلامي، فيكون كلامه مقبولًا. وإذا لم يكن كلامه بإلهامٍ من اللّه فيكون مردودًا.

«لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[١]. الجملة الثانية ترتبط بضيق الدنيا ومحدوديّتها، بالمجتمع الذي لا يعيش فيه الناس وفق رؤيةٍ صحيحة، فأينما جالوا بأبصارهم لا يرون سوى الدنيا والمنافع الدنيوية، وأينما نظروا لا يُعرض عليهم سوى الملذّات الدنيوية والأماني الدنيوية، وأينما اتجّهوا لا يرون سوى تلك المساعي الحيوانيّة الحقيرة والمصالح المنحطّة والآنيّة الزائلة. لم يكن الناس في ذلك المجتمع الذي يحكمه يزدجرد ويتسلّط فيه على الناس، راضين عن يزدجرد،

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق وتدقيق علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م)، الجزء ٧، الصفحة ٤٦.



بل أكثرهم كانوا على عكس ذلك. فحتّى أولئك الذين لم يكونوا راضين - فلأنّ أبصارهم كانت محدودة وضيّقة الأفق؛ ولأنّهم كانوا يرون أنّهم لو أظهروا القليل من عدم الرضا أو الانزعاج من يزدجرد، فإنّهم سيُسلبون تلك الحياة الزائلة الفانية الحقيرة وسيُسلبون لقمة العيش ولن يبقى لهم أن يعيشوا يومًا أو يومين في راحةٍ؛ ومن أجل أن يمشوا في الأزقّة والشوارع خطوتين إضافيّتين، ولأنّهم كانوا يرون أهميّةً كبيرةً لمثل هذه الأمور المنحطّة، ولأنّهم كانوا يحبّونها حبًّا جمًّا، فإنّهم لم يكونوا مستعدّين للقيام بأيّ عملٍ من أجل [نيل] حريّتهم وشرفهم وأصالتهم وكرامتهم الإنسانيّة. ما هو سبب ذلك؟ إنّه ضيق الأفق والنظرة المحدودة، أي ضيق الدنيا.

أمّا عندما يصبح الإنسان مسلمًا، فإنّ كلّ شيءٍ يصبح بالنسبة له مقدّمة ووسيلة. فلأجل أيّ شيء؟ ووسيلة لأيّ شيء؟ وسيلة للوصول إلى ذلك العالم الواسع - لا أقول عالم ما بعد الموت - فإنّ عالم الفكر والتصوّر والرؤية للإنسان هو وسيعٌ بسعة اللّه. عندها، كلّ شيءٍ يصبح وسيلة للإنسان كي يتمكّن من الوصول إلى رضا اللّه ونوائله. فالحياة الدنيا ومالها وراحتها وكلّ المحبوبات الدنيوية ليس لها قيمةٌ وأصالة؛ وإنّما يصبح لها قيمة عندما تكون في سبيل اللّه. أمّا إذا لم تكن كلّ هذه المحبّة والمقام والحياة والأبناء والشأنيّة والحيثيّة في سبيل اللّه وفي سبيل القيام بالوظيفة، فلن تكون بالنسبة له ذات قيمة أو أهمّيّة. فالدنيا والآخرة بحسب الفكر الإسلامي متّصلتين، وبالنسبة للإنسان المسلم لا تكون الدنيا هي النهاية. وبنظر ذاك الذي جعل نفسه عبدًا للعباد ولبعض الكائنات الناقصة، فإنّ الدنيا تكون محدودة. أمّا بالنسبة للمسلم الحقيقي فإنّ الدنيا واسعة، ويكون الموت قنطرةً وجسرًا ونافذةً إذا نظر منها،





فسيرى في الجانب الآخر الجنّات والبساتين والعوالم. لهذا، يرى أنّ ما فوقه هو هذه الأمور، وما عليه سوى أن يصل إلى هذا المِعبر ويعبره، وعندها لا يكون الموت بالنسبة له أمرًا معضلًا. إنّ هذه الأمور التي ذكرناه كانت بعض تجلّيات التوحيد وزواياه. وبالتأكيد، كان ينبغي الحديث بشأن التوحيد بصورةٍ أكثر تنظيمًا وضمن عنوانٍ أكثر تحديدًا؛ وإن شاء اللّه سنتحدّث عنها لاحقًا.

كانت هذه في الحقيقة نظرةٍ جديدة في مجال التوحيد يتمّ عرضها، وهي تبيّن رؤيةً صحيحةً في مجال التوحيد. وبالطبع، هناك المزيد من الأبعاد والزوايا التي لم تُدرج هنا وأملنا أن نتمكّن من تنظيمها وإدراجها في الأوراق الآتية إن شاء اللّه. ولكن، على كلّ حال، ما دُوّن هنا هو أحد أبعاد التوحيد الذي يعكس ويبيّن بصورةٍ دقيقةٍ ما يرتبط بالتوحيد المرجوّ، والتوحيد الذي هو مورد نظر الأديان والقرآن بالخصوص.

وأمّا الآيات التي أخذناها بعين الاعتبار وإنّ تكرار آية الكرسي هو أمرٌ ملفتٌ جدًّا كعنوانٍ لشعار التوحيد، حيث أحتمل أنّ السبب وراء كلّ هذا التأكيد على تكرار قراءة آية الكرسي في العديد من الموارد هو من أجل أن يبقى هذا الذكر حيًّا قيّومًا في ذهن الإنسان.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾[١]، فهؤلاء اتّخذوا من غير اللّه أشخاصًا منافسين ورقباء فاختاروا للّه شركاء من جنس البشر أو غيرهم. ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[٢]، وهنا بالذات تفتح هذه

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.



الآية قوسين، فهي لا تتحدّث عن المحبّة ولكن بما أنّ الحديث عن محبّة هؤلاء بلحاظ محبّة اللّه، فكأنّها فتحت قوسين كجملةٍ معترضة، فتقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[1]. فاللّه بالنسبة للمؤمن هو أكثر محبوبيّةً من كلّ هذه المظاهر، ومن كلّ هذه الأقطاب التي تجذب قلب الإنسان كالمغناطيس، ومن كلّ هذه الآلهة الكاذبة من آلهة النفس والشهوة التي تدعو الإنسان إلى الاقتناص، ومن تلك الآلهة التي اعتلت المناصب الاجتماعية واحتلّت مقاماتها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[2]. ينتقل فجأةً للحديث عن ساحة القيامة؛ عن ذلك الوقت الذي يُجمع فيه الخلائق ويُحشرون، من الكفّار وأهل السوء والذين عبدوا غير اللّه بالإضافة إلى عباد اللّه. فكلّ الظواهر الموجودة في القيامة، ما بُيّن لنا منها وما لم يُبيّن، كلّ ذلك يُجمع، وتكون أسباب العذاب الإلهي والرحمة واللطف الإلهيّين أيضًا. أمّا كيفيّة هذه الأسباب، فأنا وأنتم، لا يمكننا لحدّ الآن أن ندركها أو نتصوّرها، يصعب في هذه الدنيا فهمها [ومعرفة] ما هي حقيقة خبرها؛ لكنّنا نعلم ذلك على نحوٍ كلّي فندرك أنّ هناك أسبابًا للعذاب وللخزي والكلّ حاضرٌ وجاهزٌ. فعبيد اللّه الصالحون، وعبيد اللّه السيّئون موجودون هناك جميعًا. ثمّ يرى الظالمون فجأةً أنّ كلّ القوّة والقدرة في القيامة هي للّه. وكم هو أمرٌ مدهشٌ وعجيب.

غاية الأمر، أنتم تنظرون إلى هذه الدنيا الآن، ولكلّ إنسانٍ قدرة، ولكلّ إنسانٍ فعل؛ والذين يتبوّؤون المناصب العليا قدرتهم

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.





أعلى، ولكن حتّى الذين يقعون في أسفل القائمة لهم قدرةٌ أيضًا، والكلّ معجبون بقدرتهم، وكلّ من لديه درجة أو شيء من القدرة، فإنّه يرى لنفسه تأثيرًا في النهاية، خصوصًا ذلك الظالم الذي يكون فعله أكبر وقدرته أعلى. فذاك الظالم الذي قام بتلك العبادة الظالمة - فهو أيضًا ظالمٌ - فإنّه كان يظنّ بحسب خياله أنّ [عبادته تلك] نابعةٌ من قدرةٍ لأنّه ارتبط بقدرةٍ أعلى، مثل ذلك الثعلب الذي ربط ذيله بذيل الجمل. هكذا يكون الأمر في الدنيا. أمّا يوم القيامة، عندما يجتمع الكلّ، فأينما نظروا، وعندما يرجع كلّ إنسانٍ إلى نفسه، فإنّه لن يجد أيّة قدرة وأيّة حيثيّة في نفسه، فالقدرة والقوّة كلّها للّه، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]. فعندما يرى الظالم مثل هذا المشهد سيقول - سواء كان يظلم غيره أو يظلم نفسه أو جعل نفسه عبدًا لذلك الظالم - عندما ينظر فإنّه سيقول ما أعجب هذا الأمر! هنا، فإنّ كلّ هذه الادّعاءات وكلّ هذه المفاخر والقصور وأنواع الحياة كلّها ستكون هباءً وسرابا، ولن يكون لأيّ أحدٍ أيّة قدرة على التأثير.

عندها سيكون المشهد مشهدًا عجيبًا. افترضوا جماعتين؛ الأولى تعبد الجماعة الأخرى وتطيعها دون قيدٍ أو شرط، ثمّ يأتي يوم القيامة وتتواجهان ويبدأ الخصام والنزاع بينهما، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾[2] - ولقد أوضحنا أنّ هذا الظلم هو عبارة عن العبوديّة لغير اللّه، وقد اتّبعنا في هذا البيان كلام بعض المفسّرين الشيعة القدماء - فعندما يرون أنّهم قد ظُلموا باتّباعهم

---

(١) سورة **غافر**، الآية ١٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.





وعبوديّتهم لغير اللّه، ويشاهدون هذا العذاب، فماذا سيرون؟ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

كلّ ذلك يرجع إلى اللّه، وإنّ اللّه شديد العذاب. فلو كانوا يرون، ماذا كان سيحدث؟ إنّ جوابه مقدّرٌ، ولا شكّ أنّهم سيندمون على أفعالهم ويندمون على ما جنوا في هذه الدنيا واحتطبوا فيها بجعلهم أنفسهم عبيدًا للظالمين. لقد صار حالهم على هذه الوخامة والذلّة يوم القيامة، ولم يعد بإمكانهم أن يفعلوا أيّ شيء. ولو نظروا بعين الاعتبار لرأوا أنّهم كانوا في الدنيا كذلك. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾[1] فالزعماء ساعتئذٍ سيرفضون أتباعهم ويتبرّؤون منهم، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، عندها مثلًا سيقول يزدجرد: إلهي إنّني أتبرأ من أولئك الذين كنت تراهم يعبدونني في زماني، فلا تتصوّر أنّني أحبّهم لأنّهم جعلوني شريكًا لك، لقد أخطأوا عندما جعلوني كذلك وأنا أتبرّأ منهم. فتأمّلوا الآن كيف سيكون حال رعيّة يزدجرد وأيّ درجةٍ من حرقة القلب والندامة سيبلغون! حيث ضحّوا بدنياهم وآخرتهم من أجل هذا الحقير، وها هو الآن يتبرّأ منهم. فماذا تقول الآية القرآنية ها هنا؟

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، فهناك تنتفي العلائق والروابط، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾، فيتمنّون لو أنّهم يرجعون إلى الدنيا لكي يتبرّؤوا من زعمائهم كما يفعل هؤلاء الزعماء يوم القيامة، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

---

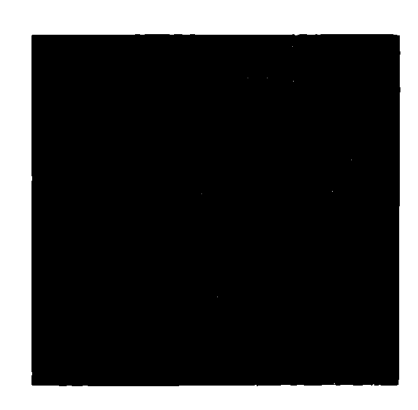
(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٦.

يوجد في هذا المورد مطلبٌ آخر يُستفاد من هذه الآية وهو أنّ أولئك يرزحون تحت نير العبوديّة لغير اللّه، ويعانون بسبب هذه العبوديّة، أي بسبب غير التوحيد ومعاداة التوحيد، مع أنّ القرآن يعبّر عنهم بقوله ﴿ٱتَّبَعُواْ﴾.

الجلسة العاشرة

العبادة والطاعة المنحصرة بالله

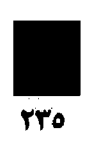
السبت، ١١ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرّحيم

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

[سورة يونس، الآيتان ٣٠ و٣١]





إنّ بحث التوحيد في القرآن هو بحثٌ واسعٌ جدًّا ومفصّل. ويمكن القول أيضًا إنّه من أكثر الأبحاث طولًا واتّساعًا وتفصيلًا والتي يمكن مشاهدتها في كلّ القرآن؛ حتّى بحث النبوّة وبالرغم من كلّ هذا الاتّساع والامتداد الذي فيه، ومع ما في ذلك من قصصٍ وقضايا نُقلت حول الأنبياء كعِبر في شتّى الموارد، فإنّ التركيز على التوحيد وقضيّة وجود اللّه - لا سيّما ما يتعلّق بنفي الشرك وبأساليبِ وصورٍ بشتّى - لا مثيل له ولا شبيه في كلّ القرآن؛ سواءٌ كان ذلك من ناحية أسلوب الحديث أو من ناحية عدد الآيات. أمّا من ناحية اتّساع البحث وتشعّباته، فإنّ القضايا التي ترتبط بالتوحيد هي الأكثر والأوفر. ويمكننا أن نعرض عدّة قضايا في هذا المجال بالاستشهاد بالآيات القرآنية، ولا يمكن طرح جميع القضايا فيما يتعلّق بالتوحيد، وبحثها.

ويبدو أنّنا إذا قبلنا أنّ التوحيد، إلى جانب أنّه تصوّر ورؤية للواقع والواقعية، وإلى جانب أنّه معرفةٌ منتجةٌ للعمل وبانيةٌ للحياة، هو عقيدةٌ تتضمّن الالتزام والمسؤوليّة، فيجب أن نبحث عن هذا الالتزام وهذه المسؤوليّات المنطوية والمندرجة في قلب التوحيد.





ومن ثّم نجعل كلًّا منها على صورة مادّةٍ مادّة، وجملةٍ جملة، وفصلٍ فصل، وكلًّا منها تحت عنوان، بعدها نقوم بتتبّعها في القرآن أو في مجموع المصادر الإسلامية، أي القرآن والحديث واستقصائها.

فلو كان من المقرّر أن يكون التوحيد عقيدةً تستتبع التزامًا ومسؤوليّةً وتكليفًا بالنسبة للمعتقِد بها، فيلزم أن يتعرّف على هذه المسؤوليّات والالتزامات والتكاليف في نهاية المطاف، ويفهم ماهيّتها. فهل يمكن اختصار هذا الالتزام في مثل هذا الأمر: وهو أن نقبل هذه العقيدة بلساننا أو بقلوبنا أو بفكرنا؟ أي هل إنّ هذا الاعتقاد نفسه هو مسؤوليّة، أم أنّه يتعدّى نطاق الفكر والقلب وحدود هذه المسؤوليّة فيستلزم سلسلة من التكاليف المتناسبة مع ما يقتضيه التوحيد، تطال بدورها الأعمال الشخصيّة للموحِّد مثلًا؛ فيكون من جملة ذلك الصلاة أو أن يأتي على ذكر اللّه في بداية ونهاية كلّ عملٍ يريد أن يقوم به، ويكون من جملتها إذا أراد أن يذبح خروفًا أن يذكر اسم اللّه عليه، وأشياء من هذا القبيل.

وهل يمكن اختصار [الالتزام] بهذه الحدود وهذا النطاق أم لا؟ أم أنّ الالتزام الذي يضعه التوحيد على الفرد أو المجتمع الموحِّد يتعدّى التكاليف الشخصيّة والفرديّة؟ فيشمل هذا الالتزام الذي يلقيه التوحيد على أيّ مجتمعٍ موحّد أهمّ وأولى وأشمل وأكبر قضايا المجتمع؛ مثل أيّ شيء؟ مثل الحكومة والاقتصاد والعلاقات الدوليّة، ومثل علاقات الأفراد فيما بينهم، والتي تشكّل جميعها الحقوق الأساسية وأبرزها فيما يتعلّق بإدارة أيّ مجتمع وحياته. نحن نعتقد أنّ الالتزام التوحيدي والمسؤوليّة التي يلقيها التوحيد على عاتق الموحّد هي في نطاق المسؤوليّات والتكاليف الأساسية والحقوق الرئيسيّة لأيّ مجتمع.



وبكلمةٍ واحدةٍ نقول: إنّ هيئة وقوام المجتمع التوحيدي يتباين مع هيئة وقوام المجتمع غير التوحيدي. فالأمر ليس على نحوٍ واحد بين المجتمع التوحيدي الذي يريد أن يطبّق قانونًا أو عشرة قوانين مثله، وبين مجتمع غير توحيدي إذا قام هذا المجتمع بتطبيق هذه القوانين، فيصبح بذلك مجتمعا توحيديًا؛ كلّا. إنّ شاكلة وهيئة المجتمع التوحيدي، وتشكّل أجزاء هذا المجتمع، والقوام الاجتماعي العامّ الذي يتحقّق على أساس التوحيد بشكله العبادي والتوجّهيّ، يختلف تمامًا عن غيره من المجتمعات؛ وهو ما يُعبّر عنه اليوم بكلمةٍ واحدة: النظام الاجتماعي.

فالنظام والشكل الاجتماعي للمجتمع التوحيدي يغاير ويباين المجتمع غير التوحيدي بصورة تامّة، لا بل يمكن أن يكون أحيانًا على تعارض وتضادّ معه. فبجملةٍ واحدة يكون الأمر هكذا. فلو أنّكم سبرتم أغوار هذه الكلمة، ستجدون في قلب النظم الاجتماعية والشاكلة والهيئة الاجتماعية كلمات وأبحاث، يمكن إدراكها وفهمها بالاستمداد من الثقافات الجديدة والمعاصرة الرائجة في العالم، ويمكن ذلك أيضًا وعلى نحوٍ أفضل بالاستمداد من القرآن والمصادر الحديثيّة؛ هذا هو الشكل الكلّي للمطلب.

أمّا إذا أردنا أن نعرض الأمر على نحوٍ جزئي وأكثر تشخيصًا وخصوصيّة، فإنّنا نعرض التوحيد بصورة دستورٍ أو قانون يحتوي على مواد مختلفة ونقوم ببيان هذه المواد واحدةً واحدةً. فما هي مواد الدستور التوحيدي؟ ومثلما يحدث بعد المفاوضات المختلفة بين جماعتين أو جبهتين أو شخصين، حيث تصدر مقرّرات على شكل معاهدة تكون ملزمة لهما؛ فإنّ الموحّدين في هذا العالم ملزمون من جانب ربّهم، ربّ التوحيد، بتطبيق هذه المعاهدة





والعمل بها وتنفيذها. وبناءً على أصل التوحيد، فإنّه لا يحقّ للناس ولا لأيّ شخصٍ أو موجود أن يعبد غير اللّه أو يطيعه، فهذا هو الأصل الأوّل في المعاهدة التوحيدية. وعندما قلنا أيّ شخصٍ أو أيّ شيء، فذلك لأنّ حدود الأمر ونطاقه واسعٌ جدًّا. فانظروا وتأمّلوا أين تصدق العبوديّة والطاعة.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، لقد تمّ توضيح معنى العبوديّة للشيطان ضمن الأبحاث السابقة المختلفة عند الحديث عن الشيطان. فالشيطان ليس عبارة عن جناب إبليس أو ذاك الشيء الخفي والمستور الذي لا يمكن رؤيته بالعين أو لمسه باليد، بل يمكن أن يوجد في جميع أنحاء حياة البشر، وهو ليس منحصرًا بالشيطان [نفسه].

الشيطان هو مسألة واسعة ومفهومٌ عامّ. هو تلك القوى الشرّيرة التي تكون خارج وجود الإنسان، والتي يكون لها الدافع والفعل والتأثير. فالقوى التي توجد الشرّ هي ما يمكن أن يُقال عنه شيطان، لكنّها تكون قوى خارجة عن نطاق وجود الإنسان نفسه. وكما أنّه إذا أردنا أن نعرّف النفس - التي هي قرين الشيطان وعبد الشيطان وآلةٌ بيد الشيطان وفعله - يمكننا أن نعرّفها على هذا النحو: إنّها القوى الباطنيّة للإنسان التي توجد الشرّ وتدفعه نحوه. فكلٌّ من النفس الأمّارة والشيطان عبارة عن تلك القوى التي تؤدّي إلى الفساد وتوجد الشرّ، وهي القوى التي تؤدّي إلى الانحراف والانحطاط. غاية الأمر أنّ أحدهما داخلي والآخر خارجي. فالشيطان هو كلّ شيءٍ خارج وجودك يوجد العقبات على طريقك، ويخلق الشرّ ويشعله ويوجد الموانع والأشواك؛ وهو ذاك السبع وقاطع الطريق، أو أيّ شيء يؤدّي إلى وجود هذا الذئب المفترس وقاطع





الطريق، هذا هو الشيطان.

إنّ جميع الأنبياء الذين بُعثوا من جانب اللّه كان لهم أعداء من شياطين الجنّ والإنس. وبالطبع، سوف نشخّص ونحدّد هؤلاء الأعداء وماهيّتهم وشاكلتهم ومن أيّ طبقاتٍ وجماعاتٍ كانوا ولماذا أظهروا مثل تلك العداوة، فالشيطان هو ذاك المفهوم العامّ. ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾، ماذا تعني؟ لا تعبدوا ولا تطيعوا ولا تخضعوا لتلك القوى التي توجد الشرّ. فعندما نقول إنّ التوحيد يعني ذلك، لا بمعنى أنّ هذا هو التوحيد كلّه، كّلا. فإنّ رقائق ودقائق التوحيد تبقى في مكانها ومقامها. أمّا تفريعات وهياكل التوحيد الأخرى فتمثّل هيكلًا أو جسمًا أو مظهرًا لأساس التوحيد: عدم الطاعة وعدم العبوديّة وعدم الإذعان لما يتمّ فرضه.

نُقل عن الإمام [الصادق] عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في كتبنا المعتبرة، ومنها أصول الكافي الشريف، وتحت عنوان حديثٍ قدسيّ، وذلك بصيغ وعباراتٍ مختلفة، ويبدو أنّ ما بقي منه ويمثّل أكثر العبارات قربًا وتفصيلًا هي هذه:

«لأعذّبنّ كلّ رعيّةٍ في الإسلام دَانَتْ بِولاية كلّ إِمَامٍ جائرٍ لَيْسَ مِنَ اللّه، وَإِنْ كَانَتْ الرعيّة فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً؛ ولأعفونّ عن كلّ رعيّةٍ في الإسلام دَانَتْ بِولاية كلّ إِمَامٍ عادلٍ مِنَ اللّه وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً»[1].

فإنّ إطاعة السلطة التي لا تكون من جانب اللّه وتمثّل اللّه،

---

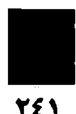
(١) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ١، الصفحة ٣٧٦.






أو هذا المركز والدائرة التي لم تنبع سلطتها من جانب اللّه، تُعدّ على حدّ الشرك أو الشرك نفسه. فالناس الذين يفعلون ذلك وقد ابتُلوا بمثل هذا الداء والبلاء، وإن كانوا في أعمالهم الشخصيّة أشخاصًا منظّمين ومرتّبين، «برّة تقيّة»، واقعون في مثل هذا الانحراف الاجتماعي الكبير. وهذا البلاء العظيم يؤدّي إلى أن ينزع اللّه تعالى نظر لطفه ورحمته عن هذه الأمّة ويجعلها في عذابٍ وعقابٍ ونقمةٍ منه.

لماذا؟ لأنّ الطاعة والعبوديّة لغير اللّه، تتنافى مع ذلك الهدف الذي خلق اللّه الإنسان لأجله، ويتنافى مع تكامل الإنسان ورقيّه، ويتنافى مع حريّة الإنسان وصلاحه؛ تلك الحريّة والانعتاق اللذان يُعدّان مقدّمة تكامل الإنسان وسموّه. فما لم تتحقّق تلك الحريّات، وحلّ مكانها كلّ أنواع الأسر التي تحيط بالإنسان وتقيّده، فلن يتمكّن الإنسان من أن يحلّق إلى تلك الآفاق المرجوّة، ولن يتمكّن من أن يصل إلى مقامه الأسمى الذي حدّده اللّه له، ولن يقدر على التكامل. إنّ ذلك يشبه تلك النبتة التي يوضع عليها قبّعة، أو مثل تلك النبتة التي يُربط أسفل جذعها بشريطٍ أو سلكٍ محكم، ومثل النبتة التي توضع أمام نموّها عشرات الموانع وتحيط بها. فهذه النبتة لا يمكنها أن تنمو، وعندما تتوقّف عن النموّ، فإنّها لا تستطيع أن تثمر، وعندما تفقد القدرة على الإثمار فلا يعود هناك فائدة من وجودها، ولن يكون لمجيئها أيّ أثر. فلماذا جاءت؟ ولماذا ظهرت؟ هل كان هذا الوجود والظهور لغير الإثمار؟ إنّ طاعة غير اللّه والعبوديّة لغير اللّه تشبه هذه الآفة بالنسبة للإنسان. وعلى كلّ حال، يوجد الكثير من الآيات في هذا المجال في جميع أنحاء القرآن.





وينبغي أن نتعرّف إلى حدٍّ ما على نداء التوحيد في القرآن. فقد وصل وضعنا في مجال الاطّلاع على المعارف الإسلامية من القرآن إلى درجةٍ من السوء، والبُعد، والانشغال بسلسلة من التصوّرات العاميّة والضعيفة - التي هي بلا أساس وأشدّ خواءً من أيّ خواءٍ، بل أضحت متوائمة مع الخُرافات والظنون الباطلة - بحيث إنّ هذا الظاهر المخادع والباطن الخاوي لم يستطع أن يواجه أمواج الماديّة، ولقد رأينا كيف أنّ هذا الظاهر قد زال أيضًا. فإمّا أنّه تمّ إشغالنا وإلهاؤنا بهذه الظنون، وإمّا أنّنا من جهةٍ أخرى قد شُغلنا بتلك الاستدلالات الجافّة الفاقدة للروح والأثر، والتي جميعها لا تمتّ إلى المسؤوليّة والالتزام بالتوحيد بصلة. فأيّة أبحاثٍ فلسفيّةٍ جافّة وفاقدة للأثر هي تلك الأبحاث؟!

انظروا كم قد بحث المتكلّمون حول التوحيد، وفي نفس الوقت كم قد كانت هذه الأبحاث عديمة الأثر من ناحية تشكيل وإيجاد المجتمع التوحيدي. فلو أنّهم بحثوا لمدة مئة سنة في قضيّةٍ ترتبط بشأن من شؤون الحياة، مثلما بحثوا حول التوحيد، فهل كان من الممكن أن لا يكون هناك أثرٌ على صعيد الحياة بعد المئة سنة هذه؟! لقد بحثوا وتباحثوا لمئات السنين بصورةٍ جافّة ومخادعة من جهة الظاهر، وبصورةٍ فاقدةٍ للمحتوى من جهة الباطن، وبصورةٍ مجرّدةٍ وخاليةٍ من كلّ ما يرتبط بعالم الواقعية والخارج؛ والآن عندما نأتي إلى تلك الأبحاث نريد نحن أن نستمدّ منها التوحيد من أجل بناء حياةٍ جديدة، فإنّنا لا نجد بينها وبين ما نصبو إليه في أيّة علاقة أو رابطة، وكما نقول كالحجر في جنب الإنسان! فمع كلّ تلك الأبحاث والكلام حول الدور والتسلسل وغيره من الكلام، فماذا لدينا الآن فيما إذا أردنا أن نستفيد من التوحيد من أجل





العالم المحيط بنا؟ في حين أنّنا لو رجعنا إلى القرآن، وأردنا أن نستفيد التوحيد منه، [نجد] أنّ القرآن قد بيّن لنا الأبعاد والظواهر والهيكليّات المختلفة لهذا الجسم وهذا الهيكل الذي هو بناء التوحيد ضمن مئات الآيات وبأفضل بيان وأبلغ الأساليب؛ وعندها يُعلم ما هي الحياة التوحيدية ومَن هو الإنسان الموحّد.

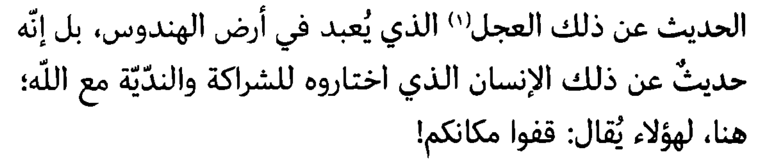
وعلى كلّ حال، فإنّ هذا هو أحد الأقسام المرتبطة بهذه الآيات وينبغي النظر إلى الآيات التوحيدية بالمزيد من التدبّر، وأنا سوف أفسّر لكم بضع آياتٍ في وقتنا هذا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، الحديث هنا عن القيامة، ذاك اليوم الذي يُجمع فيه الخلائق. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، هذا الخطاب المهيمن والممتزج باللّهجة المعاتبة يوقف الجميع: الذين أشركوا، وشركاءهم المختلَقين الذين جعلوهم أندادًا ومنافسين وخصومًا للّه. ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي فصل اللّه تعالى بين هؤلاء جميعًا.

وعندها سوف تفهمون، وبمجرّد النظر العادي والسطحيّ، أنّ هؤلاء الشركاء وأولئك الذين اختيروا لمشاركة اللّه هم يوم القيامة، غير ذلك الهُبَل العقيقي الفاقد للعقل والروح - فهو لا يُحشر هناك لأنّه لا يدخل ضمن البشر بحسب القول المعروف والمتعارف حتّى يُؤتى به ويُقال له ابقَ مكانك، وتوقّف، أو مناة أو اللات. فمناة كان صنمًا مخصوصًا، يشبه تمثال بنت، أو أحد الملائكة على سبيل المثال، وإنّ اللات تجسيمٌ لملاكٍ آخر، وهكذا كان هُبل والعُزّى. الحديث لا يدور حول هذه الأصنام الجامدة، أو الأوثان الفلانية التي كانت توضع في ذلك المعبد الروماني أو اليونانيّ، وليس







الحديث عن ذلك العجل[1] الذي يُعبد في أرض الهندوس، بل إنّه حديثٌ عن ذلك الإنسان الذي اختاروه للشراكة والندّيّة مع اللّه؛ هنا، لهؤلاء يُقال: قفوا مكانكم!

إنّ أوّل خطابٍ توبيخيٍّ ينفي قدرة الآلهة المعبودة من دون اللّه بشكلٍ واضح يوم القيامة هو هذا الخطاب. توقّفوا! فانظروا كم سيكون لهذا الأمر من أثرٍ يوم القيامة. إنّه يخاطبنا أنا وأنتم بهذا النحو ويقول: إنّ ذلك الندّ الذي قد جُعل للّه من قبل العرب أو العجم المشركين، سواءٌ كانوا من الإيرانيّين أو الروم أو الأحباش أو الهنود أو المصريّين، فإنّ هذا الندّ المُتخيَّل والمجعول كمنافسٍ أو شريكٍ للّه، سيكون وضعه على هذا النحو يوم القيامة. فهو وأتباعه سيُحشرون في زاويةٍ ويُقال لهم قفوا مكانكم بخطابٍ مليءٍ بالعتاب والنقمة الإلهيّين.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي جعلنا بينهم فاصلةً. ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، يتوجّه الشّكاء والأنداد المختلَقون بكلّ كفرانٍ وإنكارٍ إلى أتباعهم ويقولون لهم إنّكم لم تكونوا تعبدوننا في الدنيا؛ مثلهم كمثل المتّهم الذي يتشبّث بأيّ كلامٍ ووسيلةٍ من أجل أن ينفي التهمة عن نفسه. وهذا شبيهٌ بذلك الحوار الذي قرأنا ما يرتبط به من آياتٍ سابقًا، وكذلك بحوارات أخرى وُجدت في القرآن. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ

(١) دينٌ راج في إيران القديمة وبين أقوام الهندوآريّة. وقد تمّ تعديل هذا الدين في إيران بواسطة زردشت، والنار في هذا الدين هي رمز الطهارة.





يَعْمَلُونَ﴾[١]، فتلك الجماعات التي كانت تتبادل الضلالة ستتنازع وتتخاصم يوم القيامة وتصطفّ كلّ جماعةٍ مقابل الأخرى. فذاك الذي أشرك باللّه واتّخذ الشركاء يريد أن يمسك ذلك الشريك ويطرحه أرضًا ويقول له: إنّني قد اتّخذتك من دون اللّه، وها قد حلّ بي ما حلّ من مصائب. وذاك الذي عُبد في الدنيا، فإنّه يكون مستعدًّا للبراءة والتنكّر التامّ من كلّ أتباعه ومحبّيه في الدنيا لأجل تبرئة نفسه، فيتبرّأ منهم وينفر.

﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٢]، وهكذا الأمر على لسان الشركاء، فإنّهم يقولون: إنّ اللّه يكفي للشهادة بيننا. ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، فنحن لم نكن ملتفتين أبدًا أنّكم جعلتمونا في محلّ العبوديّة مقابل اللّه، هذا هو كلام أولئك الشركاء.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾[٣]، آنذاك ستُختبر كلّ نفسٍ وكلّ إنسان بما أسلف وأنجز؛ فهناك سيُختبر ما قام به من أعمالٍ في الدنيا، وتُفحص من قبل صاحبها. ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، الرجوع سيكون إلى اللّه الذي هو الوليّ الحقيقي للجميع.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، هناك يختفي ويزول كلّ شيءٍ من البهتان والافتراء الذي فعلوه أو قالوه، فتُنسى كلّ الأشياء التي

---

(١) سورة **سبأ**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **يونس**، الآيتان ٢٨ و٢٩.

(٣) سورة **يونس**، الآية ٣٠.





كانت في قلب الإنسان بعنوان الدوافع لطاعة غير اللّه. فيفقد الإنسان كلّ الأشياء التي كانت في قلبه بصورة حججٍ وأعذار لعبوديّة غير اللّه؛ وهكذا تُنتزع من الإنسان [تلك الحجج] التي كان يظنّ بأنّها ستكون حربةً بيده يوم القيامة. يصطنع أحيانًا، ولأجل شركة واتّخاذ الشركاء، عذرًا أو مبرّرًا فيجعله محاطًا بالأفكار والخيالات والآراء التي تتشكّل بها تلك الأعذار! هذه الأعذار التي يجعلها مبرّرةً وشرعيّةً. ويوم القيامة الذي هو يوم المحكمة، عندما يريد هذا الإنسان أن يعدّد هذه الأعذار: العذر الأوّل والثاني والثالث والرابع والخامس، فإنّه يرى أنّها قد اختفت بالكامل، ولم تكن سوى جُزاف وخراب وباطل.

والاحتمال الآخر لمعنى هذه الآية هو أنّ الإنسان يفترض في هذه الدنيا أشياء تدعمه ويستند إليها، تلك الأشياء التي يعبدها، تلك الأمور التي يطيعها ويتعبّد بها ويقبل بقلبه عليها، إلّا أنّها يوم القيامة لن تتمكّن من أن ترفع عن كاهله أيّ وزرٍ أو ثقل مهما كانت حميمة أو حامية أو داعمة، يا لهذا المسكين! ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

التفتوا إنّ استدلالات القرآن هي على هذا النحو: يثبت حينًا المطلب من جهةٍ أو من زاويةٍ من زوايا القضيّة؛ وحينًا آخر، لا يستدلّ القرآن بصورةٍ مباشرة، بل يؤمّن للإنسان مجال الاستدلال الفكريّ. وهنا في هذا المجال، يريد اللّه تعالى أن يثبت من خلال هذه الآيات أنّه لا ينبغي إطاعة غير اللّه والعبوديّة له. فيدخل من هذا الطريق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقوله من

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٣١.





السماء يشير إلى غيث الحياة وإلى كلّ ما يمنحها، ومن الأرض مواد الحياة، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾. لا تخلطوا بين السمع والأذن، فنحن نسمّي هذه الجارحة الخاصّة باللغة الفارسيّة «گوش» ونقول باللغة العربية «أذن»، أمّا السمع فهو حالة وقدرة إدراك الأصوات، وإذا ذُكر هذا [العضو] فيكون بذاك الاعتبار، فلو قُطعت أذن شخصٍ مثلًا لا يُقال أنّه قد قُطع سمعه بل يُقال قد قُطعت أذنه، فاسم هذه الجارحة الخاصّة ليس السمع. وكذلك البصر، فهو ليس بمعنى هذا العضو المعيّن والخاصّ الذي نسمّيه «العين» بل هو الرؤية والبصر، بل هي الروح، وذاك هو العضو الجسماني. وإذا قيل لهذا العضو بصر، فذلك باعتبار امتلاك العين له.

وعلى سبيل المثال، لا يُقال للعين العمياء بصر، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾، فإنّ من بيده ملكيّة قوّة السمع والبصر ومالكها هو اللّه، أليس هو من يمنحكم هذا الإدراك والفهم والقوّة؟ ومن الذي يستطيع أن يسلبها منكم؟ ففي الحقيقة هذه الآية تشير إلى امتلاك البصيرة، وإلى امتلاك قوّة الفهم والعقل، وتقول للإنسان: طالما أنّه من المقرّر أن تفكّر الآن وستجيب عن هذا السؤال، فأنت تمتلك السمع والبصر.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، إخراج الحيّ الظاهري من الميّت الظاهري. عندما تموت المرأة وهي حامل مثلًا، ويبقى وليدها حيًّا، فيُقال أنّهم أخرجوه من أمٍّ ميتة؛ والاحتمال الآخر هو جعل الحياة من نطفةٍ ميتة أو جسمٍ ميّت أو أيّ شيءٍ ليس فيه حياة. [فكما يحصل] إحياء أرض الموات وتبديل أرضٍ هي ميتةٌ - بالرغم من أنّها كنزٌ لآلاف المواد الحيّة والمانحة للحياة - وإخراج الحياة منها؛ فكذلك نفعل بكم أيّها الناس. فما هي المواد الأساسية والجذور الأوليّة





للبشر؟ أليست سوى تلك المواد الحياتيّة والغذائيّة التي توجد في الأرض؟! فقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فيه عدّة احتمالات، كلّها قابلةٌ للقبول.

فمَن الذي يفعل ذلك؟ أي يخرج الطفل الميّت من بطن الأمّ الحيّة؟ أو يخرج هذا الإنسان السيّء وصاحب الروح الميتة من الإنسان الحيّ ومن له روحٌ حيّة، ومن هذا القبيل! يوجد عباراتٌ واحتمالاتٌ تأتي على ذهن الإنسان. وعلى كلّ حال، فإنّ مظهر كمال قدرة الربّ المتعال هو هذا، هو أن يخرج شيئًا حيًّا من شيءٍ ميّت، ويخرج شيئًا ميتًا من شيءٍ حيّ؛ فهذا علامة كمال القدرة والقبضة المقتدرة لقدرة الله.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، فمَن الذي يدير ويدبّر الأمر التكويني للعالم؟ ومن الذي جعل قوّة الجاذبيّة هذه في الأرض، لكي يتمكّن الإنسان من الحياة عليها؟ ومن الذي أودع في الأرض وفي البحر وفي الجبل كلّ هذه الاستعدادات للحياة؟ ومن الذي يستخرج من الإنسان هذه القوّة؟ ومن الذي جعل هذه الشمس والقمر والنجوم والمجرّات البعيدة والأبعد بكلّ هذا النظم والترتيب المدهش؟ ومَن الذي جعل القمر على هذا البعد المحدّد من الأرض؟ فلو كان أبعد من ذلك لما كانت حياة الإنسان ممكنةً على الأرض لأنّ ذلك كان سيؤدّي إلى أن تعوم الأرض بمياه البحار، وسيغور سطح الأرض في الأعماق. ومَن الذي جعل الشمس على مسافةٍ معيّنةٍ من الأرض؟ فلو أنّها اقتربت أكثر من ذلك إلى الأرض لما كانت الأرض قابلةً للعيش بسبب الحرّ، ولو بعُدت أكثر لما أمكن للإنسان أن يسكن فيها بسبب البرد؛ وهكذا.





فماذا نقول الآن بشأن حكمة اللّه وقدرته؟ لقد امتلأت الكتب، في قرننا هذا أي القرن العشرين، حول هذه الأمور ممّا كتبه علماء العلوم التجريبيّة في العالم، إلى الدرجة التي لو أردت أن أذكرها فسأحتاج إلى أيّامٍ عديدة لنقلها.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾؟ هذا هو السؤال، وبالرغم من أنّه يخاطب المشركين في زمان نزول الوحي، إلّا أنّه يخاطبنا أنا وأنتم في القرن العشرين. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾، فمن الذي يدبّر كلّ هذا العالم من أعماق الذرّات إلى أبعد العوالم، وكلّهم في قبضة قدرته؟ أجيبوا دون تعصّبٍ أو غرضٍ، وفكّروا ببصيرةٍ لتعرفوا الجواب الواقعي. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾. بعض الناس لم يفكّروا وقالوا ﴿ٱللَّهُۚ﴾ لأنّ عقيدتهم في ذلك الزمان كانت هكذا. وأنا إذا فكّرت قليلًا ودقّقت أقول «اللّه». فهذا الانتظام العجيب لعالم التكوين ليس إلّا من اللّه لا غير، فهي يد قدرته التي تدير الأفلاك وكلّ ما نشاهده ونراه بهذه العين الباصرة، والعين غير المادّيّة. وما لا نراه اليوم ولكن سنراه بعد عشرات السنين بسبب تطوّر العلم، لن يكون سوى آثار ومظاهر قدرة اللّه وليس شيئًا آخر، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

حسنٌ، حيث أنّه اللّه؛ ﴿فَقُلۡ﴾ أي يا نبينا، ويا مبشّر دعوتنا، ويا أيّها المسؤول عن كمال الإنسان، حاججهم وقل ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. فماذا يعني ذلك؟ لماذا لا تتّقون هذا الربّ العظيم؟ ولماذا تطيعون غيره، وتجعلون له شركاء في العبوديّة؟ انظروا، إذا كان تدبير العالم التكوينيّ بيده، فلماذا لا يكون التدبير التشريعي للعالم بيده؟ لقد كنت أفسّر سورة تبارك في أحد الأيّام في ذلك المسجد، هل تتذكّرون؟ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * ٱلَّذِي



خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾[1]، ثمّ بدأنا ببيان كيفيّة تكوين العالم والسماوات والأرضين وأمثال هذا الكلام، ولكن ما هي بداية كلّ ذلك؟

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فالملك يعني الحكومة، ويعني أنّ القدرة بيده. فأيّة قدرةٍ؟ إنّها قدرة التكوين بالنسبة له، وقدرة التشريع أيضًا. فالذي يدبّر تكوين العالم، لماذا يوكل أمر تشريعه إلى شخصٍ آخر؟! وكلّ مَن سواه هو مخلوقٌ له ومصنوعٌ من قبله. فالذي أوجد كلّ هذه القوانين والسنن الطبيعية في العالم وفي الإنسان وخلقها؛ فلماذا يوكل أمر جعل التشريعات والقوانين المدنيّة والجزائيّة وغيرها لأولئك الضعفاء أصحابِ العقول الناقصة والعلوم المحدودة والإرادات الضعيفة، أمثال البشر والبشر العاديين؟ لماذا؟ لماذا لا يدير المجتمع بنفسه؟ ولماذا لا يضع القوانين من عنده؟ ولماذا لا يعيّن سلطة حفظ القانون وحمايته بنفسه؟ ولماذا لا يجعل الإمامة والولاية؟ ولماذا لا يجعل الإمام؟ ولماذا لا يجعل الوليّ من قبل اللّه؟ ولماذا يوكل أمر ذلك كلّه إلى العقول الناقصة للناس؟ لماذا؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[2]. وقد قلت بأنّني لن آتي على ذكر الآيات اللاحقة لأنّها ليست محلّ بحثنا الآن.

ثمّ يصل الكلام إلى الآية الرابعة بعد ذلك. ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ﴾، يا رسولنا! قل لهم تحت عنوان

---

(١) سورة **الملك**، الآيتان ١و٢.

(٢) سورة **يونس**، الآية ٣٢.





الإرشاد والتعليم، هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ؟ هل من الشركاء المختلقين الذين جعلتموهم للّه، وتصوّرتموهم للّه مَن يهدي البشر إلى الحقّ؟ فهل لديكم أيّ أحد هنا؟ ومن المسلّم - أقول من المسلّم أي على نحو الاطمئنان والاحتمال القوي - أنّ المقصود هنا ليس تلك الأصنام وتلك الأحجار والأخشاب وأمثالها؛ فلا يوجد أحدٌ يحتمل بشأنها الهداية وتوجيه الناس. حسنٌ، فكيف تهدي؟ لذا من الواضح أنّ المقصود هنا هي تلك الأصنام الحيّة، أولئك الذين كان لهم قدرةٌ من القدرات وسلطةٌ من السلطات، أو مذهبٌ، أو دنيا، كما بيّنّا في تلك الأوراق اللاحقة، مثل فرعون، أو مثل شُريح القاضي في زمانه، أو أيّ شخصٍ آخر في هذا المجال.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، يعود الكلام إلى إيجاد ذاك الذي جعله الناس ندًّا وشريكًا ومنافسًا للّه، فماذا سيكون جواب المشركين هنا؟ فمن الممكن أن يجيبوا قائلين: بلى، إنّ هؤلاء الذين اخترناهم وجعلناهم هم تجسيمٌ للحقّ؛ وليست الهداية بشيء بل هم أعلى من الهداية. لهذا، فإنّه تعالى لا ينقل جوابهم، فهم يخطئون عندما يعتقدون أنّ للّه شركاء في الهداية، وأنت أجب بنفسك و﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فهو الذي يهدي الناس والعقلاء إلى الحقّ، لماذا؟ لأنّ اللّه هو الذي خلق الحقّ، وهو العالم بدقائقه، وهو يدعو الناس إلى الحقّ، وكلّ من كان مقابل اللّه فهو مقابل الحقّ أو يدعو إلى شيءٍ مقابل الحقّ، ولا يوجد مَن يدعو إلى الحقّ غير اللّه.

حسنٌ، لقد عُلم الآن أنّ اللّه يدعو إلى الحقّ وأنّ أنداده المختلقين لا يفعلون ذلك، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، وهذا استنتاجٌ ينبغي أن يحصل بعقل الإنسان وذكائه الموهوب. ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى





﴿ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ فهل يوجد مَن هو أكثر لياقة ممّن يدعو ويهدي إلى الحقّ للاتّباع؟ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾، أم ذاك الذي لا يعرف الطريق إلّا أن يؤخذ بيده؟! فمن الذي ينبغي أن يُتّبع في النهاية؟ أليس هو اللّه الذي خلق الحقّ ودعا وهدى إليه؟! أم أنّنا نتّبع من إذا أراد أن يصل إلى الحقّ، فإنّه يحتاج إلى مَن يمسك بيده ويهديه؟! وكما نقول في الشعر: إنّ الأعمى هو الذي يحتاج إلى العصا لكي يمشي[١]، فهل يريد أن يهدينا ويدلّنا؟ إنّه مضطرٌّ لأن يُهدى ويحتاج إلى من يهديه. والآن من الذي يجري الحديث عنه برأيكم؟ أهو ذاك الشريك الذي يمكنه هداية الناس؟ أم ذاك الذي لا يمكنه والذي إذا أراد أن يهتدي، فإنّه يحتاج إلى مَن يمسك بيده؟ فكيف يكون مثل هذا الشريك؟ وأيّ نوعٍ من الموجودات هو؟ فهل المراد هنا بقرة الهندوس أو عبدة الأبقار؟ أو تلك الأصنام التي كان مشركو قريش وغيرهم يعبدونها؟! أو المراد نيران المزدكيّين[٢] المقدّسة؟ أو الزردشتيّين؟ أو المراد تلك الأصنام والمجسّمات التي توضع داخل كنائس اليهود، أو في معابد الرومان واليونان؟! من المسلّم أنّ المقصود ليس كلّ هذه الأشياء. فالمقصود هنا هو ذاك الذي يدّعي الهداية والقيادة، ويدّعي أنّه يمكنه أن يوصل المجتمع إلى سعادته.

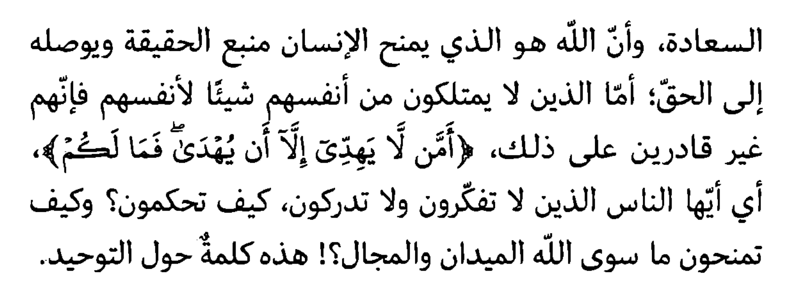
فالقرآن يريد أن يقول إنّ اللّه هو الذي يوصل الإنسان إلى

---

(١) جاهل برو ز مرشد بى معرفت چه فيض كورى كجا عصا كش كورى دگر شود (كليم كاشاني).

(٢) طقس رائج في إيران القديمة في وسط الأقوام الهندوآريّة، وتغيّرت بعد مجيء الزرشتيين، حيث يعتبرون النار رمزًا للنقاء.





السعادة، وأنّ اللّه هو الذي يمنح الإنسان منبع الحقيقة ويوصله إلى الحقّ؛ أمّا الذين لا يمتلكون من أنفسهم شيئًا لأنفسهم فإنّهم غير قادرين على ذلك، ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ﴾، أي أيّها الناس الذين لا تفكّرون ولا تدركون، كيف تحكمون؟ وكيف تمنحون ما سوى اللّه الميدان والمجال؟! هذه كلمةٌ حول التوحيد.

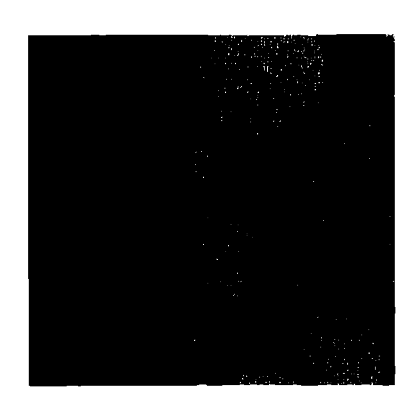
فنفي العبوديّة لمدّعي الألوهيّة وأشكال الآلهة وكلّ من اتّخذوهم أربابًا وأسبغوا عليهم صبغة الربوبيّة، تلك الموجودات التي هي الأصنام البشريّة عبر التاريخ؛ نفي العبوديّة لتللك الأرباب سواء كانت بلباس السلطات الدينية وبين قوسين: «الأحبار» و«الرهبان»، أو بلباس السلطات الدنيوية وبين قوسين: «الطاغوت»، «الملأ»، «المترف».

وفي اقتراح الإسلام على أهل الكتاب، جاء نفي الطاعة للقوى غير الإلهيّة في تلك الآية بهذه الصورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ فتأملّوا أنتم بأنفسكم.

الجلسة الحادية عشرة

روح التوحيد ونفي العبوديّة لغير اللّه

الأحد، ١٢ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

[سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٤ و١١٥]





مهما فكّرنا فإنّنا لا يمكن أن نتجاوز بحث التوحيد بهذه السهولة، فهو أوّلًا أساس الاعتقادات. وثانيًا هو أصلٌ عمليٌّ مهمّ على الصعيد الفردي والاجتماعي. وثالثًا، إنّ الأمّة المسلمة الموحّدة لا تعلم عنه إلّا أقلّ القليل، بل يمكن القول إنّها لا تعلم عنه شيئًا. هذا، وإن كانت المدارس المحلّيّة تعلّم الأطفال أنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين، ولكنّ أغلب الموحّدين لا يعرفون شيئًا صحيحًا عن الوجهات المختلفة للتوحيد إلى أن يبلغوا آخر العمر ويوشك بهم الارتحال عن هذا العالم. بناءً عليه، من الجدير أن نتحدّث أكثر حول قضيّةٍ بهذه الأهميّة بسبب قلّة اطّلاع الناس عليها.

نلاحظ أنّ آيات القرآن أيضًا تتناول قضيّة التوحيد بكلّ هذه السعة أو بمستوى هذه الأهميّة وفي موارد كثيرة وبأساليب مختلفة. وسوف نأتي بشواهد عديدة من الآيات القرآنية الكريمة حول هذا الأصل الاعتقادي والعملي المهمّ، وبنماذج عدّة لتوضيح هذا المطلب المرتجى. وسوف نتناولها بالمزيد من الشرح.

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ



وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وبعد عدّة آيات، يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1].

خلاصة المطلب في مجال القضيّة التي نتناولها هي أنّ هناك من يُعبد باعتبار أنّه مقدّسٌ وأنّه ذو قدرات تفوق عالم الطبيعة، كتلك الأصنام أو القدّيسين الذين عبدهم الناس عبر التاريخ؛ فما يرد إلى الذهن ابتداءً من موضوع العبادة هو هذا المطلب. ونحن عندما نقول إنّ عبادة اللّه واجبةٌ، فإنّنا نأخذ بعين الاعتبار قضيّة التقديس هذه وتلك الحالة من التعظيم الروحي والقلبي؛ مثلما يفعل المسيحيون تجاه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أو أمّه الطاهرة مريم، حيث يضفون عليهما نوعًا من القداسة ويركعون للتماثيل المنحوتة للمسيح أو مريم ويبكون ويعبدون؛ وهذا هو الرائج العامّ حول العبادة.

ويوجد معنًى آخر غير هذا المفهوم، أو فلنقل، يوجد زاويةٌ أخرى يمكن أن يُطلق عليها عنوان العبادة، وقد استُعمل هذا المعنى في القرآن. ولو أنّ أحدًا عُبد بهذه الصورة الثانية، أي أنّ النّاس عبدوا موجودًا أو إنسانًا بهذه الصورة، فهذا يُعدّ نوعًا من

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢١.



عبادة غير اللّه. وحاصل الكلام: إنّ العبادة ليست منحصرة في قيام الإنسان بالانحناء والركوع والسجود لموجودٍ معيّن بحالةٍ من التقديس والتعظيم القلبي وبمناجاته والثناء عليه، وبرفع اليدين نحوه بضراعةٍ وخضوع. هناك أعمالٌ أخرى أيضًا يمكن أن نطلق عليها عنوان العبادة، ونحن لا نقولها لكي لا نثقل على أنفسنا.

بناءً عليه، يوجد للعبادة مفهومٌ أوسع في ثقافة القرآن يجب علينا أن نكتشفه؛ هذا فيما لو أردنا أن نعبد اللّه ولا نعبد سواه. أي أنّنا لو أردنا أن نكون موحّدين ونتّبع أصل التوحيد، فعلينا أن نراقب بدقّة كي لا نقوم بالعبادة التي هي من النوع الثاني والتي هي لغير اللّه ربّ العالمين؛ أي ذاك الشيء الذي يقوم به أكثر الموحّدين في العالم، رغم أنّه بظاهره ليس تقديسًا لغير اللّه. فهم لا يسجدون لتلك الأشياء أو الأشخاص غير اللّه، لكنّهم مع ذلك يعبدون غير اللّه في العمل وفي الفكر وفي القلب وفي الروح، بالمعنى الثّاني.

فما هو المعنى الثاني للعبادة؟ إنّ المعنى الثاني للعبادة سهلٌ جدًّا وبسيط، وله في اللغة الفارسيّة لفظٌ، وهو بحسب الرائج في اللغة والجاري على الألسن عبارة عن الطاعة. فلو أطعت أيّ إنسانٍ بصورة مستقلّة وبدون قيدٍ أو شرط، وتتبّعت أوامره وأحكامه جسمًا وروحًا وقولًا وعملًا، تكون قد عبدته. فمن أين لنا هذا الكلام؟ إنّنا نذكر هذا الكلام بالاستناد إلى آيات القرآن الذي بيّن لنا أنّ العبادة هي الطاعة. فعندما دخل عُديّ بن حاتم الطائيّ[1]،

---

(١) عُديّ بن حاتم الطائي المشهورة، الذي تسلّم رئاسة قبيلته بعد أبيه. وقد أسلم في السنة التاسعة للهجرة متأثّرًا بأخلاق النبي وسلوكه. وكان من محبّي أمير المؤمنين وأتباعه وشارك في حروب صفّين والجمل ونهروان، وقد قدّم ثلاثة =





المعروف بمقامه ودرجته التي كانت تفوق درجة أبيه، المدينة في بداية إسلامه أو لعلّه قبل عدّة أيّام من إسلامه، كان من المقرّر أن يقرأ الرسول الأكرم - عندما رأى زُنّارًا[١] قد علّق صليبًا على رقبته - هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا﴾. ومعنى هذه الآية هو أنّ المسيحيين واليهود اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم، أي علماءهم وزهّادهم والمسيح ابن مريم أربابًا وآلهة؛ في حين أنّ اللّه تعالى قد أمر بأن لا يُعبد إلّا الإله الواحد. وعندما وصلت هذه الآية إلى سمع عُديّ بن حاتم، أقبل قائلًا: يا رسول اللّه، إنّ هذا الكلام ليس صحيحًا! فنحن لم نتّخذ أحبارنا ورهباننا أربابًا! ومتى عبدناهم؟ معترضًا بذلك على النبي وعلى هذه الآية القرآنية، لأنّه لم يكن في ذهنه سوى هذا المعنى من العبادة وهو الموجود الآن في أذهانكم. لقد كانوا يعبدون أي يتوسّلون ويناجون، وهي الحالة المتلازمة مع التقديس إمّا قلبًا وإمّا قلبًا ولسانًا، وإمّا قلبًا ولسانًا وبدنًا، كالصلاة؛ فلأنّ عُديّ بن حاتم قد فهم العبادة بهذا المعنى، جاء الاعتراض إلى ذهنه عندما رأى الآية القرآنية تقول يعبدون عبّادهم وزهّادهم ويجعلونهم أربابًا؛ فقال: كلّا، هذا الكلام ليس صحيحًا، نحن المسيحيون لم نعبد أحبارنا ورهباننا في أيّ وقت.

وفي جواب عُديّ بن حاتم على تصوّره هذا، يقول الرسول الأكرم: أجل، إنّكم لم تسجدوا لهم - أذكر لكم مفاد قول النبي - ولكنّكم قبلتم كلّ ما قالوه دون قيدٍ أو شرط، مع أنّهم أحلّوا حرامًا

= من أبنائه في حرب صفّين. تُوفّي في العام ٦٧ للهجرة.

(١) طائفة من المسيحيين تضع صلبان على الصدور.





وحرّموا حلالًا. وأنتم وبدون أن تكونوا بصدد فهم واقع القضيّة، أطعتم كلّ ما قالوه لكم بدون قيدٍ أو شرط، فهذه هي العبادة. فاتّخاذ أيّ موجودٍ ربًّا هو هذا. وبالطبع، يوجد رواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِالسَّلَامْ أيضًا بهذا المضمون، ومن يرِد يمكنه أن يراجع تفسير نور الثقلين في ذيل هذه الآية[١].

بناءً على الثقافة القرآنية، فإنّ عبادة أيّ موجودٍ غير إلهيّ، سواءٌ كان هذا الموجود سلطةً سياسيةً أو سلطةً دينية، أو كان عاملًا داخليًّا كنفس الإنسان وميوله النفسانيّة والشهويّة، وسواءٌ كان موجودًا خارجًا عن وجود الإنسان، ولكنّه ليس سلطةً سياسيةً مركزيّة أو دينية، بل في مقابل امرأة أو مقابل أيّ شخصٍ اعتقد المرء بعظمته بدون دليل، وسواءٌ كان صديقًا أو حبيبًا، فإنّ عبادة مثل هذه الموجودات والكائنات هو عبارة عن إطاعتها والإنقياد لها. فكلّ مَن أطاع إنسانًا أو شيئًا فقد عبده.

أتلو عليكم روايةً في هذا المجال ليُعلم أنّ هذا من الثقافة القرآنية التي نجدها في جميع المصادر الإسلامية وخصوصًا المصادر الشيعيّة، أعمّ من القرآن والحديث، والرواية هي عن الإمام الجواد صلوات اللّه وسلامه عليه حيث يقول: «من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده»[٢]، وهذا أوسع بكثير من دائرة العبادة، ولا ينحصر في إطار الطاعة، بل حتّى لو أنّنا أصغينا قليلًا بحواسّنا لأحدهم

---

(١) للمزيد انظر: الشيخ الحويزي، **تفسير نور الثقلين**، تصحيح وتعليق السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي (قم: مؤسّسة إسماعليان، الطبعة ٤، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠ هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٦٥٩.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ٤٣٤.



نكون قد عبدناه.

حسنٌ، أنتم ستقولون إذن نحن لا ينبغي أن نستمع إلى الكلام الصحيح! لهذا قال مباشرةً: «فإن كان الناطق يؤدّي عن اللّه عزّ وجلّ فقد عبد اللّه»(١). فلو أنّكم أصغيتم بأسماعكم وحواسّكم، وتوجّهتم بقلوبكم وأذهانكم وأفكاركم وأرواحكم، فإنّكم في مثل هذه الحالة تكونون قد عبدتم اللّه. «وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»(٢). فإذا كان هذا المتكلّم ينطق عن لسان إبليس ويتحدّث بكلام الشيطان ويبحث خلافًا للمنطق وفلسفة الفكر الإلهيّ، وأنتم تستمعون إليه بإذعانٍ وإصغاءٍ، تكونون في حالة قد عبدتم إبليس وأطعتموه، لأنّ [هذا المتكلّم] في الواقع هو شيطانٌ من الأساس. ولا نريد أن نقول إنّه ممثّل الشيطان أو بوقه، كلّا، هو الشيطان نفسه، بذاك المعنى الذي ذكرناه للشيطان وهو المعنى القرآني أيضًا.

إنّ طاعة أيّ موجودٍ هي هكذا، حتّى لو لم يكن سلطةً سياسية أو حتّى سلطةً دينية، إذا كانت طاعة بلا قيدٍ ولا شرط، فإنّها تصبح عبادةً له. فإذا أراد أحدٌ أن لا يعبد إلّا اللّه، أي يريد أن يكون موحّدًا في عبادته وفي توجّهاته، فينبغي أن يحصر طاعته المطلقة بربّ العالمين، بالربّ العظيم. ومن جملة الأشياء التي إذا اتّبعتها تكون عابدًا لها هو القانون؛ ومن جملة الأشياء التي إذا اتّبعتها تكون قد عبدتها هي النظم الاجتماعية، والسنن والتقاليد؛ فبأيّ قانونٍ نعمل؟ وهل ينبغي أن لا نعمل بالقانون؟ وهل يعني أن لا نعمل

---

(١) المصدر نفسه.

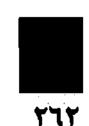
(٢) المصدر نفسه.



بالسنن والآداب، وأن لا نتبّع النظام والانتظام؟ كلّا، لكن اسعوا أن تكون كلّ هذه إلهيّةً لتكونوا في حالة الطاعة والتبعيّة عبيدًا للّه ومشغولين في عبادته تعالى.

انظروا كم أنّ أفق رؤية الإنسان وسيعٌ، وانظروا كيف يمكن تفسير قضايا التاريخ بالنسبة للإنسان. فالأنبياء جميعًا إنّما بعثوا على أساس التوحيد، وسوف نبين هذا الأمر على أساس الرؤية القرآنية في البحث المرتبط بالأنبياء والمختصّ بالنبوّة. فجميع الأنبياء الإلهيّين العظام أرادوا أن يجعلوا الناس موحّدين؛ فمن هم الموحّدون؟ وماذا يعني أن يكونوا كذلك؟ يعني أن يضعوا سلاسل وأغلال طاعة غير اللّه من أعناقهم، وقد صرّح القرآن نفسه بهذا المعنى في موطنٍ حيث يقول: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فهذا هو هدف الأنبياء.

وعندما يتمّ النظر إلى التوحيد بهذا المنظار من خلال هذه الزاوية، ستجدون أنّه فكرٌ وأصلٌ للحياة ويرتبط بالنظام الاجتماعي وبتوجّهات البشر في جميع الأحـوال، كما يرتبط بكيفيّة عيش المجتمعات البشريّة. فهل ترون كم يتفاوت هذا التوحيد مع توحيد «أنّ اللّه واحدٌ وليس اثنين»، هذا التوحيد الجافّ، الفاقد للروح، والجاهل! فالتوحيد هو هذا. وأنا قد وجدت في الآيات القرآنية موارد كثيرة، لو أردت أن أذكر جميع الشواهد التي يُستفاد منها لهذا المعنى بشكلٍ واضح في القرآن وأطرحه هنا، لكان من اللازم أن أعدّ ما لا يقلّ عن ستّ أوراق، وقد أحضرت موردين منها، أو نموذجين من الشواهد التي يمكن بسهولة القول بأنّ طاعة غير اللّه وعبادته وتوحيده الخالص وروح الدين وأساسه هو عبارة عن أن يحصر المرء طاعته باللّه ولا يتّبع إلّا برنامجه ونظامه وتشكيلاته. كما





يمكن أن تراجعوا القرآن على هذا الأساس الفكري والوقوف على الآيات التي تتحدّث عن هذا الموضوع.

ارجعوا إلى القرآن، واسعوا لمعرفته والأنس به ولأن لا تكونوا محتاجين لأن آتي أنا وأفسّر لكم الآيات. قرّبوا أنفسكم من هذا الكنز اللامتناهي والبحر الذي لا حدّ له. أنا قد أوصيت بهذا مرارًا، وكلّما كنت أكرّر هذه التوصية أشعر أنّ هناك ثقلًا أو حملًا على عاتقي. أشعر بالتكليف لأن أقول لكم إنّه من الضروري أن ترجعوا إلى القرآن، فهذا البحر العظيم والمحيط الذي لا ساحل له على نحو ما يُقال، هو بحرٌ من أيّ النواحي أتيته[1]؛ فأينما ولّيتم وجوهكم إليه سوف تستفيدون منه؛ وكلّ من جالس القرآن ستحصل له استفادةٌ ما. فليكن لديكم هذه الأصول حتّى تتمكّنوا من فهم هذا المحتوى ولو بشكلٍ مختصرٍ، وعلى أيّ نحوٍ، وبأيّ أسلوب. وكلّما راجعتم أكثر اتّضح لكم المطلب أكثر فأكثر.

يقول أمير المؤمنين، صلوات اللّه وسلامه عليه، بما يشبه هذه العبارة كما نُقل عنه في نهج البلاغة: «ما جالس أحد هذا القرآن إلّا قام بزيادةٍ أو نقصانٍ، زيادةٍ في هدًى أو نقصانٍ من عمًى»[2]، والزيادة في الهدى تشير إلى تقدّمه أكثر، والنقصان من عمًى يشير إلى العمى الروحي والإدراكي والباطنيّ. فانظروا إلى ما يقوله أمير المؤمنين بهذا البيان حيث يبدأ: «ما جالس أحد هذا القرآن»،

---

(١) هو البحر من أيّ النواحي أتيته فلجّته المعروف والبرّ ساحله.
او درياست از هر طرف كه به سويش آيى وامواجش نيكى وكران هايش احسان است

(٢) علي بن محمّد الليثي الواسطي، **عيون الحكم والمواعظ**، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجند (دار الحديث، الطبعة ١، لا تاريخ)، الصفحة ٤٧٨.



وقوله: «أحد»، يشير إلى العموم والإطلاق.

ولماذا أذكّر بهذا المطلب فيما يتعلّق بالقرآن؟ ذلك من أجل أن تعلموا أيّها الإخوة والأخوات أنّه يوجد أفخاخٌ كثيرة وأدوات لا تُحصى من أجل إبعاد الناس عن القرآن؛ وكلّها قد أُعدّت على مرّ الزمان. وأحد تلك الأعذار والأفخاخ والوسائل التي ما زالت إلى يومنا هذا، وما زال بعض الجاهلين والمغرضين يكرّرونها لحدّ الآن، هي أن يقال: يا فلان إنّه لا يمكن لأحد أن يفهم القرآن سوى الأئمّة، صلوات اللّه عليهم، فيمكنني أن أجيب بكلمةٍ واحدةٍ عن هذه الجملة، كما قال أمير المؤمنين، صلوات اللّه عليه، بشأن ما قالته الخوارج في النهروان: «كلمة حقّ يُراد بها باطل»[1]. ذاك كلامٌ صحيح لكنّ مقصود القائل هو مقصدٌ رذيلٌ ومؤذٍ.

أجل، إنّ أئمّة الهدى محيطون بالقرآن، ولا يمكن تصوّر شيءٍ أعلى من ذلك؛ فلهم تلك الأرواح والعقول والأفكار السامية والعظيمة، والقرآن في قبضتهم، بل هم أنفسهم قرآن، كلّ واحدٍ منهم هو كذلك، فلا شكّ في ذلك ولا كلام؛ لكن أن نقول إنّ الإمام يعلم القرآن بصورةٍ ممتازة بينما أنا العبد وأنت يا صاحب الجناب العالي لا يمكن أن نفهم كلمةً واحدةً منه وأنّه لا يمكننا أن ندرك طبقةً أو قشرًا من القرآن! هذه الجملة صحيحة بأنّ أئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام كانوا يعلّمون القرآن، لكنّ مقصود القائل ليس أن يرفع الإمام، إنّما مقصوده أن يبعدك عن القرآن؛ هو كذلك الرجل الذي قيل له: صلّ؛ فقال: يا أيّها السيّد، إذا كانت

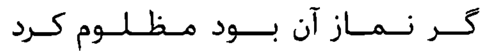
---

(١) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٩٢.

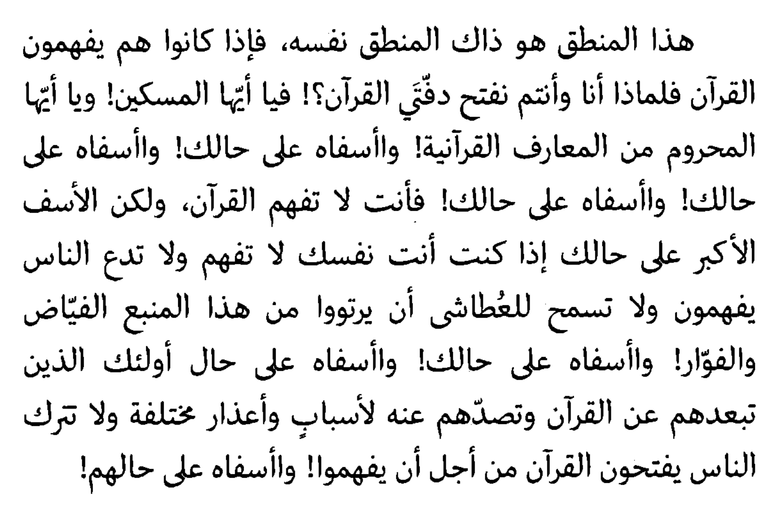




الصلاة هي تلك التي يصلّيها مولاي عليّ، فلماذا أصلّي أنا؟ قال:



گـــر نـــمـــاز آن بـــود مـــظـــلـــوم كـــرد
ديـــگـــران را زيـــن عـــمـــل مـــحـــروم كـــرد
لـيـسـت حـقـيـقـة الـصـلاة سـوى لـعـلـيّ
والـكـلّ مـن هـذه الـصـلاة مـحـرومـون



هذا المنطق هو ذاك المنطق نفسه، فإذا كانوا هم يفهمون القرآن فلماذا أنا وأنتم نفتح دفّتَي القرآن؟! فيا أيّها المسكين! ويا أيّها المحروم من المعارف القرآنية! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حالك! فأنت لا تفهم القرآن، ولكن الأسف الأكبر على حالك إذا كنت أنت نفسك لا تفهم ولا تدع الناس يفهمون ولا تسمح للعُطاشى أن يرتووا من هذا المنبع الفيّاض والفوّار! واأسفاه على حالك! واأسفاه على حال أولئك الذين تبعدهم عن القرآن وتصدّهم عنه لأسبابٍ وأعذار مختلفة ولا تترك الناس يفتحون القرآن من أجل أن يفهموا! واأسفاه على حالهم!

وأنتم أيّها الإخوة والأخوات عليكم أن تعلموا أنّ عملنا يجب أن يكون مع القرآن مثلما قال رسول اللّه: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»[1]، فمتى هو ذاك اليوم؟ ألا ترون الفتن المظلمة كقطع الليل؟ ألا تشاهدون الطرق البديلة التي تُعرض أمام الأعين العمياء والأعين القاصرة؟ ألا ترون قطّاع الطرق من كلّ جانب وبأشكالٍ مختلفة بأعينكم الباصرة؟ إذن، متى يحين الوقت ويأتي الزمان الذي نرجع فيه إلى القرآن؟ وإلى متى؟ إلى

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٩٩.





حين مجيء إمام الزمان صلوات الله عليه، وهو القرآن الناطق؟ إنّ اليوم هو يوم الرجوع إلى القرآن. وشرطه الأوّل هو أن نفهمه.

لقد وجدت قسمين من الآيات المرتبطة ببحثنا، وعليكم أنتم أن تفتّشوا لتجدوا الأقسام العشرة الباقية. أوصي الإخوان وأولئك الذين يمكنهم أن يفهموا القرآن، أي ظاهر كلمات القرآن أن يلتفتوا إلى الترجمات من العربية إلى الفارسيّة، لكي يرجعوا إليها بشكلٍ مؤكّد؛ والذين لا يمكنهم ذلك فليحقّقوا في أنفسهم هذه القدرة. أوصيكم بقراءته باللغة العربية وبتعلّمه ودرسه، لتحقّقوا حالة الأنس بالقرآن واجعلوه رفيق دربكم، فإنّ كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ تمرّ بدون الأنس بالقرآن هي سببٌ للحسرة والندامة.

القسم الأوّل هو من سورة الأنعام. بالطبع، يجب أن تمتلكوا التوجّه إلى أسلوب القرآن ولحنه، فهو ليس كالكتب العادية بحيث يقول إنّ الفصل الفلاني يتعلّق بمعنى الطاعة والعبادة. كلّا، إنّ مستوى بيان القرآن ومطالبه وقائله هو أعلى بكثير من هذه المستويات العادية. بالنسبة لربّ العالم، فإنّ جميع الكائنات والموجودات هي في مستوًى واحد. لهذا تأتي آيةٌ في موردٍ ما كما تستوجب موقعيّة الوحي؛ وعليكم أن تكتشفوا المطلب الذي تبحثون عنه من إشارات الآية وألفاظها وكلماتها وكيفيّة السياق الموجود فيها.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[1]، لقد ذُكر بشأن الحَكم في التفاسير أنّه بمعنى القاضي وأيضًا بمعنى الحاكم. مَن يُطلب منه الحكم،

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٤.





ومَن يُطلب منه الأمر، أو مَن يُطلب منه القضاء. وللإثنين يُقال حَكَم. واللّه تعالى هو أفضل حاكمٍ، وأفضل قاضٍ، والأمر ينبغي أن يصدر من اللّه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[١]، فاعلموا أنّه يكون من اللّه الخالق والآمر. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾، فهل أطلب غير اللّه حاكمًا وقاضيًا في حين أنّه تعالى قد أرسل إليكم هذا المجموع وهذا القرآن بتفصيلٍ وتبيينٍ دون اختلاطٍ وامتزاج، والمفصّل هو الذي لا يوجد خلطٌ في مباحثه ولا تداخلٌ في مطالبه ولا يمكن أن يداخله كلامٌ من غير اللّه أو يخالطه، والمفصّل هو المبيّن بالتبيين التامّ والكامل.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٢]، الخطاب إلى النبي يصونه من أن يكون من المتردّدين ومن أصحاب التوجّهات المتناقضة ويبعده عن التزلزل؛ فأنت الذي تعلم أنّ هذا الكتاب هو من ربّك.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٣]، لقد تمّت ووصلت إلى منتهاها ولا يتخلّف هذا الأمر الذي هو من ربّك، لأنّه من الحقّ وعلى أساسٍ ثابتٍ. ولقد كان أمر اللّه أن تأتي سلسلة النبوّات وأن يصل الناس بالتدريج إلى الحدّ النهائي. ثمّ يأتي دور النبوّة الآخرة، فأجعل الناس في مقابل أُفقٍ وسيعٍ وميدانٍ لا نهاية له، وأمنحهم وسيلة السير والعَدْو والتكامل مهما أمكن لكي يتمكّنوا من السير في هذا الميدان اللامتناهي، وإنّا إليه راجعون. هذا هو أمر اللّه،

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٥٤.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ١١٤.

(٣) سورة **الأنعام**، الآية ١١٥.





وهذا هو قدر اللّه، وهذه هي كلمة اللّه، وقد تمّت ووصلت إلى غايتها ولا يمكن أن تتبدّل، ﴿مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ ولا يوجد من يقدر على تبديل كلمات اللّه وأوامره ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فهو الذي يسمع ويعلم؛ يسمع أصوات احتياجاتكم الباطنيّة ويعلم طريق ورسم المنهج الذي تحتاجون إليه؛ هو الذي يمكنه أن يقدّم البرنامج ويضعه لكم.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] انظروا كيف يهيّئ ذهن المستمع. في الآية الأولى، قضيّة الحكومة والقضاء الإلهيّين والتي تُعدّ أَوْلى؛ فهو أولى من الجميع بالحكم والقضاء. في الآية الثانية، القضيّة هي قضيّة عدم إمكانيّة تخلّف الدين والأمر الإلهي وليفعل العدوّ والكافر والمعاند والمعارض ما يريد من خطأ. فإنّ أمر اللّه ممضي وتامّ. أمّا الآية الثالثة، فتدور حول أنّه لا ينبغي إطاعة الأهواء والهوس والرغبات بل يجب إطاعة اللّه.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، هؤلاء لا يتّبعون سوى الظنون ولا يقومون سوى بالتخمين والتكهّن، والناس لا يعملون إلّا وفق ذلك. فأولئك الذين يضعون الطرق والأساليب والمناهج لحياة الناس ويقترحونها عليهم، هل أنّهم على يقين بصحّة هذه الطرق؟! ولو كانوا، من باب السذاجة، متيقّنين، فينبغي أن نأمل أن يبقوا أربعين أو خمسين سنة في الدنيا ليروا كيف أنّ خططهم المحكمة ذهبت جُفاءً، وليروا كيف أنّ توقّعاتهم وتكهّناتهم قد ظهرت على

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٦.





أنّها جُزافٌ، فهؤلاء لا يقين لهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ فما لديهم هو عبارة عن فرضيّات يريدون أن يديروا أهل الدنيا والمجتمعات البشريّة على أساسها. لكنّ اللّه تعالى لا يدير أحدًا على أساس الفرضيّة بل إنّه يهدي كلّ الناس إلى الصراط المستقيم على أساس الواقعية والعلم، والمعرفة بمعناها الواقعي؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(١).

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾(٢)، ويرى الإنسان هنا بمنتهى التعجّب كيف أنّه [بعد ذكر] هذه المطالب الكلّيّة في البداية: أنّ أكثر الناس لا ينبغي إطاعتهم ولا ينبغي اتّباع الظنّ والفرضيّات، وفي مورد النبوّة، أمر الربّ هو الآخِر؛ وفي مورد الدين، هو التامّ غير القابل للتبديل. فبعد هذه البيانات الكلّيّة، يقول مباشرةً: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فلكم الحقّ في أن تأكلوا ذلك الخروف الذي ذُبح على اسم اللّه، هذه تصبح قضيّةٌ فرعيّة، وقد تبدو بنظر الإنسان أمرًا عجيبًا ويتساءل عن ارتباطها بما سبق. وبالطّبع، إنّ ما أقوله هناتحت عنوان الارتباط، هو أشياء أذكرها بناءً على تصوّري ولا يوجد شاهدٌ قطعيٌّ عليها. فالميدان مفتوحٌ للاستنتاجات والأفكار والإدراكات. وينبغي أن تُطالع وتُكتشف جهة المناسبة. ولكن بنظرنا يمكن استنتاج بعض الأمور.

أوّلًا، إنّ جميع المسائل بالنسبة للّه، الذي هو فوق كلّ هذا العالم وفي مستوىً وأفقٍ ما فوق تصوّر الإنسان - كما ذكرنا - في

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٧.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ١١٨.



مستوًى واحد. فبالنسبة للّه لا تختلف القضايا الكلّيّة المرتبطة بالبشر عن القضايا الجزئيّة، فجميعها واحدة بالنسبة له تعالى، إنّ كلّ شيء واحد. وما هو أساس سعادة الإنسان مطروحٌ بعنوان أمرٍ واحدٍ بالنسبة لربّ العالم، ولا فرق إذا كان هذا الأمر جزئيًّا أو فرعيًّا أو مرتبطًا بشخصٍ أو بجماعة أو كان عموميًّا ومرتبطًا بجميع البشر.

ثانيًا، فلنغوص في قضيّة الذبح والتزكية بشكلٍ دقيق. فماذا يعني وجوب أن نذكر اسم اللّه أثناء ذبح الحيوان الذي يريد أن يأكله الإنسان؟ أنتم تعلمون أنّ المشركين والقبائل والأمم والشعوب التي لم تحظَ بالتوحيد كانت تأتي بأسماء المعبودين في كلّ مناسبةٍ وموقعيّةٍ وعند أيّ عمل؛ باسم المسيح مثلًا، كما جاء في الروايات في مورد المسيحيين. ونحن نعلم أنّ الأصنام الدنيوية والقوى الموجودة في الدنيا كانت تسعى دائمًا لذكر أسمائها عند افتتاح أو ديباجة أيّ عملٍ يقومون به. وكلّ عملٍ يبدأ باسم غير اللّه سيكون له جهة غير إلهيّة حتمًا.

فعندما تقومون بعملٍ ما من أجل المال، أو من أجل هوى النفس، أو من أجل قضايا من هذا القبيل، تحت ذلك الاسم أو ذلك الذكر، فإنّ وجهة هذا العمل عند الشروع به على اللسان أو في الذهن ستكون حتمًا وجهة ذلك الشيء. فالعمل الذي يُنجز مع ذكر المال أو من أجل المال، ستكون وجهته هي المال وتحصيله وستكون مسيرته أيضًا من البداية وحتّى النهاية على هذا الأساس المادّي، فيكون العمل في توجّهه وحركته من أجل المال ولا يُطرح أمامه أيّ شيءٍ آخر.

أمّا العمل الذي يُشرع به باسم اللّه وبذكر اللّه، فإنّ وجهته





ستكون وجهةً إلهيّةً وستكون توجّهاته توجّهات متناسبة مع أمر اللّه. فيُقال لنا حتّى ذبيحتك عندما تريد أن تذبحها ينبغي أن تكون باسم اللّه. أي إنّ أولى حاجاتك، وهي الغذاء، ينبغي أن تكون باسم اللّه وللّه. وعندما تملأ معدتك يجب أن يكون ذلك لأجل اللّه؛ ونتيجة هذا الأمر، إنّ ملء المعدة لن يكون أصلًا، بل الأصل هو اللّه. وإذا شعرت ذات يوم أنّك تريد أن تملأ معدتك وكان ذلك سيؤدّي لبُعدك عن اللّه، فاترك هذا الأمر ولا تملأها واتركها جائعة فارغة ولو أدّى ذلك إلى موتك، فالمهمّ أن لا تتحرّك خلاف الوجهة الإلهيّة؛ من أجل أيّ شيء؟ من أجل أنّ هذه المعدة، وإن كان الإشباع من الحاجات الأساسية، لكنّها ليست الأصل في حياتك، لأنّ الأصل في حياتك هو اللّه والتوجّه إلى اللّه. هذا ما يعلّمنا إيّاه «باسم اللّه» أثناء ذبح الخروف، وباسم اللّه أثناء تناول الطعام. فابدأ ببسم اللّه حتّى في أكلك، وابدأ ببسم اللّه حتّى في سعيك ومشيك، وابدأ به في دخولك وخروجك وذهابك وإيابك، وفي بيتك، وفي دكّانك، وفي كلّ أعمالك.

فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّ تمام توجّهات حياتك في سعيك لتأمين أيّ احتياج ولو كان من الحاجات الأوّلية يجب أن يكون طبق أمر اللّه وفي سبيل اللّه. ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. هكذا يقول إبراهيم: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، في أيّ مجال من مجالات حياتي، لا في صلاتي وحركاتي ومساعي فحسب، بل حتّى في غذائي وطعامي؛ فنطاق وجودي كلّه بيد اللّه، وفي نطاق قدرته وحكمه. وإن كانت ذبيحة فافعل

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٢.



ذلك أيضًا. إلّا أنّ الكافر القرشي يقوم بذلك على نحوٍ، والكافر غير القرشي على نحوٍ آخر؛ فعندما يقوم كلٌّ منهما بذبح الخروف، وعندما يأكل ويعيش ويفتح دكّانه، لا يكون الأمر باسم غير اللّه وذكره فحسب، بل يكون باسم غير اللّه وبذكر غير اللّه.

اتّخذوا هذه الذبيحة أنموذجًا؛ واعتبروا أنّ ذكر اسم اللّه أثناء ذبح الخروف هو أنموذجٌ ورمزٌ - وإن كان هذا الأمر بحدّ ذاته حكمًا فقهيًّا يستلزم ذكر اللّه قطعًا أثناء الذبح - للاحتياجات الأساسية والأصيلة للإنسان، فماذا يعني هذا؟ يعني أنّه ينبغي أن تجعلوا أكثر احتياجات الإنسان ضرورةً وأولويّةً وأصالةً في سبيل اللّه وأن تطلبوها من أجل اللّه. فإذا أكلت لقمة الخبز من أجل أن تزيل جوعك فكُلها في سبيل اللّه، واجعل ما كان في سبيل اللّه من أجل أن يعطيك اللّه القوّة في بدنك. ومن الواضح أنّ الطاقة التي تتولّد في بدن الإنسان من أجل اللّه ينبغي أن تُنفق في سبيل اللّه أيضًا، فهذه نتيجةٌ منطقيّة، و٢+٢ = ٤. فانظروا كم أنّ الأمر دقيقٌ.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾[1]، فما هو دليلكم؟ وما الذي حصل حتّى لا تأكلوا ممّا ذُكر اسم اللّه عليه؟ ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ في حين أنّ اللّه تعالى قد بيّن لكم بالتفصيل والبيان ما هو حرامٌ عليكم، وكلّ ما عداه وفي حال الاضطرار هو حلالٌ لكم. ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾، فهؤلاء بأهوائهم وهوسهم يخرجون الناس عن الصراط المستقيم

(١) سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٨ و١١٩.

ويضلّونهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وطبق إشارة هذه الآية، فإنّ الذين يضلّون الناس بغير علمٍ هم معتدون ومتجاوزون.

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، هناك من الأعمال ما تكون مشاكله وسوء عواقبه ظاهرة، فمن الواضح والمعلوم أنّ قتل النفس هو عملٌ سيّء، وأنّ سلب الكائن الحيّ روحه بدون مرجّح هو عملٌ إجراميّ، فالإثم في هذا العمل واضحٌ وبيّن. وهناك من الأعمال ما لا يكون الإثم فيه بارزًا وظاهرًا وجليًّا، وهناك الكثير من الأشياء التي لا يدرك الإنسان كم هي كبيرة؛ فالكلام بدون علم، والاتّباع بغير علم، والاستخفاف باسم اللّه وذكره، وطاعة غير اللّه، والاستماع إلى أوامر غير اللّه، كلّها أشياء لا يتصوّر الإنسان كم لها من مضارّ وعواقب سيّئة، فهي مخفيّةٌ وباطنةٌ. ولكن يجب على كلّ حال اجتناب هذين النوعين من الآثام والذنوب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾، فلكلّ معصيةٍ نتيجةٌ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ وهذا الفسق هو عبارة عن الخروج عن الدين. وهنا يتمّ التركيز على أهميّة ذكر اللّه واسم اللّه أيضًا.

في بداية ذكر هذه الآيات، كان هناك إشاراتٌ مفيدةٌ لنا حينًا بعد حين فيما يتعلّق بهذا المطلب الذي بيّنّاه هنا. وبالطبع إنّكم كلّما ازددتم تدبّرًا، اتّضح الأمر أكثر، ولكنّ القسم الأساسي لاستدلالنا واستنادنا هو القسم الأخير من هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾، يلهم أقطاب الشرّ والشياطين أولياءهم وأتباعهم وخلفاءهم لكي يجادلوكم. فالشياطين أقطاب الفساد يعبّئون أتباعهم وحلفاءهم من أجل أن يأتوا إليكم ليباحثوكم ويجادلوكم، فما هو تكليفكم تجاه أولياء الشيطان هؤلاء؟ ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ ولكن أنتم ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ



إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فانظروا كم أنّ الشرك واضحٌ. إنّ طاعة الشيطان الذي هو قطب الشرّ ومقابل الرحمن أي مقابل اللّه في النهاية، فإنّ طاعته وهو قطب الشرّ، أو طاعة أوليائه أي عملائه وآلة أفعاله وأتباعه وحلفائه وعبيده، ستؤدّي إلى أن تصبحوا مشركين، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

القسم الثاني هو من سورة الشعراء. وإنّ أجمل وأنفذ البيانات بالنسبة للناس في مجال الكثير من المعارف، سواءٌ في القرآن أو في الحديث، هي التي يكون فيها تصويرٌ أو تجسيمٌ للقيامة. فعندما يُراد تجسيم مطلبٍ ما للمستمع بصورةٍ دقيقة - وهكذا في الأحاديث - ولكي ينفذ إلى أعماق روحه، فإنّه يتمّ تصوير ساحةٍ من ساحات القيامة له، حيث أنّ الحادث الذي ينعكس هنا وهناك هو من هذا القبيل أيضًا. ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فالجنّة تُقرَّب بالنسبة لأهل التقوى؛ وهو يذكر هنا يوم القيامة؛ غاية الأمر أنّه يستعمل صيغة الماضي، فالمضارع المحقّق الوقوع يُعبّر عنه باللغة العربية بصيغة الماضي، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، أي سوف تأتي هذه الساعة.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، لقد ظهرت جهنّم للضالّين وللمخدوعين، والغواية هي الإضلال، وأغويناهم أي أضللناهم، و«الغاوين» هم المنخدعون. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، فأين هي تلك الأشياء والأشخاص الذين عبدتموهم بدلًا عن اللّه؟ أين تلك الأقطاب التي تعلّقتم بها في حياتكم وعبدتموها، أين هي؟

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٩٠.



التفتوا ها هنا جيّدًا إلى كلمة العبادة في قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ولكنّنا نرى مَن هم هؤلاء الذين كانوا يعبدونهم لكي يُعرف معنى العبادة.

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، ينتصرون هنا بمعنى يُنصرون. ومن المعلوم أنّ هذه المعبودات محتاجةٌ إلى النصرة، لهذا فهي من الأناسي. وكذلك كون هذه المعبودات هي من نوع الإنسان لا من نوع الحجر والخشب والأصنام الفاقدة للروح، ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾، فكلّ من قام بعملٍ على نحوٍ ما من أجل إبليس وقدّم له خدمةً ما، وتحرّك على طريق إضلال خلق اللّه، فإنّه على كلّ حالٍ سوف يجد مستقرّه في جهنّم ومعاده إليها. ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾، فكلّ طائفةٍ ترمي بذنوبها على الأخرى وتحمّل الأخرى مسؤوليّة ضلالها رغم أنّهم جميعًا في جهنّم. ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. وبالرغم من وضوح ضلالهم يقولون إنّنا لم نكن ندرك أنّنا في ضلال بالرغم من أنّهم لو رجعوا إلى أنفسهم قليلًا لعرفوا ما اقترفوا من أخطاءٍ وأي مسيرٍ خطرٍ قد سلكوه وأيّة عاقبةٍ مهلكةٍ كانت تنتظرهم.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، يقسمون باللّه ويعترفون بالسبب الذي أضلّهم وهو عملهم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. كان علينا أن نخاف من اللّه ولكنّنا خفنا منكم؛ وكان علينا أن نطيع أمر اللّه ولكنّنا أطعنا أوامركم؛ وكان علينا أن نتقرّب إلى اللّه ونسعى لرضاه لكنّنا تقرّبنا إليكم؛ كان علينا أن نطلب الرزق من اللّه

---

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٩٧.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ٩٨.





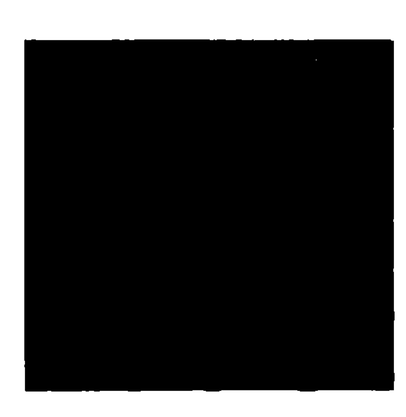
ولكنّنا طلبناه منكم؛ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]، وهنا يعلنون عن تمنّيهم أن يرجعوا إلى الدنيا ليصبحوا مؤمنين؛ ولكنّ كلّ هذه الواقعة والساحة هي عبرةٌ وعلامة وآية؛ فإنّ أكثرهم لم يكونوا أصحاب إيمان.

فانظروا، كيف يجري الحديث في هذه الآيات عن الأشخاص الذين كان الناس يعبدونهم. وعندما ندقّق في أحوال كلّ واحدٍ منهم، سنرى أنّ عبادتهم كانت بمعنى أنّهم اتّبعوهم وساووهم باللّه وكانوا يطلبون منهم ما كان ينبغي أن يطلبوه من اللّه، وقد راعوا آراءهم وما كان ينبغي أن يفعلوا ذلك في سبيل اللّه.

الجلسة الثانية عشرة

التوحيد ونفي الطبقية

الإثنين، ١٣ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

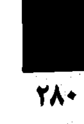
[سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٤ و١١٥]



لقد ذكرنا سابقًا أنّ التوحيد عقيدةٍ عمليّةٍ تبعث على الالتزام، وهي تلقي على عاتقنا مجموعة من الالتزامات والمسؤوليّات ينبغي أن ندركها. وبالطبع، إنّ هذه المسؤوليّات لا تختصّ بالحياة الفرديّة للبشر، بل إنّ الاعتماد الأكبر فيها هو على الحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي وشكل المجتمع. فعندما يدخل التوحيد إلى أيّ مجتمع، فإنّ أوّل عمل يقوم به هو بناء ذلك المجتمع بشكلٍ يتناسب مع هذه العقيدة. وبعد القيام بهذا الانجاز، يأتي دور إلقاء التكاليف والمسؤوليّات على الإنسان الموحّد كفردٍ في هذا المجتمع.

وعلى كلّ حال، يجب التعرّف على هذه المسؤوليّات. وقد عبّرنا عن هذه المجموعة من المسؤوليّات بمعاهدة التوحيد. قلنا إنّ التوحيد هو معاهدةٌ تُقدّم إلينا وفيها مجموعة من المقرّرات والإلزامات التي تُطلب منّا. وإذا أردنا نحن أن نتمكّن إن شاء اللّه من بناء الحياة التوحيدية، يجب علينا أن نتعرّف على هذه الإلزامات والمسؤوليّات الآن.

فأوّل هذه المسؤوليّات في التوحيد هي انحصار عبوديّتنا





وطاعتنا بالله. وقد بيّنّا هذا المطلب فيما مضى. والآن نتحدّث عن الإلزام الثاني الذي يلقيه التوحيد على عاتق الفرد الموحّد، والمجتمع الموحّد، والعالم الموحّد، وهو تحت هذا العنوان المشخّص: التوحيد والقضاء على الطبقية (نفي الطبقات الاجتماعية).

إنّ المجتمع التوحيدي وطبق هذا المصطلح الذي وصل إلى أسماعكم هو مجتمعٌ لا يوجد فيه طبقات أو طبقية؛ لا يوجد فيه فصلٌ بين جماعاته البشريّة على أساس الحقوق والمزايا. فجميع الناس في هذا المجتمع يعيشون تحت سقفٍ حقوقيٍّ واحد، والكلّ يعيشون ويتحرّكون ضمن مسيرٍ واحد ويتمتّعون بنوعٍ واحدٍ من الإمكانات ونوعٍ واحدٍ من الحقوق. هذا هو المجتمع الذي يقدّمه ويعرضه التوحيد أمام أذهاننا وتصوّراتنا من ناحية الطبقية الاجتماعية.

وإذا رجعنا إلى التاريخ، سنجد أنّ الاختلاف الطبقي كان من الآلام المزمنة على مرّ التاريخ وفي جميع المجتمعات. ولم يكن الأمر منحصرًا في المجتمعات القبليّة المتخلّفة، ولا في المجتمعات البعيدة عن الحضارة، بل إنّه شمل تلك الدول والمناطق التي تُعدّ من أمّهات الحضارة البشريّة، ومهدها. ففي تلك الأماكن أيضًا، ظهرت الاختلافات الطبقية في أبشع صورها وأكثرها بغضًا، كما أظهرت صفحات كتاب التاريخ.

في الواقع إنّ الظلم الأكبر في التاريخ، ووصمة العار الكبرى في تاريخ البشريّة هي الاختلافات الطبقية. فماذا تعني؟ إنّها تعني أن يعيش الناس في المجتمع ليسوا متساوين فيما بينهم، فمنهم من يكون محكومًا عليه بمعاناة الحرمان وأن يكونوا خدمًا للجماعات



الأخرى ويجب عليهم أن لا يشتكوا من هذا الحرمان والعذاب. وجماعةٌ أخرى ينبغي أن تتمتّع بالامتيازات وتكون لذّة العيش من نصيبها ويمكنها أن تستفيد من جميع الامتيازات دون أيّ إشكال. ففي الهند مثالٌ مناسبٌ جدًّا لهذا الأمر. أنتم تعلمون أنّ الهند هي مهد الحضارة الآريّة، وقد جاء العرق الآريّ من هذه المنطقة منذ بداية المدنيّة، ومنذ بداية تشكّل الشعوب والجماعات. ويُقال إنّ العرق الآريّ قد هاجر من الأراضي الشماليّة ومن سيبيريا وعندها تشعّب إلى فئتين: واحدةٌ سكنت الهند وأخرى إيران. والذين سكنوا في الهند كانوا أسرع إلى المدنيّة والحضارة من الذين جاؤوا إلى إيران وعاشوا فيها.

إنّ مهد الحضارة الإنسانيّة، أو إحدى هذه المهاد، هي الهند التي تضجّ فيها الخلافات الطبقية. يُقال إنّ في الهند أربع طبقات أساسية. الطبقة السفلى ويوجد فوقها مئات الطبقات التي تكون بين هذه الطبقات الأربعة الأساسية. وإذا أردتم أن تتعرّفوا على التفاصيل يمكنكم أن ترجعوا إلى الكتب المرتبطة بتاريخ الأديان، وكلّ من كان لديه مثل هذه الرغبة والتوجّه، فليقرأ ويطالع ويتفكّر قليلًا ويقارن مع التوحيد والقرآن. لقد قُسّم الناس هناك إلى أربع طبقات: الطبقة الأولى وهم البراهمة ورجال الدين والروحانيّون الذين اعتُبروا الطبقة الاجتماعية العليا. والطبقة الثانية هي قادة الجيش وأبناء الأمراء، وبالطبع بين هاتين الطبقتين يوجد خلافاتٌ ومناكفاتٌ كثيرة. ففي السابق، كان أبناء الأمراء في الطبقة العليا، وكان الروحانيّون في الطبقة الثانية، وعلى إثر مجموعة من العوامل التي حدثت والاضطرابات التي جرت، تمكّن الروحانيّون والبراهمة من أن يحوزوا على الطبقة العلمية والعُليا وجعلوا قادة الجيش






وأبناء الأمراء والإقطاعيّين في الطبقة الثانية.

وإذا عبرنا الطبقة الثانية، نصل إلى طبقة المزارعين والعمّال والصناعيّين. وكما نلاحظ، إنّ الطبقة الأولى والثانية لا تعمل، ولم يكن للبراهمة من عمل سوى قراءة بعض الأوراد والأذكار وتحريك أياديهم، كما لم يكن للإقطاعيّين والدهّاقين وأبناء الأمراء من عمل سوى أن يزدادوا ثراءً وتملّكًا للأراضي وتوسعةً لسلطاتهم وسيادتهم. أمّا الصناعيّون والمزارعون، فقد كانوا يتولّون الأعمال المتعلّقة بكلّ هذه الأراضي. والطبقة الرابعة هي عامّة الناس؛ فمنهم الكسبة ومنهم مَن يقوم في المجتمع بالأعمال اليدويّة والمحقّرة. ولأنّ هذه الطبقات الأربعة كان جميعها من الآريّين، فقد كان أيّ عنصرٍ من خارج هذا العرق الآريّ يوسم بالأجنبي ويُعدّ نجسًا، وكانت هذه الطبقة تُسمّى بطبقة الأنجاس.

وبالطبع، إنّ ما أذكره هنا الآن موجودٌ في التاريخ الذي امتدّ وامتدّ وامتدّ حتّى وصل إلى القرن العشرين. وفي الهند - وما أذكره لكم الآن حول الهند بقي ساريًا بكلّ قوّته واعتباره حتّى السنوات القريبة الماضية – أزال غاندي، قائد الهند المتوفّى، تسمية طبقة الأنجاس والمنحطّين، وقال أيّ نجاسةٍ تلك؟! أمّا الرئيس السابق للهند، نهرو[1]، وابنته التي هي رئيسة الدولة الآن، فقد كانا من

---

(١) جواهر لال نهرو (١٨٩٨ - ١٩٦٤ م.) من قادة نهضة استقلال الهند. تخرّج بفرع الحقوق من جامعة كامبريدج والتحق بنهضة استقلال الهند وحزب المؤتمر بعدما شاهد معاناة الهنود وظلم الإنكليز لهم في أحداث الحرب العالميّة الأولى. وقد انتُخب كرئيس للوزراء بعد استقلال الهند. وانتُخبت ابنته أيضًا انديرا بعده مباشرةً لنفس المنصب.



البراهمة أي من الطبقة العليا، كما كان والده پنديت نهرو من هذه الطبقة أيضًا. ولأنّه كان معارضًا للدين، ولم يكن متديّنًا، فقد كان يكره أن يُقال له من البراهمة، وأن يُطلق عليه اللقب المخصوص بهم. وعلى كلّ حال، أردتُ أن أقول إنّ هذه الأشياء لم تكن مرتبطة بالتاريخ القديم كثيرًا. بعد أربعة عشر قرنًا أو ثلاثة عشرة قرنًا ونيّف على ظهور شمس التوحيد القرآنية، نجد أنّ الهند التي كانت مهد التمدّن والحضارة البشريّة كانت تعاني من وجود الخلافات الطبقية.

وسأقوم أنا بالتفصيل حول الحديث عن الخلافات الطبقية. وكما ذكرنا، يوجد بين كلّ طبقة وطبقة عشرات بل مئات الطبقات الفرعيّة بحسب ما كتبه «جون ناس»[1] في تاريخ الأديان. وفي ذلك الوقت، لم يكن التزاوج أو التواصل أو السلام باليد أو الجلوس في المقابل أو المشي سويًّا مسموحًا بين الطبقات، وقس عليه. فقد كان ثمّة جدار فولاذيّ يفصل بين هؤلاء جميعًا. فلماذا يحصل هذا الأمر؟ ولماذا لا يكون للبراهمة أيّ نوعٍ من الاتّصال مع المزارعين أو الكسبة العاديين أو ذاك الشخص المسؤول في الجيش؟ وأيّ امتيازٍ طبيعي ممّا لم يكن لذاك الشخص العامّي العادي؟ فلو سألنا مثل هذا السؤال، هل تعلمون ماذا سيكون جوابهم؟ كانوا سيقولون إنّه فضولي موقوف! وذلك لأنّ الناس في أصل خلقتهم وتكوينهم قد خُلقوا أنواعًا، وهذا الأمر لا يرتبط بالقانون والجعل والوضع من قبل زيد وعمر وأمثالهم، بل قالوا إنّه يرجع إلى أصل الخلقة. فقالوا

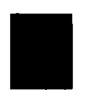
---

(١) كتاب تاريخ جامع الأديان تأليف «جون ناس» يبحث في الأديان والمذاهب القديمة في العالم وإلى العصر الحديث في أربعة أجزاء. والأديان القديمة والماضية هي أديان الهند وأديان الشرق الأقصى، وأديان الشرق الأدنى.



عندما أراد براهما الربّ العظيم أن يخلق الكائنات، وعندما أراد أن يخلق الإنسان، خلق البراهمة من رأسه، أمّا الدهّاقين وقادة الجيش وأبناء الأمراء فقد خلقهم من يديه، وخلق المزارعين من عضده، أمّا أبناء الطبقة العاملة فخلقهم من قدميه. وأمّا باقي الطبقات النجسة، فهي ليست من خلقه في الأساس وليس لهم جذور طاهرة لأنّه لا ينتمون إلى هذا العرق. فعندما خلق براهما الطبقة الرابعة من قدمه فأيّ حقٍّ لها أن تعتبر نفسها متساوية مع البراهمة الذين خلقهم من رأسه؟! فيؤكّدون بذلك على أنّهم غير متساوين في الخلقة، وهناك مجموعةٌ من الناس لهم أصولٌ أشرف ويستحقّون المزيد من الاحترام ولهم المواهب الطبيعية والامتيازات الذاتيّة!! مثلما أنّ الحرمان هو نصيب الطبقات الدنيا. هذا هو المنطق الذي كان سائدًا.

فكرّوا الآن، هل يمكن للاختلافات الطبقية أن تزول من مثل هذا المجتمع؟ هل أنّ مثل هذا الشيء ممكن؟ وكيف يمكن أن يصبح ممكنًا؟ برأيكم، مَن الذي يمكنه أن يقضي على الخلافات الطبقية في مثل هذا المجتمع الذي تجذّرت فيه النزعة الطبقية؟ وهل أنّها الطبقة العُليا والمستفيدة التي ستقوم بالتخلّي عن حقوقها في سبيل اللّه؟! هذا وهم وخيال. فلو أريد القضاء على الخلافات الطبقية في هذا المجتمع، فلا بدّ للطبقة المحرومة أن تقوم بالمطالبة بحقوقها وبامتيازاتها وأن تعترض على الامتيازات الزائدة التي تتمتّع بها الطبقات العليا. لكن من المستحيل للطبقة الدنيا في مثل هذا المجتمع الذي تحدّثت عنه، أن تعترض، لماذا؟ لأنّها تعتقد بأنّ هذا هو الوضع الطبيعي وتؤمن أنّها خُلقت على هذه الشاكلة من الأصل، فلا يمكن تغيير أصل الخلقة، ولا يمكن





القيام بأيّ عملٍ من أجل ذلك.

عندما يعتقد الإنسان أنّ الطبيعة والفطرة والخلقة الأوّلية التي جعلها اللّه له قد كانت بصورةٍ خاصّة، فمن المستحيل أن يتوقّع غير هذه الصورة ويأمل بتبديلها والوصول إلى المزايا والحقوق التي لا تتناسب مع وضع خلقته وطبيعته. لا أحد يستطيع أن يغيّر حظّه[1]. فنحن كما يُقال قد أُلبسنا منذ البداية هذا اللباس الأسود، ونحن أصحاب أصولٍ سيّئة ولا يمكننا أن نقوم بأيّ شيءٍ لتغييره. فإذا أخذتم الأسود وغسلتموه في البحار، فإنّه لن يتبدّل وسيبقى على سواده. فمن كان أسود منذ بدايته فكيف يمكن أن يتبدّل؟! لا بل إذا غسلتم عنه الغبار والتراب، فإنّ سواده سيظهر أكثر ويزداد سوادًا!! بناءً عليه، وكما لاحظتم، فعبر التاريخ، كان مثل هذا الظلم الكبير موجودًا في هذه المجتمعات، ولم يكن من وسيلةٍ للقضاء عليه أبدًا.

بالطبع، فقد ظهر مصلحون وقاموا بتبديل الأفكار. دقّقوا جيّدًا بهذه الملاحظة التي أنا بصدد الحديث عنها لأنّ هذا يُعدّ من علامات فلسفة الأديان الاختصاصيّة. عندما يأتي المصلحون يقومون أوّلًا وفي البداية بتبديل الأفكار وتغيير الثقافة، ويقولون أوّل ما يقولون إنّ تلك الفلسفة خاطئة لأنّ الناس قد رضوا بالأوضاع الظالمة على أساس الخطأ الموجود في تلك الفلسفة. فهذا

---

(١) للشاعر حافظ

به گوش جان رهی منهیی ندا درداد — ز حضرت احدی لا اله الا اللّه
که‌ای عزیز کسی را که خوری ست نصیب — حقیقت آنکه نیابد به روز منصب وجاه
به آب زمزم وکوثر سفید نتوان کرد — گلیم بخت کسی را که بافتند سیاه





تحليل صحيح للتحوّلات التاريخيّة. وليس من الصحيح أن نقول إنّ الأوضاع تتبدّل أوّلًا، وأوّل ما يتغيّر هو الشكل الاجتماعي، ثمّ تتبدّل الفلسفات والأفكار بعدها، كلّا. فالمصلحون يأتون أوّلًا، وهذا هو تاريخنا، تاريخ مشرق الأرض. فأولئك الذين يفكّرون بتلك الطريقة ويحملون تلك الفرضيّة، هم برأينا لم يطالعوا تاريخ مشرق العالم، وإنّما اكتفوا بقراءة تاريخ أوروبا. فهذه هي الهند، وهذه الصين، وهذه إيران، وهذه مصر، لقد وُجد فيها المصلحون أوّلًا، وقاموا في بداية الأمر بتبديل الأفكار. هم مصلحون دينيون بدّلوا الفلسفات، وعندما تبدّلت الفلسفات والأفكار، تهيّأت الأرضيّة لتغيير الوضع الاجتماعي والنظام الفاسد الحاكم على المجتمع. أجل، لقد كان الأمر على هذا المنوال طوال التاريخ.

لقد لاحظتم، هكذا كانت الهند، وفي إيران أيضًا كان الوضع على هذا المنوال، وكذلك في مصر والصين. لقد كانت الأوضاع على هذا المنوال في أيّ مكانٍ وجدتم آثارًا للحضارة. فماذا يعني ذلك؟ لقد كان يُقال: بما أنّ النّاس قد خُلقوا على نحوين وجُبلوا من أصلين وفطرتين وطينتين أو أكثر، فإنّ حقوقهم الاجتماعية ينبغي أن لا تكون متساوية، ولا يجب أن يتساووا في أمورهم، وكلّ من يدّعي خلاف ذلك، فهو مخطئٌ.

ثمّ جاء الإسلام، ونفى عقائد الشرك وتعدُّد الآلهة، وقضى على الأرباب المصطنعين، ولم يعد إلّا اللّه الواحد الأحد. أولئك الذين كانوا يتخيّلون أنّه يوجد عدّة آلهة، قام كلّ واحدٍ منهم بخلق جماعة من الناس، وعلى هذا الأساس كانت كلّ جماعةٍ ذات مميّزات ومشخّصات مختلفة، وقد وقعوا في خطإٍ فادح. فثمّة إله واحد خلق العالم كلّه، وتدبيره وتربية العالمين كلّهم في



قبضة قدرته. وقد خلق الناس جميعًا سواسية. فالكلّ من أصلٍ واحد ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ والكلّ من طينةٍ واحدة، وفطرةٍ واحدة، وأصلٍ واحدٍ، ومنشإٍ مادّيٍ واحد. والآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1].

قلنا إنّ جميع الناس من أصلٍ ومنشإٍ وجذرٍ واحدٍ؛ والكلّ قد جاؤوا إلى هذه الدنيا بنوعٍ واحدٍ من الأجهزة والمعدّات؛ وإنّ كلّ الناس لديهم الاستعداد للوصول إلى الأوج والعروج إلى التكامل اللامتناهي. الكلّ يمكنهم أن يصبحوا أعظم وأعظم وأعظم. هذا الاستعداد موجودٌ في الجميع. وبالطبع، عليكم أن تلتفتوا إلى أنّه يوجد من الناس مَن هم أعلى مِن المستوى العادي للبشر بصورةٍ محسوسة وهم الأنبياء والأئمّة؛ وهؤلاء جميعًا ليسوا داخلين في هذه القاعدة الكلّيّة. وما ذكرناه من أنّ كلّ إنسانٍ يمكنه أن يحلّق ويصل إلى المطلق، لا يعني أنّ كلّ إنسان يمكنه أن يكون نبيًا أو إمامًا من خلال السعي والمجاهدة؛ فمثل هذا الأمر يرتبط ببحثٍ آخر عن كيفيّة صيرورة البعض أنبياء وأئمّة. ومن الممكن أن نشير إلى هذه القضيّة بصورةٍ مختصرة في الأبحاث اللاحقة إذا استطعنا ووجدنا سبيلًا لحديثٍ آخر.

وبالإجمال، إنّ الأنبياء والأئمّة، صلوات اللّه عليهم، يتمتّعون بإمكاناتٍ أعلى، وفيهم من الخصائص ما ليس موجودًا في الناس العاديين؛ وأنتم تعلمون أنّ هؤلاء في عددهم قلّة، وهم استثناء، أمّا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١.





الحديث فهو حول أفراد المجتمعات البشريّة بشكلٍ عام. وبالطبع، إنّ الأنبياء والأئمّة أنفسهم من جذورٍ ومناشئ مادّيّة، وهم في ذلك لا يختلفون عن الناس العاديين أبدًا، «أبوهم آدم والأمّ حوّاء»[1].

يمثّل هذ الأمر أحد التعاليم الإسلامية، ففي ظلّ التوحيد يتعلّم الناس جميعًا ويتمّ إثبات وتدوين هذه القضيّة لهم، وهي: أنّه لا يوجد أيّ نوعٍ من الخلافات الطبقية في المجتمع. فذاك المجتمع الذي يحقّقه الإسلام لا يوجد فيه الجماعات المتفرّقة والطبقات؛ ولا يمكن أن يكون هناك من الناس من يتمتّع بحقوقٍ لا يتمتّع بها جماعاتٌ أخرى؛ وفي ذاك المجتمع لا يُقال إنّ الناس تشكّلوا من أصلين وجذرين أو خُلقوا من منشئين أو أكثر؛ وفي ذلك المجتمع لا يُقال إنّ هناك من خُلق من تراب وهناك على سبيل الفرض من خُلق من النور. وباللحاظ المادّي، إنّ منشأ الجميع هو أمرٌ واحد. بناءً عليه، فإنّ التوحيد الذي يعني الإله الواحد، وأنّ تدبير وخلق وإدارة العالم تتحقّق من إلهٍ واحد، هو الضامن لنفي الطبقات الاجتماعية.

كما أنّ الطبقات الاجتماعية لم تكن دائمًا على الوضع الذي كانت عليه في الهند - كما ذكرت وبيّنت-، ولم تكن هذه الخلافات الطبقية في الأماكن المختلفة من العالم نابعةٍ من فلسفةٍ واحدة أو من تلك الفلسفة التي ذُكرت. فما أكثر تلك المجتمعات والشعوب والملل التي كانت تعرض فلسفتها وادّعاءتها وتصوّراتها بين الناس

---

(١) الشيخ محمّد باقر الكجوري، **الخصائص الفاطميّة**، ترجمة سيّد علي جمال أشرف (انتشارات الشريف الرضيّ، الطبعة ١، ١٣٨٠ هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٥١٦.



والتي تقول إنّ الجميع بمستوىً واحدٍ ولكنّهم من الناحيّة العمليّة كانوا يعيشون مثل تلك الاختلافات الطبقية كما هو الحال الآن في عالم اليوم الذي نعيش فيه.

فانظروا اليوم إلى العالم، وخصوصًا إلى العالم الرأسمالي، وبالأخصّ إلى تلك الدول التي وصلت من الناحية الماديّة إلى أوجّها، كيف أنّ الخلافات الطبقية مشهودةٌ على نحوٍ بارز. وبالطبع، إنّهم لم يقولوا هناك أبدًا إنّ العمّال والأسياد قد خُلقوا من منشئين أو جذرين خلقيّين؛ كلّا، إنّهم لا يقولون إنّ ذاك السيّد صاحب الشركة الفلانية العظيمة أو ذاك الكارتيل الفلاني يختلف مع ذاك العامل في المناجم من ناحية الجذر والأصل! كّلا، لكنّهم من الناحية العمليّة يتصرّفون على هذا النحو؛ وتلك القوانين والمقرّرات التي يضعونها لهاتين الجماعتين تؤدّي إلى ذلك الوضع المسلكي في المجتمع الذي لا يختلف كثيرًا عن ذلك المجتمع الذي كان أهله يعتقدون بالأصول المتعدّدة للخلقة والمناشئ.

فبالنسبة للبعض تكون الإمكانات لامتناهيّة، وبالنسبة لغيرهم تكون الإمكانات بحدود الصفر. هناك جماعة تستغلّ جميع ثروات العالم لمصالحها، وأخرى لا يُسمح لها أن تنال ما تكّده بأيديها. فالخلافات الطبقية تصدق على هذا المعنى أيضًا، وهي موجودة في عالمنا اليوم؛ بل إنّني أريد أن أقول إنّ الاختلافات الطبقية اليوم هي أشدّ قبحًا وأذًى من الاختلافات الطبقية التي كانت في ذاك الزمان. كان الماضون يقولون بصراحةٍ إنّنا مختلفون فيما بيننا، أمّا هؤلاء فيدّعون أنّنا جميعًا إخوة ومن أصلٍ واحد وإنّنا ندافع عن حقوقكم؛ لكنّهم في الواقع العملي كما نرى ليسوا كذلك، بل يحافظون بشدّة على تلك الامتيازات. وقد نشاهد أحيانًا في مقام





إجراء المقرّرات الحقوقيّة أنّه من المساواة، على سبيل المثال، معاقبة شخص من الطبقة العُليا ارتكب الجرم الفلاني؛ ولكنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ القضيّة لها أسبابٌ أخرى، ونرى أنّ تلك الخلافات الطبقية ما زالت على حالها وحافظت على تلك الامتيازات الاجتماعية بقوّتها. وفي الحقيقة، إنّ كلّ أنواع الاستمتاع والاستفادة تنحصر في عدد خاصّ وتبقى الأكثرية الساحقة محرومة، وإنّ أوّل الأشياء التي حُرمت منها تلك الطبقات هو الفهم والإدراك والرشد الكامل والصحيح.

إنّ الإسلام يرفض جميع هذه الأمور. وأنا أقول إنّ ما يُستفاد من مجموع آيات القرآن الكريم في مجال رفض الطبقية الاجتماعية - عندما أفكّر فيها أجدها كثيرة جدًّا، وسوف أبيّن زاويةً من هذه المعارف الموجودة في هذه الآيات التالية التي تشير إلى ذلك الأمر - هو باختصار على الشكل التالي:

إنّ الخالق والمعبود والمدبّر لجميع الأمور هو اللّه. هذا هو كلام الإسلام. فخالق الجميع هو موجودٌ واحد وهو اللّه. وأنتم تقولون ما هو الفارق؟ إنّه فارقٌ كبير. فلو أنّنا قلنا إنّ الخالق اثنان – على سبيل الفرض - فإنّ ذلك المجتمع وتلك الفلسفة الثنويّة ووجود إلهين سيكون له تأثيرات كثيرة وأوّلها هو أنّه سيؤدّي إلى وجود جماعتين في المجتمع. وعندما نؤمن بربٍّ واحد فمعناه أنّ أبناء المجتمع هم جميعًا في صفٍّ واحد، وجماعةٍ واحدة، وطبقة واحدة؛ فالكلّ إخوة والكلّ في مستوًى واحد. وإنّني هنا أتوجّه إلى لوازم هذه الجملة وليس لي دخلٌ الآن بلوازم تلك الفلسفة القديمة والمنسوخة. أريد أن تلتفتوا إلى أنّنا عندما نعتقد بإلهٍ واحدٍ فماذا يعني ذلك؟ إنّ الإله واحد، لا تعدّد للآلهة، يعني أنّ عباده كلّهم



في صفٍّ واحد وليسوا موزّعين على صفّين وطبقتين. فهذا هو أحد معاني الوحدانيّة ونفي الثنويّة؛ وبالطبع إنّ هذا ليس هو المعنى الوحيد للتوحيد. فعباد اللّه هنا ليسوا على طبقتين بل هم طبقةٌ واحدة، وذلك لأنّ إلههم واحد وخالقهم واحد.

فهل أنّ اللّه عندما خلقهم كان له توجّهٌ حبّيٌّ إلى جماعةٍ منهم أكثر من غيرهم؟ ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[1]، واللّه تعالى يذكر إحدى جرائمهم في موضعٍ آخر، ويشمت بهم ويقول: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾[2]، فلو كنتم مقرّبين إلى اللّه ومن جماعته وأحبّائه، لماذا كنتم تقتلون أنبياءه؟ لماذا قتلتم عباده الذين اصطفى؟ لماذا؟ فاليهود كانوا يقولون نحن أبناء اللّه وجماعته المقرّبة فنتمتّع بامتيازٍ خاصّ! كلّا، الإسلام يقول إنّ هذا كلامٌ خاطئ. وفي موضعٍ آخر يقول اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[3]. حسنٌ، أعرِضوا إذن عن هذه الحياة السخيفة وارتحلوا إلى ربّكم المحبوب العزيز الذي هو لكم. وبعدها يقول ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ فهل يمكن لليهودي أن يتمنّى الموت؟!

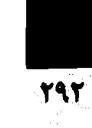
فالخالق والمعبود والمدبّر لأمور الكلّ هو اللّه. وهذه القضيّة غايةٌ في الأهميّة، حيث إنّه إذا كان الخالق والمعبود واحدًا، فلا بدّ أن يكون الناس في طبقةٍ واحدةٍ ومستوًى واحدٍ. فالكلّ قد خُلقوا من أصلٍ وجذرٍ ماديٍّ واحد. وعلينا أن ندقّق في هذه الكلمة المادّيّة

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٨.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٩١.

(٣) سورة **الجمعة**، الآية ٦.





ونعتمد عليها بشكلٍ خاصّ. فمن الناحية الماديّة ومن جهة بناء البدن وتشكّله، فإنّ جميع الناس قد خُلقوا من أصلٍ وجذرٍ واحد، ولا يتمتّع أيّ شخصٍ في الخلقة من مزيّةٍ تكون منشأً لامتيازات واستفادات حقوقيّة محدّدة. دقّقوا جيّدًا في هذه القضيّة. لا يعني ذلك أنّه لا يتمتّع بمزيّةٍ معيّنة؛ لماذا؟ لأنّه من الممكن أن يحقّق بعض الناس استعدادًا خاصًّا ضمن ظروفٍ محدّدة فتكون هذه مزيّة معيّنة. ومن الممكن أن يُخلق بعض الناس بصورة النوابغ من ناحية ظروف الخِلقة المحدّدة. ومن الممكن أن يولد البعض من أبٍ وأمٍّ يتمتّعان باستعدادات مميّزة فيكون البعض أقلّ استعدادًا والبعض الآخر أكثر قدرةً، والبعض الآخر أضعف وأنحف، والبعض أجمل، والبعض أبشع، فهذه الاختلافات موجودة ولكنّ جميع هذه الاختلافات لا تكون منشًا للامتيازات الحقوقيّة. فلا يلزم لمن يكون متمتّعًا ببعض القوى الجسميّة الإضافيّة أن يكون متمتّعًا بحقوقٍ اجتماعية إضافيّة، الأمر ليس كذلك، كلّا وأبدًا. فلا يلزم لمن يولد في بيتٍ أرستقراطيٍّ وذي نفوذٍ في الدنيا أن يتمتّع بالمزيد من الإمكانات، أبدًا. فإنّ الإسلام إذْ افتتح مدرسةً فينبغي أن تكون لجميع الأولاد؛ وإذا قام بدور التربية والتعليم، فإنّ ذلك ينبغي أن يكون للجميع. ولو أنّه منح الناس إمكانيّة التكسّب والسعي والعمل في الحياة، فذلك ينبغي أن يكون للجميع. فحقوق العمل ينبغي أن تكون مفتوحةً للجميع.

وفي المجتمع الإسلامي الذي يكون تحت سلطة الحكومة الإسلامية وفي ظلّ أحكامها، لا يحتاج أحدٌ من أجل أن يدرس، أو يعمل، أو يفهم شيئًا، أو يكسب مالًا، أو يحصل على شغل أو مهنة حتّى في أعلى المقامات، لدفع الرشاوى. هكذا يكون



المجتمع الإسلامي ميدانًا وسيعًا يفتح ملايين السبل لملايين الناس لكي يسعوا ويستفيدوا ويسارعوا في هذا الميدان نحو الأهداف والمقاصد المادّيّة والمعنويّة فلا إشكال في ذلك أبدًا؛ لأنّ السبيل مفتوحٌ أمام الجميع؛ وذلك على خلاف الأنظمة غير التوحيدية وخلافًا للأنظمة الجاهلية التي تعبّد الطريق للبعض وتجعل الأشواك والموانع والسدود على طريق البعض الآخر. وبقول الشاعر سعدي: يقيّدون الحجر ويطلقون الكلب؛ فالأمر في المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن يكون هكذا.

في المجتمع الإسلامي، يستطيع الجميع أن يصل إلى أعلى المقامات. حسنٌ، أنتم ترون أنّ بلال الحبشي قد وصل إلى مقام المؤذّن - ولا تقارنوا بأيّامنا هذه حيث يشعر المؤذّن بنوعٍ من الذلّة وغالبًا ما لا يأتي- فمقام المؤذّن هو مقامٌ عظيمٌ جدًّا وجليل في الإسلام، ولا يكون أيّ شخصٍ مؤذّنًا نظرًا لعلوّ هذا المقام. فبلال الأسود الحبشي الذي كان من بيئةٍ اجتماعيةٍ وضيعة، وبلحاظ المعايير الاجتماعية لذلك الزمن، نراه يصل إلى مقام المؤذّن وهو المقام العالي أو من أعلى المقامات. وكان سلمان الفارسي بحسب المعايير السائدة في ذلك الزمان من بيئةٍ دانيةٍ أيضًا لأنّ العرب كانوا يعدّون أنفسهم الأرقى ويرون كلّ من سواهم أدنى منهم. حسنٌ، هذا سلمان الذي كان فارسيًّا ومن أهل أصفهان، ولعلّه لم يتعلّم اللغة العربية بنحوٍ صحيح، فلعلّه أو من المسلّم أنّه لم يكن يتكلّم بطريقةٍ صحيحة، نجده يصل إلى الولاية والحكومة على منطقةٍ واسعة؛ ومن هذا القبيل الكثير.

بناءً عليه، لا يوجد أيّ إنسانٍ يتمتّع من حيث الخلقة بمزيّةٍ تكون منشأً لامتيازاتٍ حقوقيّة ولو أنّه تمتّع ببعض الامتيازات



والخصائص. إنّ الامتيازات والمواهب موضوعة أمام الجميع وترتبط بسعيهم المستمرّ ومجاهدتهم. إنّ كلّ الأشياء وجميع المراتب والمقامات بل كلّ العالم منه سبحانه وتعالى - لقد ذكرت ذلك ما عدا تلك المقامات الخاصّة لهداية وقيادة البشر التي تكون تعيينًا إلهيًّا صرفًا وتُعدّ من قبل اللّه تعالى، ولا أقصدها في كلامي الآن -، وجميع البشر فقراء في حضرته وعليهم أن يطلبوا منه ويسألوه وأن يأخذوا منه ويتلقّوا ويفتحوا أيدي الضراعة والتوسّل إليه؛ فهناك الكلّ في صفٍّ واحد والكلّ سواء.

إنّ الإمام السجّاد، صلوات اللّه عليه، الذي هو حفيد النبي وابن أمير المؤمنين وابن فاطمة الزهراء وابن الحسين بن عليّ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كان عليه أن يتضرّع ويناجي ويبكي ويذرف الدموع ويسعى سعيه. وأيّ إنسانٍ لا ينتمي إلى هذه العترة الطاهرة كذلك ينبغي أن يتضرّع ويناجي ربّه على هذا المنوال. وكان على الإمام الباقر والإمام الصادق، صلوات اللّه عليهما، أن يعملا ويستخدما المعول من أجل التكسّب في الدنيا، وكذلك أيّ شخصٍ عاديٍ عليه أن يحمل الفأس بيده. ولا أضرب الإمام الصادق مثالًا، فأمير المؤمنين، صلوات اللّه وسلامه عليه، كان يعمل أيضًا وعمله كان في أيّام حكمه وفي أيّام سلطته. وقد كان في زمان النبي أحد أكبر قادة الجيش في جميع الحروب، كان يحمل المعول ويذهب للقيام بأعمال الزراعة ويعمل لحفر الآبار وأشياء من هذا القبيل. انظروا، إذا أردتم أن تحصلوا على المال يجب أن تعملوا، وإذا أردتم أن تنالوا العلم فيجب أن تدرسوا، وإذا أردتم المقام السياسي فيجب أن تقوموا بالسعي المطلوب. وإنّ طريق السعي مفتوحٌ أمام الجميع، فالكلّ وأيّ شخصٍ إذا سعى يصل.



إنّ منطق الإسلام هو هذا. وبالطبع، يمكن أن نشاهد هذا المنطق كثيرًا وبوضوح في جميع أنحاء القرآن وفي الآيات المختلفة. وأنا هنا أيضًا أرجعكم إلى القرآن ومتنه، فاذهبوا وافتحوه وانظروا فيه نظرة تدبّرٍ لكي لا نكون مشمولين بهذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

أمّا ما يرتبط بسورة المؤمنون من الآية ٨٤ إلى الآية ٩١ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، فاللّه يخاطب نبيه ليقول للمشركين، هؤلاء المشركون الذين كانوا يقسّمون ويحدّدون مناطق نفوذ أربابهم، يا أيّها النبي لمن هذه الأرض ومن فيها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. حسنٌ إنّ مشركي مكّة كانوا يعتقدون باللّه وكانوا يعتبرون أصنامهم شفعاء عند اللّه، ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، فما معنى العرش؟ وما هي السماوات السبع؟ لقد ذكرنا بعض ما يتعلّق بهذه الأمور بصورةٍ مختصرة في الأبحاث السابقة ولم نتطرّق إلى البعض الآخر لعدم وسع المجال لذلك. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنّ قدرة وملك الربّ قد شملت السماوات والأرض. ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فلماذا إذن لا تجعلون أعمالكم وأفكاركم متطابقةً مع كلامه وأوامره؟

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ فله الحكومة والسلطة المطلقة والكلّ بيده. وأولئك الذين حصلوا على

---

(١) سورة **محمّد**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٨٤.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٨٦.

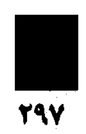




تلك القوى والإمكانات، فإنّهم قد تسلّطوا على ظاهر جسمٍ معين. فأنتم عندما تملكون بيوتكم وعندما تنقلون قطعةً من الآجر من مكانٍ إلى مكان، فإنّ تسلّطكم يكون بهذا المقدار. وعندما تنقلون قطعةً من الحديد من مكانٍ إلى مكان وتقومون بتلحيم قطعتين من الحديد أو بفصلهما عن بعضهما البعض، فإنّ سلطتكم على هذه القطعة من الحديد تكون بهذا المقدار. أمّا ذاك الذي هو مسلّطٌ على جميع ذرّات أجزاء هذا الموجود وتكون حركات ذرّاته بيده وتحت أمره وتكون جميع النباتات في نموّها والحيوانات والبشر في حركاتهم الداخليّة وكلّ أشيائهم بقبضة قدرته فهو اللّه.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو الذي يجير ويؤمّن ولا يكون لأحدٍ القدرة لأن يجير أحدًا آخر من دون إذنه ومقابل قدرته؛ فيُجار عليه. فافرضوا أنّ المسيحيين يعصون اللّه ويلجأون إلى عيسى وعيسى بدوره يجيرهم ويعطيهم ملاذًا ويحميهم من اللّه، فهل يمكن حدوث هذا؟ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ إنّه يعطي لأيّ موجودٍ أو أيّ إنسانٍ الملاذ الآمن؛ ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ فلا يمكن لأحدٍ أن يعطي هذا الملاذ رغمًا عنه أو ضدّه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فمن هو هذا؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. فإنّ قولهم إنّ اللّه بيده ملكوت كلّ شيء، هو الذي يجير ولا أحد يجير رغمًا عنه ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فقل لهم كيف تُخدعون؟

ومن اللطيف أنّ القرآن يركّز على الخداع وعلى البقاء في الغفلة. فهو دومًا لا يريد للناس أن يبقوا في الغفلة ولا أن ينخدعوا، بل أن يفتحوا عيونهم. فإنّ القرآن مؤكّدٌ تمامًا من أنّ الناس لو فتحوا أعينهم لتحقّق ما يريد وهو حقّ. وكلامنا اليوم هو هذا. فإنّنا نقول لو أنّ عالم اليوم فتح عينه، فإنّ قرآننا هذا سوف يكون له حكومة





العالم. غاية الأمر أنّ كلّ أنواع الجهل والغرور لا تسمح بذلك، ومن جانبٍ آخر فإنّ الأيدي الخائنة لا تسمح بفتح العيون.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ فإنّنا جعلنا الحقيقة بين أيديهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. لقد أوضحنا لهم الأمر وجعلنا الحقّ أمامهم، ورغم هذا الوضع الذي أوقعوا أنفسهم فيه من الناحية الفكريّة أو العمليّة، فإنّهم يتذرّعون ويبرّرون ويختلقون الأعذار ويؤلّفون المبرّرات الكاذبة. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

دقّقوا أيضًا، فإنّ محلّ الشاهد ومحور التّكيز في معظمه موجودٌ في هذا القسم؛ وبالتأكيد فإنّ الآيات السابقة أيضًا تدلّ على ما هو مورد النظر. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾، لو أنّه كان من المقرّر وجود عددٍ من الآلهة، فإنّ كلّ إلهٍ سوف يجلب إليه مخلوقاته؛ وهذا هو الاختلاف، وهو الاختلاف الطبقي بين الناس. وهذا ما يعني زوال الانسجام والوحدة في الخلقة سواءٌ كانت خلقة العالم أو الإنسان. وذاك الذي يعتقد بوجود ربٌّ للنور، وربٌّ للظلمة، وربٌّ للإنسان، وربٌّ للطبقة العليا، وربٌّ للطبقة الدنيا، فإنّه في الواقع قد جعل عالم الخلقة هذا منقسمًا إلى عشرات الأقسام المنفصلة المتزايلة. أمّا وفق نظرة التوحيد، فإنّ عالم الخلقة هو قطعةٌ واحدةٌ متّصلةٌ ومنسجمةٌ. فالإنسان والحيوان والجبل والفلك والموجودات هي جميعًا متّصلةٌ ومرتبطةٌ ببعضها البعض ويوجد بينها حالٌ من الوحدة. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

والقسم اللاحق هو من سورة البقرة الآيتان ٢١ و٢٢: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. الخطاب هنا ليس متوجّهًا إلى طبقةٍ عُليا أو سُفلى، بل





هو لكلّ الناس، وهو ليس خطابًا متوجّهًا إلى الأبيض أو الأسود، أو إلى جماعةٍ معيّنة من البشر، بل إنّه يخاطب كلّ الإنسانيّة. وإنّنا نركّز هنا على هذه الكلمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هذا الربّ الواحد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فهذه العبادة وتلك العبوديّة تؤدّي إلى تحقّق التقوى. فمن الأشياء التي تحقّق التقوى هذه الحالة الفضلى الملفتة - وقد شرحت سابقًا معنى التقوى - من الصيانة من المعصية التي توجد في روح الإنسان وفي قلبه هي عبوديّة اللّه. ولهذا، فإنّ المجتمع الذي يعيش جميع أفراده حالة العبوديّة للّه ويتّخذ هذا المجتمع شكل العبوديّة للّه، فإنّ التقوى تكون متوفرّةً فيه أنّى نظرت. فالتقوى تكون كثيرةً أينما حلّت ولا يكون في التقوى قحطٌ مثل عصرنا وزماننا هذا.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾، انظروا فكلّ شيءٍ هو للجميع. فبمن يتعلّق قوله ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾؟ إنّه يقصد جميع الناس. ﴿ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ وهو بسط الأرض، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ فهي ثابتةٌ محكمةٌ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾، سواءٌ كان من الفاكهة والثمار لكنّه ليس رزقًا لطبقةٍ خاصّةٍ منكم، فيأكل الباقون منهم بعنوان الصدقة، كلّا، فإنّ الرزق للجميع. وحيث كان الأمر كذلك، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ ولا تقسّموا الناس إلى جماعاتٍ وفرق بجعلكم الأنداد والمنافسين والأضداد للّه الواحد، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

ثمّ يأتي دور سورة الحجرات وهذه الآية المعروفة والتي تنتشر على الألسن كثيرًا هي الآية ١٣: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ هنا الخطاب مجدّدًا لجميع الناس، وفي الديوان المنسوب





إلى أمير المؤمنين، صلوات اللّه وسلامه عليه، يبيّن في بيتٍ شعري مضمون هذه الآية:

الناس من جهة التماثل أكفّاء أبـوهـم آدم والأمّ حـوّاء

فالكلّ متساوون من ناحية المنشأ وأصل الخلقة، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فكلّ هذا التشعّب ووجود القبائل هو من أجل التعارف. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، هذا حكمٌ إسلاميٌ قاطعٌ في مجال نفي الطبقية الاجتماعية؛ فلا الانتماء إلى طبقةٍ محدّدةٍ أو أسرةٍ أو سلالةٍ وآل يؤدّي إلى الكرامة أو الأفضليّة. وهنا أيضًا يوجد نقطةٌ أكثر إلفاتًا وأدقّ، فأولئك الذين هم من الأتقياء والذين لهم الأفضليّة على غيرهم لا يتمتّعون بالامتيازات الحقوقيّة الإضافيّة. فليس الأمر أنّ الأتقياء يستحقّون المزيد من المال ولهم حقوقٌ أكثر على المستوى الاجتماعي ويتمتّعون بالمزيد من الأمور. كلّا، فليس الأمر كذلك، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، أي أنّهم عند اللّه أكثر عزّة. وبالطبع، إنّ التقوى منشأ مجموعة من الآثار الاجتماعية إلى حدٍّ ما ولكن ليس كثيرًا. فإنّ بعض المناصب والمهمّات مشترطة بالتقوى، فقط إلى هذا الحدّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ويوجد قسمٌ آخر وهو المتعلّق بالآية الموجودة في سورة الإسراء وهي الآية ٧٠: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. لقد هيّأ اللّه لبني آدم وسائل السير في اليابسة وفي المياه إكرامًا لهم؛ ورزقناهم من الطيّبات - ولعلّ قوله ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يشير ضمنًا إلى وجود العلاقات بين الناس، فلو أنّهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من نقطةٍ إلى أخرى لما أُتيحت لهم



هذه الفرصة، ولما كانت لهم هذه الخصوصيّة، بل لحصل التفرّق والانفصال داخل المجتمع الإنساني. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، فمن هم هؤلاء؟ والحديث يدور حول مَن؟ ومَن أكرمنا؟ ومَن الذين رزقناهم الطيّبات؟ ومَن الذين فضّلناهم على كثيرٍ من المخلوقات والكائنات؟ إنّهم البشر جميعًا، لا سلالة أو طبقة خاصّة.

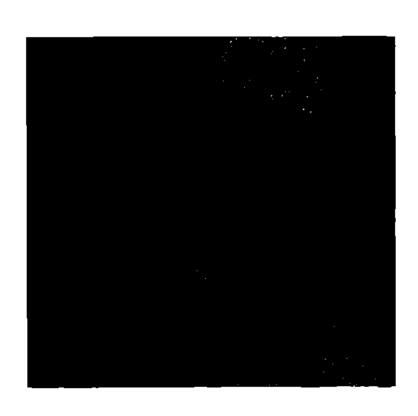
اللهمّ بمحمّد وآل محمّد اجعل القرآن ملاذنا في الدنيا والآخرة.

بمحمّدٍ وآل محمد، اللهمّ لا تمنعنا خيرك عن طريق تعلّم القرآن.

الجلسة الثالثة عشر

الآثار النفسيّة للتوحيد

الثلاثاء ١٤ رمضان المبارك ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

[سورة **آل عمران**، الآيتان ١٧٢ و١٧٣]



لقد أُنجِزت أبحاثٌ متعدّدة في مجال التأثيرات التي يتركها التوحيد في متن المجتمع وحول الشكل الذي يضفيه على المجتمع البشري والمجتمع التوحيدي، وبالطبع يوجد أبحاثٌ أخرى في هذا المجال، نغضّ النظر عن إكمالها لأسبابٍ عدّة.

وأهمّ هذه الجهات هي أنّ التّأثير التوحيدي مثلًا والرؤية التوحيدية في الأمور الماليّة للمجتمع التوحيدي تُعدّ من المواد المهمّة لمعاهدة التوحيد. في هذا المجال، يجب ولا شكّ البحث كثيرًا ولكن استنتاج هذا المطلب من آيات القرآن هو عملٌ فيه دقّةٌ وتمعّنٌ وليس بابًا للأبحاث والجلسات العامّة. وإن كان قد ورد في القرآن تعبير ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾[1]، وهو يقصد المساكين والمحتاجين، فإنّه يبيّن الرؤية التوحيدية في مجال المال في هذا العالم. إنّ مثل هذه الأمور موجودة لكن إذا أردنا أن نستنتج ونستنبط من مجموع الآيات المرتبطة بالبُعد المالي من منظار الرؤية التوحيدية، فإنّ العمل سيكون ضمن البيئة العلمية

(١) سورة **النور**، الآية ٣٣.





الخاصّة ويحتاج إلى الدقّة والتمعّن ولا يجدر أن نضعه في صفحات مصوّرة فقط وصرف النظر عنها.

البُعد الآخر للتوحيد هو أنّه لدينا أبحاثًا أكثر ضرورة في مجال الأصول الاعتقاديّة والأيديولوجيّة للإسلام؛ فما زال هناك كلامٌ في هذا المجال، ومن الضروري أن ننهي هذه الأبحاث مع نهاية شهر رمضان إذا أُعطينا الفرصة والعمر لكي نصل إلى حدٍّ معيّن. ومن الواضح أنّه إذا أردنا أن نتقدّم أو أن نسير على هذا المنوال ونبحث جميع الفصول والقضايا، فإنّنا لن نصل إلى الهدف المرجوّ، وهذه هي الجهة الثانية أيضًا. وفي الإجمال، كانت هذه أسبابٌ، بغضّ النظر عن الاستمرار في البحث حول الآثار الاجتماعية للتوحيد في هذا المجال.

واليوم، وإن كان حديثنا عن التوحيد، لكنّه بحثٌ يتناسب مع الأبحاث الأولى التي قدّمناها في مجال الإيمان وآثار الإيمان وبشائره التي قدّمها للمؤمنين. فالإيمان الذي تحدّثنا عنه هناك هو تلك الحالة الاعتقاديّة المنتجة للعمل والمولّدة لتحملّ المسؤوليّة والتعهّد. وبالطبع، قلنا إنّ هذا الإيمان ينبغي أن يكون مبنيًّا على الوعي، ولا ينبغي أن يكون إيمانًا أعمى، وأن يكون مجرّدًا وعاريًا وبعيدًا عن العمل الصالح، لقد كانت هذه أبحاث قدّمناها سابقًا. والاعتقاد بالتوحيد هو إيمانٌ. هو الإيمان الموحّد الواعي، وهو إيمانٌ ينتج العمل وتحمّل المسؤوليّة. والمسؤوليّة التي يلقيها التوحيد على عاتق الموحّد هي أعظم المسؤوليّات وأكثرها ثقلًا وتأثيرًا بين جميع العقائد الإسلامية والدينية. إنّ مسؤوليّة التوحيد من جانب أيّ شخصٍ موحّد يمكن اختصارها في الحقيقة في مسؤوليّة بناء عالمٍ توحيدي، فالمسؤوليّة التوحيدية بنظر الموحّد وبالنسبة





للموحّد عبارة عن الالتزام بالقضاء على جميع أنواع الشرك؛ هذه هي مسؤوليّات التوحيد.

وهنا أريد أن أذكّر بنقطةٍ أوجّهها للأصدقاء والإخوة الذين لديهم نوع إلمامٍ باللغة العربية. فكلمة التوحيد هي على وزن تفعيل. ولو سألتم أيّ طالب علم عن كلمة التوحيد ماذا تعني وما هو معناها اللغوي، فإنّه سيقول إنّ معناها جعل الشيء واحدًا. فالتوحيد في النهاية هو من الوحدة، ومشتقٌّ من مادّة الوحدة، والوحدة هي جذره. فالتوحيد بصيغة تفعيل كما نقول نحن طلّاب الحوزة هو عبارة عن جعل الشيء واحدًا. فماذا يعني جعل الشيء واحدًا؟ إنّ ذلك يعني أن نجعل الآلهة المتعدّدة بصورة إلهٍ واحدٍ، وأن نجعل المجتمع غير التوحيدي مجتمعًا توحيديًا، وجعل ذهن المشرك وقلبه ذهنًا وقلبًا موحّدًا. فالتوحيد وجعل الشيء واحدًا كلّه تعهّدٌ والتزام. ففيه السعي والعمل والفعل فهذا ما تستلزمه كلمة التوحيد من الأساس. وهذه نقطةٌ يؤدّي التوجّه والالتفات إليها إلى إيجاد وعيٍ خاصٍّ في الإنسان تجاه قضيّة التوحيد.

حسنٌ، الاعتقاد بالتوحيد هو إيمانٌ بهذه العظمة وهذه المسؤوليّة الثقيلة والقاطعة والمصيريّة. فإنّكم لو أخذتم أيّ واحدٍ من العقائد الإسلامية الأخرى أو الدينية أو أيّ عقيدة اجتماعية غير إسلامية، فإنّكم لن تجدوا المسؤوليّة النابعة منها بهذه الدرجة من الثقل والعظمة. فالقضاء على الفقر في المجتمع يُعدّ على سبيل المثال مسؤوليّةً أو أنّ توزيع الثروة بصورةٍ عادلة في أيّ مجتمع هو مسؤوليّة يمكن أن تكون موجودةً في مدرسةٍ أو مذهبٍ ما. والقضاء على الحروب هو مسؤوليّة يمكن أن تكون متبنّاة من قبل مذهبٍ معيّن، ويكون هذا المذهب قد أخذ على عاتقه مثل هذه





المسؤوليّة، ويكون أتباع هذا المذهب مسؤولين عن تحمّلها، حيث تنتقل إليهم بالتبع، وهذه صحيحة. لكنّ التوحيد بمعناه الصحيح والإسلامي، لا بمعناه الخُرافي المبني على الكسل والبطالة. فلو أخذنا التوحيد بهذا المعنى بعين الاعتبار الذي هو عبارة عن توحيد اللّه وجعل الحكومة إلهيّة والمجتمع إلهيًّا والقانون إلهيّا والنظام إلهيّا، فإنّه يشمل جميع هذه المسؤوليّات التي ذكرتها والتي يمكن أن تكون موجودةً في أيّ مذهبٍ أو عقيدة.

هذا، بالإضافة إلى وجود مسؤوليّاتٍ أخرى. انظروا كيف أنّ مسؤوليّة التوحيد مسؤوليّة ثقيلة جدًّا. فإنّ هذا نحو إيمان ولكنّه إيمانٌ واعٍ يتلازم مع المسؤوليّة؛ وهو في مسؤوليّته أثقل من كلّ المسؤوليّات الموجودة في جميع المباني الاعتقاديّة الدينية وغير الدينية، بالإضافة إلى قاطعيّته وشموليّته وجامعيّته، هذا هو التوحيد. فإذا كان الإيمان التوحيدي بهذا المعنى، وكان الإيمان به إيمانًا صحيحًا واقعيًا، فمن المناسب أن نقوم بدراسته لنرى تأثير هذا الإيمان وتأثير هذه العقيدة المولّدة للعمل على مستوى النفس والروح كيف ستكون، وكيف ينبغي أن تكون. هذه قضيّةٌ مستقلّة. فلنرَ هذا الشخص الذي يصبح معتقدًا بالتوحيد، وبأنّ اللّه واحدٌ في جميع زوايا ونطاقات الحياة البشريّة المختلفة، مثلما يكون اللّه واحدًا في جميع زوايا عالم التكوين، كيف ستكون آثار اعتقاده هذا على روحه ونفسه؟

إنّ الفائدة المرجوّة من هذا البحث هي أمران: الأوّل، أنّنا نصبح أكثر اطّلاعًا على التوحيد لنفهم التوحيد ببعده التعليمي على المستوى الروحي والنفسي. فلو أنّ شخصًا استنتج ذات يوم من التوحيد أمرًا مخدّرًا، فإنّنا سوف نقول له يا فلان إنّ تأثير التوحيد





ليس ما تقول بل إنّه ما نقول نحن وهو هذا. فمعرفتنا بالتوحيد هي الفائدة الأولى.

الفائدة الثانية: أنّنا سنتعرّف على أنفسنا ونرى هل نحن موحّدون أم لا. فذاك يكون من باب معرفة أصل التوحيد في قلوبنا. فكيف أفهم أنا أنّني موحّدٌ؟ وأنّى لي أن أعرف أنّ هذا الإيمان قد أثّر ونفذ في روحي وفي أعماق وجودي؟ فعندما أعلم ماهيّة التاثيرات الروحيّة للتوحيد وكيفيّتها، وعندما أتعرّف على آثار هذا الدواء القطعيّة في الوجود، عندها سأعرف، عندما أنظر إلى نفسي، إذا ما كانت هذه التأثيرات موجودة أم لا، وسأدرك ما إذا كان هذا الدواء الذي تناولته هو أصليٌ أو مزوّر، وإذا كان ما قُدّم لي في هذا المجال هو سليمٌ أم مقلّد. فإذا وجدت أنّ تلك الآثار المرجوّة ليست متحقّقة في نفسي، سأفهم عندها أنّ هذه العلبة من الدواء التي أُعطيت لي هي علبة مزوّرة ومقلَّدة ولم تكن سليمة، لأنّها لو كانت سليمةً وصحيحة لأوجدت في نفسي آثارًا مختلفة. وأنا العبد لو أردت أن أتحدّث عن مجالات الآثار الروحيّة والنفسيّة للتوحيد فإنّ البحث سيمتدّ ويطول.

ويمكن اختصار التأثير النفسي والروحي للتوحيد في عدّة جمل؛ الإنسان الموحّد ينال من الآثار التي تستقرّ في روحه من ناحية التوحيد وقبله أنّه يصبح صاحب سعة أفق. فالموحّد بعيدٌ وآمنٌ من ضيق النظر وقصره. فالإنسان الموحّد لا يقول إنّني هُزمت في هذا الميدان أو إنّ جبهتنا في هذا المجال قد تراجعت وإنّ عملنا قد انتهى بعاقبةٍ مضرّةٍ، فهو ليس قصير النظر إلى هذا الحدّ. إنّه يعلم أنّ الفكر التوحيدي يتّسع في نطاقه إلى ما يوازي عمر الإنسان بل عمر البشريّة. فبالمقارنة مع عمر البشريّة، فإنّ السنوات العشر





أو العشرين أو الخمسين أو المئة ليست سوى لحظة أو دقيقة لا أكثر. وببيانٍ آخر ومن زاويةٍ أخرى، فإنّ الإنسان الموحّد لا ينحصر أفق نظره في القضايا الماديّة والاحتياجات الدنيّة والحقيرة، فهو لا يتوقّف عندها. فالإنسان الموحّد عندما ينظر في مقابل نفسه، فإنّه يرى إلى جانب الاحتياجات الماديّة عشرات الاحتياجات بل مئات الاحتياجات من أعظم وأعزّ احتياجات الإنسان. ولا يتوقّف ذهنه وفكره وحواسّه عند الاحتياجات الدنيّة والصغيرة ويحصرها بها ولا يحبس نفسه ويسجنها، مثلما يحصل للذين يعيشون الماديّة في باطنهم، وإن كانوا بالظاهر إلهيّين ومعنويّين. الإنسان الموحّد عندما ينظر إلى المستقبل، فإنّه يراه أمامه وسيعًا بسعةٍ لا متناهية. ومثلما ذكرت في أحد الأيّام الماضية، فإنّ الموحّد لا يرى للعالم نهايةً، وذلك لأنّه يرى الدنيا متّصلةً بالآخرة. فالدنيا والآخرة بالنسبة له وجهان لعملةٍ واحدة، ولا يعدّ الموت حائطًا أمام الحياة ولا يفترضه نهاية الطريق، بل يعدّه نافذةً وممرًّا معبرًا إلى عالمٍ أوسع. هذه هي خواصّ التوحيد.

إنّ الإنسان غير الموحّد مهما كان مضحّيًا ومهما كان منشدًّا وتابعًا للمُثُل الشريفة والإنسانيّة، فإنّ كلّ شيء ينتهي بالنسبة له عند عتبة الموت؛ في حين أنّ الموحّد يكون الموت بالنسبة له بداية حياةٍ أوسع ودخولا إلى عالمٍ أجمل وألذّ. إنّ الإنسان المادّي، إن كان كثير التضحية، فإنّه يكون مستعدًّا لأن يرمي نفسه في تلك المنطقة التي تُعتبر بالنسبة له عدمًا، لكنّ الإنسان الموحّد، إن كان كثير التضحية، فإنّه في الأساس مثل فراشةٍ أو شمعةٍ لا يُتوقّع منها سوى أن تحترق وأن تتجاوز مصالحها الشخصيّة، ولكنّه إذا لم يكن بمثل تلك الحالة من التضحية ولم يصبح كذلك، ولم يُرد أن يكون مضحّيًا إلى ذلك الحدّ، فإنّ إلقاء نفسه في تلك المنطقة التي





يعتبرها المادّي عدمًا هو أسهل، وذلك لأنّه لا يراها عدمًا، فهناك عالمٌ آخر ومكانٌ مختلف، منطقةٌ أخرى من المناطق الواسعة للحياة الإنسانيّة، هكذا يعرفها وهكذا يعدّها.

ومن جملة التأثيرات الخاصّة بالتوحيد على مستوى نفس الموحّد هي أنّ التوحيد يجفّف جذور الخوف ويجعلها يابسةً في نفسه، وهذا الأمر مهمٌّ جدًّا. يوجد في القرآن عدّة موارد سيصل بعضٌ منها إلى أسماع السادة في هذه الجلسة، وستكون مورد تدبّرهم. نجد أنّ الخطاب يتوجّه إلى المؤمنين بقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فقوموا بتجفيف الخوف من الآخرين في قلوبكم ولا تخافوا إلّا اللّه، فالذي يخاف اللّه لن يخاف من غيره. فالإنسان الذي كان موحّدًا وكان له الاعتقاد بقدرة اللّه سوف يزول الخوف من نفسه. وأنا عندما أنظر وأتأمّل وأحسب الأمور، أرى أنّ الخوف والرعب يسلبان من أصحابهما الدنيا والآخرة. فالخوف من الفقر يؤدّي إلى امتناع الإنسان عن الإنفاق؛ والخوف من الابتلاء بأيّ نوع من المنغّصات والاضطرابات يؤدّي إلى أن يرتكب الإنسان الجنايات والفجائع ويوقع نفسه في الذلّ والهوان؛ والخوف من أن لا يتمكّن الإنسان أن يعيش يومين آخرين في هذا العالم وأيّة حياةٍ هي، وكيف سيعيش. والخوف من فقدان هذه الحياة الدنيّة الفاقدة للكرامة، التي لا يُعلم إذا كان الإنسان سيبقى فيها اليومين أو الثلاثة أيام المقبلة - فلا أحد لديه سندٌ رسمي أنّه سيعيش إلى العام الفلاني أو التاريخ الفلاني - يؤدّي إلى أن يقضي الإنسان على حياة الكثيرين ويقضي على الحياة الاجتماعية أو يجعلها مرّةً. والأطماع كلّها ترجع إلى الخوف، وكلّ أنواع الخوف هي جذور كلّ أنواع الهوان والخزي في حياة البشر. فأنتم لو تأمّلتم في صفحات التاريخ لتكتشفوا



ما هي الأشياء التي أدّت إلى أن يكون أتباع الحقّ أقلّيّةً، وما هي الأشياء التي أدّت بالناس إلى أن لا يتّبعوا الحقّ بعد معرفته، هناك حينما لم يتحرّك الناس العارفين بالحقّ نحو الحقّ؛ وما هي الأشياء التي أدّت إلى أن يرتكب الناس تلك الجنايات العظمى؛ هناك حيث رأيتم الناس يلوّثون أيديهم بالجرائم؛ فإذا طالع الإنسان وحقّق وبحث، سيرى أنّ منشأ كلّ تلك الأمور في الغالب هو الخوف!

بعد أن ابتُليت مسيرة المجتمع الإسلامي بالانحراف والانحطاط، فما هو الشيء الذي أدّى إلى أن يعجز المسلمون عن الحفاظ على الإسلام الواقعي، وعلى تلك الهدايا والنعم التي حباهم اللّه بها دون استحقاق وأوصلها إليهم؟ فالجيل الثاني أخذ كلّ شيءٍ بالمجّان، وإنّما كانت التضحيات من قبل الجيل الأوّل، فلم يكن وراء ذلك إلّا الخوف. فمن الذي لم يكن يعرف معاوية؟ أولئك الذين كانوا يحيطون بأمير المؤمنين ويعيشون في كنف تعاليمه وتربيته وخطبه، من منهم لم يكن يعرف معاوية؟ وفي الحجاز، نسأل من لم يكن يعرف معاوية بن أبي سفيان؟ ومن الذي لم يكن يعرف عبد الملك بن مروان؟ من مِن الناس لم يكن يعرف مَن هم آل بني أميّة؟ ومن هو الذي لم يجرّبهم ويختبرهم ولم يكن يفهم كلام القرآن وكلام النبي والوقائع التاريخيّة التي تدينهم؟ ومن الذي لم يتلمّس ذلك؟ الكلّ كان يعلم، لكن لم يكونوا يمتلكون سوى الخوف!

السبب الذي جعل الناس يستسلمون، والسبب الذي جعلهم يتعاونون، ويصبحون عملاء، وجعلهم يتلهّون ويعربدون في مقام العمالة، لم يكن سوى الخوف. هذا الخوف قد شمل الشرائح الدنيا والشرائح العليا من الشعب وصولًا إلى الشخصيّات المرموقة، أولئك الذين كان الناس يرجون فيهم خيرًا، أي أنّ الخوف

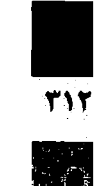


شمل الجميع. وقد كان عبد اللّه بن عمر[١] أنموذج المهانة وضعف النفس والتنكّر للحقّ. والتنكّر للحقّ يتلازم مع المهانة - كما قلت سابقًا - وإلّا فإنّ عبد اللّه بن الزبير كان في السابق متنكّرًا للحقّ أيضًا. وعندما ينظر الإنسان بوجه عبد اللّه بن الزبير الدميم المعادي لعليّ، فإنّه يمكن أن يتقبّل الأمر أكثر بالمقارنة بوجهٍ مثل وجه عبد اللّه بن عمر. فقد كان عبد اللّه بن عمر واحدًا من الرجال الذين لم يبايعوا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن قُتل عثمان، فلماذا لم يبايعه؟ لقد قال إنّ الأمر بالنسبة لي غير واضحٍ. فاحتاط بعدم مبايعة عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. كان ذلك بالنسبة له من منتهى الاحتياط في الدين، فبحسب ما رأى وبقوله وظنّه لم يكن هناك إجماع بين المسلمين على هذه القضيّة.

حسنٌ، فأنت إذا لم تكن مغرضًا ولم يكن في قلبك أطماعٌ وأمراضٌ ألم تسمع «أيّها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»[٢]؟ فأنت لم تسمع هذه الجملة من أمير المؤمنين، لكن ألم يصل مضمون هذه الجملة عن النبي ومن القرآن إلى سمعك؟ ألم تكن تعلم أنّ طريق اللّه وطريق الحقّ والهداية لا ينبغي أن يضلّ بقلّة أو زيادة أتباعه عن الطريق الآخر، وأنّه لا ينبغي للإنسان أن يبدّل على أثر ذلك قراره وعزمه؟ ألا ينبغي أن يرى إذا كان الطريق

(١) عبد اللّه بن عمر ابن الخليفة الثاني الذي لم يشارك في غزوات النبي بسبب صغر سنّه، وكان يتظاهر بالزهد. هو من تلك الزمرة التي لم تبايع أمير المؤمنين، وعندما هجم الحجّاج المبعوث من قبل عبد اللّه بن مروان لإسقاط آل الزبير إلى مكّة بايعه بصورة مذلّة وقد قُتل بعد مدّة على يد الحجّاج عام ٧٣ هجرية.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٨١.



طريق الهداية أم لا؟! فلأنّه لم ينظر إلى هذا الأصل الإسلامي المهمّ والمؤثّر في الحياة والذي يعني عدم النظر إلى ما يقوله الآخرون وعدم الاهتمام بالأكثرية الساحقة الأسيرة للجهل والأغراض كيف تعمل، فلأنّه لم يكن صاحب هذا الأصل، ولم يكن يعمل به، فقد ترك أمير المؤمنين ولم يبايعه بناءً على الاحتياط.

وبعد مرور سنوات وعندما استُشهد أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، وحكم معاوية لسنوات، فإنّ عبد اللّه بن عمر نفسه كان يعرف معاوية جيّدًا وعن قرب. فإن لم يكن معاوية معروفًا عنده في تلك الأيّام فقد عرفه على مرّ الأيّام. ثمّ جاء بعدها زمان يزيد ومرّت السنوات الثلاث المليئة بالخزي في تاريخ الإسلام، وأضحى مروان بن الحكم خليفة يزيد وهو والد عبد الملك بن مروان وقد حكم لمدّةٍ قصيرة، ثمّ جاء عبد الملك بن مروان إلى الحكم. وفي كلّ هذه المدّة، كان عبد اللّه بن عمر في المدينة في قلب المسائل والقضايا وفي صلب الحوادث والوقائع التاريخيّة، فلم يكن بعيدًا عمّا يجري أو غافلًا عن الأحداث التي تجري داخل المجتمع الإسلامي، ولم يعد أحدٌ من الناس بالنسبة له مجهولًا، فقد عرف بني أميّة جيّدًا. حينها جاء الحجّاج بن يوسف الثقفي الجلّاد الجزّار، المعروف لبني أميّة من جانب عبد الملك بن مروان، لفتح مكّة عندما كانت تحت سلطة عبد اللّه بن الزبير. هناك قاوم عبد اللّه بن الزبير وواجه بقوّة قوّات عبد الملك بن مروان التي جاءت من الشام، هناك وجدوا ضرورة إنهاء هذه الغائلة والقضاء عليها. وقد أرسلوا لذلك الحجّاج بن يوسف الذي كان الجلّاد الأقوى من بين الجميع، وهناك جاء إلى الجبال المحيطة بمكّة ووضع المنجانيق ورمى بها بيت اللّه الحرام وقتل بها عددًا كبيرًا من الناس، وبعدها





ذبح عبد اللّه بن الزبير وقطع رأسه.

جلس الحجّاج بن يوسف في خيمته لكتابة رسالةٍ تبشّر بالفتح ليوصلها إلى الشام مركز الخلافة، وكان عبد اللّه بن عمر من أهل مكّة وكان القرار أن يأتي الناس أفواجًا أفواجًا ليبايعوا الحجّاج بن يوسف، فلم يكن من الذين لا يعرفون الحجّاج، فالكلّ كان يعرفه. لم يكن الحجّاج معروفًا بالحُسن والدين والتقوى والخصائص الإسلامية، فالكلّ كان يعرفه بأنّه في منتهى الرذالة والانحطاط وأنّه مبعوث ذلك الشخص الأكثر انحطاطًا ورذالةً، لكن بما أنّه أصبح فاتحًا وأضحت السلطة بيده، ولأنّهم إذا لم يبايعوه فسيكون السيف مسلّطًا على رقابهم، فقد جاؤوا أفواجًا أفواجًا وبايعوا الحجّاح بن يوسف نتيجة الخوف. وكان عبد اللّه بن عمر من ضمن الآلاف الذين جاؤوا إلى خيمة الحجّاج التي نُصبت خارج المدينة. فقال: قولوا إنّ عبد اللّه بن عمر قد جاء، وكان يظنّ أنّهم سيحترمونه وسوف يستقبلونه بالأحضان ويحتفون به، ولم يكن يعرف أنّ السلطة من طبعها الاستخفاف وعدم الاهتمام. كان يتصوّر أنّهم سوف يرون له قدرًا لأنّه قد ساعد معاوية ذات يوم ولم يدعم آل النبي. لم يكن يعلم أنّ هؤلاء يأكلون من الصحن ويرمون به. فجاء وقال: إنّني عبد اللّه بن عمر. فقيل للحجّاج إنّ عبد اللّه بن عمر قد جاء؛ فقال لهم: أدخلوه؛ وعندما دخل لم يهتزّ الحجّاج له ولم يوله أيّ احترامٍ ولم يرفع رأسه من الورقة لكي ينظر إليه ويستقبله بحفاوة. فقال: أيّها الأمير، أعطني يدك أبايعها. فمن الذي كان يقول ذلك؟ إنّه عبد اللّه بن عمر. ولمن؟ للحجّاج.

عبد اللّه بن عمر الذي لم يقل لعليّ بن أبي طالب أعطني يدك أبايعك، واحتاط وكان احتياطه في الدين! وهنا يقول للحجّاج





أعطني يدك أبايعك. فماذا قال له الحجّاج؟ لقد قال له: إنّ يدي مشغولةً بالكتابة فبايع قدمي، ثمّ مدّ قدمه له وقام عبد اللّه بن عمر بمبايعة قدم الحجّاج بن يوسف. فالإنسان المنحطّ والجبان ولأجل أن يبقى حيًّا يومين آخرين، ويا ليت هذين اليومين كانا شيئًا مهمًّا! فليس فيهما أيّ ظفرٍ في الدنيا ولا في الآخرة، فكلّ ما فيهما هو العيش بعدّة كيلوغرامات من الطعام الحرام لا غير، حياة لا تقرّب الإنسان إلى اللّه بل تقرّبه إلى الشيطان، فلأجل هذين اليومين، هكذا فعل وجاء ليبايع الحجّاج وقدمه. فما هو منشأ هذا الأمر؟ إنّه يعود إلى شيءٍ واحدٍ وهو الخوف لا غير.

ولهذا، جاء في روايات أهل البيت، عليهم الصلاة والسلام، وفي هذه الأدعية المختصّة بشهر رمضان - وأنا أوصي كثيرًا بقراءة هذه الأدعية المأثورة عن الأئمّة والتوجّه إليها – ذكر هذه المطالب والقضايا الروحيّة والنفسيّة، أي ما يرتبط بروح الإنسان، وهي تركّز كثيرًا على هذه الأمور وتعتمد عليها بشكلٍ خاصّ.

في أحد هذه الأدعية الواردة عن الإمام السجّاد صلوات اللّه عليه - انظروا ما هي معارف الإمام السجّاد وتعاليمه - يقول: «وعمّرني ما كان عمري بذلّة في طاعتك»[1]. وأنا هنا أفسّر لكم هذه الجملة لكي يلتفت أهل الدعاء إلى أهميّته والسبب الذي جعلهم يركّزون عليه كثيرًا فلا يستخفّوا بقدره، ولكي لا يقرؤوا هذه الأدعية دون تفكيرٍ أو توجّه، بل يلتفتوا إلى معانيه جيّدًا. وثانيًا ليعلم الرافضون للأدعية أنّهم مع أيّ شيءٍ أو ضدّ أيّ شيءٍ ينهضون.

---

(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦ه)، الجزء ٣، الصفحة ٢١١٧.





وبالطبع، نحن ليس لدينا أعداء للأدعية بهذا المعنى، بل أولئك الذين يرفضون الدعاء عمومًا فليعلموا وليفهموا ما هي الأمور المودعة في هذه الأدعية القيّمة الموجودة فيها.

«اللهمّ عمّرني ما كان عمري بِذلّةً في طاعتك»، فهو يطلب العمر والعيش ولكنّه لا يطلبه بنحوٍ مطلق. إنّه لا يطلب من اللّه أن يعمّره أو يعطيه عمرًا يمتدّ لمئة سنة أو مائتي سنة على نحوٍ جُزاف؛ بل «ما كان عمري بِذلّةً في طاعتك»، فطالما أنّ عمره يُنفق في سبيل طاعة اللّه وفي طريق العبوديّة. فذلك العمر الطويل الذي يزيد من العبوديّة للّه هو ما أطلبه، العمر الذي يُنفق في السعي والعمل لا ذلك العمر المديد الجُزاف الخاوي.

«فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك»، وتذكّروا جيّدًا ما معنى الشيطان واستحضروه في أذهانكم، ذلك المعنى الذي ذكرناه للشيطان والقرآن ينطق به وهو القوى الموجدة للشرّ - أيّ شخصٍ يجرّ الإنسان والإنسانيّة نحو طريق الخطأ والمعصية والفساد هو الشيطان - فأينما وجدت عمري يصبح مرتعًا للشياطين ورأيته أصبح وسيلةً يستغلّها الشياطين ورأيت عمري مجالًا وأرضيّةً لكي تستفيد منها الجبهات المخالفة والمعارضة للّه ويجعلونني بوقًا لإعلامهم وآلةً وحربةً لأفعالهم ويستغلّون جهلي وغروري وتكبّري، وأينما وجدتني قد أصبحت وسيلةً لتحقيق السيّئات، وإفشال الصالحين والصالحات، فأينما وجدتني من الناحية العمليّة عبدًا للشيطان ولم أكن أعلم، وصرت مرتعًا له، «فاقبضني إليك» فهذا العمر لا أريده؛ هذا هو الدعاء.

فأقسم عليكم لو أنّ إنسانًا كان يقول هذا الكلام بروحه



وتصدر منه هذه الأقوال بمنتهى الصدق ويعيش توجّهًا قلبيًّا إلى معانيها أثناء النطق بها، فأيّة حالةٍ في حياته ستتحقّق؟ هكذا كان أئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام يعلّموننا ويقولون لنا إنّ الموت أفضل بدرجات من تلك الحياة التي ستكون وسيلةً لكي يستفيد منها أعداء اللّه.

حسنٌ، فلماذا تخاف من الموت أيّها التعيس! يا عبد اللّه بن عمر! لماذا؟ حسنٌ، فليقضوا عليك، فماذا يمكن أن يفعل لك الحجّاج؟ فليأتِ الحجّاج وليقضي على حياتك التي لا تعلم إن كنت ستعيشها لمدّة عشر دقائق بعد تلك البيعة المحفوفة بالعار أو عشر سنواتٍ أخرى، ولو عشت هذه الحياة كيف ستكون؟ فاترك الحجّاج يقضي على حياتك. ألم ترَ عبد اللّه بن عبّاس بأيّة مذلّةٍ وهوانٍ يرتحل عن الدنيا؟ عبد اللّه بن عبّاس الذي ترك عليًّا لوحده، والحسن، والحسين؛ لو أنّك تعتبر من مصيره يا عبد اللّه بن عمر!

لم يعش عبد اللّه بن عبّاس طويلًا، وكان قلبه مليئًا بالأسى. وكان ابنه المسمّى بعليٍّ بن عبد اللّه بن عبّاس، الذي أجلسه مقابله، يواسيه. وكان هناك بقرة أو عجل قد ذُبح، وكان كبده مريضًا ومتفتّتًا، فحمل هذا الكبد وأراه لابنه وقال له هل ترى كبد هذه البقرة أو العجل الذي ذبحناه فإنّ كبدي متفتّت أكثر منه. هكذا كانت حصيلة هذه الحياة. فما الذي حصل؟ فمدينة مكّة التي كانت ملاذ عبد اللّه بن عبّاس من غضب أمير المؤمنين ومحلّ راحته في مقابل المسؤوليّة التي ألقاها عليه أمير المؤمنين. هذه المدينة، مدينة مكّة، أضحت جهنّم عبد اللّه بن عبّاس. وأنا أقول إنّ توحيد عبد اللّه بن عبّاس لم يكن صحيحًا، وكذلك عبد اللّه بن عمر، فلو كانا موحّدين:



إنّ الموحّد لو غمسوه في الذهب
أو حملوا السيف على رقبته
فلا ينبغي أن يخاف من أحدٍ أو يطمع
هذا هو معنى التوحيد وفقط[١]

حقًّا يقول، إنّ أهمّ آثار التوحيد النفسيّة في روح أيّ إنسان هو أن لا يخاف من أعداء هذا الطريق، طريق اللّه وطريق التكليف والطريق الذي يحدّد ويعيّن هدف وجوده. أنا لا أقول إنّه لا ينبغي أن تضعف الأعصاب وأن لا تضطرب القلوب أحيانًا. كلّا، بل أن لا يفعل الخوف فيه فعله ولا يسيطر الرعب عليه. فلا ينبغي أن يكون في وجوده خوفٌ أو رعبٌ يمنعه من سلوك هذا الطريق. فكلّ أنواع الخوف والرعب والاضطرابات التي تمنع الفضائل وتؤدّي إلى نشوء تلك الرذائل وتكاثر تلك الجنايات والفجائع، إنّ هذه الأنواع من الخوف والرعب ينبغي أن لا تكون موجودةً.

والآن وعلى كلّ حال، إنّ هذا الفصل الذي اخترناه هو على قسمين: القسم الأوّل من سورة آل عمران كما ذكرنا، وهو الذي فسّرناه في البداية، وبعدها تأتي عدّة آيات من سورة الرعد.

لقد ذكرنا من سورة آل عمران الآية ١٧٢: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. بالطبع، إنّ مقدّمات الآية طويلة وهذا الجزء الذي اخترته

---

(١) للشاعر سعدي:

موحد چه در پای، ریزی زرش   چه شمشیر هندی نهی بر سرش
امید وهراسش نباشد ز کس   همین است معنای توحید وبس





أنا، ركّزت فيه على آيةٍ أو ثلاث آيات منه، ولأجل أن يكون أصل المطلب بين أيديكم فإنّني سأذكر عدّة آيات قبله، ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أولئك الذين استجابوا، فماذا تعني الاستجابة؟ أي أنّهم قبلوا دعوة النبي وهذه الدعوة الإلهيّة قبولًا فعّالًا، ولم يكن الأمر قلبيًّا بحتًا أو قوليًّا بلسانهم، بل إنّهم سلكوا طريق النبي واتّبعوه، ومتى؟ في أصعب الظروف وأشدّها. ومتى كان ذلك؟ عندما كانوا جرحى جرّاء القتال، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾، أي الجروح. ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وقد هيّأ الله سبحانه وتعالى لهم الأجر والثواب العظيم.

أنتم تعلمون أنّه في معركة أُحد، حيث إنّ هذه الآية ترتبط بهذه المعركة، فإنّ البعض قد فرّوا وهربوا من القتال، وكان النبي يدعوهم، وكان البعض منهم في حالةٍ من الخوف فلم يرجعوا، والبعض الآخر رغم أنّه كان جريحًا قد رجع. وقد أُصيب أمير المؤمنين في ذلك اليوم بأكثر من سبعين جرحًا. ولا أذكر بالضبط عدد جروحه ولكنّه كان قد جُرح جراحاتٍ كثيرة وكذلك عددٌ آخر من أصحاب النبي، فاستجاب البعض لدعوة الرسول ولم يستجب البعض الآخر وفرّوا. هذه الآية تبيّن أجر وثواب أولئك الذين لم يفرّوا واستجابوا لدعوة الرسول ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، التفتوا جيّدًا إلى الأبعاد الكلّيّة لهذه الآيات. فلا ينبغي أن نأسر أنفسنا في ميدان معركة أُحد ولا في وقائع صدر الإسلام وفي الأحداث التي كانت أسباب نزول هذه الآيات، فمعارف القرآن لا ينبغي أن تكون محصورةً وجامدةً. فالمهم بالنسبة لنا العبرة الموجودة في الآية، فماذا تريد هذه الآية أن تقول؟

وهذه نكتةٌ في القرآن لعلّني قد ذكّرت بها في مناسباتٍ عدّة.



فأحيانًا يتمّ بيان أصلٍ كلّيٍّ إسلامي ضمن قصّةٍ من خلال بيان جملةٍ ترتبط بتلك القصّة، فالتفتوا. ففي قصّة النبي نوح مثلًا، وهناك حينما أراد نوحٌ النبي أن يستقلّ السفينة وأن يركب معه أهله وعياله وكذلك أتباعه والمؤمنين والذين وقفوا إلى جانبه، وما بقي من الخلائق أضحوا عرضةً لقهر الطوفان الإلهيّ، وكان الماء يفور وكانت الأمواج تتلاطم من كلّ جانب وتغرق الناس، فإنّ أحد أبناء نوح، الذي لم يكن من المؤمنين به لم يأتِ ليركب. فهذه قصّة. إنّه يبيّن لنا قصّةً نموذجيّةً ولكنّها مليئة بالنقاط والإشارات.

فنوح النبي العجوز الذي ابيضّت لحيته، وبعمره المديد جدًّا، وها هو فتاه وابنه ومحبوبه الذي يقول له: تعال اركب معنا فإنّك سوف تغرق، أمّا ابنه فيقول له: كلّا، فإنّني لن أركب ولن أغرق، فإنّني سآوي إلى جبلٍ يعصمني ولا أحتاج إليك. وأثناء هذا الحوار يحول بينهما الموج، ويفقد الوالد مجال الرؤية وعندها يغرق الابن. وهنا تنتهي القصّة. ونجد أنّ قلب نوح من الناحية البشريّة ينزعج بمقدارٍ ما، فابنه قد قُضي عليه في هذه الحادثة، وهنا يتوجّه إلى ربّ العالم فيبثّه شكواه ويقول: يا ربّي لقد وعدت أن تنجي أهلي وأسرتي وإنّ ابني من أهلي وأسرتي، فليته نجا. وبعدها يأتي الخطاب من ربّ العالمين، ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، فنحن ليس لدينا ارتباطٌ بالعمل غير الصالح؛ وهنا العبرة من هذه القصّة.

بالطبع، إنّني هنا أستند إلى إحدى مفردات القصّة، بينما يوجد الكثير من الشواهد في هذه القصص وفي قصّة نوح - وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ ليبيّن لنا ويعلّمنا أصلًا إسلاميًا كليًّا. يقول إنّ أخوين غير منسجمين من الناحية الفكريّة هما أجنبيان





بينما إذا كان هناك أجنبيان منسجمان فكريًّا فهما أخوان. فالأب والابن إذا لم يكونا منسجمين فكريًّا وكان أحدهما مؤمنًا باللّه والآخر كافرًا، والأوّل كان في الجبهة الإلهيّة والثاني كان في جبهة الشيطان فلا تربطهما رابطة القرابة وليسا من أسرةٍ واحدة. فالقرابة النسبيّة والسببيّة، والقرابة التي تنشأ من علقة الدمّ، هي بنظر الإسلام في الدرجة الثانية. أمّا القرابة الفكريّة، فهي في الدرجة الأولى. انظروا جيّدًا، فهذا أحد أصول الإسلام.

وأيضًا نجد في الروايات التي نتأمّل فيها قرائن كثيرة وشواهد على هذا الأصل. وقد شاهدت روايةً عن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ. أي أنّه من الممكن أن يكون بينكم وبين أخيكم من أمّكم وأبيكم مسافةٌ بعيدةٌ بقدر المشرق والمغرب، ولكن من الممكن أن يكون لكم أخوّة مع ذاك المؤمن الذي يعيش في الطرف الآخر من العالم، ذاك الذي ينسجم معكم فكريًّا ويكون في جبهتكم مع ذاك الذي يكون إيمانه مساويًا لإيمانكم. فهذا أحد أصول الإسلام. والتفتوا في هذه التقريرات القرآنية إلى هذه النقاط، وانظروا ماذا تريد أن تقول لكم، وأيّ أصلٍ أو عبرةٍ وأيّة واقعيةٍ تاريخيّةٍ يبيّنها والتي تتكرّر أحيانًا مئات المرّات في أماكن مختلفة. فتأمّلوا الآن هذه الآية.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ هؤلاء الذين يتمتّعون بأجرنا وثوابنا، ماذا قالوا؟ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ فحذّروهم من اجتماع الخلائق عليهم وتآمرهم وتحالفهم من أجل القضاء عليكم، فخافوهم. هؤلاء هم الذين يريدون الخير والمصلحة لهذه الجماعة المؤمنة قد قالوا ذلك. المؤمن الذي تحدّثنا عن أجره وثوابه في الآية السابقة، هذا المؤمن الذي إذا قال له هؤلاء المصلحون أو حملة الخير مثل هذا الكلام، فماذا يقول لهم؟ ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾





بدايةً لقد ازداد إيمانهم من هذا الكلام. ويعني أنّ إيمانهم قد ازداد بسبب مؤامرات أعداء الإيمان وهذا الأمر ملفتٌ جدًّا. ففي البداية، ازداد إيمانهم، وبعدها ماذا قالوا؟ ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. إنّهم يقولون لدينا اللّه فقط، وهو نعم الوكيل الذي هو أفضل مَن يمكن للإنسان أن يعتمد عليه.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، ماذا يعني حسبنا اللّه؟ قولهم حسبنا اللّه له عدةٌ معاني كلّها صحيحٌ. فحسبنا اللّه وهو الذي يمدّنا ويعيننا، حسبنا اللّه يجعل قوى الطبيعة في خدمة الطريق الذي نسلكه باتّجاه الحقّ، حسبنا اللّه يعني أنّنا سننال رضا اللّه ولو لم نفز في الدنيا. وكلّ واحدٍ من هذه المعاني والمعاني الأخرى من قوله ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ صحيحٌ. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فعندما قيل لهم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، أي خافوا من الناس ومن الأعداء ازداد إيمانهم وقالوا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

فهؤلاء أنفسهم، أوّلًا قد نالوا مقام النعمة الإلهيّة ولن يصيبهم أيّ أذى أو سوء، وسيكونون من أهل السرور والسعادة، فكيف سيكونون من أهل السعادة والسرور، القرآن لم يذكر ماذا فعلوا، فلا فرق، فليكن ما يكون، سواءٌ قُتلوا في ميدان الحرب والقتال أو رجعوا سالمين أحرارًا إلى بيوتهم وقدموا إلى المدينة فكلّهم على السويّة، وسواءٌ رجعوا إلى بيوتهم ومعاشهم فاتحين ظافرين لن يصيبهم أيّ سوء لأنّ جراح ميدان الحرب ستلتئم بسرعة في المحيط الدافئ للأسرة وفي ظلّ السرور بالظفر والانتصار، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ولو أنّهم صُرعوا في ميدان الحرب واستُشهدوا فهناك المزيد أيضًا، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ لأنّهم يرجعون





إلى نعمة اللّه؛ هذه النعمة السرمديّة الباقية والفضل الذي لا حدّ له، والفضل الذي لا يعتريه أيّ سوء، والراحة التي لا يوجد فيها أيّ شائبةٍ من الانزعاج والقلق، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ تذكّروا هذه الآية جيّدًا واحفظوها واقرؤوها كثيرًا، وتعلّموها، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾. هؤلاء القائلين ليسوا سوى الشيطان لأنّ الشيطان هو الذي يخوّف أتباعه ويقول لهم لقد تآمروا عليكم وحاكوا لكم الدسائس وجمعوا الجيوش وأصبح المنافقون حلفاء كفّار قريش، وأخفوا السيوف تحت عباءاتهم وقرّروا أن يحملوا عليكم ويقتلوكم ويفعلوا بكم ما يفعلون. إنّ الذي يخوّفكم هو الشيطان، إنّما ذلكم الشيطان الذي يخوّفك من عدوّ اللّه، أمّا أنت فكيف ستكون؟ هل ستخاف من مقالة الشيطان؟ إنّ ذلك يرتبط بمن تكون، لأنّ الشيطان ينجح في تخويف أوليائه، فلو كنت من أوليائه ستخاف، ولكنّك إذا كنت خارج ولايته فلن تخشى شيئًا. فانظروا كيف أنّ هذه الآية بالرغم من قصرها فهي مليئةٌ بالمحتوى والمعنى، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ وهذا الخوف يتجلّى باتّباع أوامر اللّه والخوف من عذابه ونقمته، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، أولئك الذين يتحرّكون بسرعة في أودية الكفر ويتقدّمون على هذا الطريق لن يضرّوا اللّه شيئًا، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

القسم الثالث

النبوّة



الجلسة الرابعة عشر

فلسفة النبوّة

الأربعاء، ١٥ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

[سورة **الجمعة**، الآية ٢]



لقد اخترنا عدّة موضوعات في مجال بحث النبوّة حيث سنتعرّف على هذه الأبحاث إن شاء اللّه بالاستناد والاستعانة بآيات من القرآن المباركة. بالطبع، إنّ الإخوة يعلمون أنّ النبوّة هي أحد أصول جميع الأديان. وهي أصلٌ من أصول الدين، إذا أمكن قول ذلك؛ بل ينبغي أن نقول إنّها أعلى. وقولنا هنا: «إنّها أصلٌ من أصول الدين، إذا أمكن قول ذلك»، لا بمعنى إنكار أنّها أصلٌ، كلّا، بل بمعنى أنّها أعلى من الأصل؛ لأنّ الدين في الأساس لا معنى له من دون الاعتقاد بالنبوّة. وهو ذلك البرنامج والمسلك، وهو تلك المدرسة والمنهج، اللذان يوصلهما حامل الرسالة من جانب اللّه تعالى. فحامل الرسالة والبعثة من جانب اللّه يُعدّ من العناصر الذاتيّة للدين؛ وهذا هو قوام الدين في الأساس.

بناءً عليه، من الجدير عندما نتحدّث ونبحث في مجال النبّوة، أن نتحدّث ونبحث عنها بعنوان أحد القضايا المهمّة والأصوليّة للدين.

بالطبع، هناك مجموعة من الأبحاث المتعلّقة بالنبوّة التي تُعدّ رائجةً ومتداولةً بين الناس، فإذا راجعتم أيّ كتابٍ قد كُتب



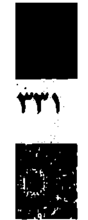


وأُلّف بشأن النبوّة ونظرتم فيه فسوف تجدون هذه الأبحاث. ونحن سوف نتناول، في هذه المجموعة من الأبحاث التي سنقدّمها بشأن النبوّة، قسمًا أو جانبًا من تلك التي تُطرح عادةً في الكتب حول النبوّة، وبأسلوبٍ خاصّ؛ ومنها: بحث فلسفة النبوّة الذي سيُطرح هنا.

أمّا فيما يختصّ ببقيّة الأبحاث التي أُنجزت حول النبوّة وارتبطت بها ودارت حولها الكتب الكلاميّة؛ فإنّها بنظرنا قضايا، وإن كانت في محلّها قضايا صحيحة وما ذُكر بشأنها ضروريٌّ وهي كلام حقّ، لكنّ صحّتها وضرورتها لا تعني بالضرورة أن أضطرّ في هذا الوقت وفي هذه الظروف ومع هذه الاحتياجات أن أتعرّض لها.

إنّ الكثير من الكلام الموجود في العالم صحيحٌ - وأودّ أن أتعرّض هنا وفيما يلي ببضع كلماتٍ لعنوانٍ يتعلّق بالتعليم العامّ وبجميع الأمور الفكريّة التي ترتبط بدراساتنا. فينبغي، من بين جميع هذه الأبحاث الصحيحة، أن نحدّد ما هو لازمٌ وما هو الأكثر ضرورةً وأهميّة، وما هو الأكثر إلحاحًا، وما هو الذي يُعدّ فوتيًّا ومصيريًّا من بين [القضايا] الأكثر إلحاحًا، فنبدأ منه. ثمّ إذا فرغنا منه، ننتقل إلى الأبحاث اللاحقة (التي هي أقلّ أهميّة)، ونتقدّم هكذا وعلى هذا النحو، إلى أن نصل في النهاية إلى آخر الأعمال والأبحاث التي، وإن كانت صحيحةً، ولكنّ استشعار ضرورتها ولزومها لا يكون بنفس القدر.

فيما يتعلّق ببحث النبوّة، صحيحٌ أنّ الحديث عن أنّ للنبي مستوًى من العلوم الإلهيّة أو العلوم الإنسانيّة يُعدّ بحثًا بذاته؛ وكذلك معرفة هل أنّ نبينا كان يعرف الكتابة أو لم يكن يعرف لا



الكتابة ولا القراءة، حيث إنّ القرآن يذكر ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[١]، أي أنّ النبي لم يكن يكتب ولا يقرأ، فهل أنّ هذا الأمر مرتبطٌ بكون النبي أميًّا، أم أنّه بسبب أنّه لم يكن قادرًا؟ وبحسب ما نصطلح عليه اليوم، هل كان أميًّا على نحوٍ كلّي أم لا؟ بل إنّه كان قادرًا على ذلك في الوقت الذي لم يكن يكتب ولا يقرأ. حسنٌ، في النهاية، هذا بحثٌ. وهناك كلامٌ حول هل أنّ نبي الإسلام كان على دينٍ ما أو مذهبٍ من بين أديان ومذاهب العالم قبل نبوّته وبعثته؟ وهل كان يعمل بذلك الدين؟ وهذا بحثٌ أيضًا. ولكن إلى أيّ درجةٍ هو ضروريٌ ولازمٌ بالنسبة لنا؟ وما هو مدى ضرورة البحث الذي يُعدّ مقدّمةً له؟ وكذا الأمر بالنسبة للبحث الذي يُعدّ مقدّمة لهذه المقدّمة، فإذا سألنا عن مدى ضرورته ولزومه، فإنّنا لا نجد فيه أيّ لزوم أو ضرورة.

بالطبع، بعد أن يتعرّف المرء على كلّ الأمور المرتبطة بالنبوّة وبالدين، لا مانع في نهاية المطاف أن يتعرّف على قضيّة الدين الذي كان عليه النبي قبل بعثته؛ لكنّنا إلى الآن ما زلنا على منعطف أوّل زقاق من مدن العشق السبعة[٢]. فمجتمعنا لحدّ الآن لم يتعرّف على مفهوم النبوّة، ولا على معنى البعثة والهدف منها، وما هي عاقبة البعثة وخاتمتها؟ وما هي طريقها؟ وما هو شعار النبّوة؟ فمجتمعنا لا يعلم أيّة آفةٍ قد ابتُلي بها. المسلم لا يدرك هدف البعثة المحمّديّة؛ سلوكيّاتها ونتائجها. ولو كان يعلم هدف بعثة نبيه لاتّجه نحو ذلك الهدف. فنحن، فيما يتعلّق بالنبوّة، ما

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٨.

(٢) هفت شهر عشق را عطار گشت ما هنوز اندر خم يك كوچه ايم (شعر لمولوي)





زلنا عند القضايا الأوّلية والمسائل المقدّماتيّة أي تلك المسائل التأسيسيّة؛ فهل نقوم بتناول المسائل الفرعيّة ومسائل الدرجة الرابعة والخامسة؟! لذا، نحن لن نطرح في بحثنا حول النبوّة أيًّا من تلك الأبحاث التي يطرحها المتكلّمون عادةً في الكتب. فهاكم الكتب التي ألّفها المتكلّمون اذهبوا واقرؤوها. وليس لدينا أيّ شكّ في لزوم وضرورة تلك الأبحاث وفي حسنها، لكنّنا أيضًا لا نشكّ أبدًا بأنّ ضرورتها هي أقلّ بدرجات من ضرورة الكثير من الأبحاث الأخرى التي يجب أن نتعرّض لها اليوم، لهذا فإنّنا لن نتناولها.

إنّ أوّل قضيّةٍ نبحثها بشأن النبوّة هي فلسفة النبوّة. فلماذا يجب أن يكون هناك نبي؟ ولماذا يجب أن يقوم شخصٌ بمهمّة هداية البشر من قبل اللّه تعالى؟ ألا يمكن للناس أن يهتدوا بأنفسهم؟ ألا تكفي معارف البشر والفكر الإنساني في هذا المجال؟ فلماذا كان هناك نبي؟ ولماذا يجب أن يكون هناك حملٌ للرسالة بين عالم الغيب والشهود؟ هذه قضيّةٌ يجب علينا أن نتعرّف إليها. وإذا لم نتعرّف إلى فلسفة النبوّة، فإنّ بقيّة الأبحاث المرتبطة بها سوف تصبح مجموعة من الأبحاث التي لن تكون سوى هباءً منثورًا.

يجب علينا أوّلًا أن نتعرّف إلى الهدف من النبوّة؛ وقد أتينا على هذه المسألة بصورةٍ مختصرةٍ وضمن جملٍ موجزة جدًّا، وإنّ الآيات التي سنقرؤها اليوم ناظرةٌ إلى هذا المطلب.

لن نتحدّث كثيرًا بشأن فلسفة النبوّة، فكلمةٌ واحدةٌ تكفي، وهذه الكلمة هي أنّ حواس الإنسان وغرائزه وفكره لا تكفي لهدايته ونجاته. هناك مجموعة من الكائنات بإمكانها أن تدير حياتها من خلال حواسّها، لعلّنا نعرف بعض هذه الحيوانات التي هي على



هذه الشاكلة، والتي تعتمد على حواسّها فقط، وهي الحواسّ الظاهرية. إنّ نوع الحيوانات، أو أكثرها، يعتمد على الغرائز للاهتداء. فالنحل، مثلًا، يعتمد على غريزته للوصول إلى الرحيق وامتصاصه والرجوع ثانيةً إلى القفير؛ ولبناء هذا القفير على شكل مسدّسات، وكذلك في كلّ ما يتعلّق بالدخول والخروج، وكذا الأمر بالنسبة لملكة النحل وأعوانها والحرّاس؛ وباختصار، بالنسبة لمملكة النحل بأسرها. فهل تظنّون، مثلًا، أنّ النحل يجلسون في مؤتمرٍ عامّ، يجتمع فيه رؤساؤهم وممثّلو القفير أو المنطقة، للتحدّث بشأن كيفيّة تطوير القفير؟! وهل أنّهم سيتناولون قضيّة زيادة أضلع الخلايا أو ينقصون منها من ثمانية إلى أربعة أو إلى ستّة، ومن ثمّ يدرسون مجدّدًا القضيّة ليتّفقوا على الأضلع الستّة لأنّها أنسب، بعد أن اكتشفوا خطأ الأضلع الثمانية؟! فلو كنتم تظنّون أنّ الأمر يجري على هذا النحو، يجب أن أقول لكم بأنّكم أخطأتم. فمثل هذا الحال لا يحدث في عالم النحل، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾[1]، هذا هو الوحي الإلهي للنحل. وهذا الوحي لا يعني أنّ النحل يجتمعون وفي هذه الأثناء يتنزّل عليهم جبرائيل؛ هذا هو بناء قفير النحل، وهذه هي طبيعة غريزة النحل، فهو عبارة عن ميلٍ غريزيٍّ يدفع النحل ويضطرّه [للتصرّف هكذا] ولا يمكنه أن يبدّل ذلك. فالنحل مجبورٌ بشكلٍ طبيعي وبصورةٍ غريزيّة ومفطورٌ على أن يشكّل الخلايا داخل القفير بهذه الصورة، وأن يأخذ الرحيق من تلك الزهرة أو تلك النبتة ويمتصّها بتلك الطريقة. فلو أنّ نحلةً خالفت

---

(١) سورة **النحل**، الآيتان ٦٨ و٦٩.





وعوض عن أن تمتصّ رحيق الأزهار والنباتات امتصّت النباتات العفنة، فإنّه لن يُسمح لها بالدخول إلى القفير بل إنّهم سيمنعونها من الدخول على بابه؛ فهذا كلّه يعود إلى فطرتها وغرائزها.

إنّ الغريزة أمرٌ كافٍ بالنسبة للنحل. فنجد الباحث موريس مترلينغ[1] يعكف ولسنواتٍ طويلة على حياة النحل والنمل والحشرات المختلفة، تلك الحشرات التي تخترق بيوتكم أحيانًا وتعشعش فيها، وأنتم تشكون منها، وتجدونها تسكن في الأسقف، وتبني في الأرض المغصوبة بيوتها وتشكيلاتها وتفعل ما تفعل؛ تبني البيوت بشكلٍ خاصّ وبوضعيّةٍ محدّدة. والعجيب أنّه لو استطعتم وتمكّنتم من أن تأتوا ببيتٍ من بيوت هذه الحشرات أو بقفيرٍ من قفران النحل منذ زمن طوفان نوح مثلًا، أو قبل عشرة قرون، وجئتم بها ووضعتموها أمام قفيرٍ من القفران الموجودة في إحدى مصايف مدينة مشهد في هذا الزمان، لوجدتم أنّه لم يحدث أيّ اختلاف ولو بمقدار رأس إبرةٍ بين ذلك القفير والقفير الموجود في هذا الزمان. فالتكامل والترقّي والتطوّر ليس موجودًا في عمل النحل ولا في عمل أيّ حيوانٍ آخر، فما هو موجودٌ هو وحي الفطرة ووحي الغريزة وهداية طبيعة الخلقة الموجودة فيها التي تحرّكها وتجرّها وتهديها وتبيّن لها الموانع لكي تتمكّن من القيام بعملها؛ فلا يوجد أيّ شيءٍ آخر غير الغريزة.

والإنسان كذلك، يستفيد من الغريزة؛ لكنّ استفادته قليلة.

---

(١) موريس مترلينغ (١٨٦٨- ١٩٤٩م.) شاعر ومؤلّف وفيلسوف بلجيكي فاز بجائزة نوبل على مسرحيّته الطائر الأزرق، وقد كتب عدّة مقالات تحت عنوان «حياة النحل» و«حياة النمل» و«حياة البقّ».



ففي بداية مجيئكم إلى هذه الدنيا، يكون حكمكم - ولا أقصد التشبيه - حكم هذه الحيوانات. فأنتم تمكّنتم، من خلال هذه الغريزة وهذه الجاذبة الفطريّة والطبيعية، من اكتشاف الطريق إلى غذائكم في صدور أمّهاتكم، وعندما وضعتموه في أفواهكم بدأتم بامتصاصه. لم يعلّمكم أحدٌ عمليّة الامتصاص، ولم تتعلّموا كيفيّته في أيّ مكانٍ من الناحية العمليّة والسمعيّة والبصريّة، فغريزتكم كانت هي الفاعل الوحيد هنا. وبانتقالكم من مرحلة الطفولة، فإنّ هذه الوسيلة وهذه الأداة وهذا السلاح المُسمّى غريزة يصبح ضعيفًا وفاقدًا للأثر وقليل الفائدة ويحلّ محلّه شيءٌ أكثر تأثيرًا وأقوى يُسمّى بالعقل الإنساني، فتصبحون من العقلاء. وها أنتم الآن لا تعملون بالغريزة. فالغريزة ليست هي التي ستقول لكم: يا فلان اذهب وافتح باب دكّانك أو اغلقه في الساعة الفلانية، أو أجب المشتري بهذه الطريقة، أو اقرأ الدرس بهذا النحو، أو درّس الآخرين بهذا الأسلوب، فهذه ليست غرائز، إنّها أمورٌ تتعلّمونها من خلال الفكر والعلم وبها تكتشفون طريق حياتكم.

ولكن نسأل مرّةً أخرى، هل أنّ هذا العقل أو الفكر الإنساني يكفي لهدايتكم ولإيصالكم إلى منزل السعادة؟ هل أنّ العقل البشري كافٍ لهداية [الإنسان]؟ فلو أنّ العقل نفسه كان منفتحًا، ولو فكرّ هذا الإنسان ولم يتعصّب وكان قادرًا على الحكم بدون أيّة أغراض، فإنّه سيقول: كلّا؛ إنّه مثل ذلك القاضي الذي يحكم بعدم صلاحيّة وأهليّة نفسه للحكم، ويقول: إنّني كقاضٍ لم أعد مناسبًا للقضاء في هذا المورد. فالعقل السليم الخالي من الأغراض في أيّ إنسان سيقول إنّني لست مؤهّلًا لهداية الإنسانيّة بصورةٍ مستقلّة، فهل تريدون دليلًا؟



لدينا نوعان من الأدلّـة؛ النـوع الأوّل هـو أنّ العقـل البشري محدودٌ وليس مطلقًا في حيـن أنّ احتياجات البشر لا نهاية لها؛ فمن أين لهذا العقل أن يتمكّن من إدراك جميع الاحتياجات حتّى يتمكّن من تأمين هذه الاحتياجات ووضع القوانين المرتبطة بتأمينها؟ فلا يمكن لهذا العقل الإنساني أن يقوم بهذا العمل؛ فهو أضعف وأعجز ولا يبلغ مقام تشخيص جميع الآلام حتّى يضع لها جميعًا تلك الأدوية والعلاجات المناسبة.

الدليل الآخر هو أن تنظروا إلى الوقائع التاريخيّة والعلمية لترَوا إذا ما كانت العقول قد تمكّنت من ذلك! فهل أنّ عقولًا مثل عقول أرسطو[١] وأفلاطون[٢] وسقراط[٣] تمكّنت من إدارة البشر؟ وهل أنّ أفلاطون المتفكّر بعد أن جلس وفكّر وشاور وطالع وحقّق ووضع الخطوط العامّة للمدينة الفاضلة؟ هذه المدينة الفاضلة هي من شؤونات الذهن فقط وتقع في خزانة أفلاطون نفسه؛ لأنّ هذه المدينة الفاضلة لم تتحقّق من الناحية الواقعية في هذا العالم لحظةً واحدةً. وأنتم الآن عندما تنظرون إلى مدينة أفلاطون الفاضلة، وبحسب الأوضاع التي يعيشها العالم الآن، فإنّكم ستجدونها غير قابلةٍ للقبول وتصبح مهزلةً. انظروا أنتم إلى المدارس العقليّة

---

(١) أرسطو الملقّب بالمعلّم الأوّل من فلاسفة اليونان القدماء، وهو واضع علم المنطق.

(٢) أفلاطون من فلاسفة اليونان الكبار وهو تلميذ سقراط، ألّف كتابًا باسم الجمهوريّة وقد بيّن خصائص المجتمع الفاضل.

(٣) سقراط من فلاسفة اليونان الكبار أُعدم من قبل محكمة أثينا بسبب عدم اعتقاده بآلهة المعبد ولبث آرائه.



والفلسفيّة كيف اصطفّت في مقابل بعضها البعض وتواجهت؛ وسترون أنّ البشريّة ما لم تتّصل بمبدإٍ أو نقطةٍ أبعد وأعلى وأعمق من العقل الإنساني، فإنّها لن تتمكّن من الوصول إلى طريق الهداية والسعادة.

هذا هو معنى النبوّة، هي قوّةٌ أعلى؛ فالإنسان يحتاج إلى هداية أعلى وأعمق من هداية الحسّ وهداية الغريزة وهداية العقل. وعندما تأتي هذه الهداية نتساءل عن الأمور التي تقوم بها. فهل عند مجيئها تتنافس مع حواسّكم؟ أو هل ستخالف بمجيئها غرائزكم؟ وهل إذا أتت إليكم ستضرب رأس العقل بحجرٍ؟ كلّا، وأبدًا. فهي تأتي من أجل هداية العقل وتنميته ومن أجل إخراج العقل المدفون من تحت أكوام التراب.

يقول أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامه عليه – وهو أمير المؤمنين للبشريّة الجمعاء دون استثناء - وبحسب ما ورد في نهج البلاغة «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستهدوهم ميثاق فطرته، ويذكّرونه منسي نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»[1]. يأتي الأنبياء ليخرجوا تلك الدفائن، وليستثيروا تلك العقول المدفونة ويحرّكوها ويفعّلوها؛ تلك العقول والإدراكات والمشاعر الموجودة في المجتمعات البشريّة والتي دُفنت على أيدي الفراعنة والنماريد والأكابر وأصحاب الأموال. ففرعون لا يحبّ أن يكون لشعبه عقلٌ، ولا يحبّ أن يصبح الناس من أهل الفهم والوعي، لأنّهم إذا حصلوا على الفهم والوعي فإنّ

---

(١) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٢٣.



وجوده سيصبح باطلًا وخرافةً؛ وهذا ما سنقوم بشرحه بالتفصيل في الأبحاث اللاحقة من أبحاث النبوّة إن شاء اللّه. ففرعون لا يحبّ أن يُعمِل الناس قوّة العقل. ولأنّ الأمر كان على هذا النحو، فإنّه كان يدفن هذه القوّة العاقلة. أمّا كيف كان يفعل ذلك، فهذا ما سوف نتعرّض له في الأبحاث المقبلة إن شاء اللّه. من هنا نفهم أنّ مجيء الأنبياء هو من أجل استخراج هذه الدفائن وهذه الكنوز والخزائن المخفيّة والمستترة وتصفيتها وتقديمها بين يدي الناس.

إنّ الأنبياء، إذًا، وبواسطة قوّة الوحي التي يتّصلون بها ويحصلون عليها لا يواجهون العقل ولا يحاربونه. والذي يظنّ أنّ الدين يتنافى مع العقل، فإنّه في الواقع لا يعرف لا الدين ولا العقل. أمّا مَن كان من أصحاب العقل وجرّب إعمال عقله وعرف الدين، فإنّه سيدرك جيّدًا أنّ الدين لا يمكن أن يتنافى مع الفكر البشري والعقل الإنساني أصلًا؛ فكلّ ما يقوله الدين تفهمه العقول السليمة وتتقبّله. وأولئك الجاهلون الذين يهبّون للدفاع عن الدين ويقولون في بعض الأحيان: يا فلان لا ينبغي أن تطلب تفسير الدين، ولا ينبغي أن تطلب من الدين أيّ نوعٍ من الاستدلالات، ولا يجوز لك أن تطلب الفلسفة من الدين؛ فهم يتصوّرون أنّ هذا الكلام - طلب الفلسفة والقول الفلسفي - ينتقص من قدر الدين. فعلى هؤلاء أن يعلموا أنّ الأمر ليس على هذا النحو، القضيّة ليست هكذا. فإذا عُرض الدين الصحيح على العقل الكامل، فإنّه لا يمكن أن يتعارض أو يتنافى معه أبدًا. نجد في يومنا هذا أنّ العقول البشريّة الكبرى تدرك التوحيد في الدين والنبوّة الدينية والصلاة الدينية والصوم الديني والزكاة الدينية، والأحكام الفرعيّة للدين.



عندما يتعرّف العقل البشري والتجربة العلمية الإنسانيّة على الكحول ويدركان مضارّ هذه المادّة ويعرفان كم توجّه هذه المادّة من ضربةٍ وصدمةٍ للجسم والأعصاب والروحيّة والأوضاع الاجتماعية العامّة، فلماذا لا أتمكّن عندئذٍ وأتجرّأ أن أقرأ هذه الآية القرآنية بكمال القدرة: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1]؟! لماذا لا أطرح عندئذٍ هذه الآية القرآنية؟! ولماذا لا أسلّم إلى ما وصل إليه العلم البشريّ في هذا المجال؟ ولماذا لا أقول إنّ الخمر هو من عمل الشيطان، أي أنّ الشياطين هم الذين يقدّمون لكم هذه المادّة، والشياطين هم الذين يستغلّون هذا العَرق المتعرّق، فلماذا لا أقول كلّ هذا؟!

وما سمعتموه من أنّ الإمام السجّاد صلوات اللّه وسلامه عليه كان يقول: «إنّ دين اللّه لا يُصاب بالعقول»[2] فله معنًى آخر، وهو يعني أنّ الدّين الإلهي لا يصحّ أن يُكتشف بالعقل. فماذا يعني أنّه لا يصحّ كشفه؟ يعني أنّه لا يمكنكم بالعقل أن تدركوا أنّ صلاة الظهر أربع ركعات، ما لم تحصلوا على روايةٍ تبيّن أنّ صلاة الظهر أربع ركعات؛ وهذا كلامٌ صحيحٌ تمامًا. فما لم يذكر القرآن لنا أنّ وقت الصلاة هو ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[3]، فإنّك لن تتمكّن من أن تدرك أوقات الصلاة من خلال العقل والفكر العادي؛ بل يجب أن تحصل على

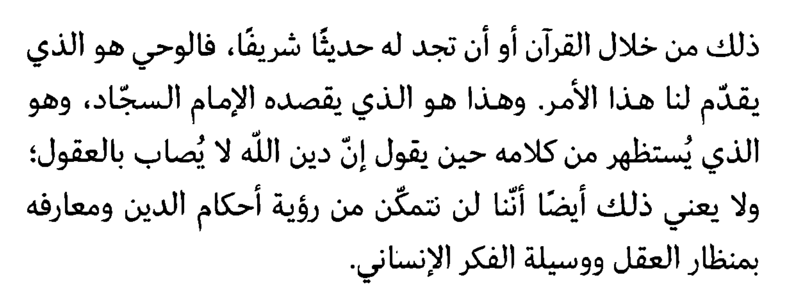
---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٩٠.

(٢) العلاّمة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣ﻫ، ١٩٨٣م)، الجزء ٢، الصفحة ٣٠٣.

(٣) سورة **الإسراء**، الآية ٧٨.



ذلك من خلال القرآن أو أن تجد له حديثًا شريفًا، فالوحي هو الذي يقدّم لنا هذا الأمر. وهذا هو الذي يقصده الإمام السجّاد، وهو الذي يُستظهر من كلامه حين يقول إنّ دين اللّه لا يُصاب بالعقول؛ ولا يعني ذلك أيضًا أنّنا لن نتمكّن من رؤية أحكام الدين ومعارفه بمنظار العقل ووسيلة الفكر الإنساني.

ينتفض بعض الجهلة بكلّ اندفاع، وتحت عنوان الدفاع عن الدين، ويصرخون قائلين: يا فلان لا ينبغي أن تبيّن للدين فلسفةً. فلماذا لا نفعل ذلك؟ ولماذا لا نبين؟ بالطبع نحن نقول دائمًا ونكرّر ونعترف أنّ ما نفهمه وندركه هو أقلّ من واحدٍ بالألف من معارف الدين العميق. وما يمكننا أن نطبّقه ونبينه هو أقلّ بكثيرٍ ممّا هو ممكنٌ في الواقع وما يمكن إنجازه وما هو موجودٌ في حقيقة الأمر؛ فليس في ذلك شكٌّ أبدًا؛ لكنّني أقول كلمةً واحدة، ثمّ يأتي شخصٌ آخر ويقول كلمةً، ويأتي شخصٌ آخر ويقول كلمة؛ فلو أنّكم حسبتم القضيّة على مرّ الخطّ الطولي لتاريخ البشريّة، فإنّه وبعد مئتي سنة أو خمسمئة أخرى ستجدون أنّ البشريّة أصبحت أكثر إيمانًا وإذعانًا واعترافًا بعمق الدين من ذلك الزمان الذي لم تكن فيه هذه الأفكار والعقول والتطبيقات موجودة.

وبناءً عليه، فإنّ الدين عندما ينزل، فإنّه لا يأتي لأجل قمع العقل أو إبطاله أو إخراجه من مسرح الحياة وقضاياها. فلماذا يأتي الدين إذًا؟ إنّه لأجل هداية العقل والأخذ بيده. العقل موجودٌ ولكن عندما يكون الهوس إلى جانبه، فلن يتمكّن من الحكم والقضاء بصورةٍ صحيحةٍ. العقل موجودٌ، ولكن عندما يكون الطمع محيطًا به، وحين تكون الأماني والأغراض إلى جانبه، فإنّه لن يتمكّن أن يدرك بصورةٍ صحيحة. يأتي الدين من أجل أن يزيل عن العقل كلّ



أنواع الهوس والأهواء والأطماع والمخاوف والأغراض؛ ويأتي من أجل أن يزيد من قوّة العقل السليم الكامل ويؤيّده ليدرك الأمور بصورةٍ أفضل. وأنتم عندما تراجعون قضايا الإسلام ومعارفه، فإنّكم ستجدون أنّ الإسلام من أوّله إلى آخره مليءٌ بتجلّيات العقل. فكم لدينا من آياتٍ في القرآن، في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكذلك كم لدينا من آياتٍ في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. فكلّ ذلك هو من أجل أن تفهموا وتعقلوا وتدركوا. وكم لدينا من آيات من قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وكم لدينا في الروايات من مثل قولهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «إنّ للّه على النّاس حجّتين»[1]؛ فالحجّة الأولى هي النبي أو الرسول والحجّة الثانية هي العقل. هكذا، هو العقل ونحن لن نتحدّث حول العقل أكثر ممّا تحدّثنا لحدّ الآن.

وبالإجمال، احفظوا هذه الكلمة جيّدًا وهي اختصار ما قيل بأنّ الإنسان بدون هداية الوحي وبدون أن يكون الوحي متّجهًا إليه لتخليصه وإنقاذه، فإنّه لن يتمكّن من إيصال نفسه إلى منزل السعادة. وعندما يأتي الوحي، فإنّه لا يقمع العقل ويبطله، كما أنّه لا يفعل ذلك بالغريزة، ومن المؤكّد أنّه لا يريد القضاء على الحواس الظاهرة، بل إنّه يريد أن يأتي لأجل تقوية الحواس الظاهرة والغرائز الإنسانيّة والبشريّة وقوّة العقل والفكر في الإنسان ويهذّبها ويزّكيها ويأخذ بيدها ويعلّمها. هذه هي وظيفة الوحي، ولذلك نقول إنّ فلسفة النبوّة هي هذا الأمر.

وحيث إنّ الوضع على هذا النحو، ولأنّنا ناقصون ولأنّ الفكر

---

(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦ه)، الجزء ٣، الصفحة ٢٠٣٦.





والتصوّر البشري غير كافٍ لهدايتنا، يجب أن تأتي يدٌ من الغيب وتقوم بهدايتنا؛ وهذا هو محلّ خروج هذه اليد الغيبيّة؛ [وليس محلّها عندما] أكون أنا العبد جائعًا قليلًا ولا أسعى من أجل لقمة العيش وأنتظر حتّى تأتي يد الغيب إليّ وتنقذني وتطعمني؛ [وليس محلّها] عندما أقترف معصيةٍ ما، فأقف في حسرةٍ وأسفٍ وندامةٍ وأنتظر حتّى تأتي يدٌ من الغيب فتنقذني، كلّا؛ [ولا محلّها] عندما لا أؤدّي تكليفي الإلهيّ، فلا آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر ولا أتّبع طريق اللّه، لكن أبقى منتظرًا حتّى تأتي يدٌ من الغيب وتخرج وتفعل ما تفعل؛ [وليس محلّها عند] العمل خلاف الآية القرآنية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1]، ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2]. فهذه الآية القرآنية تعدّ المكذّبين بالدين من أولئك الذين لا يحضّون على إطعام المسكين وإعطاء حقوق الناس؛ أولئك الذين لا يحثّون ولا يدفعون الناس من أجل إشباع المساكين. وبرؤيةٍ أوسع وأعمق وبعبارةٍ أقرب إلى متن الإسلام، فإنّهم لا يسعون لاقتلاع جذور الفقر والجوع.

فذاك الذي لا يطبّق نفسه على هذه الآية، ولا يخطو خطوةً واحدةً في طريق القضاء على كلّ أنواع الجوع، ولا يخطو ولو خطوة واحدة من أجل القضاء على جذور الفقر، ولا يتقدّم على هذا الطريق، ويجلس حتّى تأتي يدٌ من الغيب وتفعل فعلها، فمثل

---

(١) سورة **الماعون**، الآيات ١-٣.

(٢) سورة **المدّثر**، الآيات ٤٣، ٤٤، و٤٦.



هؤلاء الناس ينبغي أن يعلموا أنّه لو خرجت هذه اليد من عالم الغيب، فإنّ أوّل ما ستقوم به هو ضرب رؤوسهم من أجل إبعاد هذه الوجودات التائهة والباطلة وإسقاطها.

نعم، يوجد يدٌ تأتي من عالم الغيب وتقوم بالأفعال، لكن في المحلّ الذي ذكرت، وذلك عند ضرورة هداية الناس؛ هذه هي يد النبي أي يد النبوّة، وتلك هي الرسالة الماهرة التي تأتي لهداية البشريّة على ذلك النحو الذي ذكرناه وهو بعث الطاقة العقليّة فيهم. عندها، تبرز مجموعة كبيرة من المسائل الأخرى، ويوجد لدينا هنا مجموعة من القضايا المختلفة، قمتُ بتدوين لائحةٍ مختصرةٍ منها، وأحدها يتعلّق بمفهوم النبوّة وارتباطها بالبعثة، فعندما نقول إنّ النبي مبعوثٌ فماذا تعني البعثة؟ وهل يوجد في النبوّة نوعٌ من الانبعاث أو التحرّك؟ فمثل هذا البحث يُعدّ بحثًا يجدر تناوله؛ فنحن لا نصادف مثل هذا البحث في الأبحاث المتعلّقة بالنبوّة.

ما هي نقطة بدء عمل الأنبياء؟ فمن أين يبدأون في عمليّة الإصلاح؟ وما هي عاقبة مساعيهم؟ وإلى أين تنتهي أعمالهم؟ فهل أنّهم يغرسون الشتول ويكتفون بريّها ثمّ يذهبون ويتركون الأمور؟ هل أنّ قطع رأس النبي يحيى وإرساله إلى ذلك الطاغية ينتهي عند هذا الأمر فقط؟ هل يكون آخر شيءٍ في النبوّة هو هذا الأمر أم لا؟ هناك عاقبةٌ أخرى ونهايةٌ مختلفة لمثل هذه البداية المتصوّرة والتي ينبغي أن ننظر إليها، وقد أشار القرآن إليها؛ ويوجد قضايا أخرى ينبغي أن نتطرّق إليها، ونتحدّث عنها.

فيما يتعلّق بفلسفة النبوّة، فإنّ المقدار الذي تحدّثت عنه يبدو لي كافيًا. يوجد آياتٌ عديدة في هذا المجال، آيات عظيمة



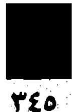


المحتوى والمضمون. وأوّل ما بدر لي هو هذه الآية التي ذكرتها، وسأشرحها بصورةٍ مفصّلة، وقد رأيت أنّني لو أردت أن أشرح المفهوم المتبادر إلى الذهن من هذه الآية، إلى جانب المسألة المتعلّقة بالنبوّة، فإنّني لن أستطيع شرحه بصورةٍ كاملة في هذه الجلسة لوحدها. ومن الملفت جدًّا، وأريد أن ألفت أذهان وأفكار الإخوة الأعزّاء إلى أنّ هذه الآية قد ذُكرت في تفسير آية اللّه الطالقاني، المسمّى شعاع من القرآن، فليراجعوه. وهناك بحثٌ جيّدٌ في هذا المجال نسبيًّا، وأنا أكتفي بترجمةٍ مختصرةٍ لها.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[1]، هذه الآية تشير إلى أنّ الناس كانوا بصورة أمّةٍ أو جماعةٍ واحدةٍ، وقد بحث المفسّرون في هذا المجال بصورةٍ مفصّلةٍ أيضًا. فإذا كان الحديث عن أمّةٍ واحدةٍ، يأتي السؤال حول إذا ما كانت هذه الأمّة جيّدة وخيّرة، أو أنّها كانت أمّةً سيّئة. وعلى كلا الاحتمالين، فقد أورد الذين كان لهم كلامٌ في هذا المجال إشكالًا ها هنا. بعض هؤلاء يقول إنّ قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إشارة إلى الاشتراكيّة الأوّلية وبداية عصور ما قبل التاريخ. وأنا أقول إنّه لا يوجد شاهدٌ واحدٌ على هذا المعنى سوى أنّ عنوان عصر الاشتراكيّة والبدايات يجري على الألسن، وأسفنا هو أنّه ليس للقرآن نصيبٌ من كلامهم في هذا المجال سوى هذا؛ وإلّا فإنّ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لا تشير إلى العصر الذي كان يعيش الناس فيه في ظلّ الاشتراكيّة الأولى بحسب قولهم، كأن يُقال مثلًا إنّهم كانوا كالحيوانات العادية الهائمة في الأودية والفيافي وكانوا يحملون تلك الهراوة الحجريّة ويصطادون الحيوانات ويأكلونها وقد

---

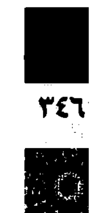
(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.



يأكل بعضهم بعضًا في حالات معيّنة، فالأمر ليس كذلك حتمًا. ولا يمكن أن يكون سعينا نحن بأن نجعل قرآننا محلًّا نلصق به شيئًا من مكانٍ آخر، كلّا؛ فما نفهمه من القرآن هو هذا الأمر وهو يكفينا، ولا يحتاج قرآننا إلى كلام الآخرين وثقافاتهم وإلى الهوامش والحواشي عليه منهم، كلّا، فإنّ القرآن لا يطلب تلك الإضافات والتوضيحات من غيره بأيّ نحوٍ من الأنحاء.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يمكن تفسيرها بعدّة أنحاء. يوجد معنيان في تفسير آية اللّه الطالقاني - في حال قمتم بمراجعتهما وملاحظتهما - ويوجد أيضًا معنًى بالنسبة لي يختلف عن المعنيين المذكورين والذي قد أشرت إليه سابقًا. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تعني أنّ الناس كانوا في حالةٍ من التساوي من ناحية الاحتياجات ومن ناحية الاستعداد. لقد كان الناس في البدايات يعيشون نحوًا واحدًا من الاحتياج، وكانت نشأة الجميع متساوية؛ وكانت الأوضاع الاجتماعية على هذا النحو دائمًا. لقد كان الجميع يمتلك العقل نفسه والفكر نفسه والذكاء نفسه، والحاسّة السادسة نفسها، وهكذا الحال بالنسبة للحواس الظاهرة والباطنة؛ وكان جميع الناس يجوعون ويعطشون ولديهم الهوس الجنسي ويحتاجون إلى المنزل واللباس وكلّ الأشياء من هذا القبيل. كانت الاحتياجات كلّها متساوية ومن سنخٍ واحدٍ على وجه التقريب ومن موادّ وأصول مشتركة متشابهة.

وعندما ينشأ الإنسان في ظلّ تربيةٍ أفضل يصبح من الممكن لاستعداداته أن تتفتّح أكثر، وهذا مطلبٌ آخر. من الممكن أن ينشأ أحد أبناء النبلاء أو الأرستقراطيّين في بيتٍ أرستقراطي ويأتيه معلّمٌ



إلى منزله ويعلّمه اللغة الهنديّة والصينيّة فيصبح كالبلبل وهو ابن السابعة، في حين لا يجيد ابن ذاك العامل في منجمٍ من المناجم، الفارسيّة التي هي اللغة المحلّيّة رغم أنّه بلغ السابعة أو الثامنة من العمر؛ ومثل هذا لا يُعدّ دليلًا على أنّ استعداد [الطفل الأوّل] هو أفضل من استعداد الطفل الآخر. كلّا، بل قد استُخرج ما في [الطفل الأوّل] من استعداداتٍ كامنة، في حين أنّ الطفل الآخر قد حُرم من هذه العمليّة، فبقيت استعداداته كامنة. وليس معلومًا على سبيل المثال إذا ما كانت الآبار النفطيّة في المناطق الشماليّة أو الجنوبيّة الموجودة في الدولة الفلانية هي أوفر وأغنى من تلك الآبار النفطيّة التي لم يتمّ حفرها لحدّ الآن. فتلك قد ضُخّت في محطّات وتحوّلت إلى وقود للسيّارات والكلّ يعرفها ويعرف اسمها؛ في حين أنّ نفط تلك الآبار المسكينة التي لم يتمّ استخراجها قد يكون أوفر وأكثر. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بشكلٍ طبيعي وعادي ويعيشون باحتياجاتٍ متساويةٍ واستعداداتٍ متشابهة - وقد ذكرنا ذلك ضمن ترجمة هذه الآية - ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، وهنا بعث اللّه تعالى أنبياء من بين هؤلاء الناس المتساوين من حيث المستوى، أرسل ربّ العالم إنسانًا أسمى وأقوى وأعمق وأكثر حماسًا واستعدادًا، أوجده وبعثه لأجل أيّ شيء؟ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، يوصل البشرى ويحذّر الناس. فما هي البشرى التي كان يوصلها الأنبياء؟ إنّها بشرى الجنّة وبشرى سعادة الدنيا، وبشرى المدينة الفاضلة، وبشرى الاستقرار الأمني والسلام والرفاهيّة، وبشرى القضاء على اليأس والفقر والخوف والجهل والاضطراب، فهم حاملوا البشرى.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.



وفي النهاية، بشرى تشكيل الحكومة الفاضلة والمدينة الصالحة للبشريّة، وبعد هذه بشرى الوصول إلى الجنّة والاتّصال برضوانٍ من اللّه أكبر. ويحذّرون ويخوّفون من نيران جهنّم، ومن دقّة جسر الصراط، ويخوّفون من وخامة الدنيا، ومن تسلّط عفريت الجهل والفقر، كما أنّهم كانوا يخوّفون من السقوط في مستنقع الفساد وأودية الانحراف. وكانوا يخوّفون من القضاء على الاستعدادات الإنسانيّة، فهم حملة الإنذار أيضًا.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، فلم يكن كلّ ما عندهم هو أن يبشّروا الناس وأن يقولوا لهم احذروا وخافوا؛ فماذا كانوا يحملون إلى جانب ذلك؟ إنّه كتابٌ من جانب اللّه؛ لقد نزل إليهم كتابٌ بالحقّ وطِبق الحقّ. وكنّا قد ذكرنا معنى الحقّ عدّة مرّات. وبالإجمال، إنّ ما يطابق فطرة العالم وما ينسجم مع المسار الطبيعي لهذا الوجود هو الحقّ. ويُقال حقّ لكلّ ما ينطبق على فطرة الإنسان وأصل خلقة العالم. وكتاب الأنبياء حقٌّ أيضًا، وهو يتقدّم بالإنسان في طريقه الطبيعي ومساره الفطري وفي بيئته العادية ومساره التكاملي ويأخذ بيده ويعينه. فكتاب الأنبياء متلازمٌ مع الحقّ دومًا.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾، إنّ الكتاب هنا يتقدّم من أجل أن يقضي بين الناس بشأن الخلافات التي تقع بينهم؛ وكما نعلم أنّ الناس لن يبتعدوا عن الاختلاف، لأنّ الاختلاف بين الناس سُنّةٌ ووجوده ضروريٌ وعدمه مضرّ. فاعلموا جيّدًا أنّ وجود الاختلاف أمرٌ جيّدٌ لأنّه يؤدّي إلى التكامل. وبالطبع في مجال الاختلافات، يجب أن أُجدّد النظر في هذه الكلمة التي قلتها بأنّ





عدمه مضرٌّ، فلا أعلم إن كان مضرًّا أم لا؛ ولكن على كلّ حال يجب أن أفسّر وأشرح أنّ وجوده في كلّ حالٍ مفيدٌ، أمّا إن كان عدمه مضرٌّ فلا أعلم. فلأكتفي بهذا الكلام.

إذن يأتي الكتاب وينزل من أجل أن يحكم بين الناس ويقضي بينهم؛ فهذه الحكومة ترتبط بشأن تلك الأمور التي اختلفوا فيها، فماذا نفهم في هذا المجال؟ نفهم أنّ الحكومة التي يوجدها الأنبياء هي ليست حكومة النبي كفردٍ أو كشخصٍ، وليست حكومة الاستبداد، بل هي حكومة القانون وحكومة الكتاب، فعندما يأتي النبي فإنّه يصنع مجتمعًا يكون الحاكم فيه هو ذاك الكتاب، أي القانون، في المعنى والواقع.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بشأن هذا الكتاب لا يوجد اختلافٌ، ولم يختلفوا، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ فالذين اختلفوا بشأن الكتاب السماوي هم أولئك الذين أُعطي لهم الكتاب، وأولئك الذين من أجلهم جاء الكتاب السماويّ. فعلى ماذا يدلّنا هذا الأمر؟ إنّه يشير إلى وجود التحريف في الأديان السماويّة فيما يتعلّق بمقولات الأنبياء. فعندما يأتي الأنبياء ويأتون بالكتاب والقانون والمذهب، فإنّ أولئك الذين أُعطوا هذا الكتاب والقانون والمذهب يقعون في الاختلاف، فماذا يعني اختلافهم؟ إنّه يعني أنّ هناك مجموعة تقول حقًّا، ومجموعةٌ أخرى تقول خلاف الواقع. وبناءً عليه، يوجد هناك أشخاصٌ هم أتباع دينٍ ويتحدّثون بحديث الدين لكنّهم يخالفون الواقع، وهذا إشارة إلى وجود النسخ والتحريف في الأديان.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾، فالطغيان والعداوات





التي حصلت [إنّما وقعت بسبب البغي]. ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾، فالذين آمنوا واتّبعوا دين الحقّ فإنّ اللّه يهديهم إلى الإجابة عمّا اختلفوا فيه بإذنه وإجازته. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فهدايته تشمل من يشاء[١].

فماذا فهمنا لحدّ الآن؟ لقد فهمنا معنى فلسفة النبوّة وهو أنّها أصلٌ في جميع الأديان، بل هي أصلٌ أساسي، ولو لم تكن كذلك لما بقي للدين أيّ معنًى أو مفهومٍ صحيحٍ؛ لأنّ الدين هو ذاك الأمر الذي جاء من جانب اللّه بواسطة حملة الوحي والرسالة.

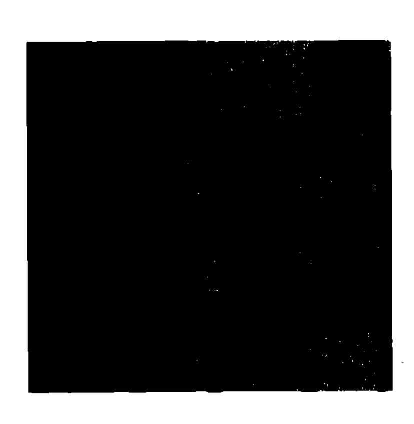
---

(١) بالإضافة إلى ترجمة سورة **الجمعة** في جلسات قرآنية أخرى في مسجد كرامت في مدينة مشهد وفي مناسبات عدّة لمن شاء الاستزادة من الاطلاع.

الجلسة الخامسة عشر

البعثة في النبوّة

الخميس، ١٦ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم اللّه الرحمن الرّحيم

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

[سورة العلق]



إنّ موضوع حديثنا في هذه الجلسة هو في أنّ النبي وحين يُلقى على عاتقه حمل الرسالة والنبوّة وبعد أن يتلقّى رسالة اللّه، فأيّة حالةٍ وأيّة كيفيّةٍ في العالم المحيط به تتحقّق. بالطبع، من الواضح أنّه ليس لدينا كلامٌ كثيرٌ حول الكيفيّات الداخليّة أو الباطنيّة للنبي نفسه؛ وإذا كنّا سنطرحها هنا فهو من باب أنّه يوجد استفادة لطيفة ودقيقة من إحدى الكلمات العادية الرائجة في القرآن وفي عرف المتشرّعة والتي توضح لنا ضمنًا أحد أبعاد قضيّة النبّوة.

أنتم تعلمون أنّه في القرآن، وفي الغالب عندما يجري الحديث عن مجيء النبي، فإنّ الحديث يكون عن بعثته، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[1]. لقد بعثنا موسى وبعثنا إبراهيم وبعثنا الأنبياء الآخرين. البعثة؛ فماذا تعني البعثة؟ وما هي العلاقة بين البعثة والنبوّة؟ إنّ العنوان الذي وضعناه لبحثنا هي البعثة في النبوّة، كما ورد في عنوان الجلسة. ففي النبوّة، يوجد بعثة ونحن نسأل عن المعنى الكامن في هذه الكلمة. فإذا كان في النبوّة بعثةٌ،

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٣٦.





فهل أنّ هذه البعثة ترتبط بشخصٍ أو بشيءٍ ما؟ وما هي الفائدة منها؟ وأمور من هذا القبيل.

إنّ البعثة تشير إلى التحرّك بعد الفتور والركود والضعف. فالميّت الذي ينام في القبر لسنواتٍ مديدة وتتحوّل أجزاء بدنه إلى ترابٍ، يُقال عنه، عندما يقوم بقدرة اللّه تعالى يوم القيامة، أنّه بُعث. هذا هو يوم البعث؛ فالإنسان الذي يكون نائمًا في بيته أو يتحرّك في مجريات حياته الاجتماعية اليوميّة، ولا يكون فيه الفوران والسعي والفعّاليّة، والتي هي حالة مخالفة للحالة العامّة في المجتمع، فإنّه يكون في الواقع مثل قطعة الخشب، أو كنبتةٍ بلا روح، ومثل ريشة واقعة في السيل العامّ للمجتمع ويسوقه هذا المجتمع أينما شاء؛ وعندما يرجع هذا الإنسان إلى نفسه، وعندما يخرج من هذه الحالة اللامبالية، وعندما يشعر أنّه ليس من الضروري لهذا المسير وهذا الجريان الطبيعي والعادي أن يمنحه الاطمئنان الكامل أو يقنعه؛ وأنّه قد يكون هناك جريانٌ آخر يمكن له أن يتّبعه ويوصله إلى منزل السعادة؛ وعندما يستيقظ هذا الإنسان على أثر هذه الأفكار ويتنبّه ويبدأ سعيًا وتحرّكًا جديدًا يُقال عن هذا الإنسان إنّه قد بُعث. وكذا في الأمثلة الصغيرةِ والجزئيّة، فإذا نهضتم من نومكم يقولون عن ذلك أنّه بعثٌ. وعندما تخرجون من حالة الضعف والكسل واللامبالاة والفتور وتبدأون حركةً شديدة فيُقال أيضًا إنّه بعثٌ. فهذا هو معنى البعث.

وكما تعلمون، يُقال ليوم القيامة يوم البعث؛ فهو يوم القيام ويوم الخروج من الضعف واللامبالاة وفقدان النشاط؛ وهو يوم التحرّك؛ وهو يوم يكون الناس فيه عند خروجهم من القبور، ومن اللحظة الأولى وحتّى آخر لحظة من مسيرهم نحو المصير النهائي





المحدّد، يكونون في سعيٍ وتحرّكٍ وسيرٍ. هذا، ويُقال له يوم البعث. وفي النبوّة يوجد مثل هذه الحالة أيضًا.

إنّني أريد أن تصبح نظرتكم إلى النبوّة نظرةً جديدةً من الأساس. فالبعض يتصوّر النبوّة على نحو الوعظ على سبيل المثال، دخل مدينةً من أجل أن يبيّن لأهل هذه المدينة عددًا من القضايا التي ترتبط بالدين أو بغيره؛ أو لنفترض مثلًا، مثل متفوّهٍ أو خطيبٍ ينهض من بين الناس ويقف ليخبرهم بمجموعة من القضايا الفرعيّة؛ أو مثل أحد الخطباء أو الناطقين، على سبيل المثال، الذي يدخل إلى لقاءٍ عامٍّ في مجتمعٍ ما ليبدأ جدالًا أو حوارًا داخل هذا المجتمع؛ هؤلاء يفترضون أنّ النبي هو في العادة مثل هؤلاء؛ رجلٌ روحانيٌّ عالمٌ نجيبٌ يحني رأسه تواضعًا ويسير بين الناس. غاية الأمر أنّ الناس أحيانًا يعرفون قدره إذا كانوا من الأخيار ويُقال عن هؤلاء إنّهم مؤمنين، وأحيانًا لا يعرفون قدره فيُقال عنهم إنّهم كفّار أو يُقال مشركين. فنحن كنّا نتصوّر النبي على هذا النحو.

يوجد في النبوّة تحوّلٌ وتبدّل؛ ويجب أن نقول إنّه عبارة عن نحوين من التحوّل والتبدّل. النحو الأوّل هو الذي يحدث في وجود النبي نفسه؛ أي أنّ البعثة والثورة والتحوّل، كلّ هذه تحدث في البداية في النبي نفسه، في ذاته وباطنه؛ فالنبي نفسه هو أوّل من يتبدّل، وهو أوّل من يخرج من حالة الركود والفتور. وبعد أن تتحقّق القيامة في روح [النبي] وباطنه، وتحدث البعثة في ذاته ونفسه الباطنيّة، وبعد أن تنهض جميع الاستعدادات شديدة الفوران والمستودعة فيه من جانب اللّه تعالى وكأنّها نبعٌ يُستخرج منه في لحظةٍ واحدةٍ مليارات السيول التي تبدأ بالانهمار - حيث أنّ كلّ هذه المياه قبل هذه اللحظة تكون ما زالت مخفيّةً ومستترةً في باطنه -





فبعد هذه اللحظة التي نعبّر عنها باختصار بأنّ النبي نفسه أصبح مسلمًا، وبعد أن يصبح هو نفسه تحت تأثير تحوّل الوحي الإلهيّ، وبعد هذا الانفجار والتحوّل والفيضان والثورة، أي هذه البعثة التي تكون بفضل تفجّر الفيضان الداخلي في روح النبي وباطنه، فإنّ كلّ ذلك يعود ويسيل إلى المجتمع البشري وينتقل إليه. فبعد أن يحدث التحوّل في باطن [النبي] يبدأ التحوّل في المجتمع. وبعد أن تتحقّق في باطن النبي تلك البعثة العظيمة تتحقّق بعثةٌ أعظم في متن المجتمع، وبعد أن تتحقّق هذه الثورة في قلب النبي تبدأ ثورةٌ في المجتمع على يديه، وتتحقّق البعثة بمعناها الواقعي هناك. فانظروا جيّدًا ستجدون أنّ كلّ ما في النبوّة هو عبارةٌ عن فيضانٍ وفورانٍ وتحوّلٍ وتغيّرٍ وبعثٍ وانبعاثٍ.

ونسأل هنا عن الحالة التي كان عليها النبي قبل نبوّته. ويوجد هنا نقطتان ترتبطان بمجال حياة أيّ نبيٍ قبل النبوّة؛ وهما على تضادّ. فبالطبع عندما نقول تضادّ لا بمعنى التضاد الواقعي، بل ما يبدو للنظر أنّه على نحوٍ متضادّ. الأولى هي أنّ النبي، وإن لم يكن مبعوثًا، لكنّه يكون متمتّعًا باستعدادات إنسانيّة في غاية القوّة والعمق، وهذا ما يميّزه عن بقيّة الناس؛ فالاستعداد للفهم والتحرّك والانبعاث الذي يكون موجودًا فيه لا يمكن مقارنته بما هو موجودٌ عند غيره من الناس؛ والاستعداد الموجود فيه للعبوديّة للّه لا يمكن أن يُتصوّر لغيره من الناس من ناحية المستوى؛ فكلّ هذه الاستعدادات التي تكون في أيّ إنسانٍ لتخرجه من حضيض الترابيّة وتوصله إلى أوج «إنّا للّه وإنّا إليه راجعون»، أي تلك العبوديّة الواقعية للّه والتخلّق بأخلاق اللّه، كلّ هذه الاستعدادات تكون في النبي أكثر بكثيرٍ من غيره.



وهنا نسأل: لماذا تكون هذه الاستعدادات في النبي أكثر من غيره؟ فهل أنّ اللّه قد ظلم في هذا المورد أو ميّز؟ يمكننا للإجابة بأن نقدّم جوابًا مختصرًا، حيث نقول في هذه الحالة إنّ تحمّل مسؤوليّة النبوّة في نهاية المطاف يحتاج إلى عضدٍ أقوى وأشدّ وإلى استعدادٍ أعلى؛ فحمل الرسالة ليس عملًا وضيعًا. إنّ حمل النبوّة وإيصال رسالة اللّه إلى الناس، وتبديل المجتمع من الجاهلية إلى التوحيد، يُعدّ عملًا عظيمًا جدًّا كما أنّ حمله ثقيلٌ للغاية؛ وفي النهاية فهو يتطلّب أن ينهض أحدٌ به ويتحمّله. فمن الذي يمكنه أن يتحمّل هذا الأمر؟ هل هم أولئك الأشخاص العاديون؟ أم هم أولئك الذين يحوزون على استعداداتٍ وإمكاناتٍ أكثر بسبب الشروط والظروف والخصوصيّات العامّة والبيئيّة والأسريّة وغيرها؟ فلأنّ اللّه يرى في هذا لإنسان وجود هذه الإمكانات الإضافيّة، فإنّه يعينه ويفيض عليه ويتلطّف به ويجعل تحت اختياره وبين يديه ما يحتاجه في التكامل حتّى يصل إلى تلك المرحلة من القدرة بحيث يتمكّن من رفع ذلك الحمل الثقيل؛ فيصنع اللّه تعالى منه إنسانًا مستعدًّا وجاهزًا لهذا العمل.

ففي النهاية، إذا لم يحمل رسول اللّه هذا الحمل الثقيل، فإنّ هذا الحمل سيبقى على الأرض؛ فأنتم وأنا لسنا ممّن يمكنه أن يحمله؛ كما أنّ هذا الحمل ليس بمقدور غاندي[1]

---

(١) الماهاتما غاندي (١٨٦٩ - ١٩٤٨ م.) الزعيم المعنوي السياسي لشعب الهند على طريق التحرّر من سلطة الامبراطوريّة البريطانيّة. وكان يعيش عيشةً بسيطةً جدًّا، متأثّرًا بالديانة البراهمائيّة وكان يؤكّد على الكفاح السلميّ. وفي إحدى مواقفه، حرّم غاندي شراء البضائع الإنكليزيّة، وقد اغتيل بعد استقلال =





ولومومبا[1]، وليس هو من عمل سقراط وأفلاطون وأرسطو، بل إنّ رفع هذا الحمل الثقيل - الذي يُسمّى الرسالة والنبوّة والبعثة - يحتاج إلى عضدٍ وعاتقٍ أقوى من كلّ هذه القدرات.. بالطبع، إنّ الإعداد والتهيئة لمثل هذا الأمر هو كبيرٌ جدًّا؛ وهكذا يكون النبي حائزًا على هذه الاستعدادات الإضافية مقارنةً ببقية الناس. فهذه النقطة الأولى وقد اختصرناها بمثل هذا الكلام وهو أنّ الاستعدادات الموجودة في النبي هي أكثر من استعدادات الناس العاديين وأغنى وأعمق وأفعل.

النقطة الثانية هي أنّ النبي، قبل البعثة وقبل النبوّة، يكون مشاركًا للناس في مجريات حياتهم اليوميّة ومواكبًا لهم، حيث إنّ الناس في هذا المورد يتحرّكون على مسارٍ معيّن؛ فلا يكون في البداية مشغولًا بالتفكير بكيفيّة قلب أوضاع هذا المجتمع، ومن الممكن أن يكون غير راضٍ، وبالطبع يكون كذلك. فانظروا إلى موسى بن عمران، عليه الصلاة والسلام، الذي كان يعيش في قصر فرعون، وبحسب قول أحد الشيبة قبل عدّة سنوات فقد كان يأكل من سفرة فرعون، وكان يعيش حياة الأشراف، ويقتل أحد الأشخاص في السوق، ويُبعث بعدها بالنبّوة والرسالة ويؤمن به

= الهند من قبل أحد الهندوس المتشدّدين الذي كان يعارض إقامة العلاقات الواسعة مع باكستان الإسلامية.

(١) باتريس لومومبا (١٩٢٥ _ ١٩٦١ م.) قائد الحركة المعادية للاستعمار في دولة الكونغو ضدّ بلجيكا والذي تمّ عزله بعد وصوله إلى رئاسة الوزراء بمؤامرة المخابرات الأميركيّة والبلجيكيّة من قبل رئيس الجمهوريّة وبعد مدّة من الاختفاء أُعدم من قبل الجنرال موبوتو سي سي كو.





قومٌ من بني إسرائيل، وذلك إثر عودته من عند شعيب في مدين؛ أي أنّه بُعث بالرسالة بعد أن قضى تلك المدّة عند شُعيب في مدين. وبشأن قتل ذلك الرجل قبل ذلك بمدّة، فإنّه يقول: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[١]. فماذا يعني أنّه كان من الضالّين؟ يعني أنّه لم يكن قد اهتدى إلى الطريق الصحيح المخالف للطريق العامّ للمجتمع الفرعوني في ذلك الزمان، لا بمعنى أنّه يعدّ قتل أحد أفراد الفراعنة معصيةً وذنبًا، كلّا؛ وإنّما أراد أن يقول: إنّني عندما قتلت ذلك الرجل ولم أكن شخصًا صاحب نهجٍ مشخّص وتوجّهٍ ثوريٍّ صحيحٍ، بل كنت رجلًا من بين الناس، وكنت أسير على الطريق العامّ الذي يسلكه عامّة الناس؛ فكنت أسعى وسط المساعي الكثيرة وأتحرّك إلى جانب كلّ أنواع التحرّكات الأخرى. فاليوم قد بدّلت الطريق، واليوم فإنّني أعتبر تلك الحركة العامّة والمسير الجمعي للناس في المجتمع خاطئًا؛ أي إنّني اليوم سأقوم ببعثةٍ ونهضةٍ داخل هذا المجتمع، متى ذلك؟ إنّ ذلك يحدث بعد البعثة.

كذلك الأمر بالنسبة لنبينا الأكرم محمّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فإنّ الآية من سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ تبيّن المطلب بصورةٍ جيّدة؛ وأنا سوف أفسّرها وأشرحها لكم. لقد ذكر المفسّرون مطالب حولها، ويوجد روايات عديدة في ذيل هذه السورة، وأنا قد تأمّلت فيها ونظرت فوجدت أنّ الروايات عبارة عن تأويلٍ لا تفسير. فما هو موجودٌ في ذيل السورة الشريفة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ - كتسعين بالمئة من الروايات التي تأتي في ذيل الآيات القرآنية - ليس عبارة عن تفسير ظاهر الألفاظ؛ فإنّ ظاهر اللفظ يعطي معناه الخاصّ، ونحن سنقدّم هذا

---

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٢٠.





التفسير بينما ذاك يُعدّ من التأويل، الذي هو عبارة عن إضافة نكتةٍ على النكات الموجودة في هذه الآية؛ وإلّا فإنّ الآية بنفسها واضحة. فالإمام عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يحمل لفظ ظاهر الآية على خلاف الظاهر، بل إنّ ظاهر الآية محفوظٌ في محلّه، وإنّما يريد أن يضيف شيئًا آخر. فما لا نفهمه أنتم وأنا من الآية بالنظرة العادية، يدلّنا عليه الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ما يُسمّى بالتأويل. وفي المضمون، فإنّ قسمًا من بحثنا يرتبط بهذه السورة.

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ عبارة عن قسم من الزمن الذي يشرق فيه النهار، وهو عبارة عن فترة ما قبل الظهر. لاحظوا، إنّ لهذا القسم بذاته معنًى. فالقسم بذلك الوقت يحمل معنًى؛ ولعلّ الإشارة موجودةٌ فيه وواضحةٌ، لأنّ الحديث هو حول البعثة والرسالة التي يحملها النبي. لهذا، فإنّ الضّحى يشير إلى ذلك النور الذي يملأ جميع آفاق العالم على أثر بعثة نبي الإسلام ونبوّة الإسلام. ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وقسم الليل الذي يملأ ظلامه كلّ الآفاق، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، يُقال إنّ الوحي قد انقطع مدّة من الزمن عن النبي بعد أن بدأ؛ فبعد أن تحقّقت البعثة في وجود هذا النبي، وظهر ذلك الفوران والتأجّج في باطنه، وأنس بجبرائيل حامل وحي اللّه، فإذ به يرى أنّ الوحي قد قُطع فجأة، فيُصاب بغمٍّ شديد. وكم طال هذا الانقطاع أو هذه المدّة التي يُعبّر عنها بمرحلة الفتَرة؟! قيل إنّها قد امتدّت لأربعين يومًا، وقال بعضهم أكثر من ذلك، لسنتين أو ثلاث؛ لتأتي بعدها سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ كأوّل سورة مبشّرة تخاطب النبي الأكرم وتقول له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾؛ فاللّه لم يتركك أو يطردك أو يغضب عليك أو ينفر منك. ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾، فإنّ المستقبل سيكون بالنسبة لك أفضل من البداية





والماضي، لأنّ عاقبة عملك هي أفضل من بداية عملك.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، فعطاء اللّه للنبي سيكون إلى درجةٍ يصل معها إلى الرضا. ويوجد في الروايات ما يبيّن أنّ المراد من الرضا هنا في هذه الآية هو الشفاعة وهو أمرٌ صحيح؛ لأنّ الشفاعة هي من الأشياء التي أُعطيت لرسول اللّه وقد أُعطي منها ما يوصله إلى الرضا، لكنّه أُعطي منها في هذه الدنيا مقدارًا ما لأجل أن يرضى. فهداية البشريّة، وتشكيل المدينة الفاضلة، والغلبة على أعدائه الدمويّين، وفتح البلاد، ووضع المجتمع الإسلامي على سكّة المسير التكامليّ، هي أيضًا من تلك النعم التي أُعطيت لرسول الإسلام.

أجل، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾؟ فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان وحيدًا بلا ملجإٍ ولا معين ولا أبّ. فوالده قد تُوفّي قبل ولادته؛ وأمّه ارتحلت من هذا العالم بعد مدّةٍ قصيرة من ولادته؛ وكذلك جدّه، فقد ارتحل من هذا العالم بعد سنواتٍ قليلة؛ وقد بقي النبي لوحده، وصار تحت كفالة عمّه أبي طالب؛ واللّه يمنّ عليه بأن آواه منذ تلك اللحظة الأولى لليتم وجعله في حضن العطف والمحبّة، وحفظه بحفظه ورعايته. وهنا، يُعطى الأمل، ويُراد أن يُقال له إنّ مأوى اللّه سيكون دائمًا من نصيبه. فكما كان الأمر في الطفولة، فإنّه سيبقى كذلك بعد حمل الرسالة، مهما كانت ثقيلة وشديدة على عاتقك وبيدك، فلا تخف ولا تخشَ ولا تظنّن أنّ اللّه تعالى قد تركك وودّعك، أبدًا، فإنّ اللّه تعالى لن يتركك منذ ذلك الوقت الذي آواك فيه.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، يوجد بشأن الضلالة والهداية عدّة



روايات، بعضها ضعيفٌ من ناحية السند. ويوجد مجموعة من الأقوال المنسوبة للمفسّرين قد دخلت ضمن هذه الروايات. فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ لا يرتبط بالضلالة الفكريّة والروحيّة، بل المراد منها أنّ النبي عندما ضاع في طفولته في بعض أودية وجبال مكّة، هدى اللّه تعالى جدّه وتمكّن من إيجاده؛ أو كما ورد في حادثةٍ أخرى أنّ [النبي] قد ضاع فجاءت امرأةٌ ووجدته؛ أو [المقصود هو] أنّك كنت ضالًّا في أهل مكّة وبين الناس ولم يعرفك أحد، فهدى اللّه تعالى أهل مكّة إليك. هكذا حملوا المعاني على هذه الآية؛ ونحن لا ننكرها جميعها، بل المقصود هو أن ندرك المعنى المطلوب. فمن الممكن أن تكون هذه المعاني موجودة؛ ولو وجدنا الراوية الصحيحة التي تنطبق على أيّ واحدٍ من هذه المعاني سنطأطئ لها رؤوسنا. من الممكن أن تكون المسألة من الأساس عبارة عن وجود رواياتٍ ضعيفة، ومن الممكن أن يكون هناك روايات صحيحة في هذا المجال، فعندها ستكون منطبقةً على كلّ واحدةٍ من هذه التفسيرات، وهي بالطبع مقبولة ويمكن أن تكون صحيحةً في موردها. ومع افتراض أنّنا نقبل كلّ معنى من هذه المعاني طبق الروايات الصحيحة؛ فإنّ المعنى الظاهر لهذه الآية هو غير هذا. وقبول الرواية التي تعطينا هذا المعنى لا يتنافى مع قبول المعنى الظاهر من الآية. فظاهر الآية هو شيءٌ آخر؛ إنّ ظاهرها واضحٌ وصريحٌ وهو يقول إنّك كنت ضالًّا ونحن هديناك. فماذا تعني الضلالة هنا؟ هل تعني عبادة الأصنام؟ كلّا وأبدًا. هل تعني أنّه كان شخصًا منحرفًا؟ كذلك الأمر الجواب هو بالنفي حتمًا. هل تعني أنّه كان عاصيًا؟ كلّا. فماذا إذًا؟ إنّها تعني أنّ هذا الصراط المستقيم الذي أريناك إيّاه في البعثة والنبوّة لم يكن بمتناول



يديك؛ وهل يوجد شيءٌ آخر غير هذا؟ فتلك المعارف، وتلك القوانين والأفكار التي أضاءت قلبك المقدّس مع نزول الوحي، هل كانت موجودةً قبل النبوّة وقبل البعثة في قلب هذا النبي العظيم؟ فمن المسلّم أنّها لم تكن كذلك. فالضلالة تعني هذا الأمر، وهو المعنى الظاهر من الآية، ولا يوجد أيّ إشكالٍ في أن نحمل هذه الآية الشريفة - حيث إنّ ظاهرها كذلك بلحاظ المعنى التأويلي على الضلالة بين أهل مكّة أو الضلالة في جبال مكّة أو الضلالة أثناء رعي الأغنام في المكان الفلاني، كما جاء في بعض الروايات والمنقولات. فالتفتوا جيّدًا!

حسنٌ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، هنا تبيّن الآية أنّ اللّه تعالى قد أغنى نبيه المحتاج. فما هو المقصود من هذه الآية وطرح هذه السورة في هذه الجلسة؟ لقد كان النبي الأكرم، وكما هو مفاد ظاهر الآية، يتحرّك بين الناس العاديين ويسير وسط المجتمع، وإن كان منزعجًا ومتألّمًا من الأوضاع؛ وإن كان يتألّم من أبناء أشراف قريش الذين استولوا على ابنة ذلك الرجل المعدم وفعلوا ذلك بالقوّة، وقد قام بإنجاز حلف الفضول[1]، وهو معاهدة شرفيّة؛ وإن لم يشرك الرسول لحظةً واحدةً بربّه ولم يخضع في مقابل الأصنام ويعظّمها؛ وإن لم يكن ينسجم لحظةً واحدةً مع أصحاب الأموال والمستبدّين وكان يعيش في ذلك المجتمع كإنسانٍ شريفٍ؛ فما فعله النبي، رغم كلّ هذه الأوضاع، هو أنّه كان

---

(١) حلف الفضول هو معاهدة قام بها النبي في سنّ العشرين مع مجموعة من شباب مكّة من أجل الدفاع عن المظلومين وكلّ غريب يدخل إلى مدينة مكّة ويقع تحت ظلم الظالمين ومن أجل الدفاع عنها.

يسير في المسير العادي لحياة ذلك المجتمع.



لقد كان النبي يعيش في المسار العادي لحركة المجتمع وحياته الجمعيّة، ثمّ يأتيه الوحي فجأةً فيحدث في نفسه تحوّلًا عميقًا وكذا في باطنه ووجوده؛ وقد كان هذا التحوّل عجيبًا وشديدًا إلى الدرجة التي كان يؤثّر في جسم النبي أيضًا، وكذلك في أعصابه. فعندما اصطدمت أوّل شعلةٍ للوحي بروح النبي الأكرم واشتعلت في جبل النور، وجد أنّ حامل رسالة اللّه يقول: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ ولأنّ النبي لم يكن يقرأ شيئًا قال: وما أقرأ؟[1] أو أنّه قال: لا أقرأ أو لا أستطيع أن أقرأ؛ فسواء كانت «ما» هنا نافية أو استفهاميّة «وما أقرأ؟» - ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[2]. هكذا أتت تلك الشعلة إلى روح النبي وأوجدت فيه ذاك التحوّل. فهذا الإنسان المتفكّر، الذي نشأ نشأةً سليمة، والذي يمتلك هذه الجهوزيّة والاستعداد، يحدث في نفسه ذلك الانقلاب وتلك البعثة. لم يعد هذا الإنسان كما كان من قبل من الأساس. فمحمّد لم يعد ذاك المحمّد الذي كان قبل لحظة؛ وهذا الإنسان لم يعد كما كان قبل ساعة؛ لقد أصبح شيئًا آخر، وصار عنصرًا مختلفًا وجوهرًا جديدًا. في البداية، حقّقت البعثة في وجوده انقلابًا وتحوّلًا في باطنه وأصبح هذا الانقلاب منشًا لكي يتمكّن من تبديل العالم كلّه؛ ولو لم يتبدّل هو بنفسه لما استطاع أن يبدّل العالم. هذا هو الدرس لأتباع النبي وهو أن يعلموا أنّهم إذا لم يبدّلوا أنفسهم فلن

---

(١) **البرهان في تفسير القرآن**، ذيل تفسير سورة **العلق**.

(٢) سورة **العلق**، الآيات ١-٥.





يتمكّنوا من تبديل العالم؛ فليعلموا أنّ:

ذات نــا يـافـتـه از هـسـتـى بخش
كِـى تـوانـد كـه شـود هـسـتى بـخـش[١]
الـذات الـتـي لـم تـدرك أصـل الـوجـود
متـى يمكـنـها أن تصبـح مـانحـة الـوجـود

فأنت الذي لم تدرك حصّةً من الوجود ومن هذا الفيضان الإلهي ومن شعاع لطف اللّه ونعمة نوره، فأنت إذًا لم تنل شيئًا من هذا، ولم تفعّل استعدادًا كامنًا في نفسك؛ فكيف يمكنك أن تعطي الناس؟! وماذا ستُعطيهم؟! فكن أوّلًا نارًا واشتعل، كي تتمكّن من إشعال ذلك الفحم وذلك الحطب وتضيؤه.

لقد أشعل النبي روحه أوّلًا، وكان قلبه أوّل متحوّلٍ ومنقلبٍ. ففي البداية، تحقّق هيجان القيامة في باطنه، وهناك استطاع أن يجرّ العالم نحو فوران تلك القيامة. لقد استطاع أن يصنع إنسانًا، يقدّم نفسه ولا يضيّع فكره. فهل هذا الأمر مجرّد خُزعبلات؟ فهل كان مزاحًا أن يأتي بلال الحبشي، الذي كان شديد السواد، ويتلقّى كلّ ذلك الضرب، لا ذلك الضرب الخفيف بل ذلك الضرب المبرّح؛ يَضربونه! فكيف ذلك؟ كلّ ذلك يحصل تحت ضرب السياط ووطأة ذلك التعذيب، وليس لدقيقةٍ أو ساعةٍ، في حين أنّه هو يصرخ ويقول: أحدٌ، أحدٌ، أحدٌ[٢]. ولو أردنا أن نعبّر عن هذا المعنى باللغة الفارسيّة فعلينا أن نجد جملةً مرادفة له، والمقصود هنا بهذا

---

(١) شعر لعبد الرحمن جامي.

(٢) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الرسالة التاسعة، قصّة غزوة بدر.





الكلام هو: الموت لكم، الموت لكم، الموت لكم، الموت لكم. هذا هو معنى أحدٌ؛ أحدٌ بالنّسبة لبلال. فما صنعه النبي بأبي ذرّ[١] أو ببلال، أو بالمقداد[٢]، أو بعبد اللّه بن مسعود، في أوائل الإسلام والبعثة، لم يكن أمرًا بسيطًا أو عشوائيًّا. فقد أحدث الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ التحوّل أوّلًا في ذواتهم. والآن، فلننظر ماذا فعلت ترانيم الوحي الأولى بالنبي، وماذا كانت تتضمّن من مطالب.

القسم الآخر هو سورة اقرأ، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فانظروا كيف يبدأ بسلسلةٍ منظّمةٍ. فأوّل شيءٍ يمكن أن يؤدّي بالإنسان للتوجّه إلى اللّه ويجذب قلبه إلى اللّه، بالنسبة لإنسان يعبد اللّه كنبينا، والذي كان يعبد اللّه قبل البعثة ولم يكن مشركًا، هو أبسط وأسهل موضوع وهو موضوع

---

(١) جندب بن جنادة، كان يُكنّى بأبي ذرّ، وهو من قبيلة غفار، وهو الرابع أو الخامس من الذين أسلموا. عندما سمع النبي الجديد أسرع إلى مكّة وأسلم. ثمّ رجع إلى قومه وبعد معركة الخندق هاجر إلى المدينة، كان أبو ذرّ من أنصار أمير المؤمنين بعد وفاة رسول اللّه ورفض مبايعة أبي بكر، كان أبو ذرّ ينتقد سياسات عثمان وطريقة استعماله لبيت المال، ولهذا أبعده إلى الشام ثمّ إلى الربذة حيث توفّي هناك عام ٣١ أو ٣٢ للهجرة.

(٢) كان من أوائل الذين أسلموا ويعدّه المؤرّخون المسلمون سابع من أسلم. كان المقداد من كبار الصحابة وقد هاجر إلى مكّة بسبب ظلم مشركي مكّة. ثمّ رجع إلى مكّة وتوجّه إلى المدينة وشارك في جميع حروب النبي، كان معروفًا برمي السهام بمهارة. وبعد وفاة رسول اللّه كان المقداد من القلّة المعدودة التي نصرت أمير المؤمنين. وقف المقداد مخالفًا لبيعة الناس مع عثمان، وفي عام ٣٣ للهجرة، تُوفّي في المنطقة التي تبعد فرسخًا واحدًا عن المدينة نُقل إلى المدينة ودُفن في مقبرة البقيع.





الخلقة؛ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فالخلق له، وكلّ هذه المظاهر العظيمة للخلقة منه.

وعندما يستقرّ هذا المطلب في الذهن، فإنّه يرتقي إلى درجةٍ أعلى، ويثبت شيئًا أعلى من الخلق، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾. وهنا، كم هو هذا الاختلاف بين الإنسان والكائنات الأخرى؟ الإنسان في البداية لا يتوجّه إلى هذه القضيّة. فأنتم عندما تسيرون في الشارع بينما تركبون السيّارة، وتمرّ بجانبكم سيّارةٌ أو إنسانٌ أو يمرّ عشرة أشخاصٍ أو تمرّون على عشر شجراتٍ بسيّارتكم، فقد تشتبه الرؤية عند الإنسان، لأنّ الإنسان عندما لا يدقّق فإنّه لا يلتفت إلى وجود فرقٍ بين الإنسان وغير الإنسان.

حسنٌ، إنّ الإنسان موجودٌ وهو بالتأكيد موجودٌ أعزّ وأفضل وأعلى [من سائر الموجودات]؛ وتلك أيضًا موجودات وكائنات. أولئك الذين يعتبرون زبدة العالم لا يدركون الفرق بين الإنسان وغير الإنسان حتّى النهاية، وذلك لأنّ آلاف البشر بالنسبة لهم هم بقدر آلاف النمل، لا قيمة لهم. فهذا الإنسان يقضي على آلاف النمل والنملات بكميّةٍ قليلةٍ من المحروقات، ويحرق آلاف البشر بأمرٍ واحدٍ يصدره، كأن يلقي عليهم قنبلةٍ واحدة. لن ندخل الآن في هذا الموضوع.

لا يدرك الإنسان للوهلة الأولى أهميّة الإنسان والاختلاف العميق بين الإنسان وغيره من الكائنات، ولكن عندما يدقّق فكيف سيكون الأمر؟ سيقول أوه يا للعجب! يوجد بين الإنسان وغيره من الكائنات هوّةٌ، وهي هوّةٌ عميقةٌ جدًّا! فما هي هذه الهوّة؟ وأيّة مميّزات يمتلكها هذا الإنسان بحيث تفصله إلى هذا الحدّ





وإلى ذاك الحدّ عن الكائنات الأخرى؟ إنّها قوّة العقل ومعرفة الكلّيّات والاستنتاج من الجزئيّات؛ وهو الأمر الذي لا تفعله الأشجار ولا الأحجار ولا الحيوانات؛ إنّه الابتكار والإبداع. فلو لم يكن مثل هذا الإبداع عند الإنسان، لبقي هذا الإنسان دومًا عند حدٍّ معيّن كالكائنات الأخرى؛ ولقد ضربت في الجلسة السابقة من النحل مثالًا على ما نقول. إنّها قوّة الإرادة والعزم والاختيار والقيام بما يريد [التي يمتلكها الإنسان]، بخلاف الكائنات الأخرى التي هي مضطرّة لاتّباع غريزتها، والتي تعمل وفق ما تمليه غريزتها عليها حيث لا يوجد في البين أيّة إرادةٍ أو اختيار. أمّا الإنسان، فإنّه يستطيع أن يعمل بخلاف غريزته. فقد تقضي غريزة الإنسان بأن يأكل الآن، أو أن يتمكّن من إشباع شهوته الجنسيّة، فهذه غرائز في النهاية؛ لكن أنتم ترون أنّه يمكن أن يوجد إنسانٌ لا يشبع غريزته الجنسيّة ولو لمرّةٍ واحدة طوال عمره وهو يقوم بالرياضات لمخالفة غريزته؛ ونجد إنسانًا يعيش على حبّة لوزٍ واحدةٍ ولأيّامٍ متمادية، فهذا الفعل لا يقدر عليه إلّا الإنسان، لأنّ الإنسان يمكنه أن يعمل خلاف غريزته.

وباختصارٍ، إنّ قوّة الفكر والاختيار والإرادة وقوّة الابتكار التي يمتلكها الإنسان، هي الأشياء التي ميّزته عن بقيّة الكائنات. وهكذا، يكون الإنسان من الأساس شيئًا آخر مقابل تلك الكائنات والموجودات. بالطبع، إنّ العلماء المادّيّين قد توصّلوا مؤخّرًا بدرجةٍ ما إلى هذا الأمر؛ وهم يقولون إنّ الإنسان هو أحد الأنواع المدهشة في عالمِ الكائنات، وإن لم يقولوا بوجود الاختلاف والتفاوت، لكنّه بالنسبة لهم نوعٌ مدهش. وإنّ جميع هذه المميّزات الموجودة في الإنسان إنّما كانت على أثر فيضان روح اللّه فيه، وهذا هو معنى تجلّي روح اللّه في الإنسان حيث يقول تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن



رُّوحِى﴾[١].

أجل، يتوجّه النبي فجأةً ويلتفت إلى شيءٍ هو أعلى من خلق الجامد والخالي، وهو خلق الإنسان وخلق العقل وخلق قوّة الفهم والإدراك، ومن أيّ شيءٍ نشأ ذلك؟ من علق، من الدماء المنعقدة والمتجمّعة. فمن أين وإلى أين؟ ما للتراب وربّ الأرباب؟ فكيف يمكن لشيءٍ ليس له روح وليس فيه قوّة التحرّك ولا فيه قوّة الفهم أن يتبدّل إلى آنشتاين مثلًا؟! أو أن يتبدّل إلى إنسانٍ عظيم؟! أو أن يتبدّل إلى سقراط وإلى متفكّر أو إلى فيلسوف أو نبي؟! فكيف يمكن ذلك؟! أليس ذلك كلّه سوى من صنع الربّ القوي لهذا العالم؟ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾. لقد التفت نبينا ومنذ بداية الوحي إلى هذه النكتة المهمّة جدًّا. لاحظوا، إنّ اللّه يريد أن يحدث فيه تحوّلًا، ويضع في قدمه حذاءً من الفولاذ، وأن يعطيه عصًا من حديد لكي يذهب، وعندها لن يبقى للتعب بالنسبة له أيّ معنًى. فكانت هذه الكلمات تصنعه ومنذ البداية.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾. هنا يطرح على النبي قضيّة تعليم الإنسان؛ وأنتم تعلمون أنّه لو لم يكن القلم ولم تكن الكتابة لما حصل للبشريّة هذا الترقّي. فالذي يمكن أن ينقل تكامل أو تطوّر جيلٍ إلى الجيل الآخر، حيث يقوم الجيل الآخر بالاستفادة منه كسلّم للصعود، ويضع قدمه على درج تجربة الجيل السابق، ويصنع لنفسه تجربةً جديدةً لا شيء سوى القلم؛ مثلما أنّ الاكتشافات العلمية والدراسات والأبحاث

---

(١) سورة **الحجر**، الآية ٢٩، وسورة **ص**، الآية ٧٢.





العلمية التي حقّقها الجيل السابق، لو لم توضع بين يدي الجيل اللاحق، لما استطاع هذا الجيل اللاحق أن يزيد عليها؛ فاعلموا ذلك أيّها الأعزّاء. فلو لم يكن كتاب أرسطو بمتناول يد أبي علي سينا[1]، لما كان هناك أبو علي سينا كما هو ابن سينا، والذي هو أفضل من أرسطو مثلًا؛ ولو لم يكن الكتاب الفقهي للشيخ الطوسي[2] مثلاً، أو للعلاّمة الحلّي[3] بمتناول يد الشيخ الأنصاري[4]

---

(١) أبو علي سينا (٣٧٠-٤٢٨ قمري) وُلد في قريةٍ قريبةٍ من بُخارى وقد تميّز بذكاءٍ خارق وتبحّر في العلوم المختلفة ومنها العلوم العقليّة والطب. كان له مؤلّفات في مختلف العلوم ومنها **القانون** في الطب **والشفاء** والفلسفة والإلهيّات والطبيعيات والمنطق.

(٢) الشيخ أبو جعفر بن محمّد بن علي الطوسي (٣٨٥ _ ٤٦٠ ق.) والمعروف بشيخ الطائفة وُلد في طوس خُراسان. وسافر إلى العراق من أجل تحصيل المعرفة، وكان من تلامذة الشيخ المفيد والسيّد المرتضى علم الهدى. للشيخ الطوسي مؤلّفات كثيرة ومنها كتاب **تهذيب الأحكام والاستبصار** الذي يُعدّ من الكتب الروائيّة الأساسية الأربعة عند الشيعة.

(٣) حسن بن يوسف الحلّي (٦٤٨ - ٧٢٦ ق.) وُلد من أسرةٍ علمية. وتتلمذ على يد أساتذةٍ كالمحقّق الحلّي والخواجة نصير الدين الطوسي، وتبحّر في العلوم المختلفة كالفقه والحديث والكلام والفلسفة والرياضيّات والهندسة ولُقّب بالعلّامة. وصل في سنّ الثامنة والعشرين إلى زعامة الشيعة ومرجعيّتهم بعد وفاة المحقّق الحلّي. من خلال مناظرات العلّامة مع علماء أهل السنّة، اختار أولغايتو الحاكم المغولي لإيران لنسفه مذهب التشيّع واختار لنفسه اسم محمّد عبد الله.

(٤) الشيخ المرتضى (١٢١٤ - ١٢٨١ ق.) ينتهي نسبه إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ووُلد في مدينة دزفول. رأت أمّه قبل ولادته الإمام الصادق ع وقد أهداها مصحفًا مذهّبًا. وبعد تحصيله الابتدائي في دزفول توجّه إلى كربلاء وتتلمذ على يد علماء كبار كالشيخ موسى كاشف الغطاء والسيّد محمّد المجاهد =



والميرزا الشيرازي[١]؛ وهما أكثر غورًا من الماضين وأكثر علمًا ممّن سبقهم ألف سنة. فلو لم تكن هذه الكتابات بين أيديهم، ولو لم تكن نتاجات الدراسات والأبحاث تلك في متناولهم، فمن المسلّم أنّهم ما كانوا ليصلوا إلى ذلك الحدّ والمستوى، فهذا واضحٌ جدًّا إذًا. فالشخص الأوّل يمتلك خمس تومانات يعطيها إلى الشخص الثاني، والشخص الثاني يضيف عليها فتصبح عشر تومانات، فيعطيها للشخص الثالث الذي بدوره يزيد عليها خمس تومانات؛ فتصبح خمسة عشر تومانًا، وهكذا يصبح الشخص الثالث أكثر ثراءً من الشخص الأوّل لأنّه يمتلك خمسة عشر تومانًا، ولكن من أين له هذه التومانات الخمسة عشر؟! فلو لم يكن الشخص الأوّل، هل كان ليحصل على هذا المبلغ؟ وكذلك لو لم يكن الشخص الثاني، ما كان ليحصل على توماناته، كلّا وأبدًا؛ فإنّه ما كان ليصل إلى الخمس تومانات إلّا بشقّ الأنفس. فإنّ حاصل واكتشافات مَن سبق من الناس هو الذي يصل إلى الأجيال اللاحقة، وكلّ ذلك بأيّة

= والحاج المّلا أحمد النراقي. تصدّى لمرجعيّة زعامة الشيعة بعد المرحوم صاحب الجواهر. وما زالت آثاره الفقهيّة ككتاب **المكاسب** مرجعًا أساسيًا للدراسات الحوزويّة.

(١) الميرزا محمّد تقي (١٢٥٨ - ١٣٣٨ ق.) وُلد في مدينة شيراز. سافر إلى حوزة كربلاء من أجل تحصيل العلوم الدينية واستفاد من محضر آية اللّه محمّد حسن الشيرازي الذي عُرف بتحريم استعمال التنباك. وصار مرجعًا للتقليد بعد وفاة آية اللّه السيّد محمّد كاظم اليزدي. ورغم كبر سنّه، وقف في الصفوف الأماميّة للجهاد ضدّ الاستعمار الإنكليزي ودعا الشعب العراقي بفتواه التاريخيّة للجهاد والصمود. وقد أدّى هذا الجهاد في النهاية إلى أن يتحرّر العراق من سلطة الإنكليز. وكان عبد الكريم الحائري من جملة تلامذته.





وسيلة؟ إنّه بواسطة القلم وبواسطة الكتابة.

إنّ تعليم الإنسان بالقلم هو أعلى وأعظم بكثير من أصل الخلقة. ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ علّم الإنسان تلك الأشياء التي ما كان ليعلمها، فهي نعمٌ إلهيّة للإنسان؛ إذًا، على الإنسان أن يشكر هذه النعم. وعندما يعلّم اللّه الإنسان ويهديه ويعطيه القلم ويجعله عاقلًا ويعلّمه، يجب على الإنسان أن يتّجه نحو قمم المجد، ويعني ذلك أنّه لا ينبغي له أن يتسافل لحظةً واحدة، ولا يجوز لهذا الإنسان بعدها أن يعود ويشقى. فهل أنّ الأمر هو هكذا؟ إنّ الآية اللاحقة تجيب، وكأنّها تواجه توهّمًا مثل هذا التوهّم. لو أنّ اللّه خلق البشريّة على هذا النحو وربّاها وأعطاها القلم وتلطّف بها وأكرمها، لما كان ينبغي للإنسان أن يكون بهذا الشقاء والضلال والفساد وأمثالهم، فهل حدث مثل هذا الأمر؟!

كلّا، ليس كما تظنّ وتقول. فكيف كان وضع البشريّة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فكلّ ذلك الطغيان والعصيان والتمرّد هو من قبل هؤلاء الأفراد العاجزين والطواغيت في مقابل الرحمانيّين، حيث اصطفّوا وواجهوهم وأدّوا إلى تعاسة البشريّة؛ فذلك الطغيان هو الذي لم يسمح للبشر أن يصلوا إلى الهداية، وهو ذلك الطغيان والتمرّد والعصيان الذي لم يسمح للبشر أن يستفيدوا من الاستعدادات الربوبيّة إلى الحدّ الأقصى وأن ينشأوا ويتربّوا كما أراد اللّه لهذا الإنسان أن ينشأ ويتربّى؛ فالطواغيت لم يسمحوا بذلك، وعندما وجدوا أنفسهم مستغنين طغوا وتمرّدوا وخرجوا عن الطريق الإلهيّ.



لاحظوا هنا، إنّ ذلك أيضًا يصنع النبي؛ كالتوجّه إلى لطف اللّه، وعظمته وكرمه، وتعليمه، والتوجّه إلى أنّ اللّه خالق، والتوجّه إلى أنّ اللّه معلّم، وأنّه الأكرم، والتوجّه إلى أنّ الإنسانيّة لم تصل إلى ما كان ينبغي أن تصل إليه، ولم تصل إلى مفهوم ﴿كَلَّآ﴾، وإلى تقصير الطواغيت. فالطغيان يحصل على أثر الإحساس بالغنى. فالغنى والاستغناء وجمع الثروة وتكديس الكنوز والثروات تجعل الرقاب تستعلي؛ وعندما تستعلي الرقاب، وتتشكّل القوى غير الإلهيّة، لن تصل البشريّة إلى المنزل المقصود والهدف النهائي. لاحظوا، هذه كلّها إلهاماتٌ إلهيّة في بداية البعثة؛ وهذه هي الشعلة التي أشعلت النبي.

كلّا، ليس كما تفرضون؛ فأنتم تتصوّرون أو تتوقّعون أنّ البشريّة قد وصلت إلى عاقبتها الحميدة، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ فهل سيكون لأولئك الطواغيت عاقبةٌ موفّقة؟! كلّا، فإنّ الرجوع سيكون إلى ربّك، والعاقبة عنده، ونهاية الأمور إليه ولمصلحة الجبهة الإلهيّة، ولهذا الطريق الذي عيّنه ربّ العالم. وفي النهاية، سوف تصل هذه البشريّة إلى المقصد النهائي ولا شكّ في ذلك، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾. ويوجد مطالب أخرى في هذه السورة الشريفة، انظروا إلى هذه المطالب كم تضمنّت وبيّنت من حقائق.

ثمّ هناك القسم الآخر من آيات ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ والتي تشير إلى التحوّل الباطني في نفس النبي؛ ولا شكّ أنّ هناك آيات أخرى كثيرة، لم نجد ضرورة لنقلها جميعًا، وإن كان البحث بحثٌ دقيقٌ جدًّا، وأنا نفسي لم أصادف في الأبحاث التي كنت قد طالعتها أنّه

تمّ تناول هذه النكتة بدقّة؛ لذلك كنت أودّ أن أوضّح المزيد عنها، لأنّ معرفتها مفيدةٌ في مجال التطبيق والعمل.



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، إنّ البحث هنا هو بالنجم حين نزوله. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، والقضيّة، كما جاء في العديد من التفاسير، ترتبط بالمعراج - هذا وإن كانت تشير إلى التحوّل الباطني للنبي وحالة تلقّي الوحي - ولكنّ سبب نزول سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ هو أنّه كلّما [أراد النبي] أن يبيّن لهم ما جرى معه في سفره الليلي وسفره المعراجي لم يكونوا يستمعون، والآية في هذا المقام تبيّن هذه القضيّة. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، صاحب القدرة الكبيرة هو الذي قام بتعليمه. ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ يعني أنّه شديدٌ وكثيرٌ من حيث القوّة والقدرة. ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ يعني الذي يمتلك العقل والحكمة؛ وقد ذكر المفسّرون أنّها تشير إلى جبرائيل، حيث إنّ كلّ ما كان يقوله كان ينقله عن جبرائيل، وكان اللّه يعلّمه هذه الأشياء بواسطة جبرائيل. ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾، كان يقف ثابت القدم عند تنزّل هذا الوحي الإلهي إليه.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، الأعلى هو الذي يشير إلى ما هو معروفٌ من الأفق، فالرسول كان قد استقرّ في الأفق الأعلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، ولعلّه يمكن تفسير قوله ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ على هذا النحو: أي أنّه استطاع أن يصل إلى أعلى مستوًى، وكما ذكرنا، فإنّ النبي قبل نبوّته، يكون بين الناس في أوضاع حياتيّة عادية رغم ما يتمتّع به من استعداداتٍ هائلة وأعلى من العادية. ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي أنّه اقترب ثمّ ازداد قربًا. ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فمن الواضح



معنى «الأعلى» و«الأفق»، فهذا المقام من مقامات النبي، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فلعلّه يمكن أن يُفسّر هذا الكلام حيث نقول مثلما ذكرنا سابقًا وهو أنّ النبي كان في البداية، حينما كان بين الناس، يعيش حياةً عادية قبل النبوّة، ويتمتّع باستعدادات أعلى من الاستعدادات العادية، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، فاقترب ثمّ اقترب. والمقصود هنا هو إشارة إلى أنّ النبي كان قريبًا، ثمّ على أثر العبادات، والرياضات، والتدبّر، والتفكّر، وعلى أثر الألطاف التي اختصّه اللّه بها، أصبح أقرب إلى اللّه وصارت روحه قريبةً إليه تعالى، ثمّ أكثر قربًا، حتّى استعدّ لتلقّي الوحي؛ وقد قال البعض إنّ المقصود من «دنا» هو جبرائيل الذي اقترب من النبي، و«تدلّى» بمعنى تعلّق به، وبمعنى أنّه أوصل نفسه إلى الرسول حتّى يتمكّن من أن يوصل الوحي إليه. وعلى كلّ حال، لا يوجد فرق. لكنّ المعنى الأوّل هو بنظرنا أكثر قربًا وظهورًا. أمّا المعنى الثاني فقد ذكرته أنا بين قوسين، كإشارةٍ إلى أنّه يوجد معنًى ثانٍ، لكنّني أستحسن المعنى الأوّل.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فإنّ النبي كان قد اقترب من اللّه واقترب إلى أنّ وصل إلى ما هو أقرب من مسافة قوسين. فلا تقولوا ماذا يعني ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ وما هي الخصوصيّة الموجودة فيهما؟ فافرضوا أنّ القوس هو مسافة مترٍ واحدٍ، فهل تكون القضيّة بأنّه اقترب لمسافة مترين؟ فأين كان اللّه حتّى يصل النبي إلى مسافة مترين منه؟! كلّا، إنّ هذه تعبيرات كنائيّة واستعارة، فقد اقترب منه لا بلحاظ المكان؛ وإنّما المقصود بتعبيره: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، هو أنّه صار شديد القرب إلى تلك الدرجة التي لم يعد هناك بالإمكان أن يكون من هو أقرب منه، فروح النبي المقدّس صارت أقرب من القريب.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ إنّ مشاهدات قلب النبي لم تكن كذبًا بالنسبة له، فكلّ ما شاهده كان صحيحًا ولم يقع فيه أيّ خطأ. ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، فلمَ تجادلونه بما كان يرى؟

أجل، فبعد أن تصبح دوافع النبي الباطنيّة والذاتيّة سببًا لتغيير طريقه ويأخذ سعيه في الحياة صبغةً جديدة ويسعى بجدٍّ وجهادٍ دائمين، فلماذا يسعى؟ إنّ ذلك من أجل أن يتحقّق في المجتمع وفي متن الحياة البشريّة بعثةٌ وتحوّلٌ من الجذور والأساس. فبعد أن أوجد في نفسه هذا التحوّل، سيسعى لتحقيق هذا التحوّل في المجتمع، وهذه هي مسؤوليّة الرسالة والنبي إنّما كانا لأجل هذا الأمر.

الجلسة السادسة عشر

البعثة الاجتماعية للنبوّة

الجمعة، ١٧ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾.

[سورة **القصص**، الآيتان ٥ و٦]



يوجد مطلبٌ بين أيدينا يُستفاد من ذيل هذه الآيات، سوف نبحثه بالاستعانة بهذه الآيات وآيات من سورة الصفّ، وقد وجدنا أنّ أفضل عنوان لهذا المطلب هو «البعثة الاجتماعية للنبوّة».

بالطبع، إنّ عملنا هو أن نشرح البعثة الاجتماعية للنبوّة ونبين ماهيّتها. ولقد سمعتم مقدارًا من مقدّمات هذا الحديث في الجلسات السابقة، حيث قلنا إنّ البعثة تبدأ بوجود وتحقّق انبعاثٍ وفورانٍ في باطن النبي مع بدء الوحي في قلبه. هذا النبي الذي يكون عبدًا اختاره اللّه وعيّنه لأجل رسالةٍ ومسؤوليّةٍ وعهدٍ عظيمٍ وثقيلٍ نظرًا لما لديه من استعدادات عميقة وفيّاضة، فبعد أن ينزل الوحي الإلهي على مثل هذا العبد يتحقّق في روحه وفي باطنه نوعٌ من الانبعاث والفوران وتتحقّق ثورةٌ في روح هذا النبي؛ فنجد أنّ بعثةً حقيقيةً تتحقّق في حياته العادية: في ذهابه وإيابه، وفي توجّهاته الاجتماعية، وباختصار في كلّ وجوده؛ إنّها ثورةٌ بكلّ ما للكلمة من معنًى؛ فالإنسان الذي كان قبل الوحي لا يعود ذلك الإنسان نفسه بعد الوحي بساعةٍ أو يوم. وما يكتبه بعض الباحثين الذين لا يؤمنون بنبي الإسلام من هؤلاء المستشرقين





بشأن حياة النبي - ولعلّ بعضهم لم يكتب ذلك عن نوايا سيّئة أو أغراض، لكنّ البعض الآخر من المسلّم أنّهم كانوا مغرضين - عن أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يطالع ويفكّر ويتدبّر طوال حياته قبل البعثة، وأنّ هذه التأمّلات هي التي أوصلته إلى هذه الثورة وأوجدت فيه هذا التحوّل، إذا أخذنا هذا الكلام بظاهره، فهو خطأٌ وكذب إلّا إذا كان مقصودهم شيئًا آخر.

إنّ النبي لم يصل إلى الثورة والدعوة الإسلامية على أثر التفكّر والتدبّر، بل بعدما تحقّقت هذه الدعوة وهذا الوحي وهذه البعثة في وجوده أصبح موجودًا آخر وإنسانًا مختلفًا وصار في وضعيّةٍ أخرى؛ وليس الأمر منحصرًا بهذا النبي بل يشمل جميع الأنبياء من قبله. فعندما كان موسى يسير بزوجته وابنه في الصحراء، كان سفره سفرًا عاديًا، وفي تلك اللحظة الحسّاسة التي نزل فيها عليه الوحي الإلهي نسي موسى كلّ شيءٍ آخر عند ذلك. ففي ذلك الوقت الذي يشعر فيه النبي موسى بالرسالة يكون قد أصبح إنسانًا آخر غير ذلك الإنسان الذي كان عليه قبل لحظة، فقد وُجد في نفسه حماسٌ وانبعاثٌ وفورانٌ مختلف؛ أمّا ذاك الذي لا يعتقد بالنبوّة وبالبعثة وبالوحي وبرابطة الأنبياء بعالم الغيب ويتفوّه بذلك الكلام، فإنّ كلامه هو كلامٌ يصدر عن مستشرقٍ ملحدٍ أو مغرض، ثمّ يأتي مؤلّفٌ قليل الاطّلاع وعديم التحقيق وغير مغرضٍ ويكرّر مثل ذلك الكلام في كتابه ومؤلّفاته ومقالاته.

وعلى أيّ حال، فإنّ البعثة هي عبارة عن ذلك الانبعاث والثورة والتحوّل والتغيّر - وأيّ تعبيرٍ ترغبون بوضعه إلى جانب هذه الألفاظ - الذي يحدث في وجود النبي المختار. وبعد أن تحصل هذه الثورة في باطن [النبي]، فإنّ الدور يصل إلى تلك الثورة





المرتبطة بالبيئة الخارجيّة والمحيطة به؛ فذاك التحوّل الذي وُجد في روح النبي يجب أن يتحقّق بشكلٍ معيّن أو وضعٍ خاصّ في عمق الواقعية الاجتماعية، وهذا هو ما أطلقنا عليه عنوان «البعثة الاجتماعية للنبوّة». بالطبع، بعد أن أشرح وأفصّل بشأن هذا التحوّل في يومنا هذا إن شاء اللّه، سيصل الدور إلى أبحاثٍ أخرى في مجال النبوّة. وهنا نجد أنّ تلك الأبحاث التي سيصدف أن تُطرح لاحقًا، هي أبحاثٌ غايةً في الأهميّة وترتبط بشأن هدف الرسالة والنبوّة، فنتساءل حول الهدف والمقصود والدور الذي ينبغي أن تؤدّيه هذه البعثة الاجتماعية، وسوف نتناول هذا الأمر ضمن بحثٍ أو بحثين في الجلسات الآتية. بالتأكيد، هذا يستتبع مسائل أخرى أيضًا سوف نتطرّق إليها ونعرضها عليكم أيّها الإخوة والأخوات، فيما لو أُعطينا العمر والفرصة لذلك.

ماذا يمكن أن يُقال عن هذه البعثة التي نتصوّرها ونضعها بحسباننا والمختصّة بالنبي؟ يوجد مفهومٌ جديدٌ لكلمة الثورة في عالمنا اليوم وفي الثقافات الحديثة والمعاصرة، وهذه الكلمة كلمةٌ مفهومةٌ وواضحةٌ وذات معنًى. بالتأكيد، من الواضح جدًّا أنّ المقصود من كلمة الثورة هو ذاك التحوّل والتغيير العميق والجذري في أيّ مجتمعٍ؛ ولا يعني ذلك بالضرورة أن يشتمل مفهوم الثورة على التصادم، ولا يستلزم لفظ الثورة بالضرورة إراقة الدماء والمجازر، كما أنّه لا يستدعي حتميّة حصول المشاحنات والخلافات؛ فمن الممكن أن يحصل الشجار والصدام، ومن الممكن أن يكون هناك اضطرابات، ولكنّ كلمة الثورة بذاتها لا تحمل هذا المعنى.

فلو أردنا أن نشرح لكم أيّها الإخوة المعنى المستفاد من الثورة





ضمن مثالٍ صغيرٍ وسهلٍ ومحسوس فإنّنا نقول: افرضوا أنّ لهذا المسجد وضعيّة خاصّة في شكله وبنائه وجدرانه وعمارته وهندسته وأنّ أسسه قد وُضعت بهذه الطريقة وأنّ أعمدته صُنعت بشكلٍ خاصّ، وأنّ بناءه قد جُعل مستطيلًا بحيث يكون من الناحية الشرقية بهذا الحدّ، ومن الناحية الغربيّة بذاك الحدّ، ويكون مدخله بنحوٍ محدّد أيضًا دون أن يتمّ تقسيمه من حيث التقسيم الداخلي إلى حجرات؛ فلو أرادوا على سبيل الفرض أن يبدّلوا باحة المسجد وقاعته الأساسية إلى عمارةٍ سكنيّة فلا شكّ بأنّهم سيضطرّون إلى هدم تلك الأوضاع وإعداد الأساسات والأعمدة بطريقةٍ أخرى، ولو أرادوا أن يقسّموا هذه القاعة الكبرى إلى عدّة غُرف مثلًا إلى خمسة أو عشرة أو عشرين غرفة ليحوّلوها إلى نُزُلٍ للمسافرين مثلًا، لا بدّ أن تكون الأساسات والقواعد والأعمدة بشكلٍ آخر؛ فلأنّ [هذا المسجد] قد أُعدّ لهذا النوع من التجمّعات فقد تمّ بناء أسسه وأعمدته وجدرانه بهذا الشكل الذي يتناسب مع هذا الدور.

ولو فرضنا على سبيل المثال أنّه تمّ اتّخاذ قرارٍ بتبديل بناءٍ تامّ البناء والعمارة، كأن أرادوا هدم فندق وتبديله إلى مسجد، أو افرضوا أنّ هناك عمارة لأحد البنوك يُراد تبديلها إلى قاعةٍ للاحتفالات، أو أنّهم أرادوا تبديل بناءٍ سكنيٍّ إلى عمارةٍ لا تُستخدم لسكن العوائل، فماذا ينبغي أن يفعلوا؟ عليهم أن يبدّلوا جميع الأساسات والأعمدة والقواعد أوّلًا؛ فلا يصحّ أن يُقال تعالوا نعيد طلاءه ونجعل صورته من الخارج صورة مسجدٍ، كلّا، فمثل هذا الأمر لا يصحّ، ولا يصحّ أن يُقال إنّنا سنجمع كلّ هذه الجدران الوسطيّة. افرضوا على سبيل المثال أنّ البنك الوطني يُراد له أن يصبح المسجد الفلاني من أجل اجتماع المسلمين والصلاة والعبادة، فلا





يصحّ القيام بمثل هذا الأمر، وذلك لأنّ طراز تأسيس البناء لم يكن من أجل عمارة مسجد. فإعداد هذا البناء ليكون مسجدًا يحتاج إلى أساساتٍ وقواعد خاصّة وأعمدة مختلفة، مثلما أنّه يحتاج إلى عمارة الجدران بطريقةٍ تتلاءم مع المشروع الجديد ووفق تقسيماتٍ وأسقف تحقّق الغرض. فلو أرادوا أن يبدّلوا بناءً أُعدّ لدورٍ محدّد إلى بناءٍ يؤدّي دورًا آخر يغايره بنحوٍ كلّي ولا يرتبط بالمقصد الأوّل، فلا بدّ لهم أن يقوموا بثورةٍ من أجل تحقيق هذا التبديل، أي تبديل البناء الأوّل إلى البناء الثاني. فماذا تعني الثورة؟ إنّها تعني تبديل الأسس والقواعد والأقسام الأساسية والهيكل العامّ لهذه العمارة إلى أسسٍ وقواعد وجدران وهيكلٍ آخر وشكلٍ مختلف؛ هذا ما يُسمّى بالثورة.

خذوا على سبيل الفرض أحد المجتمعات الذي يعيش فيه حوالي خمسين ألف إنسان أو خمسمئة ألف أو خمسين مليون نسمة، فلا فرق هنا، لأنّ المجتمع عبارة عن اجتماع مجموعة من الناس على خطٍّ ومسارٍ واحد ووفق برنامجٍ عامّ حتّى ولو كان له صدرٌ وذيل (بداية ونهاية)، ولكنّ الطريق الكلّي هو طريقٌ واحدٌ ومسارٌ واحدٌ، فهذا ما يُسمّى بالمجتمع، أو بالوحدة الاجتماعية المترابطة. كما يمكن بناء مثل هذا المجتمع الذي يضمّ هذا العدد على نحوين - أرجو الدقّة هنا - نقول على نحوين ولكن بشكلٍ عامّ يمكن بناؤه على نحوين ويكون داخل كلّ نحو أنواعٌ وأقسامٌ أيضًا.

إذًا بشكلٍ عامّ، يمكن بناء أيّة مجموعةٍ بشريّة على نحوين؛ يتحقّق من خلالهما الشكل الاجتماعي ويحصل. النحو الأوّل هو أن يكون بين هذا العدد من الناس الذين يعيشون في هذه البقعة الجغرافيّة - سواء كانوا خمسين ألفًا (أو خمسين مليون نسمة) -





شريحةٌ أو طبقةٌ من الناس أو أقليّةٌ تحكم وتتسلّط وتتولّى أمور البقيّة وتديرها؛ وهنا تقوم هذه الأقليّة بتعيين الطريق للآخرين وتضع لهم القوانين؛ ولو تصرّف بعض الناس خلاف ميولها، فإنّها تنزل بهم أشدّ النقمات. ولو قال لهم الناس إنّه يوجد حاجبان فوق أعينكما، فإنّ هذه الأقليّة ستتصرّف بشدّة وتقمع هذه الأقليّة. ولو أنّ حادثةً وقعت في هذا المجتمع، فإنّهم سيستغلّون تلك الحادثة لصالحهم وإن أدّت إلى الإضرار بالباقين. ولو حدث أنّ وقع هذا المجتمع أو تلك الجماعة من الناس في بلاءٍ معيّن، فإنّ هذه الأقليّة ستجعل من بقيّة الناس حصنًا ودرعًا لها مقابل البلاء وتجلس هي جانبًا؛ هذا نحوٌ من المجتمعات البشريّة. فالأساس في البنيان والهيكل العامّ لأيّ مجتمعٍ هو فيما إذا كان مثل هذا الاختلاف الطبقي سائدًا فيه أم لا.

ولو فرضنا مجتمعًا يوجد فيه هذا الاختلاف الطبقي - وإن كان مصطلح الاختلاف الطبقي بالنسبة لأسماع البعض يبدو مستهجنًا -، ولكنّه ما ذكرناه، فهو سهلٌ جدًّا وبسيط، وقد رأيتم كم هو سهلٌ أن نبين معنى الاختلاف الطّبقيّ، أي لم يكن جميع أبناء هذا المجتمع متساوين بلحاظ الحقوق، ولم يكونوا على مستوًى واحدٍ بلحاظ الإمكانات والمزايا المرتبطة بالحياة؛ وكانت هناك جماعةٌ منهم تستطيع أن تحصل على المزيد والأفضل وتقول ما يحلو لها وتفرض قوّتها وتعمل إرادتها بالكامل وتفعل ما تريد؛ في حين أنّ جماعةٌ أخرى أكثرية تكون مضطرّة لأنّ تمدّ أعينها إلى تلك الأقليّة وتصغي إليها وتطيعها وتغلّ أيديها مقابل تلك الأقليّة بل وتضع جباه السجود والخضوع على التراب في قبالها؛ فلو وُجد مثل هذا المجتمع، فإنّ هذا المجتمع يُعبَّر عنه بالمجتمع الطبقي، ويكون





الاقتصاد في مثل هذا المجتمع اقتصاد الطبقية؛ وتكون الحكومة أيضًا في مثل هذا المجتمع لصالح الطبقات العليا، وتكون حكومةً طبقية؛ وكذلك الأمر بالنسبة للحقوق الأساسية أو الدستور، فإنّهم يكونون أيضًا لصالح الطبقات العليا، فيكون الدستور دستورًا طبقيًا أيضًا. هذا هو النحو الأوّل من المجتمعات.

فالمجتمع الذي يحوي هذا العدد من الناس سواء كان ٥٠ ألفًا أو ٥٠ مليونًا قد يكون متشكّلًا على هذا النحو؛ وأحيانًا لا يكون على هذا الشاكلة. فما هو شكل المجتمع الآخر؟ في هذا المجتمع الآخر، الذي تعيش فيه مجموعة بشريّة قد تبلغ أكثر من ٥٠ مليون نسمة، لا يكون أحدٌ صاحب حقٍّ في التسلّط على غيره؛ ولا يكون الأمر محصورًا بطبقةٍ عليا من الناس، بل لا يكون الأمر محصورًا بأحد، حتّى ولو كان شخصًا واحدًا. فلا تجد في مثل هذا المجتمع فردًا واحدًا إذا قلت له: يا فلان، لماذا تفعل هذا الأمر؟ فيقول: هكذا أرغب. فهذه الرغبة في التسلّط على الآخرين وإعمال الإرادة ليست موجودة في مثل هذا المجتمع؛ فلا أحد يتسلّط ويحكم ويستقوي ويعتدي ويتجاوز حدود أيّ شخصٍ آخر. وفي المقابل، لا يوجد أيّ معنًى لأن يشعر أيّ إنسانٍ مقابل غيره من أبناء هذا المجتمع بالخفّة والضعة والضعف والهوان والمظلوميّة. فجميع أبناء هذا المجتمع، من الـ٥٠ ألف وحتّى الـ ٥٠ أو الـ ٥٠٠ مليون يطيع أوامر قدرة معيّنة وتلك القدرة هي أعلى من قدرة الناس والبشر؛ فمن هي هذه القدرة؟ إنّها اللّه. هكذا يكون هذا النّو من المجتمعات.

فلدينا ها هنا نحوان من البناء الاجتماعي. البناء الاجتماعي الأوّل الذي يكون فيه الناس - كلّهم أو الأكثرية منهم - عبيدًا وأسرى





لمجموعة من الناس الآخرين؛ والثاني هو الذي يكون جميع الناس فيه أحرارًا من الأسر والقيود التي قد تفرضها أيّة قوّةٍ أخرى. إذا قمتم بعمليّةٍ حسابيّة، فكما أنّ الاقتصاد في النوع الأوّل [من المجتمعات] يكون لمصلحة تلك الطبقة العليا ولكلّ من ينتمي إلى هذه الطبقة ويلفّ لفّها، وتكون الحكومة بيد هذه الطبقة، وكذلك هو الأمر على مستوى الحقوق والامتيازات الأساسية في المجتمع؛ فإنّ الاقتصاد في النوع الثاني من المجتمعات - الذي هو المجتمع غير الطبقي والذي لا يتسلّط فيه أحدٌ على أحد ولا يفرض أحدٌ فيه إرادته على أحد ولا يتحكّم فيه أحدٌ بأحد - يكون جمعيًّا، وتكون الحكومة بمعنى تسلّم مقاليد الأمور عامّةً وتكون بيد الجميع. فالحقوق الأساسية جمعيّة ولأجل الجميع؛ ويكون الأمر باختصار، بحيث إنّ كلّ شيء جيّد فهو للجميع، وأيّ شيء سيّئ يعود على الجميع؛ فلو أنّ أمرًا مؤلمًا أو مزعجًا حصل سيكون الجميع شركاء فيه، ولو أنّ خيرًا ما وقع سيكون الجميع شركاء فيه؛ وتكون الجنّة في هذه الحالة على الأرض.

إذًا، يُتصوّر ها هنا نوعان من المجتمعات. وما شرحناه وبيّنّاه لكم بشأن هذين النحوين من المجتمعات قد وُجدا وتحقّقا على مرّ التاريخ البشريّ. ففي النحو الأوّل، هناك مجتمعٌ طبقي يعمّ فيه الظلم والجور والاختلافات الطبقية والاستغلال والتحكّم وإعمال القوّة والتمييز، ويوجد نحوٌ آخر من المجتمعات غير الطبقية التي يعمّ فيها العدل والإنسانيّة والحرّيّة - وأريد أن أركّز ها هنا على الحريّة بالخصوص لأنّ بعض المجتمعات غير الطّبقيّة التي يتمّ الإشارة إليها في العالم هي مجتمعات فاقدةٌ للحريّة وفيها أشياء كثيرة بحسب ادّعائهم - وفي المجتمع غير الطبقي، تسود الرفاهيّة



والحريّة بشكلٍ خاصّ ولا يوجد أحدٌ عبدًا لأحدٍ، ولا يكون أيّ شخصٍ رقّ لأحد، ولا يُضطرّ أحدٌ أن يستمع رغمًا عنه لأحد. هذان هما النحوان من المجتمعات، وقد وُجد كلٌّ منهما عبر التاريخ البشريّ. ونرى أنّ المجتمعات التي هي من النوع الأوّل والتي ساد فيها التمييز الطبقي، هي مجتمعات أوجدها قياصرة العالم وأكاسرته وجبابرة التاريخ. أمّا الذي كان يشكّل المجتمعات التي كانت من النوع الثاني، عبر التاريخ، والتي هي مجتمعات حرّة وعامرة وفاقدة للتمييز ومجتمعات إنسانيّة، فهم الأنبياء الإلهيّون العظام. وقد تسألون هل أنّ الأنبياء شكّلوا مجتمعات؟ وفي الجواب، نقول أجل، لقد قام الأنبياء بإيجاد مجتمعات؛ ويوجد في القرآن دلالاتٍ كثيرة على عمليّة تشكيل الأنبياء للمجتمعات. فأحداث سليمان، ووقائع طالوت، وما جرى مع موسى ومجيئه إلى الأرض المقدّسة، وما قام به موسى من إخراج بني إسرائيل وتحريرهم، فكلّ ذلك كان يدلّ على أنّه كان يريد أن يقودهم إلى تشكيل المجتمع والمدينة الفاضلة. ومثل هذه الأمور تمثّل موضوع الأبحاث يمكن أن نشير إليها لاحقًا، وأردت أن أكتفي هنا بإشارةٍ مختصرةٍ بهذا المقدار.

لدينا نوعان من المجتمعات، وكلًّا منهما قد تحقّق عبر التاريخ. فالنوع السيّئ هو الذي كانت تمثّله القوى السياسية المعادية للدين والذي كان العالم والتاريخ مليئًا به، وهو الذي يحكم العقل بقبحه، وكذلك الإنسانيّة تستقبحه. أمّا النوع الحسن، فهو الذي كانت تمثّله تلك القوى الإلهيّة والمعنويّة عبر التاريخ، وهم الأنبياء. ونحن نتساءل حول دور الأنبياء الذين كانوا يُبعثون في أيّ مجتمع، فنقول إنّ مجيئهم إنّما كان لأجل تبديل ذاك النوع الأوّل من المجتمعات إلى النوع الثاني؛ وهذا هو روح كلامنا في البحث



الذي نتطرّق إليه اليوم.

يوجد في الغالب تصوّرٌ مغايرٌ حول الأنبياء وهو سائدٌ منتشر. يتصوّر الناس أنّ الأنبياء إذا ظهروا في أيّ مجتمعٍ فسوف يكونون مثل ذلك الرجل الحكيم العالم الجليل الذي يحمل جبلًا من المعلومات ويتّخذ بيتًا في قلب المجتمع ويجلس في زاويةٍ من زواياه من أجل أن يأتيه الناس أفواجًا ويتعلّمون من علمه ويستفيدون من معدن فيضه؛ يتصوّر هؤلاء أنّ النبي يشبه مثل هذا الإنسان وهو على هذه الشاكلة. فلو جاء النبي على سبيل المثال إلى مجتمعٍ ما، كإبراهيم خليل اللّه مثلًا، أو موسى كليم اللّه، فإنّه سيتّخذ لنفسه بيتًا ويجلس فيه ويعطي بعضًا من وقته للقاء المؤمنين وغير المؤمنين، وكلّ من يأتي إليه فإنّه يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويخوّف الناس من اللّه ويحدّثهم عن وجود اللّه ويستدلّ لهم ويباحثهم، فيصنع من مجموعةٍ منهم أناسًا طيّبين ثمّ يرتحل عن هذا العالم.

هم يتصوّرون أنّ النبي يشبه مثل هذا الإنسان. لكنّ النبي ليس كذلك؛ فهو عندما يُبعث في أيّ مجتمعٍ، وكما ذكرت بشأن البعثة، فإنّ أوّل ما يحدث هو تلك البعثة وذاك التحوّل العميق في باطنه وفي روحه، حتّى إذا ورد المجتمع فإنّه لن يعرف التوقّف ولا الملل ولا الهدوء ولا الاستكانة؛ بل سيكون إنسانًا قد تبدّلت أعماقه إلى شعلةٍ جوّالةٍ[1]، وإذا ورد ذلك المجتمع فإنّه يتطلّع إليه وإلى أوضاعه ويرى أنّ هذا المجتمع ببنيته هو مجتمعٌ خاطئٌ، وأنّ

---

(١) الشعلة الجوّالة عبارة عن قطعة خشبيّة يتمّ إشعالها من طرفين ويتمّ تدويرها بسرعة فوق الرؤوس.



العمارة قد بُنيت بشكلٍ سيّئ، وأنّ أسسها خاطئة، وأنّ جدرانها وكلّ تصميمها غير صحيحٍ ومخالفٍ للأسلوب المعماري للفطرة الإنسانيّة؛ فيعلم جيّدًا أنّه يجب أن يُبدّل؛ ويدرك أنّ هذه العمارة ينبغي أن تصبح عمارةً جيّدة، فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّه يدرك بأنّ هذا المجتمع الطبقي الذي يسوده التميز والظلم والاضطراب وفقدان القيم، هو مجتمعٌ ينبغي أن يُبدّل ويتحوّل إلى مجتمعٍ توحيدي.

فما هو هذا المجتمع التوحيدي أيّها السيّد؟ لقد تحدّثنا عن التوحيد في الأبحاث السابقة وأشرنا إلى أنّ التوحيد ينفي الطبقية لأنّ التوحيد الإلهي يعني انحصار القدرة والحكومة باللّه. والتوحيد الإلهي يعني أنّ كلّ الأشياء من القانون والعادات والآداب والثقافة والأحكام ينبغي أن تكون من اللّه على نحو الإلهام.

التوحيد الإلهي يعني أنّ جميع الناس هم عباد اللّه لا غير، وأنّه لا ينبغي لأحدٍ منهم أن يكون عبدًا لأيّ شخصٍ آخر. فالعباد أحرارٌ من العبوديّة لغيرهم من العبيد. وعندما يدخل النبي إلى المجتمع وهو يحمل هذا الفكر ويتّجه نحو هذا الهدف، فإنّه يقلب هذا المجتمع الطبقي بهذا الفكر الذي يدخله إليه، ويهدم المجتمع السابق ويقضي عليه ويبدّله إلى مجتمعٍ توحيديٍ خالٍ من الطبقية والتميز والظلم، ليصبح في النهاية تحت حكومة ربّ العالم. إنّ النبي يأتي للقيام بمثل هذا الدور. ولو أردت أن أضرب مثالًا وأستحضر الشخصيّات المعروفة من غير الأنبياء، فلا بدّ أن أضرب مثلًا تلك الشخصيّات المعروفة التي يعلم عنها أهل المطالعة بنحوٍ ما، لكنّني لا أريد هنا أن آتي على ذكر الأسماء غير الدينية في الأبحاث الدينية لأنّنا سنضطرّ لوضع حدودها بدقّة.



إذًا يأتي [النبي] إلى المجتمع من أجل إيجاد مثل هذا التغيير؛ ولا أقول إنّه يأتي من أجل سفك الدماء، كلّا وأبدًا، ولا أقول من أجل القتل والقتال، كلّا، ولا أقول إنّه يأتي من أجل أن يوقع الشجار والنزاع فيما بين الناس، فمثل ذلك لا يكون في أيّ وقت ولا يمكن أن يكون هكذا. فإنّ كلمة الثورة والتغيير والتحوّل - كما ذكرت سابقًا - ليست في إراقة قطرة دمٍ لأيّ شخص. من الممكن أحيانًا أن يحدث نوعٌ من سفك الدماء حتّى في الأعمال اليوميّة العادية للحياة، وربّما لا يحدث هذا. فلأجل أيّ شيءٍ وقعت الحرب العالميّة الأولى؟ لقد كانت بسبب اغتيال أحد الأمراء في زاويةٍ من زوايا العالم، فأدّت إلى اشتعال العالم بحربٍ ضروس حملت معها الموت الذريع؛ ألم يكن الأمر كذلك؟ وليّ عهد النمسا ولا أعلم وكذا وكذا من ذلك الكلام. فمن الممكن أن يكون لعمليّة اغتيالٍ صغيرة أثرٌ يؤدّي إلى إشعال العالم. وبالطبع، ففي الثورة من الممكن أن يحدث نوعٌ من سفك الدماء وإراقتها وربّما لا يحدث ذلك، لكن كلمة الثورة بذاتها لا تحمل معنى سفك الدماء والقتل والشجار والنزاع أيضًا.

فلو أنّ النبي عندما يدخل مجتمعًا ما ويقول كلمته الثوريّة، كأن يقول لفرعون لا ينبغي أن تكون في مقامك هذا، ولا ينبغي أن تفعل ببني إسرائيل ما كنت تفعل، ولا ينبغي أن توجد تلك الطبقات الاجتماعية المختلفة؛ فلو أنّ فرعون قال له أو أجابه عندما قال له ذلك: على عيني وأنا مستعدّ لأن أستمع إلى ما تقول وسوف أقوم من مقامي - حيث كان من المقرّر أن يقوم النبي ببناء المجتمع بواسطة أيدي الصنّاع المقتدرين داخل المجتمع - فإنّه لم تكن لتتحرّك قطرة دماءٍ واحدة من مكانها. فالسبب الذي أدّى



إلى النزاع والحرب في ثورات الأنبياء، وكما يقول اللّه في القرآن: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[1] فما أكثر الأنبياء الذين قاتل معهم عباد اللّه وكانوا في ركابهم؛ أو كما نعلم من تشريع الجهاد في الإسلام، فذلك لأنّ تلك الطبقة المترفة وتلك الطبقة التي تكون رأس حربة الثورة موجّهة ضدّها وتُسلب الامتيازات منها لا تكون مستعدّةً لهذه الثورة.

فلو أنّ كلّ الذين وقفوا مقابل الأنبياء ودعوة الرسل، لو أنّهم أصبحوا أناسًا وأدركوا الحقيقة في الواقع، وأصبحوا مثل الكثير من الشخصيّات السياسية والاقتصادية والماليّة العظيمة في التاريخ التي حدث لها ذلك التحوّل الكبير والجميل في الروح وتبدّلوا إلى أشخاصٍ عاديين، فلو أنّهم سلّموا وتنازلوا عن ذلك الجاه، لما اضطرّ النبي أبدًا لمثل هذا القتال والحرب وأمثالها.

فعندما يدخل النبي أيّ مجتمعٍ، فإنّه يأتي ليحدث هذا التحوّل. فهو يأتي من أجل إيجاد هذا التغيير. فماذا يعني هذا الفعل؟ إنّه يعني أنّ النبي لو دخل المجتمع العربي في زمانه على سبيل المثال، فإنّه سيقول: لماذا ينبغي أن تكون موارد الثورة في هذا المجتمع وكلّ هذه المنابع المتدفّقة للمال بيد أقليّة من الأرستقراطيّين؟ لماذا؟ ولماذا ينبغي أن يكون الجميع عبيدًا وغلمانًا لأهواء السادة والكبراء؟ ولماذا يجب أن يسقط الضعفاء ضحايا الميول والغرائز المختلفة لأمثال الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأبو لهب، لماذا ذلك؟ فلماذا لا يكون الجميع على مستوًى واحدٍ؟

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٦.



«النّاس سواسية كأسنان المشط»[١]، فلو أخذتم مشطًا ونظرتم من أوّله إلى آخره لوجدتم أنّه لا يختلف أيّ سنٍّ من أسنانه عن السنّ الآخر ولا يتميّز عنه، فالكلّ سواسية وفي نفس الحدّ والمستوى والحجم والشكل، فما أجمل ذلك! وهكذا تكون الإنسانيّة، هذا هو نداء النبي: كلّكم من آدم وآدم من تراب[٢].

فلماذا ينبغي لذاك الوجيه، الذي أشاد قصرًا في تلك المحلّة من مكّة، أن يتنعّم بالطعام والشراب، وأن يحتكر التجارة، وأن يكون الآخرون عنده كالعبيد ورعاة الإبل، وأن يستغلّ كلّ هؤلاء، ويحدّد كيفيّة توزيع مقدّرات مكّة؟ فذاك الوجيه الفلاني مع كلّ هذه الخصائص لا يختلف أبدًا مع ذاك العبد الوضيع في بيته، فلا فرق بينهما من الأساس من ناحية العنصر والجوهر الإنساني؛ فهما بلحاظ العنصر والجوهر الإنساني متساويان، ولا يوجد بينهما أدنى تفاوت؛ فلماذا ينبغي أن يكون الميدان بالنسبة لهذا واسعًا إلى هذا الحدّ ليستفيد منه ما يشاء، بينما لا يحقّ لذاك المسكين أن يضرب بجناحٍ واحدٍ ذلك القفص؟ لماذا؟ ينبغي أن يكون الميدان مفتوحًا أمام الجميع، وهذه هي دعوات النبي، كما تلاحظون.

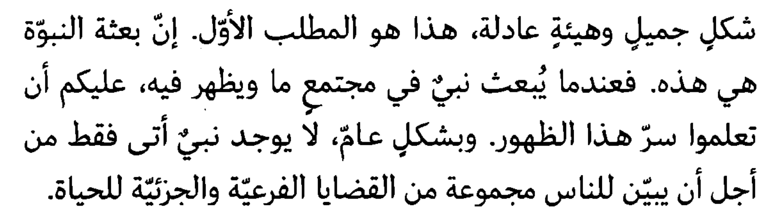
إنّ الأنبياء، وأينما ظهروا وفي أيّ مجتمعٍ كانوا، يظهرون ويخرجون بهذه الدعوة وبهذا الشعار، وهو أنّ النبي يأتي من أجل أن يبدّل المجتمع ويخرجه من بنيته الخاطئة وشكله غير المتوازن ومن ذاك البناء المتوائم مع الظلم والجور، إلى مجتمعٍ متوازنٍ ذي

---

(١) صدر الدين شرف الدين، **حليف مخزوم (عمّار بن ياسر)** (دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، الصفحة ٥٥.

(٢) المصدر نفسه.





شكلٍ جميلٍ وهيئةٍ عادلة، هذا هو المطلب الأوّل. إنّ بعثة النبوّة هي هذه. فعندما يُبعث نبيٌ في مجتمعٍ ما ويظهر فيه، عليكم أن تعلموا سرّ هذا الظهور. وبشكلٍ عامّ، لا يوجد نبيٌ أتى فقط من أجل أن يبيّن للناس مجموعة من القضايا الفرعيّة والجزئيّة للحياة.

بالطبع، كان هناك أنبياءٌ عظام، نحن نسمّيهم بالأنبياء أولي العزم ونعرفهم بهذا العنوان، وقد كانوا أقطاب الثورات الإلهيّة. أمّا الأنبياء الآخرون، فبعضهم قد جاء ليتمّم تلك الثورات، وبعضهم الآخر كان تابعًا لها، وبعضهم جاء من أجل أن يوصل تلك الأعمال إلى ثمرتها؛ وهناك بعضٌ آخر أراد أن يرجع تلك الثمار التي تحقّقت بعد الثورات إلى سابق عهدها؛ وكلّ ذلك كان يتطلّب ثورةً جديدة. وهذا هو العمل نفسه الذي قام به أوصياء نبينا بعد رحيله، من أمير المؤمنين والإمام الحسين والأئمّة الآخرين وعلماء أمّة الإسلام، وفي النهاية سيكون عمل صاحب العصر والزمان وليّ العصر صلوات الله وسلامه عليه.

ويوجد مطلبٌ آخر في مجال هذه البعثة ينبغي أن نتوجّه إليه، فنسأل نحن: أيّها السيّد ما هو الإشكال في أن يكون النظام الجاهلي مستتبًّا وأن لا يُقام النظام العادل؟ فما هو المانع من أن لا يبدّل النبي هذا الوضع الخاطئ إلى وضعٍ جميلٍ وحسن، ويتحمّل كلّ ذلك العذاب والألم والأذى؟ فما هي المشكلة في أن يبقى كلّ شيءٍ كما هو؟ ولماذا يُعدّ ذلك الوضع سيّئًا؟ لماذا تكون تلك الأوضاع قبيحة؟ وأيّ حقٍّ موجودٍ هنا حتّى تتّخذوه مقياسًا؟ الحقّ لمن غلب. فكلّ غالبٍ وكلّ من يحصل على القدرة فهنيئًا له. فذاك الذي لا هم له سوى المعلف فليذهب إلى الجحيم. فما لم يرد أن يحدث فليحدث؛ وإذا كانت الأوضاع هكذا، فليدع الأمور





كما هي، وليفعل أولئك ما يريدون من غاراتٍ ونهبٍ، فلماذا على النبي أن يوقع نفسه في كلّ هذه المشقّات؟

ويوجد سؤالٌ آخر، فمن الممكن أن تقولوا: إنّ النبي لا يتحرّك بدون هدف، والنبي لا يوقع نفسه بكلّ هذه المشقّات عبثًا وجزافًا؛ فإنّ كلّ ما يراه من الأوضاع السائدة في زمانه هو وضعٌ باطلٌ ومخالفٌ للفطرة الإنسانيّة والعالميّة، وإنّ كلّ ما يريد أن يحقّقه هو وضع الحقّ، أي المطابق للفطرة الإنسانيّة والعالميّة. فـ«الحقّ» و«الباطل» كلمتان تصادفونهما كثيرًا في كلّ القرآن، في الموارد التي يأتي على ذكر الاصطفاف ما بين الحقّ والباطل نجده مجسّمًا ومشخّصًا في عشرات الآيات القرآنية، فماذا يعني الحقّ والباطل؟ لقد ذكرنا ها هنا مطلبًا بشأن توضيح الحقّ والباطل، وقلنا: أيّها السيّد إنّ الإنسان هو كائنٌ نراه يسير في هذا العالم على هذه الشاكلة وفي هذا القالب وقد صُنع وبُني وفق مجموعة من الخصائص، فللإنسان خصائص معيّنة وإمكانات وله احتياجاتٌ؛ فهو موجودٌ يتمتّع بمقدارٍ معيّن من الخصائص والإمكانات الخاصّة بذاته. فاحفظوا هذا الأمر ها هنا. ولهذا العالم، الذي يعيش فيه هذا الإنسان، حركةٌ؛ وقد بُني على أساس جهةٍ معيّنة ووفق شروطٍ خاصّة وخصائص معيّنة أيضًا. فكلّ شيءٍ في هذا العالم، الذي تنظرون إليه وترونه بأعينكم، قد وُضع في مكانه؛ فشمسه التي تبعد ملايين الفراسخ عن الكوكب الفلاني، وإنسانه مع نباتاته وحيواناته ليس لهم بحسب الظاهر أيّ ارتباط فيما بينهم؛ أمّا في الواقع، وبنظر العارف بالله والذي يعبد الله، فهو عبارة عن وحدةٍ لا تتجزّأ؛ فكلّ هذا العالم هو عبارة عن شيءٍ واحدٍ، وأجزاء هذا العالم هي أعضاء جسدٍ واحدٍ؛ ومثلما أنّ الجسد الواحد له حركةٌ متجانسة ما





بين جميع أجزائه، فإنّ هذا العالم هو أيضًا كذلك.

إنّنا نجد للمعدة في كلّ إنسان عملًا معيّنًا، وللعين عمل وللكبد عمل وللدماغ عمل وللأعصاب، ولكنّ حصيلة مجموع هذه الأعمال كلّها هو أمرٌ واحدٌ ومشتركٌ؛ ونحن نسأل: ما هو هذا الأمر المشترك؟ إنّه إبقاء الإنسان على قيد الحياة، وتأمين التحرّك والسعي، والاستمرار في منح الحياة لهذا الإنسان. فإنّ ما تشاهدونه عند التأمّل في هذه الحصيلة المرتبطة بجميع هذه الحركات في هذا العالم من الأعلى إلى الأسفل، وفي هذه الكرة الأرضيّة وفي غيرها من الكرات، يكون أيضًا على مستوى المجموع شيئًا واحدًا ولإيجاد حركةٍ واحدة. إنّ موجودات العالم الأخرى وكائناته غير الإنسانيّة ولأنّها لا تمتلك شعورًا وليس فيها إرادة واختيار، تتقدّم في هذه الحركة العامّة وضمن هذا المسير شاءت أم أبت؛ أمّا هذا الإنسان الذي يمتلك الاختيار، والذي يمكنه أن يعصي ويخالف ويتنكّب عن قافلة موجودات هذا العالم ويخرج عن مسارها ويتحرّك بعكس الطريق، فهذا الإنسان هو وحده الذي يمكنه أن لا يسير وراء هذه القافلة التي ذكرنا أنّها مجموع كائنات العالم والتي تسير باتّجاهٍ واحد، إنّه الإنسان وحده. أمّا باقي الموجودات، فإنّها وإن خرجت وقتًا ما عن مسيرها الطبيعي، فإنّ الإنسان هو الذي يكون قد أحدث هذا الإخراج. فلو أنّ اليورانيوم شُطر وصُنع منه قنبلةً نوويّةً وأُلقيّ على الملايين لقتلهم عوضًا عن أن يُستخدم لمعالجة أمراض آلاف البشر، فإنّ ذلك يكون بيد الإنسان. واليورانيوم نفسه لا يمكن أن يتعدّى أو يتجاوز هذا المسير الطبيعي للعالم، بل إنّه كغيره من الكائنات يتحرّك وفق هذا الطريق العادي. ولو أنّ مادّة





الـL.S.D[1]. التي ينبغي أن تُستخدم لمعالجة الأمراض جُعلت كمادةٍ مخدّرة وتناولها شابٌّ فهلوس وغفل عمّا يحيط به وغاب عن هذا العالم، فإنّ ذلك لا يكون من تقصير النبتة الفلانية أو تلك المادّة التي استُخدمت لصناعتها، بل يكون من تقصير هذا الإنسان.

ففي هذه القافلة التي بيّنّاها لكم، والتي تكون الشمس والأرض من أجزائها، تتحرّك المجرّات والكائنات الصغيرة والهائلة العملاقة - التي تمثّل كلّ واحدةٍ منها عناصر وأجزاء هذه القافلة الكبيرة - على طريقها وتتقدّم في هذا العالم الواسع. أمّا الذي يقوم أحيانًا بالانحراف عن الطريق ويسير بالعكس وإلى اليمين وإلى اليسار فهو هذا الموجود الشيطانيّ، وهذا الكائن المتحرّك والفعّال الذي يمتلك الاختيار؛ وفي بعض الأحيان، فإنّه يأخذ بيد بعض الكائنات الأخرى التي لا لسان لها ويلحقها بنفسه؛ فنجده يسخّر اليورانيوم والـL.S.D. والمورفين ليسيروا خلفه، ويجعل هذه المواد تابعةً له. فالمورفين الذي ينبغي أن يكون من أجل نفع الإنسانيّة يصبح عاملًا للإضرار بها، وتلك النبتة الفلانية التي كان ينبغي أن تساهم في شفاء الإنسان تتحوّل إلى مادّةٍ قاتلة، وهي لا تقوم بذلك بنفسها وإنّما فعلت ذلك بواسطة هذا الإنسان الذي تنكّب عن المسير وأخرجها عنه. فللإنسان مثل هذه الخصوصيّة.

---

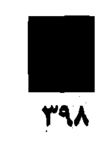
(١) دواءٌ تمّ اكتشافه أثناء أبحاث أحد العلماء السويسريّين عن طريق الصدفة، ومن عوارض تناوله حصول حالات الأوهام والاضطرابات الكاذبة. وبعد أن اختفى وتوقّف استعماله لمدّة عادت مجدّدًا للرواج عن طريق الجماعات الهيبّة في أمريكا.



ولأنّ للإنسان مثل هذه الخاصّيّة، أي امتلاك الاختيار والإرادة، فبإمكانه أن يبدّل مسيره. ولأنّه على هذا النحو، فينبغي أن يعيَّن له القانون ويُشخَّص له طريق السير ويُقال له: يا فلان عليك أن تتحرّك على هذا الطريق لكي لا تتنكّب عن هذه القافلة في مسيرها العامّ. فلو أنّك جاوزت خطّ المسير هذا، وخرجت عن هذه الخطّة التي رسمناها لك، فاعلم أنّك قد خرجت عن مسير هذه القافلة؛ فماذا يعني هذا الأمر؟ إنّه يعني شيئًا واحدًا وهو ضرورة وجود القانون للإنسان. فهذا القانون الذي يتطابق مع خطّ سير الحركة الجمعيّة لكائنات العالم يُسمّى - إذا أردتم أن تستعملوا لفظًا محدّدًا - الحقّ.

إنّ الحقّ يعني ذلك القانون الذي يتطابق مع أصل خلقة العالم، ولأنّه يتطابق مع هذه الخلقة الأصلية، فإنّه ينسجم أيضًا مع فطرة الإنسان. ولأنّ الإنسان بدوره هو أحد أجزاء هذا العالم، ولأنّه يمثّل أحد أجزاء الهيكل العظيم، ولأنّ القانون يتطابق مع فطرته ومع خلقة العالم، فإنّ مؤدّى هذا القانون هو خير هذا الإنسان وصلاحه.

فما هو الباطل؟ إنّ الباطل هو ذلك المسير، أو ذلك القانون الذي وُضع وجُعل وطُبّق، أو ذلك الطريق والعادات التي تخالف فطرة الإنسان والعالم. إنّ الباطل هو ذاك الشيء الذي يصنعه المستبدّون والشياطين وأولئك الذين يريدون أن ينحرفوا عن هذا المسير. وقد كان الأنبياء دومًا يأتون بالحقّ من أجل إزهاق الباطل. فذاك المجتمع الذي يصنعه فرعون ويقسّم فيه الناس إلى طبقات، ويمارس كلّ أنواع الضغوط على طبقةٍ منهم، ويحافظ على طبقةٍ في غاية الرفاهيّة ويظلم بها الآخرين؛ فإنّ ذاك الوضع والنظام وتلك المقرّرات وذلك الشكل الاجتماعي هو هيئةٌ باطلة. إنّ الأنبياء يأتون من أجل تهديم هذه الهيئة الباطلة، ويأتون من





أجل أن يزيلوها ويقضوا عليها ويقيموا الحقّ بدلًا منها. فما يتحمّله الأنبياء من أذىً وكدحٍ هو من أجل الحقّ، وذلك لأنّ الحقّ هو الذي يقول له ويطالبه.

إنّ كلّ ما يتحمّله النبي ويعانيه هو من أجل الحقّ، إنّه يكون من أجل الاستبدال بالحقّ وإحلال الحقّ مكان الباطل، وهذا ما جعل الأنبياء لا يتوقّفون لحظةً واحدةً عن السعي ولا ينسون دورهم هذا؛ ولهذا ما كانوا ليستقرّوا أو يتوقّفوا عن النضال. إنّ القضيّة هي قضيّة إحلال الحقّ مكان الباطل، هذا هو التفسير والتحليل الذي يرتبط بعمل الأنبياء.

وهكذا، نختصر كلامنا ونقول: إنّ الأنبياء أرادوا تبديل النظام الجاهلي - ذلك لكونه نظامًا طبقيًا وظالمًا ومستغلًّا وغير إنساني ويحتوي على الكثير من القضايا السّلبيّة، والتي تكون كلمة الجاهلي أفضل كلمة معبّرة عنه؛ فالجاهلية هي ذلك النظام الظالم المنافي للفطرة وغير الإنساني - إلى نظامٍ إلهي وإلى بيئةٍ اجتماعيةٍ توحيدية. إنّهم يريدون تبديل المجتمع ليكون تحت حكم اللّٰه ولا يتّبع حكومة الأهواء؛ فهذه هي حصيلة أعمال الأنبياء. يأتي الأنبياء من أجل تبديل النظام الاجتماعي المنحرف إلى نظامٍ اجتماعيٍ صحيح، ويكون شعارهم التوحيدي من أجل هذا الهدف، ويكون كلُّ كفاحهم ونضالهم ضدّ الطواغيت على هذا الطريق.

ومن أجل ذلك، قام الطواغيت بمواجهتهم ومحاربتهم. ويكون هذا الأمر أحد فصول هذا الحديث المتسلسل؛ وإن شاء اللّٰه يمكن أن يأتي يومٌ نتعرّض فيه للحديث حول ماهيّة الطبقات التي عارضت الأنبياء وواجهتهم وحول الدوافع التي حملتهم على هذه المعارضة



والمخالفة. لقد اخترت مجموعة من الآيات من سورة القصص وهي تدلّ على هذه الحالة وتفصّل فيها. إنّها تشير إلى الوضع الجاهلي للحكومة الفرعونية والمجتمع الفرعوني والحالة الاجتماعية التي أراد موسى أن يحقّقها بدلًا عن الحالة الفرعونية، وأثناء تشخيص الوضعين المتقابلين، تقدّم لنا بشارةً لأولئك الذين يتحرّكون باتّجاه الحالة الموسويّة؛ إنّها تبشّر بأنّ إرادة اللّه هي التي ستتحقّق في نهاية الأمر وأنّ موسويّي العالم، أي الموحّدين في كلّ هذا العالم والإلهيّين سيفوزون وينتصرون. وهذا الأمر واضح السبب وهو بدوره موضوع بحثٍ آخر من تلك العناوين التي أخذناها بعين الاعتبار وسوف يتمّ تناولها بالتدريج، وذلك تحت عنوان عاقبة النبوّة وما ستنتهي إليه أعمال الأنبياء، أي الفتح والفوز؛ وأيضًا نتعرّض لأسباب ذلك، لأنّها متطابقة مع فطرة الإنسان وأصل خلقة العالم وتكوينه.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * طسٓمٓ﴾ هذا هو الرمز الأوّل للسورة. وبالطبع، إنّ من الأبحاث التي يمكن أن تُطرح بشأن بعض الآيات القرآنية، والتي ليست ذات أهميّة كبيرة، هي ما يرتبط بماهيّة هذه الرموز والتي قد تعرّض لها المفسّرون، إلّا أنّها ليست مورد عملنا الآن.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾[١] تبيّن هذه الآيات قسمًا من القصّة المهمّة التي دارت بين فرعون وموسى. ومن الواضح أنّ نهج القرآن، عند نقل أيّ واقعة من الوقائع التي

---

(١) سورة **القصص**، الآيتان ٢ و٣.





ترتبط بالأنبياء، أنّه يتوجّه إلى مقصدٍ خاصّ من ورائها، وذلك في كلّ بعدٍ من أبعاد هذه الواقعة؛ فيكون اختيار هذا القسم الخاصّ من القصّة لأجل مقصدٍ خاصّ. وعلى هذا الأساس، يتمّ نقل هذه القصّة. وهنا، يذكر قسمًا مختصرًا جدًّا لأنّ له مقصدًا خاصًّا وهو ما يرتبط بقضيّة انتصار الحقّ على الباطل. وبالطبع، لن نتعرّض إلى الأقسام الأخرى من هذه القصّة في بحث اليوم، ولذلك لم نأتِ على ذكرها.

إنّ تناول هذا القسم المهمّ من قصّة موسى وفرعون يكون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، بعيدًا عن الأساطير لأنّه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، لذلك فإنّ كلّ ما يبيّنه اللّه تعالى ونقرأه ليس فاقدًا للفائدة، وغير فاقدٍ للأثر، بل إنّه سيكون مفيدًا جدًّا ومؤثّرًا ونافعًا بالنسبة للمؤمنين الذين آمنوا بالرسول. فلو أنّهم سمعوا هذه القصّة وفق هذه الرؤية، وفهموا السنّة الإلهيّة وأدركوها في هذا المجال، فإنّهم سيشخّصون طريقهم بدقّة. وخلاصة المطلب هو: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقد طلب الاستعلاء لنفسه، وهذا يعني أنّه قد تجاوز هذا المستوى المساوي بين الناس، واعتبر نفسه أفضل من الآخرين بجلوسه على ذلك العرش؛ فبينما يكون جميع الناس متساوين وفي نفس المرتبة، فهو يريد أن يجعل لنفسه هذا العلوّ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ وهذا ما أشرنا إليه تحت عنوان «إيجاد المجتمع الطّبقيّ»، حيث يقرّب جماعةً إلى نفسه كطبقة هامان وغيره ممّن يشبهه، ويجعل طبقةً أدنى وهكذا، حتّى يتحوّل المجتمع إلى مجتمعٍ فرعوني على الأرض. ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، فبالإضافة لعمليّة فرز الطبقات وتقسيم الناس إلى فرق مختلفة، فإنّه يقوم بممارسة ضغوطات كبيرة على طبقةٍ





خاصّة وهذا هو معنى «يستضعف». فالاستضعاف إذًا هو هذه الممارسة الظالمة التي تؤدّي إلى جعل طبقةٍ اجتماعيةٍ في قبضة الضعف والعجز. ولا يصحّ أن نعبّر عن الاستضعاف بالظلم، وإن كان نتيجة الاستضعاف كما بيّنّا، وذلك لأنّ البعض فسّر هذه العبارة بالمظلوميّة فقال إنّ المستضعفين هم المظلومون؛ لكنّ المقصود هو أنّه يتمّ وضع هذه الطبقة الاجتماعية في قبضة الضعف حيث تُسلب منها الإمكانات والطاقات فتصبح مجموعة ضعيفة ويؤدّي ذلك إلى جعل هذه المجموعة البشريّة في إطار العجز وعدم القدرة على التأثير. ويُقال إنّه يستضعف بمعنى عدّ واعتبار هؤلاء ضعفاء واتّخاذهم أذلّاء بحسب التعبيرات المختلفة؛ ولكنّ الناتج من هذه الممارسة هو حرمان هذه الجماعة البشريّة من جميع الإمكانات التي تحتاج إليها في المجتمع من أجل التكامل والرقيّ.

ولو أنّكم كنتم مطّلعين على القضايا الاجتماعية وتطالعون المؤلّفات الاجتماعية، لوجدتم كيف أنّ عالم اليوم يتعامل مع بعض الدول، دول العالم الثالث، بهذا اللحاظ؛ وستدركون هذا الأمر بصورةٍ تامّة وترونه بأنفسكم. هنا نجد أنّ جميع الموارد والإمكانات التي يحتاج إليها الناس من أجل التقدّم والرقيّ تُصبح محتكرة من قبل مجموعةٍ خاصّة، والتي بدورها تمنع الآخرين من الرقيّ ولا تسمح لهم بأن يتنفّسوا، وإذا سمحت لهم بأيّ نوعٍ من التقدّم، فذلك من أجل أن يكونوا في خدمتها، وهنا يتمّ استغلالهم بحسب مصالحها.

إذًا ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ تعني هذه الممارسة الشديدة والضغوط المتتالية التي تؤدّي إلى ضعف وعجز تلك الطائفة. ومن الضغوط التي كان يمارسها عليهم هو أنّه كان ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ فلم





يكن يسمح لأطفالهم بأن يبلغوا سنّ الشباب؛ وكان يعلم أو يشعر أنّه يوجد نوع من الثورة والتحرّك فيما بينهم؛ كما كان يعلم أنّ الذي يمكنه أن يوصل هذا التحرّك وهذا الفوران إلى نهايته هو جيل الشباب؛ ولأنّه لم يكن للنساء في تلك الظروف الاجتماعية لذلك العصر، من تدخّل في مثل هذه المسائل والقضايا الاجتماعية، حيث كان يقع الحمل على عاتق الذكور، فقد كان الضغط أكثر على هذه الشريحة. وبالطبع أنتم تتعرّفون على هذا الأمر من الخارج. فلقد سمعنا واطّلعنا، بحسب المنقولات والروايات التي وردتنا في هذا المجال، أنّ فرعون كان يعلم أنّ موسى سيظهر من بين هؤلاء الشباب، و«موسى» سيكون في النهاية سببًا لجعل حياة فرعون تنقلب رأسًا على عقب؛ أو أنّه كان يعلم ذلك من خلال ما جاء في ظاهر الروايات، حيث قيل إنّ كاهنًا أخبره بأنّه سيظهر ولدٌ ويتمتّع بالصفات الفلانية وسيكون اسمه موسى؛ أو أنّه لم يكن يعرف ذلك من خلال الخصائص والصفات، لكنّه كان يبصر ويدرك ويعلم أنّه في النهاية سيبرز من بين هذا الجيل الشابّ، الذي كان يعيش في المجتمع الفرعوني ومن بين بني إسرائيل، مَن يثور. وفي النهاية، سيكون هناك موسى أو إنسانٌ عظيم أو شخصٌ مضحٍّ يظهر بينهم، فلذلك كان يخاف من هؤلاء وكان ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾.

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، وهنا كان يبقي على نسائهم إمّا لكي يفسدهنّ، أو من أجل أن يجرّهنّ إلى الفحشاء، أو من أجل أن يضيّع سلامة نسبهنّ، وبهذه الطريقة يزوّج بنات بني إسرائيل من أبناء قوم فرعون حتّى لا يظهر من بينهم ذلك الشاب، فيختلط بهذه الطريقة النسل ويضيع بنو إسرائيل ويذوبون في المجتمع الفرعوني والمجتمع المصري وينقرضون. وكما ذكرنا سابقًا وفي إحدى



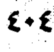
المناسبات عند الحديث عن آيات أوّل سورة البقرة، فإنّ بني إسرائيل تمكّنوا من الحفاظ على استقامتهم طيلة ٤٠٠ سنة داخل ذلك المجتمع الفاسد والمضطرب، وحافظوا بذلك على عقائدهم الشريفة ومبادئهم.

حسنٌ، هذه هي المواجهة بين هاتين الجماعتين والتي أدّت إلى نشوء جبهتين. ففي الجبهة الأولى، كان فرعون يتمتّع بمثل هذه الوضعيّة، وتخبرنا الآية القرآنية في النهاية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فكان يحدث ذلك الفساد في فطرة الإنسان مثلما أنّه كان يفسد في المجتمع وينشر الفساد في العالم حيث إنّ الآية الأخرى من سورة البقرة تخبرنا عنه، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[1]. فمن خصائص الفراعنة أن يفسدوا في الأرض ويهلكوا الحرث ويمنعوا من وصول الذخائر المعنويّة في هذا العالم بأنواعها وأقسامها المختلفة إلى غاياتها وثمارها؛ أو أنّها إذا أثمرت فتثمر بصورةٍ خاطئة وغير سليمة، وقد كان فرعون من هذا القبيل.

والآن ماذا نرى في المقابل؟ فماذا كان الحقّ؟ ونسأل عن إرادة اللّه وعن السنّة الإلهيّة، أين كانت؟ ونحو أيّ جهة تحرّكت؟ ﴿وَنُرِيدُ﴾ أي السنّة والإرادة التكوينيّة للّه ﴿أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فاللّه تعالى لا يقول وأردنا، بمعنى أنّ اللّه أراد ذلك بشأن بني إسرائيل في ذلك الزمان، كلّا، بل الأمر على نحو الدوام وطوال التاريخ. لقد أردنا ونريد أن نمنّ على جميع المستضعفين

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٥.




أي هذه الطبقة التي وقعت أسيرة القهر والضعف والعجز وننجيها من ذلك الوضع الوخيم ونخرجها من حالة الاستضعاف، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾[١]، فينقلهم من حالة التبعيّة والتهميش الاجتماعي إلى الريادة والقيادة والمتبوعيّة؛ وبذلك نسلّط المستضعفين في الأرض على كلّ العالم، ونجعلهم غالبين ومنتصرين على القوى المستبدّة، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فهم يرثون بذلك خيرات الأرض وهذا ما يعبّر عن إرادة اللّه.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهكذا ينالون الاستقرار والتمكين. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾، وفرعون وهامان في هذه الآية يمثّلان طبقة. ففرعون، وإن كان ينتمي إلى تلك الطبقة العالية، ولكن بما أنّه شخصٌ مميّزٌ في هذه الطبقة العليا، فإنّه يمثّل الطبقة الممتازة التي يكون هامان أيضًا تحت إمرته، وبذلك يكون مستغلًّا له. أمّا هامان، فهو نموذج ومظهر لطبقةٍ أخرى، طبقةٌ تستعمل كلّ إمكاناتها وقدراتها في خدمة فرعون، حيث يمكن أن يكون تعبير القرآن عن هذه الطبقة بالملأ، وسوف نتحدّث عن الملأ في المستقبل إن شاء اللّه تعالى.

﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ هم أولئك الذين يبذلون جهدهم ويقدّمون زهرة حياتهم على طريق هؤلاء من دون أن يروا منهم الخير، لكنّهم يستمرّون في خدمتهم؛ فنريهم من المستضعفين ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾؛ فسيحدث لهم ما كانوا يخافونه من المستضعفين. فتلك الطبقة التي كان يخافها فرعون، جعلناها هي العليا ونصرناها عليه،

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٥.





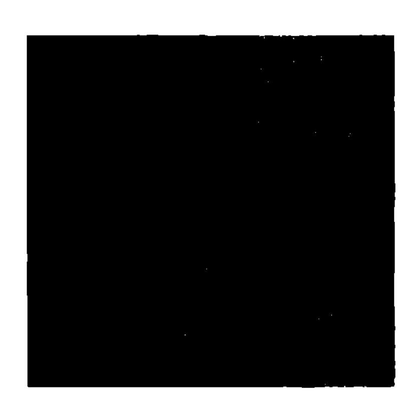
وهامان الذي كان يحذر ويخاف، أريناه في النهاية ما كان يخاف ويحذر، فيعني ذلك أنّنا سلبناهما القدرة وأعطيناها للمستضعفين، فصار الترابيّون والمساكين أصحاب القدرة والسلطة. وبالطبع، فإنّ المساكين والفقراء في أيّ مجتمعٍ يشكّلون الأكثرية وهذه هي إرادة اللّه.

وبعدها يدخل البحث إلى قضايا أخرى، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ هذا مظهرٌ آخر من مظاهر قدرة اللّه. ويوجد مسألةٌ أخرى في تلك الآية الأخرى التي اخترناها لكم من سورة الصفّ يُشار فيها أيضًا إلى الانتصار والتغلّب على النظام الجاهلي من قبل النظام الإلهيّ، ونحن في بحثنا اليوم لن نتطرّق إلى جهة الغلبة حتمًا.

الجلسة السابعة عشر

أهداف النبوّة

السبت، ١٨ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

[سورة **الحديد**، الآية ٢٥]

تفرّع البحث حول النبوّة، ووصل إلى أنّ النبي، الذي يُعدّ مبعوثًا إلهيًا، عندما يريد أن يدخل إلى أيّ مجتمعٍ فإنّه يوجد فيه بعثةً وتغييرًا وتحوّلًا كتلك التي حدثت في باطنه. ونحن نريد أن نفهم هذا المطلب في لقائنا اليوم والذي يرتبط بالمقصد والهدف من إيجاد هذا التحوّل ونبحث بشأن هدف نشاطات الأنبياء الإلهيّين بشكلٍ عامّ؛ حيث تُعدّ معرفة مثل هذه القضيّة مفيدةً لنا من جهاتٍ عدّة، لا بل ضرورية. فما هو الهدف الذي يسعى النبي إلى تحقيقه؟ وما هو المقصود النهائي أو المطلوب الذي يتحرّك نحوه؟

يوجد هدفٌ للنبي يُعدّ في وسط الطريق كأساس لمجموعة من الأهداف الأخرى التي يضعها النبي نفسه، ومن بين هذه الأهداف الأخرى يوجد هدفٌ يُعدّ أهمّ من الجميع وأكثر جاذبيّة بالنسبة للنبي نفسه، ذاك الهدف هو الذي يكون الهدف الأوّلي للنبي أو هدفه الأصلي. ويمكن اختصار الهدف الأساسي والأوّلي للأنبياء الإلهيّين بشكلٍ عامّ في عدّة كلمات: يأتي الأنبياء إلى هذا العالم من أجل إيصال الإنسان إلى مقام الترقّي والتكامل الذي أُعدّ له؛ فالإنسان كموجودٍ ذي استعدادت وقوى وطاقات كثيرة يمكن



أن يصبح موجودًا أعلى وأرقى وأعزّ وأشرف ممّا هو موجود.

في الأساس، يكون الإنسان من أوّل ولادته وعلى صعيد تكوّنه الدنيوي (الجسماني) في حالة تكاملٍ مستمرّ. وعلى هذا الأساس، فإنّه يبقى دومًا في حالة ترقٍّ وتكامل؛ وتشاهدون هذا الأمر بصورةٍ جيّدة على مستوى الجسم والشكل الظاهري للإنسان. فالطفل حديث الولادة يكون فاقدًا للكثير من خصائص الإنسان الكامل؛ فاقدٌ للأسنان، ويفتقد إلى العضد القوي، كما أنّه لا يمتلك فكًّا قويًا، وكذلك لا تكون أقدامه مستعدّةً للركض. وكذلك على مستوى الأجهزة الداخليّة، فإنّه يفتقد لتلك القوّة الهاضمة وغيرها من القوى التي يتمكّن الإنسان العادي والبالغ من استعمالها للسير في هذه الحياة، حتّى إنّه يفتقد إلى الأجهزة والتشكيلات الدماغيّة والعصبية القوية؛ لكنّه بعد مدّةٍ ينال كلّ هذه الأشياء التي يفتقد إليها.

ومن المسلّم أنّه لا يحصل على شيءٍ من الخارج، فذاك الفكّ الصغير نفسه يصبح قويًا ومتينًا، وتلك اليد الضعيفة تصبح يده القوية والمقتدرة. وهكذا بالنسبة لأقدامه الصغيرة والناعمة، فإنّها تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى تلك الخطوات الثابتة، وهكذا هو الأمر على مستوى الأعصاب الضعيفة فإنّها تشتدّ مثل ذلك الدماغ العاجز الذي يصبح على شاكلة الكاشف لأهمّ قضايا الحياة وأعقدها. هذا الإنسان لا يحصل على شيءٍ من الخارج، بل يصبح، بالتدريج وعلى مرّ الزمان ومن خلال تواجده في ظروفٍ خاصّة، باستعداداته هو وبإمكاناته الكامنة والخفيّة متفتّحًا ومتبرعمًا ويصل إلى منصّة الظهور والتحقّق. ففيه الاستعداد للنطق، وهذا الاستعداد يتفتّح وينتقل من القوّة إلى الفعليّة، وفيه الاستعداد للإدراك والتفكّر،





كما أنّه بذاته يمتلك الاستعداد ليصبح عالمًا. فالإنسان يكون في حال صيرورة مستمرّة على مستوى الكمال، وما كان يفتقده وما لم يكن موجودًا يصبح متحقّقًا؛ لا يكون قويًا فيصبح كذلك، ولا يكون صاحب عقلٍ فيصبح صاحب عقل، ولا يكون صاحب تجربة وبعدها يصبح من أصحاب التجربة، وغيرها من هذا القبيل.

وفي القضايا المرتبطة بالجسم الظاهري للإنسان، ومثلما أدركتم جميعًا هذه القضيّة الآن وتصدّقونها، ترون أنّ الإنسان كان دائمًا في حالٍ من التكامل وهذا يعني أنّه يكون في طور التشكّل والحصول على أشياء لم تكن متوفّرةً له من قبل، أو حاصلةً فيه. هذا الأمر عينه يتحقّق أيضًا في مجال المعنويّات والروحيّات والفضائل الإنسانيّة؛ فهناك عالمٌ كبير من الاستعدادات الخفيّة في الإنسان. يمكن تشبيه الإنسان بمنجمٍ هائلٍ وعميقٍ وغني جدًّا. في حال تمّ التنقيب فيه واستخراج ما فيه من معادن، فإنّنا سنجد أنّه متوافرٌ على الكثير من الأشياء. أمّا لو لم يحصل التنقيب فيه والاستخراج منه، فإنّه يكون موجودًا شبيهًا بأرضٍ خاليةٍ جافّةٍ غير منتجةٍ وفاقدةٍ لأيّ مظهرٍ من مظاهر الجمال في الحياة.

أضرب مثالًا في مثل هذه الموارد عادةً، وأشبّه الإنسان بقطعةٍ من الموزاييك التي يضعونها إلى جانب أحواض المياه وعلى عتبة بعض الأبواب، فهل تلاحظونها؟! في البداية، يضعون هذه القطع من الموزاييك في قوالب، ثمّ يغلقون هذه القوالب لتتحوّل هذه المادّة إلى مادّةٍ مطبوخةٍ وجافّة، وعندما تنظرون إليها فإنّكم لا تشاهدون فيها أيّ مظهرٍ من مظاهر الجمال والدقّة، بل تكون جسمًا مغبّشًا وسخًا فاقدًا للبريق والحسن. وعندما يصل الدور إلى القيام بجلائها وتلميعها سواءٌ بوضعها في أجهزةٍ خاصّة أو من خلال العمل





اليدويّ، فإنّه وبعد مرور وقتٍ قليل من مثل هذا العمل (الجلاء والتلميع)، فإنّكم فجأةً ترون أنّ هذا الجسم لم يصبح على أثر هذا الجلاء والتلميع شفّافًا فحسب - لأنّ هذا الشيء طبيعي، فالكثير من الأشياء التي تكون مغبّشة تصبح على أثر هذا الجلاء مغبّشة - كلّا، بل بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أنّ فيه أشياءً لم تكونوا تعرفون عنها شيئًا؛ حيث ترون بعد جلائه وتلميعه، تلك الأحجار الجميلة الملوّنة ذات النقوشات المختلفة والألوان الجذّابة والمستحسنة قد ظهرت من قلب وداخل هذا الجسم المغبّش؛ والتي ربّما لم تكونوا قادرين على رؤيتها في السابق، أو لم تكونوا قادرين على الاستفادة والاستمتاع بجمالها، وما كان لكم القدرة على جعلها وسيلةً للتجمّل؛ فكلّ هذه الأحجار الجميلة قد ظهرت على أثر الجلاء والتلميع. فعندما يضعون أمامكم قطعةً من الموزاييك الجميلة المجلوّة، ترون نقوشاتٍ جميلةٍ ورائعة في واقع الأمر، في حين أنّها لم تكن قبل الجلاء والتلميع شيئًا مذكورًا في هذا المجال؛ يمكنكم تشبيه الاستعدادات الباطنة في الإنسان بمثل هذه القطع البرّاقة الجاذبة الجميلة التي كانت داخل هذا الموازاييك المغبّش.

إنّ هذا الإنسان الذي ترونه، وهذا الكائن الذي لم يصبح مستعدًّا ولم يشذّب أو يقلّم بعد، والذي تشاهدونه في السوق أو في الشارع؛ وهذا الطفل الصغير الذي يعجز عن النطق، والذي لا تكون هذه الرقّة ملحوظة فيه سوى من قبل أمه وأبيه ولا غير، فلا يظهر منه شيءٌ للآخرين؛ إنّ هذا الصبي الذي تشاهدونه هو في الواقع منجمٌ غنيٌ وفيّاضٌ، ففيه الكثير من الاستعدادات الخفيّة وفي داخله تجلّياتٌ من الجمال هي التي نعبّر عنها بالاستعدادات الإنسانيّة، وقد ذُكرت بلسانٍ شعريٍّ قديم للشاعر سعدي:





طيران مرغ ديدى، تو ز پاى بند شهوت
به در آى تا بينى، طيران آدميت
هل رأيت تحليق الطائر؟ فاعتق نفسك
من قيد الشهوات لتشاهد عروج الإنسانيّة

هذا الذي قيل لنا، وحقًّا ما قيل على لسان الشعر وغير الشعر والعرفان، بألسنةٍ مختلفة، وهو صحيحٌ. قالوا إنّ تجليّات الإنسانيّة ترفع الإنسان إلى ما فوق الملائكة وأعلى من ذلك، فهي تجعل الإنسان منبعًا فيّاضًا من الخيرات والجمالات والاستعدادات التي تصل إلى حدّ الظهور، فتتحقّق تلك الطاقات المدهشة والجذّابة. يصبح الإنسان إنسانًا كاملًا، إنسانًا سويًّا، إنسانًا متكاملًا ومترقّيًا. إنّ الهدف الواقعي للأنبياء هو أن يصنعوا مثل هؤلاء البشر؛ ويندرج هذا الأمر بحسب التعبيرات القرآنية التي كتبناها في هذه الأوراق تحت عنوان «التزكية والتعليم». وهكذا، يتمّ تصفية الإنسان وتنقيته من الصفات السيّئة والسلبيّة وإبعاده عن كلّ أنواع الهوس والهوى، وتخليصه من كلّ مظاهر الحياة السبعيّة البهيميّة وقد قيل في الشعر لمولوي:

اى دريده پوستين يوسفان
گرگ بر خيزى از اين خواب گران
يا من مزقتم قميص يوسف
انهضوا من سباتكم ذئابا ذئاب

فأولئك الذين يتصرّفون تصرّف الذئاب وهم في ظاهر الإنسانيّة، هؤلاء الذين يظهرون بصورة الإنسانيّة السويّة الجميلة لكنّهم يفعلون فعل السباع والكلاب والوحوش والغيلان، لا يمكن أن نسمّيهم أو نضعهم تحت عنوان الإنسان. فذاك الإنسان الذي



يكون سفك الدماء بالنسبة له أمرًا لذيذًا وممتعًا، وذاك الإنسان الذي يتسلّى ويستأنس بالقضاء على نفوس غيره من البشر، وذاك الذي لا يشعر بأيّ تألّمٍ عندما يشاهد محن الآخرين ومصائبهم، هذا الإنسان الذي يطّلع على مآسي الآخرين ولا يغتمّ من ذلك، هو ليس إنسانًا حقيقيا، كان ما كان على مستوى الظاهر؛ سواءٌ كان عالمًا كبيرًا، أو ثريًا إلى حدًّ فاحش، أو مقتدرًا جدًّا، حتّى لو كان في الظاهر شديد الأناقة وصاحب الثياب المكويّة المرتّبة، فمهما كان؛، إنّ هؤلاء جميعًا لن يكونوا من جنس الإنسان؛ فالأناقة والعلمائيّة والاقتدار شيء، وكون المرء إنسانًا شيءٌ آخر.

إنّ الأنبياء يأتون من أجل تصفية البشر وتزكيتهم وتطهيرهم. فعندما تتأمّلون في بيئة دعوة الأنبياء، فإنّكم لن تروا أثرًا لتلك الحالة السبعيّة، ولن تشاهدوا أيّ مظهرٍ من مظاهر الحياة الحيوانيّة والوحشيّة. كلّما تأمّلتم في بيئة حياة النبوّة، فهناك لا أثر ولا خبر لتلك الأشياء البشعة، بل لا يوجد هناك سوى نور الصفاء والإنسانيّة. وهذا هو فنّ النبوّة وإعجازها الكبير. نجد الناس يبحثون في إعجاز النبوّة عن الأعمال الخارقة للعادة، تلك الأعمال التي لا يقوم بها أحد عادةً، وفي مجال القضايا الطبيعية، كاختراق الجدار الفلاني أو الجسم العلّاني أو مجيء الشجرة وتحرّكها؛ فكلّ هذه أمور جيّدة وهي موجودةٌ ومتحقّقة ولا كلام في ذلك، لكنّ معجزة النبوّات الكبرى هي عبارة عن صناعة الإنسان الجيّد والمتحلّي بالفضائل، فهذه هي أعظم معاجز النبوّات، ولا مزاح في ذلك.

وعندما يتأمّل الإنسان وينظر سوف يرى أناسًا - رغم كلّ مقتضيات الإجرام والإفساد الموجودة فيهم - فإنّهم وبعد أن يستظلّوا بظلال دعوة الإسلام وتشملهم الأجهزة التي يستعملها





الأنبياء بفعاليّةٍ، فإنّهم يتحوّلون فجأةً من ذلك الوحش الذي كان بالأمس، والجاني المجرم الذي كان قبلها، والإنسان الذي لم يصلح ولم يتشذّب ولم تكونوا تحسبون له أيّ حساب، يتحوّلون إلى إنسانٍ عظيمٍ جدًّا.

فمن كان أبو ذرّ؟ إنّ أبا ذرّ لم يكن سوى رجلٍ من أهل البادية الأجلاف الذين لا يعتنون بالإنسانيّة ولا خبر لهم عنها؛ فهل كان شيئًا آخر؟ إنّ أبا ذرّ لم يكن سوى رجلٍ، لو شاهدتم عشرة آلاف أمثاله مرّوا أمامكم لما أوليتموهم أيّ اهتمام، ولما شعرتم بأيّ اهتزاز فيما لو جاءت هزّةٌ أرضيّة وأفنتهم عن بكرة أبيهم، فهؤلاء مثالٌ لمن لا يفهم ولا يريد أن يفهم. عندما يقف أمامكم، أولئك الذين ليس فيهم أيّة ذرّةٍ تدلّ على اللطف الإنساني، ويفتقدون إلى أيّة ذرّةٍ من آثار الارتباط والتعلّق بحالة الحسن والخير، ويسيرون في تلك الصحراء الكبرى حفاةً متّسخين في خشونة وشجوبة العيش، ستتساءلون، وليس أنتم فقط، بل سيتساءل كلّ مصلحٍ كبيرٍ وأيّ إنسانٍ عظيم عن مدى تحرّق قلبه عليه. فالمصلحون الكبار في هذا العالم أو الذين يعدّون أنفسهم كذلك يتألّمون ويشتكون من أشخاص لهم في الواقع شأنٌ أكبر منهم! وذلك لأنّهم لم يعرفوا قدرهم بل لم يتعرّفوا إليهم ولم يفهموهم. فهم يحبّون أن يدور الناس حولهم مثل فراشات الشموع ويضحّوا بأنفسهم من أجلهم، ولأجل أيّ شيء؟ إنّنا لن نتحدّث هنا عن مدى الالتزام أو الرسالة الإنسانيّة التي أدّوها أو لم يؤدّوها، فإنّهم إذا واجهوا مثل أولئك الأفراد ووقفوا أمامهم، فإنّهم لن يولوهم أيّة عنايةٍ أو قيمة.

إنّ النبي هو الذي يجعل من ذلك الموجود الذي نعبّر عنه بالحجر الأسود، أو تلك الصخرة التي لم تُجلَ أو تُلمّع والتي قد







تُسمّى هنا بأبي ذرّ، في ظلّ الوحي وضفاف الدعوة، إنسانًا؛ وذاك الإنسان الذي لم يكن فيه أيّة فضيلةٍ من الفضائل الإنسانيّة. ثم، وعلى أثر ذلك لن يبقى فضيلةٌ من الفضائل الإنسانيّة إلّا وستظهر فيه؛ هذه هي المعجزة الكبرى للنبي؛ فهو يصنع منه إنسانًا تصبح كلّ متعلّقاته، وكلّ يرتبط بهذه الأنا والإنّيّة التي تكون بالنسبة للناس العاديين محور جميع نشاطاتهم وفعاليّاتهم، كلّ شيءٍ من هذه الأنا تنصهر وتذوب وتتحلّل وتصبح فداءً وقربانًا على طريق الوصول إلى الهدف؛ فهل يمكنكم أن تجدوا مثل هذا الإنسان؟ ها نحن نريد أن يكون لنا كلّ شيء، أو أن ترجع جميع الأشياء التي ترتبط بنا، دكّاننا وموقعيّتنا وأبنائنا وذِكرنا الحسن إلينا فقط، ويكون كلّ شيء في النهاية لنا. إنّ أبا ذرّ يفتدي كلّ ما يرجع إلى نفسه في سبيل اللّه ومن أجل الأهداف والتوّجهات التي يتحرّك على أساسها. فها هو ذاك الإنسان يتبدّل إلى إنسانٍ على هذه الشاكلة. فما هو هذا الشيء الذي بدلّه وحوّله إلى مثل هذا الإنسان؟ إنّه وحي النبوّة ودعوتها. فهذه النبوّة هي التي تبدّل الحجارة السوداء والمغبّشة إلى مرايا صافية ونقيّة. وهذا هو هدف النبوّة، أي صناعة الإنسان.

وصحيحٌ أنّ تشكيل نظامٍ سليمٍ مرفّهٍ ونظامٍ حرٍّ ومزدهر هو أمرٌ مميّزٌ جدًّا؛ ولكن أريد أن أرى الآن ما الذي سيحصل في ظلّ هذا النظام المزدهر والحرّ والمرفّه والمتلازم مع المساواة والعدالة الاجتماعية وما الذي سيتحقّق بعد نفي الطبقية؟ نتساءل ما هو الشيء الذي سيشكّل اهتمام أفراد هذا المجتمع الجديد العالي والجذّاب؟ وما الذي سيحصل بعد ذلك؟ فما هي أهداف المذاهب المادّيّة على مستوى الإنسان والإنسانيّة بعد بلوغ مرحلة المجتمع المثالي الذي يُعدّ غايةً لسعيهم؟ فماذا سيكون هدف



الإنسانيّة؟ فإذا ضحّى الناس وتجاوزوا الأنانيّة وسعوا وجاهدوا حتّى ينوا لأنفسهم بيوتًا عامرةً في هذا العالم، وها هم قد حقّقوا ذلك، فماذا سيكون لهم بعدها؟ وماذا سنفعل بمثل هذه البيوت العامرة؟ حسنٌ، ها نحن قد تعبنا وجاهدنا من أجل أن نبني هذا المسجد، وبعد أن تمّ بناء هذا المسجد، ينبغي أن يكون لنا هدفٌ، والهدف هو أن يأتي الناس إلى هذا المكان مثلًا ليصلّوا أو يستمعوا إلى الخطابات أو غير ذلك. لكن لا معنى أنّ نقول إنّنا نريد أن نبني مسجدًا وبعدها نثير الضجّة ونهتف بصوتٍ عالٍ: بنينا مسجدًا ورفعنا أركانه وانتهى. فالآن ماذا سنفعل؟! لا شيء؟ ولا يكون لنا هدف بعد ذلك؟ هذه سخرية؛ إنّه كمثل من يكسر رجله في منتصف الطريق، وها هي المذاهب المادّيّة قد كسرت أرجلها وسط الطريق، ولا أستثني أيّ مذهبٍ منها.

تقول المذاهب المادّيّة إنّنا نريد أن نعمّر الدنيا ونقضي على الفقر ونزيل الجهل ونصنع مجتمعًا راقيًا، وأن يكون المجتمع الذي نحقّقه مجتمعًا إنسانيًّا، ليس فيه أيّ ظلم أو طبقية أو استغلال أو تمييز. حسنٌ جدًّا، لقد حقّقنا ذلك. والآن نسأل عن هذا الإنسان، ماذا يريد أن يفعل في مثل هذا المجتمع؟ إنّهم لا يمتلكون الإجابة. وفي هذا المجتمع، نسأل عن الإنسانيّة وأهدافها وإلى أين تريد أن تصل؟ وهنا لا يجيبون. هل أنّ الإنسان يريد أن يأكل وينام؟ هل أنّه يريد أن يعيش براحةٍ دون شيءٍ آخر؟ فلو أنّ الإنسان أراد أن يعيش براحةٍ وهناء فقط، فينتج براحةٍ ويأكل براحةٍ ويعطي براحة وهكذا، فهل عليه أن يجاهد من أجل ذلك ويتوجّه نحو هذا الهدف؟ هنا بالذات نجد أنّ المدارس المادّيّة تبقى عاجزةً وناقصة.

تقول المذاهب الإلهيّة، كلّا، هناك هدفٌ بعد هذا، والهدف





العالي هو عبارة عن تهذيب الإنسان وتحليته. فالهدف العالي هو جعل بني آدم بمستوى الإنسانيّة. وعندما نقول بني آدم، فإنّنا نقصد الجهة غير الإنسانيّة أي تلك الكائنات التي تسير على قدمين بكلّ هذه المظاهر، هذا هو ابن آدم. لكن صيرورة المرء إنسانًا يعني [التحلّي] بكلّ هذه الفضائل، وتفجرّ ينابيع الاستعدادات وسريانها في وجوده. تقولون: وماذا يحدث بعد ذلك؟ فنقول لا يوجد بعد، فالإنسان غير محدود، وهو غير محدودٍ بقدر قدرة اللّه، فلا بَعدَ له، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. فعندما يتحرّك الإنسان على طريق التكامل، فلن يكون له آخر، وهذه هي عقيدة الذين يعبدون اللّه وأفكار الموحّدين في العالم والأديان الموجودة في هذه الدنيا؛ فهو في حالة تطوّر دائمة، وفي حالة تقدّم دائمة، ويتّجه نحو الأوج دائمًا، ويتكامل ويتسامى دائمًا، فلا آخر ولا نهاية له، وقد جاء الأنبياء من أجل هذا الهدف.

يأتي الأنبياء من أجل خلاص البشريّة من السيّئات وكلّ أشكال الانحطاط والجهل والرذائل الأخلاقيّة ومن كبت الاستعدادات الكامنة ومن إبقائها مخفيّةً؛ يأتون من أجل نجاة الناس وصناعة الإنسان الكامل والمتسامي؛ هذا هو الهدف الأوّلي للأنبياء؛ لهذا ورد في القرآن في عدّة موارد منها ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾[2]. وهذا يعني أنّ التّكية والتحلية وتصفية الرذائل والتحلّي بالفضائل هي هدف الأنبياء؛ لهذا ترون نبينا يقول: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٥٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.





الأخلاق»[١]، وهي الأخلاق الجميلة والفاضلة؛ وهذا هو أوّل الكلام.

أمّا الكلام الأهمّ فهو الكلام الثاني، فالكلام الأوّل هو كلامٌ كثيرًا ما كان يتردّد، وبعضهم يحبّون أن يتكّرر كثيرًا، وذلك لأنّه لو كانت القضيّة منحصرةً بقضيّة التهذيب والتّكية، فإنّ لأحدٍ أن يقول: أيّها السيّد لقد عرفنا طريق ذلك، وفهمنا كيف نتحرّك، فلنترك الضجيج الاجتماعي جانبًا ولنبتعد عن حرب الملل الاثنين وسبعين كما يُقال في البيت الشعري[٢]، ولنذهب نأخذ زاويةً في الصومعة ونشتغل بالرهبانيّة حيث يمكننا أن نعمل على تهذيب أنفسنا وتزكيتها فنصبح بذلك صالحين وننجي أنفسنا من الهلاك. وإذا استطعنا وجاءنا أحدٌ وكان صاحب استعدادٍ وقابليّة، فإنّنا نلقي في أذنه بضعة كلماتٍ فينقلب رأسًا على عقب ويصبح بذلك إنسانًا.

هذا الكلام يمكن أن يصبح من هذه الجهة عذرًا وتبريرًا لكلّ أنواع الكسل والبطالة والدعة والتساهل والمجاملة؛ ولأنّه يصبح مبرّرًا لمثل هذه الصفات فإنّه يُكرّر كثيرًا. في الوقت نفسه، يسرّ الناس ويعجبهم، ومثل هذا الكلام يرضي الحكّام أيضًا، وهذا الكلام يعجب أيضًا أولئك الذين يتحمّلون مسؤوليّات إرشاد الناس وتعليمهم. فإنّ تهذيب الناس وتزكيتهم هو عملٌ ليس فيه أوجاعٌ للرأس، وهو عملٌ لا إشكال عليه، وليس فيه أيّ تهديد أو خطر على بقرة الإنسان ونعجته كما يُقال، فهو عبارة عن جمع مجموعة

---

(١) العلاّمة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ١٦، الصفحة ٢١٠.

(٢) جنگ هفتادو دو ملّت همه را عذر بنه چوندیدند حقیقت ره افسانه زدند (الشاعر حافظ)






من الناس وإنشاد بعض نغمات العشق عليهم حيث تُسكرهم هذه العبارات ويكون ذلك من أجل تهذيبهم وتزكيتهم؛ فالأمر عندئذٍ بالنسبة للناس يكون سهلًا. بالطبع، هكذا يبدو؛ إلّا أنّه في الواقع ليس سهلًا أبدًا.

الكلام إلى هذا الحدّ معروفٌ ومقبولٌ. لكن من هنا فصاعدًا، فإنّ الكلام يصبح مستهجنًا لأنّه كلامٌ لا يُقال للناس عادةً. ما هو هذا الكلام الذي يبدأ من هنا؟ إنّه عبارة عن الإجابة عن السؤال التالي وهو: ما هو الطريق الذي يسير عليه الأنبياء من أجل تهذيب الناس وتزكيتهم؟ وماذا يفعل الأنبياء من أجل تحقيق هذا الهدف؟ فهل أنّ الأنبياء يأتون إلى الناس ويأخذون كلّ واحدٍ منهم على حدة ويسمعونه نغمات الدعوة؟ أم أنّهم يأخذون بأيدي الناس فردًا فردا، ويختلون بكلّ واحدٍ على حدة في زاوية البيت أو المدرسة، ويبدؤون بتعليمهم وتربيتهم؟ وهل أنّ الأنبياء كانوا يجلسون في التكايا كالزهّاد والعرفاء في هذا العالم، من أجل أن يأتيهم الناس ويطّلعوا على أحوالهم المعنويّة ويصبحوا مريدين وتابعين وملازمين لهم؟ هل يشبه الأنبياء فلاسفة هذا العالم الذين فتحوا المدارس ووضعوا يافطات وإعلانات ودعوا الناس قائلين لهم أيّها الناس كلّ من يحبّ فليأتنا ليتعلّم؟ هل كان الأنبياء مثل هؤلاء؟ أم أنّهم لم يكونوا يعتقدون بالتربية الفرديّة ولا يؤمنون ببناء الإنسانية فردًا فردًا؟ وبتعبيرنا، لم يكن الأنبياء يؤمنون بالأعمال النظيفة والمرتّبة؟ فهل إبراهيم خليل الرحمن أو موسى وعيسى أو نبينا كانوا يفعلون مثلما نتخيّل أحيانًا أنّ أمثال سقراط وأفلاطون [كانا يفعلان]. حيث يجلسان في المدرسة ويأتي الناس إليهما ليتعلّموا منهما؟ كلّا، لم يكن الأمر كذلك. وبالطبع، إنّ الأولياء مثل الأنبياء، حيث إنّنا



سنقول عند الحديث عن الإمامة إنّ إمامنا الصادق أيضًا كان هكذا؛ فمن الخطأ أن يتصوّر أحدٌ أنّ الإمام الصادق كان يجلس على المنبر، وكان يحضر مجلسه أربعة آلاف تلميذ ويتحلّقون حول منبره؛ كما يعبّر بعض الذين يغفلون عن هذه القضيّة بمثل هذه التعبيرات؛ فلأنّ ابن عقدة الرجالي القديم المعروف قد ذكر أنّ للإمام الصادق أربعة آلاف تلميذ - وهو نفسه من تلامذة ورواة حديث الإمام جعفر الصّادقع - فتصوّر البعض أنّ هؤلاء الأربعة آلاف نفر كانوا يأتون ويجلسون على سبيل المثال في قاعةٍ هي أكبر من هذه القاعة التي نجلس فيها بضعفين، وكان الإمام الصادق صلوات اللّه عليه يقف على المنبر ويتحدّث ويطرح القضايا والأحكام والمواعظ [عليهم].

كلّا، فلم يكن هذا هو نهج الإمام جعفر الصادق، ولا نهج جدّه نبي الإسلام، ولا هو نهج جميع أنبياء العالم؛ فإنّ فتح المدارس والاكتفاء بالمواعظ والتربية الفرديّة ليس هو عمل الأنبياء. فلدى الأنبياء جوابٌ واحد عن هذا السؤال: كيف يمكن صناعة الناس، كيف يمكن تربية الناس على أساس القيم الإلهيّة الصحيحة؟ وجوابهم واحد؛ يقول الأنبياء في جوابهم إنّه لأجل صناعة الإنسان يجب أن تتحقّق البيئة المناسبة والمحيط السليم؛ هذه هي البيئة التي يمكن أن يتربّى فيها فقط لا غير. يقول الأنبياء إنّه لا يصحّ أن نأخذ كلّ فردٍ على حدة ونصنعه، بل ينبغي أن نوجد المصنع، فلو أردنا أن نصنع الناس فردًا فردًا لانقضى الوقت وذهب العمر، وإنّما المطلوب هو المجتمع والنظام السياسي، فيجب أن تحصل عمليّة صناعة الإنسان بالصورة المطلوبة ضمن إطار وآلة النظام السياسي لا غير، هذا هو الأمر الوحيد دون سواه.

يقول الأنبياء إنّ الإنسان يشبه الشجرة والغرسة. فلو أنّكم





أخذتم غرسة أو شجرة نخل بعين الاعتبار أو غرسة برتقال، فإنّ لنموّ هذه الغرسة شروط محدّدة، كما أنّ لها خصائص محدّدة؛ وهذه الخصوصيّات تستلزم أن تكون في أجواءٍ حارّة أو في مناخٍ مناسب. فلو زرعنا شجرة النخل في جنوب إيران أو في طبس أو في بعض الدول العربية، فإنّكم سترون كم تقدّم لنا من تمورٍ لذيذةٍ ذات جودةٍ عالية، فهذا أمرٌ ملفتٌ كما ترون، لماذا؟ لأنّ هذه الغرسة تحتاج إلى المناخ الفلاني بدرجات حراريّة معيّنة ورطوبةٍ خاصّة بنسبةٍ معيّنة في الهواء، وكذلك تحتاج إلى نوعيّةٍ محدّدة من التربة وغيرها من الشروط الأخرى لعلّها تبلغ العشرات. ومثل هذه الظروف تجتمع في طبس أو في خوزستان لكنّها لا تتأمّن في مشهد. فما الذي ينبغي أن نفعله؟ لو أنّكم جلبتم آلاف الشتول من أشجار النخيل، وجئتم بها إلى هذا المكان، وزرعتموها في هذه التربة وسقيتموها وأمّنتم لها المناخ المناسب، هل يمكن ذلك؟

إنّكم لن تقدروا إلّا على عملٍ واحدٍ في هذه الحالة، وهذا العمل الوحيد الذي يمكنكم أن تقوموا به هو أن تأتوا ببذرةٍ من شجر النخيل وتضعوها في بستانكم، أو أن تأتوا بشجرة برتقالٍ إلى الغرفة وتسهروا عليها وتراقبوها وتؤمّنوا لها الأسمدة والريّ، وتعملوا عليها إلى هذه الدرجة، حتّى يأتي ذلك الوقت الذي كما نقول: يا علي مدد، ها هي تقدّم لنا حبّة أو حبّتين من التمر؛ فتقولون: أجل، لقد جئنا ببعض الشتول من شجر النخيل إلى مشهد، وحصلنا على حبّةٍ أو حبّتين أو ثلاث من التمر؛ فلماذا إذًا نقوم بهذا العمل؟ لماذا فعلنا ذلك؟ فلو كنّا نستطيع أن نزرع وننمّي النخيل في البيئة النخيليّة والتي لا تحتاج إلى كلّ هذه العناية، ولا تحتاج إلى هذه الدرجة من التعب وبذل الجهد والقلق، فهل ستعطينا حبّة واحدة



أو حبّتين!؟ إنها ستعطيني الكثير الكثير.. فهل من العقل أن يقوم الإنسان بزراعة شجرة النخيل التي لا تُعطي أكثر من حبّةٍ أو حبّتين من التمور في هذه البيئة غير المناسبة، وهو يستطيع أن يوجد البيئة المناسبة؟ وهو يستطيع أن يصنع بيئةً يمكنها أن تنمّي شجرة النخيل بنفسها؟

بالطبع، من الواضح أنّ التعب والعناء الذي ينبغي أن يتحمّله الإنسان أو يبذله من أجل صناعة البيئة المناسبة، هو أكثر بكثير من التعب الذي ينبغي أن يتحمّله من أجل حبّة تمرٍ أو غرسة نخيل؛ فذلك العناء يفوق بدرجات هذا الأمر؛ لكن احسبوا ثمرته ونتيجته وتصوّروا عوائده. فهنا، أنتم تبذلون الجهد على إنسان وتصنعون إنسانًا، وهناك تصنعون مجتمعًا وتشكّلون نظامًا يصنع ملايين الناس والأجيال البشريّة، وهذا هو عمل الأنبياء. إنّ ما ذكرته هو من الأمور التي نصرّ ونؤكّد عليها، ونعتقد أنّ على أتباع النبوّات أن يفهموها جيّدًا. هذه هي القضيّة التي ينبغي أن نتفكّر فيها ولا نمرّ عليها مرور الكرام، [كما علينا] أن نراجع الآيات القرآنية وتاريخ الأنبياء وتلك الروايات التي وردت بشأن النبوّات؛ فقوموا بمراجعتها والتدقيق والتأمّل والتدبّر فيها ولا تتسرّعوا في قبولها أو رفضها لأنّ الأمر غايةً في الأهميّة. إنّ جميع الإشكالات تنبع من هذه النقطة. إنّ البعض ممّن لم يستطيعوا أن يفهموا ماذا كان يريد الأنبياء من وراء إيجاد البيئة المناسبة والمساعدة، تصوّروا أنّ الأنبياء كانوا يريدون أن يصنعوا الناس فردًا فردا، في حين أنّ صناعة الأفراد كأفراد هي أمرٌ بعيدٌ عن شأن الأنبياء.

إنّ ما نفهمه نحن من القرآن هو ما يتعلّق بإجابة الأنبياء عن السؤال المتعلّق بكيفيّة صناعة إنسانٍ مشذّب ومهذّب، صافٍ





ومتحلٍّ بالأخلاق. فإنّ جوابهم عن هذا السؤال هو أنّه يجب إيجاد المجتمع الإلهي التوحيدي وصناعة البيئة المناسبة لكي يتمكّن الإنسان - لا كفردٍ ولا كعشرات [الأفراد] بل ولا حتّى كألف [فرد] بل جماعات جماعات - من أن يصنع نفسه بنفسه في مثل هذه البيئة المناسبة وضمن تلك الحرارة الطبيعية لنور المعارف الإسلامية النيّرة.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾[1]. إنّ النبي عندما يريد أن يصنع الإنسان في البيئة الجاهلية لمكّة يكون مجبرًا على صناعة الأشخاص فردًا فردًا، وذلك لأنّه يحتاج إلى عدّةٍ من الخواصّ من أجل أن يوجد ذلك النظام؛ فهؤلاء العدّة هم حجر الزاوية والبنية التحتيّة المطلوبة، فيكون بناؤهم في البداية كأفرادٍ، إلّا أنّ ذلك لا يتنافى مع الخطّة العامّة للأنبياء. لقد كان النبي مجبرًا أن يقوم ببناء مجموعة من الأفراد وإعدادهم في مكّة من أجل أن يصنع أحجار الزاوية للمجتمع المدنيّ؛ كأبي ذرّ وعبد اللّه بن مسعود وأمثالهم حتّى يبلغوا مئة أو مئتين؛ فهؤلاء يمكن أن يشكّلوا أحجار الأساس لذلك البناء الذي سيقوم عليه مجتمع المدينة المستقبليّ، أي مجتمع التوحيد والإسلام. لقد قام النبي بإعداد أفرادٍ محدّدين مع ما تطلّب ذلك من عناءٍ وألمٍ ومشقّات، حيث كان الآباء يمنعون أبناءهم من أن يفهموا أيّ شيء، وكان الأبناء متعلّقين بالدنيا ولا يأتون إلى النبي ليستمعوا إلى كلامه. فلذلك كان إيجاد مستوًى معيّن من التوجّه ولو بمقدارٍ قليل يتطلّب الكثير من الآلام والمتاعب والمشقّات؛

---

(١) سورة **النصر**، الآيتان١ و٢.





ومثل هذه الأعمال كانت تُنجز كلّها. ولكن عندما وصل الدور إلى المدينة ليتشكّل فيها ذلك المجتمع الإلهي والإسلامي، حيث يكون النبي على رأس ذلك المجتمع ويكون الحاكم بأحكام اللّه وأوامره، فهناك، حينها يقول اللّه تعالى مثل هذا الكلام: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا﴾، فهذه هي حصيلة المطلب المرتبط بأهداف الأنبياء.

وأختصر المطلب كالتالي: إنّ للأنبياء هدفين مهمّين: أوّلهما هدفٌ أساسي وهو عبارة عن بناء الإنسان وتخليصه من الرذائل وتزكيته وتحليته بالخيرات والفضائل والحسنات، فيُختصر الأمر بصناعة الإنسان وبنائه؛ وهذا هو الهدف الأعلى. لكنّ الهدف الآخر الذي كان للأنبياء - والذي يُعدّ مقدّمة لتحقيق الهدف الأوّل - عبارة عن تشكيل المجتمع التوحيدي وبناء النظام الإلهيّ، وإقامة الحكومة الإلهيّة، وتأسيس التشكيلات والمؤسّسات التي تُدار على أساس القوانين والمقرّرات الإلهيّة؛ فهذا هو الذي كان هدف جميع الأنبياء. ولو أنّ أحدًا تصوّر أنّ الأنبياء الإلهيّين العظام لم يكونوا يحملون مثل هذا الهدف، فعليه أن يطالع القرآن والأحاديث والتاريخ أكثر.

وها هنا قد أتينا على ذكر آيتين، وبالطبع يوجد آياتٌ كثيرةٌ في كتاب اللّه العظيم، والتي يُستفاد منها في هذا المطلب. فنحن قد ذكرنا آيتين فقط، وغاية الأمر يجب عليكم أن تتدبّروا فيهما ومن الضروري أن تدقّقوا أكثر وتتأمّلوا.

الآية الأولى التي تعرّضنا لها في سورة الحديد؛ سأقوم بترجمتها فقط وأقدّم توضيحًا مختصرًا. ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾، وهي





إشارة إلى اليقين في القضيّة ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الدلائل الواضحة والبيّنة. فكلام الأنبياء وحججهم هي حججٌ واضحةٌ بيّنة، وليست أمورًا لا يفهمها الإنسان العاقل والمتفكّر، فالجميع يدركون كلام الأنبياء ويفهمونه. ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فما هو الكتاب؟ لقد ذكرنا مرارًا أنّ الكتاب هو عبارة عن مجموع المعارف والأحكام والمبادئ التي يتشكّل منها أصل الدين. فالمعارف والتعاليم الدينية هي هذا الكتاب، وباختصار إنّه جامع أيديولوجيّة الدين. ويمكننا أن نستعمل تعبيرًا بشأن الكتاب - مع شيءٍ من التسامح - ونشبّهه بما يُقال له اليوم في عرف المدارس المعاصرة بـ«الأيديولوجيّة» التي هي عبارة عن الأصول والمعارف البنّاءة، أي الأصول الفكريّة التي لها أثرٌ ملموسٌ وبنّاء في المجالات العمليّة.

لقد أرسلنا معهم الكتاب أوّلًا، و«الميزان» يشير إلى أنّ كلّ نبيٍ يأتي يحمل إلى جانبه هذا الميزان. فهل يعني ذلك أنّ كلّ نبيٍ يأتي يحمل إلى جانبه ميزانًا صغيرًا أو كبيرًا؟ كلّا، إنّ الميزان يعني ذلك الجهاز الذي يحقّق التوازن والتعادل الاجتماعي. الميزان هو تلك الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي؛ ومن المعلوم في هذا المجال ضمنًا أنّ المسألة ناظرة إلى المجتمع. فماذا كان النبي ليفعل بالميزان لو لم يكن من المقرّر أن يكون على رأس المجتمع وأن يقوم بتشكيل المجتمع؟ فماذا سيفعل بذاك الشيء الذي يمكنه أن يحقّق الاعتدال والتوازن الاجتماعي؟ وما هي تلك الوسيلة التي أُرسلت مع الأنبياء لكي يوجدوا مثل هذا الاعتدال والتوازن الاجتماعي؟ إنّه عبارة عن الأجهزة القضائيّة الإلهيّة، هذا أوّلًا، والمقرّرات القضائيّة ثانيًا، وتنفيذ وتطبيق القانون والضامن لتطبيقه وإجرائه؛ [فهذا] ما يمكن أن ينطبق عليه الميزان: يوجد





مقرّرات ويوجد ضمانة لتنفيذها ويحتاج الأمر إلى شاهدٍ ورقيب على تنفيذ المقرّرات وتطبيقها، وهذا هو الشيء الذي يُعبّر عنه اليوم في عرف الدول الديمقراطيّة بـ«السلطة التنفيذيّة» التي هي بحسب المصطلح «الحكومة». فالسلطة التنفيذيّة هي ذلك الجهاز الذي يمتلك الإشراف والرقابة على تطبيق المقرّرات في المجتمع، في البلاد التي يوجد فيها حكومة ومجلس وتشريع وتنفيذ. فمن الممكن أن تكون السلطة التنفيذيّة عبارة عن هذا الميزان.

وأنا قمت بمراجعة الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية، ورأيت أنّ من الأمور التي فُسّر بها «الميزان» هو قولهم أنّ الميزان هو الإمام، ورأيت أنّ الأمر صحيحٌ تمامًا وهذا التطبيق والانطباق هو ما نستلهمه من هذا الحديث. فالميزان هو الإمام، والإمام هو ذاك الإنسان الذي يجب أن يفصل بين الحقّ والباطل في المجتمع ويشخّص ويميّز الصفوف، وهو الذي ينبغي أن يرسّخ الاعتدال والتوازن الاجتماعي، لأنّه هو نفسه حاكم المجتمع. بالتأكيد، هناك تصوّرات واستنتاجات عاميّة خاطئة من هذه الجملة أو ذاك الحديث، لعلّ البعض قد وقع فيها؛ ونحن لا نتعرّض لتلك التصوّرات الآن، بل نقول ما ذكرناه هنا ونأتي على ذكر ما نعتقده في هذا المجال. إنّ الإمام هو الميزان والمعيار وعلى أساسه تُقاس الحسنات والسيّئات، ويتمّ فحص أيّ طريق نريد أن نسلكه بناءً على مسلكه؛ هذا بالإضافة إلى أنّه هو المشرف على الناس والرقيب عليهم الذي لا يسمح لهم بالخروج عن التوازن والاعتدال في المجتمع، كما أنّه يشرف على المقرّرات؛ وتؤيّد الرواية هذا المعنى. فالميزان إذًا هو تلك الوسيلة التي تترسّخ بها حالة الاعتدال والتوازن الاجتماعيين، وهو ما أُنزل مع النبي.





فلماذا كانت مثل هذه الأعمال؟ وماذا كان يريد النبي أن يفعل بالكتاب؟ بل نسأل ما هو لزوم الأنبياء من الأساس؟ وما هو دور الميزان في هذا المجال؟ ولأيّ شيءٍ كان الكتاب؟ إنّ السبب الأساسي هو ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾. ويمكن التعبير عن قوله تعالى بحسب الترجمة الفارسيّة بمعنيين أو نحوين، والتفسير بأيّ نحوٍ من النحوين سيكون له معنًى. فقوله تعالى وهو المعنى الذي اخترناه هنا وفسّرناه. أمّا المعنى الآخر، فأذكره لكم الآن. ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾، قد ذكرنا بين قوسين بشأنه: البيئة العادلة وبيئة المساواة. فالناس يقيمون الحياة العادلة، هذا معنًى. والمعنى الآخر هو: لكي يعيش الناس ويقوموا على أساس القسط وعلى أساس المساواة. لقد ذكرت أنّنا هنا نستطيع أن نفسّر الكلام على نحوين، ولو دقّقنا لوجدنا أنّ هناك تفاوتًا بين النحوين بلحاظ التجزية والتركيب اللغويين، إلّا أنّ مفاد المعنيين واحدٌ، وهذا ما أردت أن أبيّنه لكي لا يرد أيّ إشكالٍ بنظر البعض على ما يمكن أن يُعبَّر عنه بمثل هذه المفردات.

والحاصل المُستفاد من معنى قوله تعالى ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ هو أنّ الناس يجب أن يعيشوا في بيئةٍ عادلةٍ، وتتفاعل حياتهم ضمن هذا المجتمع أو النظام العادل؛ وإلى هذا المعنى هدف الأنبياء وجاؤوا من الأساس. فنقول إذًا لقد بُعث الأنبياء من أجل تشكيل النظام والبيئة العادلة، وجاؤوا من أجل أن يجعلوا هذا العالم عادلًا؛ فيتحوّل المجتمع والنظام إلى حالة العدالة؛ ونؤكّد على أنّ هذا هو الأصل الذي قامت عليه رسالة الأنبياء. وممّا لا شكّ فيه أنّه في ظلّ النظام العادل، سيجد الناس الفرصة المناسبة للوصول إلى التكامل والتسامي.



وبعدها يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، أجل إنّ اللّه ينسب إنزال الحديد والمجيء به إلى نفسه، ولهذا نسأل: هل أنّ مجرّد الكلام والوعظ يكفي لأجل أن يأتي الناس ويحقّقوا هذا النظام العادل؟ وهل ستسمح الشياطين والذئاب والناهبون والسباع ببقاء هذا النظام العادل، على فرض تمكّن الناس من إقامته؟ فلهذا أنزلنا الحديد، وهو من أجل أن يتمّ الدفاع عن هذه القيم الأصيلة بواسطته. وقد راجعنا كتب الحديث ها هنا، ووجدنا أنّ الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما يفسّر هذه الآية ويصل إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ يقول: «هو هذا السيف»[1]: السيف والرمح والأسلحة التي تُصنع من الحديد؛ فاللّه تعالى يأتي على ذكر السلاح إلى جانب دعوة الأنبياء؛ ذكر الأسلحة والقوّة القاهرة من جانب ربّ العالم، إلى جانب الوعظ الذي يُفترض بالأنبياء أن يقوموا به، وإلى جانب مبدأ تشكيل النظام التوحيدي والإلهيّ. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فهذه المتانة والصلابة الشديدة، وأيضًا ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ - حيث إنّ اللّه يعلم - يعني ها هنا التشخّص والظهور والتعيّن في الخارج. ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فالنصر هنا بالغيب يرتبط بالإيمان بعالم الغيب وهو العالم غير المرئيّ، فأولئك الذين لم يروا اللّه، وبعضهم لم يرَ الأنبياء، يؤمنون به وينصرونه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فقوّة اللّه لا تُقهر.

تأمّلوا في هذا الكلام، حيث إنّ تتمّة هذه الآيات حافلةٌ

---

(١) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة** (قم: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ)، الجزء ٢٠، الصفحة ٣٠٨.





بالمعاني الجليلة. فما ترونه في آخر أيّة آية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ كلّ هذه ليست على نحو الصدفة، وليس الأمر مشابهًا لما يفعله الشاعر في آخر الشعر لأجل مراعاة القافية حيث يلصق ما يريد وما يحلو له، فالأمر ليس كذلك؛ بل كلّ جملةٍ من هذه الجمل الموجودة في آخر الآيات قد وردت بما يتناسب مع مضمون الآية وهي تحمل معها معنًى أو نكتةً خاصّة، فعليكم أن تتوجّهوا وتلتفتوا إليها؛ والأمر ينطبق على هذه الآية الشريفة أيضًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾، فلا تتصوّروا أنّ الأنبياء جاؤوا ولا يستطيعون أن يحقّقوا هذا المجتمع الذي رسمنا أبعاده وأن يجعلوا الناس يقومون بالقسط. كلّا، لأنّ اللّه الذي أرسلهم وبعثهم قوي، فلا تخافوا من أنّ أنبياء اللّه سيُحاربون ويأتي من يعارضهم لأنّ اللّه عزيز ولا يمكن أن يُهزم. وأنا فسّرت كلمة العزيز في النهاية بمعنى الذي لا يُهزم. وما جاء في المعاجم اللغوية أنّ معنى العزيز هو الذي لا يُغلب، فهو الذي يغلب ولكن لا يمكن أن نجد من يتغلّب عليه. ووجدنا في اللغة الفارسيّة كلمةً واحدةً وهي جميلة ومختصرة، فإنّ اللّه قوي ولا يُهزم، هذه آيةٌ. أمّا الآية الأخرى من سورة الأعراف، فقد سبقتها آياتٌ تتحدّث عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونحن ها هنا لا ندخل في بحث مقدّمات ما جرى بالنسبة للآية التي جاءت بعدها لأنّنا أردنا أن نفسّر هذه الآية وقد أتينا على آيةٍ تسبقها لكي يتّضح المطلب.

فإنّ الحديث هو عن المؤمن أو المؤمنين الذين يخاطبون اللّه، ونسأل عن الكلام الذي كانوا ينطقون به، فالتفتوا جيّدًا ودقّقوا واستمعوا جيّدًا إلى الآية لكي نصل إلى مورد الشواهد، حيث يقول: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ متوجّهين إلى الرّب المتعال ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً



وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أنّهم اهتدوا الطريق إلى اللّه. فقال، (أي أنّ اللّه تعالى يقول في جوابهم): ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾. بالطبع، إنّ إرادة اللّه ليست اعتباطيّةً أو جُزافيّة - كما يحصل للناس حيث يفعلون ما يحلو لهم - فيعذّب أو لا يعذّب. كلّا، فإنّ إرادة اللّه تتبع المعايير والملكات التي جعلها اللّه بنفسه. فإنّ اللّه تعالى يريد أن يعذّب الأشرار والسيّئين، ﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، وهنا ينبغي أن لا يختلط علينا الأمر ما بين «أُصيب» و«آسيب» - التي تعني بالفارسيّة الضّرر - بل أصيب بمعنى الإصابة، لكنّنا هنا فسّرناها بمعنى الضرر وقلنا إنّ اللّه يوصل هذا الضرر بواسطة عذابه الذي يصيب به من يشاء. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنّ اللّه قد وسع برحمته جميع الأشياء وظلّلها بها، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. فمن هم هؤلاء الذين يؤمنون بالآيات ويتّقون ويزكّون؟

الجواب يأتي مباشرةً ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾[2]، لقد ترجمنا [كلمة أمّي] بنفس الكلمة التي في اللغة الفارسيّة وكتبنا أمّي بمعنى غير المتعلّم وبعضهم يقول إنّ الأمّي هو من عوام الناس، ومن السواد الأعظم في المجتمع، والبعض يقول إنّه يرجع إلى الأمّ ولا يكون تحت تأثير الثقافات أو الآراء المختلفة. والبعض يقولون إنّ الأمّي يرجع إلى أمّ القرى أي مكّة؛ ولوجود مثل هذه الاختلافات، فلم أرد أن أقدّم تحقيقًا في هذا المجال، فأبقيت على الكلمة نفسها كما هي، فالأمّي هو هذا النبي ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٦.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٧.





عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ حيث إنّ كلًّا من التوراة والإنجيل قد بشّر بمجيء هذا النبي. ونسأل عن خصائص هذا النبي وصفاته، فيأتي الجواب، الذي ينبغي أن ندقّق فيه جيّدًا، ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف هو الفضائل والحسنات المعروفة بالنسبة للعقل والفطرة الإنسانيّة، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمنكرات هي الأشياء التي يستنكرها العقل والفطرة الإنسانيّة؛ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، حيث تشير إلى التحليل والإمكانيّة والتسهيل. والطيّبات هي تلك الأشياء الجيّدةُ والحسنةُ في الدين؛ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، حيث إنّ الخبائث عبارة عن تلك الأشياء السافلة المنحطّة، فيتمّ تحريمها وحرمان الناس منها وتقصير أيديهم عن الوصول إليها، وهذا هو ديدن المجتمع الإسلامي.

وفي المجتمع الإسلامي، إنّ جميع الأشياء التي تكون لصالح الإنسان وفكره وقلبه وروحه وجسمه توضع في متناول أيدي الجميع، كالعلم والمعرفة والتقوى والمال، كلّ شيءٍ يكون مفيدًا ونافعًا للإنسان فإنّه يوضع في متناول الجميع، وأمّا ما يكون سيّئًا للإنسان فلا ينبغي أن يكون في متناول أيّ إنسان، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ إمّا أن تكون بمعنى منع عرضها أو بمعنى إخراجها من متناول الأيدي من خلال القوانين الإلزاميّة.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة والأوزار، فمن خصائص النبي أن يضع أوزار الجهالة وأوزار العادات والأعراف المغلوطة، والأنظمة المنحطّة وغير الإنسانيّة، وأوزار كلّ أنواع الديكتاتوريّة والاستبداد والتسلّط والاستغلال [عن الناس]. ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ تلك القيود والسلاسل التي كانت



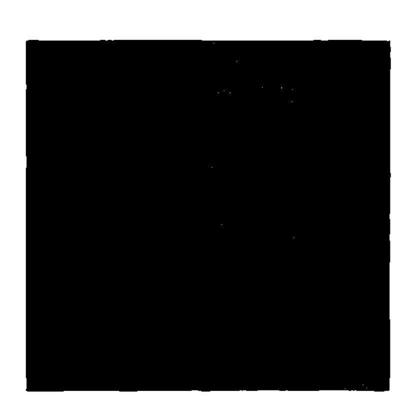


تقيّد أقدامهم تتفكك وتُحلّ. وهل كانت هذه السلاسل والقيود موجودة في الأرجل؟ وهل أنّ النبي عندما بُعث جاء إلى أهالي مكّة جميعًا فوجدهم مغلولين، أي كانت الأغلال في أعناقهم؟ وهل كان الجميع سجناء؟ حسنٌ، من الواضح أنّ القضيّة لا ترتبط بالأغلال والسلاسل المعدنيّة. نعم كان هناك أغلال وسلاسل، لكن عليك أن تفكّر بنفسك وتعرف ما هي. إنّها أغلال وسلاسل تأسر الناس من خلال فرض ما ينبغي أن يستمعوا إليه، ومن خلال فرض الأعراف والسنن من قبل الناس أنفسهم. هنا، يأتي النبي من أجل أن يحلّها ويضعها عنهم؛ بالطبع، إنّ هذا لا يحدث إلّا في ظلّ تشكيل النظام الإنساني والتوحيدي. ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾، المؤمنون هنا يعظّمون النبي ويجلّونه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ والنور الساطع المبيّن هنا هو نور القرآن النازل وهم يتّبعونه ويلحقون به، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فلهم الفلاح والنصر والوصول إلى الهدف والمقصد.

الجلسة الثامنة عشر

أوّل ترانيم الدعوة

الأحد، ١٩ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

[سورة **النحل**، الآية ٣٦]



إنّ هدفنا من بحث اليوم هو الإجابة عن السؤال الذي يرتبط بماهيّة وطبيعة الترانيم الأولى لدعوة الأنبياء. وفي ظلّ الأبحاث التي سبقت، اتّضحت، لكلّ من كان متوجّهًا ودقّق في هذا المطلب، طبيعة أعمال وأدوار الأنبياء في هذا العالم، وما هو الهدف الذي جاؤوا من أجله، وكيف كانوا يتابعون عملهم، وكيف كانوا يؤمّنون مستلزمات تحقيق أهدافهم.

ففي البداية، يكون الأمر مرتبطًا بالهدف من الدور الذي يقوم به الأنبياء والفائدة المرجوّة من مثل هذا الدور الذي يقومون به وكيفيّة تأمين ما يتطلّبه هذا الدور الذي جاؤوا من أجله.

أمّا البحث في هذه الجلسة، فهو يدور حول سؤال يطرح بعد أن حدّدنا طبيعة العمل والدور الذي يريد الأنبياء الإلهيّون العظام أن يضطلعوا به، أي إيجاد الحكومة والمجتمع والنظام التوحيدي والقضاء على النظام الجاهلي والشرك وإيجاد البعثة العظيمة في قلب المجتمع، وهو: من أين تبدأ هذه الأعمال التي تُعدّ هدف الأنبياء؟ إنّ قضيّة نقطة البدء تُعدّ قضيّةً مهمّةً جدًّا. ففي جميع الأنشطة والفعاليّات التي يقوم بها الإنسان أو أيّة جماعةٍ أو مجتمع -





حيث يُطرح العمل الفلاني الذي ينبغي أن نقوم به أو ذاك المشروع الذي ينبغي أن يُنفّذ أو ذاك البرنامج الذي ينبغي أن يُطبّق؛ يبرز مثل هذا المطلب بالنسبة لهذه المجموعة، أو غيرهم ممّن تنتمي إلى الفكر الفلاني أو المسلك الفلاني أو حتّى تلك الأمّة، أو أحيانًا بالنسبة لفردٍ واحد - فإنّهم يتساءلون عن نقطة بدء العمل الذي يرتبط بهذه المبادئ والأعمال المهمّة التي تبرز، ويكون هذا السؤال من أهمّ القضايا المطروحة في البين، فإنّ نقطة الشروع هي قضيّةٌ مهمّةٌ جدًّا.

فلو أنّ نقطة البدء عُيّنت بشكلٍ صحيح واختيرت في محلّها، فإنّ أمل الوصول إلى النتيجة وتحقيق المطلوب من هذا المشروع أو البرنامج يصبح كبيرًا؛ أمّا لو تمّ اختيار النقطة الخاطئة، لا يعني عدم الوصول إلى المقصد، وعدم تحقّق الهدف من هذا العمل. كلا، من الممكن أن يتحقّق الأمر، ومن الممكن أن يصل إلى هدفه، لكنّ الوصول سيكون صعبًا وشاقًّا. ولهذا، تكون نقطة البدء من هذه الجهة مهمّةٌ جدًّا، حيث إنّها ستكون متكفّلة وضامنة لنجاح ذلك العمل إلى حدٍّ كبير وبنسبةٍ عالية، أي فيما لو تمّ البدء من النقطة الصحيحة. وبشأن عمل الأنبياء نقول أوّلًا، إنّ التعرّف على قيمة أعمالهم توجب علينا أن نتعرّف على نقطة البداية فيها. فما أجمل أن نتعرّف على هذه القضيّة عن طريق المعرفة الكاملة بمجال عمل الأنبياء. وهو الأمر الذي نودّ أن نحقّقه، ونسأل: من أين بدأ هؤلاء الأنبياء؟ وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الأمر سيكون عبرةً بالنسبة لنا، فلو أنّنا شاهدنا أنّ الأنبياء يتصرّفون وفق نهجٍ خاص وأسلوبٍ معيّن دون استثناء، فإنّ هذا الأمر يمكن أن يكون درسًا لنا، وذلك لأنّنا أتباع الأنبياء والسالكون خطاهم والسائرون على دربهم.



لهذا، فإنّ الأمر مفيدٌ من عدّة زوايا وهذا ما يحتّم علينا أن نتابع القضيّة إلى نهايتها. وقد سبق أن ذكرنا أنّ بدء عمل الأنبياء الإلهيّين العظام هي عبارة عن بيان لبّ وأساس وروح مذهبهم. فالأنبياء لا يجاملون الناس أثناء البدء بالثورة والبعثة الاجتماعية والعقائديّة أبدًا. إنّ الأنبياء لا يمكن أن يستعملوا أسلوب المراوغة مع الناس ولو لمدةٍّ معيّنة، فيطرحون عليهم كلامًا مختلفًا أو شعارات مغايرة، ثمّ بعد انقضاء هذه المدّة وبعد أن يحقّقوا بعض النجاحات يبدأون بطرح ذلك الشعار الأساسي! كلّا، فهم يتصرّفون ومنذ البداية بكلّ صدقٍ ودقّةٍ وصلاح، ويبيّنون أهدافهم الواقعية والنهائية؛ فما هي هذه الأهداف؟ إنّ تلك الأهداف هي عبارة عن التوحيد.

وكما بيّنّا، فإنّ التّوحيد هو كلّ شيءٍ في مدرسة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. إنّ التوحيد ومعرفة اللّه هما أساس التكامل والرقيّ لروح الإنسان وهو الهدف الأعلى والأسمى للأنبياء، بل هو الهدف النهائي أيضًا. وقلنا إنّ أطروحة التوحيد هي عبارة عن إيجاد البيئة الإلهيّة وتحقيق المجتمع والنظام الإلهيّ، النظام العادل غير الطبقي والنظام الذي لا يوجد فيه استغلال أو ظلم؛ هذه هي البيئة المناسبة التي تحدّثنا عنها في الأمس كضرورة لتربية هذا الكائن الإنساني.

ففي مدرسة الأنبياء ومنهجهم، يعدّ التوحيد كلّ شيء. التوحيد يؤمّن الهدف النهائي والغائي للأنبياء؛ إنّه الاعتقاد بتوحيد اللّه ووجوده ووحدانيّته؛ وقلنا أيضًا إنّ تلك البيئة الضرورية لبناء الإنسان وصناعته، والمصنع الذي ينبغي إيجاده ليخرّج الإنسان الحقيقي، هو عبارة عن التوحيد الذي يُعدّ أفضل وأبلغ شعار؛ وذلك لأنّ المجتمع التوحيدي هو المجتمع الذي لا يكون فيه سيادة

وربوبيّة لأحدٍ إلّا اللّه. وفي هذا المجتمع، لا يُعبد ولا يُطاع إلّا اللّه؛ ولا يحقّ لأحدٍ، بل لا يوجد، في هذا المجتمع التوحيدي من يفرض التشريعات والتكاليف على الآخرين. ففي المجتمع التوحيدي، لا يوجد من يدعو الناس إلى طاعته حتّى لو كان نبيًا، حتّى النبي الذي هو خليفة اللّه، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾[1]، إلى آخر الآية؛ وهذا الخطاب الذي يتوجّه من قبل اللّه تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشير إلى تنزيه الربّ المتعال عن أيّ تعليمٍ خاطئٍ أو تربيةٍ غير صحيحة يمكن أن يقع فيها النبي تجاه قومه؛ فالنبي الذي يعتصم باللّه لا يقول إلّا الحقّ، ولا ينطق إلّا بالأمر الصحيح.

ويوجد آيةٌ أخرى في هذا المجال لعلّها أكثر تناسبًا مع ما نحن بصدده، وهي التي تقول بأنّه لم يكن هناك من نبي أو لا يوجد نبي يحقّ له أن يقول للنّاس كونوا عبادًا لي. ولو أردتم، يمكنكم أن تتعرّفوا عليها من خلال معجم كشف الآيات، فلا يحقّ لأحدٍ من الأنبياء أن يقول للناس إنّ عليكم أن تعبدوني وأن تصبحوا عبيدًا لي. بالطبع، من الواضح جدًّا أنّ النبي لا يصرّح أبدًا ولا يقول للناس أيّها الناس كونوا عبيدًا لي؛ بل المقصود أنّه لا يحقّ لأيّ نبيٍ أن يدعو الناس إلى طاعته بدون قيدٍ أو شرط، وهذا يعني أنّ الحقّ يكون للّه فقط. فإذا كان الأمر بالنسبة للنبي هو كذلك، فإذا كان العبد الذي اصطفاه اللّه لا يمتلك الحقّ ليتصرّف في نطاق حكومة اللّه وملكه، وإذا كان حامل رسالة الوحي الإلهي غير قادرٍ على دعوة

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١١٦





الناس إلى طاعته بغضّ النظر عن اللّه، فإنّ حال من سواه سيكون واضحًا ومعروفًا. إنّ القوى السياسية والاستبداديّة عبر التاريخ، التي فرضت نفسها بالقوّة على مدى عمر البشريّة وهي الفترة الممتدّة الطويلة وكلّفت الناس وألقت على عاتقهم التكاليف، قد تصرّفت من الناحية العمليّة خلافًا للتوحيد. والتوحيد يرفض كلّ هؤلاء، هذا هو المعنى الدقيق للتوحيد. وأكرّر إنّ معنى التوحيد هو هذا الشيء. وإذا كان هناك من لم يفهم هذا الأمر من التوحيد، فمن المحتّم أنّه لم يُطالع حول هذه القضيّة أو أنّه لا يمتلك الفهم المطلوب، لأنّها تُعدّ من واضحات التوحيد القرآني: التوحيد في العبادة والتوحيد في الطاعة، وهو ما أشرت إليه بصورةٍ مختصرة في بحث التوحيد سابقًا. إنّ الأنبياء عندما يدخلون إلى أيّ مجتمعٍ، فإنّهم بمجرّد أن يقولوا «لا إله إلّا اللّه» يصبح كلّ صديقٍ أو عدوٍّ مطّلعًا على القضيّة وماهيّتها. التفتوا جيّدًا، إنّ القضيّة غاية في الأهميّة.

إنّ أهميّة القضيّة هي هنا، ونلاحظ وجود حساسيّة وإدراك للناس في زمان الأنبياء لهذه القضيّة واختفاء هذا الإدراك فيمن أتى بعدهم في الأزمنة اللاحقة، كحالنا أنا وأنتم، فما هي علّة هذه القضيّة؟ إنّ الأنبياء بمجرّد أن جاؤوا، ومنذ الخطوة الأولى التي خطوها، تشخّص أصدقاؤهم وأعداؤهم. فنبينا، ومنذ اليوم الأوّل الذي جاء فيه من جبل النور وغار حراء ونزل إلى ذلك الوادي غير ذي الزرع، والذي كان بمنزلة مقبرة الفضائل، قرّر أن يذهب إلى [الناس] ويتلو عليهم ترانيم التوحيد العذبة. ومنذ اللحظة الأولى، قرّروا أن يعارضوه ويواجهوه، وقد اتّخذت تلك المعارضات أشكالًا مختلفة. لقد تمّ تشخيص أعداءه منذ البداية ومنذ اليوم الأوّل.






لقد عرف أولئك الذي كانوا يريدون أن يقمعوا الرسول أنّ عليهم أن يفعلوا ذلك ولم يكن الأمر مخفيًّا على أحد. وفي المقابل، فإنّ كلّ من كان من تلك الشريحة التي يجب أن تؤمن - حيث كان إدراكهم وشعورهم وفهمهم وتوفيقهم أكثر - كان إدراكه منذ البداية وفهمه على أوّل الطريق لما كان يقوله النبي أو يدعو إليه أسرع من غيره. بناءً عليه، فمنذ بداية بعثة نبينا، كان الأصدقاء والأتباع وأولئك الذين كان يحيطهم ويعمل من أجلهم معروفين؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأعداء، أي أولئك الذين كان على النبي أن يواجههم، فقد كانت كلّ طائفةٍ منهم تدرك جيّدًا ماذا كان يقول النبي في هذا العالم وماذا أراد أن يقول. إنّ هذا الكلام الذي لا أفهمه أنا وأنت يا صاحب الجناب العالي بعد كلّ هذه الفترة - بحيث يجب علينا أن نجلس سويًّا، وأقوم أنا بشقّ النفس والصراخ من أجل أن أبيّنه لكم، وهو من الواضحات الإسلامية؛ وأنا لا أقول إنّ هذه المطالب والمسائل [تُطرح] لأوّل مرّة، ولكن على كلّ حال هي جديدة وغير مسبوقة أو أنّها لدرجةٍ ما غير مسبوقة مقارنةً بالكثير من المطالب الأخرى - إنّ هذا المطلب الذي يجب علينا الآن أن نتوقّف عنده ونتحدّث معكم بشأنه من أجل أن نثبته ونستدلّ عليه ونوضحه، لقد كان مطلبًا يفهمه ذلك الأعرابي الذي يعيش في الصحراء، أو ذاك الذي يعيش في المدينة أو في الحضر في زمان بعثة النبي من أوّل جملةٍ.

ها نحن اليوم نحتاج لأن نتحدّث إليكم ونقول إنّ روح التوحيد هي عبارة عن نفي كلّ نوعٍ من أنواع القوى، أو كلّ سلطة إلّا سلطة الربّ. لقد فهم أبو لهب هذا المطلب منذ بداية البداية، وكذلك أدركه كلٌّ من الوليد بن المغيرة المخزومي سيّد قريش،



وأبو جهل[١]، الذي يُعدّ أيضًا من سادة قريش، كذلك أميّة بن خلف[٢] وغيرهم وغيرهم، وكلّ سادة قريش أدركوا ذلك منذ البداية وفهموا أنّ القول بأنّ «لا معبود سوى اللّه» لم يكن مجرّد دعوةٍ إلى قضيّةٍ اعتقاديّةٍ بحتة، بل هو دعوةٌ إلى مسألةٍ اجتماعية.. ممّا يعني بالنسبة لهم أنّ أميّة بن خلف لن يكون كما كان، وكذلك الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل[٣]، وفلان وفلان وفلان.. وكلّ زعماء قريش. هذا ما فهموه وأدركوه منذ البداية؛ ولأنّهم عرفوه، فقد انبروا إلى معارضته ومواجهته.

فهل كنتم تتصوّرون أنّ علّة مخالفة كفّار قريش وزعماء الكفر والضلال للنبي، هي أمرٌ آخر غير أنّهم كانوا يرون مقاماتهم وموقعيّتم الاجتماعية في خطر؟ هل أنّ قلوبهم كانت تتحرّق لتلك الأصنام!؟ هل كانوا مؤمنين بتلك الأوثان لهذه الدرجة؟ نحن لم نرَ ولا حتّى مرّةً واحدة في الطبقات الاجتماعية العليا، وفي أيّ زمنٍ

---

(١) أبو الحكم عمرو بن هشام والذي سمّاه النبي أبو جهل، كان له الكثير من الأفعال من أجل منع انتشار الإسلام ومنها مؤامرة قتلَ النبي الأكرم وتوزيع دمه على القبائل. وقد قُتل مع مجموعة من زعماء الشرك في معركة بدر.

(٢) أميّة بن خلف رئيس عشيرة بني جُمح من قبيلة قُريش، ومن أصحاب النفوذ في هذه القبيلة. دعا الناس لمواجهة النبي في بداية دعوته وأذيّته وتعذيبه وتعذيب المسلمين. وهو الذي قام بتعذيب بلال الحبشي غلام أميّة بعد أن أسلم، وقد قُتل مع أحد أبنائه في معركة بدر.

(٣) العاص بن وائل بن هشام السهمي، من بني سهم القريشيّين، وهو من المخالفين الأشدّاء والمعادين لنبي الإسلام، وهو الذي قال عن رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ عندما تُوفّي ابنه القاسم بأنّه الأبتر، وقد أنزل اللّه به تعالى سورة الكوثر، وذُكر أنّه والد عمرو بن العاص وزير معاوية.





من الأزمنة، أشخاصًا مؤمنين واقعيين تتحرّق قلوبهم من أجل الدين وهم مستعدّون لأن يضحّوا من أجله ومن أجل المقدّسات، مهما كان هذا الدين ومهما كانت هذه المقدّسات؛ وأيّ شخصٍ كان قد قال ذلك على مرّ الزمن، فإنّه يكون قد قال هذا الكلام عن غير وعي، لأنّ التجربة قد أثبتت بأنّ قوله غير صحيح. ففي تلك الطبقة التي كان أمثال العاص بن فلان، وأميّة بن فلان، والوليد بن فلان من أبنائها، لا معنى من الأساس وجود أشخاصٍ متعلّقين ومنتمين ومتمسّكين بدينهم إلى هذا الحدّ بحيث يعارضون النبي ويتمرّدون عليه ويخالفونه ويواجهونه بسبب قيامه بالتجرّؤ على أصنامهم؛ لأنّهم لا يمتلكون مثل هذا الإيمان القوي من الأساس ولا يمكن أن يمتلكوه. بالطبع، كان هناك نوعٌ من الاعتقاد أو التعصّب، إلّا أنّ القضايا الاجتماعية كانت بالنسبة لهم أهمّ من كلّ شيء وأعلى. لقد شاهدوا أنّ التوحيد سوف يدّمر قصر سيادتهم ورئاستهم؛ ورأوا أنّ نفي الآلهة والأرباب، أي إيجاد المجتمع التوحيدي، يعني أن تكون الحكومة منحصرةً باللّه، وكذلك أن تكون الطاعة منحصرةً باللّه.

لقد شاهدوا أنّ التوحيد يعني المساواة بين الناس مقابل ربّ العالمين؛ وكانوا يدركون أنّه لو أقيم المجتمع والنظام والأفراد على أساس التوحيد فلن يكون في ذلك المجتمع أيّ تمييزٍ أو اختلافٍ طبقي أو ظلم؛ ولأنّهم فهموا كلّ ذلك وأدركوه، فلم يكونوا مستعدّين أبدًا أن يتقبّلوا هذا النظام أو ينسجموا معه، وقاموا بمعارضته ومخالفته؛ وكان فرعون يمثّل أحد هؤلاء، وكذلك نمرود الذي يشبههم، وكذلك كان زعماء بني إسرائيل في زمن عيسى، وهو ما جرى أيضًا في عادٍ وثمود. وفي المقابل، جرى ذلك كلّه مع جميع الأنبياء الذين ذكرهم القرآن وتحدّث عنهم وصار وثيقةً

متقنةً ومحكمةً. فعندما كان النبي يدخل إلى المجتمع ويقول إنّه لا ربّ ولا معبود إلّا اللّه، وكانت تلك كلمته الأولى، فبمجرّد ما كان ينطق بهذه الكلمة حتّى كان يتقرّر أن يحصل الاصطفاف وتتشكّل الصفوف المتقابلة وتبدأ المخالفة والمعاداة حتّى ولو استلزم ذلك القضاء عليه وإبادته، وقد انجرّ الأمر في بعض الموارد إلى إعدام النبي والقضاء عليه.

فأوّل ترانيم دعوة الأنبياء ونقطة بدء أعمالهم، إذًا، هي إعلان التوحيد، أي الإعلان عن الكلام الأخير. وقد كانوا ينطقون بآخر كلمة منذ البداية. أمّا المذاهب والأحزاب السياسية في العالم وكلّ أولئك الذين ليس لهم أيّ ارتباط باللّه وبالدين، فإنّه ليس لديهم حرج من أن يجمعوا الناس حولهم لفتراتٍ زمنيّة ويشغلونهم طوال تلك المدّة بشعاراتٍ جوفاء ويلهونهم بها، ويمنّونهم لسنواتٍ طويلة بتلك الأماني العريضة، ثمّ بعد ذلك نرى في النهاية أنّهم لم يكونوا، ومنذ البداية يقصدون ما أعلنوه، وأنّ كلّ ما كانوا يدّعونه كان يدور حول أمورٍ ليس لهم دخلٌ بها. أمّا الأنبياء في المقابل، فقد كانوا يبيّنون ما يريدون بكلّ صدقٍ وصفاءٍ وحسن نيّة، وكانوا يطرحون على الناس ومنذ البداية ما هو مقصودهم الحقيقي، وكانوا يوصلون ما يريدونه إلى تلك الطبقات العليا مثلما أنّهم كانوا يوجّهون خطابهم إلى الطبقات الدنيا؛ كانوا يقولون ومنذ البداية: يا فلان إنّنا نريد أن ننزل أولئك الذين استعلوا إلى الأسفل وأن نرفع من كانوا في الأسفل إلى الأعلى لنجعلهم متساوين، لقد كانوا يقولون كلّ ذلك منذ البداية.

فما هي الفائدة المرجوّة من مثل هذا النوع من الخطاب يا أيّها السيّد؟ فما هو العيب في أن يؤخّر الأنبياء الناس ويؤجّلوهم






في البداية، ويشغلوهم بأمورٍ وكلماتٍ جوفاء لمدّةٍ معيّنةٍ، ويظهروا للناس أمورًا لا يريدونها في الواقع، حتّى إذا تحقّق ما يريدون وتمّ ضمانة وصولهم إلى الهدف [بيّنوا لهم حقيقة ما يريدون]، فما المانع من ذلك؟ إنّ المانع في هذا الأمر هو أنّ الدين يتلازم مع الوعي والبصيرة. فلو أنّ الإيمان الديني كان إيمانًا أعمى وبعيدًا عن الوعي فلا فائدة منه؛ يريد الدين لكلّ من يتّبعه ولكلّ من يريد أن يدخل ساحته وبيئته أن يعلم منذ البداية ما هو طريقه الذي يسلكه وإلى أين ينبغي أن يسعى. العربي الذي كان يعيش في الصحراء والبعيد تمامًا عن كلّ ما يحدث حوله، عندما كان يأتي إلى النبي ويسلم بين يديه، فإنّه كان يعلم منذ الساعة الأولى ماذا سيكون، وأنّه لا يسير وراء شيءٍ مجهولٍ مطلقًا، وكان يفهم من النبي ماذا يريد منه، وهذا ما كان يجعله قادرًا على أن يصبر ويتحمّل ذلك المستوى بعدها. فبسبب ذلك الوعي والإدراك ولعلمه بما كان يفعل، كان قادرًا على تحمّل كلّ تلك العذابات والآلام والصعاب. وهكذا، كان الأمر دائمًا في كلّ الصراعات والمواجهات والنزاعات وعلى مرّ التاريخ وفي كلّ أماكن العالم، فعندما يقدم أيّ شخص على أمرٍ ما، وهو لا يمتلك الوعي الكافي بشأنه، ولا يعلم ماذا يريد، ويجهل الهدف أو المعشوق الذي يسعى نحوه، فإنّه سيُصاب بالإحباط أو التعب منذ اللحظات الأولى؛ وهذا أمرٌ طبيعيٌ جدًّا.

يوجد هنا مجموعةٌ من الناس يركضون بكلّ حماسٍ وشوقٍ، وأنت يا صاحب الجناب العالي تمشي في الشارع دون هوادة أو قصد وتراهم يركضون فتركض. حسنٌ، فبعد أن تمشي عدّة خطوات، يحقّ لك أن تسأل نفسك، وبالتأكيد سوف تفعل: حسنٌ، لماذا أركض معهم؟ وإلى أين أسير؟ لقد ركضت ربّما لمدّة ساعة



حتّى تعالى لهاثي، فما هي نهاية هذا الأمر؟ ولا شكّ بأنّ مثل هذا التفكير سيوجد في نفسك وهنًا، بينما هم يعلمون إلى أين يتّجهون. فافرضوا، على سبيل المثال، أنّهم كانوا مسافرين وقد انطلقت حافلتهم قبلهم وهم الآن يركضون خلفها، أو أنّهم يركضون من أجل الوصول إلى تلك البضاعة الموجودة في الدكّان الفلاني، فالهدف بالنسبة لهم واضحٌ، فهؤلاء لن يتعبوا ما داموا لم يصلوا إلى ذلك الهدف، وإذا شعروا بالتعب، فإنّهم سوف يجبرون أنفسهم على تحمّل المشقّات حتّى يصلوا. وهذا، بالطبع، يرتبط بأهميّة الهدف بالنسبة لهم. أمّا أنت الذي لا تعرف لماذا تركض، ولا تعرف ما هو هدف أولئك الراكضين، وإنّما بدأت بالركض معهم جُزافًا وعبثًا، فإنّك وبعد مدّةً من الركض ستتوقّف فجأةً وتفكّر في نفسك، وفي حال لم تفكّر في ذلك، فهناك من سيأتي ويلقي في ذهنك وروعك مثل هذه الأفكار التي تتساءل حولها: لماذا؟ ولأيّ هدف؟ ومن أجل أيّ إنسان؟ وعندها، وفي مثل هذه الحالات، سيهمد الإنسان؛ اللّهم، إلّا إذا كان عالمًا ويتحرّك على أساس البصيرة.

وهذا هو الشيء الذي بسببه نرى شابًّا يركل بقدمه كلّ الاشياء التي لها كلّ هذه الأهميّة والشأنيّة عند الشباب، نراه وقد أعرض عن كلّ راحة وهناء وكلّ ما يجلب له الدعة ولا يأسف على شيء. ها هما ياسر وسمّية، ذلك الرجل وتلك المرأة، ذلك الأب وتلك الأمّ، هذان المسلمان النموذجيّان اللذان قد ضحّيا بكلّ تلك الأشياء الجميلة في الحياة وقدّما النفس - والد عمّار ووالدته - فما أعلى وما أسمى مثل هذه الحياة! وسبب ذلك أنّهما في هذا الأمر كانا على بصيرة.

وأنا قد قرأت مؤلّفًا فارسيًّا قبل مدّة بشأن عمّار وياسر لمؤلّفٍ





مصريّ، وأظنّ أنّه كان قبل سنتين أو ثلاث، ووجدتُ في هذا الكتاب خطئين، لكنّ الكتاب جاذبٌ جدًّا وجميل؛ اسمه الوعد الصادق؛ وهو كتابٌ في سيرة عمّار بن ياسر وأبيه وأمّه، ياسر وسميّة، وأظّن أنّه من تأليف طه حسين[١]، أو من تأليف أحد الكتّاب المصريّين وقد ترجمه السيّد أحمد آرام[٢] إلى الفارسيّة وكانت ترجمته جميلةٌ جدًّا. أيّها السّادة، اقرؤوا هذا الكتاب لترَوا كيف نفذ هذا الإيمان في قلوبهم على أساس البصيرة والإدراك والشعور. لقد تغلغل الإيمان على أساس ذلك إلى أعماق قلوبهم؛ ويصف [الكتاب] أحوالهم بصورةٍ رائعة وكيف أنّ إيمان ياسر أوصله إلى ما وصل إليه، وما وصل إليه عمّار، وكيف كان جهادهم، وكيف أنّ المرأة آمنت في البداية ثمّ جعلت زوجها يؤمن، ولم يحدث في نفوسهم أيّ نوع من الاضطراب والتزلزل. بالتّأكيد لو لم يكن الأمر عن بصيرة لما تحمّلوا.

إنّ السبب الذي يجعل الأديان تعلن منذ البداية عن الكلام الأخير وتبيّنه، فتعلن منذ البداية عن أهدافها وسبب نزولها ولا تقوم

---

(١) أديب وكاتب ومثقّف مصري، رغم إصابته بالعمى في طفولته نجح في أخذ شهادة الدكتورة من الجامعة الوطنيّة في القاهرة وجامعة السوربون، في فرنسا. ألّف العديد من الكتب، منها حول سيرة حياته تحت عنوان **الأيّام**.

(٢) السيّد أحمد آرام (١٢٨٣ - ١٣٧٧ ش.) أحد روّاد فنّ الترجمة الذي كان له دورٌ كبير في تقديم ترجمات أمينةٍ ومتقنة وقد درس الحقوق بعد تخرّجه من دار الفنون ولكنّه أعرض عن الحقوق واشتغل بدراسة الطبّ، ثمّ ترك دراسة الطبّ في السنة الأخيرة وشارك في الأنشطة الثقافية، كان من أوائل مؤلّفي الكتب الدراسيّة والتعليميّة وله حوالي ١٤٠ عنوان كتاب من اللغة الإنكليزيّة والفرنسيّة والعربية، ترجمها إلى اللغة الفارسيّة، ومنها المجموعة الروائيّة **الحياة**، **تاريخ العلم**، **التفسير في ظلال القرآن** وغيرها من المؤلّفات.





بالتعمية والتغطية على ذلك، هو من أجل هذا الأمر: وهو أن يدخل الناس المندفعين والمنتمين إلى الدين، إلى الدين عن بصيرةٍ ووعيٍ فلا يتلهّوا بأمورٍ عبثيّة. وهذا هو الذي يمثّل النقطة المقابلة تمامًا لما يُعمل عليه اليوم في عالم الدين. ففي عالم الدين، تُعدّ البصيرة والوعي جريمة [على مستوى] الإنسان المتديّن والإنسان المعادي للدين؛ والعجيب كيف أنّ هاتين الجماعتين، المتديّنة والمعادية، يصلان في بعض القضايا الدينية إلى نتيجةٍ واحدة. فكأنّ الإنسان المتديّن والإنسان المعادي للدّين آمنا معًا بأنّ الدين هو عدم الفهم، وأنّه يعني إغلاق العين والأذن وعدم التفكير من الأساس. فبالظاهر نقول ويقولون «متديّنين»، حيث إنّ أصول الدين اسدلالية، وفيها لا ينبغي لأحدٍ أن يقلّد أحدًا، ولكن هل لديك الجرأة لأن لا تقلّد؟ وهل لديك الجرأة لأن تبتعد قليلًا عن التقليد فيما يتعلّق بزاويةٍ من أمور الدين، حتّى ترى مباشرةً كيف أنّك ستتلقّى ضربةً قاضيةً؟ لقد صدّقنا جميعًا أنّ الدين يعني عدم البصيرة وعدم الوعي وفقدان الإدراك وإغلاق العين والتعبّد أثناء السير على الطريق، لأنّنا سمعنا ونعلم أنّ علينا أن نرجع في فروع الدين إلى المتخصّص، وأنّ علينا أن نحدّد المتخصّص ونتّبعه، فتصوّرنا أنّ الدين يكون في جميع قضاياه على هذا المنوال؛ في حين أنّ الأمر على العكس تمامًا من ذلك، والفرق بين هذين الأمرين هو زاوية تبلغ مئة وثمانين درجة.

إنّ الدين هو الوعي والبصيرة من الأساس؛ وهو لا يقول لأيّ أحد إنّ عليك أن تقبل فورًا ثمّ بعد ذلك اذهب وابدأ التحقيق. كلّا وأبدًا، ففي عالم الدين، لا يوجد مثل هذا الكلام. ولو فرضنا أنّك قد قبلت وسلّمت، فما لم يتحقّق هذا الأمر في قلبك، وما لم يكن عن وعي، فإنّك في الواقع لم تكن مسلّمًا أو مصدّقًا. ولو





أنّك قبلت الدين، فإنّ الدين ها هنا لا يكون قد قبلك ما لم يحصل الأمر عن بصيرةٍ ووعيٍ؛ وذلك لأنّ الدين قد جاء من أجل إحداث الوعي، وهو يولي هذا الأمر أهميّةً ويعتبره قيمةً. فالبصيرة قيمةٌ أساسية في الدين. ولهذا، فإنّ الدين يجعل الإنسان البصير في مقامٍ أعلى وأسمى، وذلك لأنّه يريد للجميع أن يكونوا ومنذ بداية توجّههم إلى اللّه متوجّهين إليه تعالى عن وعيٍ وبصيرة؛ ولأجل ذلك ومن أجل هذه الأهداف، كان الأنبياء يتطلّعون إلى هذا الهدف ويبيّنونه منذ البداية.

والمطلب الآخر الذي يمكننا أن نستنبطه ونستنتجه في هذا المجال، هو هذا: فما نستنتجه من هذا البحث هما موردان، أو ثلاثة موارد، أحدهما هو هذا الذي ذكرته وهو أنّ الدين يعتبر الوعي والبصيرة أصلًا ولا يتقبّل المسلم غير الواعي؛ والنكتة الثانية تتعلّق بأتباع الأولياء، أي أولئك الذين يعتبرون أنفسهم وارثي النبوّات لا العلماء فحسب - وإن كان العلماء ورثة الأنبياء حتمًا، لأنّ كلّ ربّانيّي العالم يُعتبرون بأحد المعاني ورثة الأنبياء، وكلّ من يسير على طريق التوحيد، وقد جعل التوحيد معادلةً أساسية، يكون هذا الإنسان تابعًا لإبراهيم وموسى وعيسى ومتّبعًا لجميع الأنبياء الأعزّاء والعظماء الآخرين عند اللّه - فإنّنا نسأل هنا عن الطريق الذي يريد أتباع الأنبياء أن يسلكوه، فما هي تلك النقطة التي يريدون أن يبدأوا منها والتي هي [بنظرهم] أفضل وأكثر قاطعيّة ونتيجة من تلك النقطة التي بدأ منها الأنبياء؟

لماذا لا نعرض عندما نتحدّث اليوم عن الدين هذا التوحيد من البداية؟ لماذا؟ إنّ هذا سؤالٌ يجب أن يُطرح. وهل يوجد شيءٌ آخر؟ هناك حيثما يجري الحديث عن الدين، نتساءل ما هي نسبة



التوحيد من هذا الحديث؟ ولماذا عندما نريد أن نجعل الناس متديّنين أو أن نجعل مجتمعنا أو عالمنا متديّنًا لا نبدأ من حيثما بدأ الأنبياء؟ نحن نريد أن نجعل أهل العالم يعتقدون بالإسلام، لكنّنا نسلك الطريق الذي لم يسلكه الأنبياء. يجب علينا أن نطرح التوحيد كما طرحه الأنبياء؛ وإذا لم نتمكّن من طرحه على مستوى العالم والدول، وإذا لم نتمكّن من إيجاد تلك البعثة - بالطبع إنّ الأمر لا يمكن أن يتحقّق بالسهولة - فعلى الأقلّ يمكننا أن نقول للناس على مستوى الدول وعلى مستوى العالم إنّ هدف الأنبياء ومقصدهم هو إيجاد تلك البعثة، فهذا ما يمكن أن نقوله، فلماذا لا نطرحه؟

لماذا نجد المتحدّثين عن الدين يقومون بطرح القضايا الفرعيّة وقضايا الدرجة الثانية والثالثة، عوضًا من أن يبدأوا بالتوحيد فكرًا وعملًا؟ إنّ هذه القضيّة تستحقّ الكثير من الاهتمام والتوّجه. غالبًا ما يُقال لنا: أيّها السيّد! إذا كان لديك اعتراضٌ على بعض الإعلام الديني والتبليغ الديني، فلماذا لا تطرح هذا الأمر مع المبلّغين أنفسهم؟ ونحن نجيب قائلين: أين يمكننا أن نجد المبلّغين؟ وأين يمكننا أن نجد أولئك الذين نطرح حولهم الإشكالات في كيفيّة الإلقاء والبيان؟ وما هي الضمانة التنفيذيّة لنصيحتنا الصادقة والخيّرة؟

وبالطبع إنّني أقول لكم هذا أيّها السادة الذين تشاركوننا في هذا المجلس، لأنّكم في الأغلب تعرفونني وأنتم مطّلعون على أفكاري وأبحاثي على نحو العموم، ومن الممكن أن يبدو الأمر جديدًا لعددٍ قليلٍ منكم في محفلنا هذا؛ وإلّا فإنّ أغلب الحاضرين هنا كانوا قد شاركوا لفترات طويلة في أبحاثنا في ذاك المسجد، وفي






هذا المسجد. إنّني أعتقد بشدّة بأصالة التبليغ الديني وبأصالة ولزوم وجود قادة الدين وهم علماء الشيعة العظماء؛ وأنا أحبّ العلماء كثيرًا وأعتقد بضرورة وجودهم، وأنّه لو لم يكن العلماء - بالطبع إنّ استخدام كلمة الروحانيّة أو الروحانيّين هو تعبيرٌ خاطئ لكنّه شائعٌ ومتداول، وأنا أقول إنّ مقصدي من كلمة الروحانيّين هو المجتمع العلمي والديني للشيعة أي روحانيّونا الأعزّاء الذين هم اليوم في هذا السلك وفي هذه الشريحة والطبقة - وإنّني أعتقد أنّهم لو لم يكونوا ولو لم يكن هذا المجتمع العلمي والمذهبي للشيعة لما كان اليوم من الإسلام خبر، ولكان حال المسلمين في أيّامنا هذه أسوأ من ذلك بكثير. وفي النهاية، من الضروري أن يكون هناك مجموعة عازمة على إدراك المعارف الإسلامية وبيانها، وهذا هو المجتمع العلمي والديني. فالشاب الفلاني، أو التاجر الفلاني، أو ذاك المتخصّص في فرعٍ من الفروع التي لا دخل لها بالأمور الدينية، بالطبع من الممكن أن يكون أحيانًا قد توجّه إلى هذا الفكر وقام بالتحقيقات وهو يقوم بعرضها وبيانها من خلال الكتابة، واللّه تعالى يؤيّد ويحفظ كلّ من يقدّم مثل هذه الخدمات للإسلام؛ لكنّه قد لا يكون عملًا مستمرًّا بالنسبة له، فهو هنا يكون هاويًا في هذا العمل بينما المطلوب أن يكون هناك شخصٌ محترف؛ من الضروري أن يكون هناك أشخاصٌ محترفون متخصّصون في هذا المجال، وعملهم متمركز في هذه النقطة، هؤلاء هم المجتمع العلمي والديني للشيعة أي (ما نسمّيه في إيران) الروحانيّون.

وبناءً على وجود هؤلاء وأصالتهم وضرورتهم، فبالنسبة لكم أيّها السادة الذين تشاركوننا هنا، يا أصدقائي الشباب، أنتم تعلمون أنّني لا أتحدّث انطلاقًا من العصبية، وإنّما انطلاقًا من رؤية الواقع،





فلا ينبغي أن يكون هناك أدنى شكّ. إنّ وجود وحدةٍ معيّنة (شريحة) باسم الروحانيّين (العلماء) أمرٌ ضروري بل من أكثر الأمور ضرورةً؛ لكنّنا نمتلك الحقّ، ونعطي لأنفسنا الحقّ، أن نقول هذا المطلب لأولئك الذين سلكوا هذا الصراط وتلبّسوا بهذا اللباس، مع أنّنا ضمنًا نذعن أنّ هناك مجموعةً منهم تعمل كما نريد. هناك مجموعة من الروحانيّين والمبلّغين هم في الواقع يعملون هكذا مثلما يجب وينبغي، وهناك مجموعةٌ أخرى موجودةٌ في مجال التبليغ لكنّها لا تلتفت من الأساس، وبأيّ نحوٍ من الأنحاء، أنّها في نقطة انطلاقتها في العمل لا تبدأ من حيث بدأ عمل الأنبياء؛ وبالنسبة لهم تكون القضايا التي هي من الدرجة العاشرة أو الدرجة الثامنة أو الدرجة الخامسة أكثر أهميّة وقيمة من قضيّة التوحيد ومن بيان القرآن وأصول الدين والمعارف الإسلامية السامية.

نجدهم مستعدّين للبحث لساعاتٍ في الصورة والحقيقة التي يكون عليها منكرٍ ونكيرٍ عند دخول الإنسان إلى القبر، وهل أنّهما يأتيان من جهة اليمين أم من جهة اليسار بالنسبة للمتوفّى؟! أم أنّهم يأتونه من الأمام؟! وما هي حقيقة هؤلاء؟ علمًا بأنّ قضيّة معرفة هذه الأشياء أو عدم معرفتها ليس لها ذرّة تأثيرٍ في كون الإنسان مسلمًا، وليس لها أيّ تأثيرٍ في العمل أو في تطبيق الالتزامات الإسلامية الموجودة عندنا، فها هنا لا يوجد أدنى تأثير؛ ومع ذلك يطرحون العديد من مثل هذه القضايا! ونجدهم أيضًا يطرحون هذه القضايا في عداد ضروريات الدين وكأنّها من القضايا التي تُصنّف من الدرجة الأولى في الدين، لكنّهم ليسوا مستعدّين أبدًا أن يتفكّروا في هذه القضيّة المرتبطة بالتوحيد وما يقترحه التوحيد كأصلٍ عقائدي بالنسبة لشكل المجتمع والنظام الاجتماعي! وهل






أنّ هناك أطروحة للتوحيد في هذا المجال أم لا؟ إنّ كلامنا ها هنا هو: أنّه يجب أن نجعل مثل هذه الأمور في الدرجة الأولى.

إنّ من الدّروس التي نستفيدها من عمل الأنبياء ومن نقطة شروع دعوة الأنبياء هو أنّ علينا أن نجعل نقطة شروعنا هي تلك النقطة التي بدأ منها الأنبياء. فلو لم نتمكّن من إنجاز بعثة الأنبياء فعلى الأقلّ يمكننا أن نقول إنّ بعثة الأنبياء هي هذه، وإنّ هدف الأنبياء هو هذا، وإنّ طريقه هو هذا، ونبدأ بالشرح؛ ونشرح الأمر لأنّه عملٌ نقدر على القيام به. فإذا جرى البحث حول نبي آخر الزمان، نجدهم يفضّلون تناول القضايا التي هي في عداد الدرجة الرابعة والخامسة من حياته الشريفة، مثل قضيّة عدم وجود ظلّ للسيّد رسول اللّه؛ أو يأتون بروايةٍ كما في خصال الصدوق أنّ رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عندما كان يمشي كان يرى من خلفه؛ وبالطبع إنّ المرحوم الصدوق عندما يذكر [هذه الرواية] يقول في تعليقاته: إنّ المقصود هو أنّ رسول اللّه كان شديد الذكاء والحذر والانتباه، مثل ذلك الإنسان الذي يرى دائمًا كلّ ما حوله. هناك البعض يسيرون خبط عشواء في الشارع ولو لحقهم إنسانٌ وبدأ يسير خلفهم بطريقةٍ استهزائيّة ويقلّدهم ولو لساعةٍ فإنّهم لا يلتفتون؛ فالبعض يعانون في هذا المجال ولا يدركون ما يجري خلفهم. أمّا الإنسان الذكي واليقظ، فإنّه يلتفت ويراقب كلّ ما يحيط به وينتبه لأدنى إشارةٍ أو حركة تحدث خلفه ويلتفت إليها، فالصدوق يقول إنّ النبي كان إنسانًا يقظًا جدًّا ورجلًا كيّسًا. هذا هو كلام الشيخ الصدوق، أي كلام عليّ بن بابويه القمّي، المحدّث الذي عاش قبل ألف ومئة سنة وكان من أكابر علماء الشيعة، والذي ما زالت كتبه منذ أكثر من ألف سنة وإلى اليوم في أوج الشهرة، فها هي عيون أخبار الرضا





وإكمال الدين ومن لا يحضره الفقيه، والخصال والأمالي وعشرات الكتب التي طُبعت لهذا العالم الجليل لحدّ الآن، كلّها موجودة وتُعتبر من المصادر الشيعيّة الكبرى. هذا الإنسان يقدّم وجهة نظره على هذا النحو. وهنا لا حاجة لي أن أبيّن إذا كان هذا الرأي صحيحًا أم لا، لكنّ أولئك مستعدّون لأن يتعرّضوا لهذا المطلب ولهذا الرأي ولنقده وللإتيان بالآراء الأخرى بشأنه والتعرّض لآراء المحدّثين الآخرين حوله والقيام بالبحث والتفصيل بشأن هذه القضيّة؛ لكنّهم غير مستعدّين للحديث عن الهدف الذي جاء النبي الأكرم لأجله من الأساس؛ وما هي أطروحته بشأن شكل المجتمع الإنساني؟ وما هي أقواله بشأن الحكومة؟ وما هو رأيه بشأن كيفيّة تربية البشر؟ وهل أنّ التربية الفرديّة كانت كافيةً بالنسبة إليه؟ أم كان يرى ضرورة تحقّق التربية الجمعيّة؟ فبالنسبة لهم إنّ ما لا يُطرح من الأساس هو هذه الأمور.

إنّ زماننا هو زمانٌ لا يتحمّل فيه العالم الإسلامي أي تأخير بشأن طرح هذه القضايا؛ فنحن لا نمتلك الكثير من الوقت في يومنا هذا؛ وفرصتنا محدودة في هذا المجال. فمريضنا اليوم يحتضر وقد حانت ساعته، وعلينا أن نقدّم كلّ ما هو أولى وأن نؤخّر كلّ ما كان أقلّ أولويّة ولو لذرّةٍ واحدة، فنؤخّره بهذا المقدار، إنّ الوقت والزمان بالنسبة لنا في هذا العصر شديد الأهميّة والأولويّة والحساسيّة.

أجل، اتركوا تلك الأبحاث المفصّلة والمسهبة في علم الكلام، بشأن خصائص المعارف التي تندرج ضمن المرتبة الثانية والثالثة والرابعة على مستوى القضايا الإسلامية واجعلوها لذلك الزمان الذي لا يكون لدينا فيه أعمال أخرى؛ وعلى الأقلّ بعد أن تكون





تلك الأعمال الأساسية والأولويّات قد عولجت أوّلًا؛ وكلامنا الأخير هو أنّك إذا لم تتقبّل نصيحتنا فعلى الأقلّ لا تنزعج من أنّنا قد نصحناك، فهذا أمرٌ آخر ها هنا. وإنّ أفضل الناس هو الذي لا ينزعج إذا ما نُصح.

بناءً عليه، فإنّ نقطة شروع دعوة الأنبياء هي التوحيد. وأذكر لكم ها هنا شاهدًا على هذه القضيّة من القرآن وأكتفي به لأنّني لا أريد أن أفصّل ها هنا، والشاهد هو من سورة النحل وآيته هي ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[١] وعلينا أن نتساءل: ماذا كان كلام هذا النبي أو دعوة هذا الرسول؟ إنّ رسالته وكلامه كانت عبارة عن ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فهذا هو أوّل كلام الأنبياء. فبمجرّد ما كان الأنبياء يُبعثون، ومن قبل أن يستريحوا من عناء الطريق، كان أوّل كلامهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

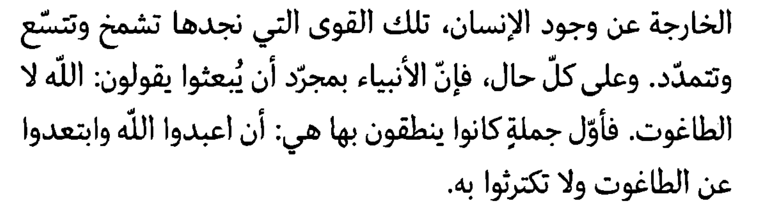
إنّ الطاغوت هو الذي يكون في عداد الأنداد والمنافسين للّه. فالطاغوت هو الذي يقف مقابل اللّه وأوامره مهما كانت هذه الأوامر وكأنّه يناطح ويواجه. وقد يكون الطاغوت في بعض الأحيان هو نفسك، كما جاء: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[٢]؛ وأحيانًا يكون الطاغوت هو قلبك الذي فيه كلّ تمريجٍ وسخط؛ وأحيانًا يكون الطاغوت هو هوسك في الليل والنهار، وفي بعض الأحيان، يكون طلب الجاه وحبّ الرئاسة عند الإنسان طاغوته، أو يكون تكبّر الإنسان طاغوته؛ كذا يكون الطاغوت هو تلك القوى

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

(٢) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء٣، الصفحة ١٨٤٨.





الخارجة عن وجود الإنسان، تلك القوى التي نجدها تشمخ وتتسّع وتتمدّد. وعلى كلّ حال، فإنّ الأنبياء بمجرّد أن يُبعثوا يقولون: اللّه لا الطاغوت. فأوّل جملةٍ كانوا ينطقون بها هي: أن اعبدوا اللّه وابتعدوا عن الطاغوت ولا تكترثوا به.

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أولئك الذين كُتب عليهم الضلالة وكذّبوا الأنبياء لا يمكن أن يتقبّلوا أيّة هداية منه؛ ولهذا نسأل عن عاقبتهم ومصيرهم. فانظروا إلى تلك الحضارات التي انقرضت وبادت، وانظروا إلى تلك الدول والقرى التي أُهلكت، وانظروا إلى بابل وآشور وكلدان[1]، كيف أنّها أُبيدت ولم يبقَ منها سوى الاسم يُذكر في صفحات التاريخ؛ وانظروا إلى قدرة فراعنة مصر كيف أنّهم ذهبوا بالمجتمع المصري كطيّ السجل للكتب! هذا ما يحدّثنا القرآن عنه. فانظروا إلى تلك الأمم والبلدان التي لم تستمع إلى دعوة النبي أو تتّبعه كيف كانت عاقبتها، فلقد حُكم عليها بالزوال. والكلام لا يجري ها هنا عن معجزةٍ، بالتأكيد كان هناك معجزات في الزمن الأوّل، لأنّه كان المطلوب أن يزولوا بسرعة، فلم يكن يصحّ أن يُتركوا على مرّ الدهور والأيّام حتّى يصلوا إلى الجحيم والهلاك مثل قوم عادٍ؛ فهناك كان ينزل العذاب عليهم كريحٍ عاصفٍ أو زلزالٍ أو طوفان أو أيّ شيءٍ يقضي عليهم ويبيدهم.

ولكنّ الأمر عمومًا سيبقى هكذا إلى آخر العالم، فأيّ مجتمعٍ أو أمّةٍ لا تتحرّك على منهج الدين ولا تسير وفق تعاليمه سوف

---

(١) بابل وآشور من الحضارات القديمة والتي وُجدت قبل الميلاد في منطقة ما بين النهرين. ومع أفول الحضارة البابليّة ظهرت الحضارة الكلدانيّة محلّها.






تزول أو تهلك؛ ولا يعني ذلك أنّ كلّ فردٍ من هذه الأمّة ينبغي أن يموت، كلّا، فإنّ هلاك الأمم يأتي بمعنى القضاء على تشكيلاتهم القوميّة؛ فقد تجذبهم قوّة أخرى، فيذوبون فيها ويتحوّلون إلى أجزاء في شعوبٍ ثانية، وتزول ملّتهم من الأساس؛ فهل يمكنكم اليوم أن تحدّدوا أين هي ملّة كِلدة؟ وهل يمكنكم أن تحدّدوا أين هي ملّة الآشوريّين أو ملّة بابل؟ فنحن نتساءل أين هي تلك الحضارات التاريخيّة الكبرى والتي ترجع الحضارات البشريّة الأولى إليها؟ أين أصبحت؟ وما هي أخبارها؟ ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. كانت هذه الآية من سورة النحل، والآن ننتقل إلى سورة الأعراف.

لقد طرحت سورة النحل المسألة على نحوٍ كلّي ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾. ففي هذه الآية، يُذكر أنّ جميع الأمم قد تكرّمت في بعثة رسول. أمّا في سورة الأعراف، فيُذكر الرسل واحدًا تلو الآخر، وتبدأ من نوح حيث يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[1] فانظروا كيف يدعوهم في أوّل الكلام إلى عبادة اللّه؛ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، لأنّه هو المعبود الحقيقي ولا يجوز لكم أن تعبدوا سواه، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ لكنّ قومه أجابوه قائلين إنّنا لا نؤمن بما تقول، وكذا وكذا، وما جرى عليهم من الطوفان؛ وكلّ هذه ليست محلّ بحثنا الآن، إلى أن يصل الدور إلى قومِ عاد.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[2]، يُعتبر قوم عاد من القوميّات

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٥٩.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٦٥.





القديمة والغابرة، ولعلّهم يرجعون إلى عصر ما قبل التاريخ، لأنّه لم يتمّ الكشف عنهم بنحوٍ صحيح ولم يتّضح ما هو الزمان الذي وُجدوا فيه سوى أنّهم كانوا بعد طوفان نوح؛ وهم يرجعون إلى أقدم الأزمنة والعصور. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾[1] يبدو أنّهم كانوا يصنعون بيوتهم داخل الجبال، ولا يستبعد المرء أن يكون ذلك راجعًا إلى نهايات العصر الحجري الذي تحدّث عنه بعض العلماء المادّيّين وأشاروا إلى أبعاده، فالمقصود ها هنا هو أنّهم من الأمم التي عاشت في قديم الأزمان؛ وكان لهم نبي يُدعى «هود» وقد قال لهم أيضًا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فتراه يحذّرهم من اللّه ويأمرهم بعبادته لأنّهم ليس لهم من إلهٍ سواه.

ولا بأس أن نرى ضمن هذا السياق مدى خطأ وبطلان فرضيّة أولئك الذين يقولون إنّ التوحيد أو الدين عمومًا إنّما يظهر على أثر الوضع الطبيعي للبشر، ويتشكّل على أساس الجهل الموجود عندهم، وأنّ الدين قد وصل بالتدريج إلى التوحيد؛ فيقولون إنّ أوّل الأقوام الذين ظهروا على الأرض كانوا مشركين وهذا كلام بعض علماء الاجتماع الذين يذكرون هذا الأمر جزافًا من دون تحقيق. فما أسوأ أن يتحدّث الإنسان دون تحقيق ودون بصيرة، كمثل ذلك الذي يريد على سبيل المثال أن يصف بناء مسجد الإمام الحسن المجتبى، لكنّه لم يقترب منه مرّةً واحدة في حياته، فيقرّر أن يصف ويقول: أجل، إنّني أرى مسجد الإمام الحسن بهذا النحو، وها هي الأحجار الرخاميّة تغطّي كلّ إيوانه، ويصف الثريات والمصابيح بنحوٍ ما، ويستحسن جمال تلك الجدران من حيث النقوشات والخطوط؛

---

(١) سورة **الشعراء**، الآية ١٤٩.






وهو لم يرَ مسجد الإمام الحسن ولكنّه سمع أنّ النّاس يأتون إليه كثيرًا فيفترضه أو يتخيّله بناءً على أحداثه؛ في حين أنّه عندما يدخل إلى المسجد سيرى أنّ الأمر خلاف ذلك، فهذا المسجد لا سقف له ولا جدار.

وفي القضايا المرتبطة بعلم الاجتماع، فإنّ أيّ إنسانٍ يتحدّث دون أن يتبصّر أو يطالع فحديثه سيخرج بهذه الطريقة وسيكون مدعاة للاستهزاء والسخرية. نجدهم يتحدّثون فيما يتعلّق بالقضايا المرتبطة بظهور الدين والمذهب وأمثاله من القضايا، ويتحدّثون عن التاريخ دون الالتفات إلى الأديان. حسنٌ، لعلّ هذا هو الدين الذي كان قبل عشرات آلاف السنين، هذا إذا اعتبرنا ذلك التاريخ المعروف في الروايات صحيحًا ومعتبرًا وحجّةً، لأنّه قد مرّ على هبوط آدم سبعة آلاف أو ثمانية آلاف عام، ولعلّ هذه القضيّة قد حدثت قبل ستّ أو سبع آلاف سنة على سبيل الفرض. ثمّ تجدهم يجعلون مثل هذا التاريخ بكلّ هذه التزيينات ويقولون إنّ الأمر كان في البداية على نحو الشرك والوثنيّة ثمّ ظهر التوحيد فيما بعد، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّنا نرى ومنذ قديم الأزمان ومنذ العصور الأولى بأنّ التوحيد كان موجودًا.

على كلّ حال، يقول تعالى لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فهو يريد لهم أن يفهموا التوحيد ويؤمنوا به. وهنا، ذكر ذلك الحوار والمحادثة التي جرت بين النبي هود وقومه؛ وسوف أقرأها هنا من القرآن وأترجمها بنحوٍ مختصر. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، لقد كان وجهاء قومه من الكفّار يقولون له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ فيستسخفّون عقله، ثمّ يقولون: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ - وقد كانت هذه ضمن التهم والأباطيل والظنون الكاذبة التي تُلصق





بدعاة الحقّ على مرّ الزمان؛ وأنا سوف أعرض ضمن أبحاثي حول النبوّة في آخر الفصول، ونتساءل حول التهم التي أُلصقت بالأنبياء وعن نوعيّتها وماذا كانت تتضمّن. ولا شكّ بأنّ هذا بحثٌ جانبي وهامشي - يقولون إنّك رجلٌ سفيهٌ ويتّهمونه بالجهل.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فها هو يكرّر كلامه الحقّ مقابل اتّهاماتهم وحديثهم البعيد عن اللياقة والأدب، ويقول لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾. فالّبليغ هنا يقتضي الإيصال وأنا لكم ناصحٌ أمين، فإنّني لم أطلب لكم سوى الخير، وما أريده هو كمالكم وتقدّمكم؛ لذلك فأنا أدعوكم إلى اللّه وإلى التوحيد. ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾ فهم يتعجّبون من أنّ مقام النبوّة قد أُعطي لشخصٍ عادي يلبس لباسهم ويعيش بينهم. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾، ها هو يأتي على قضيّةٍ تاريخيّة ويلفت أنظارهم إليها، ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ فقد جاؤوا من بعد قوم نوح الذين عصوا، ثمّ يقول: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]، فهذه نِعمٌ، منها ما يرتبط بالخلقة والهيئة والقدرة الإضافيّة والتي قد يكون ذكرها سببًا للتوفيق والنجاح والنصر.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ - وهنا انظروا كيف أنّ العدوّ يدرك مباشرةً ماذا تعني العبادة المنحصرة باللّه - ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ هل تريدنا أن نترك تلك الأصنام، سواء كانت أصنامًا فاقدةً للروح أو أصنامًا حيّة؛ ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وهم يطلبون

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٦٩.





أن يأتيهم ذلك الوعد والوعيد الذي كان يحذّرهم منه ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، فالرجس يكون في وجودكم، والغضب يكون من ناحية ربّكم، فيحيط بكم وينزل عليكم فتصبحوا نادمين. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ فهي أسماءٌ مجعولة وموضوعة لتلك الموجودات التي اصطنعتموها ومنحتموها القدرة، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، فإنّ اللّه تعالى لم ينزل عليها أيّ سلطانٍ، بمعنى أيّة قدرة أو أيّة حجّة؛ فالحجّة تعني الدليل والبرهان، والسلطان يعني القدرة. فيمكن أن يكون المقصود من السلطان كلا المعنيين؛ فأحد المعاني هو أن نقول إنّ اللّه تعالى لم يجعل أيّة حجّةٍ أو دليل على صحّة وصدق وثبات هذه الآلهة المعبودة من قبلكم، ولم يرسل لكم تلك الأرباب التي اصطنعتموها؛ والكلام الآخر هو أن نقول كلّا، إنّ اللّه لم يمنح تلك المعبودات أيّة قدرة، وها أنتم تجعلون هذه الموجودات العاجزة الضعيفة الذليلة التي لا تمتلك أيّة قدرة من جانب اللّه، تجعلونها إلى جانب اللّه، ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، فقال لهم ما قال ثمّ أنزل عذاب اللّه عليهم.

الجلسة التاسعة عشر

الجماعات المعارضة

الإثنين، ٢٠ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

[سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٢ و١١٣]



ذكرنا أنّ النبوّة هي بعثةٌ اجتماعية، وقلنا إنّ من أصول هذه البعثة هو ما يمكن أنِ نعبّر عنه بنفي الطبقية الاجتماعية، بمعنى أنّه في البيئة التي تصنعها وتهيّئها نبوّة رسول اللّه لا وجود لطبقات الضعفاء والعبيد والمساكين والمحرومين من جهة، ولطبقة أصحاب الأموال والمستبدّين والانتهازيّين من جهةٍ أخرى.

فبحسب اطّلاعنا على الإسلام، وكذلك على باقي الأديان السماويّة، فإنّه لا يمكن أن يُتصوّر أو يُفرض أن يكون هناك حالةٌ في الإسلام، يكون فيها شخصٌ غير قادرٍ على أخذ حقّه المشروع لكونه ضعيفًا أو لأنّه عاجزٌ وغير مقتدرٍ؛ فمثل هذا الفرض ليس من فرضيّات وجود الحكومة الإسلامية والتشكيلات التوحيدية والإلهيّة؛ لذلك يقول النبي محمّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ»[١]. فلو أنّكم شاهدتم إنسانًا ضعيفًا في مجتمعٍ من المجتمعات - لا يكون فيه ذلك الإنسان على رأس قدرةٍ ما أو سلطة أو في أيّ منصبٍ من

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٤٢٠.





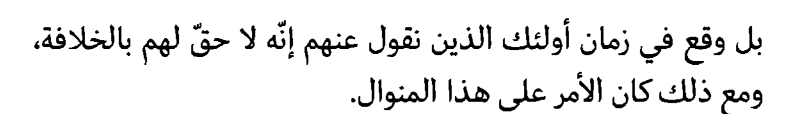
المناصب السياسية والاجتماعية - يكون فيه هذا الإنسان غير قادرٍ على أخذ حقّه من دون تعتعةٍ أو تردّدٍ في لسانه، فاعلموا أنّ مثل هذا المجتمع لن يكون مجتمعًا صالحًا وناجحًا وعزيزًا؛ بل لو تمكّن الضعيف من أخذ حقّه ولكن أخذه بتعتعة اللسان أي أصابه في لسانه تعتعةً أو احمرّت وجنتيه بدرجةٍ ما عندما ذهب إلى صاحب ذلك المنصب، فإنّ مثل هذا المجتمع غير نافعٍ. هل تتصوّرون أنّه لو أراد شخصٌ ما أن يأخذ نصيبه من الطعام، وكان فردًا من أفراد أسرةٍ ما، أو طفلًا في بيتٍ، فذهب إلى المطبخ أو اتّجه نحو الغذاء أو الطعام أو محلّ الأغذية، هل تتصوّرون بأنّه سيشعر بالخجل أو الحقارة أو الثقل؟ من المسلّم أنّه لن يشعر بذلك. وكذلك الأمر في ذلك المجتمع، فإنّ الوضع يكون على هذا المنوال أيضًا، هكذا يعلّمنا الإسلام ويذكّرنا فهو يريد للعمل أن يكون على هذا الأساس. إنّ الجميع [في مثل هذا المجتمع] يكونون بمثابة الأبناء في أسرةٍ واحدة، أو كالأعضاء لجسدٍ واحدٍ، من دون أن يكون هناك أي نوع من التفاوت والتمايز؛ أي أنّ في المجتمع الإسلامي، يكون للحاكم الإسلامي كأمير المؤمنين صلوات اللّه عليه من الحقوق ما يكون لأيّ فردٍ من أفراد الرعيّة وبنفس المقدار والدرجة.

إنّ أعظم المقامات في المجتمع الإسلامي لا يمكن أن تمنح أيّ إنسانٍ عادي القوّة والسلطة وجهوريّة الصوت. حتّى في ذلك الزمان الذي تغيّرت فيه مسيرة المجتمع الإسلامي، وبحسب عقيدتنا انحرفت عن محور الخلافة الإلهيّة والأساسية، أي ابتعدت عن محور إمامة أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامه عليه، لو قام ابن والٍ أو أيّ شخصٍ صاحب سلطة - [لا الوالي أو الشخص] بنفسه - بضرب إعرابيٍ في الصحراء في منطقةٍ بعيدةٍ عن العاصمة



الإسلامية، كان ذلك الأعرابي ينهض بكلّ همّة ويقطع تلك المسافة الطويلة ويأتي إلى المدينة من أجل الشكاية والتظّلم؛ وكان الخليفة يكتب إلى الوالي أن يأتي هو وابنه معًا، فلا يقول له ارسل لي ابنك حتّى يكون له العذر في الإجابة، فيقول إنّني في الواقع مريض؛ كلّا، فكان على الوالي وابنه أن يأتيا معًا، وعندما كان الخليفة يسألهما: لماذا ضربتما الأعرابي بالسياط وعذّبتماه؟ كان ابن الوالي يقول: يا أمير المؤمنين، أيّها الخليفة، قل له أن يأتي بالشاهد؛ فينهض [الأعرابي] ويقول إنّ شاهده هو أنّه تكبّد كلّ هذا العناء ليأتي من مصر إلى المدينة. فمن أين له أن يأتي بشاهدٍ من الصحراء؟ وكيف له أن يجد أربعة شهودٍ عدولٍ يشهدون على أنّك ضربته بالسياط في الصحراء؟ فعندما تضربه في الصحراء الخالية، ماذا يفعل؟ ولو أنّك لم تضربه، لما وُجد فيه هذا الدافع ليقطع كلّ هذا الطريق من مصر ويأتي ماشيًا إلى المدينة من أجل أن يشتكي إليّ. فاطرحوه أرضًا. وهنا، يطرحون ابن الوالي في المسجد على الأرض ويصدر القرار بأن يُضرب بالسياط؛ وبعد أن يقف هذا الابن، يقول الخليفة اطرحوا أبيه أرضًا أيضًا، وهنا يعلو صراخ عمرو بن العاص وضجيجه - لأنّه كان هو الوالي المقصود هنا - لماذا أنا؟ أنتم تقولون إنّه يجب أن تضربوا ابني، فلماذا تضربونني أنا؟ يقول: لأجل أنّ ابنك قد ضرب بسياطك واعتمد على سلطتك، فلو لم تكن أباه ولو لم تكن السلطة بيدك ولو لم تكن الحامي والداعم له، لكان ضرب رأسه بالحجر قبل أن يضرب هذا الأعرابي في الصحراء؛ فاطرحوه أرضًا. فمتى حصل هذا الأمر؟! لقد حصل عندما كان الإسلام قد انحرف في مسيره عن المسار الذي أراده اللّه تعالى، ولم يكن في ذلك الزمان الذي كان فيه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ممسكًا بزمام السلطة؛





بل وقع في زمان أولئك الذين نقول عنهم إنّه لا حقّ لهم بالخلافة، ومع ذلك كان الأمر على هذا المنوال.

حسنٌ، هذا هو المجتمع الإسلامي. ولم يكن قصدي من ذكر هؤلاء الذين ذكرتهم من أجل أن أقوم أنا بالاستنتاج من البحث الذي أطرحه اليوم، بل أن تقوموا أنتم بهذا الاستنتاج؛ أريدكم أن تصلوا إلى نتيجة ما هو مقرّرٌ أن أتحدّث عنه في بحثي - الذي سوف أذكره - قبل أن أتحدّث عنه. إذًا، هذا هو المجتمع الذي أراده الإسلام وغيره من الأديان التوحيدية التي وُجدت في العالم؛ أي ذلك المجتمع الذي لا يكون فيه الاستقواء والتسلّط وجمع الثروات إلى جانب كلّ أنواع الحرمان والمسكنة لطبقات المساكين. فأمير المؤمنين الذي يرتبط بهذا الدين وهذا المذهب يقول: «ما رأيت نعمةً موفورةً إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيّع»[١]. فلو كان الأمر قائمًا على تقسيم الثروات بصورةٍ عادلة، لما وصل السيّد راكفيلر[٢] إلى هذا الثراء الفاحش، فما ترونه عنده من هذه الثروة الهائلة إنّما كان لأنّه أخذ حصّة الملايين العشرة من الناس أو العشرين مليونًا بالإضافة إلى حصّته، وكدّسها وجمّعها فوق بعضها البعض.

المجتمع الإسلامي، من منظار منطق الأديان التوحيدية، هو مجتمع مثالي، مجتمعٌ لا يكون فيه إعمالٌ للقوّة والاستبداد

---

(١) محمّد مهدي شمس الدين، **دراسات في نهج البلاغة** (بيروت: دار الزهراء، الطبعة ٢، ١٣٩٢ه/ ١٩٧٢م)، الصفحة ٤٠.

(٢) جون راكفيلر، من كبار رأسماليّي أميركا. أسّس مركزًا حمل اسمه، وكان له تأثيرًا كبيرًا في أحداث العالم من خلال نفوذ التيّارات الصهيونيّة، وكان له ارتباط قريب بالشاه محمّد رضا.



واستخدامٌ لمنطق القوّة، [مجتمعٌ] لا يُسمح لأيّ فردٍ فيه أن يستخدم هذه القوّة أو منطقها. لو أنّ أحدًا أراد أن يحدث اختلافًا طبقيًا في مجتمعٍ بُني على أساس النظام الإسلامي، فإنّهم لا يسمحون له، لماذا؟ لأنّ هذا النظام هو نظامٌ قد أسّسه النبي. لعلّكم شاهدتم كيف أنّ الخيّاط الماهر عندما يخيط ثوبًا، وإن تمزّق هذا اللباس وأصبح في معظمه عبارة عن ثقوب، فإنّ درازته وخياطته لا تتمزّق ويبقى هيكل الثوب كما كان عليه، وهكذا هو الحال بالنسبة للمجتمع الإسلامي، فلقد قاموا بثقبه وخرقه من كلّ الجوانب، إلّا أنّ هيكله لم يتبدّل ولم ينقرض، لأنّ الذي خاط هذا المجتمع هو النبي نفسه. فيد رسول اللّه المقتدرة هي التي بنت هذا المجتمع وصاغته. فهو النظام الذي بناه النبي وصنعه اللّه كما يريد. النظام الإسلامي هو هكذا؛ لا يكون فيه الاستقواء والاستغلال والهيمنة؛ ولا يوجد فيه لأيّ إنسانٍ أو جماعةٍ حكومةٌ مطلقةٌ على غيرها من الناس. ففي مثل هذا المجتمع الذي يريده اللّه، والذي يقول فيه إنّ على الجميع أن يجتمعوا على أساس هذه الهيئة؛ لا يكون للجهل أو عدم الوعي أو عبادة الخُرافات [وجود]؛ وفي هذا المجتمع، يكون الجميع مجبورين وملزمين أن يفكّروا ويستخدموا عقولهم ويجدوا طريقهم كجماعةٍ، وعندما يجدون الطريق، يجب عليهم أن يسيروا عليه.

وفي مثل هذا المجتمع، يكون الجميع مكلّفين بالدفاع عن حقوق الضعفاء والمحرومين والمظلومين؛ ولا يحقّ لأيّ شخصٍ أن يقول: إنّني لا أكترث سوى لمصالحي، ولا أهتمّ إلّا بشؤوني، ولا أقوم إلّا بأعمالي، ولست مكلّفًا بأن أقوم أو أهتمّ بشؤون الآخرين، لأنّ الجميع في هذا المجتمع يمثّلون معًا أجزاء وأعضاء





جسدٍ وهيكلٍ واحد، فهل يمكن لأيّ أحد أن يقول مثل ذاك الكلام اللامبالي؟ وفي مثل هذا المجتمع، لا يوجد كسلٌ، ولا يوجد تفرّقٌ ولا اختلافٌ، ولا يوجد تعبّدٌ وتحرّكٌ أعمى وراء زيدٍ وعمرو وبكر؛ هذا هو المجتمع الذي أراد النبي أن يبنيه، فالتفتوا جيّدًا وتذكّروا خصائص المجتمع الذي أراد النبي أن يصنعه بيده المقتدرة وبوحيٍ وإلهامٍ وتعليمٍ من اللّه. والخصائص الكبرى والخطوط الأساسية لهذا المجتمع هي: وجود العلم والوعي، ووجود العدل والقضاء والطبقة الواحدة، ونفي الطبقية الاجتماعية، وإلغاء الاستغلال وتكديس الثروات، والقضاء على الاستبداد والحكومة المطلقة، ونفي حماية الباطل، والإلزام والإجبار باتّباع الحقّ والدفاع عن الحقيقة، هذه هي مشخّصات هذا المجتمع.

إنّ النقطة الأساسية في كلامي هنا، والتي ترتبط ببحثنا، هي أنّه لو جاء نبيٌ، رسولٌ إلى مجتمعٍ جاهليٍ وبلّغ دعوته، وأعلن عن أهدافه، وقال إنّني أريد صناعة هكذا مجتمعٍ وهكذا عالمٍ، وقال إنّني أريد أن أصيغ النظام الاجتماعي على هذا النحو، فمن هم الذين سينهضون في هذا المجتمع الجاهلي لمواجهة الرسول ومحاربته عندما ينطق بمثل هذا الكلام؟

لقد تحدّثت عن شكل المجتمع الذي يريد الرسول أن يصنعه. ومن الواضح جدًّا مَن هم أولئك الذين سيقومون بمعارضة الرسول ومحاربته؛ فأوّل من سينهض لمواجهته هم أولئك الذين يعتاشون من الاختلاف الطبقي، والذين يشكّل تمزيق وتفريق الناس أساس عيشهم، والذين يقومون باستغلال من يستطيعون بفعل ذلك، والذين يستفيدون من طاقات الأبرياء دون حقٍّ؛ فلو تقرّر أن يكونوا في صفٍّ واحد وطبقةٍ واحدة مع أولئك المحرومين، لما تمكّنوا من



استغلال أحد؛ فمن ذا الذي سيتمكّنون من استغلاله بعد ذلك؟ هؤلاء هم الذين يتحوّلون إلى معارضة. فأولئك الذين سيخالفون دعوة النبي ويعارضون إقامة مثل هذا المجتمع والنظام، هم الذين يكدّسون الثروات ويجمعون الأموال، إنّهم أولئك الذين يريدون أن يملأوا خزائنهم بالأموال من كيس فلان وجيب علّان، ومن محفظة تلك العجوز المحرومة، ومن صميم دخل البقّال الفلاني الذي هو في الحدّ الأدنى؛ إنّهم يسحبون أموال هؤلاء ويضعونها في أكياسهم وخزائنهم الكبرى التي لا حدّ لها. ألا يوجد مثل هؤلاء الذين يرغبون بتأسيس المؤسّسات الربوية وبإيجاد النظام الربوي وتحقيق الأرباح الماليّة، ويريدون أن يجعلوا كلّ التجارات الموجودة والفعاليّات الاقتصادية في نهاية الأمر لمصالحهم ومنافعهم؟ يا صاحب الجناب العالي، ما هو عملك؟ فها أنت تاجرٌ في هذا السوق، ومهما تاجرت وكسبت، فلو قلت أنّ هناك نسبةً مئويّة لك، ونسبةً مئويّة لبنك فلان وبهمان وبهمدان، فلنرَ كم تكون قد استفدت من تلك العوائد؟! ولتنظر كم ربحت! فانظر جيّدًا لمن تعمل وتنحت!

فعندما يكون النظام نظامًا ربويًا، مبنيًّا على أن يدفع الجميع أموال الربا وتكون هناك جماعةٌ مستفيدةٌ من أخذ الربا وأكله؛ ستكون كلّ التجارات والمعاملات بناءً على ذلك لمنفعة المؤسّسات الربوية. فلو حدث أن جاء نبيٌ أو مصلحٌ إلى مثل هذا المجتمع - حيث تكون الثروة وجمعها عملًا شريفًا ومشروعًا لمجموعةٍ من الناس الذين يأكلون ويبيعون بكلّ شرف - فإذا جاء هذا النبي أو المصلح وقال: يا فلان إنّ تكديس الثروة [عملٌ] غير مشروع؛ حسنٌ، فمن البديهي والطبيعي أنّه سوف يعارض هذا النبي. هذه هي الجماعة الأولى.





وهناك مجموعةٌ لا همّ لها سوى تكديس الثروات وهي التي سوف تواجه هذا النبي، وجماعةٌ أخرى هم الحكّام المستبدّون الذي سيحاربون هذه الدعوة النبوية والرسالة الإلهيّة، لأنّ كلمة «لا إله إلّا اللّه» وبمجرّد أن تدخل إلى أيّ مجتمعٍ بصورةٍ واقعية، فهذا يعني أنّ فرعون ذلك المجتمع سوف يُقتلع ويزول؛ فإمّا أن يزول وإمّا أن يصبح فردًا عاديًا من أبناء الشعب، هذا هو معنى «لا إله إلّا اللّه» حتمًا. فلو تقرّر أن تكون كلمة «لا إله إلّا اللّه» أساس بناء المجتمع بصورته الواقعية، فإنّ هذا المجتمع سيتشكّل على أساس التوحيد وسيكون اللّه على رأس هيكله (مخروطه) وليس فرعون. إنّ اللّه سيكون على رأس هذا المجتمع وليس فرعون ولا هامان ولا نمرود ولا شدّاد[1] ولا معاوية، فإذًا سيكون واضحًا جدًّا أنّ فرعون ونمرود وغيرهما من القوى المستبدّة عبر التاريخ، سيحارب بشدّةٍ دعوة الأنبياء التي تدور حول تشكيل مثل هذا المجتمع. فهذه إذن طبقةٌ من المخالفين والمعارضين للنبوّات.

والطبقة الأخرى هي طبقة الأحبار والرهبان وهم أولئك الأشخاص الذين يتعاملون مع عقول الناس وقلوبهم. فذاك الذي [يريد] الحفاظ على موقعيّته الاجتماعية من خلال ما يقدّمه للناس من تعليم، فإذا كان هذا التعليم تعليمًا صحيحًا، وتعليمًا بنّاءً

---

(١) ابن عاد الذي تولّى زعامة قومه بعد أن مات أبوه، وقد عزم على أن يبني جنّةً على الأرض لأجل معارضة النبي هود في حديثه عن الجنّة. بنى قصرًا عظيمًا من الذهب والفضّة، وبساتين كبيرة جدًّا مع جواهر كثيرة، وكان له ينابيع العسل والحليب والمرجان واللؤلؤ، وبمجرّد أن أنهى قصره وحدائقه وأراد أن يدخل هذا القصر سقط عن فرسه ومات.



يحيي القلوب، وتعليمًا يمنح الوعي والبصيرة والوضوح؛ فلن يعود بإمكانه أو بإمكان طبقته الحفاظ على تلك الوجاهة، وتلك الرئاسة المعنويّة، وتلك الامتيازات الماديّة والشأنيّة؛ لهذا سعت طبقة الأحبار والرهبان عبر التاريخ لمنع تحقّق وعي الناس وإدراكهم.

لأجل هذا، كان عيسى بن مريم يواجه الأحبار والرهبان قبل أن يصل الدور إلى إمبراطور الروم، فلم يصل إلى هذا الأمبراطور في زمانه. فمن هم أولئك الذين ما كانوا يريدون للدعوة العيسويّة والمسيحية أن تستقرّ في المجتمع اليهودي المنحطّ في ذلك الزمان؟ إنّهم أحبار اليهود وعلماؤهم، بالرغم من أنّهم كانوا يعرفون عيسى جيّدًا.

وفي زمن ظهور الإسلام، نسأل عن أولئك الذين لم يكونوا يرغبون بتثبيت وتجذّر النهضة النبوية أو النهضة المحمّديّة والبعثة الإسلامية؛ أولئك الذين لن يبقى لهم أيّ مجالٍ للزعامة والبقاء فيما لو جاءهم الرسول وأتتهم التعاليم الصحيحة وجاءهم الإسلام الذي يمثّل ذلك النبع الزلال العذب الذي يزيل العطش ويروي الأذهان ويفتح العيون ويقضي على كلّ الإبهامات والجهالات. من المعلوم، أنّه إذا وُجد الإسلام، فلن يبقى لاختراعات كعب الأحبار[1] وعبد اللّه بن سلّام[2] أي رونقٍ أو جاذبيّة. من الواضح، أنّه عندما تشعّ شمس

---

(١) أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري من علماء اليهود في اليمن. توجّه إلى الإسلام في زمن خلافة الثاني، ودخل إلى المدينة، تعلّم **القرآن** من الصحابة، ولأنّه كان مطّلعًا على كتب علماء اليهود اشتُهر بكعب الأحبار، وقد نقل الكثير من الروايات الكاذبة مدّعيًا أنّها من التوراة ولذلك عُرفت بالإسرائيليات.

(٢) عبد اللّه بن سلّام ابن الحارث الإسرائيلي من الأحبار ومن كبار يهود بني =





الحقيقة على مناطق الأدمغة والأفكار الإنسانيّة ستزول كلّ تلك الخُرافات والظلمات التي يحفظونها، من تلقاء نفسها ولن يبقى لها أيّ أثرٍ. لذلك فإنّ الجماعات التي ستشعر بالخطر قبل غيرها بمجرّد أن يأتيها النبي وبمجرّد أن تصدح دعوات وترانيم مثل هذا المجتمع؛ هذا المجتمع النبوي الذي سيُبنى على أساس الوعي وعلى أساس المعرفة والعلم والرؤية الصحيحة والحريّة الفكريّة والتنوّر الفكريّ، أي المجتمع الإلهي التوحيدي، هي جماعات الأحبار والرهبان. أولئك الذي سيكون تفتّح بصيرة الناس لغير صالحهم، وسيكون الوعي الذي ينتشر بين الناس سببًا لضررهم وضرر كلّ تلك القوى التي تتحالف معهم، فسيُصابون بالضرر مثل تلك القوى التي تحالفت معهم وإن لم تكن قوى دينية، بل كانت مجرّد قوى سياسية، فهؤلاء جميعًا سيستشعرون الخطر المحدق بهم من جرّاء مجيء النبوّة.

وكما قرأنا في تلك الرسالة التي أرسلها الإمام زين العابدين صلوات اللّه عليه إلى محمّد بن شهاب الزهريّ، والتي يصوّره فيها الإمام بطريقةٍ لو أنّنا نحن الذين نعيش اليوم في القرن العشرين، لو أنّنا رجعنا إلى التاريخ ولاحظنا كيفيّة تحالف القوى الدينية والسياسية من أجل قمع الشعوب والقضاء على الوعي والاستعدادات والدوس على حقوق عامّة الشعب؛ فإنّنا سنفهم

= قينقاع، وبناءً على أحد المنقولات أسلم في السنة الأُولى للهجرة، وكان مع كعب الأحبار من المقرّبين والمستشارين عند الخليفة الثالث، وهو الأمر الذي أدّى إلى إيجاد الانحرافات الكثيرة في حكومة المجتمع الإسلامي. وكان عبد اللّه من المقرّبين في زمان معاوية وامتنع عن بيعة أمير المؤمنين.



اليوم أيضًا ذاك الشيء الذي كان الإمام السجّاد يشرحه في ذلك الزمان في تلك الرسالة: «واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت وإجابتك له حين دُعيت»[١]؛ هذه الرسالة موجودة في كتاب تُحف العقول، ولو أردنا شرحها وتفسيرها لاحتاج ذلك إلى الوقت الكثير. ومحمّد بن مسلم ومحمّد بن شهاب هما شخصٌ واحدٌ، وقد سُمّي باسم أبيه مسلم، وباسم جدّه شهاب، ولكتاب تُحف العقول عدّة ترجمات لحدّ الآن يمكنكم مراجعتها.

أجل، إنّ من الجماعات التي تستوحش أو تخاف من مجيء النبي هي تلك الجماعة التي نسمّيها زعماء الدين؛ ذلك الدين المخالف للواقع، وهو الدين الخُرافيّ؛ وهؤلاء كانوا أشخاصًا يواجهون بعثة الأنبياء، ويواجهون دعوات التحرّر بصورةٍ قوية ويحاربونها بشدّة؛ وأحد نماذجها تبرز في قضيّة دعوة الإسلام. وفي الحادثة التي جرت مع النبي إبراهيم، خليل الرحمن، حيث شاهده جميع خدمة معبد الأصنام كيف قام بتحطيم كلّ أصنامهم؛ فقالوا: من الذي فعل ذلك بآلهتنا وقاموا بإطلاق الضجيج والصراخ، وهم الذين حملوا نمرود على أن يرمي بإبراهيم في النيران؛ أمّا عامّة الناس، فلم يكن لهم خبرٌ عمّا جرى في المعبد، لقد كان الكهنة هم الذين يخدمون في المعابد، وهم الذين كانوا يثبّتون قلب فرعون وقت ظهور موسى بن عمران في المجتمع الفرعوني، ويمنحونه

(١) ابن شعبة الحراني، **تحف العقول**، تحقيق علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ – ١٣٦٣ هـ.ش)، الصفحة ٢٧٥.





المعنويّات ويقولون له: إنّنا بسحرنا سوف نبطل سحره، وبكهانتنا طبعًا سوف نبطل سحره؛ هؤلاء هم الذين كانوا أكبر المعارضين لدعوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين شكّلوا تلك الجبهة الواسعة لمواجهته والوقوف أمام دعوته. فانظروا إلى هذا الإنجيل العادي أي إلى تلك الأناجيل التي بمتناول الأيدي، فإنّها رغم كلّ التحريفات وكلّ هذه الأمور، فإنّ تلك الأجزاء التاريخيّة الموجودة فيها يمكنها أن تبيّن لنا قضيّة الوقائع التاريخيّة في ذلك الزمان. فإذًا، هؤلاء هم الذين كانوا في الدعوة الإسلامية أصحاب القصص الكثيرة التي ظهرت فيها اعتراضاتهم واختباراتهم وحثّهم الناس على مواجهة النبي وقتله، وهم الذين كانوا وراء قضيّة مباهلة نصارى نجران، ومن هذا القبيل الكثير. لقد كانوا يسعون لإبقاء معنويّات الناس وإيمانهم بتلك الأشياء التي كانت قد تعفّنت ومضى عليها الزمن من أجل تثبيتهم وإيناسهم بذلك.

وعندما يتمّ طرح فكرٍ جديدٍ في مجتمعٍ ما، ويكون من المقرّر أن يتحرّك مسير أفكار الناس نحو الإدراك والشعور والمزيد من الوعي، فمن الطبيعي أن يكون الأمر هكذا. إنّ من طبيعة البشر - شبابًا كانوا أو شيوخًا - أن يتحرّكوا وراء أيّ تيّارٍ فكريٍّ جديد، وقد كانوا يتحرّكون. يريد الناس المزيد من الكلام الجديد، وها هم يتقبّلون أكثر فأكثر ذلك الكلام الذي يكون منسجمًا مع أذهانهم وقابلًا للتصديق، هذا بالإضافة إلى أنّ حبل الكذب قصير؛ أو كما يُقال بالفارسيّة: إنّ مصباح الكذب لا يشعّ. فالخُرافات أكاذيب، والتحريفات والألاعيب الدينية أكاذيب، فبمجرّد أن ينهض البيان الواضح والذهن الاسدلالي ويثبت بطلان هذه الخُرافات ووهن تلك الخُزعبلات، فإنّ الناس سيصدقون بسهولة.



لكنّ طبقة الأحبار والرهبان كانت تقف بالمرصاد وعلى مرّ التاريخ، وتمنع الناس من الإقبال على الأنبياء رغم وجود هذا البيان النبوي الواضح والمفسّر. فرغم أنّ الأنبياء قد جاؤوا بالحجج الواضحة والسلطان المبين، وكانوا أينما تحرّكوا يتحرّك النور معهم، وكانوا أينما وجدوا إنسانًا يوضحون له السبيل؛ ورغم أنّهم لم يستعملوا الأساليب المغلقة، وتلك المصطلحات المتفلسفة مع الناس، ولم يستخدموا التفلسف وتصنّع الفلسفة مقابل الناس بل كانوا يتحدّثون بصفاءٍ وصدقٍ وصراحةٍ معهم؛ ومع وجود مثل هذه الأمور، لا شكّ بأنّ الناس سيقبلون ذلك بسرعة، ومن الطبيعي أن يدرك الناس بسرعة صحّة وإتقان كلام رسل الله. فإذًا، ما هو السبب الذي حمل هؤلاء أن يبرزوا بكلّ هذا العناد والتعصّب والتمرّد ولم يتقبّلوا دعوات الأنبياء بسرعةٍ وسهولةٍ؟ إنّ من كان يمنع من تحقّق هذا الأمر هم أولئك الكهنة والأحبار والرهبان، وتلك الطبقة التي ذكرها القرآن تحت عنوان الأحبار والرهبان؛ الذين كانوا يدعون الناس إلى التمسّك بكلّ قوّة بالعادات والتقاليد الفكريّة الخاطئة والتصوّرات الخُرافيّة الموروثة؛ إنّهم أولئك الذين كانوا يستوحشون من مجيء الرسول لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الرسول لو جاء، وأنّ النبي لو بُعث، وأنّ ذلك المجتمع لو تحقّق، فإنّه سيكون فيه الوعي والنور والرشد الفكريّ، وسيكون الناس جميعًا في ذلك المجتمع إمّا علماء أو متعلّمين، ولن يبقى هناك أيّ مكانٍ للجهلة، أو لمن يمكن أن نعبّر عنهم بالذين يرضون بما هم عليه، أو للمتعزّزين دون سبب، أو لأولئك الذين يرغبون بإبقاء الناس في مستنقع الظلام والخُرافة؛ فإنّه لن يبقى لهم أيّ مكانٍ في مثل هذا المجتمع؛ وهذا هو الذي جعلهم يحاربون هؤلاء الأنبياء ويواجهون



دعواتهم الإلهيّة ويقفون مقابل بعثاتهم التاريخيّة، بكلّ قوّةٍ وشدّة.

هكذا، يكون لدينا أربع طبقاتٍ، ولو أنّكم راجعتم القرآن للاحظتم ذلك. وأنا لم أستند إلى القرآن في هذا الحديث لحدّ الآن، وإنّما اكتفيت بهذا المقدار من الشرح المتعلّق بمجيء الأنبياء وكيفيّة صناعتهم لهذا العالم، وفصّلت لكم في هذا العالم وكيفيّته وأوضاعه الاجتماعية؛ وبعدها تحدّثت إليكم عن أولئك الذين يخافون من مثل هذا المجتمع. ومن الواضح أنّ الذين يسعون لتكديس الثروة، سيخافون من المجتمع الذي سيمنع ذلك. ولا شكّ بأنّ الطبقات العليا ستخاف من ذلك المجتمع أو النظام الذي يُعتبر الاختلاف الطبقي فيه معصيةً ويكون ممنوعًا وباطلًا. فبالنسبة للذي اعتاد على العيش وسط الطبقات العليا، فإنّه لو شاهد نظامًا يُراد له أن يهيمن على كلّ الأوضاع ويفرض عليه أن يتنازل أو يصبح بنفس مستوى الذين يمكن أن نسمّيهم بالترابيّين، أو يُراد فيه لهؤلاء الترابيّين أن يكونوا معه في نفس المستوى، فلا يبقى وجيهًا وزعيمًا؛ إلّا إذا كان هناك عبيد.. أمّا لو كان الجميع سادة، فإنّه لن يبقى زعيمًا - فسيادة وزعامة الزعماء هي في أن يكونوا هم السادة والكبراء والزعماء والباقون عبيدًا، وإلّا لو تحوّل العبيد إلى سادة، فإنّ السادة سيكثرون وستصبح السيادة والزعامة رخيصة، لأنّ ارتفاع سعر السيادة ناجم عن أنّها قليلة - فلو تحقّق مثل هذا المجتمع أو وُجد، فإمّا أن ينزله من عليائه ويجعله في مستوى العبيد، وإمّا أن يرتقي بالعبيد ليجلعهم بمستواه، وبتعبيرنا يكثر الوجهاء والسادة والزعماء. ولهذا، فإنّه سوف يسقط من تلك العزّة غير المبرّرة، وهنا سوف نجده ينهض للمخالفة.

إنّ تلك القدرة الاستبداديّة المطلقة التي ترغب في أن تكون،



بحسب تعبير المرحوم الميرزا النائيني[١] رضوان اللّه تعالى عليه في مقدّمة كتابه تنبيه الأمّة، «فعّال ما يشاء وحاكم ما يريد»؛ هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا بحسب التعبير القرآني ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فإنّهم لن يكونوا راضين أو متقبّلين لدعوة الأنبياء وحكومة أيّ نبيٍ، لأنّهم يعلمون أنّ النبي لو جاء فإنّهم أوّل من سيتلقّى الضربة؛ ولقد فصّلنا الحديث في طبقة الأحبار والرهبان أيضًا.

هذه هي الطبقات الأربع التي حاولنا أن نبلورها ونحدّدها لكم من خلال هذه العمليّة التحليليّة الذهنيّة، مذكورة أيضًا بالاسم في القرآن. غاية الأمر أنّ أولئك الأفراد الذين ذكرناهم بعنوان طبقة الزعماء والرؤساء والدهّاقين والمسؤولين وأصحاب السلطة والنظام، أي أولئك الذين لهم مثل هذه المناصب، قد ذُكروا في القرآن بعنوان الملأ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾[٢]. فالملأ كلمةٌ تُطلق على هؤلاء لأنّهم يملأون العين، هؤلاء الذين لهم كلّ ذلك الجاه والجلال، وحينما يسيرون فإنّ كلّ تلك البهارج والزخارف التي تعمي وتصمّ ستجعل كلّ من يقف مقابلهم خاضعًا وصغيرًا؛ إنّ الملأ هم الذين يشكّلون تلك الطبقة من المعارضين الذين يقفون مقابل الأنبياء. فمن يمكن أن نذكر هنا من باب المثال؟ إنّهم مثل

---

(١) الميرزا محمد حسين النائيني (١٢٧٧ - ١٣٥٥ ق.) وُلد في مدينة نائين، وبعد أن تتلمذ على يد علماء أصفهان توجّه إلى النجف الأشرف وحضر دروس الميرزا الشيرازي، أعلن تأييده لتشكيل نهضة المشروطة في إيران وألّف كتاب **تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة**، وقد أثبت في هذا الكتاب الولاية المطلقة للفقيه في عصر الغيبة. كان للمرحوم النائيني تأثيرًا كبيرًا في مواجهة الاستعمار الإنكليزي في العراق، بالإضافة إلى دوره المؤثّر في نهضة المشروطة في إيران.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٦٦.





هامان في ذلك النظام الفرعوني الجاهلي، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾[١]. فهو كان غلامًا عند فرعون ولأنّه خدم فرعون وعبده فقد صار سيّدًا على كلّ من عدا فرعون. كما قال الشاعر سعدي:

مگسی را که تو پرواز دهی شاهین است

إنّ الذبابة التي تطير بإذنك تصبح نسرًا

فهامان هو تلك الذبابة التي منحها فرعون قدرة التحليق فصارت تقوم بأعمال النسور؛ فهو إنسانٌ ضعيفٌ وسيّئ الحظّ ووحيد، وعلاجه - بمعنى معالجته وحلّ أمره - يكون من شخصٍ واحدٍ؛ لكنّه عندما يعتمد على فرعون، فإنّه يصبح صاحب الصلاحيّات، لهذا فإنّه إذا سار في الشوارع ونظرتم إليه تجدونه وكأنّه محاطٌ بالبريق من جميع الجهات بحيث لا يمكن للإنسان أن يتحمّل النظر إليه؛ فالعمى والصمم والتخبّط في الذهاب والإياب هو بسبب قدوم هامان.

وكما في النظام الجاهلي لمعاوية، فيكون المغيرة بن شعبة[٢] مثلًا، أو زياد ابن أبيه[٣]، من الملأ؛ فهؤلاء يحيطون بعرش معاوية

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٣٦.

(٢) المغيرة بن شعبة من أهل الطائف، جاء إلى المدينة في السنة الخامسة للهجرة وأسلم. وبعد رحيل النبي الأكرم، كان من الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وكان له دورٌ أساسي فيها. وبعد شهادة أمير المؤمنين، صار في بلاط معاوية وهو الذي اقترح عليه أن يولّي يزيد من بعده.

(٣) زياد بن أبيه هو من كبار المجرمين في صدر الإسلام، عُرفت أمّه باسم سميّة ولكن لم يُعرف أبوه، لهذا سُمّي بزياد بن أبيه، وقد نسبه أبو سفيان في زمان الخليفة الثاني إلى نفسه، لكنّه ووجه بتوبيخٍ مباشرٍ من الإمام عليّ . بايع زياد =



من كلّ الجهات، ويحفظونه ويثبّتونه بحيث إنّه إذا نظر معاوية إلى أيّ مكان فلن يرى سوى صديقٍ ومشاورٍ يلازمه وخيّرٍ ينصحه!!. وفي القرآن، عُبّر عن هذه الطبقة بالملأ، وعن طبقة الأشراف والنبلاء بالمترفين، أي أولئك الذين ابتُلوا بالترف والأرستقراطيّة وكانت ثرواتهم الهائلة سببًا لتعاستهم وارتكابهم الجرائم، ودوسهم على الحقوق. وتشير الآية إلى أنّه أينما أرسلنا في أمّةٍ رسولًا فإنّ المترفين، والأشراف كما يُقال، سيكونون أوّل من يُعارض، فهؤلاء هم أوّل من يطلق ألحان المخالفة، وهذه هي طبقةٌ أخرى.

إنّ تلك الطبقة من الزعماء الفكريّين المسمّاة بالأحبار والرهبان يذكرها القرآن بنفس الاسم، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾[1] تلك الطبقة من أصحاب السلطة الاستبداديّة – بظنّي - أنّ القرآن يذكرها تحت عنوان الطاغوت. هذا، وإن كان الطاغوت يمثّل كلمةً عامّة؛ فالطاغوت هو تلك القدرة التي تطغى مقابل اللّه، ومن الممكن أن تكون أنت نفسك طاغوتًا، حيث قرأت لكم هذا الحديث: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[2]، أي أنّ نفسك وأهواءك وهوسك وابنك وامرأتك وصديقك المحبوب يمكن أن يكونوا طاغوتك؛ ومن الممكن أيضًا أن يكون تلك القوى الكبرى؛ لهذا فإنّ «الطّاغوت» هو معنًى عام. ولكن بما أنّنا نرى في القرآن الكريم

= أمير المؤمنين، وبعد معركة الجمل ولّاه الإمام لمدّة على البصرة، لكنّ معاوية نسبه إلى نفسه باعتبار أنّه أخيه من خلال دسيسة وعزله عن الإمام. وبعد صلح الإمام الحسن، أمسك بزمام ولاية البصرة والكوفة، وابنه عبيد اللّه من قتل الإمام الحسين في صحراء كربلاء.

(١) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.

(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء٣، الصفحة ١٨٤٨.






كيف أنّ الطاغوت هو الذي يُعتبر أي شيء يقف مقابل اللّه في أيّ مكان، ويقوم بأعمال وشؤون مهمّة جدًّا، نفهم أنّ الطاغوت هو أعلى المقامات الموجودة في النظام الجاهلي. ففي بعض المواضع يقول اللّه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾(١). فالمؤمن يقاتل ويجاهد ويساعد على طريق اللّه، أمّا الكافر، فإنّ سعيه وقتاله يكون على طريق الطاغوت. وفي موضع آخر، يقول اللّه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾(٢)، وأظنّ أنّ كلمة «الطاغوت» قد استُعملت في القرآن من أوّله إلى آخره في حوالي ثمانية موارد؛ ونجد أنّ استعمال هذه الكلمة في سبعة من هذه الموارد القرآنية جاء في سياقٍ، إذا تأمّل فيه الإنسان، سيبدو له أنّ المراد من هذا اللفظ هو تلك القوى الاستبداديّة المستعلية التي تتزعّم أو تقف على رأس الأمور.

أجل، هذه هي الشرائح الأربع المعارضة للأنبياء؛ فلم تكن هذه المعارضة منحصرةً في زمان موسى أو زمان الرسول أو في زمان إبراهيم، بل كانت على مرّ العصور التاريخيّة. فأينما ظهر كلام حقّ، وأينما وُجد داعٍ أو نغمات دعوةٍ لاتّباع أنبياء اللّه والكتب السماويّة، كانت الشرائح الأربع تقف صفًّا واحدًا في المقابل؛ إمّا متزامنة، وإمّا واحدةً تلو الأخرى؛ هذه هي القاعدة الكليّة. وهنا، يوجد نكتةٌ تعليميّةٌ مستفادةٌ من هذه الآيات الكريمة.

أوّلًا، يقول في القسم الأوّل من الآية الأولى، ﴿وَكَذَٰلِكَ

(١) سورة **النساء**، الآية ٧٦

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.



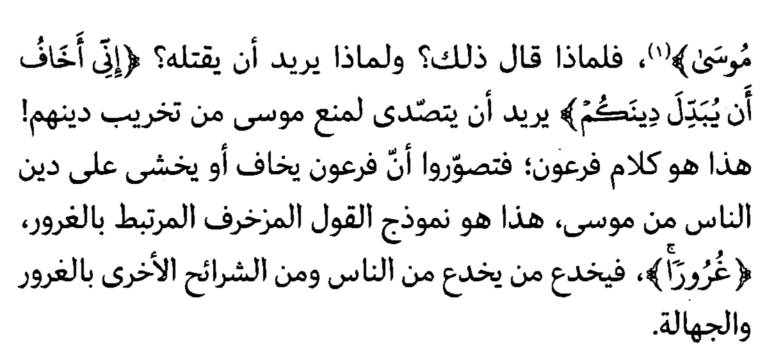
جَعَلْنَا﴾[1]، ويمكننا أن نفسّر لفظ «كذلك» باللغة الفارسيّة وهي تشير إلى وجود مثليّةٍ أي «مثلك» أو كما هو حالك أيّها الرسول؛ فكما ترى لقد جعلنا لكلّ نبي عدوًّا مخاصمًا من شياطين الإنس والجنّ. وقد ذكرنا سابقًا معنى الشيطان، وهذه الآية تؤيّد ذلك المعنى والتفسير؛ وهو تلك القوى التي تنتج الشرّ من خارج وجود الإنسان. وأحد أنواعه هو إبليس الذي لم يسجد لآدم أبو البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ. إنّ ذلك الشيطان هو أسوأ شياطين العالم، وكلّ [الشياطين] الأخرى إنّما كانت بسببه؛ وكلّ فسادٍ أو خطإٍ يرتكبه شيطانٌ، سواء كان من الإنس أو الجنّ، في هذا العالم، يعتبر الناس أنّ جرمه ولعنته راجعةٌ لذلك المسمّى بإبليس؛ في حين أنّ بعض هذه الشياطين هي بمنزلة الأستاذ لذلك الشيطان.

﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهنا يوجد علاقة إلهام وتعليم بين هذه الشياطين التي تعادي الرسول. ففي بعض الأحيان، تقدّم شريحة الأحبار والرهبان الدروس إلى شريحة الملأ. وفي بعض الأحيان، تقوم طبقة الملأ بتعليم الأحبار والرهبان. وفي أحيانٍ أخرى، يتصدّى المترفون لهذا التعليم تجاه الشرائح الأخرى. وفي الأغلب، نجد أنّ الشرائح الثلاث هذه تستلهم من الطاغوت، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾. فعمليّة الإيحاء والإلهام والتعليم تجري بأسلوب الكلام الجميل والمزخرف والحسن الظاهر - وأنا سوف أتعرّض لمعنى القول المزخرف في أحد الفصول المرتبطة ببحث النبوّة في المستقبل. وقد وصل هذا الظاهر المزخرف إلى حدٍّ جعل فرعون يقول: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٢.





مُوسَىٰ﴾[١]، فلماذا قال ذلك؟ ولماذا يريد أن يقتله؟ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ يريد أن يتصّدى لمنع موسى من تخريب دينهم! هذا هو كلام فرعون؛ فتصوّروا أنّ فرعون يخاف أو يخشى على دين الناس من موسى، هذا هو نموذج القول المزخرف المرتبط بالغرور، ﴿غُرُورٗاۚ﴾، فيخدع من يخدع من الناس ومن الشرائح الأخرى بالغرور والجهالة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ فبمشيئة اللّه نال أولئك تلك الإمكانات ليفعلوا ما فعلوا، ولو شاء اللّه لجعل كلّ هذه الشرائح المعارضة كرمادٍ في الهواء بلحظةٍ واحدةٍ؛ ولكن، حسنًا، إنّ السنّة الإلهيّة لا تجري على هذا الأساس، وقانون اللّه لا يكون هكذا. فالقانون الإلهي يقتضي أن يُظهر هؤلاء عداواتهم من أجل أن يتميّز المؤمن عن غير المؤمن. فالطريق لا يكون معبّدًا بنسبةٍ ما لكي يتّضح أمر أولئك الذين تكون أرجلهم وسيقانهم قويةً ويتمكّنون من العدو والسّير ويُعرفوا. أمّا في الجادّة المعبّدة، فمن الواضح أنّه يمكن للجميع أن يسيروا لبضع خطوات على هذه الطريق، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾. إذًا، لقد أظهر هؤلاء عداواتهم بمشيئة اللّه، ويعني ذلك أنّ مشيئة اللّه اقتضت أن تكون هذه هي السنّة، فإرادته تعالى لا يمكن أن تكون خلاف السنّة التي جعلها هو سبحانه في هذا العالم. ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾، فماذا يعني قوله تعالى: «فَذَرْهُم»، إنّه يعني أن لا يغتمّ الرسول من مقولاتهم الكاذبة والافترائيّة ولا يضعف أو يفقد طريقه ويضلّ.

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٢٦.





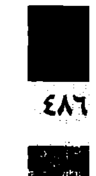
﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾[1] ونتيجة كلّ هذه الكلمات هي أنّ القلوب التي لا تؤمن بالآخرة سوف تقع تحت تأثير هذا القول المزخرف والخادع والذي يبعث الغرور وإعلامه الكاذب. فكلّ هذه التبليغات والدعايات التي تُبثّ ضدّ دعوة الأنبياء، أي هذه الدعايات التي توضع بوجه كلام الحقّ ونغمات التوحيد الصادقة، فإنّها لا تخدع سوى تلك القلوب التي لا تؤمن بالآخرة فتنجذب إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾. وعليه، فكلّ من يؤمن بالآخرة، فإنّه لن يصبح أسير هذا الإعلام الكاذب بهذه السرعة؛ والآية تشير إلى تلك القلوب التي ترضى بمثل هذا القول. ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، فليرتكبوا وليفعلوا ما يفعلون. لاحظوا كيف أنّه قد أُشير في هذه الآية، على نحو الإجمال، إلى أنّ لجميع الأنبياء أعداء من الجنّ والإنس، من الأعداء الظاهريين والأعداء المتستّرين؛ وكلّ هؤلاء الأعداء يلهمون بعضهم بعضًا، ويعلّمون بعضهم بعضًا، ويذكّرون بعضهم بعضًا. أكتفي من هذه الآيات بهذه فقط.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[2]، هذه الآيات هنا هي العلائم التي ترجع إلى الله، ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وهي الحجّة أو القدرة الواضحة. فما هو المقصود من القدرة أو الحجّة أو الدليل الواضح؟ وماذا كانت هذه الأمور؟ إنّها ذلك المنطق القوي وكلام الحقّ الذي نطق به موسى بالإضافة إلى عصاه ويده البيضاء. أرسل الله موسى بهذه المسائل التي تجعل أيّ إنسانٍ، عاديًا كان أم غير عادي، يؤمن

---

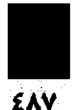
(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٣.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٢٣.



بكلامه؛ ولمن أرسلناه؟ أي لمحاربة من قد أرسلناه؟ ومن الذي كان إلى جانب موسى في هذا المجتمع؟ فلو تأمّلنا هذه الآيات وتدبّرنا فيها بقدرٍ ما أثناء قراءتها، للاحظنا كيف يخرج هذا الأمر بصورةٍ واضحة، وستبرز القضايا الاجتماعية المهمّة في محكمات الآيات وفي ظواهرها بصورةٍ واضحة أيضًا. فنسأل عن هذه الحرب مع من وضدّ من؟ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، ومن هناك أيضًا؟ ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾، هامان الذي كان وزير فرعون ومن رؤوس مملكة فرعون، ومن أولئك الذين يُسمّون بالأشراف ويملأون العين أي الملأ؛ ومن كان معهما؟ ﴿وَقَٰرُونَ﴾، فمن هو قارون؟ إنّه باختصار ذلك الثري الذي نعبّر عنه بصاحب المال، ولكنّه لم يكن رئيسًا أو زعيمًا ولم يكن يمتلك السلطان على المجتمع، فلم يكن فرعونًا. وفي الأساس، فإن قارون جاء فيما بعد؛ ولكن في نفس الوقت، تقول هذه الآية إنّنا قد أرسلناه إليه أيضًا، وأرسلناه لكي يواجهه. فبالنسبة لموسى، فإنّ فرعون وقارون متساويان.، وكما أنّه سيحارب فرعون، فإنّه سينهض لقتال هامان وقارون كذلك.

إنّ قارون، وإن كان جرمه أنّه اكتنز الثروات وجمع أموال الناس إلى نفسه، وكان يضع على مائدته من الطعام ما كان يكفي لإشباع خمسين شخصًا، بل ويبقى الكثير منه أيضًا؛ فهذا الوجيه ضرب أربع ركاب أو فتح أرجله وجعل أمامه طعامًا يكفي لتسعة وأربعين شخصًا، ومن الواضح أنّه لا يمكن لشخصٍ واحدٍ أن يتناول كلّ هذا الطعام، لكنّه لم يكن يسمح لغيره بأن يأكله؛ فنجد أنّ تسعة وأربعين شخصًا يتناولون في الخارج غذاء شخصٍ واحدٍ، أمّا هذا الشخص فيحبس لنفسه غذاءً يكفي لتسعة وأربعين شخصًا آخر، ويا ليته تناول السمّ؛ بل كان يحبس هذا الطعام؛ هكذا كان يفعل





قارون بحبسه واحتجازه للثروات العامّة؛ لهذا كان يأتي موسى إلى محاربته.

والعجيب هو أنّ فرعون رغم أنّه كان على رأس الحكومة فقد كان يمثّل طبقةً، وكان هامان إلى جانبه يمثّل طبقةً أخرى، وقارون الذي لم يكن على ارتباطٍ بهما من الأساس، كان يمثّل الثراء والاكتناز، فقد كان في طبقةٍ أخرى. إذًا، رغم أنّ هؤلاء كانوا ثلاث طبقات، إلّا أنّ ردّهم كان ردًّا واحدًا، واتخّذوا جميعًا موقفًا واحدًا وقالوا كلامًا واحدًا في مقابل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ۞ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾[1]، نجدهم لم يسكتوا مقابل ما جاءهم به موسى وبيّنه ولم يدعوا موسى يأتي ويقتلع غرسة وجودهم الفاسدة وشجرة حياتهم العقيمة من جذورها. كلّا، فمثلما كان موسى في نظامه المقترح يوجّه إلى حياتهم قبضةً، كانوا هم في المقابل قد رفعوا في قبال وجه موسى قبضة. فماذا قالوا؟ ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ يريدون أن يقتلوا أبناء الذين آمنوا بهذا الفكر الجديد الذي جاء به هذا النبي، وهو الفكر الواضح والذي يبني هذه الحياة ويعمّرها، فاقتلوهم كي لا يبقوا إلى الغدّ ويهدّدوا وجودنا، واقتلوهم كي لا يخرجوا من وجودهم تلك الشعلة، واقتلوا شبابهم.

﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، وهنا نتساءل عن السبب الذي جعلهم يريدون إبقاء نسائهم أحياء، يوجد تفسيرٌ هنا: يُقال أنّ ذلك من أجل اختلاط النسل، ومن أجل أن ينجرّوا إلى الفحشاء، ومن أجل

---

(١) سورة **غافر**، الآيتان ٢٤ و٢٥.



جعلهم محلًّا لإشباع الغرائز، ومن أجل أن يذلّوا رجالهم، فهنا يوجد عدّة وجوهٍ في الكلام.

ولكنّه يقول فيما بعد ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فكلّ تلك المخطّطات والدسائس التي حاكها الكفّار هي في ضلالة، أي لن تصل إلى نتيجة؛ إنّها كذلك الرمح الذي تطلقه باتّجاه العدوّ أو شخصٍ ما وتريد به هدفًا فيأتي سهمٌ ويحرفه عن مسيره. أنت تطلق هذا السهم لكنّ رياح سنّة اللّه تأتي وتجعل هذه السهام بعيدةً عن أهدافها، فدعهم يحيكون المؤامرات ويضعون الخطط ضدّ موسى. ولعلّكم لاحظتم ها هنا أنّ تلك الطبقات الثلاث قد ذُكرت في هذه الآية وهي: طبقة فرعون، وطبقة هامان، وطبقة قارون. وقد ذُكروا معًا في سورةٍ واحدة.

وفي آيةٍ أخرى، يوجد ذكرٌ للمترفين أيضًا وهي طبقة قارون بالخصوص حيث يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾[1] فالنذير هو الرسول، ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم تلك الطبقة الأرستقراطيّة الثرية التي تكتنز الأموال، ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وماذا كان دليلهم على رفض ما أرسل به النذير؟ ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾، فانظروا أيّ مستوًى فكريٍّ كان عليه هؤلاء، وإلى أيّ درجةٍ تنزّلوا في أفكارهم، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، ينفون عن أنفسهم العذاب. وأمّا الآية الأخيرة فهي من سورة التوبة والتي ترتبط بطبقة الأحبار والرهبان حيث يقول اللّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤.



﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾[1]، وهنا إشارة إلى الكثير من العلماء والزهّاد، ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ فبالإضافة إلى أكلهم أموال الناس، فإنّهم يمنعونهم من سلوك طريق اللّه، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، وهنا يأتي ذكر طبقة المترفين مجدّدًا وهي طبقة الذين يجمعون الأموال ويكتنزونها حيث يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

بناءً عليه، فقد لاحظنا في هذه الآيات وفي غيرها من عشرات الآيات الأخرى في القرآن علامة هذه الطبقات الأربع وتعرّفنا على عداواتهم.

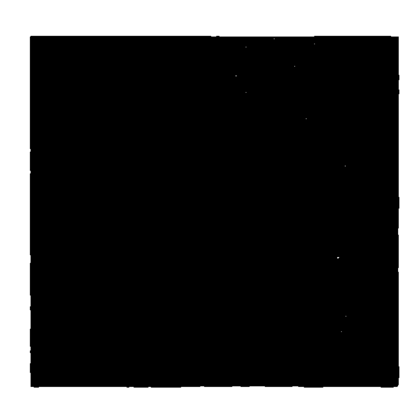
---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.

الجلسة العشرون

عاقبة النبوّة (١)

الثلاثاء، ٢١ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

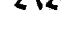
[سورة **الرعد**، الآية ١٧]



يتحرّك الأنبياء نحو ذلك الهدف العالي والراقي الذي ليس هناك أعلى وأرقى منه؛ وكما بيّنّا في الأيّام السابقة وشرحنا، فبحسب المعايير الثقافية لعصر النور وعصر الوعي الإنساني، أي القرن العشرين، فإنّ ذلك الهدف يُعتبر أرقى الأهداف؛ وهذا الهدف هو عبارة عن جعل جميع الناس طبقةً واحدةً يعيشون في المساواة، ولذلك أيضًا يجب القضاء على الجهل والفقر والظلم والاستغلال والاختلاف الطبقي. بهذا الهدف العظيم والراقي والسامي يُبعث الرسل ويتحرّكون داخل المجتمعات البشريّة.

فإذا نظرنا إلى حياة رسل اللّه، فإنّنا سنجد حصيلة هذه الحياة وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الفعّاليّات والمساعي والجهاد المستمرّ؛ فتراهم قد طووا فراش الراحة والنوم الهنيء منذ بداية البعثة، وأغمضوا العين عن اللهو واللغو والراحة والدعة، وقاموا بجعل حياتهم كلّها عبارة عن جهادٍ مستمرّ؛ هذه هي عصارة سيرة الرسل الإلهيّين. ثمّ نجد أنّ حياتهم تُختتم، بحسب ما علمناه من الآثار الدينية، بأن يُفصل رأس أحد هؤلاء الأنبياء عن جسده في مواجهة المتجبّرين وطغاة زمانه، ويُهدى هذا الرأس لطاغية زمانه؛






وقد قُدّ جسد أحدهم قدًّا داخل شجرةٍ وصار نصفين، وقد خرج بعضهم من هذه الدنيا في غربةٍ وألمٍ؛ ولم يجمع أيّ واحد منهم ثروةً ولو كانت قليلةً، ولم يكن لأيّ واحدٍ منهم في آخر حياته القصور والتشكيلات والثروات الطائلة مثل زعماء العالم وأهل الدنيا. هذه هي عصارة حياة الأنبياء والسفراء الإلهيّين، هؤلاء الذين كانوا عاملين بما أمرهم اللّه؛ وهذا ما عرفناه.

وهنا يبرز هذا السؤال، فنقول: أيّها السيّد، بحسب ما هو موجودٌ في أذهاننا وبحسب ما نقرأ في تاريخ النبّوات فإنّ الرسل قد أمضوا حياتهم في السعي المستمرّ والجهاد، والكثير منهم قد شربوا من كأس الشهادة فقُتلوا في سبيل اللّه، فهل أنّ أعمالهم كانت فاقدةً للثمرة والفائدة في النهاية؟ وهل أنّ هؤلاء الرسل الذين مرّوا على تاريخ البشريّة قد فشلوا أو هُزموا؟ وهل أنّ الأمر كان كما يتصوّر أصحاب الأذهان أو أصحاب التفكير الساذج في هذا العالم، حيث يُقال إنّ مساعي الأنبياء لم تصل إلى نتيجتها المثمرة، وأنّ الظلم والعدوان والطغيان والكفر كان مهيمنًا دومًا من فجر التاريخ - وكما نعلم فإنّ كلّ هذه القوى التي وقفت في مقابل الأنبياء لا يسوؤهم حتمًا أن تكون الفكرة كذلك في أذهان عامّة الناس - فهل أنّ الأمر كان كذلك؟ إنّنا نعتقد أنّ الأمر لم يكن على هذا النحو، بل نؤمن بأنّ هؤلاء المأمورين الأعزّاء عند اللّه، التي تبدأ سلالتهم من آدم ونوح وإبراهيم، والذين هم زبدة عالم الخلق في هذه السلسلة، قد جاؤوا ولم يفشل أيّ واحدٍ منهم، ولم يتعرّض كلامهم وإرادتهم في هذا العالم وفي التاريخ وفي المجتمع للفشل، بل لم يكن لأيّ إنسانٍ من بين كلّ هذه البشريّة، ومن بين جميع أولئك الذين كانوا يسعون ويتّجهون نحو الهدف والمقصد،





لم يكن لأيّ واحدٍ مثل هذا الحظّ والنجاح الذي كان للأنبياء. هذه هي عقيدتنا. نحن نعتقد أنّ عاقبة النبوّة ونهاية عمل الرسل كانت طوال التاريخ وعلى مرّ الأزمان وفق ما أرادوا، وستكون كذلك في المستقبل؛ وسوف نثبت هذا الأمر.

يوجد هنا مطلبان ومبحثان. أحدهما هو: ماذا حقّقت هذه السلالة المعروفة بالنبوّة والرسالة، أي قافلة الأنبياء والرسل من آدم؟ فلنا أن نتساءل عن الإنجاز الذي حقّقوه بالمجموع، فهل أنّهم تقدّموا أم أفلسوا؟ هذا مطلبٌ. والمطلب الآخر هو: هل أنّ كلًّا من الأنبياء الإلهيّين العظام قد نجح أو هُزم في زمانه؟ فهنا مسألتان وإنّني أرغب أن أتعرّض لهاتين المسألتين في هذا اليوم وأتمّهما إن شاء اللّه؛ وبحسب قولكم فإنّكم لو راجعتم لرأيتم أنّكم تحبّون أن تدركوا هذه القضيّة؛ فهذا أمرٌ تُعدّ معرفته بالنسبة لنا مفيدة على أساس ذلك المعيار الذي قدّمته لكم دائمًا. إنّ الأمر المفيد ليس ما يزيد من معلومات الإنسان فقط، إنّ الكثير من الكلام ممّا يزيد من معلومات الإنسان ولكن لا يكون مفيدًا له. فلا عيب أبدًا أن يتعرّف الجميع على العناصر التي تتكوّن منها تلك القطعة الصغيرة للأحجار التي تشكّل الجبال البركانيّة للقمر، ولكن هل تعلمون إذا كان هذا العلم سيّئًا أم مفيدًا؟ فإنّ الكثير من المعلومات التي يجعلوننا نسعى لتحصيلها هي من هذا القبيل، حتّى إذا خلونا بأنفسنا واستمعنا وتكلّمنا وطالعنا وقمنا بالتحقيقات المناسبة وكتبنا وأشرفت أعمارنا على الانتهاء، نجد بنظرةٍ واحدة أنّ كلّ هذا الركام الهائل من المعلومات كان هباءً. لقد كانت معلومات غير مفيدة ولم تقرّبنا خطوةً واحدةً نحو الجنّة، ونحو رضوان اللّه؛ إنّ ما نراه عندئذٍ هو أنّنا لم نتقدّم خطوةً واحدةً في هذه الدنيا نحو





المجتمع الإسلامي الصحيح والأصيل، فلم تفعل تلك المعلومات أيّ شيء. لماذا؟ فالفائدة الوحيدة ها هنا هي أنّنا كنّا نستطيع أن نعتدّ بأنفسنا ونتصوّر أنّنا أصحاب معلومات كثيرة ولدينا الكثير من العلم؛ وبذلك أغلقنا نافذةً واسعةً فُتحت أمامنا، ولم نتعلّم شيئًا من أحد؛ أجل، كانت هذه هي الفائدة الوحيدة.

إنّ هذا المطلب الذي أقوم الآن باستعراضه مفيدٌ بكلّ ما للكلمة من معنًى، وهو لا يقدّم لنا الاطّلاع فحسب، بل الاطّلاع وتحمّل المسؤوليّة؛ من قبيل كلّ أنواع الإيمان التي شرحتها لكم وذكرتها في جلسات سابقة من اليوم الثالث والرابع والخامس من شهر رمضان. إنّ القضيّة الأولى هي ما هو الأكليل الذي وضعته هذه السلالة التي نُطلق عليها كلمة النبوّة على رأس البشريّة من أوّل مجيئها وإلى نهايته؟ والجواب هو أنّ الأنبياء قد جاؤوا ليجعلوا من هذا الموجود - الذي لم يكن قادرًا على أن يميّز بين الطريق والبئر كما يفعل الحيوان، هذا الموجود الذي كانت الغريزة فيه بدرجةٍ من القوّة لكن دون أن تكون هادية - موجودًا بمستوًى تحتاج معه ملائكة السماء لأن تأتي إليه وتتعلّم منه؛ لقد أخذوا بيد البشر من حضيض التوحّش والجهالة ليصلوا إلى حدّ الإنسان المتحضّر الذي لو أراد أن يعمل على أساس تعاليمهم لبرزت فيه أعلى وأجمل وأفضل تجلّيات الخلقة في الحياة. فالناس يشبهون تلميذ المدرسة - سأسعى أن أبيّن هذا المطلب بأبسط ما يكون وأنزله إلى أدنى مستوًى - الذي لا يعرف شيئًا، حتّى الألف باء، فيتمّ العمل عليه على مدى سنة حتّى ينتقل إلى الصفّ الثاني؛ لكن المعلّم أثناء الصفّ الأوّل وإلى أن يكون التلميذ قد وصل إلى الصفّ الثاني، يكون هذا المعلّم قد بذل مهجته في هذا العمل - وهكذا هم



الأنبياء - وفي العصر التالي، يتحمّل [التلميذ] كلّ المتاعب حتّى ينتقل إلى الصفّ الثالث، لكن يكون المعلّم الذي أوصله إلى هذا الصفّ قد بذل نفسه على هذا الطريق؛ ثمّ يأتي عصرٌ آخر، ويبدأ بذل جهدٍ جديد حتّى يصل التلميذ إلى الصفّ الرابع، ونرى المعلّم هنا، كالأب العطوف والمرشد الحكيم، الذي كان يبذل نفسه طوال هذه المدّة التي كان يرتقي بها التلميذ إلى صفٍّ أعلى ورتبةٍ أعلى، وينتقل من هذا العالم وهو يقاسي كلّ المشقّات في هذا العالم. وهكذا يرتقي [المعلّمون] بهذا الطفل الصغير صفًّا بعد صفّ، وخطوةً بعد خطوة، ومرحلةً بعد مرحلة، ويرتقون به ويرفعونه؛ وإذا نظرتم أنتم إليه الآن سترون أنّ مستواه الثقافي والمعرفي ومستوى إدراكه ومشاعره قد أصبح عاليًا جدًّا، أعلى بكثير من ذلك الزمان الذي كان فيه قبل مرحلتين، وها هو قد وصل إلى أوج الترقّي والسموّ والإدراك والفهم والفكر.

وعندما تنظرون هنا وهناك، لن تجدوا المعلّمين! فتتساءلون أين ذهبوا؟ فأحدهم قد بذل نفسه أثناء الصفّ الأوّل بينما كان يرتقي بذهن هذا التّلميذ البطيء على سبيل المثال ويرفعه، وذاك الآخر الذي كان يعلّم التّلاميذ قد هجموا عليه وقتلوه في آخر العام بسبب خلافٍ أو شجار؛ وقد حصل الأمر نفسه مع معلّم الصفّ الثالث ولكن بطريقةٍ أخرى، ومع معلّم الصفّ الرابع بطريقة مختلفة أيضًا؛ فلم يعد المعلّمون موجودين، لأنّ كلّ معلّم قد أدّى رسالته وبحسب الظاهر قد مات وارتحل عن هذا العالم ولم ينجز شيئًا، ولكن هل يمكن أن نقول أنّه فشل؟ فكّروا جيّدًا وسترون إذا ما كان هذا المعلّم قد فشل أم لا. فنسأل نحن: ماذا كان هدف المعلّم؟ ألم يكن هذا المعلّم الحريص يبتغي ما حصل؟ ألم يحدث ما كان





يريد وهو أن يوصل هذا التلميذ إلى أوج قمّة الثقافة والمعرفة بعد أن كان في تراب المذلّة والجهل. فالمعلّمون إذن لم يموتوا فاشلين. صحيحٌ أنّهم ماتوا، وصحيحٌ أنّهم لم يصلوا إلى الحياة المرفّهة في هذا العالم، وصحيحٌ أنّهم لم يشاهدوا بأعينهم وصول هذا الفسيل أو الغرسة إلى الثمرة، ولكن نسأل: هل أنّهم فشلوا؟ كلّا، لم يفشلوا، لقد كان هذا هو هدفهم، أي أن تطوي البشريّة هذا الصفّ الأوّل والثاني، وأن يتقدّم هذا التلميذ الجاهل وغير الواعي على هذا الطريق، بكلّ صعوبةٍ وشدّةٍ وتعبٍ، إلى أنّ يصل إلى أوج القمم؛ وها قد وصل.

هكذا كان الأنبياء جميعًا؛ فمنذ آدم النبي، ونوح، وهود، وصالح، وشُعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى، وآلاف الأنبياء الآخرين على مرّ التاريخ؛ لقد كانوا جميعًا على هذا المنوال، [لقد بذلوا مهجهم] من أجل أن يرتقوا بالبشريّة ويعلّموها ويفتحوا لها أبواب العلم والمعرفة، وكذلك من أجل أن يهيّئوها للتوجّه نحو الحياة الآخرة ويمنحوها كلّ ما تحتاج إليه في هذا المجال، وقد أنجزوا هذا العمل؛ هذا وإن أدّى ذلك إلى أنّ يُقتل بعض هؤلاء الأنبياء بتلك الطريقة المفجعة وبذاك النحو الذي تهتزّ له القلوب أثناء طيّ الطريق، وارتحلوا من هذا العالم دون أن يشهدوا تلك النتائج؛ إلّا أنّ البشريّة كانت وما زالت معهم في حالٍ من التّقدّم الدائم.

إنّ عالمنا اليوم هو أكثر استعدادًا لسماع كلام الحقّ الذي ينطق به الإسلام مقارنةً بما كان عليه قبل ألف سنة. إنّ البشرية اليوم، أصبحت أكثر استعدادًا لتقبّل الحكومة الإلهيّة مقارنةً بما كانت عليه قبل ١٢٠٠ سنة أو ١٠٠٠ سنة بل قبل ٣٠٠ سنة،



وسوف تكون أيضًا أكثر استعدادًا في الألف سنة المقبلة. ففي ذلك العصر الذي غاب فيه إمام الزمان (عج) عن الأنظار ولم يتمكّن من أن يبسط للناس ذلك البساط، الذي هو بساط الإمامة كما نقول، ففي ذلك اليوم لم يكن البشر مستعدّين لتقبّل إمامٍ ثوريٍّ مصلحٍ يحمل السيف بيده، فلو أراد ذلك الجليل أن ينهض ويثور ويقلب أوضاع المجتمع ليصنع مجتمعًا كما كان يدّعي، فمن المحتّم أنّه ما كان ليستطيع ذلك في ظلّ ظروف ذلك العصر غير المساعدة.

إنّ تجربة الأئمّة العظام من عترة النبي، كانت قد توصّلت إلى أنّ المجتمع قد أصابه الفساد بحيث لم يعد بالإمكان أن ينبت فيه أيّ نوعٍ من النباتات الصحّيّة، ويمكننا أن نشبّه الوضع الذي حصل بفعل الأيادي الظالمة والجائرة للقوى الطاغوتيّة من بني أميّة وبني العبّاس بالسموم والمفاسد التي كانوا يبثّونها في ذلك المجتمع. لهذا اختفى الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الأنظار، فماذا سيحصل عندما يأتي ذلك اليوم الذي سيظهر فيه؟ ونحن لا نعلم متى سيكون، بعد عشر سنوات أو ألف سنة أو أكثر أو أقلّ؟ فليس معلومًا البتّة، لكن في اليوم الذي سيظهر فيه الإمام ستكون البشريّة قد وصلت إلى حالةٍ من الاستعداد لتستمع إلى الكلام الحقّ وتتقبّله، وستكون مستعدّةً لحمل المجتمع الإسلامي الرفيع والمرتفع على أكتافها، وستكون مستعدّةً لتطبيق القرآن وإقامته، هكذا ستكون البشريّة في ذلك الزمان؛ في حين أنّ البشريّة لم تكن مهيّئةً في زمن إمام الزمان، فمن الذي حقّق ذلك؟ إنّ الذي قام بهذا الدور هو تعاليم الأنبياء والأئمّة الذين اتّبعوا هؤلاء الأنبياء.

وأنا سأبيّن في بحث الإمامة فلسفة الإمامة، وسأقوم بشرح





فلسفة وجود الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأوضّح الأمر جيّدًا. فالأنبياء، بناءً على هذا التفسير، لم يكونوا فاشلين في أيّة حقبة من التاريخ. ونحن نرى أنّه كلّما تقدّمت البشريّة وزاد عمرها، فإنّها تصبح أكثر قربًا من أوج الرقيّ والتكامل والسموّ، فماذا نريد غير هذا؟ وماذا يريد الأنبياء؟ إنّ ربّ العالمين يريد لهذه الاستعدادات الخامّ التي لم تنضج بعد، أن تصل إلى المقصد الطبيعي والفطري من خلال تلك الحركة الطبيعية وهو التكامل والترقّي. هذا ما أراده ربّ العالمين؛ ومن المسلّم أنّ البشريّة سوف تصل إلى تلك النقطة من الكمال النهائي، وهذا هو جبر التاريخ.. فالجبر التاريخي هو هذا؛ وهذا أفضل تعبيرٍ عنه.

إنّ هذه الأبحاث أبحاثٌ دقيقة، فأرجو منكم أن تدقّقوا في الألفاظ والكلمات وتعتنوا بها. إنّ مسيرة البشريّة تتّجه نحو العلوّ والتكامل، نحو الجنّة الموعودة في هذا العالم، وسوف تشهد الإنسانيّة بنفسها ذلك العصر الذي يضمحلّ فيه الظلم، ولا يكون فيه القبح والسوء، وسوف يكون كلّ شيءٍ مطابقًا لما تريده الإنسانيّة، هذه هي كيفيّة خلقة الإنسان وخلقة العالم؛ وهذا يعني أنّ هذا الموجود سوف يصل في مسيره إلى مثل هذا المقصد في نهاية المطاف، ويجب أن يصل؛ وهو ذلك العصر الذي تستعدّ فيه البشريّة لكلّ ما يلزمها من أجل تكاملها، هناك ستحقّق تلك البيئة والمهد اللازم للرقي والتكامل والسموّ وستسير بسرعةٍ وعلى أفضل ما يكون إلى الله، أي إلى الكمال المطلق. فمنذ بداية التاريخ البشري وإلى زماننا هذا، ونحن نتقدّم، ونقترب أكثر فأكثر من المنزل المقصود؛ هذا هو جبر التاريخ؛ ونقول مجدّدًا هذا هو مقتضى خلقة الإنسان وخلقة العالم؛ فهذا ما اقتضاه الله لخلقه،

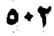




أن يتحرّك الناس نحو الرقي والتعالي شاؤوا أم أبوا. وبالطبع، ينبغي أن تعرفوا معنى قولنا «شاؤوا أم أبوا»، ضمن سلسلةٍ من الأفكار؛ وفي البحث الآتي سيتّضح معنى «شاؤوا أم أبوا». إنّ إرادة الناس لها مدخليّة كبرى، ولا شكّ أنّ هذا الترقّي الذي ستحقّقه البشريّة وتصل إليه سيكون بناءً على إرادتها.

فأن تكون عاقبة البشريّة حسنة هي أحد الأصول الإسلامية، التي تُعدّ من المسلّمات في الرؤية الكونيّة الإسلامية. لماذا؟ لأنّ اللّه تعالى قد خلق السماء والأرض على أساس الحقّ. والإنسان قد خُلق بفطرةٍ باحثةٍ عن الحقّ، ولأنّ للإنسان إرادة فينبغي أن يتحرّك على الطريق الذي يتطابق مع فطرته حتّى يصل إلى ذلك المقصد. فمن هو الشخص الذي يمكنه أن يبيّن له هذا الطريق ويخبره ما هو العمل الذي إذا قام به، فإنّه يكون قد عمل وفق الفطرة؟ إنّهم الأنبياء، والأنبياء قد جاؤوا من أجل هذا؛ من أجل أن يظهروا للإنسان طريق الفطرة أي أنّهم يقومون بتسريع سيره وتسهيله للوصول إلى تلك العاقبة الحسنة. وبناءً عليه، فإنّ الناس في حالةٍ من التقدّم، وها هي البشريّة تسير يومًا بعد يوم وتقترب من السعادة والمقصد الحسن، كلّ ذلك بسبب تلك الحركة التي حقّقها لهم الأنبياء؛ فالأنبياء هم الذين حرّكوا هذه الإنسانيّة، وأيّ تأخيرٍ كان قد حصل عبر التاريخ أو في أيّ مقطعٍ، أو مرحلةٍ من مراحله، فقد كان بسبب الابتعاد النسبي عن تعاليمهم؛ إلّا أنّ البشريّة كانت في النهاية تسير على هذا الخطّ، وهذا هو أحد المطالب التي سنبينها بنحوٍ كلّيّ.

وهكذا، نستنتج في القضيّة الأولى ونقول: إنّ الأنبياء الإلهيّين العظام، وإن واجه كلّ واحدٍ منهم كلّ أنواع الحرمان وعدم التوفيق،



لكنّهم على نحو المجموع كانوا يحرّكون مسير البشريّة نحو الرقي والتعالي؛ وقد مثّلوا العامل الأصلي وراء ذلك. فالأنبياء هم الذين كانوا يوجّهون هذا الإنسان ليصل إلى ذلك المقصد النهائي ويتحرّك نحو غاية العاقبة الإنسانيّة، وكانوا يمنحون هذا التحرّك كلّ ما يحتاج إليه لكي يكمل عمله على هذا الطريق، هذه هي القضيّة الأولى.

أمّا القضيّة الثانية، وهي التي يلتفت إليها أكثر الناس ويعتنون بها أكثر من غيرهم، فهي القضيّة الثانية التي سوف أوضحّها لكم. وهي التي ترتبط بسؤالنا حول مجيء الرسول إلى العالم وقيامه بتلك النهضة وتفعيله للثورة والبعثة؛ فهل يمكن أن نقول إنّ هذه الثورة قد آتت أكلها ووصلت إلى عاقبةٍ حسنة أم لا؟ وهل يمكن أن يؤمل بأنّ نهاية وخاتمة هذا العمل كانت حسنة، أم أنّه لا يصحّ أن يكون هناك أمل؟ فما هي القاعدة الكليّة في هذا المجال؟

البعض يقولون إنّه أينما جلنا سنجد أنّه أينما صدر كلام حقّ من لسان، ومن أيّ جانبٍ وصلت نغمة الحقيقة إلى الأسماع، فإنّها لم تصل إلى أيّة نتيجة أو ثمرة في النهاية، بل تمّ خنقها؛ ولقد صنعوا من هذه القضيّة تجربةً وقالوا: إنّ تجربة التاريخ البشري تدلّنا دائمًا على أنّ الأنبياء لم يوفّقوا أبدًا؛ ويقولون: وإن قلتم أنّهم ظفروا على نحوٍ كلّيّ، لكنّهم لم يتمكّنوا في نهاية المطاف من إيصال هذه الثورة التي صنعوها إلى غايتها، فهناك لم يتمكّنوا من إيصال الحقّ إلى الحكم والقضاء على الباطل. حسنٌ، وبناءً عليه، ماذا نفعل نحن؟ فلا ينبغي لنا بعدها أن نرفع يدًا، أو أن نخرج ذراعًا من الأكمام، أو أن نتّبع طريق الأنبياء؛ لأنّه إذا كان الأنبياء الإلهيّون العظام أنفسهم لم يتمكّنوا من أن يقوموا بأيّ عمل، وكانت الغلبة للباطل على الحقّ



دائمًا - وإن كان على نحوٍ موسميٍّ أو مرحلي - فماذا سيستفيد أصحاب الحقّ والناطقون بالحقّ؟ فليُعلم أنّه لن يحصل شيءٌ ذو فائدة، وليقوموا بوضع سيوفهم في الأغماد ويأخذوا استراحةً أو يناموا؛ إلى أن تخرج يدٌ مقتدرةٌ وتكون هذه اليد يد الغيب وتفعل ما ينبغي؛ هذا هو منطق الكثير من الناس، وهو ذاك المنطق الذي تحدّثت عنه، وهو المنطق الذي يعجب جبابرة التاريخ كثيرًا، إنّه ذلك المنطق الذي كان يعشق المستبدّون على مرّ التاريخ أن يكون الناس على اعتقادٍ به؛ أي أن يعتقد الناس أنّه لا يمكن لأيّة فاعليّة أو سعي أو مجاهدة أن تثمر على طريق الحقّ. هذا ما كان يريده جبابرة العالم على الدوام.

إنّ الخدع السياسية لزعماء دول العالم، والتي تطالعون أخبارها كثيرًا في الجرائد التي تذكر أوضاع العالم، هي من أجل هذا الهدف. فذلك الرجل الذي لم يبقَ له سوى ساعاتٍ قليلة أو عدّة أيّام حتّى يتهاوى عرش حكومته، وعمّا قريب سيصبح رجلًا عاديًا ويتنزّل من أوج رئاسته للجمهوريّة، نجده قبل هذه الأيّام القليلة يمارس الخداع، ويقول: إنّنا سوف نقمع أعداءنا، وسوف نقضي على معارضينا، وسوف نستمرّ بالحكم؛ مثلما أنّكم قد شاهدتم في هذه الأيّام الأخيرة في العالم، وعلى مستوًى عظيمٍ جدًّا في العالم، لقد رأيتم بأعينكم كيف أنّ قدرةً، مع كلّ ما فيها من عظمةٍ، تتهاوى دفعةً واحدة ويتحوّل صاحبها إلى رجلٍ عادي؛ لكنّه قبيل هذا الفعل والانفعال، والتحويل والتحوّل، يقول إنّهم لن يقدروا ولن يستطيعوا، إنّهم لن يتمكّنوا من أن يفعلوا شيئًا معنا، وإنّ رئاستنا لا يمكن أن تزول، ثمّ نرى بعد ذلك أنّها تهاوت وزالت؛ هذه هي الخدع التي تُمارس من أجل هذا الهدف. إنّهم يرغبون دائمًا بإشعار





الناس بمثل هذا الأمر أنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، وذلك لأنّ قدرتنا هي قدرة لا يمكن لكم أن تتخيّلوها، فنحن لدينا جميع الإمكانات والوسائل، وأنتم لا تملكون شيئًا منها.

فهل تتصوّرون أنّ هؤلاء لم يوجدوا في هذا العالم إلى اليوم؟ كلّا، لقد كانوا عبر التاريخ وفي كلّ الأزمنة. ففي مورد النبي موسى يقول فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[1] فها هو يقول: لن أدع موسى، ولن أسمح له أن يفعل ما يريد، بل إنّني سوف أقتل أبناء كلّ أتباعه وأبقي على نسائهم؛ وهذه هي الخطّة الجديدة. وبعد أن مارس فرعون كلّ ما يمكن أن يمارسه من ضغوطٍ تجاه موسى، ولم يدع شيئًا إلّا وواجهه به، وكان يظنّ أنّ موسى سوف يُقضى عليه، ها هو الآن يصل إلى نتيجةٍ وهي أنّ السحرة قد آمنوا به، ولم يقدر السحر على مواجهة المعجزة، فتجده يقرّر أن يمارس عنفًا شديدًا. فالمطروح هو التعامل بشدّة وعنف، ويقول إنّه يجب علينا أن نبذل كلّ ما بوسعنا؛ فماذا نفعل؟ يجب علينا أن نقتل كلّ الذين اتّبعوا موسى وأن نبقي على نسائهم أحياءً، ﴿وَنَسْتَحْيِۦ﴾ يعني نبقيهنّ أحياءً، ولا بدّ أنّه كان من أجل الفحشاء أو من أجل إفساد نسلهم أو أشياء من هذا القبيل. وهنا، لا شكّ أنّ الأمر قد وصل إلى صعوبةٍ شديدة، فها هو حزب موسى يقف مقابل خطّة جهاز فرعون التي تريد أن ترفع من مستوى العنف بشكلٍ غير مسبوق. فنجد أنّ الفرائص ترتعد، وأنّ القلوب القوية والثابتة تتزلزل، فهل أنّ في هذا الأمر مزاح؟ فهذا الشخص هو فرعون، وحين يقول إنّني سأفعل بهم ما أفعل، وقد أعددت خطّةً من أجل

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٧.



أن لا أترك لهم أيّ ولد، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يأتي الزمن الذي يجب أن يُشحن الموسويّون ويعبّأوا، ويجب أن لا يشعروا في مثل هذه اللحظات الحسّاسة والخطرة بأيّ نوعٍ من الهزيمة.

وقد تذكّرت هنا قولًا لأحد عظماء تاريخنا - وهي ترتبط بقرننا الأخير عمومًا، وقد نُقلت عنه هذه الجملة منذ قبل خمسين أو ستين سنة في هذه المواجهات التي دارت حول الملكيّة الدستوريّة (المشروطة) وأمثالها، وقد صار اسمه على جميع الألسن - حيث يُقال إنّه قال لأنصاره وحلفائه: حاربوا وواجهوا، وعندما تجدون أنّ الأمور قد وصلت إلى الشدّة والصعوبة فاستمرّوا بالمواجهة، حتّى إذا رأيتم أنّكم ستُهزمون حتمًا واجهوا، فهناك سوف تنتصرون؛ وهذا كلامٌ صحيحٌ. فإنّ أيّ شعبٍ أو جماعةٍ أو حتّى الفرد الواحد، إذا أراد أن يسعى للوصول إلى صلاحه ونجاته، يجب عليه أن يكون في مرحلةٍ زمنيّةٍ ما مؤمنًا أنّ سعيه سوف يثمر. وعندما تشتدّ المواجهة ويبدأ بفقدان أمله، فإنّه إذا تخلّى عن السعي، فلا شكّ أنّ سعيه لن يصل إلى النتيجة المطلوبة؛ ولكنّه في حال استمرّ في هذا السعي في تلك اللحظات الحسّاسة، واستقام على الطريق، ولم يتوقّف، حتّى لو شاهد بأنّ سعيه سوف يُحبط حتمًا، فإنّه لو استمرّ في سعيه، فإنّه سيصل حتمًا إلى التوفيق والنجاح.

وهنا، نجد أنّ موسى قد استفاد من هذه الخطّة الفرعونية من أجل تعبئة بني إسرائيل. فعندما شاهد بنو إسرائيل [أنفسهم] بأنّهم سيُهزمون حتمًا، وعزم فرعون على قتل جميع أبنائهم، قام موسى بعرض خطّته الجديدة مقابل خطّة فرعون الجديدة، فماذا قال لهم؟ نجده يقول لقومه عندما أصبح مقابل هذا الاستحقاق






والتّهديد الفرعوني، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾[١]، معلنًا عن موقفه في مواجهة إعلان فرعون لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ فهو يدعوهم إلى الاستمرار والمقاومة وعدم التوقّف عن السير وسط الطريق، فهو يبثّ فيهم الأمل، لماذا؟ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، فنحن عباد اللّه، وموسى يقول لبني إسرائيل إنّكم عباد اللّه، وإنّ عباد فرعون لن يصلوا في سعيهم وكيدهم إلى أيّة نتيجة لأنّ الأرض لعباد اللّه، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ نهاية الأمر وعاقبته ستكون للذين يسلكون سبيل التقوى.

هذا هو القرآن، وهذه هي الوقائع التاريخيّة التي توصلنا إلى هذه النتيجة وتدلّنا عليها. وها هو إبراهيم نفسه، نجده في يومٍ أرادوا أن يلقوه في النيران، وفي يومٍ آخر نجده في مكّة يبني بيت اللّه من أجل تشكيل المجتمع التوحيدي، ومن أجل أن يبقى هذا المجتمع لقرونٍ آتية بعده. وها هو موسى يومًا نجده يواجه فرعون بهذا النحو، وقومه من بني إسرائيل يعيشون كلّ الضغوط، ويومًا نجده يدخل تلك الأرض المقدّسة، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾[٢]. فاذهبوا إلى تلك الأرض وأنشئوا المجتمع الإلهي والتوحيدي فيها. وها هو عيسى بن مريم في تلك المدّة القصيرة من إقامته على هذه الأرض وبين الناس، ورغم أنّ سعيه وفاعليّته لم تعطِ ثمرةً ظاهرةً، لكنّه بعد أن عرج من هذه الأرض ولم يبقَ بين الناس، وبعد قرنين من الزمن تصبح أعظم القوى العالميّة في ذلك الزمان تحت تأثير الفكر المسيحي وهي الإمبراطويّة الرومانيّة. فمع

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٨.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٢١.





كلّ عظمة هذه الإمبراطوريّة الرومانيّة، تصبح متّبعةً للفكر المسيحي، ويتحوّل إمبراطورها إلى المسيحية ويؤمن بدين المسيح.

وها هو نبينا الذي كان يعاني في مكّة من كلّ تلك الضغوط، حيث مارسوا عليه، وعلى مدى ثلاث عشرة سنة، أشدّ أنواع العذابات والأوضاع الشديدة، وما إن يصل إلى المدينة حتّى يشكّل فيها حكومة، ويوجد ذلك المجتمع، ويثبّت نظامًا، ويسوق الناس نحو الكمال، ويشتّت أعداءه العنيدين ويصرعهم أرضًا؛ وكلّ ذلك إنّما يتحقّق في ظلّ الإيمان والصبر. فأينما وُجد الإيمان وُجد الصبر ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[1]. فلو وُجدت التقوى في الإيمان المتلازم مع العمل والصبر، فحينها سوف يأتي النصر؛ وهذه السنّة هي من سنن عالم التكوين، وهي سنّة اللّه في التاريخ. لقد كان الأمر هكذا في الأمس، وسوف يكون الأمر على هذا النحو اليوم، وسيكون كذلك في الغدّ. فإذا استطاعت جميع القوى الدينية أن تصبح قادرةً أو بقيت، فإنّ ذلك كان بفعل الإيمان والصبر. وفي يومنا هذا، فإنّ أولئك الذين يحبّون أن يسود القرآن والإسلام والتوحيد والنبوّة وأصول الإسلام المقدّسة، وهؤلاء الذين يرغبون بأن تتمكّن هذه الأصول من أن تصبح راسخةً في العالم وتأخذ بزمام حياة البشر، وهؤلاء الذين يرغبون بمشاهدة اللّه حاكمًا في العالم؛ فعليهم أن يرفعوا من مستوى قوّة الاستعدادين الأساسيين في أنفسهم، هما: استعداد الإيمان واستعداد الصبر. فلو أنّنا رفعنا من مستوى الإيمان وخميرة الصبر في أنفسنا ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، فلا يمكن لهذا أن يحصل من دون

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٥.






الإيمان ومن دون الصبر. هذا هو الجواب الذي نقدّمه على هذين السؤالين. لقد كان السؤال الأوّل حول ما إذا كان الأنبياء الإلهيّون من حيث المجموع قد نجحوا أو فشلوا، فنقول إنّ جميع الأنبياء كمجموعةٍ واحدةٍ قد نجحوا، وذلك بدليل أنّهم أرادوا للبشريّة أن ترتقي وتسمو وقد حصل ذلك. بالطبع، لقد عرضتلهذا المطلب في المجالس والمحافل المختلفة سواء في الدروس أو التفسير أو الأبحاث التي تُطرح بعد الصلاة، وكنت في كلّ مرّةٍ أضرب مثالًا، ولو أردت أن أطرح جميع تلك الأمثلة لطال الأمر؛ ولقد ذكرت لكم أحد هذه الأمثلة وهو التلميذ في الابتدائيّة.

لقد كان جميع الأنبياء موفّقين وناجحين من حيث المجموع ولم يفشلوا. ولكن يأتي السؤال الثاني وهو ما إذا كان كلّ نبيٍ على حدة، وفي كلّ نهضةٍ من النهضات الثوريّة والإلهيّة والتوحيدية، قد وصل إلى النجاح أم لا؟ ونحن نقول إنّه يوجد ها هنا قاعدة عامّة، وهذه القاعدة العامّة هي أنّ كلّ من يتحلّى بالإيمان والصبر يكفيه ذلك لتحقيق النجاح، وأنّ من لا يتحلّى بالمقدار الكافي من الإيمان والصبر فإنّه لن ينجح. والآن التفتوا جيّدًا إلى المجموعة الآتية من آيات القرآن، وهي مُستقاة من مصدرين: الأوّل سورة الرعد، والثاني من سورة الصافّات.

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[1]، فلأنّه خالق كلّ شيء يمكنه أن يخبرنا ماذا ستكون عاقبة الأشياء، وذلك لأنّه تعالى يريد أن يحدّثنا عن عاقبة الحقّ والباطل. فيبدأ ذلك أوّلًا بذكر خلقه لهذا العالم،

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ١٦.





والخالق يعلم السنن والقوانين التاريخيّة، فكأنّه يقول اسمعوا منّي ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾، فإذا كان خالقًا لكلّ شيء فله الوحدانيّة وله القدرة والقوّة.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾[1]، وهنا يضرب لكم مثلاً. هذه الآية من ناحية التركيب اللغوي العربي جميلة جدًّا، وللأسف إنّ الإخوة الذين لا معرفة لديهم باللغة العربية لا يمكنهم أن يتلمّسوا بدقّة هذا الجمال. فإنّه تعالى لا يقول إنّني سأضرب لكم مثلًا أوّلًا، وإذا كنتم أنتم تستمعون لن تفهموا أنّ هذا تمثيل وإلى أين يمكن أن يؤدّي، ولن تلتفوا، لكنّكم في النهاية ستدركون ما هو الخبر وأنّه في طور التمثيل، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ سواء كانت هذه الأودية عبارة عن أنهارٍ كبيرة أو سيول صغيرة، ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ فهذا السيل الذي يجري في الممرّات النهرية، يحمل فوقه ذلك الزبد الذي يبرز، بحيث إنّكم عندما تمرّون بجانب النهر ويكون الماء في طور السيلان، فإنّكم إذا وقفتم سترون أنّ الأمر ليس عبارة عن ماء، وإنّما هو عبارة عن زبد وأنّ الماء تحته وأنّ هذا الزبد قد نما وفار على سطح الماء الذي يجري؛ وكأنّ الماء السائل يريد أن يتظاهر بنفسه، فأنتم ترون الزبد والماء تحته.

ونذهب إلى موضعٍ آخر حيث يوجد في مثالٍ ثانٍ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ فإنّ تلك الأشياء التي يضعونها في النار كالموادّ المعدنيّة أو كالحديد، ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ سواء كان الأمر من أجل التزيّن، مثلما يوضع الذهب في النيران لكي يصنعوا

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ١٧.





منه زينةً؛ أو يضعون الحديد، أو غيره كالنحاس، في النيران من أجل أن يصنعوا منه أشياء. وتلك الأشياء التي توضع في النيران من أجل أن تُستخرج منها الحلي والآلات والمتاع والبضائع، فيها أيضًا زبد مماثل لذلك الذي كان في السيول الجارية، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ وهناك عندما يذوب الحديد مثلًا ستجدون كيف أنّه يوجد زبدٌ فوقه، وكذلك عندما يذوب الذهب فله زبدٌ خاصّ، فما هو الأصل؟ وما هي المادّة التي تمنح الحياة؟ هل هو الماء أم الزبد؟ ولكن ما الذي تراه العين بحسب الظاهر؟ وماذا يتجلّى أمامها؟ وما هو الشيء الذي يظهر نفسه أكثر؟ إنّه الزبد.

وهنا نسأل: هل أنّ هذه الآلة والأداة المطلوبة للإنسان هي هذا المعدن أو الزبد؟ هل أنّ الموجود عند تذويب المعدن هو الذهب أم زبده؟ ولا شكّ أنّ الذهب والمعدن هو المطلوب، فما هو دور الزبد إذًا؟ إنّه يشبه الشيء الطفيلي الزائد، ولكن ما هو الشيء الذي تراه العين أكثر؟ إنّه الزبد، لا الذهب ولا المعدن رغم أنّه منهما تُصنع الأشياء؛ ثمّ يقول مباشرةً: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، وهكذا يظهر اللّه لنا الحقّ والباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ فإنّ ما ترونه ظاهرًا هو الزبد وهو الباطل، أمّا ما يختفي تحت الزبد فهو الماء أو الذهب أو المعدن وهو الحقّ.

وهنا، وإلى هذا الحدّ نكون قد عرفنا المثل؛ فاستمعوا إلى ما يأتي بعده من اللّه، وكيف ستكون عاقبة هذا الشيء. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ إنّ الزبد الذي يكون فوق المياه الجارية ليس دائميًّا فهو موجودٌ في لحظة، وفي لحظةٍ أخرى يصبح معدومًا. وعندما تفتح خراطيم المياه في مزرعتك، فإنّ ما يأتيك من السيول



هو الذي يبقى لك، وهو الماء لا الزبد، فزبده يزول، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سواءٌ كان هذا الذي ينفع الناس هو الماء أو المعدن أو الذهب، فإنّه يبقى ويستقرّ في الأرض، ولا يزول. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وإنّ اللّه تعالى يريد بهذا المثال أن يقول إنّ الحقّ ماكثٌ وباقٍ. وحيث إنّ دعوة الأنبياء ونهضتهم هي حقّ، فإنّها تبقى؛ في حين أنّ كلّ باطلٍ وقف في مقابل الأنبياء وتحدّى وتظاهر، فإنّه سوف يُذلّ ويذهب جُفاءً لأنّه كالزبد، إنّه مثل الحُباب والفقاع الذي نراه على الماء زائلٌ لا محالة. هذا هو المثل الذي ضربه اللّه.

وبعد هذه الآية التي أظهرت هذا المثال، يأتي تطبيقه في مجال المواجهات الاجتماعية للمسلمين، فيقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي العاقبة الحسنة والأجر والثواب. فإنّ العاقبة تكون لأولئك الذين استجابوا لدعوة الأنبياء في نهضتهم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ فسلكوا طريق الباطل، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾، فهناك نجد أنّ أتباع الباطل وعندما تصل الأمور إلى خواتيمها نجدهم مستعدّين لأن يدفعوا كلّ ما لديهم، حتّى ولو كانت لهم الأرض وما فيها مضاعفًا، من أجل أن ينجوا أنفسهم من هذه المهلكة؛ فهل شاهدتم أيّها الأعزّاء مثل هذا في التاريخ؟ ألم تروا تلك المواجهات المستمرّة بين الحقّ والباطل، وكيف أنّ بساط زعماء الباطل ورؤسائه قد طُوي وانقضى؟ ولو أنّهم كانوا يقدرون في تلك الأحوال أن يدفعوا كلّ هذه الدنيا من أجل أن ينجوا بأنفسهم وأرواحهم ومقاماتهم [الفعلوا]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ عندئذٍ، سيُحاسب هؤلاء بئس ما يكون وسيكون محلّهم النهائي تلك النار المشتعلة.



هذه هي آيات سورة الرعد.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، هذه الكلمة تظهر أمر اللّه الذي تمّ وانقضى. لقد اتُّخذ القرار اللازم وما يقتضيه في مكانه، فما هو هذا القرار؟ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فالنصر يأتيهم من قبلنا، وقد ذكرت سابقًا أنّ شرطه الأساسي هو ذلك الإيمان والصبر. فرسول اللّه يدعو الناس في كلّ الميادين إلى الصبر، وكذلك أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانوا يقولون دائمًا: اصبروا؛ وما هو الصبر في ميدان الحرب؟ وماذا يعني الصبر في المواجهة؟ إنّه يعني عدم الإحساس بالوهن من المواجهة، وعدم إيقاف السعي أو تركه وسط الطريق، هذا هو معنى الصبر. فلو أنّ مسلمي العالم اليوم تمسّكوا بهذين العاملين: عامل الإيمان وعامل الصبر على طريق التطّور الثقافي والاقتصادي والسياسي لأصبح المجتمع الإسلامي متفوّقًا على الكفّار وعلى أعداء الدين بلحاظ الثقافة والسياسة والاقتصاد.

فلا ينبغي أن يظنّ المسلمون أنّ جباههم قد وُسمت بسمة المذلّة والتخلّف والفقر. كلّا، فلا ينبغي أن يظنّوا أنّ أعداء الدين والإسلام في كلّ أنحاء العالم، وهم الذين يمثّلون القوى العالميّة المخالفة، لا ينبغي أن يظنّوا أنّه ينبغي لهؤلاء أن يكونوا دومًا ممسكين بزمام المسلمين ويفرضون عليهم ما يحلو لهم ويستغلّونهم. كلّا، الأمر ليس كذلك حتمًا. فلو أنّ مسلمي العالم من الدول الإسلامية، ولو أنّ الجماهير المسلمة والشعوب المسلمة، وباختصار لو أنّ

---

(١) سورة **الصافّات**، الآية ١٧١



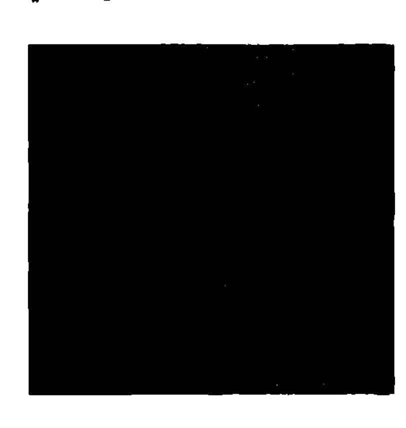


الأمّة العظيمة التي تُعدّ اليوم حوالي ٦٠٠ أو ٧٠٠ مليون نسمة اتّخذت الإيمان والصبر ذخيرةً، لانتصرت على العالم كلّه. وهذه هي وصيّة القرآن إلى جميع المسلمين في كلّ الأزمنة. هذه هي حصيلة بحثنا. لقد أردت لكم أن تعلموا أنّ عاقبة كلّ نبوّة هي عاقبةٌ حسنة، وأردتكم أن تتعرّفوا على هذا المطلب من القرآن.

الجلسة الواحدة والعشرون

عاقبة النبوّة (٢)

الأربعاء، ٢٢ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

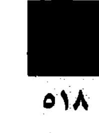
﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

[سورة غافر، الآيات ٥١-٥٤]



ذكرنا في الجلسات السابقة أنّ وعد اللّه لأنبيائه ورسله بين الناس هو وعدٌ يبعث الأمل ويمتزج بالبشرى، أي أنّ اللّه تعالى قد وعد بأن ينصر أنبياءه وحملة ثقل أمانة الرسالة وكذلك كلّ الداعين إلى الدين وإلى الحقّ والحقيقة، سواءٌ نصرهم في هذه الدنيا على أعدائهم، أو في الآخرة بإعطائهم الأجر والثواب. وبالمجموع، لقد اختصرت ما يمكن بيانه بشأن انتصار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في مطلبين؛ الأوّل: هو أنّنا عندما نلاحظ سلسلة النبّوات عبر التاريخ من أوّلها إلى آخرها، سنجد أنّ الذين أُرسلوا معلّمين للبشريّة كانوا موفّقين وناجحين بالمجموع؛ وصحيحٌ أنّ بعض هؤلاء الأنبياء قد واجه بعض الفشل أو نكران الجميل من قبل الناس أثناء دعوته وإلى نهاية دعوته، لكنّنا عندما نحسب القضيّة بالمجموع نشاهد أنّ الأنبياء الأعزّاء قد أنجزوا ذلك العمل الذي أرادوا إنجازه منذ البداية وحتّى النهاية.

وكنت قد شبّهت عمل الأنبياء بالمعلّمين الذين يريدون تربية تلميذ المدرسة من أوّل مراحله الدراسيّة وحتّى نهايتها، مرحلةً بعد مرحلة، فيأتي ستّة معلّمين، أو عشرة، أو حتّى خمسة عشر معلّمًا،





من المراحل الأولى وحتّى آخر المراحل، ويريدون أن يرتقوا بهذا التلميذ شيئًا فشيئًا من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة. هذا، وإن كان معلّم الصفّ الأوّل سيقطع مقدارًا من هذا الطريق ومن هذا المسير ويقدّمه لهذا الطفل ويساعده على طيّ هذا الطريق، وإن كان معلّم الصفّ الأوّل لا يشاهد وصول هذا التلميذ إلى أوج الكمال ويموت قبل ذلك، لكنّنا نتساءل ما هو الحكم الذي سنصدره بشأن نجاح معلّم الصفّ الأوّل أو عدمه؟ فهل أنّنا سنقول بما أنّه لم يتمكّن من إيصال التلميذ إلى آخر مرحلة، أو لأنّه لم يتمكّن من مشاهدة وصول هذا التلميذ إلى المرحلة الأخيرة، فهل نقول إنّه لم يكن ناجحًا؟ كلّا، لقد قام بما عليه ونقل حمل الأمانة إلى من أتى من بعده لكي يؤدّي دوره في هذه المسؤوليّة.

والمثال الآخر الذي كنّا نضربه دائمًا في هذا المجال: نقول إنّه لو كان من المقرّر أن ننقل حملًا كبيرًا مجهدًا من هذا المكان إلى رأس المسجد، ولا يستطيع شخصٌ واحدٌ أن يحمله أو ينقله على تلك العربة من هنا إلى هناك لوحده ودون إعانة شخصٍ آخر، ولا يستطيع جميع الأفراد أن يساعدوا بعضهم بعضًا ليحملوا هذا الثقل دفعةً واحدةً وينقلوه، يبقى عندئذٍ طريقٌ واحدٌ وهو أن يقوم شخصٌ من هؤلاء الأقوياء المقتدرين المستعدّ لحمل هذا الثقل، بنقله لمسافة مترٍ واحدٍ، ثمّ يأتي شخصٌ وينقل هذا الثقل مترًا آخر، وهكذا يأتي الثالث والرابع إلى أن يصل إلى الشخص السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين، ففي النهاية سيصل هذا الثقل إلى آخر الباحة الخارجيّة والتي تفصلنا مثلًا عن المكان الأوّل بحدود ثلاث وثلاثين أو أربعين مترًا؛ وهذا المقدار من المسافة يكون قد قُطع وتمّ نقل الثقل، حيث إنّ كلّ



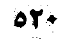
واحدٍ من الذين شاركوا في حمله تمكّنوا أن ينقلوه مسافة مترٍ واحدٍ، ولعلّ البعض منهم قد فقد روحه أثناء القيام بهذا الأمر، فلقد كان هذا الحمل ثقيلًا إلى درجة أنّه لو أراد الإنسان أن يتقدّم به مترًا واحدًا لاضطرّ أن يقدّم نفسه فداءً على هذا الطريق، وقد فعل ذلك؛ لكنّ الحصيلة الجمعيّة في هذا المجال أضحت أنّ روحًا عزيزةً قُدّمت فداءً لطيّ هذه المرحلة من الطريق واقترب الحمل منزلًا، واقترب أكثر إلى نهاية الطريق.

إنّ الأنبياء هم أولئك الأقوياء الجسيمون الذين تقدّم كلّ واحدٍ منهم بهذا الحمل مترًا واحدًا، فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء وتقدّم بحمل هداية البشريّة وإيصال أجيالها إلى أوج الثقافة والفضيلة مترًا واحدًا، وإن كان قد تحمّل كلّ أنواع الأذى لقطع هذا المتر، ولو كانت دعوته قد احتاجت إلى ألف سنة إلّا خمسين عامًا، وتقدّمت بشكلٍ مختصر، وإن كان آخر الأمر قد قدّم روحه من أجل هذا العمل، لكنّه في النهاية قد أنجز وظيفته. أليس كذلك؟ ألم يقترب هذا الحمل نحو الهدف المقصود مترًا؟ فأنتم ترون أنّ الأمر قد حصل.

والنبي الذي جاء من بعد نوح، قام أيضًا بنقل هذا الحمل لمسافة متر إلى الأمام، وهكذا جاء النبي الثالث وفعل ذات الشيء. وعندما جاء خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم وبُعث بالرسالة أوصل هذا الحمل المذكور إلى حدٍّ معيّنٍ مقدّر، ووضعه على الجادّة، ومن على الجادّة يضعه على العربة ويتقدّم، وسوف تصل البشريّة إلى البلوغ بناءً عليه. إذًا، لقد كان الأنبياء موفّقين وناجحين من أوّلهم إلى آخرهم.

ثمّ وبعد ذلك وفي نهاية الأمر، فإنّ آخر سفيرٍ إلهي - والذي






نذكره تحت قضيّة ظهور وليّ العصر صلوات اللّه عليه يمثّل تلك البُشرى لجميع الإلهيّين والمليّين في هذا العالم على مستوى هذه القضيّة؛ فهو آخر المبعوثين الإلهيّين، والذي نؤمن بأنّه إمام زماننا وإنّ كلّ أتباع الأديان في هذا العالم ينتظرونه - إلهي يأتي ويوصل هذا الحمل إلى نقطة النهاية. فمن كان يتّبع إمام الزمان في عمله هذا؟ لقد كان استمرارًا لعمل نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى، وإتمامًا لعمل نبينا، واستمرارٌ لعمل أئمّة الطهر من آل بيت النبي. فإذا لم يصل هذا الحمل إلى خطّ النهاية نقول إنّ نوح قد فشل، ولكن بما أنّه سيصل في النهاية إلى المقصود، ولأنّه كان لنوحٍ دورٌ في إيصال هذا الحمل إلى نهاية الطريق، فلا نقول إنّه قد فشل. وهكذا هو الأمر بالنسبة لإبراهيم، ولزكريّا الذي قُسم ظهره إلى نصفين، وبالنسبة لذلك النبي الذي قُسم بدنه إلى نصفين، وبالنسبة لذاك النبي الذي أُلقي في البئر؛ وصحيحٌ أنّه أُلقي في البئر، وصحيحٌ أنّه لم يرَ في الدنيا ما كان يريد أن يراه، وصحيحٌ أنّ يحيى عَلَيهِ السَّلَامُ قد قُطع رأسه وأُهدي إلى طاغية زمانه، كلّ ذلك صحيحٌ ولكن لا أحد من هؤلاء الأنبياء العظام قد هُزم؛ وذلك لأنّهم تحمّلوا كلّ هذه البلاءات والمصائب مقابل التقدّم بحمل الأمانة والاقتراب إلى المنزل المقصود.

المطلب الآخر الذي أشرت إليه بالأمس أيضًا، هو أنّنا رأينا أنّه في العاقبة النهائية وفي خاتمة العمل الكلّيّة، لم يُهزم الأنبياء أبدًا، ولم تكن الهزيمة متوقّعة بالنسبة لهم، فإنّهم في نهاية المطاف نجحوا ووُفّقوا بحسب البيان الذي قدّمناه. لكنّ بعض الأنبياء، بالإضافة إلى ذلك التوفيق النهائي، الذي عبّرنا عنه بتقريب الوديعة من المقصد النهائي، قد حظوا بنجاحاتٍ في هذا العالم أيضًا،





وكانت هذه النجاحات عبارة عن أنّهم تمكّنوا من إيجاد المجتمع على أساس الفكر التوحيدي وعلى أساس المذهب الذي بُنيت فيه أطروحتهم. ومن النماذج الواضحة لهذه الواقعة نبينا الذي أوجد ذلك المجتمع أو النظام على أساس الفكر الإسلامي وأسلوب الفكر القرآني والإلهام الإلهيّ، فكان ذلك مجتمعًا ومدينةً. وكثيرٌ من الأنبياء السابقين كانوا مثل النبي أيضًا، وهذا ما أشرنا إليه سابقًا. فإقبال إمبراطور الروم على الإيمان بعد رحيل عيسى، وتشكيل المجتمع الفاضل لبني إسرائيل بعد رحيل موسى، وتشكيل إبراهيم للمجتمع الإلهي في حياته، وهو ما نطق به القرآن. والحكومة الإلهيّة التي نشرها سليمان في كلّ آفاق العالم. فهذا النبي من بني إسرائيل والمُسمّى بسليمان بن داوود قد جمع العالم كلّه حول محورٍ واحد ليشكّل بذلك مجتمعًا توحيديًا وإلهيًّا.

إذًا، بعض الأنبياء كانت لهم نجاحات وتوفيقات في حياتهم، ويمكن أن نختصر هذا التوفيق بكلمةٍ واحدة وهو تشكيل هذا النظام والمجتمع الإلهي والتوحيدي. ولم يكن لبعض الأنبياء مثل هذه الفرصة، مثل زكريّا الذي تحدّثنا عنه، أو يحيى الذي ضربناه مثلًا، فإنّهم لم ينجحوا في هذه الحياة الدنيا وقُتلوا في النهاية. فما هو هذا الشيء؟ وكيف يمكن تحليل وتفسير هذه القضيّة؟ فلماذا وُفّق بعض الأنبياء ولم يوفّق البعض الآخر؟ ولماذا لم يتمكّن الجميع من تشكيل المجتمع الإلهي والتوحيدي؟ ولماذا كان للبعض فقط مثل هذه الإمكانات والتوفيقات؟ يمكن اختصار الجواب في جملةٍ واحدة وهي: إنّ كلّ التوفيقات التي حصل عليها الرجال والقادة والعظماء الإلهيّون إنّما كانت بإيمانهم وصبرهم، وأينما هُزم القادة الإلهيّون العظماء ودُعاة الحقّ والحقيقة، فذلك بسبب عدم وجود





الاستعداد الكافي من الإيمان والصبر، نقول هذا دون أيّ تردّد.

لقد كان الأمر هكذا في كلّ الأحوال، فأينما كان أتباع النبي والمؤمنون به ينفقون الصبر في مواجهة الأعـداء والمعاندين والمعارضين لدعوة النبي كانوا يتقدّمون، وكان ذلك مقتضى الفتح في دعوة الأنبياء؛ لأنّ الأنبياء إنّما يتحدّثون طبقًا للحقّ ويتحرّكون على أساسه، والحقّ منتصرٌ دومًا. إنّ الحقّ مطابقٌ لفطرة العالم وأصل خلقته، لذلك فهو موفّقٌ ومنصور. والأنبياء لا يتحدّثون إلّا على أساس هذه الفطرة والخلقة الأصلية. بناءً عليه، فإنّ أساس ومقتضى التوفيق موجودٌ بشكلٍ كامل في نهضة الأنبياء وفي ثورات الرسل. وإذا رأينا أنّ رسولًا قد هُزم في التاريخ، فلا نعتبر ذلك دليلًا على أنّ كلام الحقّ يجب أن يُهزم، فإنّ كلمة الحقّ يجب أن تنتصر ولا بدّ لنظام الحقّ أن يُغلَب، وينبغي ليد الحقّ أن تعلو على رأس الباطل وتقمعه وتجعله زاهقًا؛ فلماذا يُهزم النبي في موضعٍ ما إذًا؟ ذلك لأنّ أتباعه لم يتمتّعوا بالإيمان أو الصبر الكافيين، ولم ينفقوا من الصبر ما هو مطلوبٌ؛ وإلّا فإنّ الآية ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1]، كلام اللّه الذي لا اختلاف فيه ولا بطلان؛ فإذا رأيت في مكانٍ ما أنّ الناطقين بكلمةِ الحقّ قد غُلبوا فاعلموا أنّهم لم يكونوا جند اللّه، وأنّ شروط صيرورة الإنسان من جند اللّه لم تكن فيهم، وإمّا أنّ الذين كانوا السبب وراء ذلك وأدّوا إلى تلك الهزيمة وهيّئوا مقدّماتها، فإنّهم لم يكونوا جند اللّه. إنّ المجتمع الإسلامي عندما يصبح جند اللّه فإنّه يتقدّم، وعندما يتراجع فذلك لأنّه ليس من جند اللّه.

---

(١) سورة **الصافات**، الآيات ١٧١- ١٧٤.



يمكن اختصار محصّل القضيّة في كلمتين: إنّ سبب الهزائم من جانبٍ وسبب الانتصارات من جانبٍ آخر هو: إذا أوجد أتباع النبي في أنفسهم الإيمان واليقين الكاملين وثبتوا على كلمة حقّهم فمن المسلّم أنّهم سوف ينتصرون ويتقدّمون ولا يمكن أن تنزل بهم الهزيمة. لقد ذكرت سابقًا شيئًا، ونقلته عن أحد الأجلّاء الذين كانوا في التاريخ المعاصر القريب من عصرنا يقول لأنصاره: عندما تقدرون واجهوا، وعندما ترون أنّكم ستُهزمون واجهوا أيضًا، حتّى تصلوا إلى تلك اللحظة التي تتيقّنون فيها بأنّ الهزيمة ستحلّ بكم، فواجهوا أيضًا؛ وعندما تصل تلك اللحظة التي تتيقّنون فيها بأنّكم ستُهزمون قوموا وابذلوا السعي واستمرّوا في جهادكم، وهناك سيكون الفتح والنصر من نصيبكم. والآية القرآنية تذكر مثل هذا المطلب تقريبًا أو تحقيقًا، وتقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[1]، فوصل الأمر بالضغوط والضربات التي وجّهتها الجبهات المعارضة للأنبياء إلى حدٍّ استيأس معه الرسل ومَن كان معهم وزُلزلوا، لا بلحاظ الإيمان لأنّ إيمانهم بقي ولم يزُل، كما أنّهم لم يفقدوا اعتقادهم باللّه، ولكن لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم سينتصرون فإنّ إيمانهم ويقينهم بالنصر صار يضمحلّ شيئًا فشيئًا وظنّوا أنّهم قد فهموا الأمر خطًا، فقد كانوا على يقين أنّ اللّه قد قال لهم إنّكم ستنتصرون حتمًا، لكنّهم وصلوا إلى حيث أنّهم ظنّوا أنّ فهمهم لهذه القضيّة كان خطأ، وأنّ اللّه لم يعدهم مثل هذا الوعد، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ ففي تلك اللحظة وبسبب شدّة الضغط والضربات التي يوجّهها العدوّ، شعرت جبهة الحقّ وجبهة

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١١٠.





الدين أنّها في طور الزوال وأنّه سيُقضى عليها، وأنّ العدوّ يوشك أن ينتصر، وأنّهم قد سُدّت عليهم الطرق من كلّ جهة وكأنّ الأرض أطبقت عليهم؛ ففي تلك اللحظة ولأنّهم أظهروا الاستقامة، ولأنّهم لم يتوقّفوا عن الجهاد، جاءهم النصر الإلهيّ.

نحن نتصوّر أنّه وبسبب تعرّض بعض النهضات الداعية إلى الحقّ للهزيمة في بعض مقاطع التاريخ - فإذا أُصيب زيد بن عليّ[١] بالسهم في جبهته في مسجد الكوفة وصُرع، وإذا هُزم محمّد بن عبد اللّه[٢] صاحب النفس الزكيّة في مواجهة المنصور، وإذا قُتل حسين بن علي الحسني[٣] شهيد فخّ قرب المدينة مع كلّ أنصاره،

---

(١) كان أوّل علويٍّ يقوم بالثورة المسلّحة في زمن خلافة هشام بن عبد الملك وفي زمن إمامة الإمام الصادق، وكان هدفه إعادة الحقوق المسلوبة من آل محمّد إلى الإمام المختار من آل محمّد. جمع زيدٌ من أهل الكوفة أصحابًا ورفع راية القيام، وهناك أُمر يوسف بن عمر الثقفي بمحاربته، وقبل أن تحصل المواجهة تخلّى عنه الكثير من أنصاره وتركوه وحيدًا في الميدان، وهناك استُشهد مع جماعةٍ قليلةٍ، وحول زيد يقول الإمام الرضا: لقد قام بالحقّ، وقُتل بالحقّ، ولو أنّه انتصر لأرجع الخلافة إلى أصحابها.

(٢) محمّد بن عبد اللّه الحسن الملقّب بالنفس الزكيّة من فضلاء بني هاشم، وفي أواخر دولة بني أميّة. اجتمع بنو هاشم واتّفقوا فيما بينهم على أن يبايعوا صاحب النفس الزكيّة بعنوان مهدي هذه الأمّة، ولم يرضَ الإمام الصادق. وبعد وصول المنصور إلى الخلافة أسر جميع أولاد الإمام الحسن والإمام الحسين وأرسلهم إلى العراق وحبسهم في الكوفة حتّى يموتوا في السجن واحدًا بعد واحد، وبعد أن سمع هذا الخبر ثار في المدينة وأخرج أميرها منها، وجرت قرب المدينة بينه وبين جيش الخليفة معركة قُتل فيها.

(٣) الحسين بن علي بن حسن من أحفاد الإمام الحسن، وقد عاش في المدينة في زمان الإمام الكاظم. اقترح عليه بعض الناس الثورة ووعدوه بالنصرة بسبب قمع =





وإذا قُتل إبراهيم بن عبد الله[١] في الكوفة والبصرة. نحن نتصوّر أنّه ينبغي أن تشكّل لنا هذه الوقائع رؤية عامّة وهي أنّ كلّ نهضةٍ تقوم بالحقّ على الباطل محكومٌ عليها أن تُهزم؛ حيث إنّ بعض الجهلة وعديمي الاطّلاع على منطق القرآن يتصوّرون مثل هذا. وقد قلت إنّ مثل هذا التصوّر يدخل إلى قلوب المستبدّين وطغاة التاريخ مثل الماء العذب، فهم يتمنّون من كلّ قلوبهم أن يعيش الناس مثل هذا التصوّر ويعتقدوا به. وبالطبع، من الواضح أنّهم هم من يروّج لمثل هذا النمط الفكريّ، لكنّ هذا الأمر مخالفٌ للواقع.

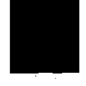
فلو أنّ زيد بن علي استُشهد هناك على تلك الحال المفجعة، فهذا ليس دليلًا على أنّ الحقّ محكومٌ بالزوال والهزيمة، بل إنّه دليل على أنّ الحقّ مع وجوده فهو يحتاج أيضًا إلى السعي والعمل والجهاد. فلا ينبغي أن نظنّ أو نتصوّر ذلك لأنّ كلمتنا هي الحقّ فلا ينبغي أن نسعى في طريق الحقّ. ولا ينبغي أن نتصوّر بما أنّ دعوتنا هي القرآن، فإنّ الله سوف ينصر القرآن ويتقدّم به هكذا. كلّا؛

= الخليفة العبّاسي ووالي المدينة. وقد ثار في البداية في المدينة وبعد أن سيطر عليها، توجّه مع ٣٠٠ شخص إلى مكّة وهناك واجه قرب مكّة جيش الخليفة العبّاسي في مكان عُرف باسم الفخّ واستُشهد هناك. وقد قُطع رأسه ورأس ١٠٠ آخرين معه ووُضعوا أمام الحجّاج في مكّة. وقد تُركت جثامينهم على الأرض لمدّة ٣ أيام، قال الإمام الجواد عنه: لم يكن لنا مقتلٌ بعد كربلاء أعظم من حادثة الفخّ.

(١) إبراهيم بن عبد الله، أخو النفس الزكيّة. أخذ البيعة في البداية باسم أخيه، وعندما استُشهد أخوه دعا إلى نفسه، ثار في مدينة البصرة وسيطر عليها بسرعة، ودعاه مجموعة من أهل الكوفة إليهم، وأثناء الطريق التقى إبراهيم بجيش الخليفة العبّاسيّ، واستُشهد على طريق الكوفة.

صحيحٌ أنّ كلمة الحقّ ستبقى حقًّا، وصحيحٌ أنّه قُضي بأنّ العالم سيتقبّل هذا الحقّ في المستقبل وهو من المسلّمات؛ ولكنّ الأمر يحتاج إلى السعي والفعّاليّة، ويجب على البعض أن يصبروا عليه، ويحتاج البعض إلى أن يبذلوا المهج من أجل تثبيت عرش الحقّ. إنّ ما جرى على زيد بن علي يقدّم لنا هذا الدرس، وهو لا يقول إنّ الحقّ محكومٌ بالزوال، فلماذا وقعوا في هذه الشبهة؟!

لقد كان زيد بن علي صاحب كلمة حقّ وهذا مسلّم، وقد وقّع الإمام الصادق صلوات اللّه عليه أيضًا على جهاد زيد بن علي ضدّ جهاز هشام بن عبد الملك، وأجاز ذلك النضال المدهش والتاريخ ناطقٌ بهذا المعنى. فقد ذهب هذا الجليل أيضًا وقام بالعمل بشكلٍ جيّد. غاية الأمر أنّ بعض الباحثين عن الأعذار، والذين تكسوهم الجهالة وعدم الوعي أو الأغراض السيّئة، والتي أدّت إلى وقوعهم تحت تأثير دعايات السوء التي يبثّها العدوّ المتربّص، قد خذلوه في اللحظة الحرجة وتركوه لوحده. هذا هو الدرس الذي نتعلمّه من تلك الواقعة، وهو أنّه حتّى ولو كانت الكلمة حقًّا، وحتّى ولو سلّمنا بحقّانيّة زيدٍ بن عليّ، فإن خذله أنصاره وأتباعه وتركوه لوحده ولم يسلكوا طريقه في الجهاد والسعي معه، فإنّهم سيُهزمون. أمّا لو جاهدوا فإنّهم سيتقدّمون، وإنّ كلّ كلمات العالم هي على هذا المنوال. أسألكم، كم تعرفون في هذا العالم من أفرادٍ وعقائد ومذاهب تمكّن أتباعها وأنصارها من خلال السعي والجهاد من ترسيخها وتثبيتها؟ فكيف يمكن للكلام الباطل، والكلام الذي يخالف سنّة العالم وطبيعة الإنسان، أن ينتصر ويثبت على أثر السعي والجهاد، في حين لا تستطيع كلمة الحقّ أن تستقرّ وتثبت على أثر الجهاد؟ فأيّ كلامٍ هذا، لكنّ البعض يكرّرون هذا الكلام





الباطل، يشترّونه.

وها نحن نجد كيف أنّ أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه في إحدى خُطب نهج البلاغة، وفي جملةٍ من هذه الخطب المختصرة يبيّن هذا المطلب بشكلٍ كامل؛ وسوف أنقل لكم هذه الخطبة الآن، وهي الخطبة التي قرأتها على الإخوة الذين قد حضروا لعدّة مرّات وفي المحافل المختلفة، فأمير المؤمنين يشرح وقائع تقدّم جنود الإسلام في زمان النبي، فيقول: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّه (صلّى اللّه عليه وآله)، نَقْتُلُ آبَاءَنا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا»[1]، لو كان الأبّ أو العمّ أو الابن أو الأخ تحت راية الكفر وأراد بذلك محاربة النبي، فنحن كنّا مع رسول اللّه؛ لم نكن نقول إنّ هذا أخونا فلا ينبغي أن نقتله، أو إنّ هذا ابننا لا ينبغي أن نقتله، بل كنّا نقتل كلّ هؤلاء في سبيل اللّه، وعندما كنّا نفعل ذلك ونرجع فإنّنا لم نكن نشعر بأيّ تزلزلٍ في قلوبنا أو أن نتحسّر ونندم على ما فعلنا في سبيل هذا الدين الجديد والفكر المعاصر. كلّا؛ فإنّ إيماننا لم ينقص أبدًا على أثر هذا الإقدام الحادّ والحازم، «مَا يَزِيدُنَا ذلِكَ أَلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ»[2]. وهذا الجهاد كان يؤدّي بنا إلى أن نصبح أكثر حزمًا في أعمالنا وأكثر صبرًا على الآلام والآثار المحرقة للجهاد.

حسنٌ، ويقرّر أمير المؤمنين أن يختصر شرح ميادين الحرب فيقول: «وَجِدًّا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ

(١) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢ه/ ١٣٧٠ه.ش)، الجزء ١، الصفحة ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه.



مِنْ عَدُوِّنا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ المَنُونِ»[١]. وأنا لا أريد هنا أن أشرح هذه الكلمات وكيف أنّه ينبغي لجنودنا في ميدان الحرب أن يحاربوا العدوّ ويواجهوه ويصاولوه، وكيف ينبغي أن يتسابقوا إلى الموت فيحقّقوا الشجاعة والصلاح والفداء الإسلامي، فلن أتعرّض لهذا؛ لكنّه فيما بعد وفي آخر هذه الخطبة - وهي خطبةٌ قصيرةٌ - يقول: «فَلَمَّا رَأَى اللّه صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصرَ»[٢]. فلقد جاهدنا إلى أن رأى اللّه فينا الصدق ورأى كيف أنّنا ملتزمون بالإسلام ونؤمن به حقًّا، وكيف أنّنا أثبتنا بعملنا إيماننا العميق. ونحن حينما عملنا وفق ذلك، فإنّ اللّه أنزل الكبت بعدوّنا وأنزل علينا النصر. وبعد جملتين أو ثلاث، يقول: «وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ»[٣]. وهذا الكلام قد قاله أمير المؤمنين في زمان خلافته، عندما ابتُلي بجماعةٍ من الناس تفضّل الكسل والدعة، وتتحجّج وتبرّر قعودها فعندما كان يدعوهم إلى حرب معاوية، وعندما كان المقرّر أن يذهب إلى قتال طلحة والزبير كانوا يختلقون له آلاف الأعذار الشرعية لأجل عدم الذهاب.

وباختصار لقد كان أمير المؤمنين يواجه هؤلاء، طلّاب الدعة والحياة الدنيا والراحة والبعيدين عن المعارف الإلهيّة؛ ضعفاء منحطّون يفضّلون السفالة والجبن والمذلّة وقد اعتادوا على الراحة،

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.





ولذلك قال لهم: «ولعمري» فأقسم بنفسه، «لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ»، لو أنّنا في زمن الرسول فعلنا ما تفعلونه الآن أيّها المسلمون، «مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ»، فلم يكن ليستقيم أي ركنٍ من أركان الدين وما كان ليخضرّ أيّ فرعٍ من فروع الإيمان.

ماذا تفهمون أنتم من هذا الكلام؟ فكلام أمير المؤمنين ليس سوى كلام الرسول. إنّ الطريق الذي سلكه عليّ، هو نفسه الذي كان يسلكه أخوه الرسول، فلماذا كان رسول اللّه يتقدّم في ذلك اليوم؟ ولماذا كانت الأعمال تتوقّف بذلك النحو في زمن أمير المؤمنين؟ نرى أنّ أمير المؤمنين يبيّن سرّ الأمر، فيقول لأنّنا نحن في تلك الأيّام صبرنا في ميادين الحرب، وصبرنا في تلك الأيّام على الرمضاء، وكنّا في تلك الأيّام مستعدّين أن ننهض من أسرّتنا وننزل إلى الميدان، كنّا مستعدّين في تلك الأيّام أن ننسى مصالحنا المادّيّة وتجارتنا وأعمالنا [لنجاهد] في سبيل اللّه، أمّا اليوم فأنتم لستم مستعدّين. في تلك الأيّام، كنّا نتقدّم، أمّا اليوم فإنّنا نتأخّر. إذًا، فالقضيّة سهلةٌ جدًّا وواضحة، اثنان + اثنان = أربعة، هذا هو التحليل الاجتماعي الذي يقدّمه أمير المؤمنين. أجل، إنّ المطلب يصبح بصورةٍ مختصرة كالتالي وهو أنّ الأنبياء الإلهيّين، بالإضافة إلى أنّ أعمالهم تتواءم مع الانتصار في سلسلة نبوّتهم، وأنّه كان لهم الفتح والعاقبة الأبديّة والنهائية في خاتمة العمل، فقد كان لهم الفتح والانتصار والوصول إلى ما أرادوا وإلى ما يريده مذهبهم في هذه الدنيا أيضًا؛ وكان هذا أمرًا مسلّمًا بالنسبة لهم. ولكن بشرط أن يؤمن أتباعهم وأصحابهم وأن يظهروا الإيمان الواقعي وأن يجاهدوا ويصبروا في ميادين القتال.

والآن نرجع إلى الآيات القرآنية. لقد اخترت آيات عدّة من






مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وقد رأيت أنّه يوجد آيات أكثر منها في القرآن هي آيات البشارة، إحداها في سورة غافر، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[1]، واللام في قوله ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ دليل الحتميّة والتأكيد والأمر المحقّق، «إنّ» أيضًا تفيد معنى التحقيق والتأكيد، أي أنّنا ننصر رسلنا بصورةٍ حتميّة ولا ترديد فيها؛ فهل أنّ هذا الأمر منحصرٌ بالرسل؟ كلّا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيضًا. فالمؤمن الذي يتحرّك على طريق النبي له مثل هذا الوعد أيضًا، وكلّ من كان تقيًّا ويسير على درب دعوة الأنبياء فله مثل هذا الوعد كذلك. فأين يحصل لهم النصر؟ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولا نذر الأمر إلى ما بعد. ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ وقد فسّر بعضهم قيام الأشهاد بيوم القيامة.

ويوجد حديثٌ منقولٌ في ذيل هذه الآية الشريفة عن الإمام الصادق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لجميل بن درّاج، حيث يقول وفق هذا الحديث إنّ المقصود من نصر اللّه لرسله هو نصرٌ في عالم الرجعة؛ أي أنّه بعد أن يأتي وليّ العصر صلوات اللّه عليه، ويحقّق تلك الحكومة الإلهيّة الشاملة في هذا العالم، وترفرف راية القرآن والإسلام في كلّ أنحاء المعمورة، ويتحرّك كلّ الناس نحو الدين ونحو اللّه والتوحيد، وتتحقّق الحكومة الإلهيّة الواحدة، فبعدها يحيي اللّه تعالى أولئك الأنبياء والرسل والأوصياء والشهداء والصلحاء من المؤمنين، وفق الآيات التي فُسّرت في القرآن بهذا المعنى، والروايات التي صرّحت به أيضًا. ولا مجال هنا للبحث حول الرجعة، إلّا أنّ الإمام في هذه الرواية يقول إنّ هذا هو لأجل الرجعة، وأنّ هذه الآية ترتبط

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٥١.



بهذا الموضوع، وإنّ النصر أيضًا يكون في الرجعة. وأنا أتصوّر أنّ الإمام عَلَيهِالسَّلَامُ لا يريد أن يحمل هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على الرجعة، فالإمام لا يريد أن يقول إنّ اللّه تعالى حيث يقول إنّنا ننصرهم في الحياة الدنيا أي في الرجعة في الحياة الدنيا؛ وأظنّ أنّ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ يُفسَّر بالرجعة لا بيوم القيامة؛ فما معنى النصرة يوم القيامة؟! أمّا يوم الرجعة فإنّ اللّه تعالى ينصر رسله، وهذا هو الذي أذكره لكم كاحتمال وقد استنبطته من هذه الرواية على وجه الاحتمال على أيّ حال. ولو صرفنا النظر عن هذا الاستنباط، فإنّ كلمة أو جملة ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ نفسها بظاهرها، تدلّ بقرينة الآيات التي تأتي بعدها، على أنّ اللّه تعالى يقدّم وعدًا صريحًا لرسله وللمؤمنين أنّه سينصرهم في هذه الحياة الدنيا.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ متى يكون [هذا اليوم]؟ ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، ومتى يقوم الأشهاد؟ إنّه في ذلك الوقت الذي لا تنفع فيه الأعذار، وهناك آية أخرى أيضًا في القرآن الكريم، ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾[1]، وقد فُسّرت أيضًا بزمان ظهور وليّ العصر، ومن الممكن أيضًا أن تكون تلك الآية نفسها، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

ثمّ بعد ذلك ولأجل أن يأتي بشاهدٍ على أنّه ينصر رسله، يذكر وقائع من حياة موسى، لأنّه قبل هذه الآية كان الحديث بمعظمه عن النبي موسى من بدايات سورة غافر وما جرى معه في جهاده ضدّ

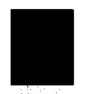
---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٥٨.

فرعون. لهذا، عندما يأتي هنا على ذكر وعده بنصر جميع رسله، فإنّه يفعل ذلك بعنوان النوع، أو المصداق أو النموذج، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقد بقي بنو إسرائيل أصحاب الكتاب، أي أصحاب مجموعة المعارف والأحكام الإلهيّة، وهذا يدلّ على أنّهم قد نجحوا وإلّا لو أنّ الكفّار والطغاة انتصروا على بني إسرائيل في تلك الأزمنة، لما سمحوا لهم بأن يطبّقوا الكتاب السماوي المنزل عليهم، ولأضاعوا الكتاب من بينهم، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فهو كتاب الهداية، والتنوير والوعي لكلّ صاحب عقلٍ ولبّ.

﴿فَٱصْبِرْ﴾، ويعد أن يتمّم هذا المطلب، يخاطب النبي الخاتم ويقول ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يأمره بالصبر والاستقامة ومقاومة كل تلك الدوافع التي تورث الانحطاط؛ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فعندما يعدكم اللّه بالنصر فهو وعدٌ حقّ كما مرّ في سورة الصافّات. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وهكذا، يوجد وعودٌ أخرى في القرآن، فكلّها حقّ، وصحيحة. فمن المسلّم أنّك ستنتصر يا أيّها الرسول طبق وعد اللّه، ولكنّ شرطه هو الصبر، ﴿فَٱصْبِرْ﴾، فعليك أن تصبر وتقاوم وتستقيم، ولا ينبغي أن تتراجع عن سلوك طريق هذا الجهاد المقدّس الذي سرت عليه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. بالطبع، إنّ الذنب هنا هو ذنبٌ خاصّ بالرسول ولا يشبه ذنوبنا أبدًا، فمن المسلّم أنّ النبي معصومٌ وبنصّ الآيات القرآنية وبحكم العقل فإنّ الرسول لا يذنب، فهذا الأمر هو من نوع الذنوب والأخطاء التي لا تعدّ خطأً بالنسبة للإنسان العادي- أنا وأنتم مثلًا - ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، ومثل هذه الآية تبيّن لنا بوضوح بأنّ





عاقبة أعمال الأنبياء هي النصر الإلهيّ.

وأمّا آيات سورة الأنبياء فسنفسّرها ها هنا باختصار. إنّ سورة الأنبياء هي في الجزء السابع عشر وتأتي بعد سورة طه، وما أجمل آياتها! إنّني أوصي أصحابنا الذين لهم أنسٌ مع القرآن أن يقرأوا هذه السورة بدقّة؛ ففيها ومنذ بداياتها يكرر اللّه تعالى قوله بأنّ الأنبياء سينتصرون وأنّ أعداءهم سيُهزمون وسينالون العذاب في هذه الدنيا قبل ذلك العالم. وبعد أن يكرّر ذكر هذه المطالب بنحوٍ ما يأتي على ذكر التاريخ وينقل لنا قصّة موسى وانتصاره وهزيمة القوى التي هاجمته وعادته، وينقل لنا قصّة إبراهيم وانتصاره ونجاحه وهزيمة القوى التي قامت ضدّه، وكذلك يأتي على ذكر قصّة نوح، وقصّة سليمان، والقصص الأخرى. فجميع الوقائع التي نُقلت في هذه السورة ترتبط بهذه الصورة حيث يتقدّم النبي وينجح وينتصر، أمّا أعداؤه وأعداء ثورته وأعداء دعوته الجديدة، وهي الرجعيّة المعادية للنبوّة، فإنّها ستُهزم وتتنكّب وتُغلب وهذه هي سنّة التاريخ.

يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾[1]، هذه آيات أوّل السورة، ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، فيقول لنا إنّ اللّه لم يجعل الأنبياء الذين أُرسلوا قبل النبي بصورة الملائكة الذين لا جسد لهم ولا يأكلون الطعام، ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾، فهؤلاء ليسوا دائمين ومستمرّين، فهؤلاء سيموتون يومًا؛ ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ وهذا هو الوعد الإلهي الصادق وهو وعد النصر؛ ﴿ثُمَّ

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٧.





صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، فهذه هي عاقبة الذين اعتدوا وتعدّوا، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فيا أيّها الذين آمنوا لماذا لا تفكّرون أو تعقلون بشأن الكتاب والقرآن الذي فيه الذكر والوعي الذي يرتبط بكم؟!

ثمّ بعد ذلك، يصل إلى الآية الحادية عشرة ويقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ وهذا الذي هو في الواقع أنشودة فتح الأنبياء وهو نشيدٌ حماسيٌّ يدلّ كيف أنّ الأنبياء سينالون بواسطة الإمدادات الإلهيّة الغيبيّة التي توجد في بطن هذا العالم - لا تلك الإمدادات الغيبيّة التي يودّ عامّة الناس أن تكون وفق ما يحلو لهم ويرغبون بحيث تأتي يدٌ من عالم الغيب وتضرب العدوّ على صدره. كلّا، إنّ الإمدادات الغيبيّة الموجودة في باطن هذا العالم مخفيّةٌ وهي متساويةٌ مع خلقة هذا العالم، وخلقة البشر والعالم - كم سينال الأنبياء مع هذه الإمدادات الغيبيّة من توفيقاتٍ وانتصارات بواسطة ربّ العالم؛ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

إنّ المجتمع والنظام الظالم، والحضارة الظّالمة، هي ذلك المجتمع الذي يُستعمل الظلم في بنيته ويتسبّب بحالة الطبقية ويؤدّي إلى الاستغلال وإلى أن يستغلّ الناس بعضهم. هذه هي القرية الظالمة والمجتمع الظالم الذي يعشعش الظلم في أسسهما، فكم قد قصمنا من هؤلاء، قصمنا يعني هزمنا وشتّتنا، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، وهو إشارة إلى الاستبدال، سواء كانت شعبًا أو جماعةً أو طبقةً أخرى.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾، وهنا يفصّل لنا حال الخزي الذي يصيب الظالمين حين يرون عذاب اللّه؛ فبمجرّد أن شعروا بغضب



اللّه - إمّا من جهة نزول العذاب السماوي على سبيل الفرض، أو من باب أنّهم رأوا كيف أنّ المؤمنين ينهالون على رؤوسهم وراء نبيهم، فها هو سيف غضب اللّه الآن ينزل عليهم - ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾، يهربون فجأةً من عمرانهم وحضارتهم ومجتمعهم. ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ ارجعوا إلى ما كنتم تتنعّمون به، ارجعوا إلى تلك القصور التي كنتم تتنعّمون فيها، وإلى وسط المجتمع والمدينة الذي كنتم تتعزّزون وتسودون فيها، فإلى أين ستهربون؟ ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾، فأين تذهبون؟! ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ وقد كرّروا هذه المقولة حتّى جُعلوا جميعًا لقمةً للموت والفناء.

دقّقوا هنا يوجد آيتان أو ثلاث، وآيات أُخر سوف أبيّنها. والآيات اللاحقة تبيّن في الحقيقة البنية التحتيّة الفكريّة لهذه الواقعة التاريخيّة؛ فلماذا حدث هذا الأمر؟ ولماذا ينبغي أن يُحصد الظالمون حصد الفناء، ويدال عليهم المظلومون ويرثون أرضهم؟ لماذا يجب أن تتقدّم دعوة الرسول على وجه الحتم ويُهزم معارضوهم والذين عاندوهم؟ السبب هو ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، فاللّه لا يعبث ولا يعمل طبق الباطل، ولا يتصرّف جزافًا. فماذا يعني هذا؟ أي أنّ اللّه عندما خلق هذه السماء وهذه الأرض وما بينهما، فإنّه خلقها لأجل هدفٍ ولأجل الوصول إلى ذلك الهدف والمقصد، فالحقّ هو خطّ سير هذه السماء وهذه الأرض وكلّ ما فيهما، وهو الوصول إلى ذلك الهدف، أي الحقّ. فذاك الطريق هو الذي يوصل السماء والأرض وموجوداتهما إلى المنزل





النهائي والمقصد والهدف الذي خُلقوا من أجله، إنّه خطّ السّير وهو الحقّ. وكلّ وسيلةٍ توصل الناس إلى ذلك المقصد هي وسيلة الحقّ. وهذه الأمور الأخرى لا يُصرَّح بها في الآية القرآنية ولكنّ مفادها هو هذا، أي أنّه بالتدبّر بالآية يصبح واضحًا جدًّا، وطريقة القرآن هي أن لا يصرّح بكلّ تلك الأمور التي يمكن في الأغلب أن نفهم منها أشياء كثيرة وتتّضح لنا ويصل إليها عقل الناس.

فبعدها مباشرةً يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾، هذا هو طريق الحقّ، وهذه هي الطريقة الصحيحة، إنّها طريقة الفطرة والخلقة الإنسانيّة وخلقة العالم، فهي التي ستنتصر في النهاية على الباطل، ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾؛ أي أنّ الحقّ يمحو الباطل كلّيًّا ولا يترك منه أثر ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ عندئذٍ سترون الباطل كيف يزول ويتّجه نحو الفناء. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، فيا أيّها الظالمون! ويا أيّها الذين سلكوا طريق الباطل وتركوا الحقّ! سيحلّ بكم الخزي والفناء بسبب ما كنتم تصفونه وتبيّنونه.

وبعدها يأتي البحث أيضًا بأسلوبٍ قرآنيٍ جميلٍ جدًّا وجذّاب - حيث ينبغي للإنسان أن يأنس بالقرآن من أجل أن يفهم هذه النكات الجميلة فيه بنحوٍ صحيح. وفي الغالب إنّ أولئك الذين لا يلتفتون إلى هذه الدقائق واللطائف القرآنية، فذلك لأنّهم لا يمتلكون الأنس بالقرآن. فلو أنّهم حصلوا على هذا الأنس، ووصلوا إلى لحن كلام القرآن بأسماعهم لفهموا كيف أنّ القرآن يخاطبهم - يبحث ويتحدّث عن هذه القضيّة وهي مجيء الحقّ وزوال الباطل، وانتصار الحقّ وهزيمة الباطل؛ ويليه [الحديث] حول ما يتعلّق بخلقة السماء والأرض ويجدّد التمسّك بأنّ ربّ العالم ومالك



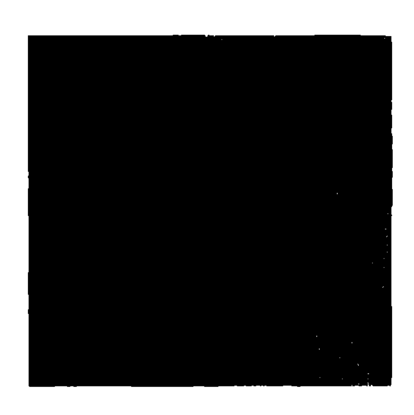


السماء والأرض والحاكم على جميع أقطار عالم الوجود هو اللّه، فلذلك يجب أن يكون هو الحاكم في حياة الناس أيضًا؛ فهو الذي ينبغي أن يضع القانون في نظام حياة البشر، وهو الذي ينبغي أن يدبّر ويدير؛ وأولئك الذين يدّعون الحكومة والسلطة والقدرة مقابل الأنبياء، فقد حكموا على أنفسهم بالبطلان والزوال.

الجلسة الثانية والعشرون

التزام الإيمان بالنبّوة

الخميس، ٢٣ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



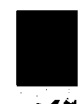
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

[سورة **الأنفال**، الآية ٧٤]

إنّ من القضايا التي ينبغي طرحها في مباحث النبوّة تلك القضايا التي إذا لم نفهمها ونتعرّض إليها فإنّ الكثير من هذه الأبحاث المرتبطة بالنبوّة ستكون بالنسبة لنا فاقدةً للأثر العمليّ تقريبًا. فما هو هذا البحث الذي يُعدّ ضامنًا لتحوّل الأبحاث السابقة إلى البعد التطبيقيّ والحياتيّ؟ فعندما نقول: «أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه»، ونشهد بأنّ محمّدًا هو رسول اللّه، ونعلن ذلك في آذاننا وفي صلاتنا وفي الشهادتين وفي كلّ مكان أنّنا من أمّة هذا النبي، ونعتقد ونؤمن بنبوّته ونشهد على ذلك، فما هو الالتزام والمسؤوليّة التي يلقيها هذا الإيمان على عاتقنا؟ وهل توجد هذه العقيدة والشهادة والتشهّد مثل هذا الالتزام؟

في بعض الأحيان، عندما تقولون إنّني أشهد وأتقبّل مثلًا أنّ الزنبق عطره أجمل من الورد الجوريّ، فهذا أمرٌ مختلف؛ فبعض الناس قد لا يعرفون ذلك، وبعضهم الآخر قد لا يعتقدون بذلك، ولعلّك أنت يا صاحب الجناب العالي أيضًا تعتقد أنّ هذا الورد عطره أجمل من ذاك الورد، سواء أكان اعتقادك صحيحًا أم لا؛ حسنٌ، ها أنت قد شهدت بذلك، ثمّ ماذا؟ - بحسب قولنا نحن






طلّاب الحوزة - ماذا يأتي بعد ذلك؟ لا شيء. أترون؟! إنّ الإنسان لو شهد وتقبّل أنّ هذا الورد أفضل من ذاك الورد، أو انقلب اعتقاده من هذه الزهرة إلى تلك الزهرة فإنّ ذلك لن يترك أيّ أثرٍ في حياتنا، ولن يوجد أيّ التزامٍ فيها.

وأضرب مثالًا آخر، هناك في عالم المسيحية شخصٌ على رأس المقامات الروحيّة يُسمّى البابا، وأنتم تعلمون أنّ البابا هو بمثابة النموذج أو المجسّم الذي ينبغي للناس أن يحترموه في الحقيقة، فإنّه لا يحتاج لأن يطرح عقيدةً جديدةً في عقائد المسيحية، ولا أن يوجد حكمًا جديدًا من أحكامها قد اختلف عن الأحكام السابقة، فوجوده أو عدمه، مثل وجود أيّ مجسّمٍ جميل أو عدمه في غرفة الاستقبال عندكم، فإذا كان موجودًا فإنّ التصميم الداخليّ للغرفة يتمّ، وإذا لم يكن فإنّه بالنسبة لأولئك الذين يحبّون الزينة سيجعلها ناقصةً. إنّ وجود البابا وعدمه بالنسبة لعالم المسيحية ومن ناحية الفكر المسيحي ليس له أثرٌ أكبر من هذا المقدار. فمثلًا، في هذا الزمن الذي نعيش فيه، لو اطّلع مسيحيٌ على أنّ جناب البابا الحاليّ قد ارتحل عن هذا العالم وحلّ مكانه شخصٌ آخر، أو لم يطّلع، فإنّه لن تتأثّر حياته أبدًا، سواءٌ علم أو لم يعلم أنّ البابا الحاليّ هو فلان الثاني عشر أو الثالث عشر؛ فلو قال مسيحيٌ: إنّني أشهد أنّ البابا الموجود في زماننا هو السيّد زيد، فهذه الشهادة لا تجلب معها أيّ نوعٍ من الالتزام، فحاله سيكون مشابهًا لحال ذلك المسيحي العجوز الذي رُدّ إلى أرذل العمر، وهو يعيش في تلك الناحية من القرية الفلانية والذي ليس لديه أدنى خبر عن ذلك البابا الذي توفّي سابقًا وأنّ بابا آخر قد جاء مكانه. إنّ حاله لن يكون مختلفًا عن ذلك العجوز الذي يعيش في تلك المنطقة النائية؛ وكذلك وضع



حياته فإنّه لن يتبدّل بعد موت ذاك البابا السابق، تمامًا مثل ذلك العجوز الذي لم تتبدّل حياته مع موت بابا ومجيء بابا آخر. فلن نلمس أيّ تغييرٍ من التغييرات. إنّ شهادة أنّ البابا الفلاني اليوم هو فلان، لن يجلب معه اليوم أيّ نوع من الالتزام وتحمّل المسؤوليّة.

فهل أنّني عندما أتشهّد في صلاتي وأقول «أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه» وأجعل ذلك على مآذن المدينة وأطرح ذلك بعنوان شعارٍ وبعنوان مظهرٍ عامّ لهذا المجتمع فيُقال: «أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه» هي الشهادة بالنبوّة، والإيمان بها؛ فهل أنّ إعلان هذا الإيمان يلقي على عاتق هذا المتشهّد أو على عاتق ذلك المجتمع، الذي جعل هذا التشهّد كشعارٍ في حياته، مسؤوليّةً أم لا؟ السؤال هو هنا.

والجواب هو بالإيجاب، أجل، إنّ هذه الشهادة تلقي على عاتقنا مسؤوليّات؛ فلنسأل عن هذه المسؤوليّات والالتزام العمليّ الذي يُلقى على عاتق أتباع النبي والمؤمنين بدعوته. وأنا سوف أختصر هذا الالتزام بكلمةً واحدة: إنّ الالتزام والمسؤوليّة التي تُلقى على عاتق الإنسان المعتقد بنبوّة النبي هو عبارة عن السير على خطى هذا النبي وقبول مسؤوليّة إيصال حمل النبي إلى غايته. فالكلام الذي يعبّر عن المعنى سهلٌ جدًّا، لكنّ المسؤوليّة ثقيلةٌ للغاية. وفي الأساس إنّ معنى أمّة النبي وشهادة النبّوة هو هذا الأمر.

يتصوّر بعض الناس أنّهم إذا قالوا إنّنا نعتقد بأنّ فلان هو نبي، فإنّ ذلك يكفي ويحقّق قبول النبوّة بالقلب، فإعلانها بواسطة الإسلام سينجينا من جهنّم ويدخلنا الجنّة وينقلنا من هذا الحدّ إلى ذاك الحدّ. استمعوا جيّدًا، هل أنّ هذه العقيدة التي أتحدّث عنها





الآن موجودةٌ في أذهانكم أم لا؟ ولا يهمّني من الذي يحمل هذه العقيدة ومن لا يحملها. يتصوّر البعض أنّ الناس كانوا في عذاب جهنّم أو في نار القهر والغضب الإلهيّين يحترقون، وجاءت بعدها قضيّة نبوّة خاتم الأنبياء، فخرجت مجموعة من هؤلاء، الذين كانوا في نيران غضب اللّه، من منطقة العذاب ومحلّ الغضب الإلهي عندما قالت: «أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه» صلّى اللّه عليه وآله وسلّم. فبالنطق بهذه الكلمة خرجوا من منطقة عذاب اللّه وانتقلوا إلى منطقة رحمة اللّه. والآن، إذا أدّوا الصلاة، فإنّهم سيقتربون أكثر إلى منبع الرحمة طالما أنّهم موجودون في منطقة الرحمة، وإذا صاموا فإنّهم يقتربون أكثر، وهكذا إذا أدّوا الخمس والزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهذه الفرائض بالنسبة لهم تقرّبهم خطوةً إضافيّةً؛ وإذا قاموا بأعمالٍ أخرى أيضًا سيصلون إلى منبع الرحمة، وإذا لم يؤدّوا تلك الأعمال فهم في النهاية داخل منطقة الرحمة؛ التفتوا، إنّ البعض يتصوّرون الأمر على هذه الشاكلة.

ونتيجة هذا الطراز من التفكير هو ما نشاهده اليوم، يأتي شخصٌ فيُكتب على بطاقة هويّته مسلم وتابع لنبي الإسلام - كانوا يكتبون ذلك في السابق على بطاقات الهويّة والآن لم يعودوا يكتبوه - أو أنّه عندما يُسأل عن ذلك فإنّه يجيب: ديني هو الإسلام ولأنّه ذكر الإسلام وحدّده، ولم يحدّد المسيحية، ولم يحدّد المادّيّة أو اليهودية، فهو بذلك لم يحدّد دينًا آخر، فمن أجل أنّه قام بمثل هذه الأمور وأشار إلى تلك الأشياء التي تندرج تحت عنوان الدين ويُقال إنّها من الإسلام، فسوف يُقال له: حسنٌ جدًّا، لأنّك حدّدت الإسلام فاذهب إلى الجنّة؛ أمّا إذا كنت من المصلّين فبها ونعمت؛ وكذلك إذا كنت من الصائمين وقمت بأعمالٍ أخرى فكم هو جميل، ولكن





إذا لم تفعل تلك الأمور فإنّ مكانك محفوظٌ في جنّة اللّه، غاية الأمر أنّه قبل قيام الساعة فإنّك سوف تتعرّض إلى ضغطٍ شديد (ضغطة القبر)؛ هذا هو الكلام والفكر الرائج في أذهان الناس. ونحن نقول إنّ هذا الكلام ليس صحيحًا، إنّ هذا الإيمان بالنبي ضروريٌّ، لكنّه يستلزم مجموعة من المسؤوليّات؛ وفي حال أدّى الإنسان المؤمن هذه المسؤوليّات، فإنّه بمقدار ما يؤدّي منها يكون إيمانه صحيحًا، وإذا كان الإيمان موجودًا باللسان أو حتّى في القلب ولكنّه لم يستتبع أيّة مسؤوليّة يحدّدها الإيمان للإنسان ولم يلتزم بها فإنّ هذا الإنسان، وإن كان بحسب الظاهر مؤمنًا بالنبوّة، لكنّه ليس مؤمنًا واقعيًا. فماذا سيفعل اللّه به يوم القيامة؟ أنا لا أعلم، ولا أريد الآن أن أعلم، ولكن بالنسبة لمعايير هذا العالم، وإذا أردنا أن نحكم بعنوان أنّنا نستطيع أن نحكم على وجود إيمانٍ في قلب الإنسان أو عدمه، فإنّنا لا نستطيع أن نحكم على هذا الإنسان بأنّه صاحب إيمان.

بالطبع، أريد أن أضيف أمرًا. إنّ إعلان هذه الكلمة، وإظهار هذا الاعتقاد بحسب الظاهر، وإن كان يحفظ نفس الإنسان وماله حسب القول المعروف - حيث أنّ في ذلك نوع من المسامحة - أي أنّه يجعل الإنسان ضمن نطاق البيئة الإسلامية، إلّا أنّ بحثنا لا يدور حول ما إذا كان مال الإنسان أو نفس الإنسان ستُحفظ أم لا، بل بحثنا يدور حول معرفة ما إذا كان مؤمنًا أو لا. إنّنا سنوضّح الأمر بناءً على المعايير القرآنية التي سنفسّر آياتها ونقول: ما لم يلتزم الإنسان بمسؤوليّات الإيمان فلن يكون مؤمنًا، إنّ المؤمن هو ذاك الذي يتمسّك بالمسؤوليّات والالتزامات التي يحدّدها الإيمان بالنبوّة لكلّ إنسان.





فما هي هذه المسؤوليّة؟ إنّها تستلزم أن نرى ماذا كان يريد النبي أن يفعل في هذا العالم؛ فقد كان [النبي] يريد أن ينقل حملًا عظيمًا، وكان يريد أن ينقل هذا الحجر الكبير من مكانٍ إلى مكان ليبني به بنيانًا عظيمًا، وعليّ أنا الآن أن أنظر في زماني لأرى، هل أنّ هذا الحمل الذي أراد الرسول أن ينقله قد نُقل بشكلٍ تامّ؟ وهل أنّ ذلك الحجر الكبير الذي أراد الرسول أن يقتلعه من الأرض وينقله قد اقتُلع بشكلٍ كامل؟ وهل أنّ ذلك البنيان الذي كان يريد الرسول أن يهدمه ليبني مكانه بنيانًا كاملًا [قد هُدم وبُني مكانه ذلك البنيان]؟ فإذا كان جوابي هو بالنفي، فذاك الحمل ما زال على الأرض، أو تلك الصخرة لم تُقتلع منها، أو ذلك البنيان لم يُعمّر؛ فعليّ أن أسعى لأفعل ما كان يريده. فعليّ أن أسعى لأنقل هذا الحمل، وإذا كانت عظامي ضعيفة، ولم تكن قوّتي بالقدر المطلوب، فعليّ أن أفعل ما أقدر عليه، وأن أبذل ما أمكنني، وأن آتي بعشرة أشخاصٍ آخرين، مثلًا، لنرفع هذا الحمل معًا، وأن أجد مجموعةً أخرى لنبني هذه العمارة سويًّا؛ وإذا لم أتمكّن من إكمال هذه العمارة، ألا أستطيع أن آتي بعشرة أحجارٍ وأضعها فيها؟ ألا أستطيع أن أساهم في بناء الأسس والقواعد قليلًا؟ ألا أستطيع أن أقدّم وأهيّئ مقدّمات العمل؟ فإن قلت إنّني لا أستطيع فهذا كذب. فعلى [الإنسان] أن يلتزم بهذا العهد وهذه المسؤوليّة وإلّا فإنّه سيكون كاذبًا في قوله «أشهد أنّ محمّدًا رسول اللّه»، هذه هي الشهادة الكاذبة. ولعلّ التعبير بالشهادة السطحيّة هو تعبيرٌ أفضل؛ فهم يشهدون بأنّه رسول اللّه، أو أنا أشهد بأنّه رسول اللّه، لكنّني لا أستطيع أن أشهد بأنّني معتقدٌ بنبوّته، كحال المنافقين، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ





يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾[١]. إنّ اللّه تعالى يقول لهم: نعم، إنّني أعلم أنّه رسولي، فهو مطلبٌ واضحٌ وبالنسبة لنا مسلّم، فالكلام في محلّه صحيحٌ، لكنّنا نشهد بأنّهم في شهادتهم هذه كاذبون، فهم لا يقرّون بهذه الحقيقة في قلوبهم، وإنّما يتفوّهون بها بألسنتهم.

إنّ الالتزام بالرسالة هو عبارة عن صناعة عالمٍ على الشاكلة التي يريدها الإسلام؛ هذه هي مسؤوليّة الرسالة. يأتي الرسول إلى هذا العالم من أجل أن يقدّم أطروحة بنائه على أساس الإسلام؛ وإنّما بُعث النبي من أجل أن يصنع شكل الحياة ونظام حياة البشر على الصورة التي يأمر بها اللّه. فإذا رأيتم، في هذا الزمان الذي تعيشون فيه، أنّ الناس وأنّ البشريّة لا تعيش على النحو الذي أراده اللّه، وإذا رأيتم أنّ البشريّة محرومةٌ من الوصول إلى المجتمع الإلهيّ، وإذا رأيتم أنّ المذاهب المختلفة تسوق البشريّة إلى هذه الجهة وتلك الجهة، ورأيتم أنّ الإسلام يُستعمل فقط لزاويةٍ من الذهن وزاويةٍ من القلب لا أكثر، فإنّ مسؤوليّتكم ووظيفتكم بناءً على الشهادة التي قدّمتموها حول رسالة النبي هي أن تسعوا من أجل أن تجعلوا هذه الدنيا على الشكل الذي أراده الإسلام؛ هذه هي مسؤوليّة النبوّة وعهدها.

إنّ الإسلام يقدّم فكرًا جديدًا، وعلى أساس هذا الفكر الجديد يوجد جبهةً جديدة ويحقّق اصطفافًا جديدًا في هذا العالم. ونحن قد وصلنا إلى هذه النتيجة مرارًا من خلال مطالعة الآيات القرآنية، حيث إنّ أساس الدين يعني إيجاد جبهة واحدة واصطفافٍ جديد.

---

(١) سورة **المنافقون**، الآية ١.






عندما ترى أنّ الناس كانوا يعيشون في مجتمعٍ جاهلي، ثمّ يأتي النبي إلى هذا المجتمع فيجعل الناس الذين انقادوا ورُوّضوا والذين كانوا يتحرّكون باتّجاهٍ واحدٍ وعلى نحوٍ واحدٍ، يجعلهم فرقتين؛ فينجي فرقةً منهم من هذه الغواية والضلالة والحيرة ويبدّل طريقهم. فإذا افترقوا إلى اثنين، يكون الأنبياء هم العامل الذي يقف وراء هذا الاختلاف، بمعنى أنّ الرسل يكونون عامل تفرقة؛ فتذكّروا هذا المعنى الذي شرحته لكم، حتّى إذا أردتم أن تنقلوه إلى أحد فلا تقولوا إنّ الشّخص الفلاني يقول إنّ النبي هو العامل وراء الاختلافات؛ وإنّما يكون الرسول سببًا للاختلاف بهذا المعنى الذي يكون فيه الجميع مثل مقطورات قطارٍ واحد، ويتّجهون نحو هاوية السقوط، فيأتي النبي من الخلف ويمسك بهذه المقطورات، فيجد أنّ بعض هذه المقطورات تفصل نفسها وتنتزعها من يد النبي وتتّجه نحو تلك الهاوية. أمّا البعض الآخر، فإنّهم يستقبلون ويرحّبون بهذا الإمساك فيحصل الاختلاف بين المقطورات.

نرى أنّ هذه القافلة تتّجه نحو قطّاع الطرق، أو أنّها تتحرّك نحو الفخّ المميت، أو باتّجاه الزلزال، ثمّ يأتي النبي ويقول: لا تذهبوا، فتستمع إليه جماعة من هذه القافلة ولا يكملون المسير بذلك الاتّجاه المميت، ولكنّ البعض الآخر لا يصغون ويذهبون، وعلى هذا الأساس تتشكّل جبهتان ويحصل الاختلاف. بهذا المعنى، يأتي الرسل ويوجدون مثل هذا الاختلاف والانقسام داخل المجتمعات، غاية الأمر أنّ هذا الانقسام إنّما حصل في ذلك المجتمع الذي كان يسير كلّه باتّجاه الضلالة، فيأتي الرسل ويقولون لهم ارجعوا إلى اللّه، فيحصل الانقسام في هذه القطعة الواحدة، فيرجع البعض؛ أمّا البعض الآخر فلا يرضى بالرجوع.





عندها تتشكّل جبهةٌ جديدةٌ، ويحصل نوعٌ من الاصطفاف الجديد أو ما نعبّر عنه باتّخاذ مواقف متضادّة. حصل ذلك بسبب مجيء النبي إلى المجتمع؛ فيقف النبي في صفٍّ واحد وأعداؤه والمعارضون والمعاندون في الصفّ الآخر والجبهة المقابلة. التفتوا جيّدًا إلى هذا الاصطفاف الذي أقوم بتوضيحه ورسمه. لقد كان النبي في البداية وحيدًا فريدًا وكان الجميع في الصفّ المقابل له، فيسعى النبي ويجاهد وينقذ منهم واحدًا بعد واحد، حتّى يتمكّن في النهاية من تشكيل صفٍّ واحد مقابل ذلك الصفّ الضالّ والجهنّميّ، فيوجد الصفّ المقابل لصفّ الضلالة؛ فهذان صفّان متقابلان: أحدهما صفّ الرسول، والآخر صفّ أعداء الرسول. فماذا أراد النبي بعمله هذا؟ لقد أراد أن يأخذ الناس إلى الجنّة؛ جنّة هذا العالم، والجنّة التي تأتي بعد الموت. ولأنّه كان يريد أن يأخذ الناس إلى الجنّة، فكان على الناس أيضًا أن يتّبعوه ويأتوا معه. لأنّهم إذا لم يفعلوا ذلك، فلن يصلوا إلى الجنّة. [أن نقول] بأنّ الرسول يزيد أن يقود الناس إلى مقصد السعادة، هو مطلبٌ غير صحيح، فما لم يأتِ [الناس] ويصحبوه ويصبحوا معه صفًّا واحدًا لن يصلوا إلى ذلك المقصد النهائي؛ فاحفظوا هذا جيّدًا في ذاكرتكم. وها هنا يبرز شخصٌ من بين هذين الصفّين وينظر إلى النبي ويرى أنّه يتكلّم كلام الحقّ، وكلّما استمع إليه، فإنّه يجد كلامه جميلًا. ومن جانبٍ آخر، يرى أنّه إذا جاء إلى صفّ النبي، فإنّه سيضطرّ إلى مواجهة الصفّ الآخر ولا بدّ له من أن يعارضه؛ فهو لا يرغب بأن يذهب إلى الصفّ المقابل لأنّه يرى أنّه يسير نحو جهنّم، وهو لا يودّ أن يأتي إلى صفّ النبي لأنّه يرى أنّ ذلك الصفّ سيوجد له المشاكل والمتاعب، فماذا يفعل؟ يقف بين الصفّين ويختار منطقةً






آمنة وادعة هادئة وينصب خيمةً في ذلك الموضع ويجلس، فماذا تصفون مثل هـذا العمل؟ فهل أنّ هـذا الرجل الـذي جلس بين الصفوف واختار مقعد الراحة والدعة سوف يصل إلى الجنّة أم لا؟ من الواضح أنّه لن يصل إلى الجنّة، لأنّ النبي يريد أن يذهب إلى الجنّة، ولن يصل إليها إلّا من سلك طريقه، وهذا الرجل لم يسلك طريق النبي. فكلّ من كان في وسط الصفوف فليس مع النبي، وكلّ من لم يلتحق بالنبي فهو ضدّه، فكما يُقال إنّه من لم يكن مع عليّ فهو ضدّ عليّ، لأنّ من لم يكن مع الحقّ فهو ضدّ الحقّ، وهذا ما يخبرنا عنه القرآن أيضًا؛ لكنّ اللسان البليغ الواضح للإمام [عليّ] عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أيضًا قريبٌ جدًّا إلىَ الأفهام، ولهذا يبيّن لنا أنّ «السَّاكِتُ أَخُو الرَّاضِي وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَنَا كَانَ عَلَيْنا»[1]. وبعدها لا يقول ما هو حال الراضي لأنّه معروفٌ، فمن رضي بعمل قومٍ فهو منهم؛ فهؤلاء القوم سوف يجرّونه إلى معلفهم ويربطونه عنده. فهذا هو الساكت، وإذا لم يكن في قلبه راضيًا، حتّى لو لم يُعلن عدم رضاه، فإنّه يصبح بذلك أخ الراضي، وهذا يدلّ على أنّ الإسلام لم يقبل بوجود حالة ثالثة بين الصفيّن.

فأولئك الذين كانوا مثل أصحاب عبد اللّه بن مسعود، ومنهم جناب الربيع بن خيثم[2] - وإن كان قبره موجودًا في خراسان - الذي كان من الذين قالوا في حرب الجمل إنّنا لسنا مستعدّين لنكون

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٤٢١.

(٢) كان رجلاً زاهدًا وعابدًا ومن التابعين. وكما جاء في كتاب **واقعة صفّين**، فإنّه جاء مع مجموعة أخرى إلى أمير المؤمنين وكانوا قد شكّوا في حقّانيّة هذه المعركة وأرادوا من الإمام أن يرسلهم إلى الثغور لمواجهة الكفّار.





مع أمير المؤمنين لأنّه قد قرّر إراقة دماء المسلمين وجاؤوا يطلبون العافية ويسألونه أن يرسلهم إلى الثغور من أجل أن يكونوا من أهله. فهؤلاء قد عموا على أنفسهم، لقد كانوا يتصوّرون أنّه لو أنّ كلًّا من يزدجرد الثالث، ولا أعلم هيراكليوس الروم، قد غلب في حربهما مع بعض، فإنّه لن يكون مفيدًا أبدًا لدين الإنسان ودنياه. إنّ طلب السلامة يحمل الإنسان على أن يتّخذ قرار عدم التعرّض وقرار عدم التدخّل في الحرب، والركون إلى العزلة والاعتزال. تصوّروا الأمر كما هو في الحروب الدوليّة التي تتنازع فيها بعض الشعوب فيما بينها على السلطة والحكومة، أنّ الدّولة التي يمكنها أن تحافظ على حيادها هي التي تنتصر! لم يعرفوا أنّ الحرب بين الحقّ والباطل هي حربٌ لا مفرّ منها؛ لم يعرفوا أنّ الحرب بين الحقّ والباطل تعني أنّك إن لم تكن مع الحقّ فأنت مع الباطل، وأنّ كونك مع الباطل لا يعني أبدًا أنّك ستواجه الحقّ، بل يعني أنّه حتّى لو لم تحارب، أو حتّى في الصورة التي لا تكون فيها داخلًا في الحرب ضدّ الحقّ فهذا يعني أنّك مفهومًا مع الباطل. هؤلاء لم يدركوا مثل هذا، إنّ النبّوة تأتي وتحدّد الصفوف وتقول للجميع من كان معنا فليلتحق بنا، وبحسب قول الشّاعر نيّر التبريزي:

گفت ای گروه هر که ندارد هوای ما
سرگيرد وبرون رود از كربلای ما
كلّ من لم يكن هواه معنا
فلينسحب وليخرج من كربلائنا

إنّ ذاك الذي كان الحسين بن عليّ يطلبه أثناء المسير من أجل أن ينصره، فيقول: يا ابن رسول اللّه هذا هو فرسي أقدّمه لك، وهذا هو سيفي لك، من الواضح أنّه لم يكن مع الحسين بل



كان ضدّه. ولهذا، ترون أنّ محدّثينا يكتبون ويقولون إنّ هذا هو الشقيّ، وحقًّا قالوا، فقد حُرم من السعادة. ويا لتعاسة من كان مثل هذا! فسوف يبقى دائمًا شقيًّا. فيا أيّها الشقيّ! إنّ الأنبياء يأتون من أجل تشخيص الطريق ويقولون هذا هو، فلو كنت صاحب مروءةٍ، وتطلب الحقّ، وتريد أن تشهد للّه بنبوّتهم، فـ«يا اللّه»، هذا هو طريقنا. أمّا إذا آثرت القعود ولم ترَ طريقنا وغفلت عن السالكين دربنا، ولم تأتِ إلينا لأنّه صعبٌ، ولم تقدّم يد العون لأنّ فيه متاعب، وأعرضت بوجهك عنه لكي لا تقع في الصعاب، وقلت إنّني لم أرَ، في حين أنّك حملت السبّحة بيدك وقلت: أشهد أنّكم رسل اللّه، وأشهد أنّكم أنبياؤه، وأشهد أنّكم الأنبياء، وفعلت ذلك مرّةً بعد أخرى؛ فكلّ ذلك لا فائدة منه، لا تقل شيئًا لكن تعال، ولا تأتي على لسانك بهذا الذكر، بل افعل، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[1]، فلماذا لا تعمل بما تذكر بلسانك ووفق ما تعتقد به؟! فوا اسفاه على أحوالنا، وأنا أذكر حالي، وأنا أقصد حالي أنا. يا له هو من جرمٍ كبير أن يقول الإنسان شيئًا بلسانه ويتظاهر الاعتقاد به، لكنّه لا يعمل به؛ فلماذا أقول أنّني أتّبع رسول اللّه، في حين أنّني في الواقع أتّبع أبا جهل؟! ولماذا أقول أنّني أتّبع الإسلام في حين أنّني أسير وراء الشرك؟! ولماذا أقول إنّني علويٌّ في حين أنّني أبو جهليّ ومعاويّ؟!

فما هو الفرق بين عليٍّ ومعاوية؟ أقسم عليكم لو أنّكم اليوم قمتم بتشخيص كلٍّ من عليٍّ ومعاوية في مجتمعكم؛ خذوا

---

(١) سورة **الصف**، الآيتان ٢ و٣.





مثلًا شخصًا يكون كلّ ما يقوله هو ضدّ الراحة والتنعّم والرفاهيّة الشخصيّة، وكلّ ما يقوله يحمّلنا المسؤوليّة ويضع على عاتقنا التكليف، وكلّ ما يريده هو السعي، وهو ينزعج من الكذب ويتألّم من الرشوة، وينزعج من أيّة هديّةٍ فيها رائحة الرشوة، وتجده غاضبًا بشدّة في سبيل اللّه وللّه، ولا يرحم أحدًا إذا كان لأجل اللّه وإذا كان الحكم للّه، حتّى إذا جاء أخوه وطلب منه المال من بيت المال فإنّه يضع على يده تلك الحديدة المحمّاة التي كانت كالجمر؛ خذوا هكذا شخصٌ في المجتمع، شديدٌ دقيقٌ محتاطٌ في إجراء الأحكام والحدود الإلهيّة والإسلامية. وفي المقابل، شخصٌ آخر لا همّ له سوى العيش وقضاء الوقت بالراحة، وهو مستعدٌّ لأن يتخلّى عن كلّ ما يهواه، مقابل شرطٍ واحدٍ فقط يضعه له هذا الإنسان وهو أن يقول إنّني لا أعين عليًّا ولا أنصره، والعون الذي يطلبه منك ليس كثيرًا، لعلّه في بعض الأحيان أن تمدحه لا غير. حسنٌ، أقسم عليكم، فمن تتبّعون من بين هذين الشخصين؟ ومن تقبلون في هذا الزمن وفي هذا المقطع من التاريخ؟ فهل أنت مستعدٌّ لأن تسلك طريق ذلك الشخص الذي إذا كنت معه وعملت تحت إمرته فإنّه سيجلب لك وجع الرأس والمسؤوليّة والتحرّك والسعي؟ وهل أنت مستعدٌّ أن تترك ذلك الذي يعرض عليك المال والمنصب والراحة والشأنيّة والنفوذ والاقتدار على أن تترك ذلك الشخص الأوّل؟ فإن كنت مستعدًّا لذلك فهنيئًا لك، فلو أنّك كنت في زمن عليٍّ أيضًا، فإنّك ستكون من شيعته. أمّا إذا رأيت قلبك يحلّق نحو كلّ أنواع الراحة والتنعّم والعيش والأموال والمناصب والسمعة والمجاملات، ولو كانت في غير طريق اللّه؛ فاعلم أنّك لو كنت في ذلك الزمان، لكنت، إذا لاحظتم جيّدًا، من أولئك الذين خرجوا يتّخذون الليل



جملًا، ولم يودّعوا الجيران وقالوا لزوجاتهم وأبنائهم إنّني أنتظركم في الشام، يا عليّ مدد؛ ولذهبت إلى الشام وتركت عليًّا لوحده مثلما فعلت الكثير من الشخصيّات الوجيهة في ذلك الزمان.

فهذا عبد اللّه بن عبّاس - ابن عمّ أمير المؤمنين، وابن عمّ النبي، وراوي كلّ هذه الأحاديث، ومفسّر القرآن، والشخصيّة الوجيهة بين الشيعة والسنّة - قد فعل هذا الأمر مع عليّ؛ وهذا أمير المؤمنين يكتب له كتابين، وقد ذُكرا في نهج البلاغة. فمن كان عبد اللّه بن عبّاس؟ إنّه ذاك الذي نُقل عنه أربعة أحاديث عن النبي، وكلٌّ من الشيعة والسنّة يقبلون بهذه الأحاديث الأربعة، ولم يكن من أصحاب النبي أيضًا، ولكنّ الجميع يقبلونه ويعترفون به، وهذه نُكتة. ولو كان من صحابة النبي ويعترف به الشيعة والسنّة فليس بالأمر المهمّ، لأنّ سلمان وأبي ذرّ وعمّار كانوا من الصحابة وكانوا كذلك موضع قبول الجميع. لكنّه كان من التابعين ولم يدرك زمن النبي، وكان صغيرًا عندما ارتحل النبي عن هذا العالم؛ وأنا قد طالعت إلى حدٍّ ما في التاريخ، ورأيت أنّ جناب عبد اللّه بن عبّاس كان من حواشي وصحابة الخليفة الثاني وكان شديد الحبّ له، وغالبًا ما كان يسير خلف جناب عمر؛ لقد كان من التابعين، ولم يدرك زمن النبي، في حين أنّ الشيعة والسنّة يعترفون به. فيا للعجب! كم كان هذا الرجل شخصًا عجيبًا! وماذا يمكن أن نسمّي هذا الأمر في العرف الإسلامي، أنّ جماعتين متخاصمتين تقبلان بشخصٍ واحدٍ؟ عندما كان هذا الرجل حاكمًا وواليًا على البصرة، أخذ المال من بيت المال وفرّ به إلى مكّة، إلى حرم الأمن والأمان الذي جعله اللّه، فلا بدّ أنّه قد دفعه هناك صدقةً ووزّعه على الفقراء، أجل، لقد قدمّه مقابل شراء الإماء الفقيرات، فاشترى





عدّة إماء، تتمتّع كلٌّ منهنّ بالجمال لكي يقضي معهنّ أوقات اللذّة والراحة.

فها هنا، لو كان عبد اللّه بن عبّاس [يعيش] في يومنا هذا، ماذا كان سيقول بشأن أمير المؤمنين، برأيكم؟ فجميع الأحاديث التي تُعدّ من الطراز الأوّل بشأن عليّ قد نُقلت عنه، وقد كان يذرف الدمع عندما يُذكر عليٌّ عنده. وقد كان ينقل ذكرياتٍ عن صحبته لعليّ. لكن إذا كنتم أنتم وأنا من أهل الفطنة والكياسة، فهل أنّنا سنقبل أن نجعله من الشيعة؟ بل إنّنا سنقول: يا فلان اذهب، ودع الشباك، واصطد في مكانٍ آخر. اذهب! فلو أنّك كنت من الشيعة حقًّا لظهرت على حقيقتك وقت الامتحان، «عند الامتحان يُكرم الرّجل أو يهان»[1]، و«في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال»[2]. فلو كنت من شيعة عليّ، فلماذا أحرقت كبد عليٍّ إلى هذه الدرجة! ولماذا جعلت عليًّا يشتكي إلى هذا الحدّ من فرارك! حتّى أنّ عليًّا كان يئنّ من ذهاب عبد اللّه بن عبّاس: لقد كنت أقرب إليّ من كلّ أقاربي، وكنت آمل بك وأعتمد عليك، فماذا فعلت بابن عمّك في مثل هذه الظروف؟! لقد تركته وحيدًا وذهبت! ولأنّ المرحوم الشريف الرضيّ[3] رضوان اللّه عليه، كان يعيش في زمن بني العبّاس، فقد خجل أن يكتب فوق عنوان الرسالة التي بعثها عليٌّ

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٨٥٢.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٤٩.

(٣) أبو الحسن محمّد بن حسين (٣٥٩ - ٤٠٦ ق.) الملقّب بالسيّد الرضيّ، وُلد في بغداد وقد تتلمذ مع أخيه الأكبر السيّد المرتضى علم الهدى عند الشيخ المفيد، وعُرف عنه جمعه لكتاب **نهج البلاغة**.





إلى عبد الله بن عبّاس: «من كتابٍ له إلى عبد الله بن عبّاس»، بل كتب قائلًا: «من كتابٍ له إلى بعض عمّاله»[1]، فلم يذكر اسمه، ولم يذكر من هو الوالي الذي كان عامله، ولكنّكم عندما تقرؤون هذه الرسالة ستعرفون أنّ المقصود منها هو عبد الله بن عبّاس. هذا، بالإضافة إلى أنّه قد نُقلت هذه الرسالة في غير نهج البلاغة، وذُكرت أنّها كانت موجّهة إلى عبد الله بن عبّاس، وقال فيها: لقد تركت ابن عمّك فماذا فعلت وفعلت؟!

أجل، إن الالتزام بقبول النبوّة والاعتقاد بها هو: السير على درب النبي، وقبول تكليفه، والإذعان له، والعمل كما يريد. وبالنسبة لي لم يعد هناك المجال الكثير الآن من أجل أن أبيّن معنى جميع الآيات، فسأكتفي بتفسيرٍ مختصرٍ للآيات فقط لكي تروا ما هي المسؤوليّة الإسلامية. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾، سواء كان الجهاد بعدها بالمال أو بالأنفس، فذلك كان في زمان النبي ولكن لا يعني ذلك أنّني أريد أن أقول إنّه لا يشمل الأزمنة الأخرى. كلّا، فهو حكمٌ كلّيّ ولكنّه الآن يشير إلى موردٍ في زمان النبي حيث طُرحت قضيّة الهجرة هناك، الهجرة إلى المجتمع الإسلامي. في ذلك اليوم، أسلم البعض وآمنوا بفكر النبي لكنّهم لم يكونوا مستعدّين أن يخرجوا من مكةّ، فقالوا: حسنٌ، لماذا نخرج؟ فيقول أحدهم: إنّ لي في مكةّ دكّانٌ وسيعٌ، ورقم هاتفي هناك مميّز جدًّا، ولي زبائن أعرفهم ويعرفونني، ولي قومٌ وأقارب وزملاء وأصحاب، فهل أترك هؤلاء جميعًا وأذهب إلى النبي؟ لماذا؟ هل يُلزمني الإيمان بذلك؟ إنّني مؤمنٌ، وأقول كلّ يوم مئة مرّة، وإن كان في قلبي وبلساني

---

(١) الرسالة ٤١ من **نهج البلاغة**.



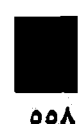
بصوتٍ لا يسمعه أحد، أنّ الله واحدٌ وأنّ النبي على حقّ. وإذا كان النبي يريدني أن أصلّي فإنّني أصلّي، وإذا كان يريدني أن أصوم فأنا مستعدٌّ أن أصوم بدل الثلاثين يومًا ستّين يومًا؛ ولكن لماذا أذهب إلى المدينة؟ هكذا، كان البعض يفكّرون؛ وهناك كانت الهجرة واجبةٌ، فقد كان المجتمع الإسلامي حديث العهد ويجب عليهم أن يلتحقوا به من أجل تقويته ولكي يبنوا مجتمعًا منيعًا مقابل أعدائه، لهذا كانت الهجرة شرطًا قطعيًّا لقبول الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖ﴾[1] ستجدهم يأوون من لجأ إلى المدينة ولا معيل له ولا أسرة، فصاروا بذلك أعضاء جبهةٍ واحدةٍ واتّحدوا وشكّلوا حلفًا واحدًا؛ هؤلاء هم المؤمنون الذين أصبحوا كالبنيان المرصوص. إذا نظرتم أنتم إلى أيّ بنيان ورأيتم أيّة عمارة، فسترون كيف أنّ الحجارة توضع فوق بعضها البعض وتلتحم فيما بينها لتشكّل مع كلّ الأجزاء الأخرى ذلك البناء الشامخ. والمؤمنون في المجتمع الإسلامي يشبهون مثل هذا البنيان، فالكلّ مرتبطٌ بالكلّ، والكلّ ملتحمٌ ومرتبطٌ بالكلّ؛ هؤلاء هم الأولياء، وهذا هو معنى الولاية، إنّها الارتباط الكامل، إنّها الإلصاق والالتصاق الكامل، هذه هي الولاية.

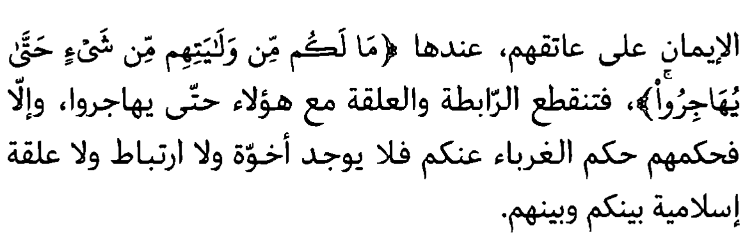
﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ -اسمعوا هنا- ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ أي أنّهم آمنوا أو أقبلوا على الإيمان وصدّقوا بقلوبهم أنّك رسول الله، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ فإنّهم لم يضعوا التزام

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٧٢.







الإيمان على عاتقهم، عندها ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾، فتنقطع الرّابطة والعلقة مع هؤلاء حتّى يهاجروا، وإلّا فحكمهم حكم الغرباء عنكم فلا يوجد أخوّة ولا ارتباط ولا علقة إسلامية بينكم وبينهم.

غاية الأمر أنّه يوجد ها هنا حكمٌ آخر إلى جانب هذا الحكم؛ فلو حصل أن وقعت حربٌ بين هؤلاء الذين بقوا هناك وبين جماعةٍ أخرى وطلبوا منكم النصرة، فإنّ عليكم حتمًا أن تذهبوا لنصرتهم، لأنّهم معكم في خندقٍ فكريٍّ واحد؛ وقد شُنّت عليهم الحرب. فلو أنّ جماعةً مسلمةً تنازعت مع جماعةٍ كافرة فعليكم أن تذهبوا لإعانتهم ونصرتهم ولو لم يكونوا معكم في وطنكم، أو لم يهاجروا إليكم، إلّا أن يكون في هذه الحالة بينكم وبين الذي يحاربه المسلم عهدٌ ومعاهدة سلام، فعندها لا يجب عليكم أن تنصروا ذلك المسلم، فهنا ماذا تريد هذه الآية أن تفهمنا؟ أوّلًا، تفهمنا أنّ نصرة المسلم في أيّ منطقةٍ من العالم كان، تُعدّ أمرًا واجبًا ولو لم يكن قد هاجر. ثانيًا، تقول لنا إنّ ذلك المسلم الذي لم يهاجر إلى المجتمع الإسلامي - حيث إنّنا اليوم لا يوجد لدينا مجتمعٌ إسلامي في العالم بهذا المعنى - وبقي في دار الكفر، فإنّ هذا الإنسان لو واجه حربًا مع فردٍ أو جماعةٍ كافرة وكانت تربطكم مع هذا الجماعة معاهدة سلام أو اتفاقيّة عدم التعرّض (هدنة)، فلا حقّ لكم أن تذهبوا لنصرة أخيكم المسلم، لماذا؟ لأنّه لم يهاجر، ولأنّه لم يصبح أخًا. فإنّه لم يلتحق بكم من خلال الهجرة. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ فهنا يُقال لنا إنّ جبهة



الكفّار هي جبهةٌ واحدةٌ، فلا تنظر إليهم على أنّهم معسكرين، فهم في عدائهم لكم يصبحون معسكرًا واحدًا وجبهةً واحدة. ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ولعلّ المراد هو أنّكم إذا لم تولوا قضيّة الجبهة الواحدة والصفّ الواحد الاهتمام المطلوب، وإذا لم تعلموا ولم تكونوا تعرفون أنّ صفّكم يقع في مقابل صفّ أعداء اللّه، وهو صفٌّ مشخّص وملحوظٌ. فإذا لم تعلموا أنّ كلّ من كان يكون بين الصفيّن هو صفّ الأعداء والمعارضين لا من هذا الصفّ، فإذا لم تعرفوا هؤلاء ولم تعملوا بمقتضى ما يلزم معهم، فسوف يكون هناك فتنة وفساد في الأرض وهي فتنة الابتعاد عن الدين، والفساد هو بسبب عدم تطبيق حكم اللّه في المجتمع، هذا على نحو الاحتمال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ دقّقوا جيّدًا في هذه الآية، لأنّ هذه الآية شاهدٌ ملفتٌ على هذا المطلب الذي ذكرته، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ هل فهمت هذا الأمر جيّدًا؟ إنّ المؤمن الحقيقي هو هذا، أمّا أولئك الذين آمنوا لكنّهم لم يهاجروا ولم يجاهدوا ولم يأووا وينصروا، فمن هم؟ هم المؤمنون غير الحقّ، المؤمن المصطنع، المؤمن المزيّف، هذا هو مفاد الآية إلى آخر الآيات.

وهناك كلمةٌ أعرضها بشأن تلك الآيات من سورة آل عمران، لأنّه من الضّروريّ أن أقدم شرحًا مختصرًا حولها، وإلّا فلن يُفهم عندئذٍ ما هو قصدنا منها. ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهذه الآية التي ترجمتها هناك ولا أريد أن أكرّر ترجمتها هنا، تريد أن تبيّن لنا هذا المطلب بشأن من مضى من الأنبياء؛ حتّى إنّنا أخذنا العهد وقلنا لهم أن يؤمنوا بالنبي السابق، بموسى مثلًا؛ فقلنا لهم: إنّ

ما أعطيناكم إيّاه، فلو أنّه جاء من بعدك نبي ليؤيّد ويمضي ما أعطيناك إيّاه، فيجب عليك أن تؤمن بذلك النبي وأن تعينه، أي إنّ على موسى أن يؤمن ويصدّق بمن يأتي من بعده، فعلى موسى أن يؤمن بالأنبياء الذين يأتون من بعده، وعلى عيسى أن يؤمن بالأنبياء الذين يأتون من بعده، وكلّ نبيٍ بالنسبة للنبي الذي يأتي من بعده، ويقبل كلام النبي السابق ويمضيه ويؤمن بالنبي الذي يأتي من بعده، بالإضافة إلى أنّ عليه أن ينصره، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

ثمّ بعد ذلك، يخبرنا عن كيفيّة نصرة النبي فهي تعني أنّ على موسى مثلًا أن ينصر نبينا بحيث يوصي أمّته وأولياءه وأنصاره ألّا يخالفوا النبي الآتي وأن يحذروا من معارضة هذا النبي الذي جاء بهذه العلامات؛ حسنٌ، هذه هي النصرة. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ فطلب اللّه من هؤلاء الأنبياء الإقرار وقبول هذا التعهّد والالتزام، وهذا هو الميثاق الذي أخذه اللّه على الأنبياء بشأن من يأتي من بعدهم، بهذا الشرط: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾، وهل أخذتم العهد على أمّتكم أيضًا إلى يوم القيامة؟ فيعني ذلك أنّ يهود العالم الآن، سيكونون محلّ مؤاخذة موسى بن عمران على هذا الميثاق، والآن إنّ موسى بن عمران بلسان حاله كأنّه يقول لهم: يا عديمي المروءة ألم آخذ منكم الميثاق إلى الأبد بأنّ على كّل من يؤمن بموسى - لأنّ موسى نفسه يؤمن بالنبي الخاتم - أن يؤمن بالنبي الخاتم وينصره ويعزّره؟!

القسم الرابع

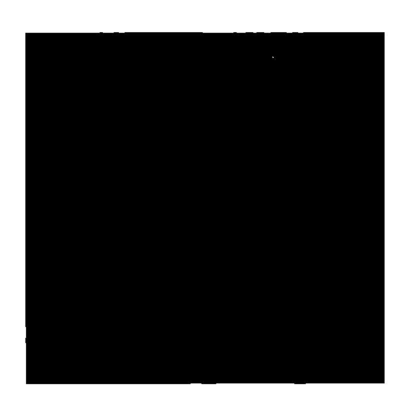


الولاية

الجلسة الثالثة والعشرون

الولاية

الجمعة، ٢٤ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

[سورة **الممتحنة**، الآية ١]





إنّ القضيّة التي سنعرضها في هذه الجلسة هي القضيّة التي يُطلق عليها عنوان «الولاية». ولا بدّ أن أذكر بأنّ قضيّة الولاية التي سنطرحها بهذه الصورة، ونستنبطها من القرآن، هي قضيّة يندر أن يتمّ التعرّض لها. وبالطبع، إنّ عنوان ولفظ «الولاية» أمرٌ مأنوسٌ بالنسبة لأسماع الشيعة. فنجد أنّ قضيّة الولاية في أدعيتنا وفي طلباتنا التي نطلبها من اللّه، وفي رواياتنا، وفي أفكارنا الرائجة والعامّة، تتلازم مع القداسة والاحترام التامّ ومع الأمل الذي يعيش في النفوس بتحقّق شيءٍ نسمّيه «الولاية». فنحن كشيعةٍ، دائمًا ما نعتبر أنفسنا أصحاب الولاية؛ وإذا كان المرء شيعيًّا دقيقًا ومحتاطًا، فإنّه يطلب من اللّه دائمًا ويتمنّى أن يضعه اللّه ضمن هذه الدائرة، وأن يميته على الولاية وأن يعرّفه الولاية.

بناءً عليه، فإنّ هذا اللفظ المرتبط بالولاية معروفٌ للأسماع. وأخيرًا، أريد أن أتحدّث كثيرًا حول هذه الكلمة وهذا المفهوم وأتناوله بإسهاب وبالانطلاق من الجذور، إلى أن نصل إلى ولاية عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام. لكنّنا قبل ذلك، نريد الآن أن نتحدّث عن المراحل التي تسبق هذه القضيّة؛ فنستخرج الولاية





من الآيات القرآنية الكريمة، ونضعها أمامنا، ونستنبط منها، ونرى كيف أنّها تمثّل أصلًا حديثًا وراقيًا وجميلًا؛ ونرى كذلك كيف أنّ أصل الولاية إذا لم يكن راسخًا في أيّ شعبٍ أو جماعةٍ أو أتباع فكرٍ وعقيدة، فإنّهم سيصلون إلى حالة جمود وتوقّف؛ وهذا ما سوف تدركونه وتتلمّسونه. ويمكننا أن ندرك بسهولةٍ في ظلّ هذا البحث، كيف أنّ الذي لا ولاية له لا تكون صلاته صلاة، ولا صيامه صيام، ولا عبادته عبادة.

وسوف نتمكّن، خلال هذا البحث، من تحصيل الفهم الجيّد لقضيّةٍ تُطرح تحت السؤال التالي: لماذا أنّ المجتمع والأمّة اللذين لا ولاية لهما، لو قضيا كلّ حياتهما، وبذلا كلّ عمرهما في الصلاة والصوم والتصدّق بكلّ الأموال، فإنّهما لن يكونا لائقين للغفران ولا مستحقّين للطف الإلهيّ؟ وباختصار، سنفهم، في ظلّ هذا البحث، معنى أحاديث الولاية؛ ومنها هذا الحديث المعروف الذي وصلنا، أو رُوي عن عدّةٍ من الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنا سآتي على بعض مقاطعه وعباراته عدّة مرّات في هذا المجلس:

لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلَايَةَ وَلِيِّ اللّه فَيُوَالِيَهُ وَيَكُونَ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بِدَلَالَتِهِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللّه جَلَّ وَعَزَّ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ وَلَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ[١].

دقّقوا ها هنا، كيف أنّه إذا لم يكن للإنسان ولاية لوليّ اللّه،

---

(١) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٢، الصفحة ١٩.



فإنّ كلّ ما ينجزه سيكون هباءً ومحبَطًا ولا ثمرة له، وإن قضى كلّ عمره، لا شهر رمضان فحسب، بالصيام، وإن صلّى أكثر من الواجب، فأحيى كلّ لياليه بالصلاة، وإن دفع كلّ أمواله في سبيل اللّه.

إنّ قضيّة الولاية تأتي كتتمّةٍ لبحث النبوّة، ونحن لا نعتبرها أمرًا منفصلًا عن ذاك البحث. إنّ قضيّة الولاية في الحقيقة هي بمنزلة التتمّة والتذييل والخاتمة لبحث النبوّة. وها هنا سنرى أنّه إذا لم تكن الولاية، فإنّ النبوّة تبقى ناقصة. لهذا، لا بدّ لنا أن نعيد على مسامعكم مختصرًا عن الأبحاث السابقة في مجال البّوّة، وأعرض لكم كلّيّات المطلب من أجل أن ننتقل شيئًا فشيئًا من الحاشية إلى متن قضيّة الولاية.

ولا بدّ لي هنا أيضًا أن أذكر أنّ طرح هذه القضيّة صعبٌ جدًّا، وبيان هذه المسألة أشدّ صعوبةً، وذلك بسبب ذلك المقدار الكبير من المسائل الضعيفة والواهية وغير المنطقيّة التي عشعشت وترسّخت في أذهان عامّة الناس بشأن الولاية؛ بحيث إذا أردت أن تعرض للكلام المنطبق مع القرآن ومتون الأحاديث الشريفة في باب الولاية هذا، فإنّك ستواجه أحد إشكالين: إمّا أن يشتبه الأمر مع تلك الأفكار الموجودة في الأذهان، أو أنّك ستشعر بالغربة بسبب ما ستطرحه تحت هذا العنوان الكبير. وفي كلا الحالين، سنواجه الكثير من الصعاب والمشاكل في هذا البحث، لكنّني سأستمدّ من فضل اللّه تعالى وأسعى لإنهاء هذا البحث في مدّة قصيرة، إن شاء اللّه. وأنتم أيّها الإخوة، عليكم أن تدقّقوا وتركّزوا ولا تملّوا من رتابة البحث عسى أن أتمكّن من إيصاله إلى غايته بصورةٍ كاملة.

في بحث النبوّة، عالجنا الهدف الذي من أجله بُعث النبي.





وقلنا إنّ النبي يأتي من أجل إيصال الإنسان إلى التكامل، ويأتي من أجل أن يتخلّق الناس بأخلاق الله، ويأتي من أجل إتمام مكارم الأخلاق وإكمالها؛ وما ذكرته هنا، يمثّل مضمون الحديث: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق[1]»؛ فالنبي يُبعث من أجل بناء الإنسان وصناعته، ومن أجل إيصال هذه الاستعدادات الموجودة في الإنسان إلى قوامها وكمالها.

فما هي الوسائل أو الطرق التي يعتمدها النبي من أجل صناعة الإنسان؟ وما هي الكيفيّة التي يصنع بها النبي هؤلاء الناس؟ فهل يبني لهم مدرسة؟ أم يوجد لهم مذهبًا فلسفيًّا؟ أم أنّه يشيد لهم صومعةً أو محلًّا للعبادة؟ لقد قلنا إنّ الأمر ليس كذلك. فالأنبياء يوجدون مصنع بناء الإنسان؛ وكلّ نبيٍ يرجّح أن يتأخّر نجاحه عشر سنواتٍ أو عشرين سنة، لكن على أساس أنّ ما سيصنعه لا ينحصر في فردٍ أو عدّة أفراد أو حتّى عشرين فردًا، فإنّه يبني هذا المصنع الإنساني من أجل أن يقوم بدوره، وبصورة تلقائيّة، في إنتاج الإنسان الكامل الذي هو مورد رضا النبي. فإذًا، يعتمد الأنبياء على مصنعٍ إنسانيٍ من أجل بناء البشر وتفعيل الاستعدادات الإنسانيّة وإيصالها إلى قوامها.

فيا أيّها السيّد! ما هو هذا المصنع الذي ينتج الإنسان؟ إنّ هذا المصنع الإنساني هو عبارة عن المجتمع والنظام الإسلامي. هنا تُعدّ هذه النقطة الانعطافيّة نقطةً أساسيةً في توجّهنا ومنطلقًا

---

(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦ه)، الجزء ١، الصفحة ٨٠٤.





لكلامنا. فالجميع يقولون إنّ النبي يريد أن يصنع الإنسان، والكلّ يقول إنّ الرسول يُبعث من أجل التعليم والتربية، ولا يوجد من لا يفهم هذا المعنى؛ ولكن ما ينبغي أن نفهمه، ويكون فهمه بدقّةٍ وعنايةٍ، هو أنّ النبي لا يمسك بآذان الناس فردًا فردًا، ويأخذهم إلى محلّ العزلة، ويلقي في آذانهم ترانيم رحمة اللّه؛ كما أنّ الأنبياء لا يؤسّسون المدارس العلمية والفلسفيّة من أجل أن يصنعوا ثلّة من التلامذة ثمّ يرسلوهم إلى أقطار العالم من أجل هداية الناس؛ فعمل كلّ نبي هو أكثر إحكامًا وأقوم وأشدّ رسوخًا وأكثر تجذّرًا. فما هو العمل الذي يقوم به ها هنا؟ إنّه عبارة عن بناء ذلك المصنع الذي لا يتخرّج منه سوى الإنسان؛ وهذا المصنع هو عبارة عن المجتمع الإسلامي.

فما هو المجتمع الإسلامي؟ وما هي ماهيّته وطبيعة عناصره؟ فهذه مسائل تشكّل بدورها محاور أبحاثٍ أخرى. وهنا، ومن أجل أن تتّضح هذه الزاوية من المطلب، وأيضًا بشكلٍ مختصر أقول - بالطبع، لا يوجد في سياق بحثنا الكثير من الكلام المترابط - إنّ المجتمع الإسلامي هو ذاك المجتمع أو تلك الحضارة التي يكون اللّه فيها على رأس الحكومة، وتكون قوانينها هي القوانين الإلهيّة، ويتمّ تنفيذ الحدود الإلهيّة فيها، واللّه هو من يعزل وينصّب، وبحسب المخروط الاجتماعي - لو فرضنا أو رسمنا هذا المجتمع بصورة مخروطٍ (هيكل تنظيميّ) مثلما هي عادة بعض علماء الاجتماع - فإنّ اللّه سيكون على رأس هذا المخروط وتحت هذا الرأس تقع كلّ البشريّة وجميع الناس. إنّ تشكيلات هذا المجتمع ومؤسّساته هي التي يوجدها دين اللّه، مثلما أنّه يتمّ وضع قوانين السلام والحرب على أساس الأحكام الإلهيّة، وكذلك الروابط





والعلاقات الاجتماعية والاقتصاد والحكومة والحقوق؛ فكلّ هذه وغيرها وغيرها، إنّما يعيّنها دين اللّه، ويجريها دين اللّه، ويشرعنها ويقوّمها دين اللّه، هذا هو المجتمع الإسلامي.

وأين يمكن أن نجد مثالًا على ذلك أيّها السيّد؟ إنّه مثل المدينة المنوّرة التي جاء إليها النبي وأقام فيها مجتمعًا. لقد كان بإمكان الرسول أن يبقى في مكّة للعبادة وينشر أتباعه في أقطار البلاد؛ إلّا أنّ ذلك لم يكن كافيًا، فقد جاء [النبي] إلى المدينة وأقام مجتمعًا وجعل على رأس ذلك المجتمع حكومةً إلهيّة؛ وكان خليفة اللّه، أيّ النبي، هو الذي يحكم من الناحية العمليّة والتنفيذيّة هناك، وكذلك لقد كان النبي هو من يضع القوانين ويشرّعها ويسهر على تطبيقها ويحمل الناس على الالتزام بها.

ففي مثل هذا المجتمع الذي يكون فيه كلّ شيءٍ من اللّه، تتناغم صلاة الجماعة والخطبة التي تُلقى بعد صلاة الجماعة مع نشيد ميدان الحرب. ففي ذلك المسجد الذي وقف فيه رسول اللّه مصلّيًا، وأقام فيه صلاة الجماعة، واعتلى المنبر ليتحدّث إلى الناس ويعلّمهم ويزكّيهم؛ كان يرفع راية الجهاد ويعقدها ويعطيها لأسامة بن زيد[١] أو لفلان بن فلان، ويقول لهم: «انطلقوا على اسم اللّه». فالحركة ينبغي أن تكون باسم اللّه، وعليكم أن تواجهوا العدوّ

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، كان أبوه غلامًا حرّره النبي، وأمّ أيمن هي أمة آمنة أمّ رسول اللّه، وقد عيّنه النبي بعد رجوعه من حجّة الوداع على رأس جيش المسلمين لمواجهة الروم. وفي زمن أمير المؤمنين، بايع الإمام بالولاية ولكنّه لم يشارك في حروب أمير المؤمنين، وبسبب ندمه على هذا التقصير في أواخر عمره أوصى الإمام الباقر في حديثٍ له أن لا يُقال عنه إلّا الخير.



في المكان الفلاني وأن تفعلوا هذا الأمر الفلانّي. في هذا المسجد نفسه، أجرى رسول اللّه الحدود؛ وفي هذا المسجد نفسه، أقام الرسول المحكمة؛ وفي هذا المسجد نفسه، شكّل الرسول إدارة العمل والاقتصاد؛ وفي هذا المسجد نفسه، جُمعت الزكاة ووُزّعت؛ ففيه كانت [تُقام] الدروس والصلاة والمناجاة، ونشيد ميدان الحرب كذلك، والمال والاقتصاد كذلك؛ وباختصار، لقد اجتمع كلّ شيء، دنيويًا كان أو أخرويًّا، في قالبٍ واحدٍ وتحت قيادة النبي في بيت اللّه؛ هذا هو المجتمع الإسلامي. وإنّما يُبعث الأنبياء من أجل أن يحقّقوا مثل هذا المجتمع. فنجد أنّ كلّ من يأتي هذا المجتمع يصبح إنسانًا، وإذا لم يصبح إنسانًا كاملًا فإنّه يضطرّ إلى التحرّك وفق السلوك الإنساني؛ وكلّ من يريد أن يصبح صالحًا، يستطيع أن يحقّق الصلاح في هذا المجتمع النبوي، ومثل هذا الصلاح لا يتحقّق في المجتمعات غير الإلهيّة.

وفي المجتمعات غير الإسلامية وغير الإلهيّة، نجد أنّ الناس لو أرادوا أن يصبحوا صالحين فإنّهم لا يستطيعون؛ فإذا كنت ترغب أن تصبح متديّنًا لا تقدر على ذلك؛ تريد أن لا تعطي الربا، وأن لا تأكل الربا، ولكنّك ترى أنّ الأمر عسير؛ وترغب المرأة أن لا تخرج عن نطاق العفّة الإسلامية لكنّ البيئة تضغط عليها؛ وجميع العوامل والدوافع تبعد الإنسان عن ذكر اللّه. فالصور والعروضات والتفصيلات، وكلّ المعاملات والحوارات والعلاقات تبعد الناس جميعًا عن اللّه، وتجعل ذكر اللّه غريبًا على القلوب.

أمّا في المجتمع الإسلامي، فالقضيّة تكون على عكس ذلك؛ ففيه يكون السوق والمسجد ودار الحكومة والزميل والقريب وربّ الأسرة وشبابها، يكونون جميعًا متوجّهين إلى اللّه، وساعين نحو لقاء





اللّه، ومتسالمين في أنفسهم مع اللّه، ويسعون لتعميق ارتباطهم باللّه، والانتقال إلى تحقيق حالة العبوديّة التامّة للّه، والابتعاد عن أيّة عبوديّةٍ لغيره تعالى. فلو أنّ المجتمع الإسلامي [الذي تشكّل] في زمن النبي، استمرّ لخمسين سنةٍ أخرى؛ ولو أنّ ذلك القائد بقي على رأس الأمور أو جاء عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِالسَّلَامُ بعد النبي وحلّ مكانه، معتمدًا تلك القيادة التي حدّدها رسول اللّه، تأكّدوا تمامًا أنّه [لو حصل ذلك] لكان جميع أولئك المنافقين قد تحوّلوا بعد السنوات الخمسين تلك إلى مؤمنين واقعيين. فلو أنّهم سمحوا للحكومة النبوية وللحكومة العلويّة أن تتعاقبا، لتشكّل ذلك المجتمع الإنساني من كلّ أولئك الذين يعانون من عيوب الشخصيّة [ولتحوّلوا] حتمًا إلى أشخاصٍ نزيهين، ولتبدّلت قلوب جميع المنافقين إلى قلوبٍ مؤمنة، ولارتبطت أرواح كلّ الذين لم يكونوا قد تعرّفوا على الإيمان، لارتبطت باللّه وبالإيمان؛ هذا هو طابع القضيّة المرتبطة بالمجتمع الإسلامي؛ يأتي الرسل لتحقيق مثل هذا الأمر؛ وإذا تحقّق، فإنّ القضيّة تصبح كحال المصنع الذي يبني الإنسان لكنّه لا ينتج أفرادًا أو عشرات ولا حتّى مئات؛ بل جماعات وجماعات، والكثير الكثير من المسلمين؛ سواء كانوا مسلمين على مستوى الظاهر، يراعون شؤون الإسلام الظاهرية، أو على مستوى الإيمان القلبي والواقعي والباطنيّ. فهل تحقّق مثل هذا الأمر؟! يأتي النبي من أجل القيام بمثل هذا العمل.

قلت إنّني أريد أن أبحث حول الولاية من الجذور. وهنا نسأل: هل يستطيع النبي، عندما يأتي بالفكر الإسلامي في البداية ويبدأ دعوته، أن يدير المجتمع بمفرده؟ ألا يحتاج المجتمع إلى مؤسّسات وتشكيلات؟ ألا تحتاج هذه التشكيلات والمؤسّسات



إلى من يديرها؟ ألا يحتاج المجتمع إلى من يدافع عنه ويكبت أعداءه ويردعهم؟ ألا يلزم وجود مجموعة من أتباع النبي للقيام بنشر دعوته؟ هنا نرى أنّ الجواب على هذه الأسئلة هو بالإيجاب؛ فيجب القيام بكلّ الأعمال عن طريق الأسباب العادية؛ ونحن نرى الأنبياء يستفيدون من الأسباب العادية في معظم أفعالهم وأنشطتهم. عندما يأتي النبي، ومن أجل أن يتمكّن من جعل هذا المجتمع الذي يعمل عليه بمنزلة ذلك المصنع الذي يبني الإنسان، فإنّه يحتاج إلى جماعةٍ متّحدةٍ مترابطةٍ تمتلك الإيمان الراسخ، وتؤمن بهذا الدين وتعتقد به من أعماق القلب، وتكون جماعة ثابتة القدم، وتتحرّك بنشاطٍ نحو ذلك الهدف. إنّ أوّل ما يحتاجه النبي لإنجاز عمله هو مثل هذه الجماعة. لهذا، يقرّر أن يعدّ مثل هذه المجموعة ويهيّئها، ويتمّ ذلك بواسطة الحكمة والموعظة الحسنة، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[1]؛ فينفذ كلامه النبوي بهذه الطريقة إلى قلوب المسلمين في أوّل الأمر - لأولئك الذين اجتمعوا حوله وآمنوا به - وتتشكّل هذه الجماعة تبعًا لذلك؛ وهذا يدلّ على أنّ أوّل ما يقوم به النبي عندما يطرح دعوته هو ما عبّرنا عنه بإيجاد تلك الجماعة التي تُشكّل صفًّا واحدًا وجبهةً واحدةً مقابل جبهة الكفر. وفي الواقع، إنّ هذه الجبهة ستتشكّل من أولئك المسلمين الثابتين المؤمنين المعتقدين من أصحاب القلوب النافذة، أي أولئك الذين قال اللّه عنهم: «لا تأخذهم في اللّه لومة لائم»[2]؛ فهم لا يتراجعون

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٢٥.

(٢) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٢، الصفحة ١٥٩.



عن سلوك طريق اللّه مهما سمعوا من لوم اللائمين؛ هكذا يكون المسلمون في المرحلة الأولى.

هنا نتساءل عن هذه المجموعة أو الجبهة الواحدة التي أعدّها النبي وهيّأها، في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات كانت تعيش؟ والجواب بوضوح إنّه المجتمع الجاهلي. فقد كان المسلمون في صدر الإسلام، مثلًا، يعيشون في المجتمع الجاهلي المكّيّ، ولو أريد لهذا التيّار حديث العهد، الذي يُسمّى تيار الإسلام والمسلمين، أن يبقى ويستمرّ داخل ذلك المجتمع الجاهلي المتلاطم والمليء بالمعارضات؛ لو أُريد لهذه المجموعة أو لهذا الصفّ الواحد أو لهذه الجبهة الواحدة أن لا يُقضى عليها ولا تزول ولا تتحلّل أو تذوب؛ لَوَجب أن تكون هذه المجموعة المسلمة مثل قطعة الفولاذ الواحدة التي تتألّق في انسجامها، ولكان ينبغي لهؤلاء المسلمين أن يتّصلوا ويرتبطوا فيما بينهم بحيث لا يستطيع أيّ عاملٍ أن يفصلهم عن بعضهم البعض؛ وبحسب تعبير المعاصرين والثقافات الحديثة، يجب إنشاء نوعٍ من الانضباط الحزبيّ المتشدّد والمحكم فيما بين هؤلاء الأفراد المسلمين؛ يجب أن يتماسكوا فيما بينهم مهما أمكن وأن يكون التحامهم وانصهارهم شديدًا، أشدّ بكثير من الجبهات الأخرى والتيّارات المخالفة؛ بالإضافة إلى صيانتهم من أيّ نوع من الدوافع المضادّة وإبعادهم عنها، لأنّهم كانوا يمثّلون الأقليّة؛ ومن المحتمل لأيّ جماعةٍ تمثّل الأقلّيّة، أن تقع تحت تأثير أفكار الأكثرية؛ ومن الممكن لعملها وشأنيّتها وهويّتها أن تضيع أو تزول أو تذوب في قلب هويّات وشخصيّات وأعمال بقيّة الناس الذين يكونون في بعض الأحيان مخالفين لهم، فلا يبقى منهم باقية؛ فلأجل أن لا يذوبوا في تلك الأكثرية، ولأجل أن لا يُقضى عليهم



ويزولوا، ولأجل أن يتمكّنوا من الحفاظ على وجودهم واستمرارهم، يجب عليهم أن يتّصلوا ببعضهم البعض مهما أمكن، وأن ينفصلوا عن سائر الجبهات بكلّ ما أمكنهم؛ فيما إذا أرادوا أن يبقوا جماعةً واحدةً يتمكّنون من بناء المجتمع الإسلامي بأيديهم المحكمة ومن إدارته والاستمرار به في المستقبل، كونهم أصحاب النبي وأتباعه.

ويمكن تشبيه ذلك بمجموعة من متسلّقي الجبال، الذين تراهم يعبرون طريقًا جبليًّا صعب العبور؛ وهناك عشرة أشخاص يقطعون هذا الطريق وسط الثّلوج ويحملون العصي وقد وصلوا إلى ممرٍّ ضيّقٍ جدًّا وخطرٍ للغاية، عليهم أن يتجاوزوه ويقطعوه من أجل الوصول إلى قمّة الجبل؛ فلهؤلاء يُقال: يجب عليكم أن تتشبّثوا ببعضكم البعض، وأن تربطوا حبلًا واحدًا بخاصرتكم، وأن لا تتحرّكوا فرادى أو منفصلين، لأنّه يمكن لأيّ شخصٍ يكون بمفرده أن يتعرّض لخطر الانزلاق. فنجد هؤلاء يلتحمون ببعضهم البعض بإحكام؛ ويُقال لهم، بالإضافة إلى هذا الالتحام الجمعيّ: لا تحملوا متاعًا كثيرًا ولا تنظروا يمينًا وشمالًا، بل ركّزوا أنظاركم على طريقكم، ولا تشتّتوا حواسّكم، ويجب عليكم أن تتمسّكوا ببعضكم البعض، وكذلك الأمر بالنسبة للأحزمة والأيدي، بحيث إذا سقط شخصٌ أو شخصان يستطيع البقيّة. إنّ مثل هذه الوضعيّة التي يلتحم فيها متسلّقو الجبال في مثل هذه الأوضاع الشديدة تشبه وكذلك تعكس حالة الترابط والتلاحم الشديدين بين المسلمين في بداية البعثة؛ فهل لهذا الترابط والاتّصال من عنوانٍ أم لا؟ وهل يوجد لمثل هذه الوضعيّة أو الترابط الموجود بين المسلمين في جبهة بداية الدين الذين التحموا فيما بينهم والتصقوا، ولم يعد بالإمكان تفكيكهم، وانقطعوا بشكلٍ تامّ عن الجبهات الأخرى، وصاروا أكثر تماسكًا وتعاضدًا من تسمية في القرآن





والأحاديث أم لا؟ أجل، إنّها الولاية.

ما زال أمامنا الكثير حتّى نصل إلى ولاية عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلى معنى «ولاية عليّ بن أبي طالب حصني»[١]، فماذا تعني «الولاية» في الاصطلاح القرآني الأوّلي؟ إنّ الولاية في مثل هذا الاصطلاح القرآني الأوّلي تعني الترابط والاصطفاف داخل جبهةٍ ومعسكرٍ واحدٍ؛ والاتّصال الشديد بين مجموعة من الناس يمتلكون فكرًا وحدًا ويتّجهون نحو هدفٍ واحدٍ، فهم يسيرون على طريقٍ واحدٍ ومن أجل مقصدٍ واحدٍ، ويكون ذلك عنوان سعيهم وحركتهم لأنّهم قد آمنوا بهذا الفكر الواحد والعقيدة الواحدة؛ ويجب أن يتّصل أعضاء وأفراد هذه الجبهة ببعضهم البعض مهما أمكن، وأن يعزلوا أنفسهم ويفصلوها عن الجبهات الأخرى والأقطاب المخالفة والفئات المناوئة؛ فلماذا يجب ذلك؟ إنّ كلّ هذا هو من أجل أن لا يتلاشوا أو يذوبوا، وهذا ما يُعبّر عنه في القرآن بـ«الولاية».

ولقد حقّق الرسول مجموعةً مسلمةً، بمثل هذه الوحدة والالتحام والترابط، مسؤولةً عن بدء العمل؛ فواصل وآخى بينهم حتّى حقّق منهم ما حقّق؛ وأراد أن يحول دون أيّ نوع من الارتباط بينهم وبين الأعداء والمخالفين والمعاندين والجبهات الأخرى. وهكذا فقد [سعى الرسول] لإيجاد ذلك الحائل بينهم وبين الجبهات الأخرى، ومنعهم من الارتباط بجبهة اليهود والانتماء لجبهة النصارى أو الالتحاق بجبهة المشركين، وسعى بكلّ ما أمكنه من أجل رصّ صفوفهم وإيجاد اللحمة الشديدة بينهم، كلّ ذلك كان

---

(١) العلاّمة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٣٩، الصفحة ٢٤٦.

لأنّهم إذا لم يصلوا إلى مثل هذه الحالة، وإذا لم تتحقّق الولاية فيما بينهم، وإذا لم يكن هذا الارتباط الشامل متحقّقًا في أوساطهم، فإنّه سيحصل الخلاف بينهم وينتشر النزاع في أوساطهم، فيصبحون بذلك عاجزين عن حمل ثقل الأمانة الذي وُضع على كاهلهم؛ وبالتالي، لن يتمكّنوا من إيصال هذه الأمانة إلى المقصد النهائي.

وبالطبع، عندما يتحوّل المجتمع الإسلامي فيما بعد إلى أمّةٍ عظيمةً، فإنّ الولاية تبقى ضروريةً أيضًا؛ وسوف أفصّل فيما يتعلّق بحاجة أيّة أمّةٍ إلى الولاية، وكيفيّة ذلك، وسببها، وعندها سنصل إلى المطلب المتعلّق بالولاية عند الشيعة ونمعن النظر فيه. كنّا قد ذكرنا أنّه إذا وُجدت فئةٌ قليلة داخل عالمٍ ظلمانيّ وفي مجتمعٍ جاهلي، فإنّها ستكون بحاجةٍ إلى التواصل والترابط الداخليّ بين أفرادها لكي تتمكّن من البقاء والاستمرار؛ وإذا لم يكن هناك لحمةٌ والتصاقٌ فلن يكون هناك إمكانيّة لاستمرارهم في الحياة والبقاء، ولقد ضربنا مثلًا على هذا، وضع فئة المسلمين في صدر الإسلام داخل المجتمع الجاهلي المكّيّ، أو عند بداية ورودهم إلى المدينة وتواجدهم فيها.

فهل لدينا مثالٌ آخرٌ أم لا؟ أجل وهم تلك الفئة القليلة من الشيعة في أزمنة الحكومات المعادية للشيعة وللإسلام على مرّ التاريخ في بداية الإسلام. فهل تتصوّرون أنّ بقاء الشيعة كان أمرًا سهلًا؟ وكذلك، هل تتصوّرون أنّ تعرّض جماعة لحراب الدعايات من جهة، وللقمع والتنكيل من جهةٍ أخرى، وللسجون والتعذيب والقتل من جهةٍ ثالثة، سيسمح لها بالبقاء؟ وكيف يمكن لجماعةٍ فكريّةٍ، تواجه هذا المستوى من القِوى والسلطات المعارضة



والمزعجة في زمانها، مثل جماعة الشيعة، كيف يمكن لها الصمود والبقاء؟ أجل إنّ كلّ ذلك [ممكنٌ] مع وجود عاملٍ محوريّ وهو الولاية. لقد أوجد الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نوعًا من الارتباط والمعسكر الواحد المدهش بين الشيعة في عهود الخلافة الشكليّة، فتمكّنوا في ظلّ هذه الولاية من الحفاظ على تيّار التشيّع وسط كل تلك التيّارات المختلفة الأخرى.

تصوّروا نهرًا عظيمًا مثلًا تصبّ فيه روافد عديدة، وتجري المياه فيه بسرعة فتشكّل تيّارات جارفة، وترى سطح مائه متلاطمًا، ويوجد فيه تلك الدوّامات التي يمكنها أن تسحب أيّ إنسانٍ إلى قعر الماء، وكلّ ذلك بسبب تلك التيّارات المتدفّقة من كلّ مكان، ويؤدّي كلّ هذا التلاطم إلى أن تحبط التيّارات المائية بعضها البعض وتضمحل؛ ووسط ذلك كلّه هناك تيّارٌ من الماء العذب النظيف الصافي يجري داخل هذا النهر العظيم ووسط هذه التيّارات من المياه الآسنة والموحلة، ويكمل جريانه ويتقدّم وسط كلّ هذه السيول العجيبة. يتشكّل مثل هذا التيّار الرفيع في بعض البحار والأنهار، ولعلّ بعضكم قد شاهد مثله، حيث ترى لونين من المياه، أو نوعين من الماء، يسيران جنبًا إلى جنب؛ وذلك بسبب بعض العوامل الطبيعية التي لا أريد الآن أن أتعرّض لها؛ فوسط كلّ هذه السيول العجيبة والتيّارات الجارفة، نجد تيّارًا رقيقًا من المياه يتحرّك وسط كلّ تلك السيول والتيّارات، ويبقى كما هو ويتقدّم؛ فالعجيب كيف أنّه لا يمتزج بغيره، ولا يتغيّر لونه ولا طعمه، ولا يصبح ماءً مالحًا وأُجاجًا، بل يبقى طعمه حلو، ولونه الشفّاف الرقيق، ويستمرّ على خلوصه وصفائه وعدم تكدّره، ويحفظ نفسه كذلك ويسير قدمًا.





يمكنكم أن تشبّهوا عالم الإسلام في زمان خلفاء بني أميّة وبني العبّاس بهذا النهر الذي يحمل معه كلّ أنواع التيّارات الفكريّة والسياسية والعمليّة، حيث تتصارع هذه التيّارات فيما بينها وتتحرّك في مقابل بعضها البعض؛ ووسط كلّ ذلك، ومنذ بداية النهر إلى آخره، تنظرون فترون تيّار التشيّع، وهناك ترون ذلك الماء الرقراق. فقد يبدو ذلك التيّار الرفيع، وسط هذا السيل العجيب، كلا شيء، أو كنقطة في بحر، ولكنّه مع ذلك يحفظ نفسه ولا يتكدّر ولا يفقد طعمه أو صفاءه أو رقّته، كما أنّه لا يتلوّن بألوان التيّارات الأخرى فيتبدّل طعمه ورائحته. لا أبدًا! بل يبقى كما هو ويتقدّم. فما هو ذلك الشيء الذي يحفظه؟ وما هو ذلك الشيء الذي استطاع أن يشكّل عامل بقاء هذا التيار الشيعيّ؟ إنّه وجود ذلك الوليّ الذي يوصي أتباعه بالولاية داخل جماعة الناس، ويوجد بين أتباعه ذاك التماسك والتلاحم، ويعمّق بينهم حالة التراحم، وينشر الولاية فيهم، وهي تلك الولاية التي كانت على حقيقتها في زمن النبي؛ الولاية الشيعيّة هي تلك الولاية التي تمّ التّأكيد عليها كثيرًا؛ وأحد أبعادها هو هذا الذي ذكرناه، ولها أبعادٌ أخرى، وسوف نشير إليها. فلحدّ الآن لم يكتمل بيان المطلب كلّه، فهذا أحد الأبعاد والجوانب من المطلب العامّ؛ فالولاية إذًا تعني الارتباط والانتماء.

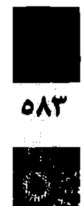
يعدّ القرآن أتباع الأنبياء بعضهم أولياء بعض؛ وأولئك الذين يمتلكون الإيمان الراسخ هم أفراد جبهةٍ واحدةٍ وتربطهم رابطةٌ واحدةٌ، ويُقال عنهم شيعة. ويُعبّر عن الشيعة في الروايات بالمؤمنين. وعندما تنظرون إلى كلمات الفقهاء القدماء أيضًا، وتتأمّلون في الكثير من الروايات تجدون أنّهم يذكرون شروطًا بشأن بعض المناصب الإسلامية، ومن بين هذه الشروط: الإسلام؛ وبعد





[شرط] الإسلام هناك شرط الإيمان. ولقائل أن يقول: ماذا يعني الإيمان هنا؟ إنّ المقصود من الإيمان هو امتلاك طرازٍ فكريٍّ خاصّ عند الشيعة؛ أي الإسلام من زاوية نظر الشيعة، الرؤية، بالمنطق الذي يثبته الشيعة، «الإثبات» هذا هو معنى الإيمان. نحن نرى أنّه في زمن الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كان الشيعة ينسجمون فيما بينهم على هذا النحو ويترابطون ويتآخون ويتواصلون حتّى تمكّنوا من الحفاظ على تيّار التشيّع في التاريخ، وإلّا لكان قُضي على الشيعة ألف مرّة، وذابوا في الأفكار الأخرى واضمحلّوا ألف مرّة، مثلما حدث لبعض الفرق الأخرى التي فقدت هويّتها ولونها وزالت واضحلّت.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا الأمر يشكّل أحد أبعاد الولاية، ولعلّه من هذه الجهة هو الأكثر أهميّة؛ وبعد أن يظهر هذا البعد إن شاء اللّه، سوف أتعرّض لولاية وليّ اللّه. وبعد أن اتّضح معنى ولاية الشيعة فيما بينهم، نسأل الآن: ما هي ولاية وليّ اللّه؟ وماذا تعني ولاية عليّ بن أبي طالب؟ وكذلك ولاية الإمام الصادق؟ فماذا يعني أن نكون أنا وأنتم اليوم ممّن يتوجّب عليهم أن يتولّوا الأئمّة؟ يتصوّر البعض أنّ ولاية الأئمّة تعني أن نحبّهم فقط، ولذلك يكونون قد وقعوا في خطإٍ جسيمٍ، وما أكبر هذا الخطأ! فالأمر لا ينحصر بالمحبّة، وإلّا هل يوجد في العالم الإسلامي من لا يحبّ الأئمّة المعصومين من آل النبي؟! عندئذٍ سيكون الجميع على الولاية؛ فهل يوجد من يعاديهم في هذا العالم؟ اللّهم إلّا أولئك الذين حاربوهم في صدر الإسلام، فهل ترى غير هؤلاء أعداءً لهم؟ إنّ أكثر أولئك كانوا يحبّونهم ولكن بسبب حبّ الدنيا أصبحوا مستعدّين لمحاربتهم؛ والكثير من أولئك كانوا يعلمون أنّ لأهل البيت مقامات ومراتب عظيمة؛ فعندما وصل خبر وفاة الإمام الصادق إلى



المنصور[1]، قرّر المنصور أن يبكي، فهل كان يتظاهر بالبكاء؟ وأمام من يتظاهر؟ هل كان يريد أن يتظاهر أمام عبيده؟ هل كان يريد أن يتظاهر أمام الربيع، الحاجب[2]؟ لم يكن الأمر تظاهرًا، فقد كان في قلبه حرقة، وهو يتأسّف في الواقع على موت الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن من الذي قتل الإمام الصادق؟ إنّه المنصور نفسه، فهو الذي أمر بدسّ السمّ للإمام؛ ومع ذلك عندما وصل خبر [موت الإمام] وانتهى الأمر اضطرب قلب المنصور، فهل يمكننا عندئذٍ أن نقول إنّ المنصور كان على الولاية؟!

ونظير هذا الأمر هو اشتباه من يقول إنّ المأمون العبّاسيّ[3] كان من الشيعة، فماذا يعني التشيّع؟ هل يعني أن يعلم الإنسان أنّ الحقّ مع الإمام الرضا ويكفي ذلك؟ فلو كان الأمر على هذا الشكل لكان المأمون العبّاسيّ وكذلك هارون الرشيد والمنصور ومعاوية

---

(١) عبد اللّه بن أحمد الملقّب بالمنصور، ولأنّه كان معروفًا بالبخل اشتُهر بالمنصور الدوانيقيّ، وبعد موت أخيه السفّاح عام ١٣٦ ق. أصبح حاكمًا وبقي في الحكم حتّى عام ١٥٨. وبالإضافة إلى قتله للإمام الصادق فإنّه قمع ثورات محمّد صاحب النفس الزكيّة وأخيه إبراهيم. وقد قام بقتل أبو مسلم الخراسانيّ واستتبّ لبني العبّاس الحكم في زمانه على جميع مناطق العالم الإسلامي.

(٢) الربيع هو الخادم الخاصّ لمنصور الدوانيقي وبتعبير تلك الأيّام كان حاجبه، وقد بقي في خدمته من عام ١٥٨ ق. حتى آخر حياة المنصور.

(٣) عبد اللّه بن هارون الملقّب بالمأمون، وصل إلى الخلافة بقتله لأخيه الأمين عام ١٩٨ ق. عُرف بأنّه أعلم الخلفاء العبّاسيّين، وقد عرّف الإمام الرضا بولاية العهد من أجل السيطرة على العلويّين، ودعا الإمام من المدينة إلى خراسان. كان يسعى لإسقاط هيبة الإمام في المناظرات العلمية لكنّ الإمام كان كلّ مرّةٍ تزداد حقّانيّته وأعلميته بين الناس. حكم المأمون حتّى عام ١٢٨ ق.





ويزيد أكثر تشيّعًا من الجميع. ألم يعلم من نافس أمير المؤمنين في السقيفة بأنّ الحقّ كان مع عليّ؟ كان الجميع يعلمون ذلك، فهل كانوا شيعة؟ ألم يكن من خاصم أمير المؤمنين محبًّا له؟ أجل، لقد كانوا في الغالب محبّين؛ فإذًا فلنقل إنّهم كانوا شيعة! ولنقل إنّهم كانوا من أهل الولاية! كلّا، أيّها السيّد، إنّ الولاية غير كلّ هذا الكلام! إنّ الولاية أعلى ممّا يُذكر هنا! فعندما نفهم ما تعنيه ولاية عليّ بن أبي طالب وولاية الأئمّة، عندئذٍ يحقّ لنا أن نرجع إلى أنفسنا لنرى إذا كنّا على الولاية أم لا؛ وإذا رأينا أنّنا لسنا على الولاية، فلنطلب من اللّه ولنسعَ أن ننال ولاية الأئمّة.

يحلو للبعض أن يخدعوا أنفسهم؛ فيتصوّرون أنّ ولاية الأئمّة تعني في الواقع مجرّد حبّ الإنسان لهم أو الاعتقاد بهم. ولكنّنا نقول هذه ليست هي الولاية، لأنّ الولاية أعلى من ذلك. وبالطبع، فسوف أتعرّض لشرح هذه المسألة وأبيّن المعنى المستفاد من ولاية أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكيف ينبغي أن نعتبر الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أولياءنا، وكيف نتولّاهم؛ عندئذٍ ندرك كم أنّ أدعياء الولاية فاقدون للوعي والبصيرة وكم هم مخالفون للواقع.

نجد أنّ الناس يعملون دائمًا بهذا الأمر حين يقرؤون في أيّام عيد الغدير: «الحمد للّه الذي جعلنا من المتمسّكين بولاية عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ»[1]، وأنا العبد غالبًا ما أقول لأصدقائي: لا تقولوا: «الحمد للّه الذي جعلنا»، فأخشى أن يكون كذبًا، بل قولوا: «اللّهم اجعلنا من المتمسّكين بولاية عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ»،

---

(١) الشيخ جعفر السبحاني، **الأئمّة الاثني عشر**، الصفحة ٤٩.



فعلينا أن نرى إذا كنّا من المتمسّكين أم لا، عندها سنصل إلى رأس المطلب، وهو أيضًا يمثّل بعدًا آخر من أبعاد الولاية. وما ذكرته في هذه الجلسة يمكن اختصاره بهذه الكلمات: ولاية الأمّة المسلمة، وهي بهذا المعنى: ولاية تلك الجبهة التي تتحرّك على طريق اللّه وفي سبيل اللّه؛ والتي تتحقّق عندما يكون بين عناصر هذه الجبهة المزيد من الاتّصال والارتباط؛ فكلّما انعقدت قلوبهم فيما بينهم وتقاربت، وكلّما انفصلوا عن أقطاب المخالفين، أي أولئك الذين يخطّطون لمعاداتهم ويعملون على هذا الأساس، يكونون قد جسّدوا معنى الولاية. وأنا أظنّ أن سورة الممتحنة تشير إلى هذا المعنى، وقد وضعوا اسمها تحت عنوان سورة الولاية، ونجد أنّ آيات هذه السورة توضّح هذا المعنى جيّدًا. فانتبهوا لكي أتمكّن من قراءة هذه الآيات وتفسيرها لكم.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1]، بالطبع، إنّ الترجمة الموجودة هنا ليست سيّئة، فالتفسير القائل بأنّه لا ينبغي أن توالوا الكفّار الذين يُعتبرون عدوّي وعدوّكم، ليس خطأً لأنّه تعبيرٌ ينسجم مع ذاك المعنى الموجود في أذهاننا؛ ويفسّر البعض ذلك قائلين إنّه لا يجوز لكم أن تتّخذوا عدويّ وعدوّكم صديقًا، لكنّ هذا المعنى ليس كاملًا، لأنّ القضيّة لا تنحصر بالصداقة والمحبّة، بل هي أعلى منهما؛ فقوله لا تتّخذوهم أولياء يعني لا تعتبروهم في جبهتكم، أي لا تجعلوا أنفسكم في صفوفهم، ولا تعتبروا أنّكم وإيّاهم في صفٍّ واحدٍ على مستوى القلب، فلا تعتبروا عدوّ اللّه وعدوّكم أنّه إلى جانبكم، بل

---

(١) سورة **الممتحنة**، الآية ١.





هو في مواجهتكم ويعاديكم ويعارضكم. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فلا ينبغي أن تعتبروهم في هذه الجبهة وهذا الصفّ فتقوموا بإعطائهم ميثاق الصداقة. ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، هذا الحقّ الذي أنزله اللّه إليكم. ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، وهذا الإخراج من مدينتكم ومن دياركم هو بسبب ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي آمنتم باللّه أنّه ربّكم؛ فمثل هذه الحالة تمنعكم من أن تجعلوا هذا العدوّ الذي يخاصم اللّه ويخاصمكم، في جبهتكم ومن أنصاركم: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، فلو كنتم تقولون حقًّا إنّكم تريدون طريق الجهاد والمجاهدة والسعي لتحقيق رضا اللّه، فلو كنتم حقًّا في هذا الطريق، فلا يحقّ لكم أن تتّخذوا عدوّ اللّه وعدوّكم وليًّا لكم وتعتبروه في جبهتكم ومن أنصاركم.

بالطّبع، إنّ هذه الصورة جميلةٌ جدًّا ومهمّة. وسيتّضح في الآيات اللاحقة ما هو المقصود من الكفّار في كلام اللّه؛ فهو لا يقول إنّه لا يجوز لكم أن تلقوا بالمودّة إلى جميع الكفّار، ولا يقول إنّ عليكم أن تقطعوا علاقاتكم بصورةٍ مطلقة مع الكفّار. كلّا، بل إنّه يقسّم الجماعات الكافرة فيما بعد ويذكر لنا من هي الجماعة المقصودة من الكفّار. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ويعني أن تقدّموا لهم المحبّة والمودّة من أنفسكم في الخفاء؛ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فمثل هذا الإلقاء والمحبّة يأخذ الإنسان إلى الضلال المبين؛ بمعنى أنّه يجعله يضلّ عن الطريق الموصل ويبعده عنه.

وبعد ذلك، ولأجل إقناع المسلمين بالسبب الذي يحتّم قطع العلاقات مع الكفّار من الناحية الفكريّة، فإنّ اللّه سيعرّفهم عليهم. ولا بأس من أن أذكّر بأنّ هذه الآيات قد نزلت في حاطب بن أبي



بلتعة. وحاطب هذا، كان مسلمًا ضعيف الإيمان؛ وعندما أراد النبي الأكرم أن يسير لمحاربة الكفّار فكّر هذا الرجل أنّه من الممكن أن يُهزم الرسول في هذه الحرب، وسوف يتعرّض أقاربه، الذين كانوا يعيشون بين الكفّار، إلى الأذى، لأنه كان أحد أفراد جيش الرسول؛ فأراد أن يتصرّف بحنكة وأن يظهر على أنّه مدبّرٌ وذكيّ، وكأنّه قال في نفسه: بما أنّني الآن بجنب الرسول وفي ركابه وأجاهد معه وأحصل على ثواب المجاهدين في سبيل اللّه، فلا بأس، ومن باب الاحتياط، أن أرسل رسالةً إلى الكفّار وأعلن لهم عن محبّتي ووفائي لهم؛ فما هو الضرر في ذلك؟! فإنّني لن أنصرهم أو أدعمهم إذا قابلتهم في ميدان المعركة، ولكن ما المانع الآن من أن أكتب كتابًا - كلّ ذلك بزعمه - وأقترح عليهم ميثاق المودّة وأقنعهم به، فما الضرر في ذلك؟ أخذ الكتاب وكتب إلى زعماء قريش ووقّع أسفل الرسالة وأسهب بالتعريف عن نفسه لكي يعلموا جيّدًا أنّه محبٌّ لهم ورحيمٌ ويريد الخير لهم؛ وأعطى هذه الرسالة إلى امرأةٍ، فقامت تلك المرأة بوضع الرسالة بين أغراضها أو داخل لباسها واتّجهت نحو مكّة.

اطّلع نبينا العزيز الجليل على ما جرى بواسطة الوحي الإلهيّ، فأرسل أمير المؤمنين ومعه نفرٌ أو نفرين ليقطعوا الطريق على هذه المرأة. أخذوا منها تلك الرسالة، ثمّ جاؤوا بعد ذلك إلى النبي. فسأل النبي [حاطب]: لماذا فعلت هذا الأمر؟ ولماذا أفشيت الأسرار الحربيّة والعسكريّة للعدوّ؟ فقال حاطب: يا رسول اللّه! إنّ لي فيهم أقارب وأعزّاء وأخشى أن يتعرّضوا للأذى بسببي، فأردت أن أكتب هذه الرسالة لعلّ قلوبهم تميل إليّ قليلًا. وهنا تأتي الآية لتقول: لا تخطئوا فإنّ قلوبهم لا يمكن أن تميل إليكم؛ فأولئك الذين





يعادونكم بسبب الفكر، وأولئك الذين يرون في دينكم وإيمانكم ضررًا عليهم، وقد عزموا بكلّ قوّةٍ على القضاء على دينكم وإيمانكم؛ إنّ هؤلاء لا يمكن أبدًا أن يصبحوا محبّين لكم أو رحماء بكم؛ وهذا ما تبيّنه الآية اللاحقة، حيث يقول تعالى بشأن هذا المطلب: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾[١] أي إذا وصلت أيديهم إليكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾.

فيا حاطب بن أبي بلتعة، أيّها الجاهل! لا تظنّن أنّك إذا قدّمت لهم اليوم خدمةً، فإنّهم غدًا سيكونون شاكرين لخدمتك! كلّا واللّه، فإنّك إذا خدمتهم أصبحوا أكثر تسلّطًا وهيمنةً عليك، فإذا قدّمت لهم العون سيزدادون ظلمًا وجورًا لك، وتمتدّ أيديهم إليك، ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾[٢]. فإذا مدّوا أيديهم إليكم فسوف تقعون تحت ضغطٍ أكبر؛ وإذا بسطوا ألسنتهم بالسوء نحوكم فسوف يحقّرونكم ويجعلونكم بلا شأنيّةٍ وشرف، فإنّهم لا يعترفون بكم كأشخاصٍ محترمين؛ وها أنتم تمدّون إليهم يد العون، فلا تظّنوا أنّ هذه المساعدات وهذه الخدمات ستنتهي إلى نفعكم. ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وغدًا عندما يتسلّطون عليكم، فإنّهم لن يتركوا ذرّةً عقائديّةً في قلوبكم، لأنّهم يحبّون أن تصبحوا جميعًا من الكفّار، ولا تظنّوا أنّهم سيدعونكم في حريّةٍ وراحة لتبقوا مسلمين وتعملون بوظائفكم الإسلامية!

ثمّ يبيّن آيةً وجملةً قاطعةً فيما يتعلّق بقول حاطب بن أبي بلتعة وأقاربه، وكل من يشبه عبر التاريخ. ويطرح السؤال التالي قائلًا: هل أنتم مستعدّون لمعاداة الربّ المتعال من أجل أبنائكم

---

(١) سورة **الممتحنة**، الآية ٢.

(٢) سورة **الممتحنة**، الآية ٢.



وأقوامكم وأقاربكم وأرحامكم؟ أو مستعدّون لترك أوامر اللّه بل ومعاداة اللّه من أجل الحصول على محبّة عبادٍ ضعفاء ونيل المنافع الشخصيّة والمصالح المرتبطة بكم وبأقاربكم؟ فإلى أيّ مدى يمكن أن ينفعكم هؤلاء الأرحام والأولاد؟ وكم سيكون لمصلحتكم أيّها المساكين أن تقدّموا هذا الشابّ لكفّار قريش من أجل الحصول على العمل والمعاش والمنافع التجاريّة معهم؟ فكم سينجيكم هذا الأمر من عذاب اللّه أيّها الجاهلون؟!

وهكذا، نجد حاطب بن أبي بلتعة يعود إلى الكفّار ويهادن أعداء النبي من أجل أقاربه وأرحامه وأولاده ولكي لا يصيبهم أيّ سوء، فإلى أيّ مدى يمكن أن يكون هؤلاء الأرحام والأولاد لمصلحة الإنسان بحيث ينال لأجلهم وبسببهم عذاب اللّه والسخط الإلهيّ، ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ أي إنّ اللّه سيفصل بينكم يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ فهناك الفرار من الأحبّة والأعزّاء. فهذا الولد، الذي تعيش اليوم كلّ هذا القلق بشأنه، تعلم أنّه يوم القيامة ستفرّ منه ويفرّ منك، كلاكما ستفرّان من جميع الناس، فالكلّ يفرّ من الكلّ ولا مجال ليتساءلوا بينهم عن الأحوال، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. ففي يوم القيامة سيكون الإنسان مشغولًا بنفسه إلى الدرجة التي لا يقدر فيها من التوجّه إلى ما يصيب غيره حتّى لو كان ابنه. فأنت عندما تنغرز شوكةٌ في يد ولدك في الدنيا، تصبح مستعدًّا لفدائه بدنياك وآخرتك، أيّها المسكين، إنّ هذا الولد سيفرّ منك يوم القيامة. فلو أنّنا فهمنا منطق القرآن في هذا المجال، فليعلم أولئك الذين كانوا مستعدّين للتنازل عن سعادة الدنيا والآخرة من أجل راحة وهناء أبنائهم وكانوا مستعدّين لمواجهة






كلّ الشقاءات والمصائب، لو أنّهم عرفوا منطق القرآن هذا، لاهتزّوا قليلًا. هذا ولد الإنسان، ابنًا أو بنتًا، هذا العزيز الذي يجرّك نحو جهنّم وأنت لست مستعدًّا لتلقّي أيّ أذى، كيف أنّك تتحمّل من أجله أكبر المصائب، فهنا يأتي السؤال: إلى أيّ مدى سيكون معك ولك؟ وإلى مدى سوف ينفعك؟ وفي أيّ مكانٍ في القيامة سيكون مستعدًّا لرفع الأثقال والأوزار الثقيلة عن كاهلك فأين ذلك؟ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهذه الآيات تمثّل الذروة في الآيات التي قرأناها. فهي تخاطب المؤمنين قائلةً لهم إنّ عليهم أن يتّخذوا إبراهيم وأتباعه قدوةً حسنةً لهم، فانظروا ماذا فعل إبراهيم والذين معه وافعلوا مثلهم، فماذا فعل هؤلاء؟ لقد قام هؤلاء بكلّ صراحةٍ ووضوح بالتوجّه إلى قومهم الضالّين، وإلى عبدة الطاغوت والآلهة المزيّفة في زمانهم وقالوا لهم إنّنا متنفرّون منكم ومن آلهتكم وقد كفرنا بكم وتبرّأنا منكم وسوف يبقى بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ما دام الزمان. ولا يوجد سوى طريق واحدٍ للصلح، وهو ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فتعالوا وكونوا داخل منطقنا الفكريّ. والآية الكريمة تصرّح: يا أيّها المؤمنون اعملوا كما عمل إبراهيم.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فلا شكّ في كون إبراهيم أسوةٌ حسنةٌ وكذلك ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.



يحدّد القرآن كون إبراهيم والذين معه أسوة للمؤمنين ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فكلّ من يعرض ويرفض هذا الحكم، فإنّ اللّه سيستغني عنه، ولن يكون بحاجةٍ إليه ولا يهتزّ له خاطر. فلو أنّكم صالحتم أعداءه فسوف تلوّثون إنسانيّتكم وشرفكم ولن يصيب اللّه من ذلك أيّ سوء فتذكّروا هذه الجملة عن إبراهيم وتذكّروا كيف أنّه تبرّأ وأولياءه من الكفّار والمنحرفين في زمانهم.

وقد كان الإمام السجّاد والذين معه يخاطبون الناس المنحرفين في زمانهم بالطريقة ذاتها، ففي بحار الأنوار يوجد حديثٌ مرويّ بأنّ يحيى بن أمّ الطويل هو أحد حواريّي الإمام الرابع كان يأتي إلى مسجد المدينة ويتوجّه إلى الناس الذين كان الإمام الحسين وكذلك الإمام الحسن يعيش بينهم قبل ٢٠ سنة، هؤلاء الناس الذين لم يكونوا من الأمويّين ولا من المرتبطين ببني أميّة، فما كان هؤلاء؟ كانوا من الجبناء الذين انفضّوا من حول آل محمّد بسبب خوفهم ممّا جرى في عاشوراء وكربلاء ورعبهم من القمع الذي كان يمارسه بني أميّة، هذا بالرغم من أنّهم كانوا من المتديّنين.

يقف يحيى بن أمّ الطويل[1] في مقابل هؤلاء ويتلو عليهم الخطاب القرآني نفسه، يقول ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ هو نفس خطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في زمانه. انظروا إنّ هذه الولاية هي تلك الولاية، فلقد كان لإبراهيم ولاية وكان لشيعة الإمام السجّاد في زمانهم ولايةٌ، فيجب أن يتراصّوا

---

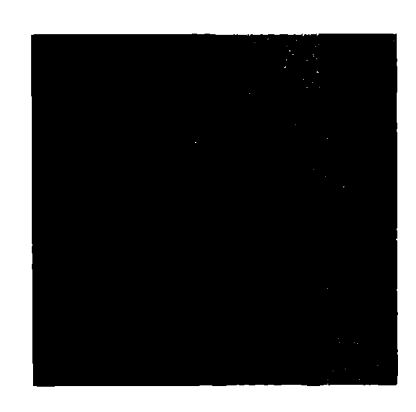
(١) يحيى بن خالة الإمام السجّاد وببركة قربه من الإمام والاستفادة من معارفه نهض للدفاع عن حقّانيّة الأئمّة وكان ثابتًا مواجهة حاكميّة ثقافة الطاغوت.

فيما بينهم وأن ينفصلوا عن الأعداء. ولو أنّ شيعيًّا من شيعة الإمام السجّاد وفي زمن الإمام السجّاد التحق بجبهة العدوّ خوفًا أو طمعًا فإنّه سوف يخرج من ولاية الإمام السجّاد ولن يكون من أتباعه ولا في جبهته. لهذا، يقول تلميذ الإمام السجّاد المقرّب مخاطبًا هؤلاء ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، لقد كان يحيى بن أمّ الطويل من أصحاب الإمام السجّاد المميّزين والخاصّين. وقد كانت عاقبة أمر هذا المسلم المصطفى أنّ الحجّاج بن يوسف أسره فقطع يمينه ثمّ قطع يساره ثمّ قطع رجله اليُمنى ثمّ رجله اليُسرى لكنّه لم يتوقّف عن الكلام فقطعوا لسانه حتّى ارتحل من هذه الدّنيا. هذا في حين كان قد وجّه الشيعة وكان أركان قصر التشيّع الأساسي قد استقرّت بعد الإمام السجّاد وثبتت.

الجلسة الرابعة والعشرون

روابط الأمّة الإسلامية

السبت، ٢٥ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

[سورة **المائدة**، الآيتان ٥٢ و٥٣]





بدايةً وقبل أن أشرع بالبحث، أريد أن أنقل حديثًا عن رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ للأصدقاء والإخوة؛ قال: «رحم اللّه امرءًا عمل عملًا فأتقنه»[1]؛ والإتقان والإحكام هنا يعني أن يضع الإنسان الاحتمالات الممكنة في العمل أمام ناظريه، مثلًا: احتمال انقطاع الكهرباء، أو احتمال تعطّل مكبّر الصوت، واحتمال حصول عشرات الأحداث الأخرى من هذا القبيل؛ فما أجمل أن نفكّر مسبقًا بكلّ الحوادث المحتملة.

ويبيّن مولانا أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامه عليه في خطبةٍ له نُقلت في نهج البلاغة، هذا المطلب نفسه فيقول: «وَاللّهِ لاَ أَكُونُ كالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلى طُولِ اللَّدْم، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا، وَلكِنِّي أَضْرِبُ بِالمُقْبِلِ إِلَى الحَقِّ المُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ المُطِيعِ العَاصِيَ المُرِيبَ أَبَدًا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي»[2].

---

(١) علي أكبر غفاري، **دراسات في علم الدراية** (طهران: جامعة الإمام الصادق ع، الطبعة ١، ١٣٦٩ هـ.ش)، الصفحة ١٨٥.

(٢) خطب الإمام علي ع، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، =






بمعنى أنّه لا يمكن أن يكون كالحيوان الغافل الذي ينام على أثر الحدو، فيأتي الصيّاد ويصطاده. بل إنّني أستفيد من الأحداث ومن كلّ ما يقع أمامي ويحدث من أجل فهم القضايا اللاحقة، وهكذا أختزل التجارب. وهذا درسٌ لنا جميعًا في كلّ قضايا الحياة؛ نتعلّم ممّا مضى، ولنكن من أصحاب التجارب وممّن يحسب حساب الاحتمالات والحوادث المقبلة.

اسمحوا لي أن أقدّم خلاصةً لحديثي وإن كان البحث يتطلّب تفصيلًا، وبالطبع إنّني سأفصّل البحث إلى الحدّ الذي أراه ضروريًا ولازمًا، وأكمله لاحقًا حتّى تتّضح الصورة المطلوبة. وباختصار، إنّ ما ينبغي أن يُعرض في تتمّة باب بحث الولاية هو أنّ أيّ مجتمعٍ إسلاميٍ أو أيّة جماعةٍ يُطلق عليها عنوان الأمّة الإسلامية وتكون قد تشكّلت على هذا الأساس، وكان المقدّر لهذه المجموعة أن تُدار وفق الأحكام الإلهيّة، وعلى أساس طراز الفكر الإلهيّ، حيث يكون التقنين فيها وتنفيذ القانون بواسطة السلطة الإلهيّة، فهذه هي الأمّة الإسلامية بحسب التسمية؛ فإذا أرادت هذه الأمّة الإسلامية أن تكون موالية بحسب المعنى القرآني الذي تعرّضنا له في الجلسة السابقة، فسنصل شيئًا فشيئًا إلى ذلك المعنى المطلوب للولاية في أذهان الخواصّ؛ تلك الولاية هي التي توجد في أذهان العوامّ، وإنّني هنا لا أدخل في ذلك المعنى للولاية الموجود في ذهن الخواصّ؛ أي أولئك الفضلاء والعلماء الذين لهم تبحّرٌ في المعارف الإسلامية والشيعيّة؛ بل نصل في مقامنا هذا إلى هناك، لكنّنا في بحثنا الحالي سنتناول الولاية القرآنية. فإذا أرادت هذه الأمّة أن

= الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٤١.



تصل إلى الولاية القرآنية، والمقصود تلك الولاية التي قد طرحها القرآن، وأرادت أمّة الإسلام أن تضمن تلك الولاية لنفسها، فيجب عليها أن تراعي جهتين: الجهة الأولى، هي جهة العلاقات الداخليّة والروابط الموجودة داخل المجتمع الإسلامي؛ والجهة الأخرى، هي جهة العلاقات الخارجيّة، أي ارتباط العالم الإسلامي وأمّة الإسلام والمجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى.

ففي مجال العلاقات والروابط الداخليّة، تكون الأمّة الإسلامية أهل الولاية عندما تحقّق في نفسها المعنى القرآني للولاية وهو كمال الارتباط والاتّصال والاتّحاد بين الصفوف ورصّ الآحاد والأفراد والأجنحة المختلفة مهما أمكن، فلا يكون في جميع أرجاء الأمّة الإسلامية العظيمة أيّ خلافٍ أو شقاق، ولا ينبغي أن تتشكّل الصفوف المختلفة داخل هذه الأمّة؛ فلو حصل أن تنازعت وحدتين داخل الأمّة الإسلامية واتّجهتا نحو الحرب؛ افرضوا مثلًا جماعةً، تعيش شرق الدول الإسلامية، تتّجه لمحاربة جماعةٍ، تعيش شمال شرق الدول الإسلامية؛ فإنّ القاعدة، ووفق الأحكام القرآنية، هي التالية: إنّ على بقيّة المسلمين أن يسعوا مهما أمكنهم من أجل إحلال السلام بين هاتين الجماعتين المتخاصمتين؛ فإذا وجدوا لدى الجماعة [الأولى] استعدادًا للصلح، بينما الجماعة الأخرى غير مستعدّةٍ لذلك أو أنّها تصرّ على استبدادها وفرض قوّتها - رغم أنّ الجماعة الأولى هي صاحبة حقّ، والجماعة [الأخرى] التي تريد أن تفرض شروطها بالقوّة، ليست مستعدّةً أن تخضع لكلام الحقّ وتتّجه نحوه - ففي مثل هذه الحالة، يجب على كلّ العالم الإسلامي أن يتّحد ويتعاضد ويتّجه نحو تلك الجماعة المستبدّة ويسكتها ويحاربها حتّى يعيدها إلى مكانها.



تقول الآية القرآنية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾[١]، فهنا، يوجد جماعةٌ لم تقبل الصلح، بل أصرّت على الظلم والبغي والاعتداء واستخدمت منطق القوّة والهيمنة، فيجب على المسلمين أن يقاتلوها حتّى يجبروها على الرضوخ لأحكام الله والقبول بأوامره تعالى؛ هذا هو أمر الله في مجال حفظ الوحدة داخل المجتمع الإسلامي.

وعلى صعيد العلاقات الخارجيّة، يجب على العالم الإسلامي، وكذلك على الأمّة الإسلامية أن يسعيا لجعل علاقاتهما منظّمةً بطريقةٍ تحفظهما من الخضوع لأوامر أيّة جهةٍ في العالم هي في الواقع غير مسلمة وخارجة عن هذه الأمّة ولو بمقدار ذرّة، فلا يجوز لهما أن يكونا تحت تأثير أفكارها ولو ذرّة واحدة. وباختصار، يجب أن لا تقع سياسة [الأمّة الإسلامية] المستقلّة تحت تأثير سياسة [تلك الجهة] فتخرجها عن استقلالها؛ فإنّ اتّحاد الأمّة الإسلامية وارتباطها بأولئك هو أمرٌ ممنوعٌ بتاتًا، وذلك إذا كان هذا الارتباط عاملًا مسبّبًا لأن تصبح هذه الأمّة الإسلامية تحت تأثيرهم.

ويوجد في هذا المجال قصّةٌ معروفة - أنا لا أذكر تفاصيلها ها هنا، لكنّها روايةٌ قد ذُكرت في الكتب المعتبرة للشيعة - وهي قصّةٌ حدثت في زمن الإمام الصادق أو الإمام الباقر صلوات الله عليه، حيث إنّ النقود التي كان يستعمله العالم الإسلامي آنذاك كانت نقود الروم؛ وهنا قام ملك الروم بتهديد المسلمين بنفس هذه

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ٩.



القضيّة وبقوا عاجزين عن حلّها؛ هناك أرشد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ جهاز الحكم - وكم هو هذا الأمر عجيب! وهي القضيّة الوحيدة، لعلّه يوجد موردين استثنائيّين شاهدت فيهما أنّ أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يظهرون الوجه الطيّب لجهاز الخلافة، أحدهما هو هذا المورد - وعلّمه كيف يصنع النقود ويصكّها؛ حيث لم يكونوا يعلمون كيف يصكّون النقود وكيف يزينون الفضّة أو يؤمّنوها، وكانوا يجهلون بكيفيّة نقد أيّ درهمٍ أو حتّى نصف الدرهم، بل أيّ معدنٍ ينبغي أن يُستخدم في مجال النقود، وهنا نجد الإمام يرشدهم.

بناءً عليه، فإنّ أيّ نوعٍ من التأثّر بالأجنحة المعادية للإسلام، أو غير الإسلامية وخصوصًا تلك المعادية، يُمنع منعًا باتًّا على صعيد العلاقات الخارجيّة؛ فلا يحقّ للمجتمع الإسلامي والأمّة الإسلامية أن يقيما أيّة علاقةٍ مع العالم الخارج عن الإسلام إلّا في حال كان هناك عزّة ورفعة، فلو أنّه تقرّر أن يكون هناك علاقة بين الأمّة الإسلامية وأيّة أمّة غير مسلمة، وكانت تلك العلاقة علاقة استغلاليّة - كالذي حصل في واقعة التنباك وشركة الريجي[1] التي تعرفونها، ولقد سمعتم عنها - فلا يحقّ لعالم الإسلام أن يقيم مثل هذه الرابطة. إنّ سماح سلاطين وحكّام الهند المغول، فرضًا، للدول الخارجيّة بأن

---

(١) عند سفره الثالث إلى أوروبا، وقّع ناصر الدين شاه معاهدة بين إيران وجيرالد تالبد، مؤسّس شركة الريجي وبموجب هذه المعاهدة، تحتكر هذه الشركة كلّ التبغ والتنباك لمدّة خمسين سنة مقابل دفع مبلغٍ سنوي وتحت حجّة النشاط التجاري استطاعت هذه الشركة أن تدخل إلى إيران الكثير من العملاء وأيضًا من المبشّرين المسيحيين. وقد تمّ إلغاء هذا الاحتكار مع صدور حكم التحريم من قبل الميرزا الشيرازي.



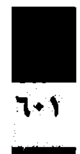


تأتي وتؤسّس عندهم تلك الشركات يُعدّ عملًا مخالفًا لولاية العالم الإسلامي، ولم يكن جائزًا لهم أن يسمحوا لتلك الشركة بأن تأتي إلى بلادهم لأنّهم كانوا يعلمون، أو حتّى لو لم يكونوا يعلمون فكان عليهم أن يعلموا أنّ شركةً كشركة الهند الشرقيّة[1] عندما تدخل إلى تلك المنطقة وتستثمر في تلك الأرض، فإنّها سوف تجلب معها بلاءً عظيمًا على حياة الناس وستنتشر كالسرطان الاستعماري الذي يتغلغل في كلّ أنحاء شبه القارّة العظيمة؛ كان عليهم أن يدركوا ذلك؛ لكنّهم لم يفهموا أنّ العالم الإسلامي والأمّة الإسلامية لا يجيزان هذا النوع من الروابط أبدًا.

التفتوا جيّدًا، عندما نقول إنّه يجب قطع العلاقات مع الدول غير المسلمة ومع الأمم غير المسلمة لا بمعنى أن يعيش العالم الإسلامي أو الأمّة الإسلامية في عزلةٍ سياسية. كلّا، فالمسألة ليست مسألة الانزواء والعزلة السياسية بحيث تتصوّرون أنّ العالم الإسلامي لن يكون له أيّ نوع من العلاقات التجاريّة مع أيّ أحد، أو أيّ نوع من الروابط السياسية أو الدبلوماسيّة وأنّه لن يرسل أو يستقبل سفيرًا. كلّا، ليس الأمر كذلك؛ بل سيكون هناك علاقات عادية، ولكن لا يكون في تلك العلاقات ولاية وارتباط بالمعنى الذي ذكرناه؛ والمقصود هو عدم وجود علاقة جوهريّةً وماهويّةً معهم،

---

(١) شركة الهند الشرقيّة هي شركة مساهمة عامّة إنكليزيّة استطاعت أن تحصل على الكثير من الأرباح من خلال اكتساب الامتياز من ملكة إنكلترا وغيرها من الامتيازات الاحتكاريّة في حكومة الهند. وقامت هذه الشّكة بجلب القوّات العسكريّة إلى الهند بحجّة الدفاع عن ممتلكاتها وأصبحت هذه الدولة الكبرى بسبب ذلك من المستعمرات البريطانيّة.



فالممنوع هو ذاك النوع من الروابط التي تمكّن الآخرين من أن يجعلوا العالم الإسلامي تحت تأثيرهم. فللولاية - أي الولاية القرآنية - إذًا، وجهان: الوجهة الأولى، هي أنّه ينبغي لجميع العناصر داخل المجتمع الإسلامي أن تتحرّك نحو هدفٍ واحدٍ، ووجهةٍ واحدة، وعلى طريقٍ واحدٍ، بكلّ خطوة من خطواتها؛ وعلى مستوى خارج المجتمع الإسلامي، يجب على الأمّة الإسلامية أن تفصل ارتباطاتها مع جميع المعسكرات والأجنحة المعادية للإسلام.

ويوجد ها هنا نكتةٌ دقيقةٌ توصل الولاية بالمعنى الذي جاء في القرآن الكريم إلى ذات المعنى الذي نطرحه نحن الشيعة للولاية. فدقّقوا لكي أبيّن هذه النكتة، وعندها سوف تفهمون جميعًا كيف أنّ الولاية عند الشيعة ترتبط بالولاية القرآنية. من الممكن أن يكون هناك أربعة أنفار مستعدّين لأن يستمعوا إلى الأمور التي ترجع إلى الولاية ويقبلوا بها، ولربّما كانوا من الجيل الماضي؛ لكن هذا الشابّ الذي يرتبط بالقرآن وهو يريد أن يفهم يجب عليه أن يدقّق ليعرف من أين تنبع الولاية الشيعيّة.

إنّ هذا الحدّ من الاهتمام الذي نوليه للارتباط بالإمام، وإنّ اعتبارنا أنّ أمر الإمام ينفذ في جميع شؤون حياة المجتمع، يرجعان إلى هدفٍ ما وعلينا أن ندرك ما هو منشأه؛ هنا يحدّثنا القرآن - وهي النقطة التي أقوم الآن بالحديث عنها - أنّه لو أراد أي مجتمعٍ أو أمّةٍ يمتلكان الولاية القرآنية بهذا المعنى أن يوجّها كلّ طاقاتهما الداخليّة في اتّجاهٍ واحدٍ ونحو هدفٍ واحد ويتحرّكا على خطٍّ واحدٍ، ولو أرادا أن يعبّئا جميع طاقاتهما الداخليّة ضدّ القوى المعادية للإسلام في الخارج؛ فإنّهما سيحتاجان إلى قدرةٍ متمركزة في قلب المجتمع الإسلامي، سيحتاجان إلى نقطةٍ ترتبط بها جميع

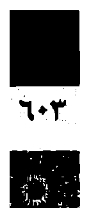




هذه الطاقات الداخليّة ويستلهم منها الجميع، ويصغي لها الجميع ويستمعون إليها؛ تكون على علمٍ بجميع أبعاد المصالح والمفاسد كي تتمكّن [من توجيههما]، تمامًا كالراصد القوي والبصير الذي يوجّه كلّ فردٍ في جبهة الحرب إلى عمله الخاصّ ومهمّته المحدّدة. يجب أن تتواجد مثل هذه القيادة والقدرة المتمركزة داخل المجتمع الإسلامي؛ وأن تكون هذه القدرة على علم بما يمكننا، أنت وأنا وغيرنا من الأفراد، أن نقدّمه؛ من أجل أن تخبر كلّ شخصٍ بالعمل الذي ينبغي أن يقوم به.

لو أردت، مثلًا، في مقام التشبيه أن أشبّه، أسألكم: هل شاهدتم مصانع السجاد هذه؟ حيث تكون هناك مجموعة جالسة وهي في حال حياكة؛ وأي فردٍ، كان طفلًا أو كبيرًا، يجلس هناك فإنّه يعمل ويقوم بنسج الخيوط؛ وهو يعمل من الصباح حتّى قرب الغروب حتّى ينال بضع تومانات. فكلّ واحدٍ من هؤلاء ينشط ويعمل ويبذل الجهد؛ ولكن لو لم تنسجم أعمالهم فيما بينها، ولو لم يكن هناك فكرٌ وعينٌ وقدرةٌ أعلى توجّه الأوامر الخاصّة لكي يعلموا ما هي الخيوط التي ينبغي أن يضعوها وكيفيّة حياكتها وكيف يقصّونها، ولو لم تكن مثل هذه القدرة المتمركزة موجودةً، فكيف يمكن لمثل هذا السجّاد أن ينتهي؟! سترون عندها أنّ من يجلس على اليمين سيحكي عن الشرق، ومن يجلس على اليسار سيحكي عن الغرب، [فالذي هو] في هذه الجهة يتحدّث عن السجّاد الكرديّ، [والذي هو] في تلك الجهة يتحدّث عن السجّاد التركمانيّ، وهكذا ستكون الخطوط غير مرتّبة وربّما ينتج عن ذلك شيئًا هجينًا.

فلا شكّ بأنّه لا بدّ من النظم في عمل حياكة السجّاد؛ حيث ترون أنّه يوجد في هذه الجهة زهرةٌ كتلك الزهرة، دون زيادةٍ أو



نقصان، وكيف أنّها قد نُسجت في تلك الجهة وتمّ وصلها بحبكة الترنج تلك، وكذلك الأمر في تلك الجهة من السجّادة زهرتين أخريين كهاتين؛ فكلّ شيءٍ منظّم، وكلّ شيءٍ في محلّه، فما سبب ذلك؟ لأنّه منذ البداية كان هناك أمرٌ مشخّص، وشخصٌ واحدٌ يجلس ويقول بصوتٍ عالٍ: اجعل هناك اثنين من الأعلى إلى الأسفل، وأنت هناك أوصل ذلك الخيط من تلك الجهة، وأنت هناك قم بقصّ ذلك الخيط من تلك الجهة؛ وأنالم أسمع مثل هذه الأمور ولا أعرفها، لكن من يبيع السجّاد يعرف، أو لعلّه أيضًا لا يعرف، بل ربّما من يحيك السجّاد لا يعرف أيضًا! فهل التفتّم؟

فلو أُريد للمجتمع أن يستخدم جميع طاقاته، وأن يكون هذا الاستخدام باتّجاهٍ واحدٍ، وأن لا تضيع أيٌّ من تلك الجهود والطاقات، بل تصبح كلّ هذه القدرات الموجودة في المجتمع متضافرةً متآزرة، وتشكّل قدرةً متراكمة تؤدّي إلى تأمين مصالح هذه المجموعة البشريّة، وبالتالي يتمكّن هذا المجتمع من أن يصبح قبضةً واحدةً في مقابل الأجنحة والصفوف والقوى المعادية؛ فلو أرادوا أن يحصلوا على هذه الأمور، فإنّهم يحتاجون إلى قدرة متمركزة؛ فهذا المجتمع يحتاج إلى قلبٍ واحدٍ لهذا الجسد العامّ للأمّة الإسلامية. بالطبع، إنّ لهذا الأمر شروطًا، فيجب أن يكون [هذا القلب] واعيًا جدًّا وفي منتهى العلم، وأن يكون شديد الحزم، وأن يكون لعينه باصرةٌ أخرى، ولا ينبغي أن يخاف من أي شيءٍ في طريق اللّه، ويجب عليه أن يقدّم نفسه فداءً في الوقت الضروري. فما هو هذا الاسم الذي نطلقه على مثل هذا الموجود؟ إنّه «الإمام».

فالإمام هو الحاكم والقائد الذي يُعيّن من جانب اللّه في المجتمع؛ وعندما نقول «من جانب اللّه» نقصد إمّا أن يعيّنه اللّه





بالاسم والعلامة، كأن يعيّن أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين وبقيّة الأئمّة، والنبي نفسه هو الإمام. يقول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(١)، وهذا خطاب اللّه لإبراهيم الخليل، فالإمام هو الذي يتقدّم المجتمع ويحكمه ويقوده. فأحيانًا إذًا، يعيّن اللّه هذا الإمام بالاسم والرسم ويقول يجب أن يكون علي بن أبي طالب مثلًا بعد النبي؛ وأحيانًا أخرى، لا يعيّن اللّه الإمام بالاسم بل بالعلامة، كما جاء مثلًا في كلام الإمام [الحسن العسكريّ] عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ حَافِظًا لِدِينِهِ مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»(٢)، فهكذا يكون قد عيّن الإمام؛ وهذا الإمام هو ذاك الفقيه الذي يكون نائبًا للإمام المنصوص، وهو بنفسه إمامٌ، لكنّه ليس الإمام الذي يُعيّن بالاسم، ولكن قد عُيّن بالعلامة، وكلّ من تنطبق عليه هذه العلامة يكون الإمام. ولقد أردت أن أفسّر لكم كلمة الإمام؛ فالإمام هو الرائد والحاكم، أي أنّه صاحب الأمر، وهو الذي يتّبعه الناس أينما ذهب، ويجب أن يكون معيّنًا من جانب اللّه وعادلًا ومنصفًا وصاحب دينٍ وعزم، وأمثال هذه الألفاظ التي توجد في مجال الإمامة ونحن لسنا الآن في مقام [بيانها].

وهنا نسأل: ما هو الشيء الذي يستوجبه هذا الأصل القرآني للولاية؟ إنّه وجود الإمام. فلو أُريد لهذا الجسد الكبير الذي يُسمّى بالأمّة الإسلامية أن يبقى حيًّا وأن ينجح وأن يبقى قائمًا وثابتًا، يجب

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

(٢) الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة** (لبنان- بيروت: دار إحياء التراث العربي)، الجزء ١٨، الصفحة ٩٥.



أن نتساءل عمّا ينبغي فعله؛ يجب أن يجعل ارتباطه بهذا المركز، أي بهذا القلب المتحرّك والنابض والحيوي بكلّه، محكمًا وقويًا وعلى الدوام. فماذا تعني الولاية؟ دقّقوا جيّدًا هنا جميعًا، ما هو البعد الآخر للولاية؟ إنّه الارتباط المحكم والقوي من قبل جميع آحاد الأمّة الإسلامية وفي جميع الأحوال بقلب الأمّة ذاك. ماذا يعني الارتباط؟ إنّه الارتباط الفكري والارتباط العمليّ، أي أن يتّخذه قدوةً بنحوٍ تامّ؛ وأن يكون في أفكاره وتطلّعاته تابعًا له بشكلٍ صحيح، وأن يتّبعه تماما في أفعاله وسلوكه وفعاليّته وحركته.

فماذا تعني ولاية علي بن أبي طالب إذًا؟ إنّها تعني أن تكون تابعًا لعليٍّ في أفكارك، وكذلك في أفعالك، وأن تجعل بينك وبين علي بن أبي طالب عَلَيْهِالسَّلَامُ رابطةً قويةً محكمةً لا يتطرّق إليها أي خلل، وأن لا تنفصل عن عليّ، فهذا هو معنى الولاية. فهل فهمتم جيّدًا ما هي الولاية؟ هنا ندرك معنى هذا الحديث: «وِلَايَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»[1]؛ فهذا الحصن الحصين يصون ويؤمّن كلّ من يدخله من عذاب اللّه، وما أجمل هذا الكلام! فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّ المسلمين الذين هم أتباع القرآن لو أنّهم اتّصلوا بعلي بن أبي طالب على صعيد الفكر وكذلك على صعيد العمل والسعي والفعّاليّة، فإنّهم سيصونون أنفسهم من عذاب اللّه ويبقون في حفظه، فهل يوجد معنًى آخر غير هذا؟ هل يوجد شيءٌ آخر غير هذا؟ فلو أنّ علي بن أبي طالب عُرف اليوم، وقد عرُف بعدها، فأنا العبد وأنت يا صاحب الجناب

---

(١) الشيخ الصدوق، **عيون أخبار الرضا ع** (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٤٠٤ه/١٩٨٣م)، الجزء ١، الصفحة ١٤٦.



العالي، لو عملنا مثله، فعندها نكون قد حقّقنا الولاية؛ فالولاية تعني هذا الأمر.

ذاك العبد الذي لا أعتبره قابلًا لفهم القرآن - بالطّبع أنا أقصد شخصًا، ولا سمح اللّه أن أكون ممّن يقول إنّ القرآن غير قابلٍ للفهم، بل قصدت ذاك الذي لا يعتبر القرآن قابلًا للفهم. فكيف له أن يقول إنّني من أهل ولاية علي بن أبي طالب، وأنّني مرتبطٌ بعلي باللحاظ الفكريّ؟! في حين أنّ علي بن أبي طالب يقول في خطبةٍ مذكورةٍ في نهج البلاغة:

اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمًى[1].

هكذا، نجد أمير المؤمنين يوجّه الناس إلى القرآن ويسوقهم نحوه؛ فذاك الرجل الذي يقول إنّه لا يمكنك أن تفهم القرآن، هل يمكن أن نطلق عليه أنّه من أهل ولاية علي بن أبي طالب؟ أبدًا وكلّا؛ كان علي بن أبي طالب مستعدًّا لتجاوز كلّ وجوده في سبيل اللّه، هذا هو حاله؛ أمّا ذاك الرجل فهو ليس مستعدًّا لأن يقدّم مثقالًا من نفسه ومن ماله ومن شأنيّته الاجتماعية ومن راحته ومن وجاهته في سبيل اللّه، فهل هذه هي ولاية علي بن أبي طالب؟! إنّ ولاية علي بن أبي طالب، إنّما يحوزها ذاك الذي يكون قد ربط نفسه مع عليٍّ برابطةٍ لا تُفكّ، سواءٌ من الناحية الفكرّية أو من الناحية العمليّة. لو أنّكم دقّقتم جيّدًا أيّها الإخوة لوجدتم هذا المعنى الذي ذكرته،

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٩١.



هو أكثر المعاني دقّةً ولطافةً لما يمكن أن يُشرح بشأن الولاية، ولما يمكن أن يُبيّن؛ وهذا المعنى يُستخرج من القرآن أيضًا حيث إنّنا في الآيات القرآنية من سورة المائدة، سنجد الإشارات المباشرة إلى ذلك البعد الإيجابي للولاية، وهو عبارة عن ذلك الارتباط الداخليّ، وكذلك إلى البعد السلبي للولاية وهو قطع الروابط الخارجيّة، وكذلك إلى ذاك البعد الآخر للولاية وهو الارتباط والاتّصال بالوليّ؛ والولي هو ذاك القطب وذاك القلب وذاك الحاكم والإمام - فقد تمّت الإشارة الواضحة إلى كلّ هذه الأمور، وعليكم أن تدقّقوا الآن من أجل أن تحصّلوا هذا المطلب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[1]، وقد فُسّر النصارى هنا بالمسيحيين، والأولياء جمع وليّ، والولي مشتقّ من الولاية وهي تعني ذلك الترابط والالتصاق؛ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ فلا تنظروا إليهم على أنّهم معسكرات منفصلة، فهم بهذا اللحاظ يشكّلون جميعًا جبهة واحدة معادية لأصولكم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ - التولّي هو قبول الولاية من باب التفعّل - فكلّ من خطى خطوةً في وادي ولايتهم وربط نفسه بهم وأقام هذه العلقة، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، بمعنى أنّهم لا يكتفون بالذهاب إلى جبهتهم بل يسارعون للوصول إلى جبهة أعداء الدين؛ ولا يكتفون بأن يكونوا إلى جانب أولئك، بل يريدون أن يكونوا في أعماق جبهتهم؛ ولو سألت هؤلاء لماذا تنسجم هكذا مع

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٢.





أعداء الدين، وأنت تعلم أنّه ضدّ الدين؟ ولماذا لا تعادي هؤلاء بل تصادقهم؟ فإنّه سيجيبك عندئذٍ هكذا، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ﴾، فهو يخاف من أن يصيبه ذلك الضرر، ويريد أن يبرّر صداقته وولايته بذلك. وكم أنّ هذه الكلمات معروفة للآذان، ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ﴾، كأنّهم يريدون أن يقولوا: إنّنا نخاف أن يوقعوننا في المتاعب والمصاعب.

فماذا يقول اللّه في جوابهم؟ يقول تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٍ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ فالأمل أنّ اللّه سينصر جبهة المؤمنين، أو ستصيب أولئك حادثةٌ فتكون لمصلحة المؤمنين؛ وبعدها فإنّ أولئك سيكون حالهم ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾، هناك سيشعر أولئك بالخزي والندامة ويعترفون بخطئهم، ويقولون لو أنّنا كنّا نعلم أنّ جبهة المؤمنين ستنتصر وتكون قويةً هكذا، لما صالحنا واقتربنا من أعداء الدين وأعداء اللّه، ولما بذلنا ماء وجوهنا هكذا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعد أن يُفتضحوا ويظهر ولاؤهم للأعداء، ماذا يقول المؤمنون؟ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ فالمؤمنون يبهتون أولئك الضالّين!! أولئك الذين كانوا في الوجه بظاهر حسن، كانوا يقسمون بالقسم المغلّظ أنّنا معكم؛ وكلّما تحدّثنا معهم أو قلنا لهم شيئًا كانوا يقولون: أجل، نحن معكم في نفس العقيدة ولا نختلف معكم وسنقول كلّ ما تقولون؛ ففي مقام البيان كانوا يتحدّثون هكذا مع كلّ من يسألهم؛ وبعدها يُعلم أنّ قلوبهم كانت مريضة، ورغم ظاهرهم الحسن فإنّ قلوبهم كانت سوداء وممتزجة بالنفاق والقذارة؛ وهناك سيقول المؤمنون: عجبًا! انظروا أي قسمٍ أقسموا! فأولئك ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾،



فقوله تعالى: ﴿لَمَعَكُمْ﴾ إشارة إلى الامتزاج العقائدي والفكريّ؛ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، فذهبت تلك الأعمال التي قاموا بها هباءً ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾، وهذا هو الفشل الواقعي.

حسنٌ، كان هذا فيما يرتبط بالعلاقات الخارجيّة. أمّا على صعيد العلاقات الداخليّة، فأرجو الالتفات جيّدًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾[1]، فذلك الذي تراجع عن دينه وألقى حمل مسؤوليّة الرسالة ومسؤوليّة الإيمان باللّه عن كاهله ولم يوصله إلى المقصد، فلا تظنّوا أنّ هذا الحمل لن يصل إلى غايته، فهذا تصوّرٌ باطل وخيالٌ، كلّا، فإنّ أمانة اللّه هذه ستصل إلى مقصدها، وغاية الأمر أنّ السعيد هو من يكون قد حملها، وقد يكون هناك جماعةٌ أخرى تنال هذا الفخر.

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ هؤلاء هم الذين يحملون الفكر الإسلامي الأصيل، وسيكون ذلك المجتمع الإسلامي المثالي بلحاظ علاقاته وروابطه الداخليّة والخارجيّة ممّن تنطبق عليه هذه الآية، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فهل أنّنا نحن نحبّ اللّه؟ كلّا، إنّ تلك الذرّة الواحدة من المحبّة - حيث قد تقولون أحيانًا: يا ربّي روحي فداك، واللّه تعالى غنيٌ عن أي نوعٍ من مثل هذا الاحتياج والفداء والقربان - نقول إنّها ادّعاءٌ أيضًا، فنحن لسنا مستعدّين أبدًا لأن نضحّي في سبيل اللّه، وهذه ليست محبّة، إنّما محبّة اللّه هي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا هو القرآن، فإن كنتم تحبّون اللّه، وينطبق عليكم ﴿يُحِبُّهُمْ

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٤.

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، فسوف تكونون على طريق التسليم لأمر اللّه الذي يوصلكم إلى محبّة اللّه.



حسنٌ، هذه هي إحدى الخصائص والصفات التي تشير إلى وجود المحبّة بين الطرفين، بينهم وبين اللّه. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو منتهى التواضع مقابل المؤمنين، ويدلّ على كمال الرابطة والعلاقة المتينة، فلا يوجد في أنفس هؤلاء في مقابل المؤمنين ومقابل هذه الجماعة المسلمة، التي تشكّل كلّها متن المجتمع الإسلامي، أي نوعٍ من التكبّر والعجب والمزايدة والادّعاء الأجوف والهراء، فهؤلاء عندما يواجهون الناس لا يكونون إلّا منهم ومعهم وعلى طريق خدمتهم ومن أجلهم؛ لا يخرجون عنهم، ولا يسكنون الأبراج العاجيّة بعيدًا عن الناس، ويتحرّقون حرصًا عليهم؛ ففي الناس ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفي المقابل تمامًا، نجدهم أعزّة لا يتأثّرون مقابل الكفّار وأعداء الدين ومخالفي القرآن، فهم شامخون، وذلك لأنّهم بنوا تلك القلعة الحصينة من الفكر الإسلامي حول أنفسهم ولم يعد بالإمكان اختراقها والنفوذ إليهم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والخاصّيّة الأخرى التي فيهم هي أنّهم يجاهدون في سبيل اللّه بلا قيدٍ أو شرط، كما جاء في الآية أيضًا: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ وإذا كنتم تسألون عن نوع هذه الملامة، ففكّروا بأنفسكم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ هذا هو التفضّل والتلطّف الإلهي الذي سيعطيه اللّه لمن يشاء، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثمّ تأتي الآية اللاحقة، فيما يرتبط بالعلاقة والاتّصال بين أجزاء المجتمع الإسلامي من جهة، وبين ذلك القلب وتلك القدرة وذلك



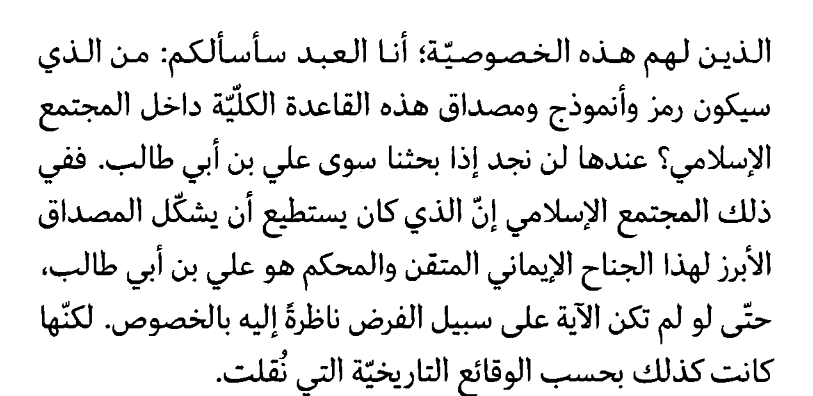
الإمام والمقتدَى، وهي تتمّة لما مرّ من الآيات، فانظروا كم يكون السياق جميلًا ومتناسبًا! انظروا كيف ينير التدبّر في القرآن قلب الإنسان تجاه هذه القضايا التي كان يظنّ أنّها ليست قرآنية! وما أبلغ طريقة القرآن في الكلام! لقد ذكر العلاقات الخارجيّة والداخليّة، والآن يريد أن يبيّن قلب العلاقات الداخليّة وهو المقتدى والقائد والإمام، حيث يقول ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾، فالولي والقائم بالأمر هو ذاك الذي ينبغي أن ترجع إليه جميع الأنشطة والفعاليّات الاجتماعية والمرتبطة بالأمّة الإسلامية وينبغي أن تستلهم منه، وهو اللّه. حسنٌ، إنّ اللّه لا يتجسّم ولن يأتي ليجلس بين الناس، ويأمر وينهى، فمن يكون عندئذٍ؟ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ حيث إنّه من الواضح عدم وجود أي نوع من التنافس والتنازع والتنافر بين اللّه والرسول، فالرسول هو رسوله؛ اللّه ورسوله. حسنًا، لكنّ الرسول لا يبقى دائمًا، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، فمن يأتي بعد الرسول؟ وهنا نجد أنّه ذكر بعد الرسول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فمن هم الذين آمنوا؟ فهل يكفي الإيمان؟ كلّا، يوجد علامة، ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾. وقوله ﴿وَهُمْ﴾ هنا إشارة إلى الحال كما ذكر المفسّرون، أي في حال الركوع ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فمن هو هذا الذي آتى الزكاة أثناء ركوعه؟ إنّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، حيث عُيّن هنا تحت عنوان الوليّ.

وهنا، قد تستفيدون هذا المعنى من الآية، وتأخذون قوله: ﴿وَهُمْ﴾ بمعنى الحال، وهذا حسنٌ جدًّا، ولو أنّكم على سبيل الفرض شكّكتم بهذا المعنى فقلتم، كلّا، إنّه يقصد مطلق المؤمنين

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣٠.





الذين لهم هذه الخصوصيّة؛ أنا العبد سأسألكم: من الذي سيكون رمز وأنموذج ومصداق هذه القاعدة الكلّيّة داخل المجتمع الإسلامي؟ عندها لن نجد إذا بحثنا سوى علي بن أبي طالب. ففي ذلك المجتمع الإسلامي إنّ الذي كان يستطيع أن يشكّل المصداق الأبرز لهذا الجناح الإيماني المتقن والمحكم هو علي بن أبي طالب، حتّى لو لم تكن الآية على سبيل الفرض ناظرةً إليه بالخصوص. لكنّها كانت كذلك بحسب الوقائع التاريخيّة التي نُقلت.

بالطبع، أرجو من السادة أن يلتفتوا؛ وهنا صار من اللازم أن أذكّر أنّ بحثنا في باب الإمامة أو الولاية يعتمد على الرؤية الشيعيّة، والقضيّة، من وجهة نظرنا، قضيّة إيجابيّة لا سلبيّة. وكما ذكرنا تكرارًا، يجب على كلّ من ينتمي إلى التشيّع أن يعرف نفسه ويتعرّف على فكره ويعمّق إيمانه مهما أمكن ويزيده رسوخًا ونفوذًا، هذا ما نعتقد به.

فنحن هنا في بحثنا نريد أن نثبت التشيّع، ولكنّنا لا نريد أن ننفي الآخرين، ونحن لا نريد أن نصنع الخلاف الفكري والخلاف الذي ينشأ من اختلاف السلائق وتباينها، هكذا لأي شيء. كلّا، بل يجب عليكم أن تتعرّفوا كيف تدركون التشيّع؛ وعندما أقول التشيّع، فلا تقل بينك وبين نفسك: أيّها السيّد! الآن اثبت الإسلام وبعدها التشيّع! كلّا، إنّ ذاك التشيّع، الذي أتحدّث عنه، ليس أمرًا مغايرًا للإسلام، والإسلام لا يختلف عن التشيّع؛ فلو رأى المشاهدون أنّ الإسلام على عشرة أنحاء، فإنّ ما يظهره التشيّع حوله هو الإسلام الواقعي، وإنّ الاستنباط الذي يقدّمه الشيعة عن الإسلام والقرآن هو الاستنباط الصحيح والمنطقي والمنصف والعقلانيّ. التفتوا جيّدًا، بناءً عليه، فإنّنا نتحدّث ها هنا عن أصول الإسلام، وبحسب ما نراه ونتصوّره إنّنا نبحث عن الأصول الأيديولوجيّة للإسلام، ونحن





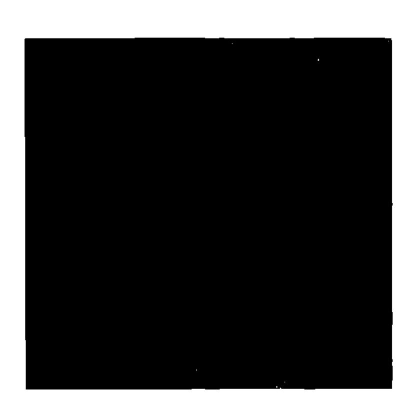
نريد أن نبينها. وإنّني لا أظّن أنّكم إذا فكّرتم ستصلون إلى نتيجةٍ مغايرة. بناءً عليه، إنّنا ننظر إلى المسائل من البعد الإيجابي ولا نريد سوى التعرّض للأبعاد الإيجابيّة للقضيّة التي نبحث فيها.

إنّنا نبين الإسلام كما فهمناه وعرفناه في مدرسة التشيّع، وليس لنا عمل الآن مع تلك الأجنحة الأخرى التي يمكن أن تفهمه بطريقةٍ أخرى أو تعرّفه حسب فهمها؛ وفي الواقع إنّنا لا نبحث معهم الآن ولا يوجد أي خلاف، أو مجاملة؛ فالجميع إخوة وإنّنا نقدّم يد الأخوّة، لماذا؟ لأنّ لدينا عدوًّا مشتركًا، وهذا العدوّ يقف خارج بيوتنا، إنّنا جميعًا إخوة في هذه الأيّام، ولا يجوز أن نتنازع ونتشاجر، هذه هي طريقتنا أيضًا التي أردت أن أعرضها ليتعرّف عليها السادة؛ فإنّ البحث إذا ارتبط بالتشيّع والشيعة فذلك بسبب أصالة الشيعة ولأنّنا نعتقد بالتشيّع، ولأنّنا نرى الإسلام من زاوية التشيّع، لا لأنّنا نريد أن نوجد الخلاف بين الشيعة والسنّة، إنّنا نعتبر هذا الخلاف حرامًا. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾. حسنٌ، فإنّنا لو أولينا الولاية الرعاية والاهتمام، فماذا سيحصل؟ وما هي الآثار التي سنصل إليها، فلو أنّنا راعينا هذه الأبعاد الثلاثة في الولاية والتي بيّنّاها لحدّ الآن، وهي حفظ الروابط الداخليّة أوّلًا، وقطع العلاقات والروابط مع الأقطاب المعادية الخارجيّة ثانيًا، وثالثًا، حفظ الرابطة الدائمة والعميقة مع قلب الجسد الإسلامي وقلب الأمّة الإسلامية وهو الإمام والقائد، فلو أنّنا راعينا كلّ هذه الأبعاد، ماذا سيحدث؟ إنّ الآية القرآنية تجيب هنا قائلةً: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هؤلاء هم الذين سينتصرون ويتغلّبون على كلّ تلك الأجنحة الأخرى.

الجلسة الخامسة والعشرون

جنّة الولاية

الأحد، ٢٦ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

[سورة **الحجّ**، الآية ٤١]



قبل الشروع بالبحث هذا هناك جملة أمور يجب التذكير بها. أوّلًا، التعريف الإجمالي بالمجتمع الذي يقوم على أساس الولاية وكذلك تحديد الفرد الموالي؛ وثانيًا، دور التصوير الكلّي للمجتمع الذي يعيش الولاية. لقد بحثنا في الجلستين الفائتين في هذا المجال، وما وصلنا إليه من التدبّر في آيات القرآن بالاستمداد والاستنتاج الحاصل من معارف أهل البيت في مجال الولاية، والذي أدركناه ووصلت إليه أذهاننا. بناءً عليه، إنّ ما ذكرناه يُعدّ عُصارة لما جاء في القرآن والأحاديث. خلاصة ما وصلنا إليه من هذه الكلمات هي أنّ للولاية عدّة أبعادٍ ولها عدّة تجلّيات.

أحدها، هي أنّ المجتمع المسلم لا ينبغي أن يرتبط ويتّصل بالعناصر الخارجة عن وجوده، وأن لا يكون لديه هذه الرابطة مع غير المسلم. بالطبع، لقد أوضحنا أنّ هذه القطيعة وعدم الاتّصال هي شيءٌ، وأن عدم وجود أي نوعٍ من الروابط هو شيءٌ آخر. فنحن لا نقول أبدًا إنّ على العالم الإسلامي أن يعيش في عزلةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وأن يقطع كلّ نوعٍ من الروابط مع الشعوب والبلدان والقوى غير المسلمة. كلّا، ليس هذا هو المطلب، بل المسألة أن





لا يكون هناك تبعيّة وارتباط بالقوى الأخرى، وأن لا يحصل التطبيع والذوبان والانصهار؛ بل ينبغي، باختصار، الحفاظ على الاستقلال والاعتماد على النفس. والتجلّي الآخر أو الهيكل والوجهة الأخرى للولاية، هي عبارة عن الانسجام والاتّصال والارتباط المحكم والشديد في الداخل وبين العناصر المسلمة؛ فعندما يُطرح المجتمع الإسلامي أمامنا ويُعرض على أذهاننا، فإنّ ما يُعبّر عنه بالولاية هو عبارة عن التوجّه الواحد لهذا المجتمع الإسلامي والذي يعبّر عن انسجامه ووحدته. ومثلما رأينا في الأحاديث النبوية وغيرها، كقولهم: «مثل المؤمنين فِي تَوادِّهم وَتَرَاحُمِهِمْ وتعاطفهم كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحد»[١]، فهنا يوجد جسدٌ واحدٌ وعمارةٌ واحدة ترتبط كلّ أجزائها وعناصرها فيما بينها بصورةٍ عضويّة؛ فيجب على المسلمين أن يكونوا دائمًا في هذه الحالة من الترابط والاتّصال والتراحم، وأن تنعقد أواصرهم بصورةٍ متينة، وباختصارٍ يجب أن يتحوّلوا إلى يدٍ واحدةٍ في مقابل القوى الأخرى وفي مواجهة كلّ من يعارضهم ويعاديهم؛ وقد شاهدنا هذا المطلب في الآية السابقة بصورةٍ تامّة؛ وكذلك ما شاهدناه في آيات سورة المائدة، حيث يقول تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]؛ وفي آيةٍ أخرى بُيّن هذا المطلب أيضًا بصورةٍ أوضح، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، فعندما يواجه المسلمون جبهةً خارجيّة معيّنة تقف أمامهم، فسوف لن ترى فيهم أي شيءٍ من ضعف الإحكام والشدّة وإنّما سيكون حالهم هو

---

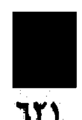
(١) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة ١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٤، الصفحة ٢٨٣٧.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٤.



عدم التأثّر وعدم إمكانيّة الاختراق، فهم مستقلّون تمامًا؛ ولكنّهم على صعيد الجبهات الداخليّة - حيث أنّ التعبير بالجبهة ليس صحيحًا من الأساس لأنّه لا يوجد أي نوعٍ من المجابهة في الداخل - وعلى مستوى عناصرهم وهيئاتهم وأجنحتهم يمثّلون ذلك الجسد الإسلامي العظيم الذي لا يمكن النفوذ فيه. وبالتالي، لا يحصل فيه أي نوعٍ من الخلل والانفعال والتأثّر بالآخر، بل على العكس نجدهم يتأثّرون فيما بينهم ويجذب كلّ واحدٍ منهم صاحبه نحو الخير والإحسان، والكلّ يوصي الكلّ باتّباع الحقّ مهما أمكن، وبالثبات على طريق الحقّ، وبالمقاومة لكلّ أشكال الدوافع نحو الشرّ والفساد والانحطاط، فالكلّ يحفظ الكلّ؛ وكما مرّ معنا من مثال حول المتسلّقين الرياضيّين العشرة الذين يريدون أن يصلوا إلى قمّة ذلك الجبل، وأنت تراهم يعبرون كلّ أنواع الممرّات الضيّقة والمنعطفات والطرق الوعرة، ويكفي في طريقهم الخطر ذاك، أن تنهار صخرةٌ صغيرةٌ من تحت قدم أحدهم حتّى يسقط في ذاك الوادي السحيق الذي ينحدر إلى مئات الأمتار. فها هنا، ومن أجل أن يبقى الجميع في عافيةٍ وأمان يجب عليهم أن يرتبطوا فيما بينهم بحبلٍ محكمٍ وقوي يلتفّ حول خواصرهم ولا ينقطع ولا يتراخى أيضًا؛ ونجدهم ينادون بعضهم بعضًا: يا فلان! لا تضيّع الطريق؛ يا فلان! لا تتراجع؛ يا فلان! لا تعطش؛ فينظرون إن كان بينهم من هو أضعف من غيره باللحاظ الفكري أو القوّة الجسمانية أو المادّيّة، أو بلحاظ الحقّ والحقيقة، حتّى يسعى الجميع لهدايته ودلالته على الطريق الصحيح. وباختصارٍ، يصبح الجميع كعائلةٍ واحدةٍ، يعيش أفرادها فيما بينهم منتهى الحميميّة والترابط. هذا المثال يقدّم لنا صورةً أخرى من تجلّيات الولاية التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع الإسلامي.

والتجلّي الآخر الذي يبرز على صعيد تجليّات الولاية، والذي أشرنا إليه في الجلسات السابقة أيضًا، وهو غايةٌ في الأهميّة، ولعلّه أهمّ من الجميع، وهو الذي يضبط بقاء الولاية بمعنييها الأوّل والثاني أيضًا: هو أنّ المجتمع الإسلامي يحتاج إلى مركزٍ مدير ومدبّر يحوز على مجموعة من الشروط الخاصّة؛ لأنّ حكم المجتمع الإسلامي هو حكم الجسد الواحد؛ فيكون على صعيد الداخل بصورة تلك الأعضاء المتجاذبة والمتماسكة، وعلى صعيد الخارج كقبضةٍ واحدةٍ وجسدٍ واحدٍ يقف بإحكام مقابل الجبهات الخارجيّة، ويتجلّى بوحدته التامّة أمام الخارج؛ ولأنّه ينبغي الحفاظ على الوحدة في المجتمع الإسلامي؛ فلا يمكن لهذه الوحدة أن تتحقّق من دون وجود مركزيّة للقوّة المديرة؛ وإذا حصل أن وُجد في زوايا ومناطق هذا العالم الإسلامي سلطةٌ ما أو عالِمٌ معيّن أو قطبٌ حاكم آخر، فإنّ أعضاء هذا الجسد الواحد ستتشتّت وتتفرّق وينفصل كلّ واحد عن الآخر، فلا يتحرّكون على طريقٍ واحدٍ؛ وهذه هي الحالة عينها التي تحدث عند تبدّل الجهاز العصبي في الإنسان من وضعه الحالي إذا صار جهازين عصبيين؛ أحدهما يدير القسم الأيمن من الجسد، والآخر يدير القسم الأيسر منه؛ لكن عندما يكون هذا الجهاز العصبي واحدًا، فإنّني لو أردت أن أحرّك يدي بصورةٍ منسجمةٍ فإنّني أستطيع؛ لأنّهما ترجعان إلى مركزٍ واحدٍ يوجّههما، فإذا أراد ذاك الشخص أن يرفع عمودًا ويضعه في تلك الجهة، أو يحمل ثقلًا معيّنًا ويأخذه إلى مكانٍ محدّد، فإنّ كلّ يدٍ ستساعد الأخرى، لأنّهما تتلقّيان الأوامر من مركزٍ قياديٍّ واحدٍ، ويكون هذا الأمر متناسبًا مع العمل المطلوب. وهكذا، نجد أنّ كلّ يدّ تمتدّ وتعمل بصورةٍ تساعد الأخرى على القيام بالعمل المطلوب، فتضغطان بالاتّجاه





اللازم. وهكذا، يتمكّن الإنسان بفعل الانسجام بين يديه من رفع ذلك الثقل.

لكن إذا أصبح هذا المركز العصبي الذي يجب أن يوجّه أعضاء البدن جهازين مستقلّين في الإنسان الواحد، وصار كلّ جهازٍ مسؤول عن قسمٍ خاصّ من البدن، فهذا لليمين وذاك لليسار، فإنّ اليدين لن تتمكّنا من العمل بصورةٍ منسجمةٍ، وسيحدث الخلل والعطل؛ فيدٌ تريد أن تضغط وأخرى تريد أن ترفع؛ وواحدة تتحرّك بالاتّجاه الذي يعاكس الاتّجاه الذي تحتاج إليه اليد الأخرى. وعندما تطلب اليد اليُمنى من اليد اليُسرى أن تعاونها، فإنّها كما نقول لن تعطيها أذنًا صاغيةً؛ وهكذا لن تعمل اليد اليُسرى بحسب ما تحتاج إليه اليد اليُمنى، ولن يرتفع ذلك الوزن أبدًا. وإذا وصل الأمر إلى المواجهةِ مع عدوٍّ ما، فإنّ تلك اليد التي تجتمع كقبضةٍ واحدةٍ لتضرب رأس العدوّ، ستقول لليد الأخرى: ساعديني لنمسك ببعضنا ونضربه ضربةً واحدةً على رأسه، من أجل أن نقضي عليه بسرعةٍ؛ وهكذا تقوم اليد اليُسرى بالضغط على مركز الجهاز العصبي، بعد أن رأت كلّ هذا الإصرار من اليد اليمنى؛ وهذا الجهاز يقول: كلّا، أنا الآن مستعدٌّ لأن أكون بصورةٍ أخرى؛ وهكذا تنزل قبضة تلك اليد، بينما لا تكون اليد الأخرى مستعدّة لضرب رأس ذلك العدوّ؛ فتكون عاقبة هذا البدن الإنساني الذي يتلقّى أوامره من مركزين قياديّين، أو جهازين عصبيين، أن يصبح موضع سخريةٍ واستهزاء، وعندما يحين الوقت لحمل ذلك الثقل، فإنّه لن يتمكّن من القيام بذلك. وعندما يريد أن ينقل شيئًا من مكانٍ إلى آخر، فإنّه لن يتمكّن من ذلك، وعندما يريد أن يدفع عدوًّا عن نفسه فإنّه يبقى عاجزًا.





فلو أراد المجتمع الإسلامي أن يدفع الأعداء في الوقت المناسب، فراحت تلك المنطقة من المجتمع الإسلامي تفكّر بدفعه ومواجهته اليوم، بينما رأت منطقةً أخرى ذلك بعد الغدّ، فعندها لن يكون هناك أيّة فائدة؛ لأنّه إذا أراد مجتمعٌ ما أن يواجه العدوّ ويحاربه، فيجب أن تتحرّك كلّ أجنحته في آنٍ واحدٍ للوقوف مقابل هذا العدوّ دفعةً واحدةً. أمّا لو كانت فئة تفكّر [بالمواجهة] في هذا اليوم، وفئة أخرى ترى أنّ المواجهة ينبغي أن تكون غدًا، وفئةً ثالثةً لا تستيقظ من سباتها إلّا بعد عدّة أيّام؛ فسوف يتمكّن هذا العدوّ وبكلّ سهولة من أن يجسّد تلك القصّة التي نقلها الملّا حول أولئك الأشخاص الثلاثة الذين ذهبوا إلى بستان العنب[1]؛ وسوف يتمكّن من القضاء على كلّ واحدٍ على حدة؛ وكذلك شاهدنا هذه المسألة تحدث في تاريخ الإسلام، ليس مرّةً واحدةً، أو مرّتين، بل لعلّه يزيد عن عشر مرّات. فإذا أراد المجتمع الإسلامي أن يستقطب وينال كلّ مصالحه في الفرصة المناسبة، وإذا أراد أن يدفع عن نفسه الأضرار والخسائر في الوقت اللازم، فيجب أن يكون كجسدٍ واحدٍ تترابط أعضاؤه بصورةٍ مناسبة، ويكون في الخارج كقبضةٍ واحدةٍ مقابل العدوّ، أو اليد الواحدة في مواجهته.

وباختصار، إذا أراد هذا المجتمع أن يحقّق هذين البعدين أو

---

(١) قصّة ذكرها المولوي في الكتاب الثاني من المثنوي المعنوي، تحت عنوان التفرّد بالبستان الصوفي والفقيه والعلوي. وفي هذه الحكاية، يدخل أحد الصوفيّة وأحد الفقهاء وأحد العلويّين من السادات إلى بستان وقام هذا البستاني من أجل إخراج هؤلاء من بستانه بحبك خدعةٍ لفصلهم عن بعض والتمكّن من معاقبتهم.



يؤمّن لنفسه هاتين الجهتين من الولاية، فإنّه يحتاج إلى مركزٍ واحدٍ للقيادة المقتدرة تستلهم منه كلّ العناصر الفعّالة والنشطة لهذا المجتمع، سواءً في نشاطها الفكري أو العملي أو شوؤنها الحياتيّة أو مواجهتها للأعداء ومحاربتها لهم، أو في تلاحمها وترابطها العاطفيّ.

إنّ ذاك المركز الذي يلقي بأشعّته على جميع الأعضاء والأجنحة الموجودة داخل المجتمع والمتواجدة في متن هذا المجتمع الإسلامي، فإنّه سيقوم بتشغيل كلّ واحدٍ بما يتناسب مع شأنه، وسيمنع من حصول التعارض، وسيهدي جميع القوى بالاتّجاه الواحد؛ وينبغي أن يكون هذا المركز معيّنًا من قبل اللّه، ويجب أن يكون عالمًا وواعيًا ومأمونًا ومصونًا، وإنسانًا تتبلور فيه جميع عناصر الإسلام البنّاءة، ويجب أن يكون مظهرًا للقرآن؛ فماذا نطلق عليه من اسم أو سمة؟ إنّنا نطلق عليه اسم الوليّ. فالولاية في المجتمع الإسلامي بتينك الصورتين اللتين تعرّضنا لهما، تستوجب وجود الولي في المجتمع؛ ومثل هذا يُعدّ أحد الأبعاد والجهات الأخرى من أبعاد قضيّة الولاية، وهذا هو توضيح ما مرّ معنا من أبحاث.

أمّا القضيّة التي تأتي تاليًا، فهي ما نطرحه على أنفسنا حول ما إذا كنّا من أهل الولاية أم لا؟ وقد نكون، أنتم وأنا، ممّن يحملون الولاية ويتوفّرون عليها، لكن لنا أن نسأل عندئذٍ: هل أنّنا كمجتمعٍ من حيث المجموع نمتلك هذه الولاية أم لا؟ وهل يوجد فرقٌ بين المسألتين؟ أجل، من الممكن أن يكون أحد أعضاء الجسد الواحد سليمًا بنفسه، لكنّ سلامة عضوٍ واحد لا تعني أنّ كلّ البدن في حالةٍ من الصحّة، فهذا هو المطلب الأوّل. وثانيًا، إذا وضعنا عضوًا سليمًا في بدنٍ غير سليم فإنّه لن يتمكّن من أن يتمتّع بكلّ حسنات العضو السليم، هذه هي النقطة الثانية. ففي البداية، يجب أن نرى





كيف يكون الإنسان الموالي لنعرف إذا كنّا، أنتم وأنا، ممّن يمتلكون هذه الولاية؛ وإذا ثبت لدينا وجود هذا الأمر واتّضح أنّني أنا العبد وأنتم ممّن لهم هذه الولاية إن شاء اللّه تعالى، بعدها يجب أن ننظر في كيفيّة تمتّع المجتمع بالولاية.

لا يوجد أي مانعٍ - يعني أنّه ممكن، هذا هو قصدي؛ ولا يعني ذلك أنّه لا يوجد إشكالٌ، فهناك إشكالٌ كبيرٌ؛ ولكنّه لا يوجد مانعٍ - من افتراض وجود إنسانٍ له ولاية في مجتمعٍ لا ولاية فيه؛ ولكن هل تكون مسؤوليّة هذا الإنسان قد انتهت؟ فلو أنّه وصل إلى الولاية وصار من أهلها ولكنّ مجتمعه كان يعيش الحرمان والبعد عن الولاية، فهل ستكون هذه الحياة هي الحياة المطلوبة؟ ولو أنّ هذا الإنسان نفسه كان من أهل الولاية، لكنّه كان يعيش في مجتمعٍ لا ولاية فيه، وبالتالي لم يشعر بالمسؤوليّة تجاه هذا المجتمع الفاقد للولاية؛ ألا يؤدّي فقدان ذلك الإحساس بالمسؤوليّة إلى أن تُخدش ولايته وتتزلزل؟! هذه عناوين يجب عليكم أيّها الرجال المسلمون، والنساء المسلمات، وخصوصًا الشباب المسلمون، أن تفكّروا فيها. من الممكن أنّني لن أجد الفرصة والمجال لكي أشرحها لكم واحدةً واحدةً، ولو أردت أن أشرحها لكم هكذا، من أجل أن يفهم الجميع فردًا فردًا بنحوٍ صحيح، فلعلّ هذا الأمر يحتاج لأن نعطي لكلّ عنوان يومًا كاملًا ولا يبدو أنّني أمتلك هذه الفرصة.

والقضيّة هي أن نرى أوّلًا: كيف يكون الإنسان الذي يتمتّع بالولاية؟ فكيف أكون أنا الإنسان عندما أصبح ولائيًّا؟ وكيف يكون حالي إذا لم أكن من أهل الولاية؟ هذا أوّلًا؛ وثانيًا أن أرى: كيف [ينبغي أن] نكون نحن كمجتمع وهيئة اجتماعية متشكّلة من الناس، من أُناسٍ يجتمعون في مكانٍ واحدٍ، حتّى يصحّ أن يطلق علينا عنوان



الولاية؟ وكيف يكون حالنا إذا لم نكن من أهل الولاية؟ كيف تكون حالة المجتمع إذا كان مجتمع الولي أو المجتمع المتولّي والموالي، بحسب الشاكلة والهيئة التي أمر الإسلام بها وحثّ عليها؛ كيف يكون حاله عندئذٍ؟ وكيف ستكون ظروفه عندما يُحرم من الولاية التي أمر بها الإسلام؟

القضيّة الثالثة، هي: هل أنّ الإنسان الذي يتمتّع بالولاية يكون قد أنهى ما عليه من مسؤوليّات عندما يحصل على ولايته الشخصيّة الخاصّة؟ ألا يكون مسؤولًا فيما يتعلّق بصناعة مجتمعٍ يمتلك هذه الولاية؟ هذه أيضًا قضيّة.

المسألة الرابعة هي: لو كان هذا الإنسان من أهل الولاية، وعاش في مجتمعٍ محرومٍ من هذه الولاية، ولم يشعر بالمسؤوليّة والتكليف الذي يأمره بأن يجعل المجتمع ولائيًّا، ألا يؤدّي هذا الوضع الذي لا يشعر فيه بالمسؤوليّة إلى أن يخدش ولايته؟ وبالنسبة لذلك الذي لم يكن بصدد التفكير في جعل الآخرين من أهل الولاية، ألا يُعدّ فقدان مثل هذا التفكير والاهتمام سببًا لإضعاف ولايته وخدشها وتخريبها؟ فهذه أيضًا مسألةٌ أخرى.

هذه هي المسائل التي ينبغي أن ننهض لبحثها؛ وها أنا الآن سأتعرّض لواحدةٍ أو اثنتين منها؛ أعرضها عليكم وأتناول بالحديث. بالطّبع، عندما يتمّ البحث، قوموا بمقارنة ما في أذهانكم من هذا المعنى القرآني الراقي السامي الجذّاب المقبول الوارد في الأحاديث بشأن مقولة الولاية، مع ذاك المعنى الذي يتصوّره الإنسان الكسول العاطل، الطالب للراحة والدعة والمتساهل والمستخفّ بشأن الولاية.





إنّ البعض يتصوّرون أنّ امتلاك الولاية من قبل أي إنسان، يعني أن يكون هذا الإنسان من أهل البكاء في مجالس أهل البيت فقط؛ يتصوّرون أنّ التولي يعني أنّه عندما يُذكر اسم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيعني ذلك أن يقول في نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا شيء آخر؛ يتصوّرون أنّ امتلاك الولاية إنّما يقوم على وجود المحبّة المستقرّة لأهل البيت في قلب الإنسان فحسب. أجل إنّ محبّة أهل البيت واجبةٌ وهي فرضٌ، وإنّ ذكر هؤلاء العظماء بكلّ إجلالٍ وتعظيمٍ جميلٌ جدًّا ومطلوب، وإنّ إقامة المجالس لهم وحول أسمائهم واستلهام الدروس من عزائهم وفرحهم، وإقامة مجالس العزاء عن أرواحهم، وكذلك مجالس الفرح والبكاء على كلّ تلك العظمة الموجودة فيهم، وعلى بطولاتهم وعلى مظلوميّتهم؛ كلّ هذه الأمور مطلوبة ولكنّها ليست الولاية. فالولاية أعلى من كلّ ذلك. إنّ الذي يشارك في مجلس سيّد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه، ويذرف الدموع يكون قد قام بعملٍ حسنٍ، لكنّه أيضًا يكون قد قام بعملٍ قبيحٍ إذا اعتقد أنّ مجرّد ذرف الدموع كافٍ ليعدّ من أهل الولاية.

افهموا جيّدًا ماذا أقول. فليدقّق جيّدًا أولئك الذين جعلوا أذهانهم تحت تأثير التلقينات والإلقاءات المغرضة أو الجاهلة الصادرة من بعض الأيادي العميلة والمغرضة؛ فلا [ينبغي أن] يُقال إنّنا نخالف البكاء على سيّد الشهداء، كلّا، وإذا كان هناك من يخالف ويعترض، فنحن لسنا كذلك؛ إنّنا نؤيّد ذلك. نحن نقول إنّ البكاء على الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه، من الممكن أن ينجي في بعض الأوقات شعبًا بأسره؛ لقد ذهب التوّابون[1] إلى

---

(١) جماعة من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد، ومسيّب بن نجيّة، ندموا على =



قبر الإمام الحسين بن علي وجلسوا هناك وبقيوا ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة أو ثلاثة أيّام يكون فقط، وماذا كانت النتيجة؟ لقد كانت نتيجة ذلك البكاء المتواصل هي أنّهم عقدوا فيما بينهم معاهدة الموت والدمّ وقالوا سنذهب إلى ميدان الحرب ولا نرجع، نعاهد أنفسنا أنّنا لن نرجع أحياءً؛ هكذا هو البكاء على الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يوجد هنا من يخالف أو يعترض على ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للإتيان على ذكر الحسين بن علي صلوات اللّه عليه، وعلى ذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتعظيم، فلا يعترض أي عاقلٍ ولا يعترض أي شيعيّ، حتّى السنّة لا يعترضون على ذلك، حتّى الكافر لا يعترض على ذلك؛ فكلّ من عرفهم يؤمن بأنّهم يجب أن يُذكروا بكلّ إجلالٍ وتعظيم؛ وقد ذكرت في الجلسة الثالثة والعشرين تلك الأسرة التي كان ميراثها الشهادة، وتلك الأسرة التي قدّمت أعزّ ما عندها فداءً وقربانًا في سبيل اللّه، وتلك الأسرة التي جعلت كلّ إمكاناتها وكلّ وجودها خالصًا للّه، ألا ينبغي أن نذكرها بكلّ عظمةٍ وإجلالٍ؟ يجب أن نفعل ذلك.

وأنا أقول لكم اذهبوا وسيروا في أوروبا وفي أميركا وفي أي بلدٍ كافرٍ، وفي أي مكانٍ غريبٍ عن الإسلام ليس فيه من قد سمع باسم بإسلامكم؛ وقولوا إنّه كان هناك رجلٌ اسمه علي بن

= عدم نصرة الإمام الحسين في كربلاء وقاموا من أجل ذلك بطلب الثأر للإمام من بني أميّة، واشتُهروا بالتوّابين من أجل ذلك. واجهوا جيش الشام مع جماعة من شيعة البصرة الذين التحقوا بهم، وقاتلوا قتالًا بطوليًّا. رغم أنّهم في البداية انتصروا في المعركة، لكن استشهد الكثير منهم، وكانت ثورة التوّابين عام ٦٥ قمري أوّل ثورة ضدّ دولة بني أميّة تحدث بعد كربلاء.





أبي طالب، وقد كانت سيرته ونهايته كيت وكيت؛ وقوموا بتلخيص سيرة أمير المؤمنين هذه من أوّلها إلى آخرها؛ سترون كيف أنّهم سيصفّقون لهذا الإنسان العظيم، لهذا الإنسان الذي توجد في حياته كلّ هذه الأمجاد، بكلّ فخار، وسترون كيف أنّهم سيحترمونه ويجلّونه ويعظّمونه ويحفظون اسمه كذكرى عزيزة في أذهانهم؛ فهذا الأمر لا يختصّ بالشيعة. فهل أنّك يا صاحب الجناب العالي قد فعلت أمرًا عظيمًا عندما قلت عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذكر علي بن أبي طالب؟! فهل أنّك قد أدّيت عملًا مهمًّا جدًّا؟! وهل تتصوّر أنّ الولاية تعني هذا الأمر؟! [فلو تصوّرت ذلك] تكون قد وقعت في خطإٍ كبير. من الممكن أن ننظر إلى أجزاءٍ بعيدةٍ جدًّا عن أصل الولاية فائق الأهميّة وهو البكاء على الإمام الحسين. إنّ البعض يطرحون مثل هذه القضايا بسبب الجهالة - وإن شاء اللّه يكون الأمر منحصرًا بالجهالة لا بالأغراض السيّئة - ويعرضون تلك العداوات اللسانيّة مع أعداء أهل البيت لا العداوات الفكريّة. وهذه من قبيل المسائل السطحيّة في باب الولاية والتشيّع، ويحصرون الولاية بها؛ والأعجب أنّهم يقومون بطعن من يفهم الولاية ويعرفها ويحملها بهذه الحراب؛ فكم في هذا الأمر من لذّة؟! إنّهم يحصرون الولاية في هذه المزايدة وفي ذلك النطاق الضيّق والصغير الذي لا يليق بهذا الأصل الإسلامي المهمّ!

إنّ الولاية في أي إنسان تعني الارتباط الفكري والعملي المتزايد والمتسارع مع الوليّ. اكتشف الوليّ، واعرف ولي اللّه - ذاك الذي يُعدّ الولي الحقّاني للمجتمع الإسلامي - شخّصه؛ وبعد أن تشخّصه، اتّصل به شخصيًّا من الناحية الفكريّة والعمليّة والروحيّة، وارتبط واتّصل به على صعيد السير والمسلك والمنهج،



واسعَ للسير والتحرّك وراءه؛ وإذا أصبح سعيك سعيه، وجهادك جهاده، ومحبّتك محبّته، وعداوتك عداوته، فعاديت من يعادِ، وصارت ارتباطاتك وجبهتك جبهته، تكون قد أصبحت من أهل الولاية. إنّها بكلّ بساطة كلمتان، فهل فهمتم ما قلت؟ هذا الذي يكون أهل الولاية، ويعرف الوليّ، ويعرف فكره، ويسعى لأن يتّحد معه فكريًّا، ويسعى لأن يعرف طبيعة دوره، ويسعى لأن يكون عمله متطابقًا مع عمل الوليّ، ويتّبعه في سيره على الطريق، ويجعل نفسه فكرًا وعملًا متّصلًا بهذا الوليّ، فهذا هو الذي يكون من أهل الولاية.

فمن منكم مستعدٌّ لأن يرفع يده ويقول إنّني من أهل الولاية أيّها الرجال؟ ومن منّا يستطيع أن يعترف بأنّه لم يكمل الولاية؟ لقد حصرنا الولاية في مجرّد وجود العطف في قلوبنا على علي بن أبي طالب! وإنّنا نذرف الدمع من أجل أمير المؤمنين! ولكن هل يمكن أن نطلق عنوان الولاية على عملنا إذا كان ضدّ عمل عليّ، وعلى فكرنا إذا كان فكرنا على النقيض من فكر عليّ؟ هل يمكن أن نطلق عنوان الولاية على مثل هذه الأمور؟ لقد اصطنعنا لأنفسنا تلك الصورة أو الخُرافة ومنّينا النفس بها، واعتبرنا أنفسنا من جملة موالي علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامْ وأنّنا من أهل الولاية! وأصبحنا نفرح أنّنا حصلنا على كلّ ما يلزم لموالاة علي بن أبي طالب! واعتبرنا ما عندنا من أجل ذلك أمرًا مسلّمًا وقطعيًّا! فكم في هذا الأمر من مجافاة؟! وكم فيه من ظلمٌ بحقّ علي بن أبي طالب؟! إنّه لظلمٌ كبير بحقّ الإسلام، لأنّ الولاية هي لأجل الإسلام؛ وإنّ هذا لظلمٌ كبير بحقّ هذا الأصل العظيم، وهو أصل الولاية! فنحن لم نعد مستعدّين حتّى لأن نفهم ما هي الولاية!

عندما نجد الإمام الصادق صلوات اللّه وسلامه عليه يعظّم





مواليه - أولئك الذين هم من أهل الولاية حقًّا - ويحترمهم، فذلك لأنّه يعتبر أنّ الولاية هي المطابقة مع العمل؛ فيقول: إنّ الذي يعمل هو وليّنا؛ أمّا الذي لا يعمل ولا يطبّق فهو عدوّنا، إنّ ذاك مبنيٌّ على هذا الأساس؛ هكذا يفسّر الإمام الصادق معنى الولاية؛ لأنّ الولاية في ثقافة الإمام الصادق تختلف عن الولاية في ثقافة ذلك الجاهل أو المغرض الذي يعيش باسم الإمام الصادق، فهذان أمران مختلفان. لماذا أنا وأنتم لا نفهم معنى الولاية؟ لماذا لا ندرك عمق هذا الأصل الإسلامي فنخرج بذلك، مهما أمكن، من الجمود والركود والخمود والتخلّف والابتعاد عن الإسلام، والابتعاد عن الدنيا والآخرة، لماذا؟! إنّني أخشى أنّنا وبسبب الأمل بالجنّة، حفظنا أنفسنا ردحًا طويلًا في جهنّم الدنيا؛ وهناك عندما نسلم الروح وتتجسّم أمانينا وآمالنا البعيدة والطويلة، هناك لن يكون لنا أي خبرٍ عن الجنّة، فما أشدّ حسرتنا! إنّ ولاية أي إنسان هي عبارة عن الارتباط والاتّصال المطلق بالوليّ، فيجب أن يحصل الاتّصال والارتباط. هذا أمرٌ.

أمّا ولاية المجتمع، فما هي؟ إنّ ولاية أي مجتمعٍ تكون أوّلًا بتشخيص ولي ذلك المجتمع، فيعلم أهل ذلك المجتمع بأنّ هذا هو الوليّ؛ ثانيًا، يكون الولي منطلق جميع القوى والنشاطات والملهم الذي يحرّك كلّ الفعّاليّات في ذلك المجتمع، فيكون قطبًا تتفجّر منه كلّ العيون وتتدفّق منه كلّ الينابيع. إنّه ذلك المركز الذي تصدر منه كلّ الأوامر، وهو الذي يسهر على تطبيق جميع القوانين. إنّه تلك النقطة التي ترجع إليها كلّ الفروع وتتّصل بها كلّ الخيوط. أمّا الجميع فإنّهم ينظرون إليه ويتحرّكون على أثره؛ فهو الذي يشعل محرّك الحياة في هذا المجتمع، ويكون سائق وقائد قافلة الحياة





في المجتمع؛ عندها سيكون هذا المجتمع صاحب الولاية وأهلها.

لم يكن أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه بعد النبي، ممسكًا بزمام المجتمع ولمدّة ٢٥ سنة. ولم يكن المجتمع الإسلامي طوال هذه الفترة الممتدّة بعد النبي صاحب ولاية. في ذلك المجتمع، كان سلمان بشخصه صاحب الولاية، وكذلك كان أبو ذرّ والمقداد وغيرهما؛ ولكن كيف كان حال المجتمع الإسلامي؟ لم يكن المجتمع الإسلامي بعد النبي يعيش حالة الولاية لمدّة ٢٥ سنة، وعندما وصل أمير المؤمنين إلى الحكومة صار المجتمع الإسلامي صاحب الولاية؛ فإلى أي مدى كان مواليًا؟ لقد كان المجتمع وقتئذٍ مواليًا بالمقدار الذي كان عليٌّ فيه منشأ وملهم ومنطلق وأساس القرارات والأوامر والمعارف والمعلومات في المجتمع وفي ذلك المقطع الزمانيْ المحدّد. إنّ ولاية أي مجتمعٍ تكمن في هذه القضيّة، فأينما حكم الإمام في المجتمع وصار عندها منشأ الأمر والنهي فيه، والأساس الذي تتفرّع منه كلّ الفروع، وكان مديرًا لذلك المجتمع في الواقع العمليّ، وكانت راية الحرب بيده، وكان هو الذي يصدر الأمر بالهجوم مثلما أنّه كان من يمضي قرارات السلام، هناك يكون المجتمع صاحب الولاية؛ وفي غير هذه الصورة لا يكون المجتمع صاحب ولاية. هكذا هو المجتمع الولائيّ.

والآن، إذا كنتم من أهل هذه الولاية، فاشكروا اللّه؛ وإذا لم تكونوا فاسعوا للوصول إليها؛ فإذا كانت مثل هذه النعمة تظلّلكم فالشكر للّه، لأنّه لا يوجد من نعمةٍ أفضل من نعمة الولاية. وسوف أشرح لكم الآن كيف أنّه لا يوجد من نعمةٍ أعظم من نعمة الولاية. فإذا لم تكونوا من أهل هذه النعمة، فاسعوا للوصول إليها وتحصيلها على مستواكم الشخصي وعلى مستوى المجتمع البشريّ. اسعوا





لأن تعيشوا على أساس عليّ، ولنتحرّك وراء عليّ، ولنسعَ لأن يكون بيننا وبين عليٍّ - الذي هو ولي اللّه - رابطة؛ وكلّ هذا يحتاج إلى السعي والجدّ والاجتهاد وتحمّل المصاعب والمشقّات. وأقول لكم إنّ أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد سلكوا طريقًا واحدًا على طريق الولاية بعد شهادة أمير المؤمنين، وكان سعيهم سعيًا واحدًا. فجميع مساعي الأئمّة إنّما كانت من أجل إحياء هذه الولاية، ومن أجل إحياء المجتمع الإسلامي، ومن أجل أن يجعلوا هذه الشتول التي هي الإنسان - وقد زُرعت في هذا البستان وغُرست فيه - تُسقى بماء الولاية العذب المحيي تترعرع وتنمو به؛ هكذا كان سعي الأئمّة، من خلال طريقه الصحيح وبالصورة المطلوبة.

هذا لا يعني أنّنا ومن أجل السعي بالمجتمع نحو الولاية، نجلس ونلغو، ونسبّ زيد وعمرو، وهذا وذاك. فالولاية لا تُصنع بمثل هذه الأعمال البعيدة عن الولاية. فطريق الوصول إلى الولاية يكمن في أن نسعى من أجل أن نزيد ولي الإسلام قدرةً، هذا الولي الذي عيّنه اللّه؛ وقد ذكرت أنّ اللّه يعيّن الولي تارةً بالاسم، وتارةً بالصفات والعلامات؛ فأحيانًا يكون الولي علي بن أبي طالب والحسن بن علي والحسين بن علي وعلي بن الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى آخر الأئمّة فيُشخّصون بأسمائهم وصفاتهم؛ وأحيانًا لا يكون الأمر كذلك ولا يُذكر الاسم، ولا يُعرّف الولي باسمه، وإنما يقول ذلك الولي الذي عُرف بالاسم: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ حَافِظًا لِدِينِهِ مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»[1]؛ فيشخّصه ويحدّده ويعيّنه لنا بهذه الطريقة؛ فالولي هو

---

(١) **وسائل الشيعة**، مصدر سابق، الجزء ١٨، الصفحة ٩٥.



الوليّ، وهو من هذه الجهة قد عُيّن من جانب اللّه، سواءٌ بالاسم أو بالعلامة؛ إلّا أنّه ذُكر في بعض الأحيان بالخصائص دون الاسم؛ وأنت قم بنفسك بإجراء الحسابات والتقدير، فهل عرفت من هو الأنموذج والأسوة؟ فهل رأيت أنّه يتحدّد بحضرة آية اللّه العُظمى السيّد البروجردي مثلًا؟ التفت جيّدًا، عندما يقرّر الإنسان أن يحيي القوانين الإسلامية والأحكام الإلهيّة في المجتمع بالصورة التي تحكم بها الولاية، هناك عندئذٍ سيكتشف طريقه، هناك سيتعرّف على تلك المناهج والأساليب التي تفرضها الحياة الدنيا على الإنسان وتضعها في رقبته، ونحن ها هنا لسنا بصدد البحث في المناهج والأساليب، وإنّما نبحث في أصل القضيّة.

هناك، إذا كان المجتمع مجتمعًا ولائيًّا، فماذا سيحدث؟ حسنٌ، نستطيع أن نقول بجملةٍ واحدةٍ: إنّه ذاك الميّت الذي تُبثّ فيه الحياة؛ فمثل هذه الجملة تكفي لبيان المقصد. فلو أخذتم ميّتًا بعين الاعتبار، فهو فاقدٌ للروح، قد يكون له مخٌّ لكنّه لا يعمل، وله عينٌ لكنّها لا تبصر، وله فم لكنّه لا يبتلع الطعام ولا يهضمه، وله معدةٌ وكبدٌ وجهازٌ هضمي ولكنّه لا يجذب الغذاء، وله شرايين لكنّ الدماء لا تجري فيها، فلماذا؟ لأنّه فاقدٌ للروح؛ فهو لديه يد، لكنّه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه تلك الحشرة الصغيرة جدًّا، ولديه رجل لكن رغم وجوده تحت الشمس لا يستطيع أن يتحرّك ليجلس في الظلّ، فهو ميّتٌ كما تعلمون؛ حتّى إذا بُثّت فيه الروح فعندئذٍ يبدأ الدماغ بالعمل وكذلك الأعصاب، وتتحرّك اليد، ويعمل الفم، وتهضم المعدة، ويشتغل الجهاز الهضميّ، وتجري الدماء في الشرايين، وتصل القوّة إلى كلّ البدن، ويشعر البدن بالدفء ويتحرّك على طريق السعي، ويقمع العدوّ ويجذب الأصدقاء،





ويسعى لأنّ يكمّل نفسه أكثر فأكثر.

ضعوا هذا المثل الذي يساعد على فهم أهميّة الولاية في المجتمع أمام أعينكم؛ واجعلوا مكان ذلك الإنسان الميّت المجتمع الإنساني، واستبدلوا الروح بالولاية؛ فالمجتمع الذي لا ولاية له، ورغم كلّ القابليّات التي تكون موجودة فيه، فإنّ هذه الاستعدادات الكامنة سوف تتعرّض للإحباط وتذهب هدرًا وتزول وتصبح جفاءً أو أسوأ من ذلك فهي تُستعمل لضرر الإنسانيّة. ففي هذا المجتمع دماغٌ يفكّر، لكنّه يفكّر من أجل نشر الفساد، ويفكّر من أجل سفك الدماء، ومن أجل إحراق هذا العالم، ويخطّط لإيصال الناس إلى التعاسة، ويفكّر من أجل إحكام قواعد الاستغلال والظلم والاستبداد؛ وفيه عينٌ لكنّها لا ترى ما ينبغي أن تراه، بل ترى ما لا ينبغي أن تراه؛ ولديه أذن لكنّها لا تسمع كلام الحقّ، ولديه أعصاب، لكنّ هذه الأعصاب لا توصل كلام الحقّ إلى الدماغ، والدماغ لا يصدر أوامره إلى الجوارح والأعضاء على أساس الحقّ، والجوارح والأعضاء لا تقوم بالعمل على أساس الحقّ في العالم، وظروف هذا العالم لا تسمح بالعمل على أساس الحقّ لهذا الإنسان، هذا هو المجتمع الفاقد للولاية.

إنّ المصابيح التي توجد في المجتمع الفاقد للولاية لا يكفي أنّها لا تضيء أو تزداد إشعاعًا، بل إنّ زيتها بمجرّد أن يجفّ ينتهي الضوء، حتّى تصبح جافّةً بالكامل؛ فهل رأيتم كيف جفّت الزيوت التي جعلها النبي من أجل مصابيح الهداية ومشاعلها؟ هل رأيتم أنّها اشتعلت أو نوّرت أو أضاءت بعد وفاة هذا النبي بعدّة أيّام؟ فرغم أنّ النبي قد وضع زيوتها، إلّا أنّها خبت ثمّ خبت حتّى جفّت وصارت سيّئةً وصارت رائحتها نتنة وكثيرة الدخان وقليلة النور،



ووصلت إلى زمان عثمان فانتقلت إلى معاوية؛ فهل رأيتم ماذا حدث لأنّ يد الولاية لم تكن على رأس هذه المشاعل والمصابيح؟ فتلك الأمور التي أخبرت بها فاطمة الزهراء سلام اللّه عليها نساء المهاجرين والأنصار - واللاواتي لم تستمعن في الأيّام الأولى - وتلك التنبّؤات والتوّقعات التي صدرت عن فاطمة الزهراء والتي لم يستمع إليها المسلمون الغافلون في ذلك اليوم ولم يتمكّنوا من فهمها، فكلّ تلك الأمور قد تحقّقت. لقد ذكرت فاطمة الزهراء ذاك السيف الصارم، وذاك السيف الذي يقطر دمًا، وذلك السنان الذي يقتل كلّ فضيلة، وتلك اليد التي كانت تخنق الإنسان والإنسانيّة، لقد ذكرت كلّ تلك الأمور، وقد ذكرها النبي أيضًا قبل فاطمة الزهراء، لقد كانا يريان ويدركان، وقالا، لكنّ المجتمع الإسلامي لم يفهم؛ لقد كان الوقر في آذانهم، والصمم يملؤها؛ وها هو صوت فاطمة الزهراء يصدح إلى يومنا هذا في الآذان، فيا أصحاب الأسماع المرهفة! ويا أصحاب النبيهة! هل تسمعون؟!

إنّ المجتمع الولائي هو المجتمع الذي تكون فيه جميع الاستعدادات الإنسانيّة في حال الرشد والتكامل؛ ففي هذا المجتمع، تنمو وتتكامل جميع الأشياء التي منحها اللّه للإنسان وجعلها فيه من أجل كماله ورقيّه. إنّ تلك الشتول الإنسانيّة تصبح أشجارًا، ويصل الناس بفضل هذا المجتمع إلى التكامل. أمّا الإنسانيّة، فإنّها في مثل هذا المجتمع سوف تزداد قوّةً ومنعة؛ والولي هو الحاكم، وهو ذاك الذي ترجع إليه كلّ الفروع، وهو الذي يجعل المجتمع بلحاظ السير العامّ على طريق اللّه وفي ذكر اللّه؛ ويوزّع الثروات بصورةٍ عادلةٍ، ويسعى لإشاعة الفضائل، كما أنّه يسعى للقضاء على الرذائل وإحراقها من جذورها.



﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، وهي آيةٌ قرآنية، ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي عبارة عن ذكر اللّه لأنّ الصلاة ترمز إلى ذكر اللّه وإلى التوجّه إلى اللّه، وفيها تصبح وجهة المجتمع إلهيّة، ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تعني أنّ هناك حركة حقيقية إلى اللّه، وهي التي تجعل توجّه المجتمع على أساس التوجّه الذي أمر به اللّه وذكره، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهو عبارة عن التوزيع العادل للثروة؛ إنّ للزكاة في القرآن إطارٌ أوسع بكثير، ويُحتمل وكما يخطر في بالي، أنّه أوسع ممّا هو موجودٌ في الأذهان؛ إنّني أحتمل وأذكّر بأنّ هذا مجرّد احتمال، فليس لي يقينٌ لحدّ الآن، ولا تأخذوا هذا الأمر كمطلبٍ يقينيّ؛ بل إنّني أحتمل أنّ مصطلح الزكاة في القرآن يشمل جميع الإنفاقات والصدقات الماليّة، وبالتأكيد وجدتُ لهذا المطلب مجموعة من القرائن، ولكنّها لا ترقى إلى مستوى أستطيع معه أن أقطع بهذا الأمر، وعلى نحو اليقين. فعلى كلّ حال، يوجد مثل هذا الاحتمال في ذهني.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هو عمومًا ومن المسلّم، بمعنى تحقيق ذلك التوزيع العادل للثروات؛ وذلك بالالتفات إلى الروايات الواردة في باب الزكاة حيث يُذكر فيها أنّها تؤدّي إلى تعديل الثروة؛ ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو عبارة عن إشاعة الفضائل ونشر الأعمال الصالحة؛ ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ بمعنى القضاء على المنكرات؛ ونحن نتصوّر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني أنّني أنا سآمرك يا صاحب الجناب العالي بألّا تفعل ذلك العمل السيّء، وأن تقوم بذلك العمل الحسن، وكأنّهما ليسا سوى أمر وقول؛ في حين أنّ الأمر

---

(١) سورة **الحجّ**، الآية ٤١.



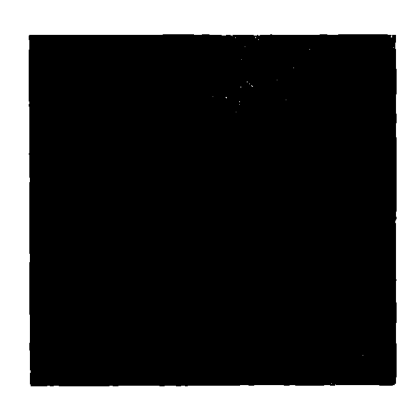


والقول هما من تجلّيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلقد قيل لأمير المؤمنين: لماذا تحارب معاوية؟ - وهنا يوجد حديثٌ مفصّل لا آتي على ذكره الآن- فقال: من أجل أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان. فاستمعوا جيّدًا واستنتجوا. ففي النهاية، نجد البعض يقول لأمير المؤمنين: ماذا تفعل في حرب صفيّن مع معاوية؟ فاذهب أنت إلى الكوفة وليذهب هو إلى الشام؛ فأجاب قائلًا: إنّ اللّه فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا هو الإمام الحسين الذي ينهض من المدينة، فيسألونه أيّها السيّد إلى أين تذهب؟ فيقول: «أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»؛ فهل ترون كم تتّسع دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويمتدّ نطاقهما؟ وهل ترون كم هما بنظرنا صغيرين وضيّقين؟ وعلى كلّ حال، عندما تكون الولاية في المجتمع، فإنّ هذا المجتمع يؤدّي هذه الأمور وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وباختصار، فإنّ ذلك الجسد الذي يكون فاقدًا للروح يدرك الروح والحياة.

الجلسة السادسة والعشرون

حول الولاية (١)

الاثنين ٢٧ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

[سورة النساء، الآيتان ٥٨ و٥٩]





إنّ المطلب الذي نودّ أن نطرحه في هذه الجلسة، وكتتمّة للأبحاث السابقة، يرتبط ببيان عدّة مسائل حول مسألة الولاية، غالبًا ما تعرض علينا. فهذه مسائل لا تُعدّ جزءًا من التركيبة الأساسية لهذه القضيّة وبيان موقعيّتها، كشأن الولاية وماهيّتها وموضعها من القرآن الكريم وكذلك أبعادها المتعدّدة ووجوهها وجوانبها المختلفة، فكلّ ذلك قد تعرّضنا له سابقًا. غاية الأمر أنّ هناك مجموعة من القضايا التي تُعدّ مسائل فرعيّة بالنسبة لمسألة الولاية؛ وإن كانت كلّ مسألةٍ من هذه المسائل في محلّها تُعدّ مسألةً أصوليّة ومصيريّة، حيث ينبغي الاستفادة منها كأصلٍ في التوجّهات الإسلامية ولتحديد مسار المجتمع المسلم ونهجه. ونحن سنتعرّض لهذه المسائل بالترتيب؛ حيث سنذكر منها مسألتين في هذه الجلسة، ويبقى مسألة أو مسألتان نتعرّض لهما في الجلسة القادمة إن شاء اللّه تعالى.

إحدى هاتين المسألتين؛ وكما ثبت لديكم بالاستفادة من القرآن فيما يتعلّق بشأن الحفاظ على الروابط الداخليّة وقطع الارتباطات الخارجيّة. نكرّر ها هنا أنّ مثل هذا الأمر المرتبط





بالعلاقات الداخليّة وقطع العلاقات الخارجيّة بالنسبة لأي مجتمعٍ مسلمٍ متوقّف على وجود قدرةٍ متمركزة داخل المجتمع الإسلامي تقود وتدير جميع الأنشطة والفعّاليّات وكلّ التوجّهات والمواقف التي تصدر من الأقطاب والأجنحة المختلفة في هذا المجتمع؛ واسم هذا المركز هو الوليّ. فالولي - بتشديد الياء - هو الآمر الذي يجب على جميع القوى والطاقات أن تستلهم منه، كما يجب أن ترجع جميع الأعمال إليه. وباختصار، هو الذي تكون له إدارة المجتمع الإسلامي سواءٌ من الناحية الفكريّة أو من جهة البعد العملي والتطبيقيّ، وهذا ما كنّا قد أثبتناه من القرآن. والآن تفضّلوا وأجيبوا عن هذا السؤال: من هو ولي المجتمع الإسلامي؟ فهل لدينا في هذا المجال كلامٌ مختصرٌ، بحيث أنّه لو قيل لنا: حسنٌ جدًّا، ها نحن الآن نريد أن نتعرّف على الوليّ، فمن هو هذا الشخص الآن الذي ينبغي أن يكون وليًّا؟ وأيّة سلطةٍ أو قدرةٍ يجب أن ترجع إليها جميع القوى المتواجدة في المجتمع الإسلامي وتتلقّى منها الأوامر ثمّ تطيعها؟ فلو سُئلنا مثل هذا السؤال، فهل سيكون لدينا جوابٌ أم لا؟ أجل لدينا بالطبع. إنّ الإجابة على هذا الأمر قد تمّت ضمن المطالب السابقة وقد عرضتها بالتدريج، وأنتم تعلمون أنّ المطلب غير خفيّ، إلّا أنّنا نريد أن نقوم بدراسة هذا الأمر بمراعاة الأسلوب المنطقي والتسلسل الطبيعي للقضيّة.

وجواب القرآن في هذا المجال هو كلمةٌ واحدةٌ حيث يقول إنّ اللّه هو الذي يكون وليًّا واقعيًا للمجتمع الإسلامي. فلا يوجد حاكمٍ للمجتمع الإسلامي إلّا اللّه تعالى ولا غير؛ وهذا هو الذي يعلّمنا إيّاه مبدأ التوحيد؛ وتقوم النبوّة بجعل هذا الأصل مسلّمًا بالنسبة لنا؛ والآن ترون كيف أنّ الولاية تخبرنا عن هذا المطلب أيضًا؛ وهنا



سأتعرّض لهذه الجملة وأمرّ عليها على نحو الإشارة، وهي أنّه ينبغي أن تكون أصول أيّة مدرسة أو مسلك على نحوٍ بحيث يكون حاصل وناتج كلّ أصلٍ من أصولها هو الحاصل والناتج الذي تقدّمه الأصول الأخرى؛ ولا ينبغي أبدًا أن يقدّم لنا أحد أصول مدرستنا ومذهبنا نتيجة ما ونرى بعدها أصلًا آخر يقدّم نتيجة مضادّة؛ لكن للأسف، فإنّ ما تستنتجه الأذهان والقلوب الساذجة لمسلمي العصر هو هذا النحو من الإسلام؛ حيث يُستنتج ويُستنبط من بعض أصوله أشياء تكون مضادّة تمامًا لما يمكن أن يُستنتج من بعض أصوله الأخرى.

بناءً عليه، فإنّ ذاك الذي له حقّ الأمر والنهي في المجتمع الإسلامي، وحقّ تطبيق الأوامر، وإصدار الأحكام، وتعيين المسار العامّ للمجتمع؛ وباختصار، حقّ التحكّم بجميع خصوصيّات حياة الناس هو اللّه، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وأنا قد تتبّعت الآيات التي يوجد فيها عبارة الولي والأولياء في القرآن، وطالعتها كلّها تقريبًا، فوجدت أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ اللّه يجب أن يكون ولي المجتمع الإسلامي، وليس للمؤمنين من وليٍّ ونصيرٍ، وأنّ اللّه حاكم جميع أمور البشر. وهذه قضيّةٌ تُعدّ من المسلّمات في القرآن. بالطبع، يجب على الإخوة أن يلتفتوا، لكن لا بأس من أن ألفت في نفس الوقت أنظار بعض الذين يمكن أن يختلط عليهم الأمر؛ لأنّ الحديث هنا لا يدور حول السلطة التكوينيّة للّه - فهذه السلطة محفوظةٌ في محلّها، والمعلوم الواضح أنّ اللّه تعالى ينظّم ويدبّر هذه الأرض والسماء بإرادته القاهرة - بل الحديث هو عن

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٦٨.





قوانين حياة البشر والروابط الفرديّة والاجتماعية للمجتمع الإنساني التي يجب أن تُستلهم من اللّه؛ أي أنّ الحاكم القانوني في المجتمع الإلهي الإسلامي القرآني، وفي ظلّ النظام الإسلامي الذي نعبّر عنه دائمًا بالنظام العلويّ؛ ففيه يمكن للمجتمع القرآني أن يكون لنا أسوةً أيضًا، وفي ظلّه يكون الحاكم هو اللّه فقط.

حسنٌ، هنا نصل إلى مطلبٍ آخر ونسأل: يا أيّها السيّد! ماذا يعني أنّ الحاكم هو اللّه؟ فإنّ اللّه تعالى لا يوجّه الناس مباشرة فيأمرهم وينهاهم، فالناس يحتاجون إلى إنسان يحكمهم، ويمسك زمام جميع أمورهم؛ وعندما نقول إنسان، لا أريد هنا أن أركّز على شخصٍ محدّد، ولا أريد أن أنفي القيادة الجماعيّة، كلّا، إنّما المقصود بالإنسان هو ذاك الذي يتولّى سلسلة أساس أعمال الناس؛ وإلّا لو كان القانون لوحده داخل المجتمع الإنساني والبشريّ، حتّى لو كان [ذلك القانون] قانونًا منزلًا من جانب اللّه، لكن لم يكن هناك من أمير بحسب تعبير أمير المؤمنين عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ، والذي سأتعرّض له الآن، فلو لم يكن هناك أي حاكم أو هيئةٍ تتولّى هذه الحكومة - وباختصار، تشرف على إجراء القانون - داخل المجتمع البشري مثل هذه السلطة، فإنّ انتظام المجتمع البشري سيتزلزل؛ فمن هو هذا الإنسان؟ ومن هم أولئك الذين ينبغي أن يكونوا حكّامًا واقعيين على البشر والمجتمع البشري ويكون لهم ولاية المجتمع من الناحية العمليّة ويتحمّلون المسؤوليّة العمليّة لولاية المجتمع، سواءٌ كان إنسانًا أو مجموعةً من الناس؟ إنّ الإجابة التي تقدّمها المذاهب المختلفة على هذا السؤال متعدّدة؛ ولقد رأينا كيف أنّ الأحداث التاريخيّة تجيب عن هذا السؤال وبأشكالٍ مختلفة؛ فهناك مجموعةٌ قالت: المُلك لمن غلب. وهي تتبنّى





المبدأ الذي يُعبّر عنه بشريعة الغاب؛ وجماعةٌ أخرى قالت إنّ الحكومة هي لمن يمتلك التدبير الأفضل، وبعضهم قال إنّه ذاك الشخص الذي يكون محلّ قبول الناس؛ وجماعةٌ أخرى قالت إنّه ذاك الذي يتحدّر من تلك الأسرة، وهناك جماعةً أبدت وجهة نظرٍ مختلفة، وقد وجدنا أنواعًا عديدة من المنطق والمنطلقات والسلائق الأخرى تبرز هنا وهناك.

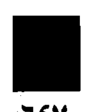
أمّا جواب الدين ومنهجه عن هذا السؤال فهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1]، فذاك الذي يتولّى زمام قيادة المجتمع من الناحية العمليّة ويكون له الأمر والنهي من جانب ربّ العالم هو رسول اللّه، لهذا عندما يأتي أي نبيٍ إلى المجتمع، فلا معنى، مع وجوده، أن يكون هناك أي حاكمٌ آخر سواه، ويكون هذا النبي حاكمًا على الناس. فالنبي هو ذاك الذي يجب أن يمسك زمام القدرة في المجتمع ويكون حاكمًا. وعندما يرتحل النبي عن هذه الدنيا، فماذا سيكون التكليف؟ وماذا نفعل عندما يترك رسول اللّه هذا العالم، مثله كمثل بقيّة الناس، ويسلّم روحه إلى خالق الأرواح؟ هنا أيضًا، تأتي الآية القرآنية لتقدّم الإجابة عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وهنا نتساءل عن هؤلاء المؤمنين، فهل يكون الولي والحاكم على المجتمع الإسلامي كلّ من آمن بنهج الدين ومدرسته؟ حسنٌ، إنّ هذا يستلزم أن يكون لدينا حكّامًا بعدد نفوس المؤمنين، فماذا نفعل ها هنا؟ إنّهم المؤمنون الذين لهم علامات خاصّة، ومن الواضح أنّ الآية القرآنية وضمن إرادتها تعيين شخصٍ محدّد، وهي تسعى لوضع الإصبع على إنسانٍ معلومٍ

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.





مشخّص قائلة لنا هذا هو حاكمكم. إنّها تريد أن تقدّم لنا المعيار أيضًا؛ التفتوا جيّدًا، فهي تريد أن تبيّن لنا من هو الذي ينبغي أن يحكم الناس بحسب نظر الشارع والمقنّن الإسلامي، لكنّها تريد ضمن ذلك أن تخبرنا عن المعيار وتبيّنه لنا، فتقول لكم إنّ السبب لكون حاكمكم هو هذا المعيار؛ فهذا هو السبب الذي اختار اللّه على أساسه هذا الشخص، أو كان تعيينه من جانب اللّه تعالى؛ ولهذا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهذا يرتبط بالإيمان الصحيح؛ لأنّ لازم إطلاق قوله تعالى ﴿ءَامَنُواْ﴾ هو أن يكون المراد منه الإيمان الصحيح لا تلك الأنواع الظاهرية من الإيمان؛ إنّهم أولئك الذين أظهروا طوال حياتهم أنّهم آمنوا، وأولئك الذين وقّعوا على إيمانهم بالعمل، فإذًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو الشرط الأوّل، أي أنّ الشرط الأوّل هو أن يكون الإيمان واقعيًا، ويوجد شروط أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولقد ذكرنا أنّ المؤمنين هم أولئك الذين يقيمون الصلاة لا الذين يصلّون، فالصلاة شيءٌ وإقامة الصلاة شيءٌ آخر، ولو كان اللّه تعالى يريد أن يقول الذي يصلّون لذكر ذلك باللفظ، وكما تلاحظون، هو تعبيرٌ أقصر وأوجز. إنّ معنى إقامة الصلاة في أي مجتمع هو أن تحيى روح الصلاة فيه، فيصبح المجتمع مجتمعًا مصلّيًّا. وأنتم تعلمون أنّ المجتمع المصلّي هو ذاك المجتمع الذي يملأ ذكرُ اللّه جميع أركانه، ويموج اسم اللّه في أرجائه، وأنتم تعلمون أيضًا أنّ كلّ مجتمعٍ تملؤه أمواج ذكر اللّه واسم اللّه، فإنّه لن يُصاب بأيّة كارثة، ولا يمكن أن يكون في مثل هذا المجتمع أي نوعٍ من الجنايات أو الخيانات أو الدوس على القيم الإنسانيّة. ففي هذا المجتمع الذاكر والعابق بذكر اللّه، يتذكّر الناس ربّهم وتكون توجّهاتهم إلهيّة، وتكون جميع أعمال الناس في مثل هذا المجتمع





لأجل اللّه وفي سبيل اللّه.

إنّ علّة كلّ السرقات وكلّ أنواع التراجع والظلم والخضوع والخنوع للظّلم - من طرف الظالم والمظلوم - والسبب وراء جميع التعدّيات التي تحصل، وكذلك الخضوع لمثل هذه التعدّيات، كلّ ذلك يرجع إلى الابتعاد عن ذكر اللّه. فالمجتمع الذي يذكر اللّه يكون الحاكم فيه مثل علي بن أبي طالب صلوات اللّه عليه، هذا الذي لا يظلم، بل يقمع الظلم. أمّا المحكومون فيه، فهم مثل أبي ذرّ الغفاريّ، الذي رغم أنّه يُضرب ويُنفى ويُهدّد ويصبح غريبًا وحيدًا لكنّه لا يخضع للظلم ولا يتراجع عن سلوك طريق اللّه. هذا هو المجتمع الذي يملؤه ذكر اللّه، وهذا هو المجتمع الذي تكون الصلاة فيه مقامةً.

إنّ المؤمن الذي يقيم الصلاة في المجتمع يجعل توجّه هذا المجتمع نحو اللّه ويجعل ذكر اللّه فيه رائجًا ومنتشرًا، ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ولا يُختتم الأمر هنا بهذه القضيّة من قبل الوليّ، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إنّما يقوم بتوزيع الثروات بنحوٍ عادلٍ وينفق في سبيل اللّه، وبعدها مباشرةً يقول: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾، وهو إشارة إلى موردٍ محدّدٍ وإلى قصّةٍ خاصّة. لقد سمعتُ، وأنا أعلم ما صدر عن بعض المفسّرين الآخرين من كلام، حيث قالوا إنّ قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾، يعني أنّهم كانوا دائمًا في حالة الركوع، وهي لا تشير إلى قضيّةٍ خاصّة، ولكنّ روح اللغة العربية والمعرفة الدقيقة بهذه اللغة تنفي مثل هذا الاحتمال، حيث إنّ قوله ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ يشير إلى أنّه يعطي الزكاة أثناء ركوعه، وهذا الأمر يؤيّد ذلك المطلب الذي عرضته سابقًا أيضًا، والذي يأتي باحتمالٍ إلى ذهني حيث أظّن أنّ الزكاة هي عبارة عن مطلق الإنفاقات، لأنّ الخاتم الذي تصدّق به





أمير المؤمنين في حال الركوع لم يكن زكاة بالمعنى الاصطلاحي بل كان إنفاقًا في سبيل اللّه، وقد أُطلقت الآية على هذا الإنفاق كلمة الزكاة ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ أي أنّه إنسانٌ تعلّق قلبه بالمساواة إلى تلك الدرجة، وأحبّ الإنفاق إلى حدّ، أنّه لم يقدر أن يصبر حتّى إنهاء صلاته عندما رأى فقيرًا مفتقرًا؛ وقد يذهب هذا السائل ويأتي غيره. فالخاتم في النهاية ليس ملكًا لهذا الفقير، وكان بإمكانه أن يقول سأدع الخاتم لفقيرٍ آخر؛ لقد كان هذا الإنسان منجذبًا إلى الإنفاق إلى درجةٍ كبيرةٍ، وكان هذا الإنسان ذائبًا في طريق أداء هذا التكليف بحيث لم يتحمّل أن يصبر، ولم يكن هناك مجالٌ للتحمّل، فقد شاهد فقيرًا، ورأى فقرًا، وشاهد جلوةً لا يحبّها اللّه، وهو كذلك لا يحبّها، ولهذا ولأنّه لم يكن يمتلك شيئًا سوى الخاتمِ في حال صلاته، نراه يخرجه من إصبعه ويعطيه للسائل.

هذه إشارةٌ إلى واقعةٍ خاصّة ومشخّصة في التاريخ، كان بطلها أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه؛ فهذا الإنسان الجليل الذي كان في حال الصلاة، عندما جاءه فقيرٌ، أنفق من عند نفسه ونزلت فيه هذه الآية؛ فكما تلاحظون إنّ هذه الآية في حال الإشارة إلى علي بن أبي طالب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتعيّنه بعنوان ولي الأمر؛ ولكن ليس على تلك الصورة التي يتمّ فيها تعيين المستبدّين التاريخيّين، مثلما فعل معاوية عندما أراد أن يعيّن لنفسه خليفةً، فقال: إنّ ابني هذا هو خليفتي، ولأنّه ابني فيجب أن يحوز على هذا المقام من بعدي؛ فاللّه تعالى لم يعيّن خليفةً لنبيه بهذه الكيفيّة، بل قال: إنّ علي بن أبي طالب ينبغي أن يصل إلى الحكومة من بعد النبي لأنّ ملاك الحكومة فيه بارز جدًّا؛ وما هو هذا الملاك؟ إنّه الإيمان الكامل باللّه، وإقامة الصلاة في المجتمع، والحبّ الشديد للإنفاق وإيتاء



الزكاة، إلى تلك الدرجة التي يصدر ذلك منه تلقائيًّا. وهكذا، فإنّه يبيّن لنا، أثناء تنصيب الخليفة وخلال تعيين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ كخليفة، المناط والفلسفة من خلافته أيضًا، هذه هي الآية القرآنية. بناءً عليه، فإنّ ولي الأمر في الإسلام هو ذاك الذي يكون مرسلًا من اللّه، أي ذاك الذي يعيّنه اللّه نفسه، وذاك لأنّ الأساس أنّه ليس لأحدٍ بحسب طبيعة الخلقة حقّ التحكّم بغيره من الناس.

إنّ الشخص الوحيد الذي يحقّ له أن يتحكّم هو اللّه، ولأنّ للّه هذا الحقّ، فإنّه تعالى يعطي هذا الحقّ لمن يشاء وفق مصلحة الإنسانيّة. ونحن نعلم أنّ فعل اللّه لا يمكن أن يخرج عن المصلحة، فهو ليس عملًا دكتاتوريًّا، ولا يوجد في عمل اللّه أي نوعٍ من الاستبداد والظلم، بل إنّه مطابقٌ لمصلحة الإنسان، ولأنّه موافقٌ لهذه المصلحة، يعيّن ونحن ينبغي أن نسلّم لحكمه. فهو الذي يعيّن النبي، ويعيّن الإمام، وبعد الإمام يعيّن أولئك الذين تنطبق عليهم المعايير والملاكات الخاصّة. فالذي يتميّز بهذه الصفة وتلك الصفة، ويحوز في النهاية على مجموعة من الصفات المطلوبة، يُقال عنه إنّه الحاكم على المجتمع الإسلامي بعد الأئمّة المعصومين الهداة. وعليه، فإنّ اللّه هو الذي يعيّن الوليّ، لأنّه هو الوليّ، ورسوله هو الوليّ، والأئمّة هم الأولياء. لقد تمّ تعيين أئمّة أهل البيت اثني عشر إمامًا، وفي المرحلة اللاحقة تمّ تعيين أولئك الذين تنطبق عليهم المعايير والملاكات الخاصّة والذين هم متحقّقون بها، من أجل الحكومة والخلافة. فالقضيّة التي ترتبط بتعيين الولي في الإسلام هو هذا الذي ذكرناه. بالطّبع، لقد ذكرت لكم هذه الآية، وهناك آياتٌ أُخر في القرآن، قد ذكرناها، ويمكنكم أن تتعرّفوا على البعض الآخر وتجدونها في مصحفكم. لدينا الكثير من الآيات في





هذا المجال ها هنا.

إنّ ما يركّز الإسلام عليه هو أن لا يمسك أولئك الذين يجرّون الناس إلى جهنّم بزمام أمرهم، ونحن نسأل هنا: ألم يكن في التاريخ مصاديق لمثل هؤلاء؟ ألم نرَ ماذا فعلوا وماذا حصل في المجتمع الإسلامي بُعيد تلك المرحلة المشعشعة من صدر الإسلام، وأي بلاءٍ نزل على هذا المجتمع؟ وكيف وصل هذا المجتمع إلى مثل هذه الحال الذي لم يعد يعرف فيه الناس قدر الرجال الأخيار، وإلى ذاك الوضع الذي تبدّلت فيه معايير الحسن والقبح عند الناس بحيث لم يعودوا في ذلك المجتمع قادرين على تشخيص الإنسان الذي يصلحهم ويكون لهم ناصحًا مشفقًا؟ فماذا فعلوا حتّى أوصلوه إلى مثل هذا المستوى؟ وكم عملوا عليه حتى انجرّ أمره إلى هذا الوضع؟ لقد بُثّت الدعايات المسمومة من قبل الأجهزة السلطويّة الظالمة والجائرة، وتفشّت داخل المجتمع الإسلامي، وبدّلت مستوى معلومات الناس ورؤيتهم إلى تلك الدرجة التي وصل فيها الناس إلى حيث لا يميّزون بين الأسود والأبيض، ويرون الأسود أبيضًا، والأبيض أسودًا؛ لقد فعلوا كلّ ذلك حتّى أوصلوه إلى مثل هذه الحالة. ولهذا، عندما ننظر إلى التاريخ في القرنين الثاني والثالث الهجريين تقريبًا، نشاهد كلّ تلك الفجائع التي ارتكبها جهاز السلطة والخلافة، ونرى كلّ تلك اللامبالاة وعدم الاهتمام بين الناس، فنتعجّب ممّا آلت إليه الأمور، فهل أنّ هؤلاء الناس الذين نراهم الآن هم فعلًا أولئك الذين كانوا من قبل؟ وهل أنّ هؤلاء الذين نراهم الآن هم أبناء أولئك الناس الذين لم يكونوا يصبرون على عثمان وجاؤوا من كلّ ناحيةٍ وحاصروه، ثمّ وصل أمرهم في النهاية إلى أن يعزلوه عن الخلافة بتلك الصورة الفجيعة؟ إنّ





هؤلاء أصبحوا بحيث يأتي الخليفة العبّاسي وينفق من المال في زفافه، بما يمكن أن يدير قسمًا عظيمًا من المجتمع الإسلامي، ويرونه يهدر كلّ تلك الأموال لأجل لهوه ولعبه، وهو يفعل ذلك وينفق كلّ تلك الأموال على شؤونه الشخصيّة من بيت مال المسلمين - هذا بمعزل عمّا إذا كان ينفقها في أمور الحلال أو الحرام - لكنّه كان ينفق على شؤونه الشخصيّة من بيت المال؛ فذاك المال الذي يكون لألف شخص مثلًا، كان ينفقه هذا الرجل على شخصٍ واحدٍ؛ ولا أقول ها هنا إنّه يصرفه على لهوه وعربدته. كلّا، فحتّى لو صرفه على صلاته وصومه، فهل يجوز له مثل هذا الأمر؟ هؤلاء الناس هم الذين كانوا يرون هذه الأمور تحدث في قلب وقائع المجتمع الإسلامي وفي نفس الوقت لا يبالون ولا يظهرون أي اهتمام.

لعلّني ذكرت قبل مدّة، أنّه في ليلة زفاف جعفر البرمكي، الوزير المحبوب لهارون الرشيد - والذي كان شابًّا بعمر الـ٢٨ أو ٣٠ سنة، والذي لم يتجاوز عمره الـ٣٥ سنة عندما مات وارتحل عن هذا العالم، بعدما قتلوه؛ وكان قبل ذلك قد أصبح الصهر المعشوق لهارون الرشيد، وكان هارون يحبّه حبًّا جمًّا - فبدل أن يرشّ حبات الحلوى على رأس العريس والعروس ليلة الزفاف، شاهد الناس تلك الضيافة النفيسة جدًّا للبرمكيّين ولهارون الرشيد، فماذا تتصوّرون أنّهم كانوا يرشّون على رأس العريس والعروس؟ عندما اقترب [الناس] وأخذوا ما كان يُرشّ ورفعوا بعضه، وجدوا أنّ الأمر لم يكن حلوى ولا ذهبًا، وعندما دقّقوا وجدوه عبارة عن علب صغيرة لا تتجاوز قدر أنملة، كانت قد صُنعت من الذهب الخالص، وعندما فتحوا تلك العلب، وجدوا في داخلها ورقة صغيرة جدًّا ورقيقة، وعندما فتحوا تلك الورقة، تعجّبوا ممّا رأوا،





لقد أصبحت ورقة كبيرة! وعندما قرأوا ما في الورقة، وجدوا أنّه كُتب في كلّ واحدةٍ منها صكّ ملكيّة للقطعة الفلانية من تلك البلاد تُعطى لصاحبها، فقد كانت عبارة عن حكمٍ باقتطاع أرضٍ وتقديمها لصاحب الورقة.

فاللّه وحده يعلم كم رشّوا من تلك العلب في ليلةٍ واحدة، لعلّه ما يزيد على الألف؛ ووُجد في كلّ واحدةٍ منها ذلك الصكّ المكتوب على تلك الأوراق الصغيرة، التي وُضعت في تلك العلب الذهبيّة، والتي كانت تُرشّ على رأس العريس والعروس؛ وقد فهم الذين تواجدوا [في الحفل] أنّ الخليفة لم يكن يشخّص ها هنا من الذي سيحصل على تلك العلب. فافرضوا مثلًا أنّ أملاك تلك الناحية الواسعة من المنطقة الفلانية، قد وقعت بيد طفل أو بيد شخصٍ سكّير، أو بيد بلطجيّ، أو بيد شخصٍ عديم الشرف - ففي النهاية لم يكن الخليفة يعلم إلى من يعطي تلك الأراضي، بل كان يرشّها على الحاضرين، وكان كلّ من يحصل على واحدةٍ منها يصادرها ويأكل ما يريد - ولكن كم كان الناس يعانون ويُداس عليهم في تلك الناحية، التي اقتُطعت [فيها الأرض] لهذا الشخص؟! وكم أُهدرت الثروات وضاعت الحقوق ولم يعد منها شيءٌ؟! فهؤلاء لم يكونوا يفكّرون. وعلى كلّ حال، لقد وصل الاختلاف الطبقي إلى هذا الحدّ، ففي نفس الوقت الذي كان يحصل فيه كلّ هذا البذخ والهبات، وكلّ هذا الإسراف والترف؛ كان يحيى العلويّ[1] يقاتل

---

(١) يحيى بن عبد اللّه من أحفاد الإمام الحسن دعا إلى نفسه في زمان هارون الرشيد في أنحاء مختلفة من أجل الحكومة الإسلامية وأعلن عن ثورته في طبر، وقد أمر هارون فضل بن يحيى البرمكي بقمع ثورته، وبعد أن أصبح =





في جبال طبرستان ضدّ الظلم والظالمين، في حين لم يكن يمتلك هو وعياله سوى لباسٍ واحدٍ، وكان الزوج يضطرّ لأخذ هذا اللباس ليصلّي ثمّ يرجعه إلى زوجته حتّى تستر بدنها وتصلّي؛ كانت أسرة النبي تحارب الظلم وتعيش في مثل هذه الأوضاع، وكان الناس يشاهدون ذلك ولا يكترثون.

أنا لا أتحدّث ها هنا عن هارون، ولست بصدد التذمّر منه الآن؛ فلو أنّ هارون لم يفعل مثل هذه الأمور لما كان هارونًا؛ فهكذا هو حكم طبقة هارون؛ وما دامت هذه الطبقة موجودةٌ فلن يصدر منها إلّا هذا النوع من الأعمال، فلست أشكو منه الآن، لكنّ شكواي هو من أولئك الناس الذين فقدوا ذلك الحسّ الذي كان موجودًا في صدر الإسلام، وفقدوا ذلك الوعي والإدراك الذي كان موجودًا في الزمن الأوّل وأضاعوه، بحيث لم يعودوا يشعرون بالتكليف تجاه تلك الأوضاع؛ لقد فقدوا حسّ المسؤوليّة ولم يعودوا يشعرون. فما هو السبب الذي أدّى إلى مثل هذا؟ إنّه تلك الدعايات المضرّة المؤذية والرذيلة التي روّجت بين الناس؛ لقد عملت تلك الأيادي الدعائيّة والأجهزة الإعلاميّة التي انتشرت في أقطار المجتمع الإسلامي وفي البلدان الإسلامية على عقول الناس وقلوبهم لسنوات، وكانت تعمل بشكلٍ متواصل على روحيّتهم، وقد فعلت ما فعلت حتّى أوصلت الأمور إلى هذا المستوى، فانظروا جيّدًا سترون مدى أهميّة الشخص الذي يحكم المجتمع الإسلامي، هذا الذي ينبغي أن يعيّنه اللّه.

= وضع يحيى وخيمًا جدًّا طلب الأمان من هارون فأعطاه الأمان لكنّه في النهاية استُشهد في أحد سجونه.





إنّ الآية القرآنية تقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[١]، وأولو الأمر هم الذين نعبّر عنهم بأصحاب الأوامر الذين يتمّ تعيينهم من بين الناس. فمن هم أصحاب الأوامر؟ إنّ ذاك الجاهل الغافل الذي يحمل اسم المسلم يتصوّر أنّ ولي الأمر هو كلّ من يستطيع أن يصدر الأوامر، وإنّه ذاك الشخص المستقوي الذي يصدر الأوامر؛ والذي تدفعه سلطته وقوّته أن يصدر الأوامر، فيقول عنه إنّه من أولي الأمر. نحن نقول كلّا، هذا ليس من أولي الأمر؛ فلو تقرّر أن يكون كلّ شخصٍ يستطيع أن يصدر الأوامر من أولي الأمر، لكان القرآن قد اعترف به بشكلٍ رسميّ. حسنٌ، هل يمكن لذاك الذي يعيش في ذلك الجبل، أو ذاك الذي يقطع الطريق على الناس ويصدر الأوامر كما يحلو له في نطاق عصابته، أن يكون من أولي الأمر؟ وهل تُعدّ طاعته واجبة؟

ذاك الذي أصدر الأوامر العامّة بأنّه لا يحقّ للرجال أن يخرجوا من بيوتهم ولمدّة ثلاثة أيّامٍ وليالٍ، ويحقّ للنساء فقط أن يخرجن من البيوت، كان أحد زعماء الصفويّة بحسب ما نقلته بعض التواريخ - فلو كان هذا صحيحًا فإنّه قد حصل في زمن الصفويّين وفي مدينة أصفهان، وقد ذكر هذا الواقعة التاريخيّة شاهد عيان، ولا أعلم إذا كانت تلك الحادثة موثّقة أم لا - [وقد قال] فلتخرج النساء - النساء والبنات فقط ولا يحقّ للرجال أن يأتوا - وليعملن في كلّ الأماكن والأسواق وفي الفنادق والدكاكين وفي كلّ مكان؛ فهل كان بسبب أنّه لم يعد هناك أي رجل؟ حسنٌ، هنا ستكون النسوة في راحةٍ إذا لم يكن هناك أجنبي، ولكن كلّا، فقد كان يحق للزعماء

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٩.





وأصدقائهم ورفقائهم وحواشيّهم التحرّك في المدينة؛ فتصوّروا أنّ تتحرّك أمّ الرجل وأخته في السوق، في حين أنّه لا يحقّ له هو المجيء؛ حسنٌ، هل هؤلاء هم أولو الأمر؟ وهل يصحّ أن يُطاع مثل هؤلاء؟ وهل أنّ أوامرهم هي أوامر اللّه؟

إنّ أولي الأمر الذين يعتقد الشيعة بهم، هم أولئك الذين سمّاهم اللّه في المنشور الذي يبيّن أمره، هؤلاء هم الذين نريدهم، هؤلاء وإن كانوا بحسب قوله تعالى ﴿مِنكُمْ﴾، أي من الناس، لكنّ ولايتهم تنبع من اللّه، واللّه هو صاحب الولاية الكبرى، وينبغي أن تؤخذ منه.

ها هو هارون الرشيد على حاله من سوء الخلق والإنفاق والهبات والإسراف والجرائم، يصدر أمرًا في يومٍ واحدٍ لتصفية جعفر البرمكي والكثير من أسرته، فيرتكب تلك المجزرة ويقتل من يقتل، ويقمع من يقمع من المؤمنين والكثير من المسلمين، وغيرها الكثير الكثير من الأعمال الأخرى. حسنٌ، ها هو أبو حنيفة يقول إنّ هارون الرشيد هو من أولي الأمر؛ وكان ينازع ويحارب الإمام جعفر الصادق دومًا ويقول له: لماذا تخاصم ولي الأمر في زمانك؟ انظروا إنّه يقصد من ولي أمر زمانه هارون الكذائيّ.

فمنطق الشيعة في هذه القضيّة منطقٌ دقيقٌ جدًّا، ففي الوقت الذي يبحثون عن التنصيب الإلهي في القرآن ويستنبطونه منه، فإنّهم يقدّمون للناس تلك المعايير والملاكات حتّى لا يُخدعوا وحتّى لا يقولوا: حسنٌ جدًّا، هذا علي بن أبي طالب على عيننا وعلى رأسنا ونحن نؤمن به، إلّا أنّ هارون الرشيد هو خليفة علي بن أبي طالب الآن؛ فإنّهم يقدّمون المعايير للناس حتّى لا يقولوا






مثل هذا الكلام، الذي كان يُقال في السابق، وحتّى لا يُقال عندئذٍ أنّنا نؤمن بعلي بن أبي طالب، ولكنّ خلافته قد وصلت في النهاية إلى هارون الرشيد، وقد وصلت من خلال سلسلة النسب هذه - حيث كان في سلالة العبّاسيّين نسبٌ يرجع أحيانًا إلى علي بن أبي طالب أو إلى النبي. وقد كان المنصور العبّاسي يقول إنّنا نؤمن بالإمام الحسن كخليفة لكنّه باع الخلافة بالمال - هذا هو منطق المنصور العبّاسي - ولأنّه باع الخلافة فلا حقّ له فيها بعد ذلك، ونحن إنّما انتزعنا هذه الخلافة التي باعها من أولئك الذين اشتروها منه وفعلنا ذلك بالقوّة والغلبة؛ هذا هو كلام العبّاسيّين: لقد كانوا يؤمنون بعلي بن أبي طالب ويعظّمونه ويحترمونه بحسب الظاهر، لكنّهم لم يكونوا يرون أي نوعٍ من التنافي بين حكومة علي بن أبي طالب وحكومة هارون العبّاسيّ.

أمّا الشيعة فتقول إنّ هذا الكلام غير صحيح؛ فأنت الذي تؤمن بحكومة علي بن أبي طالب يجب عليك أن تؤمن بمعايير خلافته وولايته، وعليك أن تؤمن بأنّ علي بن أبي طالب إنّما عُيّن كولي لأنّه جمع هذه المعايير في شخصيّته. وعلى هذا الأساس، فإنّ كلّ من يفتقد إلى هذه المعايير أو يخالفها أو يعارضها فلا يحقّ له أن يسمّي نفسه خليفة علي بن أبي طالب؛ ولا يحقّ لهذا الشخص أن يدّعي ولاية الشيعة وولاية الأمر، كما لا يحقّ لأحد أن يبايعه ويقبل به، وهذا هو المطلب الأوّل في هذا المجال الذي يدور حول قضيّة الولاية.

بالطبع، لقد أشرنا ها هنا إلى المطلب الثاني أيضًا ودوّنّا الآية المرتبطة به، وهو يدور حول السؤال التالي: لأجل أي شيءٍ





كانت ولاية اللّه؟ فلو سأل أحدٌ هذا السؤال وقال: أيّها السيّد! بأي دليلٍ أنتم تقولون إنّ ولاية الأمر ينبغي أن تكون بيد اللّه وفي سبيل اللّه؟ وجواب هذا السؤال هو أنّ الأمر ناشئٌ من فلسفةٍ بديهية تمّ تشخيصها وتحديدها في الرؤية الكونيّة الإسلامية. وفي هذه الرؤية الكونيّة، إنّ كلّ شيءٍ في هذا العالم ينشأ من قدرة ربّ العالمين، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾[1]، ومن البديهي عندئذٍ أن تكون الحكومة التكوينيّة والتشريعيّة بيد من تكون جميع مظاهر عالم الخلقة له، وبيد من تكون له الحكومة التكوينيّة على جميع الأشياء. فلا بدّ من ذلك، وهذا هو المطلب الثاني؛ إلى أن نصل إلى المطالب اللاحقة؛ والآن انتبهوا، لأنّني سوف أفسّر هذه الآيات بصورةٍ سريعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[2]، فبعد صدور الأمر الإلهي بإرجاع الأمانات إلى أهلها، وضرورة تطبيق العدل في الحكم والقضاء، فإنّ اللّه يذكّر بحسن ما يعظ به وجماله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، وهذا يعني أنّ كلّ ما يأمركم به اللّه نابعٌ من السمع والاطّلاع والعلم الكامل؛ فهو الذي يعرف حاجاتكم الباطنيّة ويرى مصيركم وعاقبتكم. وعلى هذا الأساس، فإنّه يعطيكم ويمنحكم كلّ ما تحتاجون إليه.

وهذه الآية الأولى التي تدور حول الأمانة وتؤكّد على ضرورة إرجاعها إلى أهلها هي في الحقيقة مقدّمة للآية الثانية؛ فالأمانة لا تنحصر في إرجاع تومانٍ إلى صاحبه بعد أخذه منه، بل إنّ أهمّ

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٣.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٥٨.





مظاهر الأمانة ومصاديقها هي أمانة اللّه بين الناس، حيث ينبغي للإنسان أن يوصلها إلى مكانها وإلى أهلها، فطاعة الإنسان هي الميثاق والعهد الإلهي الذي كان مع البشر، ويجب أن يؤدّى في محلّه، ويُعمل به في مكانه، فعليه أن يطيع اللّه، ويتّبع كلّ ما أمر به، هذه هي أهمّ مصاديق الأمانة.

وبعدها يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]، فهي إشارة إلى من تجب طاعتهم، وتنبع طاعتهم من طاعة اللّه، ويكون الأمر من شأنهم؛ وهنا نجد نقطة اختلاف الأطروحة الإسلامية مع بعض الأطروحات والأيديولوجيّات الأخرى، ويُعلم في هذا المجال ما هو المائز ومحلّ الافتراق. فالأطروحة الإسلامية لا تقول إنّه سيأتي يومٌ لا تكون فيه الحكومة ضروريةً، فلا تتوقّعوا في الرؤية الإسلامية مجيء ذلك اليوم الذي لا يكون فيه دولةٌ وحكومةٌ في المجتمع، في حين أنّ بعض المذاهب الفكريّة الأخرى تتوقّع [مجيء] مثل ذلك اليوم الذي تعتبر أنّ المجتمع سيصبح فيه مجتمعًا مثاليا، وترى أنّ من خصائص ذلك المجتمع المثالي أن لا يكون فيه دولةً وحكومةً. كلّا، فالإسلام لا يضع في الحسبان مثل هذا المستقبل.

لقد كان الخوارج يتذرّعون بحجّة الحكومة الإلهيّة من أجل نفي حكومة علي بن أبي طالب، فكانوا يقولون: «لَا حُكْمَ إِلَّا للّه»، وقد قال أمير المؤمنين في جوابهم: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِل»[2].

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(٢) الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (لبنان- بيروت: مؤسّسة آل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإحياء التراث، ١٤٠٨ﻫ/ ١٩٨٨م) الجزء ١١، الصفحة ٦٥.





فالكلام صحيحٌ لأنّ الحكم الواقعي هو للّه، وهو الذي يضع الأحكام والمقرّرات والقوانين ويمسك بزمام حياة البشر لكن ما تقولونه أنتم هو: «لَا حُكْمَ إِلَّا للّه» وتقصدون بذلك: «لا إمرة إلّا للّه»؛ فمن هو الذي سيطبّق هذا القانون الإلهي والحكومة الربّانيّة؟! فهل تقولون عندئذٍ إنّه لا ينبغي أن يكون هناك من يطبّق القانون إلّا اللّه؟ ولهذا يقول مباشرةً بعد هذا الجواب: «لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ». فالإنسانيّة والمجتمع البشري يحتاجان إلى الأمير الذي هو الحاكم والقائد، هذه هي الطبيعة الإنسانيّة التي تتلازم حياتها مع وجود منفّذ للقانون، لأنّ مجرّد وجود القانون لا يكفي، وإنّما لا بدّ من وجود ينفّذ هذا القانون ويشرف على تطبيقه بصورةٍ دقيقةٍ وصحيحة، وهذا ما يقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾. فهنا لا بدّ من أولي الأمر؛ ونسأل نحن: هل يقصد مطلق أولي الأمر؟ فهل كلّ من يصدر الأوامر ينطبق عليه ولاية الأمر؟ وقد نجد بعض الأحيان في مكانٍ واحدٍ اثنين يصدران الأوامر، ويكون كلّ واحدٍ منهما ضدّ الآخر، فهل يمكن أن نعتبرهما أيضًا من أولي الأمر؟ وفي بعض الأحيان، نجد شخصًا يصدر أحكامًا لا يتقبّلها العقل الإنساني، فهل يكون أيضًا من أولي الأمر؟ وهنا نجد الاختلاف الأساسي بيننا وبين طراز فكر السنّة، فنحن نقول إنّ أولي الأمر يجب أن ينطبقوا ويتطابقوا مع المعايير الإلهيّة، في حين أنّهم لم يجعلوا مثل هذا الشرط من الناحية العمليّة، أمّا فيما يتعلّق بكتبهم الفقهيّة فلم أقم بمراجعة دقيقة لأرى، لكن ما هو شائعٌ ومنتشرٌ على الألسن والأفواه هو النفي، حيث يقولون بضرورة احترام كلّ من يصل إلى مقام الأمر والإمارة.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ



﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[١]، وهنا نجد أنّ هذه المراجعة عند وقوع النزاعات والخلافات تكون سببًا للعاقبة الأفضل؛ وهنا ترون كيف أنّ اللّه يلفت الناس إلى العواقب الحسنة لوجود الأولياء الصالحين، مثلما أنّه يلفت إلى العواقب السيّئة للأولياء السيّئين.

وبعدها مباشرةً، تأتي الآية الثالثة، وهي تطعن بأولئك الذين يتمرّدون على هذا الأمر العامّ، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾[٢]. فاللّه تعالى يوجّه أنظار النبي إلى الذين يتصوّرون أنّهم آمنوا بما أُنزل على النبي وما أُنزل على من قبله - والمقصود به الأديان السماويّة - فمثل هؤلاء يتصوّرون في أنفسهم أنّهم مؤمنون، ولكن رغم هذا الفرض، تتنافى أعمالهم التي تصدر منهم مع الإيمان باللّه، فما هي هذه الأعمال المنافية؟ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فهؤلاء يرجعون أمورهم إلى الطاغوت من أجل أن يحكم ويبدي رأيه بها، ويفصل بينهم، ويصدر أوامره؛ فيعملون على أساسها ويجعلون حياتهم وفقها، ومثل هذا يتنافى مع الإيمان: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾، وإنّني أحتمل ها هنا أنّ هذا الشيطان هو الطاغوت نفسه ولا شيء آخر، فهؤلاء يريدون أن يرجعوا إلى الطاغوت غافلين عن أنّ هذا الشيطان هو الطاغوت الذي يعرّفه القرآن، الذي لا همّ له سوى أن يبعدهم عن الصراط المستقيم ليدخلهم في كلّ المتاهات والضلالات وأودية التيه. فالطاغوت كالشيطان يبعدهم عن تلك الجادّة التي تجعل

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٦٠.





رجوعهم إلى الحقّ وإلى طريق الهداية أمرًا صعبًا جدًّا.

بالطبع، يوجد ها هنا مطلبٌ آخر قد دوّنته وسوف أذكر لكم ما كتبته بعينه؛ فإنّ ولاية اللّه وقبول هذه الولاية من قبل المؤمنين ينشأ من فلسفةٍ خاصّة تحدّدها الرؤية الكونيّة الإسلامية. وبناءً عليه، فهي أمرٌ طبيعي، فقولنا إنّه يجب طاعة اللّه وطاعة ولي أمر اللّه يمثّل هذه الفلسفة الطبيعية الواضحة، لأنّ كلّ شيءٍ ينبغي أن يكون للّه، والآية الشريفة: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾[1]، توضح هذا المطلب جيّدًا.

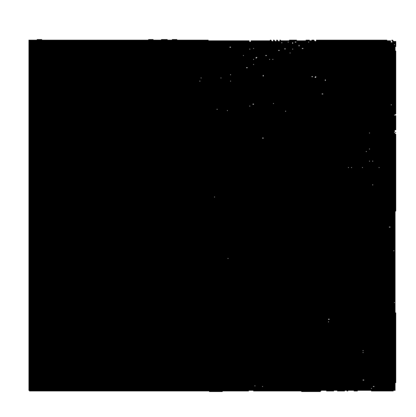
---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٣.

الجلسة السابعة والعشرون

حول الولاية (٢)

الثلاثاء، ٢٨ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

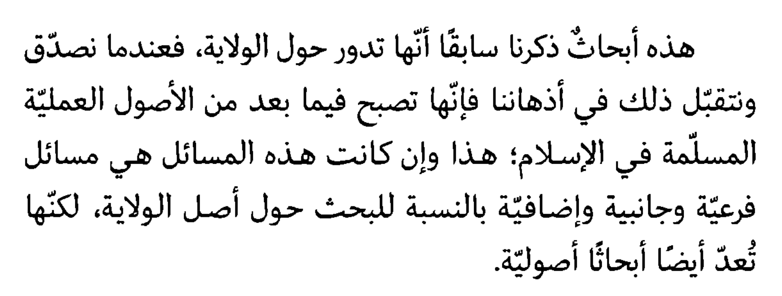
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

[سورة **النحل**، الآيات ٩٨-١٠٠]



لقد فهمنا أنّ كلّ مسلمٍ، بل كلّ من يدّعي العبوديّة للّه، يجب أن يعتبر ولي حياته والآمر الحاكم المتولي أمور فعاليّاته وأنشطته المتعلّقة بكلّ مراحل عمره، أنّه ينبغي أن يكون من جانب اللّه وأن يطلبه من اللّه؛ وأن يخضع لهذا الولي الذي حدّده اللّه وعيّنه، ويقدّم له يد الطاعة. وخلاصة الكلام، فإنّ عليه أن يعترف باللّه كحاكمٍ ووليٍّ أوحد في جميع أنشطته وتحرّكاته الحياتيّة، وأن يكون كلّ هذا أيضًا لمن اختاره اللّه كخليفةٍ له. وبالطبع، لقد قدّمنا هذا البحث أيضًا، فيما يرتبط بمن هم خلفاء اللّه والذين يعيّنهم اللّه، وقلنا إنّهم الأنبياء ومن بعدهم الأولياء. هؤلاء الذين تعرفونهم بأسماء الأولياء هم الحكّام وأولو الأمر الإلهيّون؛ غاية الأمر أنّنا قلنا إنّ الولي والحاكم الإلهي إمّا أن يعيَّن بالاسم والعلامة أو لا؛ بل يمكن أن يُعيَّن بالعلامة فحسب. هذه مطالب تمّ التعرّض لها في بحث السابق ولعلّها أيضًا اتّضحت إلى حدٍّ ما فيما قبله. أمّا اليوم، فسوف نضع أيدينا على قضيّةٍ ترتبط بحال من لا يصدّق ولا يؤمن بولاية اللّه، ومن يخضع لأوامرٍ لا تصدر من اللّه، فنسأل عن حكم هذا الإنسان، وعن اسم هذا الفعل الذي يرتكبه؛ وثالثًا، عن نتيجة هذا العمل الذي يقوم به.

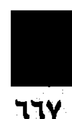




هذه أبحاثٌ ذكرنا سابقًا أنّها تدور حول الولاية، فعندما نصدّق ونتقبّل ذلك في أذهاننا فإنّها تصبح فيما بعد من الأصول العمليّة المسلّمة في الإسلام؛ هذا وإن كانت هذه المسائل هي مسائل فرعيّة وجانبية وإضافيّة بالنسبة للبحث حول أصل الولاية، لكنّها تُعدّ أيضًا أبحاثًا أصوليّة.

لقد عرّف القرآن الكريم كلّ ولايةٍ غير ولاية اللّه بعنوان ولاية الطاغوت، فالذي لا يدرج نفسه تحت ولاية اللّه، فإنّه سوف يكون تحت ولاية الطاغوت. فماذا تعني كلمة الطاغوت؟ إنّ الطاغوت كلمة مشتقّة من مادّة الطغيان، والطغيان هو أي نوع من التمرّد وتجاوز ذلك النطاق الطبيعي والدائرة الفطريّة للحياة الإنسانيّة. فافرضوا مثلًا أنّ الإنسانيّة قد وُجدت من أجل الوصول إلى الكمال، فكلّ من يمنع هذه الإنسانيّة من الكمال يُعدّ طاغوتًا؛ وافرضوا أنّ الإنسان يجب أن يعيش وفق دين اللّه، فهذا أمرٌ فطريٌّ طبيعي ومتوافقٌ مع أصل خلقة الإنسان، فلو قام أحدٌ بتشكيل الناس أو تحرّك أو تصرّف معهم بطريقةٍ تجعلهم في نهاية المطاف يعيشون على دينٍ هو ليس من اللّه، فإنّ هذا الشخص يُعدّ طاغوتًا. ويجب على الإنسان أن يكون دائمًا في حالة الجدّ والجهد والسعي من أجل أن يوصل نفسه إلى الغاية المطلوبة وإلى الثمرة المرجوةّ؛ وأي عاملٍ يشجّع الإنسان على الاستخفاف ويرّغبه بالتساهل وترك السعي والكسل وطلب الراحة والتحرّك نحو الدعة فإنّه طاغوتٌ.

يجب على الناس أن يخضعوا لأوامر اللّه، وأي شخصٍ يجعل الإنسان بعيدًا عن هذه الأوامر الإلهيّة أو مجتنبًا لها أو يؤدّي إلى أن تنشأ حالة العصيان في نفس الإنسان تجاه اللّه، فإنّ هذا الشخص يُعدّ طاغوتًا. فالطاغوت إذًا، ليس اسمًا خاصًّا، حيث إنّ بعضهم



تصوّروا أنّ الطاغوت هو أحد الأسماء التي تُطلق على الأصنام، أجل إنّه اسم صنمٍ، لكنّه ليس صنمًا معيّنًا؛ فأحيانًا يكون ذاك الصنم هو نفسك، وأحيانًا يكون مالك، وتارةً يكون تلك الحياة التي تدور حول طلب الراحة والسعي إليها لنفسك، وأحيانًا، يكون ذاك الصنم مرادك؛ وتارةً، يكون ذاك الذي وضعت يدك بيده وأغمضت له عينك، وسلّمته ناصيتك، فيتمكّن من جرّك حيث شاء. وفي بعض الأحيان، إنّ هذا الصنم يكون الذهب والفضّة وأشياء فاقدة للروح ومن الفلزات والمعادن؛ وقد يكون في بعض الأحيان شخصًا أو كائنًا حيًّا أو نظامًا اجتماعيًا أو قانونًا. فالطاغوت بناءً على هذا التعريف ليس اسمًا خاصًّا - لقد عرضت في بحث النبوّة عند وصولنا للحديث عن الطبقات الاجتماعية، وقلت إنّ المرء قد يستنبط من آيات القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ الطاغوت يُعدّ أعلى من الطبقات الأخرى كطبقة الملأ والمترفين والأحبار والرهبان، وهذا الأمر يُعدّ تعبيرًا آخر وله محلٌّ آخر، لا نبحث بشأنه الآن - وإنّ كلّ من يخرج من تحت ولاية اللّه، فإنّه لا بدّ له أن يدخل تحت ولاية الطاغوت والشيطان. فما هي العلاقة والرابطة بين الشيطان والطاغوت؟ وهل يوجد من نسبة بينهما؟ أجل، هناك ما يفوق كلمة النسبة والعلاقة. فالشيطان هو ذاك الطاغوت، والطاغوت هو الشيطان نفسه. والآية القرآنية تشير إلى مثل هذا، من أجل الاستنتاج اللفظي واللغوي، حتّى يُعلم أنّ الطاغوت هو أمرٌ مساوٍ للشيطان، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[1]، ثمّ تقول [الآية] فيما بعد: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٧٦





إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. هذه الآية الشريفة تبدأ ببيان طبيعة وأهداف قتال المؤمنين، وكذلك قتال الذين كفروا، ثمّ بعد ذلك تحثّ على مقاتلة حلفاء الشيطان وأتباعه والمرتبطين به، حيث إنّ مكر هذا الشيطان وتدبيره وحيله ضعيفةٌ؛ وترون في هذه الآية أنّ الطاغوت قد ذُكر محلّ الشيطان، مثلما أنّ الشيطان قد ذُكر مكان الطاغوت، والشيطان هو كلّ عنصرٍ خارج عن وجود الإنسان يدفعه من أجل القيام بالأعمال القبيحة والفاسدة والشرّيرة، ويسوقه نحو الانحطاط والدناءة والظلم والقبح والضلالة. هذا ما يُطلق عليه الشيطان.

وهكذا، سوف يكون لدينا شياطين الإنس، وشياطين الجنّ؛ ويكون هناك شياطين من الأقارب، ومن النساء، ومن الكبراء وشياطين من الأجانب؛ وهناك شيطانٌ من الأحاسيس، فكلّ هؤلاء يمكن أن نطلق عليهم كلمة الشيطان. ومن المصاديق والنماذج هو إبليس الذي وقف في مواجهة آدم صفي الله وخالفه واستقلّ عنه، ووجدناه ينطق بما نطق؛ وأنتم وأنا، نلعن طوال عمرنا ذا الحظ السيّء هذا، أو ذاك الشيطان الأوّلي، بحدّ التعبير العامّيّ، في حين أنّه لم يكن الشيطان الوحيد، ولعلّ الشيطنة لم تبدأ منه ولم تنتهِ عنده. فالشياطين في هذا العالم كُثُر إلى ما شاء الله، فيمكن تلمسّهم وتناولهم بالأيدي والنظر إليهم بالأعين، وقد يكون الإنسان معاشرًا لبعض هؤلاء أحيانًا، فالشيطان هو الشيطان، وهو كلّ ما يجرّ الإنسان من صراط الله نحو الفساد والشرّ والقبح والانحطاط.

كلّ ولاية غير إلهيّة هي ولاية شيطانيّة وطاغوتيّة. إنّ الذي لا يعيش تحت أوامر الولي الحقيقي يجب أن يعلم أنّه يعيش تحت أوامر الطاغوت والشيطان. ومن الممكن أن تسأل أيّها السيّد: ما



هي المفسدة من أن يعيش الإنسان تحت أوامر الشيطان والطاغوت ويخضع لها؟ وهذا السؤال يتطرّق إلى إحدى نُكات الآيات التي سنتعرّض لها. والقرآن يقدّم لنا في هذا المجال عدّة إجابات.

الجواب الأوّل هو أنّك إذا خضعت لولاية الشيطان، فإنّ الشيطان سيتسلّط على جميع طاقاتك البنّاءة والخلّاقة التي ينبغي أن تكون منتجةً في وجودك. ففي البداية، يكون الأمر أنّك إذا التفتّ إلى الشيطان والطاغوت من أجل أن يضعوا حبل ولايتهم في رقبتك، فإنّك عندها لن تتمكّن من أن تجد طريق الخلاص، فكلّ ما سيكون في وجودك من القدرة والابتكار والنشاط البنّاء والتجلّيات الساطعة ستصبح تحت قبضة الطاغوت والشيطان. وعندما تصبح كذلك، فإنّه سيتمكّن بسهولة من سوقك إلى الطريق الذي يريده ونحو الأماكن التي يقصدها بتلك الوسائل التي أعدّها بنفسه. ومن الواضح أنّ الشيطان والطاغوت لن يدلّا الإنسان إلى النور والمعرفة والرفاهيّة والمعنويّات والراحة؛ فالشيطان أو الطاغوت لم يجعل مثل هذه الأشياء هدفًا له؛ وإنّما مصالحه الشخصيّة هي الهدف الأوّلي وهو يريد أن يحقّقها، لهذا سوف يستعملك من أجل الوصول إلى مصالحه الشخصيّة.

ولو دقّقتم جيّدًا في هذه السلسلة من الأفكار والكلمات والجمل المحسوبة بدقّة والتي عرضتها عليكم - وتحت كلّ جملة يوجد معنًى، وسوف ترون كيف أنّ هذه المعاني تنطبق على الوقائع التاريخيّة منذ بداية التاريخ الذي نعلمه - فإنّك إذا خضعت لولاية الطاغوت فسوف تصبح كلّ طاقاتك وقدراتك وإبداعاتك واستعداداتك في قبضته. وعندما يتمكّن الطاغوت من الإمساك بها، فإنّه لن يعمل على أساس مصلحتك، لأنّ مصلحتك ونفعك






ليسا مهمّين بالنسبة للطاغوت والشيطان، ولا يوجد بالنسبة للشيطان سوى نفسه ومصالحه وطريقه. فإذا اقتضى الأمر أن يضحّي بك على هذا الطريق ومن أجل تلك المصالح فسوف يفعل، وإذا كان لا بدّ من إضلالك فسوف يضلّك. فبالنسبة له ما ينبغي أن يحقّق تلك المصالح يجب أن يتحقّق، وإذا اقتضى ذلك أن يضلّك فينبغي أن تضلّ، فهذا هو الشيطان؛ وها قد صارت القدرة بيده، وأنت الذي منحته إيّاها؛ وعندها سوف يجرّك إلى أي مكانٍ يريد.

كما أنّي سوف أشرح لكم الآن هذه الآية القرآنية من سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1]، فإنّ كلّ من ينهض لمعاداة النبي ومحاربته ومخاصمته، بعد أن تبيّن له مسير الهداية، فإنّه سينفصل عن هذا النبي وسيكون له طريقٌ آخر غير طريق النبوّة - غير ذاك الطريق الذي رسمناه لكم - وهناك سينشعب ويسير في طريقٍ آخر، ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وباتّباعه طريقًا آخر غير طريق المؤمنين وغير مسار المجتمع الإسلامي والطريق الموصل إلى الأهداف الإيمانيّة، فإنّه يكون قد فصل نفسه عن جمع المسلمين الحقيقيين؛ ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، وهذا يعني أنّ ما تمسّك به وجعله قلادةً في عنقه سيثبت له، وتلك الولاية التي قبلها لنفسه بإرادةٍ تامّة منه سنجعلها صبغةً ثابتةً لحياته التعيسة. فقد أوصل نفسه بنفسه إلى تلك المنطقة، واتّخذ السكنى لنفسه هناك، وهناك سنبقيه عاجزًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١١٥.



﴿بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[١]؛ فلقد ذهبت بنفسك وقلّدت زمامك للشيطان، إذًا فليبقَ زمامك بيد الشيطان. هذه سنّة اللّه، وهذا هو قانون الخلقة؛ وهذا ما سيحصل في هذه الدنيا، فما الذي سيكون لك في ذلك العالم؟ يقول تعالى: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ فبمجرّد أن تغمض العين عن هذا العالم، فسوف تتّجه مباشرةً إلى جهنّم القهر الإلهي والعذاب الربّاني الخالد. وعندما يتأمّل الإنسان في التاريخ، سيجد عيانًا مثل هذا الأمر.

إنّ هذه المسائل مهمّة جدًّا؛ وللأسف، فإنّ اهتمامنا بالقرآن فيما يتعلّق بهذه القضايا هو قليلٌ جدًّا؛ وتطبيقها على تاريخ الإسلام هو للأسف كذلك، قليلٌ ومحدود. وما أجمل أن ينهض المهتمّون والمحبّون للقرآن وأصحاب التدبّر للتحقيق والتدقيق والتدبّر في القضايا الاجتماعية وخصوصًا تلك القضايا التاريخيّة في القرآن، ثمّ يقومون بعد ذلك بتطبيقه على الوقائع التاريخيّة ليُعلم بعدها أي تفسيرٍ أو توجيهٍ تاريخي يتطابق مع الواقع؛ وهذ البعد التاريخي يمثّل جانبًا من تفسير هذه الآية. واليوم أودّ أن أتناول جانبًا من التاريخ.

إنّ مدينة الكوفة هي من المدن العجيبة جدًّا في تاريخ الإسلام، فلا شكّ أنّكم تحملون في ذاكرتكم أنواعًا متعدّدة من الذكريات حول الكوفة؛ والشيء الذي سأقوله هنا ليس جديدًا فيما يتعلّق بهذه المدينة؛ وأنتم تذكرون أنّ الكوفة هي ذاك المكان الذي اختاره أمير المؤمنين من بين جميع المناطق الإسلامية والمدن

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ١١.





الواقعة داخل الأمّة الإسلامية العظيمة كمحلٍّ لخلافته، وكما يقول السادة إنّ هذا يُعدّ نقطة إيجابيّة؛ وكذلك يوجد في ذاكرتكم أنّ أهل الكوفة شاركوا في حروب أمير المؤمنين، وهم الذين ختموا معركة الجمل، وكذلك معركة النهروان، وكان لهم في حرب صفّين مجموعة من القبائل التي كانت تعيش حول الكوفة، وكان هناك بعض القبائل الأخرى، بالإضافة إلى المحاربين الذين عاشوا في تلك المدينة، فهؤلاء جميعًا الذين ختموا تلك المعركة وأوصلوها إلى ما وصلت إليه. وكذلك يوجد في ذاكرتكم مواقف أخرى، حيث نجد أنّ أمير المؤمنين يشتكي من أهل الكوفة ويتألّم ويقول لهم: لماذا إذا دعوتكم إلى الحرب لم تأتوا؟! كذلك كان زعماء أهل الكوفة من كتب تلك الرسالة وأرسلها إلى الإمام الحسن المجتبى صلوات اللّه عليه: أن أقدم إلينا، ونحن نقدّم لك هذه المدينة كاملةً، وهي تحت خدمتك، ولم يأتِ الإمام الحسن إليهم؛ وهم الذين أرسلوا إلى الإمام الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكتب له زعماؤهم أنّه ليس علينا إمام، فلا يوجد من يحكمنا، واللّه قد سلّط هذا الطاغية علينا فاقدم إلينا. وكان ما يقوله أمثال سليمان بن صُرد، وحبيب بن مظاهر، ومسلم بن عوسجة[1] صدقًا؛ وكذلك إنّهم هم الذين جاؤوا ووقفوا بوجه الحسين بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلك المعركة غير المتكافئة وارتكبوا تلك الفاجعة الكبرى، وهم أنفسهم أيضًا الذين أحدثوا تلك الواقعة التاريخيّة، التي تُعدّ واقعةً

---

(١) عُدّ هؤلاء الثلاثة من كبار شيعة الكوفة، استطاع حبيب ومسلم أن يصلا إلى كربلاء ويستشهدا في ركاب الإمام الحسين، أمّا سليمان فقد كان قائد ثورة التوّابين.



نادرةً جدًّا ومهيبة في تاريخ الإسلام، وهي واقعة التوّابين، بعد مدّةٍ قصيرةٍ من عاشوراء؛ فجاؤوا من أجل أن يضحّوا بأنفسهم ويتوبوا على ما جرى في عاشوراء وواقعة كربلاء؛ وهؤلاء هم أنفسهم الذين تواجدوا في أغلب الثورات التي قامت ضدّ الأمويّين والعبّاسيّين وشكّلوا بذورها ونموّها وثمرتها؛ فما أكثر ما قدّموا من فداء وقتلى! وما أكثر ما قاموا به من أعمالٍ بارزة وجليّة وظاهرة ونموذجيّة! ثمّ ترونهم مرّةً أخرى، وقد أظهروا كلّ ذلك الضعف والكسل والعجز على مستوى الروح والفكر كما حدث في مجموعةٍ من القضايا التي تبرز للعيان.

فماذا يُعدّ كلّ هذا؟ فهل كان لأمثال هؤلاء روحيّتان أو وجهان؟ أولئك الذين قالت لهم زينب الكبرى: «يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر!»[1] فذكرتهم بعنوان الغدر. فلهم قضيّةٌ؛ وقضيّة الكوفة هي قضيّةٌ أخرى. وبرأيي إنّ البحث حول ما يمكن أن نعبّر عنه بـ«علم النفس الاجتماعي لمدينة الكوفة في التاريخ» هو بحثٌ جميلٌ جدًّا، فلو قام به أهله، من الاختصاصيّين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس، واجتمعوا وتحدّثوا حول الكوفة وفكّروا وبحثوا فإنّهم سيجدون أمامهم كيانًا عجيبًا ومدهشًا؛ وذلك لأنّ هذا الكائن تارةً يظهر من العظمة والتجلّيات الإنسانيّة البارزة ما يحيّر ويدهش الإنسان. وأحيانًا أخرى، [يظهر] كلّ ذلك الضعف والهوان والذلّة؛ فماذا يوجد في البين؟ هل كان أهل الكوفة طبقتين؟ وهل كان مجتمع الكوفة ذا جنبتين ووجهين؟ لقد خضعت منطقة

---

(١) الشيخ الطبرسي، **الاحتجاج** (النجف الأشرف: منشورات دار النعمان، ١٩٦٦م)، الجزء ٢، الصفحة ٢٩.





الكوفة لحكم كلمات أمير المؤمنين المتينة والبليغة، فصارت ناضجةً ومصنوعةً بحيث صار كلّ ما يخرج منها، وما تنتجه هذه المزرعة، مثمرًا. وقد صارت تشكّل تلك الفسائل أو الشتول التي تقبل التربية؛ ففيها تحقّقت تلك الأرضيّة والشروط المناسبة لصناعة الإنسان؛ لهذا فإنّ أكثر الرجال العظام، الذين كانت لهم كلّ تلك الملاحم التاريخيّة عند الشيعة، كانوا من الكوفة؛ حتّى أنّهم كانوا أكثر عددًا من أي مكانٍ آخر، حتّى المدينة؛ ونحن نسأل عن سرّ هذا الأمر وسببه، ونقول إنّه بسبب التعاليم والمعارف التي أرساها أمير المؤمنين طوال تلك السنوات الأربع. فليس الأمر مزحة يا إخوان: أن يحكم علي بن أبي طالب مدينةً ما! وصحيحٌ أنّ هذه الحكومة لم تكن موفّقةً على مستوى العالم الإسلامي في السنوات الأربع تلك، لكنّها كانت على مستوى الكوفة ناجحةً، وهذا أمرٌ مسلّم. فمن المسلّم به أنّه حدثت في مجتمع الكوفة تأثيراتٌ عميقةٌ ومدهشةٌ للغاية؛ وهكذا أصبحت الكوفة مهدًا للتشيّع ومحلًّا لولادة القيم والفضائل الشيعيّة. أليس صحيحًا؟

لكن إذا كانت الأماكن محلًّا لولادة القيم والأصالة، فلا يعني ذلك أن يكون كلّ من يعيش فيها أصيلًا وفاضلًا ومثاليا بالضرورة. فقد يوجد في أي مجتمع شريحةٌ تكون متحرّكة وحيويّة دومًا، وتكون مظهر الحراك الكبير لذلك المجتمع؛ وقد يبرز بضعة آلافٍ من بين الملايين من الناس، فيظهرون في عملهم أنواع البطولات التي تلتصق بأولئك الملايين الآخرين وتمنحهم البطولة والحماس والعزّة في الدنيا. كان هناك شريحة من أهل الكوفة قد قدّمت كلّ هذه المآثر، ولم يكونوا عبارة عن طبقة كما يصطلح علماء الاجتماع، كلّا، بل كانوا شريحةً أو جماعةً تمثّل أحد فروع ذاك المجتمع، وكانوا





على تلك الشاكلة. أمّا عامّة الناس، فقد كانوا كبقيّة عوام الناس في كلّ الأماكن، ولم يكونوا أسوأ؛ فقد كانوا مثل أهل مشهد، وأهل طهران، وأهل أصفهان، ومثل أهل المدينة، ومثل أي مكانٍ آخر؛ ولكن بما أنّ تلك الجماعة أو الفئة القليلة التي عاشت في تلك المنطقة من الأمّة الإسلامية أي الكوفة كانت تمثّل رعبًا لحكومات ذلك الزمان، فقد كانت تلك الحكومات ترسل عليهم أسوأ عمّالها وأرذلهم وأحطّهم، الذين كانوا عبيدًا لهم وجلّادين بسيوفهم، والجلاوزة الذين لا يتورّعون عن القيام بأي عمل. وكان الحكّام يأمرونهم بالتعامل مع أهل الكوفة، بطريقةٍ - سواء من ناحية العنف والقمع، أو من ناحية الدعايات المسمّة، أو من ناحية نشر الفقر والعوز بينهم - تجعل أهل تلك المنطقة وبطريقةٍ تلقائيّة يتوجّهون أكثر فأكثر نحو الفساد والانحطاط.

وهنا نسأل عن السبب الذي كان يدفعهم للتعامل مع أهل الكوفة بتلك الطريقة؟ كلّ ذلك كان بسبب وجود تلك الفئة المجاهدة، أو تلك الجماعة التي تمثّل نخبة وزينة للذين يعيشون في تلك المدينة، والذين ما كان لهم نظير في المدن الأخرى؛ فمن أجل أن يسحقوا ويقضوا على تلك الأرضيّة التي يمكن لهذه الفئة الطاهرة النزيهة العظيمة أن تستفيد منها وتستعملها؛ منعهم من الاستفادة من تلك البيئة، قاموا بتلويثها وتخريبها تمامًا بكلّ جهدهم؛ فروّجوا للدعايات السامّة، وجعلوا الناس تحت الضغط الشديد، ومارسوا عليهم كلّ أشكال القمع، وحاصروهم من الناحية الاقتصادية حتّى يفتقروا؛ وهكذا مارسوا جميع أنواع الأساليب التي تجعل أهل مدينة الكوفة يعيشون في ظروفٍ لا تشبه ظروف أيّة مدينةٍ أخرى في تلك الأزمنة. وعلى أثر هذه الأعمال، وقع عامّة





أهل هذه المدينة تحت تأثير الممارسات الظالمة الجائرة الغدّارة لتلك الأجهزة، وأدّى ذلك بهم إلى أن يتصرّفوا ويقوموا بأعمالٍ غير لائقة؛ لكنّ منشأ تلك الأعمال لم يكن السوء الموجود في أهل تلك المدينة. كان هذا شرحًا مختصرًا حول أوضاع الكوفة وأتمنّى أن يتمكّن بعض الأشخاص من النظر والمطالعة والتحقيق في التاريخ، لأنّ هذا برأيي من الأمور المناسبة جدًّا.

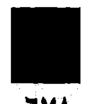
أريد الآن أن أفسّر لكم هذه الآية. أرسل عبد الملك، وهو أحد خلفاء بني أميّة، الحجّاج بن يوسف إلى الكوفة لأنّه كان يعلم أنّه لا يوجد من هو مثل الحجّاج ممّن يقدر على التعامل مع أهل الكوفة الثائرين الحيويّين الناشطين؛ فأرسل إليهم الحجّاج بن يوسف الذي هو أحطّ غلمانه وجلاوزته؛ وعندما وصل الحجّاج إلى هذه المدينة في منتصف الليل ودخلها، لم يكن من أحد يعرف بقدومه، ويبدو أنّ الناس قد طردوا الحاكم السابق أو اضطرّوه إلى الخروج، وكان الحجّاج قد اصطحب معه مئة مسلّح أو ثلاثين أو أربعين، فقدم وجلب معه رجاله ونشرهم حول مسجد الكوفة. هذا المسجد الذي كان صادحًا بترانيم المحرابيين والمتهجّدين والمقدّسين، وأدخل نفسه بين الجماعة وجلس جانبًا، وكان قد أوعز إلى غلمانه وعبيده بمجموعة من الأوامر.

كان الناس قد اجتمعوا في مسجد الكوفة من بداية آذان الصبح لكي يصلّوا جماعة، لقد جاؤوا من أجل العبادة والصلاة؛ لكن كان معلومًا، كما ينبغي أن يُعلم، أنّهم لم يكونوا يعبدون عن بصيرة، والدليل على ذلك هو ما سوف أذكره الآن. جاء الحجّاج بن يوسف، وبدون أن يلتفت الناس إلى دخوله إلى المسجد أو إلى السبب وراء مجيئه وما كان هدفه، جاء ووقف بين الجمع فجأة



دون أن يلتفت إليه أحد، وصعد إلى المنبر، ووقف - وأنتم قد رأيتم سعة مسجد الكوفة وكبره - فلم يلتفت الناس في البداية، وبعدها جلس على المنبر دون أن ينطق بكلمة. وفجأةً، رفع أحد المتواجدين رأسه فرأى الحجّاج على المنبر ولم يكن يعرفه، فقال: من هو هذا الذي يقف على المنبر؟ وكان الحجّاج قد تهيّأ بشكلٍ عجيب، فقد كان يعتمر عمامةً من الخزّ ذات اللون الأحمر، وجعل اللثام على وجهه، أي أنّه غطّى وجهه بعمامته وجعلها على أنفه بحيث لا يُرى من وجهه سوى عينيه، فظهر بمظهرٍ عجيب! وكونه رجل مسلّح ويحمل السيف ويرتدي العباءة ويضع عمامةً حمراء ويقف على منبر مسجد الكوفة، سكت الكلّ وتطلّعوا إليه بأبصارهم وصار كلّ واحد يهمس إلى صاحبه باسمه، وشيئًا فشيئًا اتّجه الجميع ليعرفوا من هو هذا الشخص.

التفتوا جيّدًا ماذا تقوله لنا هذه الآية القرآنية: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، فهي تقول إنّ الذي يبتعد عن طريق الإيمان والمؤمنين فإنّنا سنضع حبلًا في رقبته ونثبّته في حنكه. حسنٌ، لقد كنت مسلمًا وها إنّك ترى شخصًا يجلس على منبر مسجدك، وأنت لا تعرفه، فلماذا تذهب وتجلس إليه؟ فهل ذهبت إليه وقلت له: يا فلان! من أنت؟ عرّف لنا نفسك؛ هل قام كلّ واحدٍ منكم بطرح هذا السؤال عليه؟ فلو أنّ هذا الأمر قد حصل لكان الوضع مختلفًا؛ لقد أظهر هؤلاء ذاك الوهن، وأبدوا حالة انعدام الإرادة، وضعف النفس، وجلسوا ينتظرونه حتّى يتكلّم؛ وبمجرّد أن رأى أنّ جميع الناس ينظرون إليه، قال: كأنّ أهل الكوفة لا يعرفونني! فنظر الناس إلى بعضهم وكأنّهم يقولون: نعم، نحن لا نعرفك؛ فقال: سوف أعرّفكم بنفسي الآن، فنزع العمامة عن رأسه، وأزال اللثام عن وجهه، ونظر نظرةً إلى





الناس، وقرأ هذا البيت الشعريّ:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني[(١)]

فنظر البعض مرّةً أخرى - وكأنّهم التفتوا إلى أنّ هذا الشّخص قد جاء سابقًا إلى الكوفة - وبدأ البعض يقولون: يبدو أنّه الحجّاج، وشيئًا فشيئًا انتشر هذا الخبر، والكلّ يقول: هذا الحجّاج، هذا الحجّاج؛ وفجأةً ملأت حالة الرعب قلوب الحاضرين، فالحجّاج قد قدم إليهم وها هو يجلس على منبرهم! فقال: نعم، أنا الحجّاج، أجل لقد عرفتموني، وسيطرت تلك الحالة من الرعب على الجميع، ولم يكن أي شخصٍ مستعدًّا لأن يقول: حسنٌ يا فلان! الحجّاج رجلٌ وأنا رجلٌ، وإن كان هو يجلس على المنبر وأنا أجلس في الأسفل، فإنّ كلّ ما عنده عندي، لكنّ حالة ضعف النفس سيطرت على الناس.

قال: «إنّني أرى من أهل الكوفة رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها»، أي إنّه رأى ضرورة أن يقتطع بعض الرؤوس ويفصلها عن الأجساد؛ فزاد رعب الناس من كلامه الفارغ هذا؛ وكما تعلمون أنّ الحجّاج لم يذهب إلى الكوفة وهو يحمل قنبلة نوويّة؛ وحتّى لو كان يحملها فإنّه ما كان ليفجّرها، لأنّه لو فعل ذلك، لما بقي منهم من يحكمه؛ فكان من الضروري أن يبقي على عدّةٍ منهم، وأن لا يقتلهم جميعًا، فلو قتل الجميع من كان سيحكم؟ هل سيحكم الأبواب والجدران؟ فما نفع ذلك! فليذهب عندئذٍ ليحكم الصحراء، أمّا الناس فلم يكونوا يفكّرون بهذه الطريقة.

---

(١) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار احياء الكتب العربية، الطبعة ١، ١٩٥٩م)، الجزء ١، الصفحة ٢٠.





هكذا إذًا، يقول لهم: إنّني أرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإنّني أنا الذي سأحدّد أي رأسٍ سوف يُقتطف؛ فنادى غلامه وجاء إلى المنبر وقال له: اقرأ كتاب أمير المؤمنين على هؤلاء، وبالطبع تعرفون أنّه يقصد بأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ ففتح ذاك الغلام كتاب عبد الملك الخليفة وأراد أن يقرأ، وكان أولّه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة، يا أهل الكوفة! سلامٌ عليكم. وبمجرّد أن وصل إلى هذا المقطع حتّى أسكته الحجّاج وقال: اهدأ، فهدأ وابتعد. وأقبل الحجّاج على الناس وهو يقول لهم: كم قد أصبحتم بلا أدب! إنّ أمير المؤمنين يسلّم عليكم وأنتم لا تردّون سلامه! فأمر غلامه أن يبدأ من جديد، وعندما قال الغلام: «من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة! يا أهل الكوفة سلامٌ عليكم» ارتفعت الأصوات دفعةً واحدةً من المسجد كلّه وهم يقولون: وعلى أمير المؤمنين السلام. فتبسّم الحجّاج ابتسامة الرضا، وقال في نفسه لقد حصل ما أريد وتمّ عملي. وفي الواقع كان محقًّا في هذا. لقد أنهى الحجّاج ما أراده مع أهل الكوفة في هذه اللحظة بالذات.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[١]، فهل قبلتم الحجّاج؟ وسلّمتم على أميره، الذي كان أمير الكافرين وأمير الفاسقين؟ حسنٌ جدًّا، إذا كنتم تريدونه، فها هو الحجّاج لكم! وأنتم تستحقّون الحجّاج! وإنّ اللّه تعالى لن يزيل الحجّاج بالمعجزة ويضع زين العابدين عَلَيهِ السَّلَامُ مكانه. بل سيكون الحجّاج نفسه عليكم حتّى يأتي اليوم الذي لا

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٥.






تريدونه؛ وما دمتم ترضون بالحجّاج، فسوف تكون حياتكم كلّها وأفكاركم وأرواحكم بين يديه، فهذه هي سنّة عالم الخلقة، وهذه هي سنّة التاريخ، وهذا هو التاريخ. وأنا كنت أحبّ كثيرًا أن أذكر لكم عشرة نماذج تاريخيّة أخرى تعويضًا عن الأيّام السبعة والعشرين الماضية التي لم أذكر لكم فيها من التاريخ إلّا القليل، لأنّ التاريخ مليءٌ بالدروس.

جميلٌ أن يأتي وصف الأبرار على لسان الآخرين وفي حديثهم؛ فالتاريخ يفسّر القرآن:

مرد خردمند جهانديده را
عمر دو بايست در اين روزكار
إنّ الرجل الحكيم الذي شاهد العالم
يحقّ له أن يعيش عمرين في هذا الدهر
تا به يكى تجربه اندوختن
با ديكرى تجربه بردن به كار
ففي العمر الأوّل تحصل التجربة
وفي العمر الثاني يطبّق التجربة[1]

إنّ تجارب التاريخ تمثّل أعمارنا السابقة. فتأمّلوا في التاريخ، واربطوا أنفسكم به واستأنسوا بوقائعه، لكن اسعوا أن تأخذوا من التاريخ لبّه، ولا تكتفوا بسرد الحكايات والقصص التاريخيّة، بل انظروا ماذا يريد التاريخ أن يخبرنا، وماذا تريد واقعة الحجّاج هذه أن تخبرنا في التاريخ.

---

(١) للشاعر سعدي.



ولا بأس أن أضيف هذه الكلمة، وهي أنّ الحجّاج نفسه قد قُتل بأفظع صورةٍ على يد أولئك الذين ارتكب كلّ الفجائع والفظائع من أجلهم، ولا بأس أن تعلموا «بأنّ من أعان ظالمًا سلّطه اللّه عليه»[١]، وهذه سنّةٌ أخرى من سنن التاريخ، فتأمّلوا في التاريخ وانظروا ما يقدّمه لنا من دروسٍ وما ينطق به من مواعظٍ وحكم، وأيّة رسالةٍ يحملها إلينا؛ غوصوا في التاريخ بمنتهى الدقّة، هناك سوف نرى كيف تصبح الآيات القرآنية واضحة المعنى بالنسبة لنا، وأنا قد ذكرت هذا المقطع التاريخي وسأترك على عهدتكم عمليّة ربطه بالآية القرآنية وتطبيقه عليها.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٢]، وحيث أنّك تقرأ القرآن، وها أنت تتعلّم منه هذه المعارف الإسلامية، فيا أيّها الأخّ، إنّك ستفهم الآن ما لم تكن تعرفه، ولهذا عليك أن تحفظ نفسك وتصونها من شرّ الشيطان الذي يريد أن يقطع الطريق عليك حتّى لا تفهم القرآن وتدركه؛ فما هو معنى أن تصون نفسك؟ إنّ عليك أن تسعى لترسيخ معارفك القرآنية في القلب حتّى لا تخرج منك أو تزول، وذلك حتّى لا يُسدّ عليك طريق العمل وطريق المزيد من الفهم، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾، وهنا نسأل هل يمكننا أن نلجأ إلى اللّه ونستعيذ به؟ وهل يمكنني أن أهرب من شرّ الشيطان؟ أجل، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣]، فهذا الشيطان الذي يمثّل قدرة

---

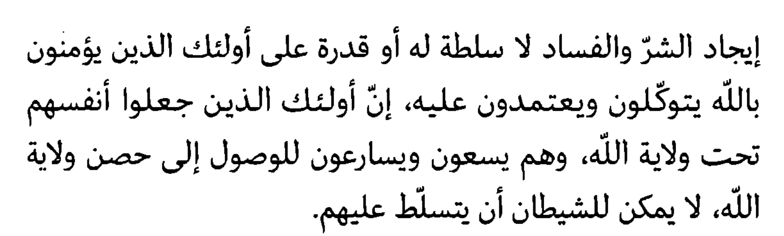
(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٩، الصفحة ١٧٢.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٩٨.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٩٩.







إيجاد الشرّ والفساد لا سلطة له أو قدرة على أولئك الذين يؤمنون باللّه يتوكّلون ويعتمدون عليه، إنّ أولئك الذين جعلوا أنفسهم تحت ولاية اللّه، وهم يسعون ويسارعون للوصول إلى حصن ولاية اللّه، لا يمكن للشيطان أن يتسلّط عليهم.

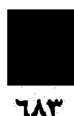
﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[1]، فإذا تسلّط الحجّاج على أحدٍ، فذلك بسبب الشخص نفسه الذي قبل بكلامه الفظّ، وأخذ حبله بنفسه ووضعه في رقبته، فسلطانه وقدرته الشيطانيّة إنّما هي فقط وفقط ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، أي على أولئك الذين جعلوا الشيطان شريكًا للّه؛ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، وكلّ من يعاند ويحارب وينفصل عن النبي ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾، ويبتعد عن طريق النبي بعد بيانه وظهوره، ولا يخضع لمسؤوليّات الإيمان الظاهري بالنبوّة والإيمان [الباطنيّ] بالنبوّة والشهادة بالنبوّة، ويلتزم بها ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، فإنّ اللّه تعالى سيجعل هذا الشخص، الذي تقبلونه وتقبلون ولايته، وليًّا وحاكمًا عليكم، ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ أي نجعله وليًّا وحاكمًا، و﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ هو الشيء أو الأمر الذي قبل الناس به بعنوان الولاية، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وإنّ اللّه سيسارع برميه في جهنّم التي تمثّل أسوأ عاقبةٍ ونهاية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[2]، فاللّه لن يتجاوز عن ذاك الذي يشرك به - فارجعوا إلى مباحث التوحيد لتتعرّفوا على

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٠٠.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١١٦.



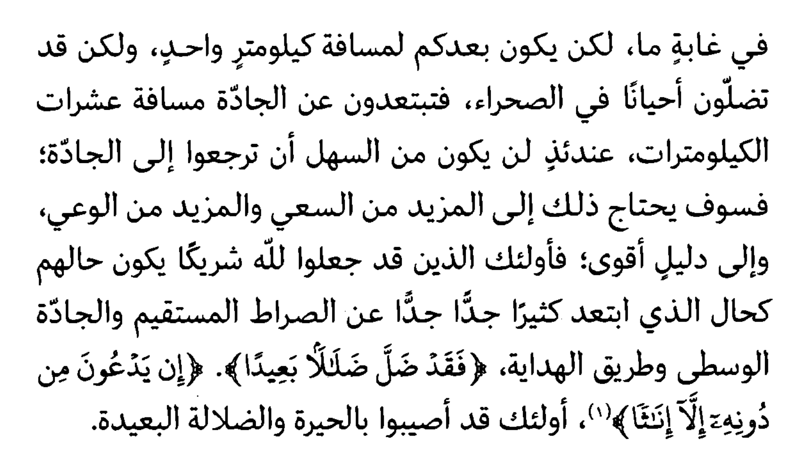


معاني الشرك، حيث يظهر الشرك من خلال معاني التوحيد أيضًا - فما هو التوحيد؟ وما هي المعصية التي لا يمكن أن يتجاوز اللّه عنها؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وإذا أردت أن أكون أكثر دقّةً، يحتاج الأمر إلى المزيد من الكلام؛ فاللّه تعالى لا يشمل بمغفرته حال ذاك الذي قبل بالشرك، فذاك الذي أصبح مشركًا يكون قد دخل تحت ولاية غير اللّه، وجعل نطاق سلطة اللّه لغير اللّه؛ وتلك الجروح التي تحصل جرّاء العصيان وارتكاب السيّئات وعدم التوفيق لا يمكن أن تلتئم أبدًا، ويعني ذلك أنّك لن تجد الغفران - فهذا هو معنى الغفران وقد تقدّم شرحه سابقًا - فغفران الذنوب يعني أن تلتحم الجروح وتلتئم، تلك الجروح التي وُجدت في روح الإنسان جرّاء المعصية والخطأ والمزلّة والانحراف. أمّا إذا التأمت فإنّ ذلك يعني أنّ المغفرة شملت حاله؛ فإذا زال ذلك الجرح والألم الذي نزل على روحك - جرّاء سوء العمل والمسير وعدم السير على طريق اللّه - فإذا زال وتحسّن، فيعني ذلك أنّه غُفر لك، هذا هو الغفران؛ وإذا كنت تحت ولاية غير اللّه، فإنّه لا يمكن له أن يلتئم؛ فكلّ جرحٍ حصل من الذنوب عندئذٍ وكلّ صدمةٍ أو ضربةٍ تعرّضت لها جرّاء المعصية لن تُجبر. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أمّا ما كان أدنى وأقل من الشرك فيمكن للّه أن يغفره؛ وبالتأكيد إنّ المشيئة الإلهيّة هنا ليست اعتباطيّةً، فذاك الذي يتوب يمكن أن يُجبر[ذنبه]، وذاك الذي يتّجه إلى اللّه ويؤوب إليه، فإنّ اللّه سيغفر له إذا شاء؛ ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ ثمّ يعود مرّةً أخرى إلى الشرك، ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فيبتعد الإنسان بسبب اعتقاده بشريكٍ للّه عن طريق الهداية بعدًا كثيرا.

قد يحدث أحيانًا أن تضلّوا عن الطريق إذا كنتم تسيرون







في غابةٍ ما، لكن يكون بعدكم لمسافة كيلومترٍ واحدٍ، ولكن قد تضلّون أحيانًا في الصحراء، فتبتعدون عن الجادّة مسافة عشرات الكيلومترات، عندئذٍ لن يكون من السهل أن ترجعوا إلى الجادّة؛ فسوف يحتاج ذلك إلى المزيد من السعي والمزيد من الوعي، وإلى دليلٍ أقوى؛ فأولئك الذين قد جعلوا للّه شريكًا يكون حالهم كحال الذي ابتعد كثيرًا جدًّا جدًّا عن الصراط المستقيم والجادّة الوسطى وطريق الهداية، ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾. ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾[1]، أولئك قد أصيبوا بالحيرة والضلالة البعيدة.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ فدعوة هؤلاء لا تتوجّه إلّا إلى بضع نساء وإلى ذاك الشيطان العنيد البعيد عن الفضيلة والعاري من الصلاح، وقد فسّرنا «المَريد» هنا بمعنى المتمرّد، لكن يمكنكم أن تكتبوا إلى جانب المتمرّد أنّه الخالي من الحسن والفضيلة، لأنّ هذا هو أيضًا من معاني المَريد؛ ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وهو الطرد الإلهيّ، ﴿وَقَالَ﴾، نجد أنّ الشيطان قد اتّخذ موقفه من اللّه منذ البداية، وذلك لأنّ الجبهة الشيطانيّة لا يمكن أن تتصالح مع الجبهة الإلهيّة، فهي معارضة بطبيعتها وسليقتها؛ وإنّ من طبيعة كلّ من هم متّصفون بالشيطنة والشياطين أن يقولوا مثل هذا القول وأن يكون حالهم: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، فيقطعون على أنفسهم عهدًا ويقولون إنّهم سوف يعزلون من يقدرون عليه من عباد اللّه عن اللّه، ويتّخذون منهم نصيبًا وحصّةً مقسومة، وهو يعني أنّهم سيضلّون مجموعةً من عباد

---

(١) سورة **النساء**، ١١٧.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١١٨.



اللّه عن الصراط المستقيم، وسيستولون على عقولهم وسيعمون أبصارهم وألبابهم حتّى لا يتّخذوا ولاية اللّه ولا يخضعوا لها؛ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وهو تأكيد على شدّة الضلالة، وقوّة ربطهم بالآمال البعيدة والطويلة.

وأرجو التركيز هنا أكثر على كلمة ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، فالأماني البعيدة وطول الأمل هي من الأشياء التي تمنع الإنسان من أي سعيٍ على طريق اللّه، إنّه الأمل بعشر سنواتٍ أخرى من الدعة والراحة والعيش المرفّه، إنّه الأمل بتزويج ابنك البكر، وتزويج بناتك، إنّه الأمل بأن يكبر بيتك وأن تتّسع دكّانك، إنّه الأمل بأن تصبح رئيس أو مدير الجهاز الفلاني أو المؤسّسة الفلانية، إنّه الأمل بالحصول على المزيد من المال، إنّه الأمل بأن يُقال لابنك أيّها المهندس، أو يُقال لك ذلك، إنّها الآمال البعيدة والطويلة؛ إنّ الآمال تشبه حجر الرحى الذي إذا وضع على رقبة إنسان فيجعل رأسه منحنيًا، حتّى إذا وضعوا حجرين على ظهره ركع. هذه الآمال التي لو أنّك قلعت أسنان طمعها ورميت بها بعيدًا فسوف ترى مباشرةً الحريّة والخفّة، وعدم وجود أي قيدٍ أو غلٍّ يقيّد قدميك ورجليك على طريق اللّه، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، هكذا يعد الشيطان أنّه سيقيّد هؤلاء بقيود الآمال البعيدة.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهذا الأمر بشقّ آذان الأنعام يعبّر عن إحدى السنن والعادات الجاهلية الخاطئة. فالقضيّة بظاهرها هي تلك العادات الجاهلية التي كانت سائدةً في ذلك الزمن، أي في زمان النبي، والتي كانت تقضي بأن يشقّوا أذن هذا الحيوان حتّى يستجلبوا له الرزق والبركة والسلامة بهذه الطريقة على سبيل المثال. كانت هذه عادة جاهلية؛ وهي في الواقع أحد





نماذج العادات والأفكار والأساليب والبرامج المخالفة للّه، يذكرها اللّه تعالى هنا، فانظروا درجة السخافة ومستوى الفراغ في هذه العادة، وهكذا هو حال كلّ العادات الشيطانيّة دومًا، فهي بنظر أتباعها أمر له معنًى، لكنّها بنظر الإنسان العاقل ليست سوى جزافٍ وهراءٍ.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ فهذه جملة ملفتة جدًّا، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ إنّه سيأمرهم حتّى يغيّروا الخلقة والفطرة الإلهيّة، فكأنّه يقول: إنّني سأصطاد أولئك الذين كانوا تحت أمرك يا ربّ، أولئك الذين كانوا في ظلّ حكومتك وولايتك، وأجلبهم إلى مستنقع ولايتي وآمرهم وأحملهم على أن يجتنبوا الخلقة والفطرة الإلهيّة، وأن يبتعدوا عن ذاك الخطّ الذي عيّنته لهم؛ فأضع لهم القوانين المخالفة للفطرة، وأصدر لهم الأوامر المخالفة لطبيعة الخلقة، وأعرض عليهم طريقًا لا يوصل في النهاية إلّا إلى المقصد المخالف للطبيعة الإنسانيّة، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ فهذا هو عهد الشيطان مع اللّه، وهو يريد أن يقول إنّه سيصبح الآمر الناهي الذي يبدّل فطرة اللّه وخلقته حتمًا.

هكذا كان عهد الشيطان مع اللّه، عهد العناد والتمرّد عليه سبحانه، وهكذا هم الشياطين كلّهم، وهذه هي اللائحة التي دوّنوا فيها برنامجهم، ولا همّ لكلّ شياطين هذا العالم سوى أن يفعلوا ذلك؛ ثقوا تمامًا أنّه لو أراد الناس أن يعيشوا على أساس الفطرة والخلقة الإلهيّة، فإنّ الشيطان لن يدعهم، وذاك الشيطان الذي يتولّونه لا يمكن أن يتركهم عليها، فسوف يفعل كلّ ما بوسعه من





أجل أن يبعد أولئك الذين انضووا تحت لوائه وأصبحوا تحت ولايته وسيطرته، عن الخلقة والفطرة الإلهيّة؛ وذلك لأنّه لا يمكنه أن يؤثّر دون أن يفعل ذلك، وسوف تتعطّل شيطانيّته؛ لهذا يقول اللّه تعالى مباشرةً بعد ذلك - والخطاب لي ولكم - ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾، هناك ستحلّ الخسارة، يعدهم الشيطان ويربطهم بذاك المستقبل والعمر والحياة، التي هي ليست سوى أكاذيب، ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾[1]، فيجعلهم مبتلين بالآمال الطويلة؛ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فوعد الشيطان ليس سوى الخداع والكذب.

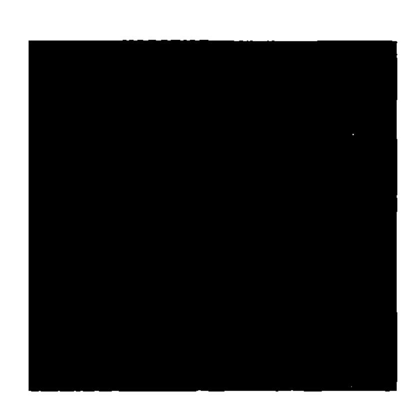
---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٢٠.

الجلسة الثامنة والعشرون

حول الولاية (٣): الهجرة

الأربعاء، ٢٩ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجري شمسي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[سورة **النحل**، الآيات ٩٨-١٠٠]





إنّ قضيّة الهجرة ترتبط بقضيّة الولاية، مع ذلك الاتّساع الذي ذكرناه ها هنا حول الولاية، وقلنا إنّ الولاية هي عبارة عن تحقّق الرابطة والاتّصال المحكم داخل عناصر الصفّ المؤمن وفيما بينهم، وقطع أي نوعٍ من الارتباط بين صفوف المؤمنين وغير المؤمنين. وفي المرتبة اللاحقة، هي إيجاد هذه الرابطة القوية جدًّا والمحكمة بين جميع أفراد هذا الصفّ المؤمن وتلك النقطة المركزيّة والقدرة المتمركزة التي تتحمّل مسؤوليّة إدارة المجتمع الإسلامي، وهو الإمام، أي الولي والحاكم والقائد. وإلى جانب ذلك كلّه، بحثنا حينها حول مصداق الولي والمقتدَى في المجتمع الإسلامي، وقدّ قدّم لنا القرآن هذا الجواب، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[1]، حيث أشرنا إلى تلك الواقعة التي جرت مع أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه. فلو استطعنا أن نفهم الولاية بهذه السعة، ولم نختصر القضيّة في حدّ القضايا الفرعيّة للولاية أو نحصرها في نطاق الدرجة الثانية من قضاياها - كما يحصل

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٥





بالنسبة للبعض حين يختصرون هذه القضيّة دون التفات - هناك ستكون قضيّة الهجرة من المسائل التي تأتي بتبع قضيّة الولاية. فلماذا نقول هذا؟ لأنّه إذا كان من الضروري لكلّ إنسانٍ أن يعيش تحت ولاية اللّه، ومع ولي اللّه - وهو الأمر الذي يعلّمنا إيّاه أصل الولاية - فلو آمنّا بأنّه ينبغي للإنسان أن يسخّر كلّ طاقاته وجميع نشاطاته الجسمانية والفكريّة والروحيّة لإرادة الولي الإلهي والوالي من قبل اللّه. وباختصار، أن يكون الإنسان بجميع عناصر وجوده عبدًا للّه، لا عبدًا للطاغوت؛ فلو قبلنا بهذه المطالب وصدّقنا بها، عندها لا بدّ أن نؤمن بهذا أيضًا وهو أنّه لو لم يكن وجودنا وجميع طاقاتنا ونشاطاتنا تحت أوامر الولاية الإلهيّة، بل كانت تحت الأوامر الطاغوتيّة والشيطانيّة، فإنّ مسؤوليّتنا الإلهيّة تقتضي أن نحرّر أنفسنا من قيدٍ ولاية الطاغوت وغلّه، وننجي أنفسنا ونحرّرها ونذهب بها إلى ظلّ ولاية اللّه الميمونة. فالخروج من تحت ولاية الظالم والدخول تحت ظلّ ولاية العادل هو ما يُسمّى بالهجرة. ترون كيف أنّ قضيّة الهجرة هي من القضايا التي تُطرح بتبع قضيّة الولاية؛ لهذا خصّصنا له القسم الرابع من بحث الولاية، أي أنّنا قد ذكرنا لحدّ الآن ثلاثة مطالب فيما يختصّ ببحث الولاية، والآن هذا هو المطلب الرابع.

فلماذا ينبغي أن يفرّ الإنسان من تحت ولاية الطاغوت والشيطان؟ إنّ هذا السؤال الذي أطرحه هو سؤالٌ ينبغي التوجّه إليه كثيرًا. إنّني أودّ عندما أطرح السؤال أن تضعوه مباشرةً داخل مختبر أذهانكم وتقوموا بتحليله وتجزئته وتفكيكه لكي تتمكّنوا من أن تقدّموا حوله جوابًا ينسجم مع التعاليم والمبادئ الإسلامية والدينية؛ وبعدها إذا لم يكن جوابكم منسجمًا ومتطابقًا مع جوابي وكان مغايرًا



له، عندها يكون للحديث بيني وبينكم تتمّة. والسؤال هو: ألا يمكن للمسلم أن يبقى مسلمًا تحت ولاية الطاغوت؟ ألا يصحّ أن نفترض أن يعيش مسلمٌ تحت ولاية الشيطان، لكنّه يعيش في الواقع حالة العبوديّة للرحمن، ألا يمكن أن يحدث هذا؟ هل يمكن أن يكون هناك عاملٌ غير إلهي في منطقةٍ من مناطق عيش الإنسان، وهو الذي يتولّى القيادة والإدارة، فنراه يدير جسم الإنسان، وكذلك يدير هذا العامل غير الإلهي فكره، ويجرّ هذا العامل روحيّة [هذا الإنسان] وعواطفه وأحاسيس أفراد المجتمع إلى هذه الجهة وتلك الجهة؛ أي هل يمكن لهذا الإنسان أن يعيش في قبضة سلطة مثل هذه العناصر الطاغوتيّة والشيطانيّة، ويكون في نفس الوقت عبدًا للّه ومسلمًا؟ فهل أنّ مثل هذا الشيء ممكنٌ أو غير ممكن؟ أرجو منكم أن تكونوا في صدد البحث عن جوابٍ لهذا السؤال، وقولوا لي هل يصحّ أم لا يصحّ؟ ولأجل أن نعرف إذا كان هذا الأمر ممكنًا أم لا، يجب علينا أن نقوم بتحليل هذا السؤال إلى حدٍّ ما حتّى يتّضح الجواب عنه. فنحن نسأل: هل يمكن للإنسان أن يكون تحت ولاية الشيطان ويبقى مسلمًا أو لا يمكن؟ وهذان السؤالان في الحقيقة سؤالٌ واحدٌ، وهذا السؤال مركّبٌ من جزئين، ونحن سنفكّك هذين الجزئين، ونرى ما هو المعنى المستفاد منهما؟

الجزء الأوّل هو أن يكون الإنسان تحت ولاية الشيطان. فماذا يعني ذلك؟ وما هو معنى الولاية ها هنا؟ فلو أخذنا ذاك المعنى، الذي استفدناه من آيات القرآن فيما يتعلّق بالولاية، ووضعناه إلى جانب عبارة ولاية الشيطان، بذاك المعنى الذي استنبطناه من مجموع الآيات القرآنية، عندها سوف يُعلم ويتّضح المعنى المقصود من ولاية الشيطان؛ لأنّ ولاية الشيطان عندئذٍ ستعني - بذاك





المعنى الكلّي الذي ذكرته بشأن الشيطان - التسلّط على جميع طاقات واستعدادات وإبداعات وأعمال الإنسان. فالذي سينجزه هذا الإنسان سيتحرّك على خطّ السير الذي حدّده الشيطان، وما يفكّر فيه هذا الإنسان سيكون على ذلك الطريق الذي يرغب به الشيطان أو يرسمه له، وسيكون حاله كحال ذاك الذي وقع في نهرٍ تتدفّق فيه المياه تدفّقًا قويًا ويكون تيّارها جارفًا؛ فعندما يقع الإنسان في مثل هذا النهر، فإنّه بالتّأكيد لن يرغب بأن يرتطم بالصخور الصلبة والحادّة ويكسر رأسه، وبالتأكيد لن يرغب في أن يجرفه الماء ويرميه من أعلى الجرف، وبالتأكيد لن يرغب حتمًا بأن يختنق في هذه الأمواج العاتية لهذا الماء الجارف وينتهي أمره إلى الغرق؛ ورغم أنّه لا يرغب بكلّ ذلك، لكنّ هذا السيل الجارف للمياه سيجرفه ويجرّه دون اختيارٍ منه، وستراه يتخبّط ويسعى أن يتمسّك بأي شيءٍ يمكن أن يبرز أمامه، وسيسعى للتشبّث بأيّة وسيلة نجاة، لكنّ جريان الماء سيكون دفّاقًا وقويًا إلى درجةٍ يسلبه هذا الاختيار. إنّ ولاية الطاغوت وولاية الشيطان سيسلبانه هذا الأمر؛ لهذا يقول اللّه تعالى في هذه الآية القرآنية: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[1]، فلا بدّ لمثل هؤلاء الأئمّة والقادة أن يجّروا الأتباع والأفراد الخاضعين لهم إلى نار جهنّم وينتهوا بهم إلى تلك العاقبة السيّئة وإلى تلك التعاسة الأبديّة. ونشاهد الآية الأخرى في كتاب اللّه، حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[2]، وعندما نتساءل عن هذه النعمة الإلهيّة التي كفر بها

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٤١.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ٢٨





هؤلاء فنقول: أيّة نعمةٍ قد تكون تلك؟ فقد تكون نعمةَ مظهر قدرة اللّه والقدرات الدنيوية، أو نعمة المسؤوليّة، أو نعمة إدارة أمور آلاف البشر، أو نعمة توفّر تلك الاستعدادات والطاقات والقوى العظيمة التي تكون في الناس؛ فكلّ هذه نِعم، وكلّ هذه النعم تمثّل تلك الرساميل التي يمكن أن تكون منشأ خيرٍ عظيم للإنسانيّة.

إنّ الناس الذين أصبحوا تحت إرادة أولئك الذين أشارت إليهم هذه الآية، والذين كان باستطاعتهم أن يجعلوا من أولئك الناس أناسًا عظماء، والذين كان بإمكانهم أن يحوّلوهم إلى عبادٍ مصطفين للّه، وكانوا يستطيعون أن يوصلوهم إلى أعلى مدارج الكمال؛ إنّ هؤلاء قد كفروا بهذه النعم ولم يستعملوها على الطريق التي كان ينبغي أن يسيروا عليها، فهناك يقول تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾. لقد جرّوا أنفسهم إلى جهنّم، وجرّوا قومهم والناس الذين كانوا تحت إمرتهم إلى ديار العدم والهلاك والبوار، ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾، جرّوهم إلى جهنّم، حيث سيلقون فيها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ وما أسوأه من مستقرٍّ ومقام!

لقد قرأ موسى بن جعفر صلوات اللّه وسلامه عليه هذه الآية على هارون، وأراد بذلك أن يُفهم هارون أنّ ذاك المكان الذي تجرّ قومك ونفسك إليه هو أسوأ منزلٍ ومستقرّ وهو من أشدّ الأماكن هلاكًا؛ لقد صارح موسى بن جعفر هارونَ بهذا المعنى؛ فسأله [هارون] وهل نحن كفّار؟ والذي كان يقصده بهذه الكلمة وسأل عنه: هل تعتبرنا غير معتقدين باللّه وبالنبي وبالدين؟ فتلا الإمام عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه الآية كجوابٍ لكي يفهمه أنّ كلمة الكافر لا تُطلق فقط على ذاك الذي يقول بكلّ وضوحٍ وصراحة إنّه لا يوجد إله، أو ذاك الذي يقول إنّ القرآن أسطورة، أو أن النبي كذلك أكذوبة؛ فهذا



نوعٌ من الكفر وهو من أفضل أنواعه لأنّه يعبّر من خلال كلامه بكلّ صراحة [عن كفره]، وعلى هذا الأساس، سيعرفه الناس على ما هو عليه وسيتمكّنون عندها من أن يحدّدوا موقفًا واضحًا تجاهه. أمّا الكافر الأشدّ سوءًا فهو ذاك الذي يكفر بتلك النعم العظيمة التي جعلها الله بين يديه، ويستخدمها في غير مجراها الصحيح، فلا يجرّ نفسه فقط إلى جهنّم، بل يجرّ كلّ من كان تحت إمرته من الناس؛ إنّ ولاية الطاغوت هي على هذا النحو.

إنّ الذي يعيش تحت ولاية الطاغوت يكون في واقع الأمر كذاك الفاقد للاختيار، وأنا لا أقول إنّه فقد الاختيار تمامًا، لكنّه حقيقةً واقعٌ في ذلك السيل الجارف الذي يجرفه معه. إنّه يريد أن يخلّص نفسه لكنّه لا يستطيع، إنّه يريد أن يرجع عن طريق جهنّم لكنّه يرى أنّ كلّ شيءٍ حوله يتحرّك نحو جهنّم وهو بالتالي يجرّه معه. هل ذهبتم إلى تلك الأماكن التي يوجد فيها حشدٌ هائلٌ من الناس؟ حيث تودّ أحيانًا أن تتحرّك في هذا الاتّجاه، فيأخذك ذاك الحشد الكبير معه ومن دون اختيارٍ منك؛ وهكذا تصبح كريشةٍ في مهبّ الرّيح. فهو يريد أن يكون إنسانًا مستقيمًا وأن يعيش عيشةً هنيّةً وأن يبقى إنسانًا ويبقى مسلمًا ويموت مسلمًا، لكنّه لا يستطيع؛ لأنّ هذا التيّار الاجتماعي يأخذه ويجرّه معه ويسحبه بطريقةٍ لا يتمكّن معها أن يخلّص نفسه مهما تخبّط؛ ويصبح كلّ تخبّطه هنا إهدارًا لطاقته، ولا يحقّق له أيّة نتيجة، بل سيفقد بعدها طاقته حتّى لا يبقى بعدها قادرا على الحراك؛ والأسوأ من ذلك والأشدّ إيلامًا أنّه قد لا يتمكّن بعد ذلك من أن يدرك ماذا يحدث.

ولا أعلم إذا كنتم قد رأيتم تلك الأسماك التي يصطادونها في البحار أم لا؟ ففي بعض الأحيان، تجدون أنّ آلاف الأسماك التي

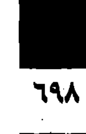


وقعت في الشباك تُجرّ إلى الشاطئ ويسحبونها من وسط البحر لعدّة كيلومترات، ولا تكون هذه الأسماك ملتفتةً إلى ما يحدث معها وإلى أنّها واقعةٌ في تلك الشباك التي تجرّها، فإذا سألتم تلك الأسماك إلى أين تذهبن؟ فقد تظنّ أنّها تتحرّك باختيارها نحو مقصدٍ معيّن في حين أنّها في الواقع مسلوبة الاختيار، وإنّما مقصدها الوحيد هو ذاك الذي حدده لها الصيّاد صاحب تلك الشباك.

وهذه الشباك اللامرئيّة للنظام الجاهلي تحرّك الإنسان بطريقةٍ، وتأخذه نحو جهاتٍ يحدّدها الموجّهون لتلك الشباك بحسب رغباتهم. فيجرّون الناس فيها إلى حيث لا يدرك هؤلاء ماذا يحدث، وإلى أين يذهبون! وفي بعض الأحيان، يتخيّلون أنّهم يسيرون إلى منزل السعادة والفلاح، وهم غافلون عن أنّ الأمر بعكس ذلك تمامًا، بل إنّهم يتحرّكون نحو ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

حسنٌ، إنّ هذه الولاية هي ولاية الطاغوت وولاية الشيطان، وهذه هي الجملة الأولى من الجملتين اللتين تشكّلان هذا السؤال، لقد قلنا: هل يمكن أن يعيش الإنسان تحت ولاية الطاغوت ويعيش عيشة المسلم، أيمكن ذلك؟ وها نحن قد فهمنا بالإجمال ماذا تعني الحياة في ظلّ ولاية الطاغوت، وإذا أردنا أن نفهم تفاصيل هذا الأمر يمكننا أن نرجع إلى التاريخ أيضًا.

فأنتم ترون كم كان العالم الإسلامي يتحرّك بنشاطٍ في زمان بني أميّة وبني العبّاس، وتشاهدون تلك الأمواج العظيمة التي ظهرت في ذاك المجتمع الإسلامي على صعيد العلم والمعرفة، فكم ظهر من أطبّاء عظام ومترجمين بارزين شكّلوا في ذلك العصر





ظاهرةً ملفتةً في العالم الإسلامي في الوقت الذي كان العالم كلّه في حالةٍ من القحط على صعيد معرفة اللغات وحتّى على صعيد المعارف العامّة؛ لقد ترجموا تلك الآثار العظيمة للثقافات القديمة إلى اللغة العربية ونشروها بين المسلمين؛ وهكذا أصبح المسلمون في تلك العصور من النماذج البارزة جدًّا في جميع فروع المعرفة، من التاريخ والحديث والعلوم الطبيعية والطبّ والفلك وحتّى في مجال الفنون الجميلة والدقيقة، أليس هذا صحيحًا؟ كان الأمر بحيث أنّ رجلًا مثل گوستاف لوپون[1] الفرنسي أو ذاك الكاتب الفلاني والمستشرق الآخر، إذا أراد الآن أن ينظر إلى تلك الظواهر ويتأمّل فيها فإنّ أوضاع القرن الثاني والثالث والرابع - التي شكّلت حقبة التشعشع الإسلامي – ستدهشه. وقد كتب آدم ميتز[2] كتابًا حول الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، يتفجّع فيه على تلك الحضارة العظيمة التي رآها، ويفصّل لنا حول الكثير من صور تلك الحضارة العظيمة التي وُجدت في القرن الهجري الرابع؛ فذاك المستشرق الفرنسي أو المستشرق الأوروبّي عندما ينظر بصورةٍ عامّة إلى تلك القرون (أي الثاني والثالث والرابع الهجري) فإنّه لا يكاد يزول عن الحيرة والدهشة؛ فلأي سببٍ كان كلّ هذا؟ إنّه بسبب ما

---

(١) گوستاف لوپون (١٨٤١ - ١٩٣١ م.) مستشرق فرنسي صاحب دراسات واسعة حول المسلمين والحضارة الإسلامية وقلّما نجد في آثاره الآراء المتعصّبة. ومن جملة كتاباته ما كتبه حول حضارة الهند وحضارة مصر وحضارة الأندلس والحضارة العربية.

(٢) آدم متز (١٨٦٩ - ١٩١٧ م.) مستشرق ألماني سكن مدينة بازل السويسريّة. تُرجم كتابه إلى اللغة العربية تحت عنوان الحضارية الإسلامية في القرن الرابع الهجري.





أظهره ذلك المجتمع الإسلامي من نشاطٍ وفعّاليّة وطاقات عجيبة في تلك العصور. ولكنّني سوف أطرح عليكم هذا السؤال: هل أنّ تلك الأنشطة والفعّاليّات التي برزت في تلك العصور انتهت إلى مصلحة المجتمع الإسلامي ولنفع الإنسانيّة؟ أنا أسألكم؛ ها قد مرّت عشرة قرون على ذلك العصر، ونحن لسنا متعصّبين ضدّ ذلك الزمان، فنحن نستطيع أن نعترف بذلك أمام العالم غير المسلم؛ فقد شهد العالم الإسلامي إنشاء تلك الجامعات وبرزت تلك الفلسفة في العالم الإسلامي، وهكذا كان الحال في العالم الإسلامي على صعيد الطبّ والعلوم الطبيعية، ولكن لو جلسنا بيننا وبين أنفسنا وكنّا محقّين ومنصفين، فهل يمكننا أن نقول إنّ تلك العلوم والإنجازات العلمية قد استُخدمت في محلّها وأدّت إلى نفع الإنسانيّة ومصلحة المجتمع الإسلامي؟ فماذا يمتلك المجتمع الإسلامي من ذاك الميراث بعد مرور عشرة قرون؟ ولماذا لم يعد لديه شيءٌ منها؟ فلماذا ذلك؟ ولماذا لم تبقَ لنا تلك الثورة العلمية والثقافية؟ ولماذا نحن اليوم كمجتمعٍ لا نسطع في العالم كذاك المجتمع الذي كان له كلّ ذلك التشعشع والسطوع قبل عشرة قرون؟ لماذا لا يتجلّى ذلك منّا اليوم؟ هل يعدو الأمر أنّ تلك الأنشطة والفعّاليّات كانت تحت خاتم الطاغوت، وإن كانت أنشطةً إنسانيّة؟ يقول الشاعر حافظ:

من آن نگين سليمان به هيچ نستانم
كه گاه گاه بر او دست اهر من باشد
إنّني لا أقدّر خاتم سليمان أبدًا
إذا كان في بعض الأحيان بيد الشيطان

فالشياطين هم الذين كانوا يعبثون بذاك المجتمع الإسلامي،

وحتّى لو قالوا وترجموا، فإنّ ذلك كلّه كان من أجل أن يكتبوا أنّ الترجمة قد حصلت في زمان حكومة جناب الخليفة العبّاسي الفلاني المنصور أو هارون أو المأمون؛ كلّ ذلك كان من أجل أن يرفعوا ذكرهم؛ ولو أنّهم سمحوا للحكومة العلويّة أن تستقرّ وتمسك بزمام الأمور بدلًا من كلّ تلك الأنشطة والفعّاليّات الفلكيّة والطبيعية والأدبيّة والفقهيّة والتجويديّة وغيرها، ولو أنّهم سمحوا للإمام الصادق أن يأتي على رأس الأمور وجعلوا كلّ تلك الأنشطة والطاقات بيده، فلو أنّهم تراجعوا مئة سنة على صعيد العلم والأدب وعلى صعيد تلك القضايا التي يتبجّحون بها في دنيا اليوم ويتفاخرون، فإنّ الأمر كان سينتهي إلى مصلحة الإنسانيّة، ولكان من الممكن لهذه الإنسانيّة أن ترتقي، ولكان من الممكن للإسلام أن يقدّم تلك الأزهار الجميلة، ولكان من الممكن لتلك الطاقات والاستعدادات أن تتحرّك على الطريق الصحيح؛ فقد كانوا يُترجمون الكتب، وكان الطبّ يتقدّم وكذلك العلوم، ولكن كانت الأمور الأخلاقيّة والقيم الاجتماعية تتسافل إلى درجةٍ جعلت تلك الاختلافات الطبقية التي أوجدوها تُعدّ اليوم من أعاجيب التاريخ.

وهذا الأمر هو نظير الحضارة الحديثة التي تمتزج بالقذارة والعار في عالمنا المعاصر. ها هي القوى العظمى في العالم تتبجّح باكتشافاتها العلمية، وتفتخر وتتباهى باختراعاتها التي تحيّر العقول، ويرمون بقبّعات مفاخرهم إلى الشمس، وهم يقولون إنّنا اخترعنا الدواء الفلاني، واكتشفنا المعادلة الفلانية، وقمنا بهذا العمل، كلّ ذلك باللحاظ العلمي؛ ولكن إذا نظرنا إليهم على الصعيد الإنساني والأخلاقي نراهم ما زالوا كما هم، مثلما كان يعيش الناس في عصور ما قبل التاريخ وقبل آلاف السنين؛ فها هي الثروات







الأسطوريّة الهائلة جنبًا إلى جنب جوع الفقراء الذي لا يمكن أن يُصدّق، وها هي النسبة القليلة من المجتمع في العالم تتمتّع بامتيازات تحصل عليها من جرّاء جوع ملايين البشر في تلك الدول المحرومة؛ إنّهم يتفاخرون بمثل هذه الأمور، وهذا الأمر هو عين ما كان عليه وضع الحضارة الإسلامية في القرن الثاني، والثالث، والرابع، هذا هو الوضع عينه؛ لقد كان الأمر في تلك الأيّام على هذه الشاكلة، فقد حصل هناك الكثير من التطوّر العلمي، ولكن كان هناك أيضًا الأرستقراطيّة والعربدة وفقدان الفضائل والإنسانيّة والأصول والاختلاف الطبقي الشديد والجوع القاتل الذي كان في مقابله كلّ ذلك الشبع القاتل الذي كان مشهودًا للعيان؛ فما هو السبب الذي كان يقف وراء كلّ تلك التعاسات؟ ولماذا لم يتمكّن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ورغم كلّ ذلك النشاط العلمي من أن يصبح وردةً في بستان الفضائل والإنسانيّة، لماذا؟

أولئك الذين يمكننا أن نذكر أسماءهم بكلّ شرفٍ وافتخار، وأولئك الذين يمكننا أن نضع أسماءهم على لائحة مفاخر رجال العالم ونقدّمهم إلى المقامات العالميّة، إذا رجعنا إلى تاريخ القرنين الثاني والثالث الهجريين، هم الذين كانوا يحاربون بشدّة ذلك النظام المتمدّن، إنّهم المعلّى بن خنيس[١] الذي شُنق في

---

(١) المعلاّ بن خُنيس الكوفي من أصحاب الإمام الصادق الخواصّ ووكيله في أمور النّفقات على عياله. وقد قام حاكم المدينة وبحجّة رقابته على الشيعة باعتقال المعلّا وتهديده بالقتل. فقال له المعلّا مجيبًا، أتهدّدني بالقتل؟ أقسم باللّه لو أنّ أسماء شيعة الإمام الصادق تحت قدمي ما رفعت قدمي هذه ولو قتلتني لسُررت وأنت شقيت. وقد استُشهد على هذا الطريق.



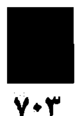


السوق وقُتل، إنّه يحيى بن أمّ الطويل الذي قُطعت رجله ويده ولسانه، إنّه محمّد بن أبي عُمير[١] الذي جُلد مئة جلدة، وإنّه يحيى بن زيد[٢] الذي قُتل في جبال خراسان بعمر الثامنة عشر، وإنّه زيد بن علي الذي أبقوا جسمانه مصلوبًا لأربع سنوات، هؤلاء هم الذين يمكننا اليوم أن نذكر أسماءهم بكلّ فخار، ونجعلهم على لائحة الشخصيّات الفاخرة في عالم البشريّة، وهؤلاء هم الذين كانوا متبرّئين في ذلك الزمان من هذه الحضارة العظيمة التي يتحدّث عنها السيّد گوستاف لوبون ويذكرها بالتمجيد. بل إنّ أولئك كانوا معادين لتلك الحضارة. إذًا، ترون أنّه عندما تتسلّط ولاية الطاغوت والشيطان على أي مجتمعٍ وتتحكّم بأبنائه وتمسك بزمام أمورهم، فإنّها تستخدم طاقاتهم وتفعّل استعداداتهم. ولكن نسأل: كيف ستفعل ذلك؟ وعلى أي نحو؟ إنّه على ذلك النحو الذي نراه اليوم في العالم المتمدّن، وعلى ذلك النحو الذي جرى قبل عشرة قرون أو أحد عشر قرنًا في العالم الإسلامي. فذاك النحو لا يساوي أيّة

---

(١) محمّد بن أبي عُمير الأسدي من خواص أصحاب الأئمّة الإمام الكاظم، والإمام الرضا، والإمام الجواد. ويوجد اختلاف بشأن إدراكه للإمام الصادق. أمر هارون بجلبه وسجنه حتّى يفشي أسماء أصحاب الإمام الكاظم، وقد ضُرب بالسياط حتّى يفتح فمه، ولكنّهم لم يتمكّنوا من استخراج كلمةٍ واحدةٍ منه، وقد سُجن عدّة مرّات في زمان هارون وكذلك في زمان المأمون تحت حججٍ مختلفة ترجع كلّها إلى عدم تعاونه مع الجهاز الحاكم. تُوفّي عام ٢١٧ هجري.

(٢) يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسين. شارك في ثورة أبيه ضدّ هشام وبعد شهادته عام ٤٢١ هجري هاجر من العراق إلى خُراسان، وبعد أن تمكّن من جمع أنصار حوله ذهب إلى هارات واستولى عليها لكنّه استُشهد عام ١٢٥ هجري في معركةٍ مع جيش حاكم خُرسان، وبعد أن قُطع رأسه، صُلب جثمانه، وبقي معلّقًا حتّى زمان قيام أبو مسلم الخُراسانيّ.





قيمةٍ في منطق وقيم الإنسانيّة الأصيلة ومعاييرها وموازينها؛ هكذا هي ولاية الطاغوت.

فهل يمكن أن يعيش الإنسان مسلمًا في ذلك الزمن الذي تكون فيه الولاية للطاغوت؟ فماذا تعني حياة المسلم أيّها السيّد؟! أن يعيش الإنسان مسلمًا يعني أن يجعل كلّ إمكاناته وطاقاته وقواه واستعدادته موقوفةً على خدمة اللّه، فيكون ماله وكلّ ما يمتلكه تحت تصرّف اللّه، ويجعل نفسه للّه، وكذلك نشاطه وتحرّكه اليومي فإنّه يكون في سبيل اللّه، بل يكون نومه أيضًا للّه، وفكره وتأمّله كذلك. فهل يمكنكم أن تقدّموا مثالًا على هذا الأمر؟ أجل، يمكننا أن نضرب مثالًا تلك التجمّعات التي تتشكّل بصورة المجتمع والحضارة، أو بصورة الجماعات؛ إنّها في تلك الجماعات المتمرّدة على الأنظمة الطاغوتيّة والتي خرجت منها وتحرّكت وهاجرت إلى اللّه.

المثال الأوّل، هو مثال مجتمع المدينة في زمان حياة النبي، ففي زمن حياة النبي كان مجتمع المدينة مجتمعًا يعيش العبوديّة للّه. لقد كان مجتمعًا مسلمًا، وكانت أيّة خطوةٍ فيه هي خطوة على طريق اللّه. وهناك كان اليهودي والمسيحي تحت حكم الإسلام، وإذا كان له معيشة، فإنّ عيشته كانت عيشةً إسلامية. وفي المجتمع الإسلامي، فإنّ اليهودي الذمّيّ، والمسيحي الذي يكون تحت ذمّة الإسلام أيضًا، سيتحرّكان على طريق الإسلام. فاليهودي يكون يهوديًا على صعيد الأعمال الشخصيّة، لكنّه كعضوٍ في المجتمع يكون مسلمًا، وبهذه الحالة فإنّه سيكون أكثر إسلامًا من ذاك المسلم الذي يعيش في النظام الجاهلي. ففي زمن النبي، كان المال يتحرّك في سبيل اللّه، وكان السيف يتحرّك في سبيل اللّه، وكان





النطق والفكر وكلّ النشاطات المعنويّة تسير على طريق اللّه؛ وكان أي عملٍ يصدر من الإنسان يصبّ في هذا الخطّ، وهكذا كانت المشاعر والأحاسيس. وقد كان الأمر على هذا المنوال في زمان أمير المؤمنين أيضًا، وذلك لأنّ أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، لم يكن يتميّز عن النبي من جهة كونه حاكمًا إلهيًّا ووليًّا للّه، لكنّه قد ورث مجتمعًا سيّئًا، فقد ورث كلّ تلك الاضطرابات والأخطاء، ولو كان النبي مكان أمير المؤمنين وجاء بعد تلك السنوات الخمس والعشرين، فمن المسلّم أنّه كان سيواجه المشاكل عينها التي واجهها أمير المؤمنين. هذا على مستوى المجتمعات.

أمّا على مستوى الجماعات، فيمكننا أن نضرب مثالًا جماعة الشيعة التي كانت تحيط بالأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على مرّ التاريخ حيث كانوا كجماعة واحدة. ومن أجل ضيق البحث والجاسات سأعرض بنحوٍ إجمالي شيئًا من بحث الإمامة وأشير إلى طبيعة العلاقات التي كانت تربط الإمام مع الشيعة، وإلى طبيعة العلاقات التي كانت تربطه بالمجتمع الذي كان يحيط به. لقد كان الشيعة يعيشون بحسب الظاهر في النظام الطاغوتي، لكنّهم بحسب الباطن كانوا يتحرّكون في الجهة المعادية للنظام الطاغوتي تمامًا، مثل تلك الفئة القليلة التي كانت مع الحسين بن علي صلوات اللّه وسلامه عليه في كربلاء. فقد استطاع هؤلاء أن يشقّوا ذلك السيل ويخرجوا منه ويتحرّكوا في الطريق المضادّ لما يريد السيل أن يوجّههم نحوه. بناءً عليه، لدينا بعض النماذج في التاريخ، سواء كان الأمر على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة. أمّا إذا كان الأمر مرتبطًا بالأفراد، فإنّ الفرد لا يستطيع أن يكون مسلمًا بنحوٍ عامّ ثمّ يكون وجوده كلّه وإمكاناته وطاقاته وكلّ قواه واستعداداته تحت أمر اللّه



في الوقت الذي يعيش فيه في ذلك المجتمع الذي تحدّثنا عنه سابقًا وهو المجتمع الطاغوتي، فمثل هذا الأمر ليس ممكنًا بالنسبة للأفراد. ولو أراد الشخص الواحد أن يعيش في البيئة الطاغوتيّة وفي ظلّ النظام الطاغوتي، فإنّه كمسلم سيكون في النهاية على طريق الطاغوت. وهكذا، فإنّ قسمًا من حياته سينتهي إلى عبادة الطاغوت، ولن يتمكّن من أن يكون عبدًا خالصًا للّه.

وقد نُقل في كتاب الكافي حديثٌ شريف وبعدّة ألفاظ، وهذا الكتاب ويُعدّ من أكثر كتب الشيعة اعتبارًا وقدمًا، وقد نُقل هذا الحديث مع اختلافٍ في بعض الألفاظ، ويمكن للسادة أن يرجعوا إليه تحت عنوان كتاب الحجّة، وفيه بحسب الظاهر بابٌ تحت عنوان: من دان اللّه عزّ وجلّ بغير إمامٍ من اللّه.

وهنا ينقل عن الإمام عَلَيهِالسَّلَامُ، الذي بدوره ينقل عن اللّه:

قَالَ اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَأُعَذِّبَنَّ كُلَّ رَعِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ دَانَتْ بِوَلَايَةِ كُلِّ إِمَامٍ جَائِرٍ لَيْسَ مِنَ اللّه وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً، وَلَأَعْفُوَنَّ عَنْ كُلِّ رَعِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ دَانَتْ بِوَلَايَةِ كُلِّ إِمَامٍ عَادِلٍ مِنَ اللّه وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَنْفُسِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً[١].

وما أعجب هذا الحديث، فإنّه يقول إنّ الناس الذين يعيشون تحت ولاية ولي اللّه هم أهل النجاة وإن كانوا في أعمالهم الشخصيّة والخاصّة يعيشون التقصير والقصور والمعاصي أحيانًا. أمّا أولئك الذين يعيشون تحت ولاية الشيطان والطاغوت، فإنّهم

---

(١) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ١، الصفحة ٣٦٧.





أهل التعاسة والعذاب، وإن كانوا في أعمالهم الشخصيّة وفي أمورهم الخاصّة من أهل الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة؛ فما أعجب هذا الأمر! وبالطبع لقد ذكرت أنّه يوجد اختلافٌ في نقل هذا الحديث، لكنّ الاختلاف في العبارات يعطي المعنى نفسه. وأنا أشبّه مفاد هذا الحديث بمن يصعد سيارة قاصدًا نيشابور، فإذا تحرّكَت [السيّارة] نحو هذه المدينة، فإنّه سيصل حتمًا إلى هدفه؛ بخلاف ما إذا تحرّكَت نحو طبس أو قوجان، فمن المسلَّم به أنّه لن يصل إلى هدفه. ولنفترض أنها تحرّكت نحو نيشابور، وهي الهدف المقصود، فسوف يصل المسافرون إلى هدفهم على إحدى حالتين: حالة ظهور الآداب والأخلاق الحسنة بين المسافرين وهي الحالة الفضلى؛ وحالة سوء الخلق وعدم الإحسان وسوء المعاملة؛ والسيارة سوف تصل إلى الهدف وإن كان قد حدث ما لا ينبغي حدوثه أثناء المسير. وطبيعي أنّ للخلق السيئ دوافع وله آثار ونتائج ولكن على المسافرين أن يتحمّلوا كلّ هذا للوصول إلى هدفهم. خلافًا لحركة تلك السيارة التي ينبغي أن توصلك إلى نيشابور لكنّها اتّجهت نحو مسيرٍ آخر، فلن تصل هذه السيارة بمسافريها إلى هدفهم وإن كانت الأخلاقيّة العالية تسودهم، لأنّ طلاقة الوجه والابتسامة والتعامل الأدبي الرزين والاحترام الوافر، لن يغيّر من اتّجاه حركة السيارة، إنّما الذي يغيّر مسارها ووجهتها هو قيام هؤلاء بوجه قائدها. فهؤلاء مؤدّبون رحماء فيما بينهم لكنّهم لن يصلوا إلى الهدف؛ في المثال الأوّل كان القائد أمينًا مخلصًا «إِمَامٍ مِنَ اللّه» لهذا فهو يوصلهم إلى أهدافهم، «وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً».

وإمام المجموعة الثانية لا يهتدي إلى طريق وليس خبيرًا





بمسيره وهو عابد لهواه ورأيه، لقد ضيّع الطريق لعدم وعيه وقدّم هدفه على أهداف الآخرين، ولهذا فأتباعه لن يصلوا إلى هدفهم، وإن كانوا فيما بينهم رحماء مؤدّبون «وَإِنْ كَانَتْ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً»، فهم في النتيجة معذّبون ولن يصلوا إلى الهدف، وعلى كلّ حال، فإنّ المجتمع الذي تحكمه ولاية الطاغوت هو كالسيّارة التي يقودها سائقٌ غير أمين فإن لن يصل بهذا المجتمع إلى هدفه؛ لهذا لن يبقى مثل هذا المجتمع مسلمًا خالص الإسلام وهو يعيش في كنف ولاية الطاغوت، تمامًا كتلك السيارة التي يقودها سائق غير أمين فإنّه لن يصل بهذا المجتمع إلى هدفه.

فماذا يفعلون؟ هنا، تقدّم الآية القرآنية جوابًا وهي بذلك تبيّن لنا ما العمل؛ فيقول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، أي عندما تأتي الملائكة لتقبض أرواح أولئك الذين كانوا يظلمون أنفسهم، والذين ظلموا بذلك مستقبلهم ومصيرهم وكلّ ما يرتبط بهم وها هم الآن في حال الوفاة، تسألهم الملائكة عن وضعهم ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾[2]؟ وأين كنتم؟ يتصوّر الإنسان أحيانًا أنّ ملائكة السماء عندما ترى هذا الوضع الوخيم للإنسان تكون مثل ذاك الطبيبِ أو الجرّاح الذي جاء إليه ذاك الشخص ليجري له عمليّةً جراحيّة فيجد وضعه وخيمًا ويبعث على الأسى والأسف، فيقول له: أين كنت تعيش أيّها الرجل؟ ولماذا أصبح حالك على هذا المنوال؟ فإنّني هنا أستأنس لتعجّب الملائكة من وخامة حال هذا المسكين، ومن سوء ما وصلت إليه روحه ومن تعاسته وعذابه

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٩٧.





الذي ينتظره، فتقول له: أين كنت تعيش أيّها المسكين؟ وأين كنت حتّى ظلمت نفسك إلى هذا الحدّ؟ فها أنت ترتحل من الدنيا، وقد ظلمت نفسك، ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾.

وفي الجواب يقولون: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي إنّنا كنّا نعيش حالة الاستضعاف التي سلبتنا الاختيار، ولهذا يُعبّر عن المستضعفين بتلك الجماعة التي تعيش في المجتمع دون أن تمتلك قرارها، فهي في كلّ سيرها وتحرّكها، بل حتّى في سكونها وفي توجّهاتها، لا تمتلك قرارها؛ ومثلما قلت بالأمس إنّها تذهب نحو حالة وضع الحبل في الرّقاب، مثلما يتّجه المساكين دون اختيارٍ منهم أو إرادة، وهم لا يدرون ما يُفعل بهم أو ماذا يفعلون.

خذوا مثالًا طفلًا في الابتدائيّة - ليس بعمر السبع سنوات، لأنّ أبناء السنوات السبع في هذه الأيّام واعين ومفتحّين ويفهمون هذه الكلمات أكثر - فلنقل ابن أربع أو خمس سنوات، يتركونه في المدرسة أو المكتب، كتلك المكاتب القديمة التي ما زالت في ذاكرتي، حيث عندما كنّا في المكتب وكنّا نريد أن نخرج منه باتّجاه البيت كمجموعةٍ لم نكن نعلم إلى أين نذهب، ما كان أحدٌ من الأطفال يعلم إلى أين يأخذونه، فلربّما يكون هناك شخصٌ مبصرٌ، أو شخصٌ بالغٌ يحمل عصا، وهو يقول لا تذهبوا من هذه الجهة، واذهبوا من تلك الجهة وإيّاكم أن تقعوا أسفل السيّارة، أو اذهبوا أسفل السيّارة! وكأنّه في بعض الأحيان يودّ أن ننزل تحت السيّارة، فما كان هؤلاء الأطفال ليدركوا إلى أين يذهبون، ثمّ وبصورة مفاجئة يجدون أنفسهم قد وصلوا إلى بيوتهم. وهنا نجد أنّه لو أراد هذا المبصر أن يأخذهم قليلًا إلى الشوارع لفعل ذلك، ولا خيار لهم.



والمستضعفون في الأرض هم أولئك الذين ليس لهم علمٌ أو خبر عمّا يجري في المجتمع، ولا يدركون إلى أين تتجّه الأمور ولا يدرون إلى أين يساقون، وحيث إنّهم يتّجهون من هذه النقطة، فإنّهم لن يعرفوا إلى أين سيصلون، ومن الذي يسوقهم، وكيف يمكن أن لا يذهبوا، وإذا لم يذهبوا، فماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا؟ فلا يدركون ذلك من الأساس ولا يتوجّهون، فإنّهم طوال الوقت يطأطئون برؤوسهم إلى الأرض وكأنّهم بلا تشبيه، كحصان الطاحونة. فهذا الحصان يكون مغلق العينين ويكتفي بالتحرّك طوال الوقت، ويستمرّ على هذا المنوال وهو يمشي ويمشي ويدور ويدور ولو قُدّر لهذا الحيوان أن يفهم شيئًا فإنّه ربّما تصوّر نفسه أنّه ينبغي أن يكون قد وصل إلى باريس طالما أنّه مشى كلّ هذه المسافة. حتّى إذا فتح عينيه عند الغروب فإنّه سيجد نفسه في المكان الذي بدأ منه عند الصباح. فهو في الأساس لا يعرف إلى أين ذهب، ولا يفهم كيف كان يتحرّك عندما كان يتحرّك، هؤلاء هم المستضعفون في المجتمع؛ إنّهم أكثرية الجمهور الفاقد للاطّلاع. بالطبع، مثل هذا إنّما يحصل في المجتمعات التي لا تُدار وفق النظام الصحيح، لا في المجتمعات التي تعطي القيمة للجوهر الإنساني، ولا في تلك المجتمعات التي تحترم الإنسان وإرادته وكرامته، ولا في ذاك المجتمع الذي يكون قائده الرسول حيث يقول له القرآن: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1]، رغم أنّ النبي لا يحتاج إلى مشورة الناس، لكنّه أُمر بأن يستشير الناس وأن يعزّهم وأن يعظّمهم ويعطيهم شخصيّة. إذًا، نحن لا نتحدّث عن هذا المجتمع، فلا يمكن أن يوجد فيه مثل تلك

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.





الجماعات؛ لكن إذا كانت المجتمعات تُدار بالنظام الفردي والظالم ووفق النظام الجاهلي وما شاكل، فسوف يكون أكثر الناس فيها من المستضعفين.

فهنا سيقولون: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلقد جرّونا بهذه الطريقة وحملونا ورمونا وداسوا علينا، ونحن لم نفهم، وها نحن الآن في حال الوفاة، هذا هو عذر وجواب المستضعفين؛ فانظروا الآن ماذا ستقول لهم الملائكة في حال ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي إنّنا كنّا من الضعفاء الفاقدين للاختيار والقدرة، لكنّ الملائكة ستجيبهم؛ انظروا كيف أنّ منطق الملائكة يتطابق تمامًا مع منطق الإنسان العاقل بصورةٍ تامّة، فهذا ما يقوله عقل الإنسان أيضًا، وبحسب ما قاله ذاك الشاعر قبل ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة:

به هيچ يار مده خاطر وبه هيچ ديار
كه بر وبحر فراخ است وآدمى بسيار
لا تعتنِ بأي أحدٍ أو تبالي بأي دار
فإن البرّ واسعٌ والبحر والبشر كثر

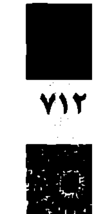
لقد كان الشاعر سعدي يحمل هذه العقيدة التي تحملها الملائكة فملائكة الرّب يقولون: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، أي لماذا حصرتم أنفسكم في هذه البقعة الجغرافيّة؟ ولماذا حصرتم كلّ العالم في هذا المجتمع الذي كان يستضعفكم وتعيشون فيه حالة الاستضعاف؟ لقد كانت أرض اللّه واسعةً بحيث يمكنكم الخروج من هذا السجن والذهاب إلى محلّ الحريّة، هناك حيث يمكنكم أن تعبدوا اللّه، ويمكنكم أن تستخدموا طاقاتكم على الطريق الصحيح، وتعيشوا في تلك المنطقة التي لن



تكونوا فيها مستضعفين؛ ألم يكن أمامكم مثل هذا المكان؟ ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، فهنا يطرح قضيّة الهجرة، وهنا لن يجدوا جوابًا فماذا يقول هؤلاء المساكين؟ لقد كان الكلام والجواب دامغًا، فلم يتمكّنوا من الردّ. يحدّثنا القرآن عن عاقبة ونهاية هؤلاء المساكين بهذا الشكل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، إنّ هؤلاء المستضعفين الذين جعلوا كلّ إراداتهم وطاقاتهم بيد الطواغيت، فإنّ الطواغيت سيسوقونهم إلى جهنّم التي هي المصير السيّئ والعاقبة التعيسة. فهذه هي نهاية المطاف.

وبالطبع، يوجد هنا استثناءٌ واحدٌ. فقد لا يتمكّن الجميع من الهجرة وتخليص أنفسهم من قيود النظام الجاهلي، فالبعض يكونون عاجزين أو من العجّز، والبعض من الأطفال أو من النساء اللاتي لا يمكنهنّ القيام بهذه الهجرة، لذلك فإنّهم سيُستثنون ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾، أي أولئك ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ فلا يمكنهم أن يقوموا بأي عمل ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾، فالطريق أمامهم نحو منطقة النور، ونحو منطقة الإسلام والعبوديّة للّه، لكنّهم لن يهتدوا إلى الطريق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾، فهناك أمل بأن يشملهم عفو اللّه، فانظروا إلى إنّ هذه العبارة هي ما ورد في القرآن، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

وفيما بعد ولكي لا يشعر هؤلاء، الذين توجّه خطاب الهجرة إليهم، أو يتصوّرون بأنّ الهجرة ستكون بالنسبة لهم سببًا للتعاسة والضرر؛ أو يتساءلون عمّا سيحدث لهم؛ وعمّا إذا كانوا سيقدرون أم لا، وعمّا إذا كانوا سيصلون إلى المكان المطلوب أم لا، فهنا يأتي الجواب مباشرةً حيث يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ



﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾[1]. فالأرض واسعةٌ وكثيرة الفرص؛ فيرى عجبًا كيف أنّه يمكنه التحليق في الدنيا، وأنّه يمكن أن يخفق الإنسان بجناحيه في المجتمع الإسلامي، بعدما كان أقصى ما كان يمكنه أن يحلّق فيه هو سقف القفص ذاك؛ فما أوسع تلك الآفاق المترامية. ففي مكّة كان هذا المسكين بالكاد يستطيع أن يصلّي، وإذا أصرّ كثيرًا وعانى الأمرّين ربّما صلّى في المسجد الحرام ركعتين، ثمّ بعد ذلك ينال بسببهما فلقة تشفي الغليل! كان هذا هو أقصى الجهد لأي مسلمٍ في ذاك المجتمع ولا بعد. حتّى إذا هاجر وجاء إلى أرض الحريّة وتنفّس هواء الحريّة في المجتمع الإسلامي وتحت ولاية اللّه ورسول اللّه فيرى عجبًا كم أنّ هذا المكان واسعٌ ومترامٍ! ففيه يتسابقون إلى الخيرات، وهنا تتشخّص وتتحدّد مرتبة الإنسان وفق آيات القرآن وعلى أساس التقوى والعبادة، فكلّ من تحرّك في سبيل اللّه أكثر، وسعى وعبد وجاهد وأنفق، سيكون الأعزّ في هذا المجتمع.

فبالأمس، كان الدرهم الواحد الذي يُنفق في سبيل اللّه في مكّة يعني سوطًا حاميًا وقضيبًا مجمّرًا يلسعه ويؤلمه، أمّا إذا جئت أيّها المسلم في صدر الإسلام وتحرّكت في سبيل اللّه وهاجرت إلى مدينة الرسول فإنّك كنت سترى ما أوسع الآفاق! وكم تمتدّ مضامير السباق! وكم يتّسع فضاء التحليق! وكم يمكن للإنسان أن يخفق بجناحيه ويطير! ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾، والأرض هي التي تمثّل المجتمع الإلهي والإسلامي، وهنا هي كلّ السعة والفرص والفتوحات. فلو أنّك تحرّكت من مكّة كما

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٠٠.



ينبغي وفي سبيل اللّه، وانتقلت من دار الكفر إلى دار الهجرة، ثمّ قبض اللّه روحك وتوفّاك على الطريق؛ فماذا كان ليحصل حينها؟ هنا يقول إنّ أجرك وثوابك سيكون على اللّه، لأنّك قد قمت بما عليك، وقد تحرّكت كما ينبغي، وصدر منك ما كان لازمًا.

به راه باديه رفتن به از نشستن باطل
كه گر مراد نجويم به قدر وسع بكوشم[1]

السير في البادية أفضل من البطالة
فإذا لم أجد مرادي فقد سعيت قدر وسعي

وهذا ما يريده الإسلام، إنّ الإسلام يريد أن يتحرّك الإنسان في سبيل اللّه بقدر قوّته وبالمقدار الذي يتمكّن منه ويستطيعه، هذا هو معنى الاستطاعة.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فلا شكّ ولا ريب أنّ الثواب على عهدة اللّه وفي ذمّة اللّه لكلّ من يخرج من بيته ويموت أثناء الهجرة وعلى طريقها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

التفتوا جيّدًا إلى هذه النكتة فهذا هو آخر أبحاثنا حول التلاوة والقرآن، فأذكر لكم هذه النّقطة ونسأل: إلى أين ينبغي أن تكون الهجرة؟ إنّها تبدأ من دار الكفر، ومن تحت ولاية غير اللّه، ومن تحت ولاية الشيطان والطاغوت، إنّها الهجرة إلى دار الهجرة ودار الإيمان وإلى ظلّ ولاية اللّه وإلى تحت ولاية الإمام. يجب أن يهاجر الإنسان إلى أن يكون تحت ولاية النبي والولي الإلهيّ، فهذه هي الهجرة.

---

(١) للشاعر سعدي.



فإذا لم يكن في العالم منطقةٌ كهذه المنطقة، فماذا ينبغي أن يفعل الإنسان؟ فهل يجوز له أن يبقى في دار الكفر أم أنّ عليه أن يفكّر في إيجاد دارٍ للهجرة؟ ألم يكن النبي نفسه من أولئك المهاجرين؟ أليس كذلك؟ فقد هاجر النبي ولكنّه قبل أن يقوم بالهجرة لم يكن هناك دارٌ لهذه الهجرة تقريبًا، وهكذا أوجد النبي بهجرته هذه الدار.

ففي بعض الأحيان ينبغي أن تبدأ جماعةٌ من الناس نقطة شروع الهجرة بهجرتها هي؛ وهكذا يبدأون عمليّة تأسيس بنيان المجتمع الإلهي والإسلامي ويوجدون دار الهجرة، وعندها يهاجر الباقون إليهم. فالمقصود أنّ كلامنا هنا هو حصيلة الكلام فيما يتعلّق بالهجرة.



لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (قم: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ).
- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار احياء الكتب العربية، الطبعة ١، ١٩٥٩م).
- ابن شعبة الحراني، تحف العقول، تحقيق علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ هـ. ش).
- ابن طيفور، بلاغات النساء (قم المقدّسة: مكتبة بصيرتي، لا تاريخ).
- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق وتدقيق علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- الإمام زين العابدين (ع)، الصحيفة السجّاديّة (قم: مؤسّسة الإمام المهدي (عج)، الطبعة ١، ١٤١١هـ).
- الإمام علي (ع)، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش).
- الحرّ العاملي، وسائل الشيعة (لبنان- بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- الشيخ الحويزي، تفسير نور الثقلين، تصحيح وتعليق السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي (قم: مؤسّسة إسماعليان، الطبعة ٤، ١٤١٢هـ/





١٣٧٠ هـ.ش).
- الشيخ الصدوق، **عيون أخبار الرضا (ع)** (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).
- الشيخ الطبرسي، **الاحتجاج** (النجف الأشرف: منشورات دار النعمان، ١٩٦٦م).
- الشيخ محمّد باقر الكجوري، **الخصائص الفاطميّة**، ترجمة سيّد علي جمال أشرف (انتشارات الشريف الرضيّ، الطبعة ١، ١٣٨٠ هـ.ش).
- صدر الدين شرف الدين، **حليف مخزوم (عمّار بن ياسر)** (دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
- العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م).
- علي أكبر غفاري، **دراسات في علم الدراية** (طهران: جامعة الإمام الصادق (ع)، الطبعة ١، ١٣٦٩ هـ.ش).
- علي بن محمّد الليثي الواسطي، **عيون الحكم والمواعظ**، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجند (دار الحديث، الطبعة ١، لا تاريخ).
- الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ.ش).
- محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (قم: دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ).
- محمّد مهدي شمس الدين، **دراسات في نهج البلاغة** (بيروت: دار الزهراء، الطبعة ٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).
- الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (بيروت: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

الفكر الإسلامي
على ضوء القرآن الكريم

يقدم الكتاب مجموعة الدروس القرآنية التي ألقاها الإمام الخامنئي من على منبر مسجد الإمام الحسن المجتبى (ع) في مدينة مشهد في شهر رمضان المبارك من العام ١٣٥٣هـ.ش. الموافق للعام ١٩٧٤م.

وتتجلّى أهميّة هذا الكتاب بلحاظ الخصائص التي يتوافر عليها، وهي:

- إلقاء الضوء على النتاج المبكر للإمام الخامنئي (ده) قبل الثورة الإسلامية المباركة، فيمكننا بالتالي من خلاله التعرف على نصٍ شكل رافدًا من روافد النهوض الإسلاميّ، ويمكن اعتباره بحدِّ ذاته دعامةً من أجل بناء وعيٍ إسلاميّ أصيل.

- منهجية التفسير المتّبعة والتي تؤكد على إعادة ربط الدين والرؤية المؤسَّسة على القرآن الكريم بالحياة السياسية والاجتماعية للأفراد.

- طرح الموضوعات العقائدية انطلاقًا من عملية بناء المسؤوليّة والالتزام العملي، في سبيل ترسيخ فاعلية الإنسان المسلم، بعيدًا عن المنهجية السائدة في الطروحات العقائدية القائمة على طرح المفاهيم المجردة وحدّها في قوالب النفي والإثبات.

- تقديم منهجية تفسيرية متكاملة، تقوم على أساس جدلية النص والواقع، تؤكد على ضرورة الارتباط بالنص بما هو مصدر التعاليم الإسلامية السامية، وبما يطلبه من الإنسان المؤمن بحقانيته من ديمومة سؤاله ليصل إلى الإجابات الشافية.

هذه الخصائص وغيرها تسمح لنا أن نقول إن هذا الكتاب يشكل بحق أحد أهمّ الركائز النظرية والمؤسسة لرؤى الفكر الإسلامي الأصيل.


ISBN 978-614-440-045-6

